

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفَيْزُ وَالنَّكَاتُ الْخَاصَّةُ

وأثرهما في الشعر الأندلسي

الذَّكْوَد

نافيل فتحي محمد وآل

بمطبعة دار النشر والنشر في تونس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفَيْزُ وَالنِّكَاتُ الْخَاصَّةُ

وأثرها في الشعر الأندلسي

الدكتور

فاضل فتحي محمد والي

دار النشر والنشر

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

دار الأندلس للنشر والتوزيع (ح) ١٤١٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

والي، فاضل فتحي محمد
الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي.
٤٧١ ص، ١٧ X ٢٤ سم

ردمك X - ١٧ - ٧٨٦ - ٩٩٦٠

١- الشعر العربي - نقد - الأندلس أ- العنوان

١٦ / ١٠١٦

ديوي ٨١١، ٦٣٠٠٩

رقم الإيداع : ١٦ / ١٠١٦

ردمك : X - ١٧ - ٧٨٦ - ٩٩٦٠

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

لا يجوز استنساخ الكتاب أو أي جزء منه بأي طريقة كانت سواء بالتصوير
أو بالتخزين أو غير ذلك إلا بإذن خطي من الناشر .



دار الأندلس للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - حائل ت : ٥٣٣٣٣٤١ / ٥٣٢٥٦٤٥ فاكس : ٥٣٢٥٦٤١ ص ب ٢٠١٧
الفرع - الجملة ت : ٥٤٣٠٣٧٣ - النوار - ت : ٥٣٣٣٧٠٠ - برزان ت : ٥٣٢٦٦٦١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى أخي وصديقي الأستاذ الدكتور / محمد صالح الشنطي .

إلى زوجي وأبنائي الأحبة إلى كل أخ وصديق يحب لنا الخير إلى كل محبٍ الأدب ومريديه .

أهدي كتابي الأدبي الثاني

« الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الإنطاسي »

راجياً أن أكون قد أنجزت وعدي ووفيت بعهدي وآمل حسنَ القبول

والله الموفق

د . فاضل والي

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

شكر خاص

أتوجه بخالص شكري وتقديري لابني الأصغر محمد فاضل لتعاونه معي في
مراجعة وتدقيق هذا الكتاب في مرحلته الأخيرة راجياً الله تعالى أن يجعله من جند
اللغة العربية الذائدين عن حماها ... وأن يكون خير خلف لخير سلف ...

والله المستعان ...

د. فاضل فتحي والي

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أستاذ دكتور

محمد صالح الشنطي

رئيس قسم اللغة العربية

بكلية المعلمين في حائل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الهادي الأمين، وعلى آله وصحبه وسلم وبعد :

فها أنذا أشرفُ للمرة الثانية - بكتابة مقدمة المجلد الثاني من كتاب الفتن والنكبات الذي ألفه أخي وصديقي الأستاذ الدكتور / فاضل فتحى والي، وقد وفقى لنا بوعده في المجلد الأول حين عقد النية على كتابة مجلد آخر يتناول « الجانب الخاص » من الموضوع بعد أن عالج الفتن والنكبات العامة وأثرها في الشعر الأندلسي في المجلد الأول، وقد أوكل إليّ مهمة تقديم الكتابين للقارئ، وهذا ما أعتزُّ به، وأعتبره تشريفاً وتكريماً، وإن لم يكن الكتابان بحاجة إلى من يقدم لهما، فمؤلفهما معروف بجديته ودأبه ونشاطه « هكذا أحسبه ، ولأزكي على الله أحداً » .

وجاء المجلد الثاني كما الأول - مستوفياً للموضوع مستقصياً لجوانبه المتعددة متتبعاً لآثاره الشعرية في بطون الكتب التراثية والمعاصرة مصنفاً لشعرائه ، مرتباً لموضوعاته في منهج تاريخي نقدي موضوعي .

وقد أتخفنا المؤلف بروائع الشعر مما كان حصيلة لتلك التجارب المبررة القاسية، والحياة في الأندلس - على الرغم من سخائها ورخائها، وما يحف بها من متع ومجالي الجمال الكوني والطبيعي والبشري - لم تكن نعيماً متصلاً ولا هناءً دائماً، فقد ألمت بها طوارق المحن وعظيم النكبات، وكانت امتحاناً تاريخياً عسيراً لأمة بأسرها، وأجيال بكاملها، وكانت خسارتها خطب الخطوب، ونازلة النوازل، ونهاية المطاف لحقبة حافلة

بالصراعات والإنجازات على حدٍ سواء، ولم يكن المؤلف بمنأى عن دراسة الأدب الأندلسي شغفاً بالبحث وتعلقاً بالدراسة وانجذاباً عاطفياً ووجدانياً بحكم طبيعته الشاعرة ، وعمله المتصل في هذا المجال كأستاذ لمادة الأدب الأندلسي في كلية المعلمين منذ سنين ، وقد أشار إلى أنه كان يزمع أن تكون أطروحته للدكتوراه في الأدب الأندلسي ، ولكن ظروفها حالت بينه وبين ذلك، ثم ساحت الفرصة فاهتبلها ، وحن الحين فجاء اليقين ، وإرادة الله سبحانه وتعالى غلابة ، وأمره نافذ ، فلا راداً لمشيئته .

والكتاب الذي بين يديك فيه السير وفيه العبر ، حافل بالنماذج غني بالشرح والتحليل ، أضفى عليها المؤلف من واسع علمه ، وثاقب نظره ، جاءت مادته مؤطرة في إطارها التاريخي ، منسابة في مجراها الزمني ، ثرية بحقائق التاريخ ودقائق الأسرار ، وتفصيل الوقائع ، حاول المؤلف أن يكون حكماً عدلاً فأعطى لكل شاعر ما يناسبه من مساحة المعالجة ، وحيز الدراسة ، وبعد أن ضرب في آفاق المعرفة توقف في باحة الدرس فلم يوغل ولم يبالغ ، وجاء حديثه موجزاً وافياً بالغرض محققاً للهدف الذي وضع من أجله الكتاب ، فموضوعه جديد والبعد الإنساني فيه رحب وهو ما رأى المؤلف أن التوقف عنده والتوقر عليه أنفع ، فالشعر الأندلسي وخصائصه وموضوعاته قتل بحثاً ودرساً ، أما هذا الموضوع الذي يعتبر مناط الخصوصية ومدخل التميز في الشعر الأندلسي كله فهو ما يستحق أن يستحوذ على الاهتمام ويسترعى الانتباه ، فاحتشد له احتشاداً ، وأقبل عليه إقبال من وقع على بغيته ، ووجد ضالته بعد طول نشدان ، والكتاب (بحق) موسوعة أدبية للشعراء المنكوبين أحاط بهم وحصرهم ، واستنبط خصائصهم ، وتوقف عند روائعهم ، وقدم إضمامة طيبة منها ، يستروح فيها القارئ نبضات قلوب المكلمين ، ومن عظمت بلواهم من شعراء تلك الأصقاع التي صاقت الوطن العربي وتناوت عنه في آن فكانت أنموذجاً للاغتراب الفريد في تاريخ العرب والمسلمين ، وهي حاله متميزة في التاريخ الإنساني فاض عطاؤها الأدبي ، وتوهج عذابها الإنساني ، ومع ذلك ظلت درة لامة في تاج الإمبراطورية العربية الإسلامية لم يخب بريقها ولم ينطفئ لمعانها ، وهذا الكتاب يجلو تلك الحقبة ويجدد ذلك التاريخ فجزي الله عنا مؤلفه خيراً ، وجعل ذلك في ميزان حسناته ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

مقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين، وأستغفره استغفار المذنبين التائبين، وأشهد ألا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ونبيه ورسوله النبي المصطفى الأمين، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ثم أما بعد

إنه لما قدّمت كتابي الأول (الفتن والنكبات العامة وأثرها في الشعر الأندلسي) عقدت العزم على أن أتبعه بحول الله وقوّته برديف له يتمم المسيرة، ويحقق الهدف من وراء مثل هذه الدراسات الأدبية، ورأيت أن ما يجب أن أردفه به لا بد أن يكون بحثاً في الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي، وذلك لما لمستّه إبان انشغالي ببحثي الأول من أن هناك عدداً من شعراء الأندلس قد حلّت بهم نكبات أصابتهم في أشخاصهم دون سائر أفراد المجتمع، فهم قد خصّوا بتلك النكبات دون غيرهم، فمنهم من نكب بالسجن، ومنهم من نكب بالأسر، ومنهم من نفى من وطنه وعانى حياة التشرد والضياع، وبعض الشعراء نكب بموت أبنائه، والبعض الآخر أصابتهم نكبة عاطفية وكل هذه النكبات قد تركت أثرها الواضح في شعر الذين حلّت بهم فعزمت على أن أحص هؤلاء الشعراء المنكوبين بدراسة تهتم بنكباتهم وكشف آثار تلك النكبات في شعرهم شكلاً ومضموناً، وقد أقمت هذه الدراسة على خمسة فصول

تناولت في الفصل الأول الشعراء المنكوبين في عصر بني أمية في الأندلس ،وقد ناقشت في هذا الفصل النكبات التي حلت بخمسة من أبرز شعراء تلك الفترة وهم أبو الخشي عاصم بن زيد ، ويحيى بن حكم البكري الملقب بالغزال ، والوزير هاشم بن عبد العزيز ، وسعيد بن جودي ، وأحمد بن عبد ربه الأندلسي .

وقد أفردت الفصل الثاني لبحث ومناقشة النكبات التي حلت بأبرز شعراء فترة الحجابة العامرية في الأندلس بما في ذلك فترة الضعف والفتنة البربرية في قرطبة ،وقد تناولت في هذا الفصل ما حلّ بكل من : جعفر بن عثمان المصحفي ، يوسف بن هارون الرمادي وأبي عبد الله محمد بن مسعود البجاني ، وأبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري ، وأبي عامر أحمد عبد الملك بن شهيد .

وفي الفصل الثالث ناقشت الشعراء المنكوبين في عصر ملوك الطوائف والذي يبدأ رسمياً قبل انتهاء الفتنة البربرية في قرطبة ،وقد شملت الدراسة في هذا الفصل عشرة من الشعراء المشهورين وهم على الترتيب : أبو عبد الله بن الحنّاط ، وحكم بن محمد البكري ، وابن غصن الحجاري ، وأبو الوليد بن زيدون ، وأبو جعفر اللّمائي ، وابن عمّار ، وابن الحدّاد الأندلسي ، وأبو عيسى لبون بن عبد العزيز ، وابن اللبّانة ، وأبو الحسن الفكّيك .

وفي الفصل الرابع تناولت الشعراء المنكوبين عقيب عصر ملوك الطوائف أي في عصر المرابطين والموحدين ، ثم دولة بني الأحمر في غرناطة وقد شمل هذا الفصل كلاً من : المعتمد بن عباد ، وعز الدولة الصمادحي ، وأبي بكر بن سوار ، وابن خفاجة الأندلسي ، وأبي جعفر بن عبد الملك بن سعيد ، وأبي القاسم البلوي ، وأبي عامر بن الأصيلي ، وأبي الحسن الحصريّ الكفيف ، ولسان الدين ابن الخطيب ، وأبي مروان بن شماخ الغافقي ، وابن الجنّان ، ومحمد بن قسّوم ، وأبي جعفر بن عطية القضاعي .

أما الفصل الخامس فقد خصّصته لدراسة نقدية تتناول أهم الفتن التي ألمت بالشعراء الذين تناولتهم الدراسة تناولاً إجمالياً مبيناً آثارها في الشعر شكلاً ومضموناً ، فكان هذا الفصل بمثابة الإجمال بعد التفصيل ، والتخصيص بعد التعميم وخلال هذا الفصل

عقدت عدداً من المقارنات بين بعض الشعراء للكشف عن تفاوت القدرات في التعبير عن نكباتهم المتشابهة، وكذلك تفاوت الأثر، كما بينت بالطريقة الإحصائية، وبالنسبة المثوية مدى تأثير كل لون من ألوان النكبات التي تعددت وتلونت، ثم ختمت الكتاب بخاتمة بينت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال الدراسة والبحث، وأتبع ذلك بقائمة المراجع والمصادر مرتبة حسب أسماء تلك المراجع، وبعدها فهرس الموضوعات .

ومن الجدير بالذكر أنني رتبت الشعراء المنكوبين في كل فصل حسب تاريخ الوفاة، إلا في الفصل الرابع فقد اضطرب هذا النسق قليلاً نظراً لأن بعض الشعراء قد حلت به النكبة قبل شاعر آخر ، وامتد الأجل به بينما عاجلت الثاني منيته قبله، وهنا فضلت الترتيب حسب تاريخ وقوع النكبة، وهذا لم يحدث إلا مع عدد ضئيل جداً من الشعراء، كما أنه ينبغي أن أشير إلى أنني حرصت على تحليل كثير من القصائد التي كانت نتاجاً للنكبات ، وأتبع هذا التحليل الكاشف بوجهة نظر نقدية حول ما تناوله الشاعر المنكوب من معانٍ ضمَّنَها شعره الذي جادت به قريحته إبان نكبته وبسببها، وفي حالة أخذ الشاعر من غيره، أو اقتفائه أثره حرصت على الإشارة إلى ذلك، هذا وقد نسبت كل رأي إلى صاحبه، وكل قول إلى قائله ، وأشارت إلى المراجع المستقى منها على هامش الصفحات، وبينت كثيراً من معاني المفردات الصعبة في بعض القصائد لإحساسي أن الأمر يقتضيها .

ولا أدعي أنني قد بلغت الكمال، فالكمال لله وحده، كما لا أدعي خلو عملي هذا من الأخطاء، فكل ابن آدم خطاء، ولكن إن هو إلا عمل أقدمه، وجهد أبذله لعلني أضع لبنة في بنيان الأبحاث الأدبية النافعة، راجياً الله أن ينفع به، وأن يهدينا سواء السبيل .

المؤلف

المملكة العربية السعودية - حائل .

يوم الأربعاء ١٩ من ذي القعدة سنة ١٤١٥هـ

الموافق ١٩ من أبريل سنة ١٩٩٥م

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

لَمْ يَخْلُ مِنْ نُوبِ الزُّمَانِ أَدِيبٌ - كَلَّا - فَشَأْنُ النَّائِبَاتِ عَجِيبٌ
وَعَظْمَاءُ الْأَيَّامِ تَأْبَى أَنْ يُرَى فِيهَا لِأَبْنَاءِ الذُّكَاةِ نَصِيبٌ
وَكَذَلِكَ مَنْ صَحِبَ اللَّيَالِي طَالِباً جَدًّا وَفَهَّمَا فَاتَهُ الْمَطْلُوبُ

هذا الرجل قائل هذه الأبيات شاعرٌ وُلد قبل اندلاع الفتنة البربرية في قرطبة بربع قرن تقريباً ، حيث ولد عام ٣٦٨هـ ، وعاش أحداث تلك الفتنة من بدايتها إلى نهايتها ، واتصل بكل من الخليفة سليمان المستعين ، وبالقاسم بن حمود بن ذي النون الملقب بالمأمون ، وهما من الذين حكموا قرطبة إبّان عهد الفتنة البربرية المبيرة بين سنتي ٣٩٠هـ ، ٤٢٢هـ ، وقد عاش هذا الشاعر خمساً وسبعين سنة تقريباً حيث توفي في مدينة طليطلة سنة ٤٤٧ هـ ، وقد اکتوى كغيره بنيران الفتنة ، ورأى ما حلّ بأهل العلم والأدب من ضياع وتشرد ، فكانت أبياته الثلاثة المذكورة آنفاً ترجمة حقيقية لما حلّ بهذه الفئة من مصائب الدهر ، ونكبات الأيام ، وبيانا واقعياً لمخاصمة النعمة وسعة العيش لهم ، وهم أصحاب الفكر المستنير الأمان على عقول الناس ، وتوضيحاً لكيفية رفض الأيام السعيدة أن يكون لهؤلاء فيها نصيب ، لاسيما وأن من شأن طالب العلم المجد في طلبه ، الحريص على تحصيله ، أن ليس لديه الوقت الكافي لطلب المال ، والسعي في الوصول إليه ، والحصول عليه ، أو السعي وراء حظ دنيوي يقتنصه .

بهذه الأبيات الثلاثة وبيان معناها أثرت أن أبدأ حديثي عن نكبات الشعراء الخاصة في الأندلس ، وما حلّ بهم من بلايا ، وأصابهم من فتن كان لها أثرها الواضح في شخوصهم ، وعواطفهم ، مما انعكس انعكاساً واضحاً على أشعارهم ، بل وعلى انتاجهم الفكري على العموم .

وشعراء الأندلس قد أضيروا كثيراً من جرّاء ما حلّ بهم ، وفي كتابنا « الفتن والنكبات العامة » قد تناولنا ما حلّ بكل أهل الأندلس من حكام ومحكومين ، بكل فئاتهم وطوائفهم من (ابتلاءات) وفتن أحرقت بنيرانها الأخضر واليابس ، وأضرّت

بالجميع دون أن تستثني أحداً .

وفي هذا الكتاب الذي آثرت تسميته « الفتن والنكبات الخاصة » سأتناول بتوفيق الله وفضله ،وبعون منه سبحانه - ما أصاب الشعراء على وجه الخصوص من فتن اقتصرت على أشخاصهم فقط دون مساس بسائر فئات المجتمع ، مما أكسبها طابع الخصوصية ،واقصرت نتائجها على من حلت بهم فقط ، وهذه النكبات أو الابتلاءات تنوعت وكثرت أشكالها ، فمن الشعراء من ابتلي باضطهاد وليّ الأمر « الملك ، أو الأمير ، أو الوزير ، أو الحاكم » له والاشتداد في عقوبته ، مما يترتب عليه السجن لفترات تطول أو تقصر حسب الظروف والأحوال ، ومنهم من ابتلي بالطرد من بلده وموطنه ، ملاعب الصبا ، ومراتع الشباب ، فذاق طعم الغربة ، والتشريد ، ومنهم من عوقب بالقتل ، وبعض الشعراء فتنوا في أنفسهم بالمرض المقعد ، أو نكبوا في مآلهم بحرق ، أو سرق ، أو غرق ، أو في أولاده وأهله بفقد وضياح أو موت .. ويمكن أن نعدّ من الفتن فجيعة الإنسان في أحب الناس لديه من صديق أو صاحب .

وكما نرى فإن بعض هذا النكبات والابتلاءات السبب فيها البشر ، وذلك كالسجن والتعذيب ، والنفي أو التشريد ، أو السرقة أو الحريق ، وبعضها لا دخل للبشر فيها بل هي من عظيم صنع الله عز وجل ، وذلك كالمرض المقعد ، أو موت الأهل والأحباب ، فما كان السبب^(١) في وقوعه منها هم البشر ، فهم الذين دبّروا ونفذوا ، لا يعدو أن يكون تدبيراً يحاك خفية ، و ينزل بغتة ، ويعقب فاجعة وسجناً وقتلاً وتشريداً ونفياً ، ومن أسباب هذا النوع من الفتن والنكبات الذي هو من تدبير البشر ما يلي :

١- إحساس ولي الأمر بعلو نجم شخص (ما) وزيراً كان أو كاتباً ، أو عاملاً من عماله ، ممّا يفسح المجال للغيرة لكي تدبّ ديباً إلى قلبه حتى تتحول إلى خوفٍ من ازدياد نفوذه ، واشتداد سطوته ، ثم تتحول الغيرة إلى حقدٍ وضغينة ، فيبادر ولي الأمر إلى القضاء على هذا الشخص أو ذاك ، وذلك كما حدث لأبي خالد هاشم بن عبد

(١) الأسر والسجن في شعر العرب : د . أحمد مختار البرزة ط ١ ص - ٢٤٩ .

العزیز بن ہاشم علی يد الأمير الأموي المنذر بن محمد بن عبد الرحمن ، وكما وقع لأبي الوليد بن زيدون علی يد أبي الحزم بن جمهور حاكم قرطبة وأميرها ، وكذلك ما حل بلسان الدين ابن الخطيب في عهد ملوك بني الأحمر في غرناطة ، وغيرهم وغيرهم من أهل العلم والأدب .

٢- الطمع والرغبة في الوصول إلى أبهة الملك، فكثير من الناس لا يرضى الواحد منهم بما أنعم الله به عليه من المنصب، والجاه، بل يطمع في توسيع دائرة نفوذه، فلا يقنع بكونه وزيراً مقرباً، ولا شاعراً محبباً، ولا معلماً مؤدباً، بل يتطلع إلى كرسي العرش أو الإمارة وسدة الحكم والسلطة العليا، وتاج الملك، ولكل شيء يريقه، وهذا مما يثير حقد النفوس، ويؤلب ولي الأمر عليه فيبادر برصد خطواته، ويعد عليه كلماته، ويتربص الفرصة المواتية للوثوب عليه أو التخلص منه كما حدث لابن عمارة الأندلسي على يد المعتمد ابن عباد .

٣- الرغبة في التوسع بالاستيلاء على ما في يد الغير، فقد يرى أمير أو وزير واحداً من سراًة الناس كشرت أمواله حتى فاق مالدی ولي الأمر، وأصبح له من الضياع والقصور، ومن الحشم والخدم ما يجعله محط الأنظار، ومقصد الطلاب من سائر الأمصار، فتمتلي صدور الحكام عليه حسداً حتى يدفعهم حسدهم إلى تدبير خطة مصادرة تلك الأموال، ويتلمسون لذلك الأسباب، وقد يتعللون بحاجة الدولة إليها لسد نفقات حرب، أو إصلاح سبل، وبدون علة في كثير من الأحيان، فمن الذي يستطيع مقاومة القوة الغالبة، ولا يملك صاحب المال إلا التسليم والاستكانة، وإلا فالسجن هو مكانه الذي ينتظره ليقضي حياته بين جنباته .

٤- الفوضى والاضطراب، وهذا يحدث في عهود الضعف حيث تصاب الدولة بحالة من الانحلال، وتدب فيها الفوضى، ويختل ميزان الأمن، وتنتشر عصابات السطو والسرقة، وقطاع الطرق، ويكثر النهب والسلب والاعتصاب، وفي هذه الأثناء تنهب الأموال،

وتخرب الضياع ،وتهدم القصور ويصاب الناس في أموالهم ، وأبدانهم ،ومن بينهم
أدباء وشعراء ، ووزراء وعلماء ، وسراة وعظماء ، فالفتن نيران حارقة لا تبقي ولا تذر ،
ولا تفرق بين غني وفقير ، وعظيم وحقير ، وأمير وخفير ، فالنقمة إذا نزلت عمّت ،
وهذا ما حلّ بالأندلس وأصابها في حقب مختلفة إبان الحكم العربي الإسلامي عبر
ثمانية قرون من سنة ٩٢ هـ إلى سنة ٨٩٨ هـ .

وقد نكب للأسباب السابقة كثير من الشعراء والعلماء والأدباء ، وفتنوا في أبدانهم ،
وأموالهم ، وفي أهليهم وأولادهم ، وفي أصدقائهم وأحبائهم ، وكان لذلك أثره الواضح في
إنتاجهم الفكري والأدبي بل وفي توجهاتهم ، وهذا ما ستكشف عنه الفصول التالية من
هذا الكتاب بإذن الله ، وتوفيق منه وفضل .

ونسأله سبحانه وتعالى العون ، وأن يمنحنا القدرة على الوفاء بما وعدنا

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الأول

التمهيد المنجوبون

في عصر بني أمية في الأندلس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكن الله الفردوس

الفصل الأول

التتمة من المنهج

في عهد بني أمية بالأندلس

مقدمة : عن عصر بني أمية في الأندلس .

يبدأ عصر بني أمية في الأندلس منذ أن انتصر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، الملقب بعبد الرحمن الداخل على والي الأندلس آنذاك يوسف ابن عبد الرحمن الفهري، واستقام له الأمر سنة ١٣٨ هـ ، ويستمر هذا العصر حتى انتهاء فتنة قرطبة ، وإعلان إلغاء الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ بعد سنوات عجاف شداد نكدات، وقد قُسم العصر الأموي في الأندلس إلى عهديين :

الأول منهما :

عهد الإمارة المتوارثة (١٣٨ - ٣٠٠ هـ) ويبدأ بحكم عبد الرحمن الداخل قرطبة، واستقراره بها، واتخاذها قاعدة لإقامة إمارة تصبح نواة لدولة أموية في الغرب بدلاً من هذه التي أفلتت شمسها في الشرق سنة ١٣٢ هـ، وقد ازدهرت إمارة قرطبة ازدهاراً عظيماً، وتوارث إمارتها من بعد وفاة عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢ هـ أبناؤه وأحفاده من بعده وهم : هشام بن عبد الرحمن، والحكم بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الأوسط) ، ومحمد بن عبد الرحمن الأوسط، ثم المنذر بن محمد، ثم

أخوه عبد الله بن محمد الذي توفي سنة ٣٠٠ هـ .

وقد حرص هؤلاء جميعاً على توطيد دعائم الحكم ، وعملوا على رقي البلاد ، وازدهارها ، كما اهتموا بأن يكون لإمارة قرطبة كيان مستقل ، وأن تتوافر لها سمات ومقومات الدولة القوية المهابة الجانب .

الثاني منهما :

عهد الخلافة الأموية في قرطبة (٣٠٠ - ٤٢٢ هـ) .

في مستهل شهر ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ تولى الإمارة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الأوسط ، وكان يعرف بعبد الرحمن الثالث وكنيته أبو المطرف، وقد ولي الإمارة بعد مقتل جدّه عبد الله بن محمد الذي كان يؤثره على أعمامه لنباهته وشجاعته .

ولما أحسّ عبد الرحمن الثالث ضعف الخلافة العباسية في المشرق، ورأى استبداد الأعاجم بها، حتى لم يعد للعباسيين إلا اسمها فقط ، أعلن نفسه خليفة للمسلمين ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وذلك سنة ٣١٦ هـ، ومنذ هذه اللحظة تحولت الإمارة إلى خلافة واستطاع أمير المؤمنين الناصر لدين الله أن يتغلب على كل المشقات والمخاطر، وأن يدعم مكانة دولته ، وقد ساعده على ذلك طول مدة حكمه، حيث حكم ما يزيد على خمسين سنة، وقد أخذ نيران الفتن، وافتتح الأندلس عوداً كما افتتحها جدّه عبد الرحمن الداخل بدءاً، وجعل قرطبة حاضرة الخلافة مقصداً كل راغب في طلب العلم، وقويت في عهده شوكة الإسلام في الأندلس، وهابه كل الحكام من حوله، وخطبوا وده، وهابوا بأسه، فعاشت الأندلس أسمى عهودها، وأعظم أيامها، وفي عهده ازدهرت العلوم والآداب، وتفنن الشعراء في إبراز ما عندهم .

وفي شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ توفي أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وبويع بالخلافة من بعده ابنه وولي عهده الحكم بن عبد الرحمن الذي لقب بالمستنصر بالله،

وقد نهج الحكم منهج أبيه ، وسار سيرته ، في حكم البلاد، والتعامل مع العباد ،وقد حرص على استمرار الأندلس قوية منيعة، فأكثر من الغزوات، وأمن الثغور، حتى أقبل عليه الملوك والأمراء والحكام يطلبون مهادنته ،ويظهرون له ولاءهم وطاعتهم، واستمرت ولاية الحكم المستنصر بالله حتى سنة ٣٦٦ هـ حيث وافته منيته، فولّي من بعده ابنه هشام بن الحكم المؤيد ،وقد كان صغير السنّ، وفي عصره لمع نجم محمد بن أبي عامر، وكان ذكياً شجاعاً ذا دهاء وطموح لا حدود لهما، وقد دفعه طموحه إلى الحجر على هشام المؤيد لصغر سنه، وتغلب عليه، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلا نادراً، وأمسك بزمام السلطة في يديه، وأصبح هو الحاكم الفعلي في البلاد، وتلقب بلقب الحاجب المنصور، ولم يبق من الخلافة إلا اسمها .. ولذلك يمكن القول : إن عهد الحكم الأمويين الأقوياء قد انتهى بموت الحكم المستنصر بالله وبدأ عهد حكم استبدادي منذ أن احتضن السلطة محمد بن أبي عامر، أعقبته الفتن المبيرة بقرطبة ، وإلى أن أُلغيت في نهايتها الخلافة الأموية نهائياً بإعلان من جماعة العلماء وأهل الحل والعقد في قرطبة برئاسة ابن جهور سنة ٤٢٢ هـ .

وفي عهود الحكام الأمويين من أمراء أو خلفاء، وقعت أحداث واندلعت فتن، وأصيب عدد من الشعراء بالبلاء على يد بعض هؤلاء الحكام، أو على يد وزرائهم أو حكامهم، بل أضر بعض الوزراء أيضاً ، وكانوا من أهل الأدب، وأساطين الشعراء في أبدانهم أو أموالهم أو ذويهم، وكان لذلك أثره البالغ في شعرهم وأدبهم ،وسنعرض في هذا الفصل أشهر الشعراء الذين نكبوا على يد الأمويين أو في عصرهم ، وما حلّ بهم من صنوف البلاء ، وصروف الأيام، وأثر ذلك في شعرهم ، والشعراء الذين سنعرض لهم في هذا الفصل هم على الترتيب التالي :

(١) أبو الخشّي عاصم بن زيد العبادي وابنته حسّانة التميمية

(٢) يحيى بن حكم البكري الجياني (الغزال)

(٣) الوزير هاشم بن عبد العزيز بن خالد .

(٤) سعيد بن سليمان بن جودي .

(٥) أحمد بن عبدربه الأندلسي .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
(أسكنه الله الفردوس)

(١) « أبو المخشي عاصم بن زيد »

التعريف بالشاعر :

هو أبو يحيى عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة بن علقمة بن عندي بن زيد التميمي العبّادي ، ويتصل نسبه بالعبّاد نصارى الحيرة ، وقد دخل والده الأندلس مع جند الشام في أواخر سنة ١٢٣ هـ ، ونزل بمنطقة إلبيرة .

وعلى الأرجح فإن أبا المخشي قد ولد في الأندلس ، ونشأ بمنطقة شوش ، وقرض الشعر صغيراً ، وما زال ينبغ فيه حتى صار شاعراً من ألمع الشعراء في عصره ، وانقطع إلى سليمان بن عبد الرحمن الداخل وأكثر من مدحه (١) .

صفات الشاعر: كان أبو المخشي ذا اقتدار على قول الشعر ، واتسم بالجسارة والجرأة ، وكان صاحب لسان سليط في الهجاء ، يتناول الأعراض في جرأة ، ويوجع بهجائه من لا يوافقه

(١) المغرب لابن سعيد ج ٢ ص ١٢٣ ، نفح الطيب للمقري ج ٤ ص ١٦٧ ، جذوة المقتبس للحميدي ص ٣٧٧ ، الأدب الأندلسي د. هيكمل ص ٩٨ ، تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٨٧ .

من الناس، وقد أشبه في ذلك الحطيئة في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وكان الشعراء بدورهم يجدون في أصله النصراني البعيد مغمزاً يعيرونه به.

نكبة الشاعر وبلاؤه :

انقطع أبو المخشي يمدح سليمان بن عبد الرحمن الداخل، وفي إحدى مدائحه له جاء في قصيدته التي أرسلها بيت يقول فيه :

وليسَ كِمَثْلٍ مَنْ إِنْ سِيمَ عُرْفًا يُقَلِّبُ مُقَلَّةً فِيهِمَا أَرْوَارًا

فظن هشام بن عبد الرحمن الداخل أخو سليمان أن أبا المخشي قد قصد التعريض به من خلال بيته هذا، لأن هشام كان أحول ، فاغتاظ من هذا القول، بالإضافة إلى أنه كانت هناك وحشة بين هشام وأخيه، ولذلك دبر للانتقام من أبي المخشي، فأرسل إليه يستدعيه إلى مدينة (ماردة) التي كان هشام والياً عليها، فأسرع إليه أبو المخشي طمعاً في رَفْده وعطائه، فلما دخل عليه قال له هشام ^(١) : « إن المرأة الصالحة التي هوت ابنها، فقذفتها فأفحشت فيها، قد أخلصت دعاءها لله في أن ينتقم منك، فاستجاب رجاءها، وسلطني لأقتصر لها » .

ثم أمر بقطع طرف لسانه، وسَمِلَ عينيه، فصار الرجل أبكم أعمى، فعظم مصابه وكثرت شكواه في أشعاره، برغم أن عبد الرحمن الداخل قد ضاعف ديته، وعَنَفَ ولده على فعلته هذه، ويقال : إن هشام ندم على فعلته ، وحاول استرضاء أبي المخشي بكل السبل .

أثر النكبة في شعر أبي المخشي :

كما يقال : « رُبَّ ضارة نافعة » فإن الضرر الذي نزل بأبي المخشي كان نفعاً للشعر، حيث تناول أبو المخشي تجربة العمى وفقدان البصر تناولاً لم يسبق إليه من قبل،

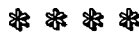
(١) الأدب الأندلسي د. أحمد هيكल ص ٩ .

من الناحية التصويرية الفنية، وترجم أثر العمى بعد الإبصار على صاحبه ومن يعولهم ترجمة أضفت على الموضوع جدةً، وقد عبّر عن هذه التجربة في قصيدة طويلة وصلنا منها الأبيات التالية ^(١) :

خَضَعَتْ أُمُّ بَنَاتِي لِلْعَمَى	إِذَا قَضَى اللَّهُ بِأَمْرٍ فَمَضَى
وَرَأَتْ أَعْمَى ضَرِيرًا إِنَّمَا	مَشِيهِ فِي الْأَرْضِ لِمَسٍّ بِالْعَصَا
فَاسْتِكَانَتْ ثُمَّ قَالَتْ قَوْلَةً	حَاسِرِي، بَلَغَتْ مِنِّي الْمَدَى
فَفُؤَادِي قَرِحٌ مِنْ قَوْلِهَا	مَا مِنْ الْأَدْوَاءِ دَاءٌ كَالْعَمَى
وَإِذَا نَالَ الْعَمَى ذَا بَصِيرٍ	كَانَ حَيًّا مِثْلَ مَيِّتٍ قَدَثَوَى
وَكأنَّ النَّاعِمَ الْمَسْرُورَ لَمْ	يَكْ مَسْرُورًا إِذَا لَاحَ السَّرْدَى

وفي هذه القصيدة يقول ^(٢) :

أَبْصَرْتُ مُسْتَبَدِلًا مِنْ طَرْفِهِ	قَائِدًا يَسْعَى بِهِ حَيْثُ سَعَى
بِالْعَصَا إِنْ لَمْ يَقْدَهُ قَائِدٌ	وَسُؤَالِ النَّاسِ يَمْشِي إِنْ مَشَى
وَإِذَا رَكِبٌ دَنَوْا كَانَ لَهُمْ	هُوَ جَلًّا فِي الْمَهْمَةِ الْخَرَقِ الصَّوَى
لَمْ يَزَلْ فِي كُلِّ مَخْشِي السُّرَى	يَصْطَلِي الْحَرْبَ وَيَجْتَابُ الدُّجَى



مفردات النص : لقد اشتمل النصُّ على بعض المفردات التي تحتاج إلى تفسير قبل

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٨٨ عن نفح الطيب للمقري ج ٤ ص ١٦٧، المغرب لابن سعيد ج ٢ ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) الأدب الأندلسي د. أحمد هيكل ص ٨٧ عن كتاب الإحاطة لابن الخطيب ص ٣٥١ - ٣٥٢.

التحليل والنقد مثل :

استكانت : خضعت وذلك ، حرى : شديدة الحرارة من شدة حزنها
بلغت مني المدى : اشتد تأثيرها في فأحزنتني كثيراً ، فؤادي قرح : أي مصاب
ميت قد ثوى : أي ووري الثرى بعد هلاكه ، الردى : الموت والهلاك
هوَجَلًا : أي يطيئاً ثقيلاً في مشيته ، المهمه : المفازة في الجبل ، الخرق : القفر ،
الصوى : الأراضي الغليظة المرتفعة ، السرى : السير ليلاً ، الدجى : الظلمة .

تحليل الأبيات والتعليق عليها :

عندما نتأمل أبيات أبي الخشبي التي تصور محنته ، وتكشف عن أثر بلائه ونكبته
لا في حياته وحده ، بل في حياة المحيطين به أيضاً ، نرى أن الشاعر قد نجح في تصويره
لتجربته نجاحاً لم يسبق إليه ، وقد ساعده على ذلك الصدق الوجداني ، المنبثق من
العاطفة المتدفقة ، وهي عاطفة حزينة باكية أججت المحنة ، وأشعلت أتونها النكبة ، وتأجج
العاطفة هو أول خطوات التجربة الشعرية الناجحة التي يعلي من شأنها الشعور الصادق
الذي يمكن الشاعر من التأثير في القارئ والسامع لشعره ، وتوافر الشعور الصادق يساعد
على حسن اختيار الأسلوب المناسب لترجمة العاطفة إلى أفكار تجسدها ، ثم انتقاء
الصورة التعبيرية الصادقة التي تبرز تلك الأفكار إلى حيز الوجود .

وقد استخدم أبو الخشبي التعبير الموحى استخداماً فنياً جيداً ، حيث تحدّث عن محنة
فقد بصره بطريق غير مباشر دون مبالغة أو تهويل ، وإنما ركّز على أثر تلك المحنة على
زوجه وأم بناته ، وعلى هؤلاء البنات اللائي لا عائل لهنّ سواه ، حيث أخضعتهن المحنة
للعدا ، وحولتهن من العز إلى الدلّ ، وخيم على قلوبهنّ الحزن الشديد لمصاب عائلتهن
هذا الحزن الذي تحول إلى نار مشتعلة في تلك الصدور ، فانعكست حرارته عليه ، وانتقل
لهيبه إليه ، فتألم ألماً بلا حدود ، وحزن حزناً غير محدود ، حتى تقرّح فؤاده لسماعه قول
زوجته :

« مامنَ الأدواءِ داءُ كالعمى »

ويعلل لهذا الحكم الذي أصدرته زوجته في صورة زفرة حزن من زفراتها الحارة بقوله:

وَإِذَا نَالَ الْعَمَى ذَا بَصَرٍ كَأَن حَيًّا مِثْلَ مَيِّتٍ قَدْ ثَوَى
وَكَأَنَّ النَّاعِمَ الْمَسْرُورَ لَمْ يَكْ مَسْرُورًا إِذَا لَاحَ السَّرْدَى

فهذان البيتان يجسدان محنته بتجسيدا مؤثرا، فالعمى يحول الحياة من الحركة إلى السكون، ومن الانطلاق إلى الكمون، فيصبح قيدا ثقيلا على من حل به، إذ يحوله إلى شبه ميت لا حراك فيه، كما أن العمى ينسي صاحبه حياته السابقة عليه، فلا يشعر بما كان فيه من سعادة، وما مر به من متعة ونعيم وسرور، وتتحول حياته إلى بؤس وشقاء.

ثم يكشف الشاعر عن جوانب التحول في حياة من أصيب بالعمى بعد الإبصار، إذ يصبح محتاجا إلى قائد يقوده، فيتجه حيث يتجه قائده، وهذا كناية عن فقدانه حرية الحركة، وإن لم يكن له قائد حي يقوده كانت العصا هي التي تقوده، وبالدّل من أصابه العمى بعد أن كان بصيرا، حيث يضطر إلى سؤال الناس المعونة، ليعطف عليه صاحب قلب رحيم فيقوده إلى وجهته، يعبر به طريقا، أو يكشف له جهة ينبغي الوصول إليها ...، وإذا سار في ركب أو جماعة فإنه يتحول إلى معوق لهذا الركب، ومعتّل للجماعة التي يصحب أفرادها عن الوصول إلى غايتهم في الوقت المناسب، حتى وكأنهم يسرون في أرض وعرة غليظة مليئة بالمفاوز، والوهاد، تكتنفها الصخور، مما يجعل مصاحبه في حالة ضجر منه، يتحملونه والغيط يملأ قلوبهم، ويسرون معه كارهين لصحبته وهذا أمر يحس به الأعمى فيملأ جوا نحه الأسى والألم، لشعوره أنه صاحب ثقل الدم غير مرغوب في صحبته .

ولم يقف الشاعر عند هذا الحد، بل صور الحالة النفسية القلقة للأعمى الذي

ضاع بصره، حيث جعله يعيش عالماً نفسياً يملأه الخوف، وكأنه في ليل بهيم دائم لا صبح له .

وجهة نظر نقدية :

على ضوء تحليل الأبيات التي صوّرت محنة أبي المخشي ونكبته ومحتته نقول :

* إن الشاعر قد نجح في عرض محتته عرضاً قوياً مؤثراً ومعبراً .

* كان اختيار الشاعر للأسلوب الموحى اختياراً موفقاً حيث إن ذلك أقوى من أن يجعل الحديث مباشراً .

* الموضوع جديد، والتجربة جديدة أيضاً ، حيث لم يسبق إليها الشاعر، ومن سبقه من الشعراء بالحديث عن العمى اكتفى بالأسلوب الخبري الذي يأتي عرضاً في أشعارهم، وبصورة مقتضبة لا تصور محنة، ولا تكشف أثراً لبليّة، أما أبو المخشي فقد أفرد تجربته بالحديث حديثاً مؤثراً .

* جاءت أبيات الشاعر في صورة فنية مجوّدة شكلاً ومضموناً، وقد ساعد على ذلك قوة عاطفة الشاعر التي تولّدت عن جرحه الغائر في أعماق نفسه، فحديثه قد خرج من قلبه ليسكن قلوب الآخرين .

* كأنني بالشاعر يرغب في الانطلاق، وكأنه كره القيود، ولسان حاله يقول : « كفاني قيد العمى » فأطلق قافيته، كما تخلص من قيد الروي فلم يلتزم رويًا واحداً.

* كشف الشاعر أثر محتته من كل الجوانب، فكشف عن أثرها في شخصه نفسياً وبدنياً وسلوكياً، وكشف عن أثرها في زوجه وبناته وأثرها في من يصحبهم ويصحبونه، ثم حرص على تعميق الأثر النفسي للعمى الذي أصبح ملازماً له ، وأصبح كمن يعيش في دياجير ظلام مدّلهمّ دائم، يتملكه رعب قاتل، وخوف مميت، فجمع بذلك بين التصوير النفسي، والتصوير الحسي ببراعة واقتدار .

هذا ويبدو أن الشاعر قد عاش بقية حياته في همٍّ دائم، وغمٍّ مستمر برغم عطف عبد الرحمن الداخل وأولاده عليه عطفاً مستمراً، وهاهو يصور همومه وغمومه، ويشكف عن مقاساته الدائمة بسبب ما حلَّ به في بيتين قالهما في أواخر حياته، وفيهما يصور عجزه بعد مأساته وشيخوخته، وتحوله إلى عالةٍ على زوجه العاجزة بدورها، والباكية دائماً ما كان من أمرها وأمر زوجها ، وفي هذين البيتين يقول ^(١) :

أُمُّ بَنِيَّاتِي الضَّعِيفُ حَوِيلُهَا تَعُولُ أَمْرًا مِثْلِي وَكَانَ يَعُولُهَا
إِذَا ذَكَرْتُ مَاحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا بَكَتْ تَسْتَقِيلُ الدَّهْرَ مَا لَا يُقِيلُهَا

وختلاصة القول :

إن محنة أبي المخشي أثرت في شعره أوضح تأثير، فقد أفلح عن الهجاء وتحول إلى شاعرٍ بكاءً، دائم الشكوى، يحس دائماً بالعجز، وعلى الرغم من هذا فقد ظل حريصاً على الإجادة، متمسكاً بالملاحم العربية الأصيلة التزاماً بنهج وسنن القدماء من شعراء المشرق، وحرصاً على الاتجاه المحافظ، كما أنه يعدُّ من الرعيل الأول من الشعراء المجددين في الشعر الأندلسي، خصوصاً غرضه لتجربة فقدان البصر، وأثرها، كما أنه يميل إلى تغليب العاطفة، مما يجعل تأثيره في المتلقي قوياً .

ولقد توفِّي أبو المخشي في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الذي تولى الإمارة ما بين عامي ١٨٠ - ٢٠٦ هـ .

وقد ورث الشعر عنه إحدى بناته، وهي حسّانة بنت عاصم المشهورة بحسّانة التميمية، وكانت من الرعيل الأول من شاعرات الأندلس، بل يمكن القول : إنها أول شاعرات الأندلس، وقد وفدت على الحكم بن هشام بعد وفاة أبيها تنعيه إليه، وتطلب حمايته كما تستميج فضله وعطاءه، وفي ذلك أنشدته قولها ^(٢) :

(١) تاريخ فتح الأندلس لابن القوطية ص ٣٦ ، الأدب الأندلسي د. أحمد هيكل ص ١٠٠ .
(٢) نفع الطيب للمقري ج ٤ ص ١٦٧ - ١٦٨ ، والأدب الأندلسي د. مصطفى الشكعة ص ١٢٢ - ١٢٣ .

إِنِّي إِلَيْكَ أبا العاصي مُوجَعَةٌ
 قَدْ كُنْتُ أَرْتَعُ فِي نِعْمَاهُ، عَاكِفَةٌ
 أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي انْقَادَ الْأَنَامُ لَهُ
 لَا شَيْءَ أَخْشَى إِذَا مَا كُنْتُ لِي كُنْفًا
 لَا زِلْتُ بِالْعِزَّةِ الْقُعْسَاءِ مُرْتَدِيًا
 أَبَا الْمُخْشَى، سَقَتْهُ الْوَائِفَ الدَّيْمُ
 فَالْيَوْمَ آوِي إِلَى نِعْمَاكَ يَا حَكَمُ
 وَمَلَكْتُهُ مَقَالِيدَ النُّهَى الْأُمَمُ
 آوِي إِلَيْهِ، وَلَا يَعْرِوْ لِي الْعَدَمُ
 حَتَّى تَذِلَّ إِلَيْكَ الْعُرْبُ وَالْعَجَمُ

وقد أكرم الحكم وفادتها ، وكتب إلى عامله على (البيرة) بأن يجرى لها راتباً مستديماً ، ولما مات الحكم أبطل عامله جابر بن لبيدة والي (البيرة) ما كتب به الحكم لحسانة بخط يده ، من تحرير أملاكها ، والبر بها ، وإكرامها ، فتوسلت إليه بخط الحكم فلم يستجب لها ، فرحلت شاكية باكية متوجهة إلى الإمام عبد الرحمن بن الحكم ، فأقامت بفنائها ، وتلطفت مع بعض نسائه ، حتى أوصلتها إليه ، وهو في حال طرب وسرور ، فانتسبت إليه فعرفها ، وعرف أباهما ثم أنشدته^(١) :

إِلَى ذِي النَّدَى وَالْمَجْدِ سَارَتْ رَكَائِبِي
 لِيَجْبُرَ صَدْعِي إِنَّهُ خَيْرُ جَابِرٍ
 فَإِنِّي وَأَيْتَامِي بِقَبْضَةٍ كُفِّهِ
 جَدِيرٌ لِمَثَلِي أَنْ يُقَالَ مَرْوَعَةٌ
 سَقَاهُ الْحَيَا لَوْ كَانَ حَيًّا لَمَّا اعْتَدَى
 أَيْمَحُو الَّذِي خَطَّتْهُ يُمْنَاهُ جَابِرٌ ؟
 عَلَى شَحْطِ تَصَلَّى بِنَارِ الْهَوَاجِرِ
 وَيَمْنَعُنِي مِنْ ذِي الظَّلَامَةِ جَابِرٍ
 كَذِي رِيَشٍ أَضْحَى فِي مَخَالِبِ كَاسِرٍ
 لَمَوْتِ أَبِي الْعَاصِي الَّذِي كَانَ نَاصِرِي
 عَمَلِي زَمَانٌ بَاطِشٌ بَطِشٌ قَادِرٍ
 لَقَدْ سَامَ بِالْأَمْلَاقِ إِحْدَى الْكِبَائِرِ

فأثارت حسانة بشكواها الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، حتى إنه قد أمر فوراً بعزل جابر بن لبيد ، ورد على حسانة كل ما خط به أبوه لها من قبل ، وزاد عليه ، وذلك بعد أن قبل خط أبيه قائلاً : حسينا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ، فانصرفت

(١) نفح الطيب للمقري ج ٤ ص ١٦٨ ت د. إحسان عباس .

حسنة جزلة مسرورة ، وبعثت إليه بقصيدة تمدحه وتشكره فيها ومنها (١) :

ابن الهشاميين خير الناس مآثرة وخير منتجع يوماً لرواد
إن هز يوم الوغى أثناء صعدته روى أنا ييبها من صرف فرصاد
قل للإمام أيا خير الورى نسباً مقابلاً بين آباء وأجداد
جودت طبعي ولم ترض الظلامة لي فهاك فضل ثناء رائح غاد
فإن أقمت فني نعماك عاطفة وإن رحلت فقد زودتني زادي

وهكذا ترى أثر ما حدث لأبي المخشي لم يقتصر عليه، بل انسحب على أهل بيته -
زوجه وبناته - ، ولكن ابنته حسنة التميمية قد استطاعت أن تستثمر الموقف أفضل
استثمار بسبب ما تمتعت به من شاعرية ورثتها عن والدها .

وشعر حسنة فيه مسحة شرقية ميزته بالفصاحة التي لم تبعده عن الرقة والجودة في
العرض، فقد أحسنت عرض قضيتها بأسلوب مؤثر في الحالتين، في عرضها بداية على
الأمير الحكم بن هشام، ونهاية في حال عرضها على ابنه عبد الرحمن بن الحكم ،
ولذلك استأثرت بعطفهما، فوفقا إلى جانبها، حتى إن عبد الرحمن أمر بعزل عامله الذي
ظلمها ، ودفعها إلى الشكاية .

وعن شعر حسنة يقول د. أحمد هيكल (٢) : « شعرها كما يبدو مزيج من الرثاء
والشكوى والمدح، وطلب العون، وهو على جانب كبير من النضج الفني، كما أنه يتسم
بالتجويد الفني، وبالتركيز العاطفي، وهذا لا يأتي مصادفة، ولا تندب به طبيعة شاعر عادي،
وقد أحسنت استخدام الألفاظ والتلاعب بها كما في قولها:

(١) نفع الطبيب للمقري ج ٤ ص ١٦٨ ت د. إحسان عباس .
(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة د. أحمد هيكل ص ١٠٩ .

لِيَجْبِرَ صَدْعِي إِنَّهُ خَيْرٌ جَابِرٍ وَيَمْنَعُنِي مِنْ ذِي الظَّلَامَةِ جَابِرٍ
كما أجادتُ رسمَ الصور الرائعة التي تأسرُ اللُّبَّ ، وتثير العواطف عندما أرادت أن
تكشف عن فداحة الظلم الذي أنزله بها جابر بن لبيد ، وكيف أنها وأيتامها ضعاف
لا حول لهم ولا قوة ، ويظهر ذلك في قولها :

فإِنِّي وَأَيْتَامِي بِقَبْضَةِ كَفِّهِ كَذِي رِيَشٍ أَضْحَى فِي مَخَالِبِ كَاسِرٍ
وتأمل كيف استثارتُ الأمير عبد الرحمن بذكاء ، ولباقة ، وأظهرت ما فعله جابر بن
لبيد على أنه جرمٌ فظيع ، وكبيرة لا تغتفر ليس في حقها وأيتامها بل في حق الأمير
ووالده حيث ساقَت أسلوب الاستفهام الإنكاري ، وأتبعته بأسلوب خبري يؤكد هذا
الانكار وذلك في قولها :

أَيَمْحُو الَّذِي خَطَّتْهُ يَمْنَاهُ جَابِرٌ ؟ لَقَدْ سَامَ بِالْأَمْلَاكِ إِحْدَى الْكِبَائِرِ ! .

وقد كان حديثها صادقاً أصيلاً ، تكتنفه عاطفة قوية ، لأنها تعرض قضيتها وتحاول
كسب الجميع إلى جانبها ، مظهرة ضعف الأرملة أم الأيتام ؟

رَفْعُ
عبد الرحمن (النجدي)
(أسكنه الله الفردوس)

(٢) «يَحْيَى بْنُ حَكَمٍ الْبَكْرِيُّ الْجَيَّانِي» (الغزال)

التعريف بالشاعر :

من الشعراء الذين ذاقوا مرارة انقلاب الحكام عليهم، حتى امتحنوا في أنفسهم ، وهددوا في سربهم ، يحيى بن حَكَمٍ البكري الجياني، وأصله من جَيَّان ، ويلقب بالغزال لوسامته وظرفه ، وكان مولده في نحو سنة ١٥٤هـ ، وقيل سنة ١٥٦ هـ ^(١) ، وكان عمره حين توفي الأمير عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢هـ ستة عشر عاماً، ثم شهد من بعده عهود أربعة من أمراء بني أمية من أبناء وأحفاد الداخل هي كما يلي : عهد هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠ هـ) ، ثم عهد الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) ، ثم عبد الرحمن بن الحكم - الأوسط - (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ، وصدرأ من إمارة محمد ابن عبد الرحمن، وقد ذكر ذلك في أرجوزته التاريخية فقال .

أدركتُ بالمِصْرِ مُلُوكاً أربعة وخامساً هذا الذي نحن معه

(١) انظر في ترجمته وأخباره ما يلي : نفع الطيب للمقري ت د. احسان عباس ج ٢ ص ٢٥٤-٢٦٢ ، المطرب ص ١٢٣ وبغية الملتبس ص ٢٥٨ ، وجذوة المقتبس ص ١٨٦ ، والأدب الأندلسي د. أحمد هيكال ص ١٥٣-١٦٦ ، تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ١١٥ ، تاريخ الأدب الأندلسي « عصر سيادة قرطبة » د. احسان عباس ص ٧ .

وأقام يحيى في قرطبة حتى تُوفي في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٥٠هـ بعد عمر قارب المائة سنة ، وكان من سمات الغزال أنه كان لبقاً حسن الحديث، ذكياً حسن التصرف، كما عرف عنه أنه كان أديباً وشاعراً مطبوعاً صاحب بدبهة قوية .

محنة يحيى بن حكم الغزال :

كان بعض أمراء الأندلس، وغالباً هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم قد ولي يحيى ابن حكم الجياني قبض الأعشار، وهي - الضرائب المفروضة على الأراضي من قبل الدولة -، وأمره باختزانها للإنفاق منها عند الحاجة، فتصادف أن قلَّ الطعام في سنة ما، لبُخل السماء بمائها، وجود الشمس بحرّها ، ولذا ارتفعت الأسعار، فباع يحيى بن حكم ما تحت يده من حاصلات مختزنة، واستبدل بها نقوداً، ثم نزل المطر، ورخص الطعام، فلما علم الأمير بما فعله الغزال أنكر عليه ما فعل وقال : « إِنَّمَا تُعَدُّ الْأَعْشَارُ لِنَفَقَاتِ الْجَنْدِ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهَا فِي الْجَهْدِ، فَمَاذَا صَنَعَ الْخَبِيثُ ؟ ! خَذَوهُ بِأَدَاءِ مَا بَاعَ مِنْ أَثْمَانِهَا، وَاشْتَرَوْا بِهِ طَعَاماً » وَأَبَى الْغَزَالُ أَنْ يَدْفَعَ ثَمَنَ مَا بَاعَهُ، وَقَالَ : « إِنَّمَا أَشْتَرَى لَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ عَدَدَ مَا بَعْتُ مِنَ الْأُمْدَادِ » فَأَمَرَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطُ بِحَمْلِهِ مَقِيداً وَسَجَنَهُ فِي قَرْطَبَةَ حَتَّى يُؤَدِّيَ مَا عَلَيْهِ تَنْفِيذاً لِمَا أَمَرَ بِهِ الْأَمِيرُ .

أثر النكبة في شعر الغزال :

لما نُفِذَ حكم السجن، واستقر المقام بِيَحْيَى بن حكم في سجن من سجون قرطبة ورأى أنه من الأجدى له والأنفع، أن يسترحم الأمير ويستعطفه، ويعتذر إليه لعله يصفح عنه، لأن حياة السجن لا تطاق، فليس هناك أقسى علي الإنسان من أن يعيش رهن القيود بين هواة الإجرام ومحترفيه، فبادر الغزال الذي لم يطق القيود إلى مخاطبة الأمير عبد الرحمن الأوسط بقصيدة طويلة قال فيها (١) :

بَعْضُ تَصَايِيكَ عَلَى زَيْنَبٍ لَا خَيْرَ فِي الصَّبْوَةِ لِلَّ شَيْبٍ

(١) المطرب لابن دحية ص ١٣٣ - ١٣٦ ، الأدب الأندلسي د. أحمد هيكل ص ١٥٤ .

أَبْعَدَ خَمْسِينَ تَقَضَّيْتَهَا ، وَأَفَيْسَةً تَصْبُو إِلَى الرَّبِّ ؟ !

ثم انتقل من هذا المطلع الغزلي إلى مدح الأمير عبد الرحمن قائلاً :

الْوَارِثَ الْجَدَّ أَبَا عَنْ أَبِ	مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي إِمَامَ الْهُدَى
قَصَدْتُ فِي الْقَبُولِ فَلَمْ أَطْنَبِ	أَنْتِي إِذَا أَطْنَبَ مُدَّاحُهُ
أَذْكَرْتَنَا مِنْ عُمَرَ الطَّيِّبِ	لَا فَكُّ عَنِّي اللَّهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ
إِلَيْكَ قَدْ حَنَّا إِلَى الْمَغْرِبِ	وَأَصْبَحَ الْمَشْرِقُ مِنْ شَوْقِهِ
إِلَيْكَ بِالسَّهْلِ وَبِالْمَرْحَبِ	مَنْبَرُهُ يَهْتَفُ مَنْ وَجَدَهُ
وَكُنْ مِنْ قَبْلِكَ لَمْ يَطْرَبِ	أَطْرَبَهُ الْوَقْتُ الَّذِي قَدَدْنَا ،
طَارَ لَوَافِي خَطْفَةِ الْكُوكَبِ	هَفَاً بِهِ الْوَجْدُ فَلَوْ مَنْبَرُ
لَيْسَتْ لِحَامِي الْغَابَةِ الْمَغْضَبِ	إِلَى جَمِيلِ الْوَجْهِ ذِي هَيَّةِ
إِلَّا التَّمَاحِ الْخَائِفِ الْمَذْنَبِ	لَا يُمَكِّنُ النَّاطِرُ مِنْ رُؤْيَا

ثم ينتقل بعد المدح الذي أراد به أن يستميل قلب الأمير ، ويزيل ما به من وجد عليه ، ويخفف من غلوائه ، إلى تبرير فعلته فيقول :

لَمْ أَجْمَعْ الْمَالَ وَلَمْ أَكْسِبِ	إِنْ تُرِدِ الْمَالَ فَـإِنِّي أَمْرُ
تَلْتَمِسُ الرِّيحَ وَلَا تَرْغَبِ	إِذَا أَخَذْتَ الْحَقَّ مِنِّي فَلَا
إِنْ كَانَ رَأْسُ الْمَالِ لَمْ يَذْهَبِ	قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْنَا مَعَا

وقد ترتب على هذه القصيدة أن عفا عنه الأمير ، وقربه إليه مرة أخرى ، بل وولاه مهاماً جلية ، من أخطرها سفارته إلى الملوك المجاورين .

تحليل القصيدة :

بدأ الغزال قصيدته بداية غزلية على عادة الشعراء العرب منذ القدم، وذلك ليحرك مشاعر سامعه بما يطرِب، ويهيمُّ سمعه وذهنه لتقبل ما يأتي بعد ذلك بقبول حسن، ولذلك عمد يحيى إلى تغليف مقدمته الغزلية بروح الفكاهة المعهودة فيه، وخصَّص الغزال لاستهلاله الغزلي الفكاهي البيتين الأولين، ثم انتقل إلي مدح الأمير واصفاً إياه بصفات عديدة منها ما هو ديني مثل كونه إمام الهدى، وأنه يذكّر في عدله بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومنها ما هو دنيوي مثل كونه صاحب مجد موروث عن الآباء والأجداد، أي إن مجده متأصل فيه، والمقصود بالمجد العظمة وأبهة الملك وجلاله، ثم أشار إلى حُب الناس للأمير شرقاً وغرباً بل جعل الشرق يحنّ حيناً جارفاً، ويشتاق شوقاً عارماً إلى الغرب لوجود الأمير المحبوب به، وكأنني ييحيى أراد أن يشير الأمير بأن الله سيطوي المشرق والمغرب تحت جناحيه، وهو بذلك يحرك في نفسه أمنية تصبو إليها نفس كل أموي من أيام عبد الرحمن الداخل، وهذه لمحة ذكية جداً من الغزال، حتى أنه صور للأمير الأمر على أن منبر المشرق يتحرق لهفة على صعود الأمير عبد الرحمن عليه، وقد اقتربت هذه اللحظة، وهذا ما أطرب منبر المشرق، ولو كان الأمر بيد هذا المنبر لطار بسرعة الكوكب الخاطفة إلى الأمير الذي يتصف بجمال الوجه، وأنه صاحب هبة وجلال، لا يتوافران للأسد المغضب (أي الغضبان لحق ويحق) لدرجة أنه من شدة هيئته لا يستطيع أحد أن ينظر إلى وجهه المشرق الوضاء إلا اختلاساً، ويلمحة خاطفة لا إطالة فيها.

وبعد هذا المدح الذي يلين القلوب الصلدة ينتقل الغزال بلباقته المعروفة إلى لبّ المشكلة، ويعرضها في إيجاز، فإنّ وقت الملوك لا يتسع للإطناب والإطالة، ولذا جاء عرض الغزال بسيطاً جداً

يا أميري المحبوب إن كنت تريد مني مالاً فلا مال عندي، لأنني لم أعتدّ جمع المال في حياتي، ولم أسع يوماً إلى كسبه للاختزان أو الادخار، وها أنذا أضع بين

يديكم ثمن كل ما بعت من الطعام، ولي رجاء هو ألا تلتمس مني ربحاً فوق رأس المال، فليس لدي ما يعين على الأداء وبأسلوب فكاهي يداعب الأمير قائلاً : وعلى كل من فضل الله عليّ كليناً أن رأسي المال الأصلي الذي يمثل ثمن الطعام المباع لم ينفق ولم يضع لأنني امرؤ مبذر متلاف للمال ، ولكن الحمد لله على نعمته فقد أحسن إلينا جميعاً بأن حماه من إتلافي ، ووقاه شرّ تبذيري، فشيء أفضل من لا شيء .

والتأمل في قصيدة الغزال يحس روح الفكاهة والمرح تطل من بين ثناياها، كما أنه لم يظهر خضوعاً ولا خنوعاً ولا تذلاً، كما فعل غيره من الشعراء الذين كادوا أن يقبلوا الأقدام عند اعتذارهم، واستمache إعدارهم والعفو عنهم، ولكن الغزال مهّد بأمر يدخل السرور على نفس السامع ويفلّ حدة غضبه وهو الغزل المدعّم بالفكاهة .

ثم مدح بما يطرب ويهز الأعطاف، ويحرك الوجدان، ويسوق البشريات وأطال في المدح وتوقف عنده أكثر من توقفه عند الغزل أو عند عرض المشكلة ، وكأنني به لما أحس أنه سيبلغ بما مدح به قلب الأمير بادر بعرض قضيته بإيجاز .. ولنا عودة عند إبداء وجهة النظر النقدية — إلى حديث تلك القصيدة مرة أخرى .

محنة ثانية ليحيى بن حكم :

إن المحنة التي امتحن بها يحيى هذه المرة محنة نفسية أكثر منها بدنية، وهي أنه بعد أن عفا الأمير عبد الرحمن عنه، أسند إليه مهمة السفارة، وأرسل به سفيراً إلى الممالك المجاورة، وذلك لعقد المعاهدات، وتوثيق العلاقات، وتكرّرت أسفاره، وفي إحدى رحلاته مع جماعة كان منهم العالم الأندلسي يحيى بن حبيب ركبوا البحر، وأثناء الرحلة هاج البحر فجأة، واشتدت العواصف، وارتفع الموج حولهم من كل جهة، وأحذق بهم الخطر من كل جانب، وأصبحوا جميعاً بين الحياة والموت، وفي هذا الموقف العصيب تتجلى شاعرية الغزال فيقول معبراً عن الموقف الخيف المرعب ^(١) :

قَالَ لِي يُحْيِي وَصَرْنَا	بَيْنَ مَـوْجٍ كَالْجِبَالِ
وَتَوَلَّوْنَا رِيَّاحَ	مِنْ دُبُورٍ وَشَمَالِ

(١) المطرب : ١٣٩ - ١٤٠ ، جذوة المقتبس ص ٣٥٢ ، نفح الطيب للمقري ت د . احسان عباس ج ٢ ص - ٢٥٩

شَقَّتْ الْقَلْعَيْنِ وَانْبَتَتْ عُرَا تِلْكَ الْحُـ____بَالِ
وَتَمَطَّى مَلِكُ الْمَوْتِ إِلَيْنَا عَنْ حِيَالِ
فَرَأَيْنَا الْمَوْتَ رَأَى الْعَيْنِ حَالاً بَعْدَ حَالِ
لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ فِينَا يَارَفِيقِي رَأْسُ مَالِ

ومن هذه القصيدة :

وَسَلِّمْ _____ى ذَاتُ زُهْدٍ	فِي زَهِيدٍ _____د فِي وَصَالِ
كَلَّمْنَا قُلْتَ صَلِّينِي	حَاسِبَ _____تَنِي بِالْخِيَالِ
وَهِيَ _____ي أَدْرِي فَلَمَّا ذَا	دَافَعْتَنِي _____ي بِمُحَالِ
أَتَرَى أَنَا اقْتَضَيْنَا	بَعْدُ شَيْئاً _____نَا مِنْ نَوَالِ ؟!

تَحْلِيلُ الْأَيَّاتِ :

يحكي الغزال ما قاله رفيق رحلته يحيى بن حبيب عندما حدّق بهم الخطر من كل جانب، وهم في وسط البحر بأمواجه المتلاطمة، حتى أصبح كل من في السفينة يقول : نفسي نفسي، حتى أصحاب السفينة، وبحارّتها لم يهتموا بأمر الركاب، وهم بالنسبة لهم لا يمثلون شيئاً ذا قيمة، وبين البدء بالقول أيّ بالفعل « قال »، وذكر مقول القول وهو:

لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ فِينَا يَارَفِيقِي، رَأْسُ مَالِ

يصف الغزال الخطر المحيط به، فالأمواج الثائرة المتلاطمة حولهم كالجبال، والرياح تتقاذفهم من الغرب فهي شديدة عاتية، ومن الشمال فهي باردة قاتلة، ونتيجة لذلك تمزّقت أشرعة السفينة، ومن شدّة الخطر المحيط بهم تخيلوا ملك الموت يمشي إليهم الهوينى محرّكاً يديه بحركة مخيفة، مهدّداً إياهم، فرأوا الموت رأي العين، وأيقنوا أنهم هلكي لا محالة، وتجمّدت الدماء في عروقهم من الهلع والفرع، فلا أمل إلا في رحمة الله ..

وبين هذه المخاطر يسوق أبياتاً هي إلى الغزل أقرب منها إلى الحديث عن المخاطر المحيطة بهم، فهل كان الموقف يتسع لمثل ذلك ؟ أم أنها روح الفكاهة والسخرية المسيطرة على الشاعر ؟ ! أو أنه يقصدُ بحديثه عن « سُلَيْمَى » حديثاً عن السلامة التي أصبحت بعيدة المنال في مثل هذا الحال، وذلك باستخدام الأسلوب الرمزي، أي أنه يعبر عن بعد السلامة عنهم مع تمنيتهم قربها ووصالها، ولكنها صارت خيالاً يداعبهم، حتى خاصم الكرى مقلهم من شدة فزعهم، وخوفهم هذه وجهة نظر قد تكون صائبة، أو قد يجانبها الصواب فما هو إلا اجتهد...، على أية حال فهذه مفارقة عجيبة أن ينتقل الشاعر من حديث المخاطر إلى حديث الأمنيات البعيدة المنال والتحقق في مثل تلك الظروف العصبية.

نظرات نقدية:

من خلال النصين السابقين يمكننا أن نقول :

إن يحيى بن حكم الجباني الملقب بالغزال كان شاعراً مطبوعاً غير متكلف وتميزت تجاربه بالعمق، ونظراته بالبعد، كما أنه لا يهتم كثيراً بالزخارف اللفظية اهتمامه^(١) بالمعاني القرينة الواضحة البعيدة عن التعمق الفلسفي .

ونلاحظ أنه يميل في شعره أياً كان غرضه إلى الأسلوب القصصي وهذا الميل يتضح كثيراً في مقطوعته التي يصف فيها المخاطر التي تعرض لها في رحلته البحرية .

كما أن القارئ يدرك بكل سهولة روح الفكاهة والسخرية في شعره، وهذا من مميزات شخصيته على وجه العموم، وتلمس هذه الروح الفكاهة الساخرة في قوله للأمير عبد الرحمن الأوسط :

قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْنَا مَعَالِيَهُ إِنَّ كُنَّا رَأْسَ الْمَالِ لَمْ يَذْهَبْ

وكذلك في قصيدته الثانية عندما يقول على لسانه صاحبه :

(١) تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سيادة قرطبة د. احسان عباس ص ١٦٥ - ١٦٦ .

لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ فِينَا يا رفيقي رأسُ مال

أو عندما يتحدث عن زهدٍ سليمي فيه بعد أن منته بالأمل فيقول :

وَهِيَ أَدْرَى فَلِمَ مَاذَا دافعتني بمحـال ؟ !

أَتَرَى أَنَا اقْتَضَيْنَا بَعْدُ شَيْئاً مِنْ نَوَال ؟ !

ولا يخفي في قصيدته الأخيرة استمداده تشبيهه للأمواج العاتية من القرآن الكريم ،
حيث استمد الصورة من قوله تعالى :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ، وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ
مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة هود الآية (٤٢)]

وفي قصيدته التي يمدح بها الأمير عبد الرحمن لا يخفي على الناقد مدى تأثره
بالبحتري في مدحه الخليفة العباسي المتوكل ، وقد خرج في عيد الفطر إلى المسجد
حيث قال :^(١)

وَمَشِيتَ مَشِيَةً خَاشِعَ مُتَوَاضِعٍ لِلَّهِ لَا يَزْهَى وَلَا يَتَكَبَّرُ
فَلَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ

فجاء الغزال وأخذ معنى البيت الأخير ، ولكنه عبّر عنه تعبيراً فاق به البحتري في
تناول المعنى ، كما يقول صاحب المطرب^(٢) : « ولقد كنّا نعجب بقول البحتري
ونستغربه في قوله :

فلو أن مُشتاقاً تكلفَ غير ما في وسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ

حتى مدح الغزال الأمير عبد الرحمن بن الحكم بقوله :

(١) أمراء الشعر في العصر العباسي أنيس المقدسي ص ٢٢٥ .

(٢) المطرب لابن دحية ص ١٣٣ - ١٤٧ . بتصرف .

وَأَصْبَحَ الْمَشْرِقُ مِنْ شَوْقِهِ	إِلَيْكَ قَدْ حَنَّ إِلَى الْمَغْرِبِ
مَنْبِرُهُ يَهْتَفُ مِنْ وَجْدِهِ	إِلَيْكَ بِالسَّهْلِ وَبِالْمَرْحَبِ
أَطْسَرَهُ الْوَقْتُ الَّذِي قَدَدْنَا	وَكَاَنَّ مِنْ قَبْلِكَ لَمْ يَطْرَبِ
هَفَاً بِهِ الْوَجْدُ فَلَوْ مَنْبِرٌ	طَارَ لَوَافِي خُطْفَةِ الْكُوكَبِ

وصاحب المطرب محق في قوله، فلقد أجاد الغزال التصوير ببراعة، وأضاف لمحات رومانسية بارعة قبل ظهور المتشدين بها ..، وخلاصة القول ما ساقه صاحب البغية عن الغزال « إنه كثير القول، مطبوع النظم في الحكيم والجد والهزل » .

(٣) «الْوَزِيرُ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ»

التعريف بالشاعر :

هو أبو خالد هاشم بن عبد العزيز بن هاشم بن خالد بن عبد الله، وينتهي نسبه إلى أبان بن عمرو، وكان جدّه عمرو هذا من موالي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد انتقل أهله وذووه إلى الأندلس قبل ولادته بفترة طويلة وسكنوا مدينة (إلبيرة) ولمع نجمهم فأصبحوا أهل رياسة، وأصحاب صدارة، وقد ولد هـ — هاشم بن عبد العزيز في «إلبيرة» في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ)، ولما شبّ تشبّع للدولة الأموية في الأندلس، وفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) نال الحظوة، فعظم قدره، وسمت منزلته عند أمير البلاد حتى صيرّه أخصّ وزرائه، وأسند إليه أمور بلاده وعسكره، وقد قاد جيوش المسلمين خلال هذا العهد في حروب كثيرة، انتصر في بعضها، وهزم في كثير منها، وكان من سماته أنه كان تيّاهاً معجباً بنفسه، كثير الاعتماد على ما يحقّد به عليه قلوب العباد، وقد كثر حسّاده لمكانته عند الأمير (١).

ما حلّ بالشاعر من نكبات :

نكب الوزير هاشم بن عبد العزيز في نفسه مرتين، ونجا في المرة الأولى، وكانت نهايته في الثانية، وإليك البيان والتفصيل .

أولاً : نكبته الأولى :

خرج الوزير هاشم بن عبد العزيز قائداً لجيوش الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٦٢ هـ لقتال عبد الرحمن الجليقي المتمرد عليه بنواحي بطليوس واندفع إلى الاشتباك مع رجال الجليقي دون تروٍّ أو إعداد واستعداد، وتوغّل بين صفوفهم دون احتياط كافٍ،

(١) انظر البيان المغرب لابن سعيد ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٥ ، وتاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤

فَقُتِلَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ جَيْشِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَجُرِحَ هَاشِمُ نَفْسَهُ، وَوَقَعَ أَسِيرًا بِيَدِ الْجَلِيقِيِّ .

ولكنه خُصِرَ مِنْ هَذِهِ الْمَخْنَةِ وَفُكَّ أَسْرُهُ بِسَبَبِ مَوْقِفٍ مِنْ مَوَاقِفِ الْوَفَاءِ، وَحُسْنِ الْإِعْتِزَالِ، وَالْقِيَامِ بِحَقِّ الْإِخَاءِ يَحْكِي عَنْهُ الْمُقَرِّي قَائِلًا^(١) . « إِنَّ الْوَزِيرَ الْوَلِيدَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ غَانِمٍ كَانَ صَدِيقًا لِلْوَزِيرِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، ثَابِتًا عَلَى مَوَدَّتِهِ، وَلَمَّا قَضَى اللَّهُ عَلَى هَاشِمٍ بِالْأَسْرِ أَجْرَى الْأَمِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ذِكْرَهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ خُدَّامِهِ، وَالْوَلِيدُ حَاضِرٌ، فَاسْتَقْصَرَهُ، وَنَسَبَهُ إِلَى الطَّيْشِ وَالْعَجَلَةِ وَالِاسْتِبْدَادِ بِرَأْيِهِ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ اعْتَذَرَ عَنْهُ غَيْرَ الْوَلِيدِ، فَقَالَ: « أَصْلَحَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَمِيرَ، إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى هَاشِمٍ التَّخْيِيرُ فِي الْأُمُورِ، وَلَا الْخُرُوجُ عَنِ الْمَقْدُورِ، بَلْ قَدْ اسْتَعْمَلَ جَهْدَهُ، وَاسْتَفْرَغَ نَصَحَهُ، وَقَضَى حَقَّ الْإِقْدَامِ، وَلَمْ يَكُنْ مَلَكَ النَّصْرِ بِيَدِهِ، فَخَذَلَهُ مِنْ وَثْقِ بِهِ، وَنَكَلَ عَنْهُ مِنْ كَانَ مَعَهُ، فَلَمْ يَزْحَرْ قَدَمَهُ عَنْ مَوْطِنِ حِفَاظِهِ، حَتَّى مَلَكَ مُقْبَلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، مُبْلِيًا غَيْرَ فَشَلٍ، فَجُوزِيَ عَنْ نَفْسِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَإِنَّهُ لَا طَرِيقَ لِلْمَلَامِ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مَا جَنَّتَهُ الْحَرْبُ الْغَشُومُ... »^(٢) .

فَأَعْجَبَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِدِفَاعِ الْوَلِيدِ، وَشَكَرَ لَهُ وَفَاءَهُ، وَأَقْصَرَ فِيمَا بَعْدَ عَنْ تَوْجِيهِ اللَّوْمِ إِلَى هَاشِمٍ، وَسَعَى فِي تَخْلِيصِهِ مِنْ أَسْرِهِ، وَاقْتَدَاهُ بِمَبْلَغٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمَالِ، فَخَرَجَ مِنَ الْأَسْرِ سَنَةَ ٢٦٤ هـ .

وَعَرَفَ هَاشِمٌ وَهُوَ فِي الْأَسْرِ مَوْقِفَ صَدِيقِهِ الْوَفِيِّ بَيْنَ يَدَيْ أَمِيرِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مِنْ سَجْنِهِ يَقُولُ: ^(٣) .

« الصَّدِيقُ مِنْ صَدَقِكَ فِي الشَّدَّةِ لَا فِي الْإِخَاءِ، وَالْأَخُ مِنْ ذَبَّ عَنْكَ فِي الْغَيْبِ لَا فِي الْمَشْهَدِ، وَالْوَفِيُّ مَنْ وَفِيَ لَكَ إِذَا خَانَكَ الزَّمَانُ، وَقَدْ أَتَانِي مِنْ كَلَامِكَ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِنَا - جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ سُرُورًا - مَا زَادَنِي بِمَوَدَّتِكَ اغْتِبَاطًا، وَبِصَدَاقَتِكَ ارْتِبَاطًا،

(١) نفح الطيب للمقري ت د . احسان عباس ج ٣ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٢) في رواية المقتبس ص ١٧٨ لما قاله الوليد خلاف في بعض الجمل ، ولكن المعنى واحد لم يتغير .

(٣) نفح الطيب للمقري ت د . احسان عباس ج ٣ ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

ولذلك ما كنتُ أشدُّ يدي على وصلك، وأُخْصُكَ بإخائي وأنا الآن بموضع لا أقدر فيه على جزاء غير الشناء، وأنت أقدر مني على أن تزيد ما بدأتَ به بأن تُتمَّ ما شرعتَ فيه، حتى تتكَمَّلَ لك المنة، ويستوثق عقد الصداقة إن شاء الله تعالى، ثم أردف ذلك بشعر منه :

أيا ذا كِري بالغيب في محفلٍ به تصامتَ جمعٌ عن جوابٍ به نصري
أتتني والبِداءُ بيني وبينها رقى كلماتٍ خلصتني من الأسرِ
لئن قربَ الله اللقاءَ فإِنني سأجزيك مالا ينقضي غابرَ الدهرِ
تحليل رسالة هاشم من محبسه :

إذا أمعن التأمل في الرسالة التي بعث بها هاشم بن عبد العزيز من سجنه إلى صديقه الوليد بن غانم، نرى أن هاشم قد استهلها ببعض الحكم وكذلك الأقوال المأثورة تبين حقيقة الصديق، وسمات الأخ الوفي، وعلامة الوفاء الحق، وهو ينسب معانيها كلها إلى صديقه الوليد، وهذا البدء والاستهلال ينمان عن اعتراف بالفضل، وإقرار بالجميل، ثم أشار إلى موقف هذا الصديق بين يدي الأمير، هذا الموقف الشجاع الذي أملتة المروءة، وخطه الوفاء، ونحس مدى توقير هاشم لأميته وهو يتحدث عنه، واعتزازه به، وكيف لا، وأمله في النجاة معلق بعد الله تعالى به، ويظهر الكاتب سروره وسعادته بموقف هذا الخل الوفي وأيقن أنه أحسن اختيار من يصادق ويؤاخي، ولكن كيف يفي لهذا الصديق، وهو محبوس بين جدران أربعة ؟ إنه لا يملك في هذه الحالة إلا الشناء عليه، والوعد الصادق بأن يكون عند حسن ظنه، ولما كان الأمل في النجاة يداعبه، وقد أصبح قاب قوسين أو أدنى، فلا بد أن يحفز صديقه على مداومة مساعيه، والعمل على إكمال ما بدأه حتى يأتي الله تعالى بالفرج على يديه .

وإذا قرأت الأبيات التي ختم بها رسالته تستشعر نبرة الحزن « الدفينة »، والأسى المتمكن من قلب هاشم، فبرغم سعادته وفرحته واعتباطه بموقف صديقه الوليد بن غانم، إلا أن الحزن يفيض من كلماته حين يقول :

أَيَا ذَاكَرِي بِالْغَيْبِ فِي مَحْفَلٍ بِهِ تَصَامَتَ جَمْعٌ عَنْ جَوَابٍ بِهِ نَصْرِي

حيث أشار إلى لزوم الجميع الصمت عندما اشتد الأمير في لومه، ونسبة التقصير إليه، وإسناد أسباب الهزيمة إلى طيشه وتهوره واندفاعه، وسوء تدبيره، وكلهم يعرف فضله، فكأنهم قد أقرُّوا الأمير على حكمه، وكان الأولى بهم أن تنطق ألسنتهم بكلمة الحق التي تنصفه، كما فعل الوليد، بدلاً من تركهم له وحده يدافع وينافح في مجلس حاشد، ولكن رُبَّ رجلٍ خير من ألف رجل .

وقد أشرق نور الأمل بين ثنايا الأبيات، لعلمه بسرور الأمير بدفاع الوليد عنه، وتقبله لما ساقه من حجة بالغة الدلالة على سلامة موقفه، مما حداه أن يعد بالسعي في الإفراج عنه وتخليصه، فعلم أنه سينال حرَّيته قريباً فقال :

أَتَتْنِي وَالْبَيْدَاءُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا رُقِيَ كَلِمَاتٍ خَلَصْتَنِي مِنَ الْأَسْرِ

فعبّر بالفعل الماضي (خَلَصْتَنِي) وذلك باعتبار ما سيكون، وهذا التعبير بالماضي يفيد تحقق وقوع فعل التخليص من الأسر فعلاً، ثم يعود فيؤكد وعده لصديقه بحسن مجازاته قائلاً :

لئن قَرَّبَ اللَّهُ اللَّقَاءَ فَإِنِّي سَأَجْزِيكَ مَا لَا يَنْقُضِي غَابِرَ الدَّهْرِ

نكته الثانية :

أما نكته الثانية، فكانت القاصمة، بل القاضية التي ما كان له منها قيام، ولا حضور بين الأنام، فقد أتت عليه، وعلى سلطانه وصولجانه، وأفنت ما جمعه واهتم بينائه، ومحت ماخطه بينانه، وشردت أولاده من بعده .

وقصة هذه النكبة المبيرة أن هاشم بن عبد العزيز خرج في سنة ٢٦٨هـ على رأس جيش لقتال أهل سرقسطة المتمردين على الأمير محمد بن عبد الرحمن، وكان معه

الأمير، منذر بن محمد بن عبد الرحمن، فانتصر هاشم في تلك الغزوة، وحطم سرقسطة، وفتح عدداً من الحصون حولها، ولكن أساء الأدب مع المنذر مما أحفظه عليه، وملاً قلبه بالحق، وأضمر له في نفسه الشر والسوء، فما أن تولى الإمارة بعد وفاة أبيه سنة ٢٧٣هـ إلا وبدأ يخطط للانتقام من هاشم، ولجأ إلى أسلوب الخديعة والمكر، فولاه الحجابة أولاً متتاسياً^(١) ما كان بينهما إلى حين، ثم التمس له الأسباب فنكبه وسجنه وعذبه في سجنه أشد العذاب، ثم قتله وصادر أملاكه وهدم داره، وسجن أولاده من بعده، وقد ساعده على ذلك حقد كثير من الناس على هاشم، وكرهيتهم له، بسبب ما عرف به من عجب وكبر وتيه .

أثر النكبة في شعر هاشم بن عبد العزيز :

لقد بدا أثر النكبة في شعر هاشم بن عبد العزيز قبل أن يُقتل من خلال ما بعث به إلى جاريته « عاج » من سجنه إذ يقول :^(٢)

وإني عَدَانِي أَنْ أُرْوَكَ مُطْبِقُ	وَيَابُ مُنِيعٌ بِالْحَدِيدِ مُضْبِبُ
فَإِنْ تَعَجَّبِي يَا عَاجُ مِمَّا أَصَابَنِي،	فَقِي رَبِّ هَذَا الدَّهْرِ مَا يَتَعَجَّبُ
وَفِي النَّفْسِ أَشْيَاءُ أَيْتُ بَغَمَهَا	كَأَنِّي عَلَى جَمْرِ الْغَضَى أَتَقَلَّبُ
تَرَكْتُ رَشَادَ الْأَمْرِ إِذْ كُنْتُ قَادِرًا	عَلَيْهِ فَلَا قِيَتُ الَّذِي كُنْتُ أَرْهَبُ
وَكَمْ قَائِلٍ قَالَ : أَنْجِ، وَيَحْكَ سَالِمًا،	فَقِي الْأَرْضِ عَنْهُمْ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الْفَرَارَ مَذَلَّةٌ	وَنَفْسِي عَلَى الْأَسْوَاءِ أَحْلَى وَأَطْيَبُ
سَأَرْضِي بِحُكْمِ اللَّهِ فِيمَا يُنُونِي،	وَمَا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَهْرَبُ
فَمَنْ يَكُ مَسْرُورًا بِحَالِي فَإِنَّهُ	سَيَنْهَلُ فِي كَأْسِي وَشِيكًا وَيَشْرَبُ !

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٣ - ١٧٥ تاريخ الأدب العربي د. عمرو فروخ ص ١٣٢ ج ٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٣ - ١٧٥ ، الأدب العربي في الأندلس د. عبد العزيز عتيق ص ١٧ ، تاريخ الأدب العربي د. عمرو فروخ ج ٤ ص ١٣٤ ، تاريخ الأدب الأندلسي . عصر سيادة قرطبة د. احسان عباس ص ١٠٠ .

تحليل الأبيات :

يخاطب هاشم بن عبد العزيز جاريته « عاج » معترداً عن عدم تمكنه من زيارتها، ومعللاً لذلك بما هو فيه، وكاشفاً عما آل إليه أمره، إذ أصبح في سجن مطبق عليه من كل ناحية، وأبوابه محكمة الإغلاق، مضببة بالحديد بحيث لا يمكن لأحد فتحها، ولعله لمس دهشة عاج هذه وشدة تعجبها هي وغيرها من هذا المصير الأسود الذي انتهى إليه أمر هذا الوزير، فبعد العز (والصولجان)، أصبح رهين القيد والسجن والسجان، فبين لها ولغيرها أنه لا عجب في ذلك، ففي حوادث الدهر وملماته أعاجيب كثيرة، ولكن ما يؤلم الشاعر أمور في نفسه، تدخل الغم عليه، وتنغص حياته، فالألم النفسية أشد عليه من آلامه الجسمانية، ولذلك عبر الشاعر عن معاناته النفسية وما يكتنفه بسببها من قلق واضطراب بقوله : « كأنني على جمر الغضى أثقلب »، كما يبدي الشاعر ندمه على أنه لم يأخذ جانب الحيطة والحذر، ويعترف بأنه لم يحسن التفكير يوم أن كان قادراً على ذلك، ولذا فقد لاقى ما كان يرهبه ويخشاه من السجن والتعذيب والإهانات البالغة، وسوء العاقبة، كما أنه يبدي أسفه لعدم سماعه لنصح من نصحه بالهرب والفرار نجاة بنفسه سالماً، بعيداً عن متناول أعدائه، ولكنه أبى ذلك اعتزازاً بنفسه، وترفعاً عن المذلة، فخير له أن يتحمل الإهانة والمذلة من أن يوصف بالجبن والهلع والفرار، فنفسه تستعذب الألم، ولا ترضى بالعار - عار الفرار -، ثم يعود فيعلن رضاه التام بقضاء الله الذي قضى به والاستسلام لما قدره سبحانه وتعالى عليه، في كل ما هو متوقع حدوثه، وليس وراء الله للمرء مهرب، ولا من قضائه مفر، فما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن، وكأنني بشاعرنا هاشم بن عبد العزيز يحس بشماتة خصومه فيه وسرورهم بما حلّ عليه فيترجم لهم القول الكريم : « لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيه الله ويبتليك » ويلتفت إلى هؤلاء الشائئين الكارهين الشامتين قائلاً .

فَمَنْ يَكْ مَسْرُوراً بِحَالِي فَإِنَّهُ سَيَنْهَلُ فِي كَأْسِي وَشَيْكاً وَيَشْرَبُ!

وألفاظ الشاعر جاءت سلسة سهلة معبرة عن معانيه أصدق تعبير، كما أن كلماته كشفت عن معاناته، ومكابدته بوضوح، وبيّنت حالته النفسية المتدهورة المنهارة، وأظهرت ندمه على سوء تدبيره في حق نفسه، وتراخيه في أخذ الحيطة والحذر .

ومعانيه واضحة لا عمق فيها ولا فلسفة، بسيطة بلا تعقيد، فالأمر أقوى منه وأشد، والقبضة محكمة عليه، والآلام النفسية أشد تأثيراً من الآلام الجسدية، وحالة القلق والاضطراب، والمعاناة تنم عن نفسها، وما حدث له كان أمراً متوقعاً، وبرغم هذا لم يحتط لنفسه، وبرغم أنه كإنسان هناك من يحبه ومن يكرهه، إلا أن محبيه كانوا كثيراً، وكثيراً ما نصحوه بالفرار، وتأمّل قوله :

« وكم قائل قال : انج ويحك سالماً »

فاستخدم « كم » الخبرة للدلالة على كثرة الناصحين له، ولا ينصح إلا من يحب، أما المبغض الكاره فلا ينصح من يكرهه أبداً .

وأبيات الشاعر تكشف عن مسحة مشرقية تتلأأ في حديثه، وتبدي تأثيره بشاعر كبير من شعرائنا المشاركة : سبقه : هو النابغة الذبياني في قصيدته في الاعتذار للنعمان بن المنذر عما اتهم به، وليم عليه، ففي قول هاشم بن عبد العزيز .

وفي النفس أشياء أبيت بغمها كأني على جمر الغضى أثقلبُ
يضع نصب عينيه قول النابغة الذبياني : (١)

أتاني أبيت اللعن، أنك لمتني، وتلك التي أهتم منها وأنصبُ
فبت كأن العائدات فرشن لي هراساً به يعلّي فراشي ويقشِبُ
وفي قول هاشم :

سأرضى بحكم الله فيما ينوبني وما من قضاء لله للمرء مهربُ

(١) في الأدب العربي القديم د . محمد صالح الشنطي ص ١٣٠ .

تلمح تأثره بقول النابغة : (١)

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ
وأثر ف يشاعر كبير لحق به وولد بعد وفاته بثمان وأربعين سنة هو الشاعر أبو فراس
الحمداني ابن عم سيف الدولة الحمداني في قصيدته (نفثة مصدور، وزفرة أسير) والتي
يقول فيها : (٢)

أُسِرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعُزْلٍ لَدَى الْوَغَى وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ، وَلَا رَبُّهُ غَمْرٌ
وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى امْرِيٍّ فَلَيْسَ لَهُ بِرَّ يَقِيهِ وَلَا بَحْرٌ
وَقَالَ أَصِيحْحَابِي الْفَرَارُ أَوْ الرَّدَى فَقُلْتُ هُمَا أَمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مَرٌ
وَلَكِنِّي أَمْضِي لِمَا لَا يَعِيبُنِي وَحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الْأَسْرُ
ومنها يقول :

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا تَوَسُّطَ بَيْنَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نَفُوسُنَا وَمَنْ يَخُطِبُ الْحَسَنَاءَ لَمْ يَغْلِهَ الْمَهْرُ
فالم تأمل في أبيات أبي فراس يرى أنه قد وضع المعاني التي ساقها هاشم بن عبد
العزيز نصب عينيه حيث تأثر بقوله :

« وَكَمْ قَاتِلٌ قَالَ : انْجُ وَيَحَكَ سَالِمًا »

وفي تأثره بقوله أيضاً :

« فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الْفَرَارَ مَذَلَّةٌ »

وهذا يؤيد مقولة التأثير والتأثر في الأدب العربي وعلى كل حال فإن أبياته جاءت
معبرة عن موقفه تعبيراً صادقاً، وكاشفة عن معاناته بوضوح، وقد ظهر أثر الموقف
العصيب في شعره فجاء خالياً من المحسنات البديعية، وقلت فيه الصور البيانية، فالموقف

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ١ ص ١٨١ .

(٢) الأدب العربي وتاريخه زكي سويلم ص ١٦٧ - ١٧٠ .

ليس موقف زخرف لفظي، ولا تصوير بلاغي مصطنع ولكنه موقف تلعب فيه التلقائية دورها، والتي توحى باللفظ المعبر تعبيراً صادقاً عما يجيش بالصدر دون نفاق أو تملق .

ولكن الشجاع قد تخونه شجاعته، وقد يتخلى عن المتجلد بتجلده، إذا خلا إلى نفسه، أو خاطب من يراه مكمناً سره، ولذا نلمح الوزير هاشم بن عبد العزيز يخاطب صديقاً له عزيزاً عليه مظهراً له ما يعانيه، ومبدئياً له شجونه التي كانت تزعزع نفسه، وتستمطر دموعه، وفي خطابه هذا يكشف عن الصورة القاتمة التي يخفيها في نفسه، ولا يبدئها لأحد، حتى لا يزداد الشامتون شماتة، ويظهر كل ذلك في بيتين هما :^(١)

فَكَمْ عَضَّةٌ بِالْدمْعِ نَهْنَهَتْ خَوْفَ أَنْ يُسَرَّ بِمَا أَبْدِيهِ شَأْنُ كَاشِحٍ
تَحَامَلَتْ عَنْهُ ثُمَّ نَادَمَتْ فِي الدُّجَا نُجُومَ الثُّرَيَّا وَالدِّمُوعِ سَوَانِحِ

وتأمل تعبيره عن كثرة آلامه التي يعالج أثرها بدموعه سرّاً خوف أن يقف المبغضون له على حقيقة آلامه، فيزداد سرورهم .. وعبر بقوله « فكم عضة » عن كثرة الضربات المؤلمة الموجهة التي تلقاها وتجلد أمامها وتحملها، وإذا جنّ ليله، وطلعت نجومه، بات يناجي نجم الثريا ودموعه تنسال على خديه، وكأنه يغسل بتلك الدموع آلامه، ويمحوها أحزانه دون أن يشعر به أحد، يا له من موقف حزين مؤلم !! حزن وأسى، جراح وألم صبر حزين، وألم دفين، وتجلد أمام الشامتين .. فرحم الله هاشم بن عبد العزيز الذي قتله المنذر بن محمد بعد أن عذّبه ونكّل به، وأهانته في سجنه أبلغ إهانة، متناسياً ما كان له من أياد بيضاء في دولة أبيه لم تشفع له، وذلك في السادس والعشرين من شوال سنة ٢٧٣ هـ، وبذلك انطوت صفحته .. ودالت دولته، وهذا جزاء من يأمن جانب الشر، ويخدع بالبريق ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(١) الحلة السيرة ١٥ / ١٤٢، الأسر والسجن في شعر العرب د. أحمد مختار البرزّه ص ٤٧٤ .

(٤) « سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ جُودِيٍّ »

التعريف بالشاعر :

من الشعراء الذين أصابهم البلاء، وحلَّ بهم المكروه، وتعاورتهم رماح الفتن حتى قضت عليهم الشاعر سعيد بن سليمان بن جوديَّ السعديَّ، كان بدوياً خالصاً، وفارساً شجاعاً، وهو من نسل الطارئین على الأندلس وقد اشترك في الحرب ضدَّ عمر بن حفصون الثائر ضد المروانيين، وقد وقع في الأسر، وخلص منه سنة ٢٧٦ هـ، وكان سعيداً أميراً في كورة « إلبيرة » قرب غرناطة في أيام الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ)، ولكنه انقلب على الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، استجابة للعصبيَّة البدويَّة على بني مروان حكام قرطبة .

وكان سعيد بن جوديَّ أمير العرب الذي عرف في زمانه بعشرة خصال لا يدفع عنها : « الجود، والشجاعة، والفروسية، والشدة، والطعن، والضرب، والرماية، والجمال، والشعر، والخطابة » وقد مدح زعيمه الأثير لديه سوار بن حمدون القيسيَّ الثائر بناحية البراجلة، ولقد قتل سعيد بن جوديَّ غيلة وحسداً في ذي القعدة سنة ٢٨٤ هـ (١) .

وقد رثاه المقدم بن المعافي بقوله (٢):

مَنْ ذَا الَّذِي يُطْعِمُ أَوْ يَكْسُو	وَقَدْ حَوَى حَلْفَ السُّنْدَى رَمْسُ
لَا اخْضَرَّتِ الْأَرْضُ وَلَا أَوْرَقَ الْـ	عُودٌ وَلَا أَشْرَقَتْ شَمْسُ
بَعْدَ ابْنِ جُودِيٍّ الَّذِي لَنْ تَرَى	أَكْرَمَ مِنْهُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ

(١) راجع في ترجمة ابن جودي ما يلي : المقتبس لابن حيان ج ٢ ص ٢٩ ، الجذوة ص ٢١٣ ، المغرب ج ٢ ص ١٠٥ وتاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ١٤٤ ، والأدب الأندلسي د. أحمد هيكल ص ١٦٦ .

(٢) نفع الطيب للمقري ج ٣ - ٥٣٨ ت د. إحسان عباس .

محنة الشاعر :

إبان اشتراك سعيد بن جودي في مقاومة المتمرّد عمر بن حفصون الثائر ضد الأمويين، وقع سعيد في أسر هذا المتمرّد، ولكن هذا الأسر لم يفت في عضده، فهو فارس شجاع شديد المراس، فيه نبل الفارس، وصبر المحارب، كما أنه كان شاعراً فيه بدابة العربي الخالص، ولذلك عبّر عن تجربته في الأسر، وأظهر أثر تلك المحنة في إحدى قصائده التي يقول فيها :^(١)

وَلَا شَيْءٌ مِثْلُ الصَّبْرِ فِي الْكَرْبِ لِلْحَرْبِ
وَأَنْ تَنْعَمَ بِالْيُسْرِ مِنْ بَعْدِ مَا عُسِرَ
فَأُطْلِقَهُ الرَّحْمَنُ مِنْ حَلْقِ الْأَسْرِ
فَلَيْسَ عَلَى حَرْبٍ وَلَكِنْ عَلَى غَدْرِ
حَمَتِي أَطْرَافُ الرُّدَيْنَةِ السُّمْرِ
وَفَارِسُهَا الْمَقْدَامُ فِي سَاعَةِ الدُّعْرِ
إِلَى وَالِدَيَّ الْهَائِمِينَ لَدَى ذِكْرِي
عَلَيْكَ تَحِيَّاتِي إِلَى مَوْقِفِ الْحَشْرِ
وَكَرْبِكَ أَمْضَى لِي مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ
مِنَ الْقَبْرِ لِلْفَتَيَانِ حَوْصَلَةُ النَّسْرِ

خَلِيلِي صَبْرًا رَاحَةُ الْحَرْبِ فِي الصَّبْرِ
فَلَا تَيَّاسًا مِنْ فَرْحَةٍ بَعْدَ تَرْحَةٍ
فَكَمْ مِنْ أَسِيرٍ كَانَ فِي الْقَيْدِ مُوثَقًا
لِئِنْ كُنْتُ مَأْخُودًا أَسِيرًا وَكُنْتُ مَأْخُودًا
وَلَوْ كُنْتُ أَخْشَى بَعْضَ مَا قَدْ أَصَابَنِي
فَقَدْ عَلِمَ الْفُرْسَانُ أَنِّي كَمِئُهَا
فَيَاظِلَا عَنَّا أَبْلُغِ سَلَامِي نَحْيَةً
وَأَدِّ إِلَيَّ عُرْسِي السَّلَامَ وَقُلْ لَهَا
بِهِمْكَ أَلْقَى خَالَقِي يَوْمَ مَوْقِفِي
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَبْرٌ فَأَحْسِنُ مَوْطِنًا

تحليل القصيدة :

حملت أبيات سعيد بن جودي التي جادت بها قريحته وهو في أوج محنته سمات الفارس النبيل الذي لا يعرف الاستسلام، ولا يتطرق اليأس إلى قلبه، ولذلك يخاطب رفيقين معه في الأسر، أو على سبيل التجريد كعادة الشعراء العرب قديماً،

(١) المتقبس لابن حيان ص ١٢٤، والأدب الأندلسي . د . أحمد هيكل ص ١٦٧ - ١٦٨ .

فأسلوبُ تجريد الشاعر من نفسه شخصاً أو أكثر يوجه إليه حديثه أسلوبٌ عربي قديم، وفي خطابه هذا يوصيهما بالصبر، فراحة الحر في الصبر، فالصبر خير سلاح، ولا شيء مثله في وقت الكرب لكل حر، لا يرضى بالضيم والذل، كما ينهاهما عن اليأس، فالأمل في عودة الفرح بعد الحزن، واليسر بعد العسر كبير .

ويدلل الشاعر على صحة ما قاله بقوله : « فكم من أسير كان في القيد موثقاً » البيت .. واستخدم كم الخبرية التي تفيد الكثرة، ليبين لهما أنهما ليس أول من وقع في الأسر، بل وقع قبلهما كثيرون، وخلصهم الرحمن سبحانه وتعالى من أسرهم، وليس على قدرة الله محال .. وهذا يدل على قوة إيمانه بالله، وتعلقه به عز وجل، وثقته الكاملة في تأييده له ونصره .

ثم ينتقل إلى بيان سبب وقوعه في الأسر، ويوضح أن السبب ليس الضعف ولا الخور أو الجبن، ولكنه الغدر الذي لم يتوقعه - ويبدو أن الشاعر كان ضحية خيانة ارتكبت ضده - ولو كان يتوقع ما حدث لدافع عن نفسه دفاع المستमित، واحتمى بأطراف رماحه الردينية السمرء التي يجيد استخدامها، فالشجاعة وقوة البأس والصّلاب، وقوة التحمل أمور يعلمها الفرسان عنه، بل يعلمون علم اليقين أنه أشجعهم عندما يحمي الوطيس، ويشند البأس، وتدور رحى الحرب .

ويتمثل نبل الفارس في شعر سعيد بن جودي حينما يكشف عن أنه غير مشغول بنفسه، ولا مهموم مما هو فيه من الأسر والحبس، بقدر ما هو مشغول بحال والديه اللذين أحزنهما وآلمهما ما هو فيه، فيرسل إليهما بالتحية والسلام، كما لا ينسى عروسه، ويبدو أنه كان قد تزوج حديثاً قبل أسره ، ولذلك حرص على طمأنة قلب عروسه وأرسل إليها هي الأخرى بتحياته معلناً أنه مهموم بسبب لهفتها عليه، ويؤلمه كثيراً ما هي فيه من كرب وشدة، ويرى كربها أشد وأقسى عليه من القتل أو الأسر، ويتطلع إلى العلياء حتى بعد موته ويرى أن أفضل قبر للفتيان الشجعان هو حوصلة النسر ، وهذا كناية عن

استحباب الاستشهاد في ميدان القتال وهو أمر يكشف عن شجاعة نادرة .

وجهة نظر نقدية :

سعيد بن جودي فارس شجاع يظهر ذلك في شعره الذي عرضناه ، ويتضح كذلك وبصورة طيبة في قوله : ^(١)

الدَّرْعُ قَدْ صَارَتْ شِعَارِي فَمَا	أَبْسُطُ حَاشَاهَا لِتَهْجَاعِي
وَالسُّيْفُ إِنْ قَصَرَهُ صَانِعٌ	طَوَّلَهُ يَوْمَ الْوَغَى بَاعِي
وَمَا كُمَيْتِي لِي بِمُسْتَقْصِرٍ	إِذَا دَعَانِي لِلْقَا دَاعِي
هَذَا الَّذِي أَسْعَى لَهُ جَاهِداً	كُلُّ أَمْرٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

وشعر ابن جودي يميل إلى الاتجاه المحافظ ، ولذلك بدأ قصيدته بداية عربية تقليدية « خليلي صبراً » ، يستخدم المحسنات البديعية استخداماً معقولاً ، دون إسراف مثل : فرحة - ترحة ، عسر يسر ، وهذا ناشئ عن عرويته التي يتعصب لها ^(٢) « وبرغم ذلك فشعره يميل إلى الغنائية المرهفة ، ويؤثر المقطوعات ، ويختار الألفاظ ، ويصقل التراكيب ، ويملاً حنايا شعره بالعاطفة ، وشعره صالح للتلحين » .

(١) المقتبس لابن حيان ص ١٢٤ .

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة د. أحمد هيكل ص ١٦٩ .

(٥) أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الْأَنْدَلُسِيِّ

التعريف بالشاعر :

من الشعراء الذين أصابهم البلاء، ولكنّ بلاءه لم يكن في بدنه ولم يك في ماله، بل كان في فلذتَيْ كبده، في ولديه الحبيين، الشاعر ابن عبد ربّه الأندلسي^(١)، إنه شهاب الدين أبو عمر أحمد بن عبد ربّه بن حبيب ابن حدير بن سالم القرطبيّ، وكان جده سالم القرطبيّ مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل، ولقد ولد أبو عمر هذا في رمضان سنة ٢٤٦ هـ في مدينة قرطبة، وفيها نشأ وتربّى، وتلقّى علومه على عدد من علماء قرطبة الزاهرة، وكان أبو عمر كثير الاطلاع شديد الإلمام بما يطالع عليه، حَفَظاً لدواوين الشعراء السابقين عليه، والمعاصرين له، خصوصاً الشعراء المشارقة .

وقد أثر عن ابن عبد ربّه أدبه وسعة إحاطته بفنون العلم والأدب ، وقد عاش حياته في كنف الأمراء الأمويين ناعم البال لحسن علاقته بهم ، فلم يحدث له ما حدث لغيره من نكبات على أيديهم لأنه غالباً كان بعيداً عن مجالات السياسة وكواليس الحكم ، ولذلك نال من هؤلاء الأمراء دنيا عريضة، وحلّ عندهم في المكان الأسمى، وكان عمره حين توفّي الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٧٣ هـ سبعة عشر عاماً ، فعاصر بعده عهد ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) ، ثم عاش في كنف أخيه عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ، وأمضى من عهد الخليفة أمير المؤمنين عبد

(١) راجع في ترجمة ابن عبد ربّه وحياته ما يلي : العقد الفريد ، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ج١ ص ٤٩ ، بغية الملتبس للضبي ص ٣٢٨ ، مطمح الأنفس لابن خاقان ص ٥١ ، معجم الأدباء لياقوت الحموي ج ٢ ص ٦٧ ، ج ٤ ص ٢١١ . وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣٢ - ٣٣ ، المطرب لابن دحية ص ١٥١ ، ديوان ابن عبد ربّه محمد التونجي ص ٢ الأدب الأندلسي د. أحمد هيكل ص ٢٢٣ ، تاريخ الأدب العربي د. فروخ ج ٤ ص ٢١٠ ، تاريخ الأدب الأندلسي (قرطبة) د. احسان عباس .

الرحمن الناصر لدين الله ثمانية وعشرين عاماً ، حيث أصيب بالفالج في آخر حياته ، وظلَّ يعاني من هذا المرض حتى وافته منيته سنة ٣٢٨ هـ ، ودفن في مدينة قرطبة .

محنة الشاعر وبلاؤه

كما أشرت آنفاً لم يكن بلاء ابن عبد ربه في بدنه ، ولا في ماله ، بل امتحن بفقد اثنين من أبنائه كان أحدهما طفلاً صغيراً ، والثاني كان كبيراً يكنى بأبي بكر ، واسمه يحيى ، ومن حديث أبيه عنه يبدو أنه بلغ مبلغ الرجولة ، وكانت محنة ابن عبد ربه في ولديه أشبه بمحنة أبي ذؤيب الهذلي في أولاده وكذلك محنة ابن الرومي ، وكلاهما قد فقد أولاده واحداً تلو الآخر .

وكان ولدا ابن عبد ربه أثيرين لديه ، عزيزين عليه ، ولذلك رثاهما من أعماق فؤاده . وكان النتاج الأدبي الشعري لهذه النكبة التي تكررت في حياة الشاعر ، عدداً من القصائد التي طالعنا بها ديوانه ، وبعضها في عقده الفريد ، ومنها ما جاء منشوراً في ثنايا الكتب التي أرخت لحياة ابن عبد ربه وأدبه ، ومن هذه القصائد ، قصيدة بكى فيها ابن عبد ربه فلذة كبده ولده يحيى وفيها يقول :^(١)

وَمَضَى عَلَى صَرْفِ الْخُطُوبِ حَمِيداً
قَدْ كَانَ فِي كُلِّ الْعُلُومِ فَرِيداً
وَعَدَتْ لَهُ يَبِضُ الضَّمَائِرِ سُوداً
وَإِنْ اسْتَقَلَّ بِهِ الْمُنُونُ وَحِيداً
فِي فَضْلِهِ ، وَالْأَسُودُ بْنُ يَزِيداً
وَإِنَّ الْمَسِيبَ فِي الْحَدِيثِ سَعِيداً
وَالْأَعَشِيَيْنِ رَوَاةٍ وَنَشِيداً

قَصَدَ الْمُنُونُ لَهُ فَمَاتَ فَقِيداً
بِأَبِي وَأُمِّي هَالِكاً أَفْرَدَتْهُ
سُودَ الْمَقَابِرِ أَصْبَحَتْ يَبِضاً بِهِ
لَمْ تَرْزُهُ لَمَّا رَزَيْنَا وَحْدَهُ
لَكِنْ رَزَيْنَا الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ
وَإِبْنَ الْمُبَارَكِ فِي الرِّقَاقِ مُخْبِرِ
وَالْأَخْفَشَيْنِ فَصَاحَةً وَبَلَاغَةً

(١) ديوان ابن عبد ربه مع دراسة لحياته وشعره د. محمد التونجي مكتبة الخافقين بدمشق ص ٩٢ - ٩٥

كَانَ الْوَصِيَّ إِذَا أَرَدْتُ وَصِيَّةً
وَلَيْ حَفِظَ فِي الْأَذْمَةِ حَافِظاً
مَا كَانَ مِثْلِي فِي الرِّزْيَةِ وَالِدَا
حَتَّى إِذَا بَدَّ السَّوَابِقَ فِي الْعَلَا
يَأْمَنُ يُفْنِدُ فِي الْبُكَاءِ مُوَلَّهُـا
تَأْبَى الْقُلُوبُ الْمُسْتَكِينَةَ لِلْأَسَى
إِنَّ الَّذِي بَادَ السُّرُورَ بِمَوْتِهِ
الآنَ لَمَّا أَنْ حَوِيَتْ مَسَآثِرُ
وَرَأَيْتُ فِيكَ مِنَ الصَّلَاحِ شَمَائِلًا
أُبْكِي عَلَيْكَ إِذَا الْحَمَامَةُ طَرَبَتْ
لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنْ أَزْنَ بَبْدَعَةٍ
لَجَعَلْتُ يَوْمَكَ فِي الْمَنَاحِ مَأْتَمًا

وَالْمُسْتَفَادَ إِذَا طَلَبْتُ مَفِيدًا
وَمَضَى وَدُودًا فِي الْوَرَى مَوْدُودًا
ظَفَرْتُ يَدَاهُ بِمِثْلِهِ مَوْلُودًا
وَالْعِلْمَ ضَمَنْ شَلُوهُ مَلْحُودًا
مَا كَانَ يَسْمَعُ فِي الْبُكَاءِ تَفْنِيدًا
مَنْ أَنْ تَكُونَ حَجَّارَةً وَحَدِيدًا
مَا كَانَ حَزْنِي بَعْدَهُ لَيْبِيدًا
أُعَيْتَ عَدُوًّا فِي الْوَرَى وَحَسُودًا
وَمَنْ السَّمَّاحَ دَلَائِلًا وَشُهُودًا
وَجَهَ الصَّبَّاحَ وَغَرَدَتْ تَغْرِيدًا
مَّا يُعِدُّهُ الْوَرَى تَعْدِيدًا
وَجَعَلْتُ يَوْمَكَ فِي الْمَوْلِدِ عِيدًا

تحليل القصيدة :

استخدم ابن عبد ربه الأساليب الخبرية التي تعبر عن حسرته وألمه ، وعبر عن ولعه بتفديته ولده بأبيه وأمه ، وبين أن المقابر قد أُنارت بحلول جسمانه في ثراها بينما اسودَّت حياة محبيه حُزنًا عليه ، ثم انتقل الشاعر يعدِّد محاسن ولده ، متبعاً في ذلك طريق التشبيه الضمنيّ في الأبيات من قوله : « لم نرُ زلماً رُزينا وحده » ، فجعله كالقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أحد فقهاء المدينة السبعة في علمه وصلاحه ، وكالأسود بن يزيد النخعي عالم الكوفة في عصره ، وذلك في حفظه وعلمه ، ومثل عبد الله بن المبارك في الحديث والفقه ، والعريبة ، وشبيه سعيد بن المسيّب سيّد التابعين في

فقهه وزهده ، وكالأخفشين في الفصاحة والبلاغة والتفسير، والأعشىين في الرواية ..
فهل كان ولده يضارع هذه الطائفة من أهل العلم ؟ أم أنه الحبُّ الشديد لولده صوره له
أبهى من هؤلاء جميعاً ؟ !

ثم عرّج إلى بيان مكانته عنده، ومدى احتياجه إليه ، ليظهر من خلال ذلك نكبته
بفقدته، وفجيعة فيه، فجعله الوصيُّ إذا أراد وصية ، والمستشار إذا أراد مشورة، وماظفر
والدُّ بولدٍ مثله، ولا فجع أبٌ بفجيعة ، ولذلك يتجه إلى من اشتد في لومه على شدة
وجده، وكثرة بكائه، ويقَلُّب لومه عليه، لأنه ما كان يسمع يوماً لوماً لباكٍ ولا حزين
حيره حزنه، وأقلقه وجده، لأن القلوب لم تفقد إحساسها لتصبح جامدة صلبة باردة
جمود الحجارة والحديد، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يبين أن ولده الذي ذهب
السرور بذهابه ما كان حزنه لينتهي أبداً بعده .

ثم يتبع أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ليتوجه بالخطاب إلى ولده الذي
أسهب في الإخبار عما حلَّ به بفقدته، ويخاطبه قائلاً :

الآن لما كثرت مآثر العظيمة التي أعيت كل عدوٍّ في الوجود، وأضرمت النار في
قلب كل حاسد، وبعد أن ظهر صلاحك، وعلت شمائلك فاجأني الموت باختطافك،
وفجعني بفقدك، ولذلك سأظل أبكي عليك كلما هدلت حمامة في الصباح معلنة
حزنها، أو غرّدت مظهرة فرحها .

ثم يستخدم ابن عبد ربه أسلوب الشرط قائلاً : لولا الحياء يمنعي، وخشيتي أن
أرمي بالابتداع، أي الإتيان بما يخالف الشرع الحنيف وما أمر به ربنا عزّ وجلّ لجعلت
يوم موتك مأتماً دائماً ما عشت ويوم مولدك عيداً يُحتفى به ويحتفل .

تعليق على القصيدة :

بداية نقول : إن المبالغة واضحة تماماً في رثاء ابن عبد ربه لولده يحيى، فقد جعله
فريد عصره، ووحيد زمانه في كل العلوم الشرعية والعربية، بل وفي الصلاح والتقوى،
وهذا واضح من قوله : « قد كان في كل العلوم فريداً » ، وكذلك من خلال تشبيه ولده

ضمناً بكبار التابعين، والعلماء العاملين، وعظماء أهل المعرفة، وكلامه يعني أن الوجود بأسره لم يشعر بموت هؤلاء العلماء الذين عينهم بأسمائهم إلا يوم أن مات ولده، وذلك في قوله « لم نرزه كما رزينا وحده »، فجعل ولده كالقاسم بن محمد، والأسود بن يزيد وعبد الله بن المبارك، وسعيد بن المسيب، والأخفشين، والأعشيين، ما هذا كله ؟ ! إن هذه المبالغة لم يلجأ إليها واحد مثل أبي ذؤيب الهذلي الذي فقد خمسة من أبنائه في مرض الطاعون، وهو في طريقه للاشتراك في فتح شمال إفريقيا سنة ٢٦ هـ، ولم يلجأ إليها ابن الرومي الذي فقد ثلاثة من أبنائه الواحد تلو الآخر، وإذا قسنا عاطفة الحزن عند ابن عبد ربه وقمنا بمقارنتها عند كل من أبي ذؤيب، وابن الرومي لوجدناها رغم قوتها أقل بكثير منها عند كل منهما، بل لا تكاد تداني واحدة منهما، فإن هذه العاطفة عند الشاعرين سيطرت على مجريات الأحداث في رثائهما سيطرة تامة، حتى إنها حوّلت حديث كل منهما إلى حادث كاشف عن أثر الفجيعة، ووقع المأساة، وأثر المصاب، بدلاً من التوقف عند المناقب لتعديدها كما فعل ابن عبد ربه .

وأعجب كيف لم يتأثر ابن عبد ربه بالشاعرين في ذلك ، رغم تأثره بواحد منهما هو ابن الرومي كثيراً .. فمثلاً عندما قال ابن عبد ربه :

تأبى القلوبُ المستكينةُ للأسى من أن تكون حجارة وحديداً
تحسُّ تأثره بابن الرومي في نفس المعنى عندما قال :

عجبتُ لقلبي كيف لم ينْفطرْ له ولو أنه أقسى من الحجر الصلْدِ (١)
وعندما يقول ابن عبد ربه :

إنَّ الذي باد السُّرور بموته ما كان حَزني بعده ليبيداً
تستشعر تأثره بقول ابن الرومي :

ثكَلْتُ سُروري كُلَّهُ إذ ثكَلته وأصبحتُ في لذاتِ عيشي أخازهُدِ (٢)

(١)، (٢) أمراء الشعر في العصر العباسي : أنيس المقدسي ص ٣١٢ - ٣١٣ .

كما تأثر ابن عبد ربه أيضاً بالشاعر الأُموي جرير بن عطية الخطفي في رثائه لزوجته
فعندما قال في هذا الرثاء :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَا جَنِي اسْتَعْبَارٌ وَلِزَرْتُ قَبْرَكَ وَالْحَسْبُ يَزَارُ
فجاء ابن عبد ربه وقال في رثاء ولده :

لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنْ أُرْنَ بِبِدْعَةٍ مِمَّا يُعَدُّهُ الْوَرَى تَعْدِيدًا
لَجَعَلْتُ يَوْمَكَ فِي الْمَنَاحِ مَأْتَمًا وَجَعَلْتُ يَوْمَكَ فِي الْمَوَالِدِ عِيدًا
وإن كان التعبير أكثر بسطاً وتفصيلاً وإطناباً عند ابن عبد ربه .

القصيد الثانية :

وهي في رثاء ولده يحيى أيضاً وفيها يقول : (١)

وَأكْبَدَا قَدْ قُطِعَتْ كَيْدِي !
مَامَاتَ حَيٍّ لَمِيتَ أَسْفَا
يَارْحِمُهُ اللَّهُ جَاوِرِي جَدًّا
وَنَوْرِي ظَلَمُهُ الْقُبُورِ عَلَى
مَنْ كَانَ خِلْوًا مِنْ كُلِّ بَائِقَةٍ
يَا مَوْتَ « يَحْيَى » لَقَدْ ذَهَبَتْ بِهِ
يَا مَوْتَ لَوْلَمْ تَكُنْ تَعَاجِلُهُ
أَوْ كُنْتَ رَاخِيَةً فِي الْعِنَانِ لَنَهْ
أَيُّ حَسَامٍ سَلَبَتْ رَوْنَقَهُ
وَأَيُّ سَاقٍ قَطَعَتْ مِنْ قَدَمِ
يَاقُومًا أَجْحَفَ الْخُسُوفِ بِهِ
وَحَرَقَتْهَا لَوَاعِجُ الْكَمَدِ
أَعْذَرُ مِنْ وَالِدٍ عَلَى وَلَدٍ
دَفَنْتَ فِيهِ حَشَاشَتِي بِيَدِي
مَنْ لَمْ يَصْلُ ظُلْمُهُ إِلَى أَحَدٍ
وَطَيِّبَ الرُّوحِ طَاهِرَ الْجَسَدِ
لَيْسَ بِزُمَيْلَةٍ وَلَا نَكِيدِ
لَكَانَ لَاشْكُ بَيْضَةَ الْبَلَدِ
حَازَ الْعُلَا وَاحْتَوَى عَلَى الْأَمَدِ
وَأَيُّ رُوحٍ سَلَلَتْ مِنْ جَسَدِ
وَأَيُّ كَفٍّ أَزَلَّتْ مِنْ عَضْدِ
قَبْلَ بُلُوغِ السَّوَاءِ فِي الْعَدَدِ

(١) ديوان ابن عبد ربه الأندلسي محمد التونجي ص ١٠٥ .

أَيُّ حَشَا لَمْ تَذُبْ لَهُ أَسْفَا
 لَأَصْبِرَ لِسِي بَعْدَهُ وَلَا جَلْدُ
 لَوْلَمْ أُمْتُ عِنْدَ مَوْتِهِ كَمَدَا
 يَالْوَعَةَ مَا يَزَالُ لَاعِجُهَا
 وَأَيُّ عَيْنٍ عَلَيْهِ لَمْ تَجْدُ ؟
 فَجَعْتُ بِالصَّبْرِ فِيهِ وَالْجَلْدُ
 لِحَقِّ لِي أَنْ أَمُوتَ مِنْ كَمَدِي
 يَقْدَحُ نَارَ الْأَسَى عَلَى كِبَدِي

معاني المفردات في القصيدة :

- « لواعج الكمد » : أهواء الحزن المحرقة ، والغم الشديد .
- « الجدث » : القبر الذي دفن به الميت .
- « الحشاشة » : بقية الروح في جسد مريض يعالج سكرات الموت .
- « خلواً من كل بائقة » : خالياً من كل كريهة غير مقبولة من الناس .
- « ليس بزُميلة ولا نكد » : ليس بجبانٍ ولا ضعيف ، ولا بخيل قليل العطاء .
- « أقلت عثرته » : أنهضته من زلته وسقطته وساعدته على تجاوزها .
- « بيضة البلد » : أكبر قومه وأعظمهم شأنًا ومكانة .
- « العنان » : الزمام أو القيادة .
- « الأمد » : الغاية ومنتهى الشيء .
- « سللت رونقه » : سلبت بهاءه وبريقه وتركته منطفئاً لا قيمة له .
- « أجحف به قبل السوء » : ذهب به قبل اكتماله بداراً ليلة الرابع عشر .
- « يالووعة ما يزال لاعجها » : ياحرقة الحزن التي ما يزال حرُّها المثير للأسى .

تحليل القصيدة :

في هذه القصيدة يبكي ابن عبد ربه ولده يحيى أيضاً، وقد استهلها بتعبير حزين « واكبداً » فقد استخدم واو النُدْبَة لأنه يندب ولده الذي فقده فموت ولده قد قطع كبده وفتتها، هذه الكبد التي أحرقها حبه الشديد لولده، وفجيعة فيه، وحزنه القاتل عليه، وليس أشدّ حزناً من الوالد على ولده وفلذة كبده .

وينتقل الشاعر من هذه المقدمة التواحيّة الحزينة إلى الدعاء لولده بالرحمة متخذاً من هذا الدعاء مدخلاً لذكر محاسن ولده، وإذا به يتجه إلى الموت مخاطباً إياه خطاب عتاب، وكأن الموت إنسان يسمع ما يقوله هذا الأب المكلوم ويعيه، وما موضوع العتاب؟ إنه يعاتبه على إسراعه باختطاف ولده الذي لم يكن جباناً ولا بخيلاً شحيحاً، ويتمنى لو أقال الموت عثرته أي أنهضه من كبوته، أوتركه لمستقبله لكان لهذا الولد شأن عظيم فلر بما صار عظيماً من عظماء بلده، أو حاز المعالي، وبلغ منتهى الرفعة، ثم يستخدم أساليب الاستفهام استخداماً بلاغياً بغرض تعظيم شأن فقده فيقول :

أَيَّ حُسَامٍ سَلَبْتَ رَوْقَهُ ؟ وَأَيَّ رُوحٍ سَلَلْتَ مِنْ جَسَدٍ ؟
وَأَيَّ سَاقٍ قَطَعْتَ مِنْ قَدَمٍ ؟ وَأَيَّ كَفٍّ أَرَلْتَ مِنْ عَظْمٍ ؟

فولده هو الحسام الذي سلبه الموت بهاءه، والروح التي سلّها روح عظيمة طيبة، وهو الساق التي يمشي عليها أبوه، والكف التي بها يعمل .. وهذا كله كناية عن شدة حاجة الأب إلى ولده الفقيد، فلقد اختطفه الموت، وهو أحوج ما يكون إليه، كما أن ذلك إشارة إلى عظم مكانة هذا الولد عند أبيه، وهو معنى يتكرر كثيراً في بكائيات ابن عبد ربه .

ويستخدم أبو عمر أسلوب الالتفات، فيترك الموت الذي كان يخاطبه معاتباً ويلتفت إلى ولده بالخطاب مصوراً إياه بقمر عاجله الخسوف قبل أن يكتمل بدرأ، ثم يلتفت من الخطاب إلى الغيبة : (أَيَّ حِشَاءٍ لَمْ تَذِبْ لَهُ أَسْفَاً ..) ويعود فيلتفت من الغيبة إلى

التكلم (لا صبر لي بعده ولا جلد .. البيت) وهذا كله يدل على حالة من عدم الاستقرار النفسي عند الشاعر ، أو إن شئت فقل : هذا إشارة إلى القلق النفسي والاضطراب الفكري الذي يسيطر عليه بسبب حزنه الشديد على ولده .

التعليق على القصيدة :

القصيدة التي بين يدينا أقوى وأظهر عاطفة من سابقتها فحزن الشاعر فيها جلياً واضحاً ، وأساه ناطقاً ، وتأمل قوله :

يا رحمة اللهؑ جاوري جدثاً دفنت فيه حشاشتي بيدي
فهو لم يدفن في هذا القبر ميتة وحده ، ولكن دفن معه البقية الباقية من روحه .

ولم ينس على عادة الرائيين ذكر محاسن ميتة وفقيده ، فلقد كان هادئ الطبع سليماً من المكارة والعيوب المبغضة ، طيب الروح طاهر الجسد ، شجاعاً معطاءً ، وقد أثبت له تلك الصفات باستخدام أساليب النفي التي تنفي أضدادها ونفي الضد تثبت ضده .

وقد أكثر الشاعر من استخدام أداة الشرط (لو) التي هي حرف امتناع لامتناع في معنى التمني ، وهو الشيء البعيد المنال ، أو المستحيل الحدوث ، وذلك في مثل قوله : (لو أقلت عشرته) ، (لو تركته لغد) ، (لو لم تكن تعاجله) ويعود الشاعر إلى المبالغة في مكانة ولده مستخدماً أسلوب التوكيد للتأكيد على قدرات فقيده التي كان من المتوقع أن توصله إلى مكان الصدارة والعظمة بين الناس لو لم يعاجله الموت وذلك في قوله (لكان لا شك بيضة البلد) فاستخدم لام التوكيد الداخلة على الفعل (لكان) و (كان) هنا استخداماً أيضاً يفيد التحسر على ماضع ، ثم فصل بين كان وخبرها بقوله (لا شك) ، لتنفي أدنى شك في بلوغه هذه المكانة .

كما استخدم أساليب الاستفهام البلاغية كما أشرت آنفاً بغرض التعظيم ، وقد تفيد معنى التحسر (أي حسام ؟ ، أي روح ؟ ، أي ساق ؟ أي كف ؟

أما قوله :

أَيُّ حَشَا لَمْ تَذُبْ لَهُ أَسْفًا وَأَيُّ عَيْنٍ عَلَيْهِ لَمْ تَجُدِ ؟

فالغرض هنا النفي أي لا توجد حشا لم تذب، ولا عين لم تجد ، وقد يفيد التعميم بمعنى كل حشا عليه ذابت، وكل عين على فقيده جادت .

وعندما أراد نفي الصبر والجلد .. استخدم لا النافية للجنس، لنفي كل لون من ألوان الصبر عن نفسه، وكذلك نفي كل نوع من أنواع الجلد والتحمل للمصيبة لديه .. ويؤكد ذلك بقوله (فجعت بالصبر فيه والجلد) فكأنه فقدهما بفقد ولده .. وحزن الشاعر قاتله لا محالة .. فإن لم يكن قد مات عند موت ولده ، فسوف يموت كمداً عليه، وتأمل استخدام الفعل (ما يزال) في قوله :

يالوعة _____ يزال لاعجها يقدح نار الأسى على كبدي

يُحس أنه مازالت أحزانه في صدره، ونار أساه تتأجج في كبده وتضطرم في قلبه حتى تؤدي به فيلحق بولده .

هذا إلى جانب الصور البيانية ، وخصوصاً الاستعارات التصريحية في قوله أي حسام ؟ .. أي ساق ؟ .. أي كف ؟ ، يا قمرأ أجحف الخسوف به، والتشبيه البليغ في قوله (نار الأسى) وقد أضاف المشبه به إلى المشبه ليجعلهما شيئاً واحداً، وهذا أبلغ في الدلالة على شدة الحزن وعنفوانه .

المرثية الثالثة :

وهي في طفله الذي مات صغيراً وفيها يقول : (١)

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ فَجْعةٍ خَانَنِي الصَّبْرُ فَرَأَى حَبِيبَ دُونِ أَوْبَتِهِ الْحَشْرُ
وَلِي كَبِدٍ مَشْطُورَةٍ بِيَدِ الْأَسَى فَتَحَتَ الثَّرَى شَطْرَ، وَفَوْقَ الثَّرَى شَطْرُ

(١) ديوان ابن عبد ربه الأندلسي محمد التونجي ص ١٢٩ - ١٣٠ .

يَقُولُونَ لِي : صَبِرْ فُؤَادَكَ بَعْدَهُ !
فُريخٌ مِنَ الحُمُرِ الحَوَاصِلِ مَا اكْتَسَى
إِذَا قُلْتُ أَسْلُو عَنْهُ ، هَاجَتْ بِلَابِلُ
وَأَنْظُرُ حَوْلِي لَا أَرَى غَيْرَ قَبْرِهِ
فَقُلْتُ لَهُمْ : مَالِي فُؤَادٌ وَلَا صَبْرٌ
مِنَ الرِّيشِ حَتَّى ضَمَهُ الْقَبْرُ
يَجِدُهَا فِكْرٌ ، يَجِدُهُ ذِكْرٌ
كَأَنَّ جَمِيعَ الْأَرْضِ عِنْدِي لَهُ قَبْرٌ
وَأَفْرَحُ جَنَّانِ الْخُلْدِ طَرْتُ بِمُهْجَتِي
وَلَيْسَ سِوَى قَعْرِ الضَّرِيحِ لَهُ وَكْرٌ

تحليل الأبيات :

موقف آخر من مواقف الابتلاء والمحنة يعيشه ابن عبد ربه ، وذلك عندما فقد ولدأ له مات صغيراً ، فألمه فقدته ، وعظمت فيه فجيعة ، حتى إنه لم يستطع صبراً ولا تصبراً ، ففراق حبيبه لا أوبة له في الدنيا ، ولا لقاء معه إلا في أرض المحشر يوم القيامة ، وحزنه شديد ، وشدة حزنه صوّرت كبده مشطورة شطرين : أحدهما تحت الثرى ، و ثانيهما فوقه ، وليت الأمر هين ، أوليت له فؤاد حي يصبره على بلواه ، عملاً بوصية من قال له : « صبر فؤادك بعده » ، وهذا في حد ذاته مطلب مثير لعجبه ودهشته ، فأَي فؤاد يصبره ؟ وأي صبر يتزوّد به ؟ وقد ذهب موت ولده بهما معاً ، فلا قلب له ، ولا صبر لديه ..

والفقيد برغم أنه قد رحل صغيراً كفرخ أحمر لم ينبت له ريش بعد إلا أن أباه لا يستطيع نسيانه ، وكلما حاول النسيان هاجت بلابل قلبه ، وهذا كناية عن تجدد الحزن ودوامه ، فولده في فكره ، وذكره متجددة دائماً وتجدد الذكرى يتجدد الفكر ، ، فيتجدد بهما الحزن ... ويختتم الشاعر رثاءه لطفله بقوله :

«أفرخ جنان الخلد طرت بمهجتي وليس سوى قعر الضريح له وكر»
إنها صرخة أسي ، وصوت محزون ، ونداء ملكوم .

التعليق على الأبيات :

في هذه الأبيات استخدم الشاعر الصورة التعبيرية المؤثرة ، فالحبيب ماله أوبة ، والكبد

مشطورة، بعضها تحت الثرى وبعضها فوقه، والفؤاد في إثره ذاهب، والصبر قد نفذ وانتهى، وبلا بل القلب شديدة الهياج لذكره، والذكرى دائمة متجددة والحزن دائم بدوامها، وكل بقاع الأرض في نظر الأب الحزين صارت قبراً لولده، أينما نظر رآه .. فكيف ينساه ؟ ! فالبصر والبصيرة معلقان بالراحل الحبيب، بل طار ولده بمهجته ..

والأساليب الخبرية هي الغالبة لأن الشاعر يحكي تجربة حزينة، والحسرة تملأ فؤاده، وإن كان الأسلوب القصصي القائم على الحوار المحكي قد أطل إطلالة خفيفة في قوله :
يقولون لي صبر فؤادك بعده فقلت لهم : مالي فؤاد ولا صبر
واستطرد يحكي السر في ذهاب الفؤاد، ونفاد الصبر .. حتى التفت فخاطب ولده .

والصور البيانية التي استعان بها لتوضيح معانيه كثيرة فمنها :

« خانني الصبر » استعارة مكنية حيث صور الصبر إنساناً ائتمنه على أمر فخانه، وهذا بيان لتخلي الصبر عنه، وعدم انصافه ومساندته، وقوله « ولي كبد مشطورة بيد الأسي » فالأسي وهو الحزن الشديد أمر معنوي لا يد له، ولا يستطيع أن يشطر أو يجبر ، ولكن ذلك استعارة مكنية تظهر شدة الحزن وقوة تأثيره .

وقوله « فتحت الثرى شطر، وفوق الثرى شطر » كناية عن إحساس الشاعر بالتمزق فهو متعلق بولده الذي جعله شطراً من كبده على سبيل الاستعارة التصريحية وقد كرر الشاعر كلمة الثرى، وكان من الطبيعي أن يعبر في المرة الثانية بضمير الغائب (فتحت الثرى شطر، وفوقه شطر) ، ولكن الحفاظ على التفعيلة العروضية هو الذي دفع الشاعر إلى تكرار الاسم الظاهر مرتين في عبارة واحدة، وفي موضع يغني فيه الضمير عنه ..

واستخدم المحسن البديعي (تحت الثرى - فوق الثرى) ليبين حالة التمزق التي أشرنا إليها .

كما ساق الاستعارة التصريحية في قوله « فريخ من الحمر الحواصل » فولده هو الفريخ الصغير .. والتصغير هنا للتمليح من ناحية، وللدلالة على صغر سن هذا الطفل وهذا يكشف عن عاطفة الحب في قلب الأب الحاني، الذي يحزنه فقد طفله الذي لم يترك مهده بعد، ولم يع ما حوله ..

وفي قوله « هاجت بلابل » فالبلابل هنا يعني بها الهموم والأحزان الشديدة تهيج بعد سكونها، وفي التعبير استعارة تصريحية تكشف عن الأحزان الكامنة في قلبه يحركها ويهيجها الفكر، والفكر يجدده الذكر الدائم لولده، وتأمل هذا الترتيب المنطقي فالأحزان يجددها الفكر، والفكر يجدده الذكر، وبين الفكر والذكر جناس ناقص .

كما أن الشاعر يعلل لعدم نسيان ولده بتصوره أن الأرض كلها من حوله قد صارت قبراً لولده، فأصبح لا يرى حوله إلا هذا القبر الذي تعلق قلبه بنزله، وتأمل نداء لولده (أفرخَ جنان الخلد) واستخدامه الهمزة للنداء، للدلالة على شدة قرب وليده من قلبه، فالشاعر قد حشد كل إمكانياته الفنية والثقافية لرثاء طفله، فأجاد التعبير، وأحسن التصوير، وهذا ليس عليه ببعيد .

وتأمل معي هذا الموقف الأبوي الذي يكشف عن عمق عاطفة ابن عبد ربه حينما تدهمه المحنة، ويرى بعينه عجز الطبيب عن علاج ولده المريض مرضاً أضناه، فإذا به يفرع إلى الله في لهفة يضرع إليه، ويسأله لولده الشفاء، ويترجم هذا الموقف الصعب شعراً وجدانياً، فيقول مخاطباً ولده المضى ، ومتضرعاً إلى الله عز وجل : (١)

بُنِيَ لئنَ أعيَا الطَّبِيبَ ابنَ مُسلمٍ	ضَنَّاكَ وَأَعْيَاذًا البِـيَّانَ المُسَجِّعِ
لَأَبْتَهَلَنَ تَحْتَ الظَّلَامِ بَدْعَوِيَّةً	مَتَى يَدْعُهَا دَاعٍ إِلَـهِي اللهُ تَسْمَعِ
يَقْلُقُ مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ نَشِيجُهَا	لَهَا شَافِعٌ مِنْ عِبْرَةٍ وَتَضَرُّعِ

(١) ديوان ابن عبد ربه محمد التونجي ص ١٧٣ - ١٧٤ .

إِلَى فَارِجِ الْكَرْبِ الْمُجِيبِ لِمَنْ دَعَا فَرَعْتُ بِكَرْبِي إِنَّهُ خَيْرٌ مَفْرَعٍ
فِيَا خَيْرَ مَدْعُو دَعْوَتِكَ فَاسْتَمِعْ وَمَالِي شَفِيعٌ غَيْرُ فَضْلِكَ فَاشْفَعْ

ولنعد مرة أخرى إلى رثائه لولده يحيى الذي يبدو لنا من كثرة بكاء أبيه عليه أنه كان يعدّه ليتصدّر مجالس العلماء، وليكون رجلاً من رجالات الدولة في عهده، ولذلك اشتد حزنه على فقده بعد أن نضج واستوى على سوقه وأعجب الناس، ولذا نراه في مراثية أخرى يقول: (١)

لَا بَيْتَ يُسْكَنُ إِلَّا فَارِقَ السَّكْنَا وَلَا أَمْتَلَا فَرَحًا إِلَّا أَمْتَلَا حَزَنًا
لَهْفًا عَلَ مَيِّتٍ مَاتَ السُّرُورُ بِهِ لَوْ كَانَ حَيًّا لَأَحْيَا الدِّينَ وَالسُّنَنَّا
وَاهَا عَلَيْكَ أَبَا بَكْرٍ مُرَدَّدَةٌ لَوْ سَكَنْتَ وَلَهَا أَوْ فَرَّتْ شَجَنَّا
إِذَا ذَكَرْتِكَ يَوْمًا قُلْتُ : وَاحْزَنًا وَمَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْقَوْلُ : وَاحْزَنًا
يَا سَيِّدِي، وَمَرَّاحُ الرُّوحِ فِي بَدَنِي هَلَّا دَنَا الْمَوْتُ مِنِّي حَيْثُ مِنْكَ دَنَا
حَتَّى يَعُودَ بَنًا فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ لُحْدٌ ، وَيُلْبَسُنَا فِي وَاحِدٍ كَفْنَا
يَا أَطِيبَ النَّاسِ رُوحًا ضَمَّهُ بَدَنٌ أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ ذَاكَ الرُّوحَ وَالْبَدَنَا
لَوْ كُنْتُ أُعْطِيَ بِهِ الدُّنْيَا مُعَاوَضَةً مِنْهُ، لَمَّا كَانَتِ الدُّنْيَا لَهُ ثَمَنًا

والشاعر هنا يسلم بدايةً بأن الدنيا لا تدوم على حالٍ واحدة ، فهي إن أحلت أمرت، وإن أضحكت أبكت، وما من بيت يُسكن إلا ويفارقه ساكنوه إن آجلاً أو عاجلاً، وما من بيت امتلأ فرحاً وسروراً، إلا بعد ذلك عمه حزنٌ وأترّاح، ويعود ابن عبد ربه إلى تكرار ما سبق من معانٍ في مراثيه السابقة والتي أشرنا إليها وحللنا بعضها، فالسرور في حياته قد فارقه بفراق ولده يحيى، هذا الذي لو كان حياً لكان له دور بارز في إحياء

(١) المصدر السابق ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

شرع الله سنة رسوله ﷺ .

ويصدر عن الشاعر آهات مكلوم الفؤاد على ولده الكبير الذي كان يُعدهُ لعظيم المكانة، ورفيع المنزلة « واهاً عليك » ويدي استعداده لترديدها مرات ومرات لو كانت تُسَكِّنُ حُزنه، أو تقلِّلُ أشجانه .

ويؤكد أنه كلما تذكَّر ولده تجددت أحزانه، فيصرخ من أعماق فؤاده : « واحزنا » ، ولا فائدة منها فهي لا تعيد لميت حياة، وكان يتمنى أن يدنو الموت منه في نفس اللحظة التي دنا فيها الموت من ولده حتى يضمَّهما قبر واحد، ويلفهما كفن واحد، فهما اثنان في واحد كما يرى الشاعر .

ولكن في النهاية يعلن تسليمه بما قضى الله وقدر، ويستودع الله فقيده ويتطلع أحزانه، ولكن ليس معنى هذا التفريط في ولده، أو نسيانه، فلو أُعْطِيَ الدنيا بأسرها، ما كان ذلك عوضاً عن ولده، ولا ثمناً له .

وكأنني به في هذا المعنى قد تأثر بابن الرومي في رثاء ولده الأوسط عندما قال منوهاً بنفس المعنى : (١)

وَمَا سَرَّنِي أَنْ بَعَثْتُهُ بِثَوَابِهِ وَلَوْ أَنَّهُ التَّخْلِيدُ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
وَلَا بَعَثْتُهُ طَوْعاً ، وَلَكِنْ غُصِبَتْهُ وَلَيْسَ عَلَى ظُلْمِ الْحَوَادِثِ مِنْ مُعَدِّ

نظرات نقدية في شعر المحنة عند ابن عبد ربه :

إن شعر ابن عبد ربه يتميز بالبساطة، فأفكاره واضحة سلسة لا تعقيد فيها ولا فلسفة، كما أنها أفكار مفردة غير مركبة، بحيث لا تجد فكرة ترتب على فكرة أخرى سابقة أو لاحقة .

(١) أمراء الشعر في العصر العباسي . أنيس المقدسي ص ٣١٢ .

كما أن صوره الشعرية التي يسوقها لتوضيح أفكاره، وعرض معانيه تتسم بالوضوح التام، وهي في أغلبها صور مطروقة مثل: (مات السرور) (يد الأسى)، (ما كانت الدنيا له ثمناً)، (خانني الصبر)، (فريخ من الحمر الحواصل)، (كأن جميع الأرض عندى له قبر)، (يا قمراً أجحف الخسوف به)، (حشا لم تذب)، (يقدح نار الأسى على كبدي)، (حرقتها لواعج الكمد) .

فالأصـور كلها كما ترى سهلة ميسورة يمكن إدراكها بدون عناء .

أما الألفاظ فهي موحية، تمتاز بالبساطة إلا في القليل النادر منها، وتبعاً لذلك جاءت عباراته جلية واضحة، وأتسم أسلوبه عموماً بالوضوح الذي يهيئ القارئ لفهم مراده بلا مشقة، بل ويمكنه في بعض الأحيان من مشاركته أساء ولوعته .

ونظراً لجيشان عاطفة ابن عبد ربه فإن نغمة الموسيقى الحزينة النائحة واضحة ظاهرة، وتستشعر وأنت تقرأ مرثياته صوت البكاء فيما يقول ، وهذا ناتج عن الصدق الوجداني الذي امتاز به شعر الرثاء الذي فاضت به قريحته ، وما هذا إلا لأنه يرثي فلذة كبده فهو المكـلوم الفؤاد، وهو النائح المولـه في وقت واحد .

أما من ناحية تأثره في بعض المواطن من أبيات الرثاء التي ساقها بمن سبقوه في هذا المضمار كأبي ذؤيب الهذلي في رثاء أولاده الخمسة وابن الرومي في رثائه لولده الأوسط محمد، فهذا أمر طبيعي لا يعيب الشاعر، فالعبرة بأسلوب أداء المعنى، وطريقة عرضه ، وربما فاق اللاحق السابق في معنى تناوله كل منهما ، وهذا كثير في شعرنا العربي ولسنا مع من يتهم ابن عبد ربه « بأن التيار العاطفي في شعره ^(١) مفقود، أو مختنق حتى في أشد الحالات التي يمكن أن تثور فيها عاطفته كموت أبنائه » فالرجل على عكس ذلك تماماً خصوصاً في رثائه لولده يحيى، أو حتى في رثائه لطفله الصغير الذي مات في مهده ، وما سقناه من بكائيات ولدتها النكبة شاهد على ذلك فالمتأمل في رثائه لولديه خصوصاً يحيى الذي كان يعدّه لشأن عظيم . والقارئ لهذا الرثاء بإمعان يتأكد لديه أن هذه المحنة قد كشفت عن عاطفة أبوية جياشة في صدر ابن عبد ربه، كما

(١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة د . إحسان عباس ص ١٩٤ .

كشفت عن قلب مزقته محتته ، وكبد شطره وفتته بلاؤه الذي ابتلي به ، ونفس حزينة أثرت فيها النكبات ، فلماذا نهضم حق الرجل برغم أنه كان علماً من أعلام عصره ، وقد شهد بذلك نقاد قدامى عايشوه عن قرب ، وقاسوا شعره بالمقاييس النقدية المناسبة لعصرهم ، ومنهم شرف الدين القيرواني الذي نقل عنه ابن بسام في الذخيرة قوله : « وأما ابن عبد ربه القرطبي ، وإن بعدت عنا دياره ، فقد صاقتنا أشعاره ، ووقفنا على أشعار صبوته الأنيقة ، ومكفرات توبته الصدوقة ، ومدائح المروانية ، ومطاعنه في العباسية واطلعنا في شعره على علم واسع ، ومادة فهم مضى ناصع » (١) .

وفي العصر الحديث يقول محقق ديوان ابن عبد ربه : « رثاؤه قليل ، ويعتبر فن الرثاء من أطول أغراضه نفساً لأن عواطفه فيه صادقة منبعثة من فؤاد مغموم ، ومن كبد مكلوم ، وقد أجاد في هذا الفن إجادة مشكورة في المبني والمعنى ، ونستطيع أن نعدّه على قلة ما قال - في طليعة شعراء الرثاء لرقته ، وصدق عواطفه ، وقربه من نفس موتاه » (٢) .

ويقول الأستاذ الدكتور أحمد هيكल : « من سمات شعر ابن عبد ربه الغنائية التي تتمثل في غلبة الجانب الموسيقي ، واتضح العنصر العاطفي ، وشيوع الرقة والسلاسة ، وهذه السمة (الغنائية) هي مصدر حرارة شعرية له ، ومبعث إيحائية فنية فيه » (٣) .

ولذا لا يمكن التسليم بالحكم على شعر ابن عبد ربه بأن العاطفة فيه مفقودة أو مختنقة ... بل الانصاف في عكس ذلك تماماً كما هو واضح .

(١) الذخيرة لابن بسام ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) ديوان ابن عبد ربه الأندلسي د. محمد التونجي ص ٣٦ .

(٣) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة د. أحمد هيكل ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني

نتائج التتبع

في فترة الاجابة العامة

« ٣٦٦ هـ - ٣٩٩ هـ »

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفْعُ
عبد الرحمن النخعي
السلطان النوراني

تمهيد

تُعَدُّ فترة الحجابة العامرية امتداداً للعصر الأموي في الأندلس خصوصاً عصر الخلافة الأموية، ففي عهد الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٥٠هـ - ٣٦٦هـ) تسلل إلى قصر الخلافة داهية من دواهي الزمن هو محمد بن أبي عامر، هذا الرجل الذي اتسم بالذكاء الخارق، والطموح غير المحدود، والذي نجح في إثبات وجوده في قصر الخليفة الحكم، واستأثر بحب الكثيرين من سكان هذا القصر خصوصاً قلوب حريمه، وبأسلوب المداينة من ناحية، وإثبات الكفاءة من ناحية أخرى، وثب ابن أبي عامر إلى أرقى المناصب بسرعة مذهلة، وما أن توفي الحكم المستنصر بالله ٣٦٦هـ إلا وكان لابن أبي عامر اليد الطولى في تولية ابنه هشام الخلافة خلفاً لأبيه الحكم، بعد مؤامرة سريعة للتخلص من عمه المغيرة بن عبد الرحمن، شارك في تنفيذها ابن أبي عامر بعينه، ولقب هشام بالمؤيد، وكان صغير السن لا يمكنه إدارة الدولة بنفسه، وحجب له المصحفي، ولكن ابن أبي عامر عمل على تحقيق هدفه الذي ينشده وهو الوصول إلى أعظم مناصب الدولة، وهو منصب الحجابة ومن أجل ذلك أخذ يتخلص من منافسيه في القصر الأموي واحداً وراء الآخر، تساعده على ذلك أم الخليفة « صبح » وقد توثقت علاقته بها عن طريق ما قدمه لها من هدايا قيمة جعلها في صفه دائماً، ووصل فعلاً إلى ما أرادته وابتغاه، وتولى الحجابة لهشام المؤيد، وتلقب بلقب الحاجب المنصور، وأصبح الحاكم الفعلي للبلاد، وأمر بالدعاء له على المنابر، ومنع الوزراء من الاتصال بالخليفة إلا عن طريقه، وظلت الدولة في عهده قوية، وعظمت مكانتها، واشتد اهتمامه بالعلم والعلماء .. وتوفي الحاجب المنصور سنة ٣٩٢هـ وتولى الحجابة من بعده ولده عبد الملك الذي تلقب بالمظفر، وقد سار على منهاج أبيه، واتصف بصفاته، وقد حكم لست سنوات فقط حيث توفي سنة ٣٩٨هـ فخلفه أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجرول،

وكان ضعيفاً مسرفاً في الملذات والشهوات، شديد الطيش، مما دفعه إلى إجبار هشام المؤيد على أن يكتب له عهداً ليكون وليّ عهده، ممّا أثار نائرة بني أمية ، فوثبوا على عبد الرحمن بقيادة محمد المهدي بن عبد الجبار الأموي وقتلوه، وعزلوا هشام المؤيد سنة ٣٩٩ هـ ، ونصبوا مكانه محمد المهدي .. وإبان ذلك اشتعلت نيران الفتنة البربرية في قرطبة والتي استمرت حتى سنة ٤٢٢ هـ وفي هذه الفترة حدث في قرطبة أربعة عشر انقلاباً ، وسالت الدماء أنهاراً وخرّبت قصور الزاهرة والزهراء، وعيث في الأرض فساداً حتى أعلن أهل الحلّ والعقد من جماعة العلماء إلغاء الخلافة الأموية وإعلان ما يشبه الحكم الجمهوري في قرطبة برئاسة قاضي الجماعة أبي الحزم بن جهور .

وكانت فترة الحجابة التي زادت على ثلاثين سنة فترة حكم استبدادي اكتوى خلالها كثيرون بنار استبداد الحكام ، وعاش فيها شعراء امتحنوا وابتلوا بألوان متعددة من البلاء، ونكبوا سواء على يد الحكام أم بسبب ظروف سيئة حاقت بهم .. وكان من أبرز هؤلاء الشعراء الذين حلت بهم نكبات شخصية كل من :

١- جعفر بن عثمان المصحفيّ

٢- يوسف بن هارون الرماديّ

٣- أبو عبد الله محمد بن مسعود البّجاني .

٤- أبو مروان عبد الملك الجزيريّ

٥- أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد

وهم الذين سيتناولهم حديثنا خلال هذا الفصل إن شاء الله تبارك وتعالى حسب ترتيبهم هذا ، وقد تم الترتيب على أساس بداية نكباتهم بصرف النظر عن تاريخ الوفاة حيث نكب أبو مروان الجزيري بعد يوسف بن هارون الرمادي وعفي عن الثاني بينما عجل بقتل الأول .

(١) جَعْفَرُ بْنُ عُثْمَانَ الْمُصْحَفِيِّ

التعريف بالشاعر :

هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة من بربر (١) بلنسية، كان مُؤدِّباً لِلْحَكَمِ بن عبد الرحمن الناصر في حياة والده، ووثق به الناصر فولاه على جزيرة ميورقة، ولما ولي الحكم الخلافة بعد وفاة والده سنة ٣٥٠ هـ استوزره، ثم ولاه الحجابة، أي رئاسة الوزارة غالباً، وظل في هذا المنصب طوال مدة خلافة الحكم، ولما توفي الحكم، حرص المصحفي على أن يتولى الخلافة من بعده ولده هشام بن الحكم وكان غلاماً حدثاً لم ينضج بعد، وكان هدف المصحفي أن تظل دفة السلطة بيديه، ولذلك اشترك مع ابن أبي عامر في مؤامرة للتخلص من المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، الذي كان من المفروض أن يخلف أخاه، ولكنه قتل بيد ابن أبي عامر، ويتواطؤ مع المصحفي، ولما نودي بمبايعة هشام بالخلافة لُقِبَ بالمؤيد، وأقر جعفر على منصبه، بل أثره بمزيد من المسؤوليات ثقة منه به، واحتراماً لذكرى والده الحكم المستنصر بالله .

نكبة المصحفي وبلاؤه :

لقد نال المصحفي كل ما صبت إليه نفسه، وأحبه فؤاده من الرفعة والصلو جان، وعاش أيام خلافة الحكم المستنصر يأمر وينهى، ويرفع ويضع، ويشير فسطاح إشارته، ويرفع الناس إليه الظلامات والشكاوى ليفصل فيها، ويتولى ذلك بنفسه، ويصدر ما يروق له من أحكام، وأصبح من ذوي الجاه العريض، والثراء والغنى، وظل كذلك صدر خلافة هشام المؤيد .. ولكن كما يقول القائل: « ماطر طير وارتفع إلا كما طار وقع » .. فبينما كان المصحفي يمارس سلطاته، ويسعى إلى إحراز المزيد منها، كانت عين ابن أبي عامر ترقبه، وفكره يرتب للقضاء عليه، وسعيه دائباً في زحزحته من مكانه، إذ كان هذا الرجل الداهية محمد بن أبي عامر يتطلع إلى منصب الحجابة، ولذلك كان يتحرك في الخفاء مدبراً المؤامرات تحت جنح ظلام ليل بهيم، وسالماً لذلك طرقاً ملتوية مشروعة وغير

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٢٩٤ .

مشروعة، ووضع نصب عينيه سرعة التخلص من المصحفي الذي يعد حجر عثرة في طريقه لبلوغ هدفه، وكان له ما أراد، حيث أعانه على ذلك ويسره له كراهية الكثيرين للحاجب المصحفي خصوصاً بعض الوزراء، والقادة العسكريين، وعلية القوم، وكان أسرع^(١) صنف في الاستجابة لابن أبي عامر الطائفة من أعيالي الوزراء، وكذا أعظم الدولة، فقد هادوا المنصور عليه، وانحرفوا عنه إليه، ومنهم آل أبي عبيدة، وآل شهيد، وآل فطيس من الخلفاء وأصحاب الردافة، من أولي الشرف والإنافة، وكانوا في الوقت أزمة الملك، وقوام الخدمة، ومصاييح الأمة، وأغير الخلق على جاه وحرمة، فأحفظوا محمد بن أبي عامر مشايعةً، ولبعض أسبابه الجامعة متابعة، وشادوا بناءه حتى بلغ الأمل، والتحف بمناه واكتحل، وعند التثام الأمور لابن أبي عامر استكان جعفر بن عثمان للحادثة، وأيقن بالنكبة، وزوال الحال وانتقال الرتبة، وكف عن اعتراض محمد وشركته في التدبير، وانقبض الناس من الرواح إليه والتبكير، وانشالوا على ابن أبي عامر، فخف موكبه، وغار من سماء العز كوكبه، وتوالى عليه سعي ابن أبي عامر وطلبه إلى أن صار يغدو إلى قرطبة وروح، وليس بيده من الحجابة إلا رسمها، وابن أبي عامر مشتمل على رسمها، حتى محاه، وهتك ظله وضحاه، ونصب نفسه حاجباً، وتلقب بالمنصور، وليت ابن أبي عامر اكتفي بعزل المصحفي، ولكنه إمعاناً في إذلاله قبض عليه وألقى به في السجن، وعذبه نفسياً وبدنياً، ولم يتركه حتى قضى على حياته، وأخرج من سجنه محمولاً على الأعناق إلى قبره .

أثر النكبة في حياة المصحفي وشعره :

لقد أحدثت نكبة المصحفي انقلاباً في حياته، حيث قلبتها رأساً على عقب، فحولته من العز إلى الذل، ومن الغنى والثراء إلى الفقر حيث صودرت أمواله وقصوره، وضياعه، فلم يبق له شيء، وتحول في نظر الناس من صورة ذي الجاه العريض، والهيبة والوقار إلى أفاق ولصر مختلس، وصدق فيه قول الحق سبحانه وتعالى في محكم كتابه ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران . الآية (٢٦)] .

(١) نفح الطيب للمقري ج ١ ص ٤٢٠ - ٤٢٢ نقلاً عن المطمح للفتح بن خاقان ص ٧ .

ويروي المقرئ عن الفتح بن خاقان ماحكاه في المطمح عن محمد بن إسماعيل كاتب المنصور يحكي عن التحول في حياة المصحفي بسبب النكبة فيقول : رأيت يساق إلى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلاً ، فأقبل يدرم (يقارب الخطى في عجلة مع ثقل بسبب قيوده) وجوارحه باللواعج تضطرم ، ورائق الضاغط أي الحارس عليه ينهره ، والزعم يقهره ، والبحر والسن قد هاضاه ، وقصراً خطاه ، فسمعته يقول : رفقاً بي فستدرك ما تحب وتشتهيه ، وترى ما كنت ترجيه ، وباليث أن الموت يباع فأغلي سومه ، حتى يرده من أطال علي حومه ثم أنشأ يقول : (١)

لَا تَأْمَنَنَّ مِنَ الزَّمَانِ تَقَلُّبًا إِنَّ الزَّمَانَ بِأَهْلِهِ يَتَقَلَّبُ
وَلَقَدْ أَرَانِي وَاللُّيُوثُ تَخَافُنِي فَأَخَافُنِي مِنْ بَعْدِ ذَاكَ الثَّعْلَبُ
حَسْبُ الْكَرِيمِ مَذَلَّةٌ ، وَمَهَانَةٌ أَنْ لَا يَزَالَ إِلَى لَيْثٍ يُطْلَبُ
وَإِذَا أَنْتَ أُعْجُوبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا فَالدَّهْرُ يَأْتِي بِالَّذِي هُوَ أَعْجَبُ

وفي هذا المجلس أهين المصحفي إهانة بالغة من بعض الوزراء الذين تنكروا له ، وجحدوا أياديه عليهم وأفضاله ، مما أثار الأسى في نفوس عدد من الحاضرين ، فتوجعوا له مما حلّ بجناحه فكتب إليهم يواسي نفسه ويواسيهم : (٢)

أَحْنُ إِلَى أَنْفَاسِكُمْ فَأُظْنِهَا بَوَاعْتُ أَنْفَاسِ الْحَيَاةِ إِلَى نَفْسِي
وَإِنَّ زَمَانًا صِرْتُ فِيهِ مُقِيدًا لِأَثْقَلُ مِنْ رَضْوَى وَأَضْيِقُ مِنْ رَمْسٍ

ولما أمر ابن أبي عامر بإعادة المصحفي إلى السجن مرة أخرى أسرع إليه شجونه ، وقال معزياً نفسه بنفسه ، ومجتزئاً بإسعاد أمسه : (٣)

أَجَازِي الزَّمَانَ عَلَى حَالِهِ مُجَازَاةَ نَفْسِي لِأَنْفَاسِهَا
إِذَا نَفْسٌ صَاعِدٌ شَفَّهَا تَوَارَتْ بِهِ دُونَ جُلَاسِهَا
وَإِنْ عَكَفَتْ نَكْبَةٌ لِلزَّمَانِ عَطَفْتُ بِنَفْسِي عَلَى رَاسِهَا

(١) الحلة السرياء : ج ١ ص ٢٦٧ ، ونفع الطيب للمقري ج ١ ص ٤٢١ والبيت الأخير من الذخيرة ج ٤ م ١ .

(٢) نفع الطيب للمقري ج ١ ص ٤٢٣ . (٣) نفع الطيب للمقري ج ١ ص ٥٩٤ .

وأصرَّ ابن أبي عامر على سجن المصحفيّ في المطبق في زهراء قرطبة، ولم يشفع له بين يديه سابقة يد ولا كريم فعل ، بل لم يتذكر من تاريخه إلا كل سيئة، وهذا ما أدخل الندم على نفس المصحفيّ، نعم الندم على أنه هو الذي أدخل ابن أبي عامر إلى قصر الخلافة، وأنه نبت غرسه بيده ، وساعده على النمو حتى استغلظ واستوى على سوقه، وقد عبّر عن ندمه هذا شعراً فقال : (١)

تَنَدَّمْتُ وَالْمَغْرُورُ مِنْ قَدْ تَنَدَّمَ وَهَلْ يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَتَنَدَّمَ؟
غَرَسْتُ قَضِييًّا خَلْتَهُ عُدُودَ كَرَمَةٍ وَكُنْتُ عَلَيْهِ فِي الْحَوَادِثِ قِيَمًا
أَكْرَمُهُ دَهْرِي فَيَزِدَادُ حَسَنَةً وَلَوْ كَانَ مِنْ عُدُودِ كَرِيمٍ تَكْرَمًا

ومن سجنه بالمطبق في مدينة الزهراء أرسل المصحفيّ إلى ابن أبي عامر يستعطفه، ويسأله التفاوضي عن زلّته إن كانت له زلّة، وعن إساءته إن كانت هناك إساءة قائلاً : (٢)

هَبْنِي أَسَأْتُ فَأَيُّنَ الْعَفْوُ وَالْكَرَمُ إِذْ قَادَنِي نَحْوُكَ الْإِذْعَانُ وَالْوَنْدَمُ
يَاخِرُ مِنْ مَدَّتِ الْأَيْدِي إِلَيْهِ أَمَا تَرْتِي لِشَيْخٍ نَعَاهُ عِنْدَكَ الْقَلَمُ !؟

ولكنَّ الحاجب المنصور قد بالغ في الحط من قدره وعدم الاستجابة له، وردّ عليه ساخرًا منه بأبيات تمثلها لعبد الملك الجزيري :

يَا جَاهِلًا بَعْدَ مَا زَلْتُ بِكَ الْقَدَمُ تَبْغِي التَّكْرُمَ لِمَا فَاتَكَ الْكُرْمُ
نَدَمْتُ إِذْ لَمْ تَعُدْ مِنِّي بِطَائِلَةٍ وَقَلَمًا يَنْفَعُ الْإِذْعَانُ وَالْوَنْدَمُ
نَفْسِي إِذَا جَمَحَتْ لَيْسَتْ بِرَاجِعَةٍ وَلَوْ تَشَفَّعَ فَيْكَ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ

وقد رويت الأبيات التي ردّ بها المنصور على استعطاف المصحفي في سجنه بصيغة أخرى هي : (٣)

الآن يَا جَاهِلًا بَعْدَ مَا زَلْتُ بِكَ الْقَدَمُ تَبْغِي التَّكْرُمَ لِمَا فَاتَكَ الْكُرْمُ

(١) الذخيرة لابن بسّام ج ٤ م ١ ص ٧٠٨ . (٢) نفح الطيب للمقري ج ١ ص ٦٠١ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٩٩ ، الأدب العربي في الأندلس د. عبد العزيز عتيق ص ٩٠ - ٩١ .

أَغْرَيْتَ بِي مَلَكاً لَوْلَا تَثْبُتُهُ مَا جَازَ لِي عِنْدَهُ نَطْقٌ وَلَا كَلَمٌ
فَايَأْسُ مِنَ الْعَيْشِ إِذْ صَرْتَ فِي طَبَقِ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتَنْقَمُوا نَقَمُوا
نَفْسِي إِذَا سَخِطْتَ لَيْسَتْ بِرَاضِيَةٍ وَلَوْ تَشَفَّعَ فِيكَ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ !!

وقد أورد صاحب البيان المغرب أن المصحفيّ قد أمعن في التذللّ المهين والاستعطاف المشين بصورة مثيرة للأسى والحزن حيث أرسل إلى المنصور مرة أخرى من سجنه يقول : (١)

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ! أَلَا رَحْمَةً تَجُودُ بِعَفْوِكَ إِنَّ أَبْعَدَ دَا ؟ !
لَعَنُ جَلِّ ذَنْبِي ، وَلَسْتُ أَعْتَمِدُهُ فَأَنْتَ أَجَبُ كُلِّ وَأَعْلَى يَدَا
أَلَمْ تَرِ عَبْدًا عَدَا طَعْنُورَهُ وَمَوْلَى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى ؟
وَمُفْسِدًا أَمْرًا تَلَافِيئَهُ فَعَادَ فَأَصْلَحَ مَا أَفْسَدَا ؟
أَقْلَنِي ! أَقَالَكَ مَنْ لَسْتُ يَزِلُّ يَقِيكَ وَيَصْرِفُ عَنْكَ الْوَرْدَى

ولكن المنصور بن أبي عامر لم يصغ إلى توسلات جعفر المصحفي، بل لم يأمن جانبه حتى وهو رهين قيوده في قبضة يده، ولذلك شدّد عليه الحراسة وأمعن في التنكيل به، وبلغ من عدم اطمئنانه إليه أنه كان ينقله معه في غزواته المتعددة مقيداً محمولاً على قتب، وهو شيخ مسنّ لا يتحمل السفر مسافات طويلة في الحر والبرد على هذه الصورة المؤلمة، يقول محمد بن إسماعيل كاتب المنصور بن أبي عامر : « .. واتفق أن نزلتُ بجليقية إلى جانب خباء المصحفيّ في ليلة باردة نهى فيها المنصور عن وقود النار ليخفي على العدو أثره، ولا ينكشف إليه خبره، فرأيت - والله - المصحفيّ وعثمان ولده يسقيه دقيقاً قد خلطه بماءٍ يقيم به أوده، ويمسك بسببه رمقه بضعف حال، وعدم

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٩٩ .

زاد وهو يقول: (١)

تَعَاطَيْتُ صِرْفَ الْحَادِثَاتِ فَلَمْ أَزَلْ أَرَاهَا تَوَفِّي عِنْدَ مَوْعِدِهَا حُرًّا
فَلَلَّهِ أَيَّامٌ مَضَتْ بِسَبِيلِهَا فَإِنِّي لَا أَنْسَى لَهَا أَبَدًا ذِكْرًا
تَجَافَتْ بِهَا عَنَّا الْحَوَادِثُ بَرْهَةً وَأَبَدْتُ لَنَا مِنْهَا الطَّلَاقَةَ وَالْبِشْرَا
لِيَالِي مَا يَدْرِي الزَّمَانُ مَكَانَنَا وَلَا نَظَرْتُ مِنَّا حَوَادِثُهُ شَرًّا
وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا سَحَابٌ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ تُمْطِرُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّا

ولكن قلب المنصور بن أبي عامر كأنه قد من صخر لا يعرف اللين جانبه وكان أذنيه قد صممتا فلا يسمع لتوسلات المصحفي، ولا يشفق عليه مما أدخل اليأس في قلب المصحفي من أوسع أبوابه، وأيقن أنه قد وقع في قبضة من لا يرحم فبدأ يستكين ويستسلم لقدره، وترجم ذلك في شعره مع نصح لغيره ألا يغتر بما اغتر به، وأن يتعظ كل من يعرف قصته بما حدث له، ويأخذ جانب الحيطة والحذر حتى لا يصيبه ما أصابه، ويقر بأن الأعمار آجال مؤجلة، إذا ما انتهت مات الإنسان، أما إذا كان في العمر بقية، فلو وقع الإنسان وسط الأسد الضارية ما مسه سوء كل هذه المعاني يعبر عنها بقوله: (٢)

لِي مَدَّةٌ لَا بُدَّ أَبْلُغَهَا فَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُهَا مَتْ
لَوْ قَابَلْتَنِي الْأَسَدُ ضَارِيَةً وَالْمَوْتُ لِمِ يَقْرُبُ لَمَّا خَفْتُ
فَانْظُرْ إِلَيَّ، وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ فَمِثْلُ حَالِكَ أَمْسٍ قَدْ كُنْتُ

وأخيراً ييقن المصحفي ألا نجاة ولا مخرج، وأن نهايته ستكون في المطبق، وأنه لن يخرج منه حياً، فعنى نفسه بأبيات مؤثرة باكية، تحمل معاني الأسى والألم، حيث يقول: (٣)

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٩١ - ٩٢ نقلاً عن المطمح ص ٦ ، الحلة السيرة ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٦٠٣ ، الحلة السيرة ج ١ ص ٢٦٧ ، الذخيرة ج ٤ ص ٥١ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٠٢ ، نفح الطيب ج ١ ص ٥٩٣ - ٦٠٤ ، الأدب العربي في الأندلس د. عتيق ص ٣٣ .

صَبَرْتُ عَلَى الْأَيَّامِ لَمَّا تَوَكَّتُ
فَوَاعَجِبْتُ لِلْقَلْبِ كَيْفَ اصْطَبَّاهُ
وَمَالِ النَّفْسِ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى
وَكَانَتْ عَلَى الْأَيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً
فَقُلْتُ لَهَا : يَا نَفْسُ مَوْتِي كَرِيمَةٌ
وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ
وَلِلنَّفْسِ بَعْدَ الْعَزْ كَيْفَ اسْتَذَلَّتْ
فَإِنْ طَمَعَتْ تَأَقَّتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ
فَلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي عَلَى الذُّلِّ ذَلَّتْ
فَقَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا لَنَا ثَمًّا وَلَتْ

وظل المصحفي حبيس المطبق في الزهراء إلى أن هلك في سجنه، وأُخرج إلى أهله ميتاً ، بعد أن مكث مستذلاً معذباً خمس سنين، ولقد قيل : إن المنصور بن أبي عامر أراد أن يتخلص منه نهائياً بعد أن أيقن من استتباب الأمور له، ومن إحكام قبضته على الجميع، وبعد أن علّم علّم اليقين أن أتباع المصحفي وأنصاره جميعاً قد انصرفوا عنه إما ترغيباً أو ترهيباً، ولذلك دسّ له السّم في ماء شربه، قال محمد بن إسماعيل كاتب المنصور ^(١) : « سرت مع محمد بن مسلمة إلى الزهراء لنسلم جسد جعفر بن عثمان المصحفي إلى أهله بأمر المنصور، وسرنا إلى منزله فكان مغطى بخلق كساء لبعض البوابين ألقاه على سريرته، وغُسِّلَ على فردة باب اختلج من ناصية الدار، وأُخرج وما حضر أحد جنازته سوى إمام مسجده المستدعي للصلاة عليه، ومن حضر من ولده، فعجبت من الزمان » ، وكان ذلك في سنة ٣٧٢ هـ .

ويلخص حفيده أبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر المصحفي نكبة جده، بل وأسرته جميعاً وأثرها بعد سنوات من وقوعها في أبيات قالها عندما اجتاز بالمنية المصحفية التي كانت لجده أيام حجابته للخليفة الحكم المستنصر بالله، واستعبر حينما تذكّر ما آل إليه حال جده مع المنصور بن أبي عامر، واستيلائه على ملكه وأملاكه فأنشأ يقول : ^(٢)

(١) نفع الطيب ج ٣ ص ٩٠ .

(٢) نفع الطيب للمقري ج ١ ص ٤٧١ .

قَفْ قَلِيلًا بِالمُصْحَفِيَّةِ وَانْدَبْ
وَأَسْأَلْنَهَا عَن جَعْفَرٍ وَسَطَاهُ
جَعْفَرٌ مِثْلُ جَعْفَرٍ حَكَمَ الدَّهْرُ
وَلَكُمْ حَدَرُ الرَّدَى فَصَمَمْنَا
بَيْنَمَا يَعْتَلِي غَدَاً خَافِضاً مَنْدُ
مَقْلَةً أَصْبَحَتْ بِلَا إِنْسَانٍ
وَنَدَاهُ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ
رَرَّ عَلَيْهِ بَعْسِرَةٌ وَهَوَانِ
لَا أَمَانَ لِصَاحِبِ السُّلْطَانِ
هُ أَكْتَسَابٌ لِكِفَّةِ الْمِيزَانِ
تعلیق علی شعر النکبة عند المصحفي :

جعفر المصحفي أحد شعراء الأندلس المجيدين ، وهو معدود من شعراء الخلافة الأموية المبرزين في قرطبة ، والمتصرفين في أغراض الشعر المختلفة من مدح أو وصف ، أو غزل أو نسيب ، وعرف شعره بالرقّة الواضحة والسلاسة الملموسة ، وكان فيه بهاء وحسن ، كما أن المصحفي كان لا يمنعه من القول في أيّ غرضٍ من الأغراضِ مانع ، بل كان يرنجل الشعر ارتجالاً يدل على قوة عارضته في مجاله .

ولكننا إذا نظرنا في نتاج النکبة في شعره رأينا كيف هزّته تلك النکبة هزّاً من أول لحظة ، فلم يتمسك بعزّة النفس التي تحدّث عنها عندما أيقن بالنهاية ، بل أمعن في التذلل للمنصور بن أبي عامر والتضرع إليه تضرع العبد لخالقه ، وهذا دليل على أنه في خضمّ المحنة قد نسي ربه - نعوذ بالله من ذلك - ولم يتذكر سوى أن مصيره أصبح مرهوناً بكلمة من ابن أبي عامر .. وتأمّل قوله :

« يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ الْأَيْدِي إِلَيْهِ »

لو سمع هذه العبارة أحد ، أو قرأها دون أن يعرف المقام الذي قيلت فيه لظنّ أنها على لسان إنسان يناجي ربّه عز وجل .. إنه الشرك بعينه وتأمّل كذلك قوله في تذلل وضراعة :

أَلَمْ تَر عــــبْداً عَداً طوره ومولّى عفا ورشيداً هدى !؟

لقد وضع نفسه في مقام العبودية لابن أبي عامر ، ولا عبودية إلا لله ولو كان الموت مآل المتكلم ومثواه ...

كما أن الناظر إلى شعر المصحفي في محنته يدرك ما أضرمته هذه المحنة من نار الحقد على المنصور ، ويلمس غيظه الشديد منه ، ولكن ماذا يفعل وهو لا يملك من الأمر شيئاً إلا أن ينفُسَ عن نفسه في شعره .

كما أن المتأمل في هذا الشعر الذي أنتجته النكبة ، وأفرزته المحنة يحس بنبرات الندم في كلام جعفر ، لأنه هو الذي مكن لابن أبي عامر في قصر الخلافة، بعد أن كان مجرد كاتب على باب من أبواب القصر يكتب لكل صاحب حاجة معروضه ويدبجه مقابل أجرزهيد، كما أنه استخدمه في قتل المغيرة بن عبد الرحمن شقيق الحكم حتى يمهّد لبيعة هشام المؤيد .. وصدق رسول الله ﷺ « الذنب لا ييلي ، والديان لا يموت ، فاصنع ما شئت فكما تدين تدان »

قال بعض مؤرخي المغرب: (١) إن الحاجب المصحفي حصل له في هذه النكبة من الهلع والجزع ما لم يظن أنه يصدر من مثله، حتى أنه كتب إلى المنصور بن أبي عامر يطلب منه أن يقعد في دهليزه معلماً لأولاده، فقال المنصور بدهائه وحذقه : إن هذا الرجل يريد أن يحط من قدري عند الناس، لأنهم طالما رأوني بدهليزه خادماً ومعلماً فكيف يروونه الآن في دهليزي معلماً ؟ ! »

أما من حيث ألفاظ الشعر وعباراته فهي ألفاظ واضحة، وعبارات سهلة، وجاء شعر النكبة عند المصحفي على هيئة مقطوعات صغيرة لا ترقى إلى مرتبة القصائد الطوال، وهذا ينم عن قصر نفس الرجل، وربما كان ذلك من تأثير الظروف التي عاشها، فهو شيخ طاعن في السن مهتد في نفسه، وأهله وماله، رهين مجبسه، كما جاءت إيقاعات شعره سريعة، وكأنها تكشف عن ضربات قلبه الخائف أو تتعجل النتائج يقول صاحب كتاب (الأسر والسجن في شعر العرب) : (١) .

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٩٩ ، نفع الطيب ج ١ ص ٦٠٢ ، ٦٠٤ ، الذخيرة لابن بسام ج ٤ ص ٥١ - ٥٢ .

(٢) الأسر والسجن في شعر العرب د. أحمد مختار البرزط الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥ م ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

« أخرجت المحنة من الصحفي رجلاً هزياً خوار العزيمة، ضامر العزة، شحيحاً بالحياة على الدُّل، فكان من أولئك الرجال الذين أنهضهم قدرهم من الحضيض إلى الرئاسات الكبرى، ولكن نفوسهم ظلت تنطوى على صغار ذاتي، فلماً جردوا من أرديتها الخلافة بدت حقائق جواهرهم، وخسروا احترام معاصريهم إذ لم يتجادلوا تجاليد العظماء عند النكبات .

ويضيف قائلاً : « والحق إن الصحفي كان شيخاً مسناً لم يبق فيه من قوة النفس ما يواجه به الأخطار، وإن سمت بعض نفوس الكبار على ضعفها، ولا شك أن حب الحياة هو الذي استذله، وقد أدرك هو هذه الحقيقة في موقفه وتوسلاته لعدوه، فلماً يئس من عفوه عنه، واستيقن القتل، واطرح الرغبة في البقاء تيقظت فيه بقية من رجولة، فحدق في وجه خصمه من غير خوف ، وتحدى المنصور أن يكون هو قاتله، إنما قاتله القدر المتربص بالمقتول والقاتل معاً »

وهذا لا يختلف عما ذهبنا إليه عند تناولنا لشعر النكبة الصحفية في شيء، إنما يؤكده ويشهد بصدقه .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(٢) «يُوسُفُ بْنُ هَارُونَ الرَّمَادِي»

التعريف بالشاعر :

هو أبو عمر بن هارون الكندي الرمادي، قيل : إنه ولد في قرطبة سنة ٣١٤هـ^(١)، وقيل : وفد على قرطبة وقضى أكثر أيام حياته فيها، ويبدو أنه قصد لها للدراسة، ثم أصبح مدرساً فيها^(٢)، وفي سبب تلقيبه بالكندي يقال : إن أصله ينتهي إلى أسرة تتصل بقبيلة كندة العربية^(٣)، أما تلقيبه بالرمادي فيقال : إن هذه نسبة إلى مكان يسمى الرمادة يقع بالمغرب^(٤) أو يقع قرب شلب^(٥)، وأن منه أحد أجداد الشاعر، وقال ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة في سبب هذا اللقب « : إنه كان يُلقَّب بأبي جنيش، فنقل إلى الرمادي^(٦)، لأن كلمة أبي جنيش معناها « أبو رماد » ثم نقلت إلى الرمادي.

وقد عاصر الرمادي عدداً من حكام الأندلس، فقد عاش في عهد الناصر لدين الله، كما عاصر عهد الحكم المستنصر بأكمله، وعاش أيام هشام المؤيد، وعاصر أيام الحاجب المنصور، وكذلك أيام ولده عبد الملك المظفر، وعاصر فترة طويلة من سنوات الفتنة البربرية في قرطبة، وأصابه منها بعض الضرر .

وكان له في كل عهد من العهود التي عاصرها نشاط أدبي وشعري كان سبباً في الرضا عنه أحياناً، وفي الغضب عليه واضطهاده أحياناً أخرى .

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فرخ ج ٤ ص ٣٣٩ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) د. احسان عباس ص ٢٠٥ .

(٣) الأدب الأندلسي د. أحمد هيكال ص ٢٨٣ .

(٤) جذوة المقتبس ص ٣٤٦ - ٣٤٨، ونفح الطيب ج ٤ ص ٣٥ .

(٥) المغرب لابن سعيد ج ٢ ص ١٤ .

(٦) الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ١٤٩١ .

وقد توفي الرماديّ معدماً معانياً من شرور سنوات الفتنة القرطبية المدمرة سنة ٤٠٣ هـ .

ابتلاءات الرماديّ ونكباته :

لقد كان الرماديّ من الشعراء المنكوبين معظم فترات حياتهم ، فلقد عاش قرناً من الزمان تقريباً عاصراً خلاله عدداً من الحكام كما أشرنا آنفاً، وكان نشاطه الشعريّ الزائد من أسباب نكباته ، لأنه كان ينحو به غالباً منحى سياسياً، كما كان ينقد بشعره حكام زمانه، ولذلك أدخل السجن أحياناً، وحكم عليه بالنفي والتشريد أخرى ، والأمر بمقاطعة الناس له وعزله عنهم مرة ثالثة، وهكذا تلونت الفتن والنكبات بالنسبة للرماديّ، وسوف نعرض لما حلّ به في فترتين مهمتين من فترات حياته وعمره الطويل : فترة الحكم المستنصر، ثم الحاجب المنصور بن أبي عامر .

أولاً : نكبة الرماديّ في عهد الحكم المستنصر :

ارتفع الرماديّ في عهد الحكم المستنصر، وأصبح مقدماً على سائر الشعراء، ولكن الرماديّ كان في طبعه جراً، ولا يستحي من النقد الصريح، وهذا ما أغضب عليه الخليفة، فأول جراً الرماديّ على الحكم المستنصر بالله أن الخليفة عزم على إراقة الخمر، واجتثاث الكروم، وذلك لمنع الناس من شربها، وإبعادهم عنها، فإذا بالرماديّ يقف موقف الناقد للخليفة المعارض لهذا الاتجاه الشرعيّ الذي يتفق مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويعلن تلك المعارضة ويجاهر بها شعراً في قصيدة مطلعها : (١)

بَخَطَبَ الشَّارِبِينَ يَضِيقُ صَدْرِي	وَتَرُّ مَضْنِي بَلِيَّتُهُمْ لَعَمْرِي
وَهَلْ هُمْ غَيْرُ عَشَّاقٍ أُصِيبُوا	بِفَقْدِ حَبَائِبٍ، وَمَنُوا بِهَجْرِ

وفي هذه القصيدة يقول :

تَحَرَّيْتُمْ بِذَاكَ الْعَدْلَ فِيهَا — زَعَمَكُمْ فَإِنْ يَكُ عَنْ تَحَرِّي

(١) جذوة المقتبس ص ١٤ - ١٥ ، وتاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، د. إحسان عباس ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

فَإِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ وَهُوَ عَدْلٌ
فَقِيهٌ لَا يُدَانِيهِ فَقِيهٌ
وَكُنَّ مِنَ الصَّلَاةِ طَوِيلَ لَيْلٍ
وَكُنَّ لَهُ مِنَ الشُّرَابِ جَارٌ
وَكُنَّ إِذَا انْتَشَى غَنَى بِصَوِّ
«أَضَاعُونِي وَأَيُّ فِتْنَى أَضَاعُوا
فَغَيْبَ صَوْتِ ذَاكَ الْجَارِ سَجَنٌ
فَقَالَ وَقَدْ مَضَى لَيْلٌ وَثَانٍ
أَجَارِي الْمُوْنِسِي لَيْلًا غِنَاءً
فَقَالُوا : إِنَّهُ فِي سَجَنٍ عَيْسَى

وَفَرَّ عَنِ الْقَضَاءِ مَسِيرَ شَهْرٍ
إِذَا جَاءَ الْقِيَاسُ أَتَى بِدُرٍّ
يَقْطَعُهُ بِلَا تَغْمِيضٍ شَفَرٍ
يُوَاصِلُ مَغْرَبًا فِيهَا بِفَجَرٍ
تِ الْمُضَاعِ بِسَجْنِهِ مِنْ آلِ عَمْرٍو
لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسَدَادِ ثَغْرِ
وَلَمْ يَكُنْ الْفَقِيهَ بِذَلِكَ يَدْرِي
وَلَمْ يَسْمَعْهُ غَنَى : يَا لَيْتَ شِعْرِي !
لَخَيْرٍ قَطَعَ ذَلِكَ أَمْ لَشَرٍّ
أَتَاهُ بِهِ الْمُحَارِسُ وَهُوَ يَسْرِي

ويمضي الرمادي في حكاية قصة أبي حنيفة مع جاره السكير، حتى يبين أن أبا حنيفة، وهو من هو علماً وفقهاً وصلاًحاً لم يعترض على جاره شارب الخمر، ولم يفرح لسجنه بسبب ذلك، بل سعى جاهداً للإفراج عنه وإطلاق سراحه، فهل فقهاء الحكم الذين أفتوا له بمنع الناس من شرب الخمر أفقه منه ؟ والرمادي بهذا الاعتراض، وبهذا الأسلوب ينتقد تصرف الخليفة والفقهاء الذين أفتوا بإراقة الخمر واجتثاث الكروم، وكأنه يقول : أيها الخليفة لست أكثر حرصاً على الشرع من أبي حنيفة، وفقهاؤك ليسوا أفقه منه . وبرغم هذه الجرأة المتناهية التي ليتها كانت في موطن من مواطن الحق فإن الخليفة الحكم المستنصر لم يشتد عليه، ولم يعتقه، ولم يحاسبه على مثل هذا الخروج

عن جادة الحق والصواب، وهذا مما زاد من جرأة الرماديّ عليه، حتى شاعت بين الناس أشعار^(١) قالها الرمادي في دولة الخلافة وأهلها، وسدّد إليهم صائبات نبلها، وسقاهم كؤوس نهلها، أوغرّت عليه الصدور، ونفرت عليه المنايا، ولكن لم يساعدها المقدور، فسجنه الخليفة دهرًا، وأسكنه من النكبة وعرًا، فاستعطفه أثناء ذلك واستلطفه، وأجناه كل زهر من الإحسان وأقطفه، فما أصغى إليه، ولا ألغى موجدته عليه، وكان من شعره الذي أغضب عليه الخليفة المستنصر ما قاله منتقدًا به سياسة الحكم ومنه :

يُولِي وَيَعِزُّ مِنْ يَوْمِهِ فَلَا ذَا يَتَمُّ، وَلَا ذَا يَسْتَمُّ^(٢)

ولما سُجنَ الشاعر، وطالت مدة سجنه على أصح الأقوال، ألف وهو في السجن مجموعة شعرية، وصف فيها الطير، وخص كل طائر بصفات تميزه، وذكر خواصه، وذيل كل قطعة بمدح ولي العهد هشام بن الحكم ليشفع فيه عند أبيه.

وله في السجن أشعار صرّح فيها ببشئه، وأفصح فيها عن جُل الخطب لفقد صبره ونكته فمن ذلك قوله :^(٣)

لَكَ الْأَمْنُ مِنْ شَجْوٍ يَزِيدُ تَشْوِيقِي

وهذا مطلع قصيدة أملتها عليه ظروف نكبته ومحنته، وفيها يقول :

فَوَافُوا بِنَا الزَّهْرَاءَ فِي حَالِ خَالِعِ الْ	أُتْمَةٍ لَا سَتِيفَائِهِمْ فِي التَّوْتُقِ
وَحَوْلِي مِنْ أَهْلِ التَّأْدِبِ مَا تَمُّ	وَلَا جَوَزَرٍ إِلَّا بِشَوْبِ مُشَقِّ
فَلَوْ أَنَّ فِي عَيْنِي الْحَمَامَ كَرَوْضَهَا	وَأَنَّ كَانَ فِي أَلْوَانِهِ غَيْرَ مُشْفِقِ
وَنَادَى حِمَامِي مَهْجَتِي فَتَغَافَلْتُ	فَهَلَّا أَجَابَتْ وَهُوَ عِنْدِي لِمَحِقِ

(١) نفح الطيب للمقريّ ج ٤ ص ٣٨

(٢) جذوة المتقيّ ص ٤٣٩، وتاريخ الأدب الأندلسي د. احسان عباس عصر سيادة قرطبة، ص ٢٠٧ والأدب الأندلسي د. أحمد هيكل ص ٢٨٥ .

(٣) نفح الطيب للمقريّ ج ٤ ص ٣٨ - ٣٠، ومطمح الأنفس ص ٦٩ - ٧٤ .

تَثَبَّتْ صَبْرَ سَاعَةٍ فَتَدَفَّقِي
تَنَقَّتْ دُمُوعِي أَمْ مِنَ الْبَحْرِ تَسْتَقِي؟

أَعَيْنِي إِنْ كَانَتْ لِدَمْعِي فَضْلَةٌ
فَلَوْ سَاعِدَتْ قَالَتْ : أَمِنْ عُدَّةِ الْأَسَى
ومن هذه القصيدة قوله :

قُلْتُ لَهَا : مَنْ لِي بَظَنٍّ مُحَقَّقٍ؟
زَجَرْتُ اجْتِمَاعَ الشَّمْلِ بَعْدَ التَّفَرُّقِ
فَلَمَّا التَّقْتُ بِالطَّيْفِ قَالَتْ : سَلِّتَقِي
سَيَفْدُ قَبْلَ الْيَوْمِ دَمْعُكَ فَارْفَقِي

وَقَالَتْ : أَتُظَنُّ الدَّهْرَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا؟
وَلَكِنِّي فِيمَا زَجَرْتُ بِمَقْلَتِي
فَقَدْ كَانَتْ الْأَشْفَارُ فِي مِثْلِ بَعْدُنَا
أَبَاكِيَّةَ يَوْمًا، وَلَمْ يَأْتِ وَقْتُهُ

ومن شعر نكبة الرمادي على يد الحكم المستنصر أيضا، - شعر يعبر فيه عن
أحاسيسه الداخلية في محنته التي يعيشها، وما يعتمل في صدره من شوق لأحبابه الذين
حرم من الاجتماع بهم بسبب سجنه ومنه قوله : (١)

وَمِنْ جَزَعِي تَبْكِي الْحَمَامِ وَتَهْتَفُ
وَتِلْكَ عَلَيَّ فَقْدِي نَوَائِحُ هُتَفُ
وَلَكِنِّي بَاقٍ فَلُومُوا وَعَنْفُوا
نُحُولًا كَأَنَّ الصُّبْحَ مِثْلِي مُدْنَفُ
فَعَادَ شِتَاءٌ بَارِدًا وَهُوَ صَافٍ
مِنَ الرَّدْفِ فِي قَيْدِ الْخِلَاخِلِ تَرَسَفُ

عَلَى كِبَرِي تَهْمِي السُّحَابُ وَتَذَرِفُ
كَأَنَّ السُّحَابَ الْوَائِكَاتِ غَوَاسِلِي
أَلَا ظَعَنْتُ لَيْلَى وَبَانَ قَطِينُهَا
وَأَنْسْتُ فِي وَجْهِ الصُّبَّاحِ لَبِينُهَا
وَأَقْرَبُ عَهْدٍ رَشْفَةٌ بَلَّتِ الْحُشَا
وَكَانَتْ عَلَيَّ خَوْفٍ فَوَلَّتْ كَأَنَّهَا

(١) المرجعان السابقان (الفتح ، المطمح) .

ثانياً : نكبة الرَّمَادِيّ على يد المنصور بن أبي عامر .

في أوائل عهد المنصور بن أبي عامر كان الرماديّ من المقربين إليه، الموثوق بهم كل الثقة ، حتى إنّ المنصور لم يقبل محاولة للإيقاع بالرمادي والوشاية به، فلقد روي أن المنصور بن أبي عامر قال للرمادي^(١) « كيف ترى حالي معك ؟ فقال : فوق قدري، ودون قدرك ، فأطرق المنصور كالغضبان فانسَلُ الرماديّ وخرج نادماً على ما بدر منه ، وجعل يقول : أخطأت، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق، ما كان ضرّاً لو قلت له : بلغت السّماء، وتمنطقت بالجوزاء، وأنشدته :

مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا يُلْفِ حَاجَةً لِنَفْسِي إِلَّا قُضِيَتْ قَضَاءَهَا

لاحول ولا قوة إلا بالله، ولما خرج كان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور، فوجدها فرصة مواتية ليوغر صدره على الرمادي فقال : إن هذا الصَّنْفُ صَنَفُ زور وهذيان، ولا يشكرون النعمة ولا يرعون إلا ولا ذمة، كلابٌ من غَلَبَ، وَأَصْحَابٌ منْ أُخْصِبَ، وأعداء منْ أُجْدَبَ، والابتعادُ منهم أولى من الاقتراب، وقد قيل فيهم : ما ظنّك بقوم الصّدق يُسْتَحْسَنُ إِلَّا منهم ؟ .

فغضب المنصور من تلك المحاولة الدنيئة، حتى بان الغضب في وجهه وأراد أن يلقن الواشي درساً عملياً في الأدب، فأسرع يستدعي الرماديّ فلما حضر، استرجعه ما قال من كلامه، وطمأنه، واستحسن ردّه على السؤال، وكافأه مكافأة لم يكن يتوقعها حتى أخجل الواشي ثم أردف قائلاً : « إياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخصٍ قبل أن يؤخذ معه فيه، ولا تحكموا علينا في أوليائنا ، ولو أبصرتم منا التغيّر عليهم، فإننا لا نغيّر عليهم بغضاً لهم ، وانحرافاً عنهم ، بل تأدياً وإنكاراً »

(١) نفع الطيب للمقري ج ٣ ص ٣٦٤ .

ولكن هذه العلاقة الطيبة بين الرماديّ وابن أبي عامر قد ساءت بعد نكبة المصحفيّ، لأن الرماديّ كان من المشايعين له، ولما أصرّ ابن أبي عامر على عدم الإفراج عنه، اندفع الرماديّ كعادته ناقداً للمنصور، بل وهاجياً له في شعره بإبعاد من المصحفيّ، ولذلك التفت المنصور إلى كل من شايع المصحفيّ، أودّاه عنه، ونكّل بهؤلاء المشايعين المناصرين لخصمه اللدود، ومنهم يوسف بن هارون الرماديّ، هذا الذي انقلب عليه المنصور وأوسع عقوبة ونكالا، وأمر بتغريبه عن قرطبة، وهو ما يعادل النفي في العصر الحاضر، ثم شفع فيه بعض وجوه القوم عنده، فخفف المنصور الحكم، ولكنه أمر بمقاطعة الناس له، وعدم تعاملهم معه، وطاف بذلك منادٍ في جميع أنحاء قرطبة وهو ما يعرف بالعزل الاجتماعي، أو تحديد الإقامة، فأقام أبو عمر يوسف بن هارون الرماديّ فترة قاسية من حياته، وكأنه ميت^(١)، وظل كذلك حتى مات المنصور، حيث امتد العمر بالرماديّ إلى ما بعد عهد عبد الملك المظفر بن أبي عامر، بل وعاصر سنوات الفتنة البربرية الأولى في قرطبة، وتوفيّ سنة ٤٠٣ هـ إبان اشتعال نار الفتنة كما أشرنا .

ومن شعره أيام نفيه ما قاله بمناسبة ارتحال أحبته بعد زيارتهم له^(٢)

غداً يرحلون فيا يومٍ رسل	ك كن بالظلام بطيء اللحاق
ويادمع عيني سد الطريق	وأفرغ عليهم نجيع المآقي
وياهم نفسي بهم كن ظلاماً	وقيدهم عن نوى وانطلاق
ويا ليل من بعد ذا إن ظفرت	بالصبح فاقذف به في وثاق

فالرماديّ في هذه الأبيات يشعر كبحنة عيشه وحيداً، ولذلك عندما زاره أحبته أراد لهم ألا يرحلوا عنه ، أو يفارقوه، وحاول إيقاف عجلة الزمن نهائياً فقد عزموا على الرحيل

(١)، (٢) جذوة المتقيس ص ١٦٥ ، الأدب الأندلسي د. أحمد هيكمل ص ٢٩٨ .

في غدٍ، فأراد لغدهم ألا يأتي، ومن أجل ذلك حاول السيطرة على عناصر الطبيعة المحركة لعجلة الزمن لتعويق أحبابه عن السفر، فينادي يومه ألا ينتهي نهاره، وألا يلحق بليله، ودمع العين يرجوه أن ينهمر مدراراً حتى يتحول إلى سيول تسدُّ الطريق عليهم، ويرجو زفير صدره أن يتحول إلى نسيم حارق، ويأتيهم من أمام فيسدُّ عليهم طريق سفرهم، والهموم التي يقاسيها تتحول إلى ظلام دامس يمنع الرؤية، ويسدُّ الطرق، والليل يقذف بالصبح في قيود الحبس فيمنعه من القدوم حتى لا يسافر الأحباب .. ويبدو أن شدة رغبة الشاعر في بقاء أحبابه إلى جواره ليخففوا عنه آلام غربته، قد دفعته إلى المبالغة حتى اعتقد أن في مقدوره إيقاف عجلة الزمن، ولكنني أرى أن أفعال الأمر التي وردت في الأبيات غرضها التمني، لأنه لا يملك إلزام العناصر التي خاطبها بتنفيذ أوامره . فكأنه يتمنى أن يكون يومه بطيئاً جداً، ويتمنى أن يسيل الدمع من عينيه بحاراً، وأن تكون أنفاسه حريقاً .. وأن تتحول همومه إلى ظلمات دامسة، وأن يحجز الليل الصباح فيمنعه من القدوم ، وهكذا .. وهي أمنيات مبالغ فيها على كل حال .

التعليق على شعر النكبة عند الرمادي :

إن الحديث عن شعر النكبة عند الرمادي يقتضي أن نشير إلى أن هذا الشاعر من أولئك الشعراء الذين كانوا يأخذون لكل موضوع ما يناسبه، فهو إذا تحدّث عن اللهو والمجون، أو أراد الدعابة والسخرية، نراه يعمد إلى موضوعه دون تمهيد، أي يسلك الطريق المباشر إلى غرضه دون مقدمات، ويصب اهتمامه على أن تكون الفكرة بسيطة مغلفة بروح السخرية، كما يعبر عنها بلفظ بسيط يوحي بها، مع اختيار الموسيقى الهادئة والتعبير الرشيق .

وإذا كان الموضوع أقرب إلى الجدّ ، فنراه يلبس له ثوب الجد والوقار غالباً، ويتجه اتجاهاً محافظاً، ولذلك ينهج نهج القدماء المحافظين، فتبدأ قصيدته بالغزل، أي يستهلّ

بالمقدمة الغزلية أو الطَّلَلِيَّة، ويغوص وراء المعنى ويزداد اهتمامه بالصور الغريبة البعيدة المنال كما في أبياته التي تعبر عن أمنيات مستحيلة لمنع أحبابه من الرحيل والحيلولة دون مغادرتهم له وتركه وحيداً في منفاه، كما أنه كثيراً ما يهتم بالزخرف اللفظي، والاتجاه نحو البديع، مع شدة الاهتمام بفخامة التعبير، وجزالة اللفظة ^(١).

وبالنظر في شعر النكبات الذي جادت به قريحة الرمادي في مثل هذه المواقف الصعبة الحرجة نرى أن تلك النكبات قد أثرت في أدب الرمادي تأثيراً بيناً واضحاً حيث حطم جُلّ المقاييس التي درج على التزامها طوال حياته، بل كما يقول الدكتور إحسان عباس عن الرمادي ^(٢): « ومن الإنصاف له أن نُسَجِّلَ له مزجُه بين التهتك والتعفف في مقام واحد، ذهاباً مع ما يسميه هو المروءة، أو الفتوة، ومع ذلك فإن السجن كان من أقوى الدوافع التي كادت أن تحطم عليه طريقته الشعرية التي قامت على المجانة واللهو في الموضوع، وعلى الإغراق والإحالة فيتعقب الصور والمعاني، وانطلقت أشعاره في السجن من خلجات الحزن العميق ودوافعه، وردّه وضعه إلى شيء من التأمل في نفسه، وفي نهايته ومآله، وملاً أبياته بالبكاء حيناً، وبالتشوق إلى الانطلاق حيناً آخر، وحلّت العاطفة الجياشة في شعره محل التصنيع الذهني، فحكاياته عن عواطفه الحزينة في أيام السجن أقل احتفالاً بالاستطراف في المعنى، وأكثر اتصالاً بالحالة النفسية على وجهها الطبيعي دون كد أو مبالغة .

وبمزيد من التأمل فيما بين أيدينا من شعر النكبة الذي كتبه الرمادي في سجنه نرى أنه قد تجنّب فيه كل العيوب التي شاعت في شعره إبان عهوده المبكرة بقول الشعر، وبالعودة إلى شعر النكبة المشار إليه نراه قد تميز بما يلي :

(١) الأدب الأندلسي د. أحمد هيكل ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ص ٢٢٠ .

١- الوحدة العضوية بين أبيات القصيدة الواحدة ، فوحدة الموضوع قائمة ، ووحدة العاطفة ظاهرة بيّنة، وذلك كله واضح في قصيدته التي قال فيها :

أعيني إن كانت لدمني فضيلة تثبت صبري ساعة فتد فقي
ولو ساعدت قالت : أمن عدة الأسي تنقت دموعي ، أم من البحر تستقي

إلى آخر القصيدة التي سجلناها وعرضناها على الصفحات السابقة .

فالأبيات تحكي موقفاً واحداً غلفته عاطفة حزينة، ولذلك جاءت متماسكة يأخذ بعضها بحجز بعض ، والأفكار متصلة متناسقة بعضها يناسب بعضاً، والمعاني متلاحقة صائبة .

فالشاعر يخاطب عينيه راجياً أن تمده بفضل ما لديها من دمع لعل ذلك يخفف عنه ما هو فيه، ويقوي عزيمته، ويمنحه الجلد وقوة التحمل والصبر على حاله الذي تردى وتغير وتبدل، ويؤدي يأسه من الاستجابة لمطلبه ، ويأتي : بيته الثاني تعليلاً لنغمة اليأس الواضحة في بيته الأول، مستخدماً أداة الشرط (لو) التي تفيد الامتناع للامتناع ، فكأنه يقول : لو فرض واستجابت عيني لرجائي - ولكنها لن تستجيب - لكانت استجابتها مزيداً من الأسى والحزن والألم حيث ستقول : لا دمع لدي، فالأسى لم يكن قليلاً حتى يبقى شيئاً منها، كما أن البحر لا يمد المآقي بمائه فتجود به في صورة دموع تواسي بها وتخفف .

وينتقل الشاعر في باقي أبياته إلى حوار بينه وبين من أحب من الأهل، وأعتقد أنه يخاطب أم أولاده، فالموقف لا يحتمل خطاب محظية ولا معشوقة إنما هي الزوجة التي تبكي زوجها وتأسى لما حلّ به، وفي هذا الحوار يظهر أمل الشاعر في الخروج من محنته، والانطلاق من محبسه، ويتكهن باجتماع الشمل مرة أخرى، ويقيم الدليل على ذلك

بقوله :

فَقَدْ كَانَتْ الْأَشْفَارُ فِي مِثْلِ بَعْدُنَا فَلَمَّا التَقْتُ بِالْطَّيْفِ قَالَتْ سَلِّتَنِي

فأشفار عينيه كانت نافرة متباعدة كتباعد أحبابه عنه ، ولكنها حينما اكتحلت بطيف الأحباب تلاقت في شوق، والتصق بعضها ببعض مطبقة على خيال الأعبة خوف فراره، وقد جدّد هذا اللقاء الخيالي أمل الشاعر في لقاء حقيقي، ولكن الواقع يفرض نفسه على الشاعر فيعترف أن هذا اللقاء المنشود سيطول انتظاره، ولذلك عليك أيتها الباكية علي أن تهوئي على نفسك، وقللي من بكائك، حتى لا ينفد دمعك قبل تحقيق الأمل .

٢- العاطفة قوية جياشة ، والوجدان متأجج شديد الحرارة، وهذا نتاج الشعور الصادق، الذي ترتب عليه صدق التجربة، فالشاعر في محنة، والحنة قوية مؤثرة، وكُلُّما كان المثير قوياً مؤثراً كان له أثره الواضح على عاطفته، وحرارة العاطفة أدّت إلى حسن اختيار الصورة التعبيرية المتمثلة في الألفاظ الموحية المعبرة، والتعبيرات القوية المؤثرة، والصور البيانية الكاشفة عن الفكرة، مع الاتجاه إلى الطبع، والبعد عن الإغراق في الصنعة المتكلفة، بل جاء تعبيره سلساً جيداً مترقّقاً ترقق دموعه، كما أن الموسيقى الداخلية الناشئة من تناسق الألفاظ وتفاعلها وإيحائها، والخارجية الناجمة عن الوزن والقافية قد واكبت الحدث الذي يعيشه الشاعر .

وتأمل معي الأبيات الأخرى التي استهلها بقوله:
عَلَى كِبْرِي تَهْمِي السَّحَابَ وَتَذُرْفُ وَمِنْ جَزْعِي تَبْكِي الْحَمَامُ وَتَهْتِفُ
كَأَنَّ السَّحَابَ الْوَكَافَاتِ غَوَاسِلِي وَتِلْكَ عَلَى فَقْدِي نَوَائِحُ هَتَفُ

ترى انطلاقة عاطفياً يسيطر على القصيدة بأكملها، وهذا الانطلاق العاطفي قد أبعد الشاعر عن الغوص وراء معانٍ لا يصل إليها إلا بعد كدٍّ، بل عبّر عن حالته النفسية أصدق التعبير، فبدأ وكأنه ينعي نفسه.

كما ترى الاتجاه الرومانسي التجديدي واضحاً، فالسحاب تهمي حزينه عليه لكبره وعدم تحمله ما حلّ به، والحمام تبكي وتهتف جزعة عليه، فالأولى تغسله وتطهره، والثانية تنوح عليه وكذلك أبياته عند رحيل أحبابه عنه، صورت موقفاً واحداً متناسقاً شديد الحرارة .

وهكذا ، نرى أن النكبة قد عجّلت بنضج شاعرية الرمادي ، وأحدثت تحولاً كبيراً في أسلوب تناوله للموضوعات ، كما جعلت شعره وجدانياً قوياً التأثير في المتلقي، وهذا شأن الحن، تنتج شعراً عاطفياً جياشاً يتميز بالحرارة، والصدق الوجداني .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(٣) أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْعُودِ الْبَجَانِيِّ

التعريف بالشاعر :

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود الغسائي البجاني، من الشعراء الذين وفدوا على قرطبة ليعيش في كنف المنصور بن أبي عامر، ولم يعرف متى ولد، ولا متى توفي، وكل ما قاله عنه ابن بسام في الذخيرة : « ... كان شاعراً مجوداً جزل المقاطع، حسن المطالع، جيد الابتداء، لطيف الاختراع، كثير الغوص على دقيق المعاني حسن الاستخراج للألفاظ الرائعة والتصريف لمستعمل الكلام »^(١) .

وكان ابن مسعود البجاني من الشعراء المشهورين، ولكن معظم شعره قد لحقه الضياع، ولم يبق منه إلا النذر اليسير، وقد أشار المقري إلى شهرته بقوله : « ولما وفد على المنصور بن أبي عامر، الشاعر المشهور أبو عبد الله محمد بن مسعود الغسائي البجاني .. »^(٢)

نكبة ابن مسعود البجاني :

كان ابن مسعود البجاني كما قال عنه الحميدي في الجذوة « مليح الغزل طيب الهزل »^(٣)، وقد عرف عنه من كثرة هزله أنه كان مُسْتَهْتَرًا كثير اللغط، مما أوقعه في كثير من الغلط حتى اتهمه الناس بالرهق في دينه أي الزندقة، والاستهتار بأمور الدين،

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٥٦٣ تحقيق د. احسان عباس .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٣٨٨ تحقيق د. احسان عباس .

(٣) جذوة المقتبس للحميدي ص ٨٦ .

وهي تهمة كان من السهل أن تلصق بأي إنسان في هذا الوقت، وهي تهمة وُجّهتُ إلى المنصور بن أبي عامر قبل ذلك بسبب ميله للعلوم والفلسفة، ممّا دفعه لكي ينفي هذه التهمة عن نفسه إلى إحراق كل كتب الفلسفة والمنطق، وحارب الفلاسفة، واشتدّ في عقاب كل من توجّه إليه هذه التهمة، ولذلك أمر بسجن ابن مسعود البجاني بالمطبق، وقد جمعه السجن بالطلق المروانيّ أبي عبد الله عبد الملك بن عبد الرحمن بن مروان ابن عبد الرحمن الناصر المتوفى قريباً من الأربعمئة للهجرة، وظل ابن مسعود في السجن فترة طويلة كان لها أثرها في حياته وشعره .

نتاج النكبة في شعر ابن مسعود البجاني:

لما جمع السجن بين ابن مسعود البجانيّ، والطلق المروانيّ، أعجب البجانيّ بالطلق أيّما إعجاب، بل اشتدّ كلفه به، وحُبّه له، لأنّ الطلق كان مليح الوجه، بل كان شاباً وسيم الطلعة طلق الحياً، ومن شدّة إعجاب البجانيّ بالطلق تصور نفسه أحد السجينين اللذين دخلا السجن مع يوسف الصديق عليه السلام .

قال تعالى ﴿ ودخلَ معه السّجْنَ فَيَّانَ ﴾ ^(١) .

ومن المعروف أن يوسف عليه السلام كان عظيم الجمال والوسامة، فكتب ابن مسعود قصيدة من سجنه استهلها بإعجابه بالطلق المروانيّ، ثم بيّن أن وجوده معه قد خفّف عنه ما هو فيه ، ولطّف من قسوة الحبس وفيها يقول : ^(٢)

(١) سورة يوسف الآية (٣٦) .

(٢) الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٥٦٣ - ٥٦٤ ت د. احسان عباس .

غَدَوْتُ فِي السَّجْنِ خِدْنًا لِابْنِ يَعْقُوبَ
رَأَمْتُ عِدَاتِي تَعْذِيْبِي وَمَاشَعُرْتُ
رَأَمُوا بُعَادِي عَنِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفَهَا
لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ سَجْنِي لَا أَبَا لَهُمْ
يَا بْنَ الْخَلَائِفِ مِنْ مَرَّوَانَ وَاحْزَنِي
وَفِيكَ مَا يَتَسَلَّى الْعَاشِقُونَ بِهِ
بَلْ لَقَدْ فُجِعَتْ نَفْسِي لِمُحْتَجِبِ
قَدْ صَيِغَ مِنْ فِضَّةٍ بَيَضَاءُ صَافِيَّةٍ
وَالْتَفَّ بِالْيَاسَمِينِ الْغَضُّ بَيْنَهُمَا
مَا أَقْبَحَ الصَّبْرَ عِنْدِي بَعْدَ فُرْقَتِهِ
يَا غَائِبًا قَدْ أَطَالَتْ كَفُّ غَيْبَتِهِ
تَعَجَّبَ الْقَطْرُ مِنْ عَيْنِي حِينَ هَمَّتْ

وَكُنْتُ أَحْسَبُ هَذَا فِي التَّكَادِيبِ
أَنَّ الَّذِي فَعَلُوهُ ضِدُّ تَعْذِيْبِي
فَكَانَ فِي ذَلِكَ إِدْنَائِي وَتَقْرِيْبِي
قَدْ كَانَ غَايَةً آمَالِي وَمَرْغُوبِي
عَلَى ضِيَاعِكَ يَا ابْنَ الصَّبِيَّةِ الشَّيْبِ
مَنْ حُسْنُ خَلْقِي وَمَنْ ظَرْفِي وَمَنْ طِيبِ
قَدْ كَانَ عَنْ لِحْظِ عَيْنِي غَيْرَ مُحْجُوبِ
وَوَشَّحَ الْحُسْنَ خَدَيْهِ بِتَذْهِيبِ
نَضِيرٍ رُودٍ بِمَاءِ الْحُسْنِ مَهْضُوبِ (١)
يَا نَفْسُ ذُرْبِي عَلَيَّ هَكَذَا ذُرْبِي
عَلَى لَظِي الشُّوقِ وَالْأَحْزَانِ تَقْلِيْبِي
مِنْهَا الشَّائِبُ فِي إِثْرِ الشَّائِبِ

ثم ينتقل إلى شكوى همومه، وبيان أثر السجن فيه فيقول :

عِنْدِي اسْتَقَرَّتْ جُنُودُ الْكَرْبِ أَجْمَعُهَا
سِجْنٌ وَقِيدٌ وَأَعْدَاءٌ مُنِيتُ بِهِمْ
فِي مَنْزِلٍ مِثْلَ ضَيْقِ الْقَبْرِ أَوْسَعُهُ
يَحْنُ عِنْدَ مَقَاسَةِ الْبَلَاءِ بِهِ
وَلَوْ تَوَسَّدَ أَطْبَاقَ الثُّرَى جَسَدِي

فَلَسْتُ تَسْمَعُ مِنْ بَعْدِي بِمَكْرُوبِ
لَا يَسْأَلُونَ مَعَ الْأَيَّامِ تَثْرِيْبِي
دَخَلْتُهُ فَحَسِبْتُ الْأَرْضَ تَهْوِي بِي
قَلْبِي إِلَيْكَ حَنِينَ الْهَيْمِ وَالنَّيْبِ
نَادَاكَ قَلْبِي بِتَرْجِيْعٍ وَتَثْوِيْبِ

(١) مهضوب : مطر بماء الحسن (أى يروى بماء الحسن) .

تحليل القصيدة والتعليق عليها :

إن من يقرأ قصيدة ابن مسعود البجاني يظن أنها قد خصصت للتعبير عن إعجابه الشديد بجمال الطليق المرواني، ولكن الحقيقة غير ذلك، فابن مسعود إنما استهل قصيدته فقط بالحديث عن الطليق وحسنه وجماله، حتى شبهه في الجمال بيوسف بن يعقوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وشبه نفسه بأحد الفتيين اللذين دخلاً معه السجن، ثم انتقل لبيان أثر اجتماعهما معاً في سجن واحد فقال : إِنَّ أعداءه حينما رموا به في السجن ظنوا أَنَّهُم بذلك يعذبونه ويقهرونه، ويكيدون له، وما شعروا أن الله تعالى قد خيب ظنهم، وحول هذا السَّجْنَ إلى نعيم مقيم بقرئه من الطليق، فهم إن كانوا قد أبعده عن الدنيا وزخارفها خارج السجن فقد أدنوه دون إرادة منهم من صاحب هذا الجمال الساحر الذي يدخل البهجة والسرور على قلبه ، وهذا غاية ما يتمناه، ومنتهي مبتغاه، ثم يتأسف في نفس الوقت على ما أصاب الطليق من سجن طال مدته، فإن ذلك ضياع له، وهو ابن الكرام الأماجد، وكيف يحسبون مثله، وفيه كل هذه السمات الجمالية، وملامح الظرف وحسن العشرة، وطيب الخلق والخلق، ثم ينتقل ابن مسعود بعد هذا المدخل إلى حديث الفراق للأحبة ، وكيف فجّع بهذا الفراق، حيث غيبتهم السجن عن عينيه، فلم يعد يراهم، وهم الذين لم يغيبوا عن إنسان عينه لحظة .. وقد اتخذ لحديث الفراق أسلوب الرمز يالف يتحدث عنه، ويصف محاسنه، وانصب اهتمامه على المحاسن الحسية، فهو فضة صافية البياض في صفاء بشرته، والحسن وشاح في وجهه يوشح خديّه ويلفهما، والياسمين بينهما قد شرب بياضه بالحمرة، وفاح شذاه، وكأنّ هذا المحبوب غصن نضير رواه ماء الحسن فزاد جماله وبهائه، ويعجب الشاعر من صبره على فراق إلفه، بل جعل الصبر في هذه الحالة أمراً قبيحاً قبحاً

يثير الدهشة والعجب ، ويرجو أن تذوب نفسه وتتلاشى حزناً عليه، وكيف لا ؟ وقد طالت غيبته ،وتوالت سنوات الفراق حتى أصبح يتقلب على نارين : نار الشوق، ونار الحزن، ولذلك همت عيناه، وتوالت منها شآبيب الدموع حتى تعجّب القطر من ذلك، ويشند الأسي، وتتوالى الكروب جميعها عليه حتى لم يبق كرب لأحد ، فلا مكروب في الدنيا سواه، وتأمل كيف صور ذلك بقوله :

عِنْدِي اسْتَقَرَّتْ جُنُودُ الْكَرْبِ أَجْمَعُهَا فَلَسْتُ تَسْمَعُ مِنْ بَعْدِي بِمَكْرُوبٍ

فالشاعر قد أضحى لكثرة ما اجتمع عليه من همٍّ وغمٍّ وكروب كأنه المكروب الوحيد، والناس جميعاً في سرور، وكيف لا يشتد كربه ،وتثقل عليه همومه ، وهو رهين سجن ضيق ، وقيد ثقل وأعداء لا يملّون من توبيخه ولومه وتقريعه كل يوم ؟ !

ثم يصف السجن وصفا يثير الأسي والشفقة على نزلائه ، فهو ضيق شديد الضيق ، وأوسع منزل فيه مثل لحدٍ ضيق ، حتى إن الشاعر عندما دخله أصابه دوار شديد فظن أن الأرض قد هوت به .

وكلّما اشتدت معاناة الشاعر، ومقاساته من شدة البلاء اشتد في المقابل حنينه إلى مَنْ يُحِبُّ، ورغم بلائه إلا أنه مُصِرٌّ على وفائه وإخلاصه لمحبهه، ولذلك ختم قصيدته بقوله :

وَلَوْ تَوَسَّدَ أَطْبَاقَ الثَّرَى جَسَدِي نَادَاكَ قَلْبِي بِتَرْجِيْعٍ وَتَثْوِيْبٍ

وجهة نظر نقدية :

أبيات الشاعر جاءت معلنة عن تجربة شعورية صادقة ، وكشفت عن شاعرية ناضجة، وقد أحسن ابن مسعود توظيف الألفاظ لخدمة الأفكار والمعاني، فجاءت ألفاظه

موحية، فعندما أراد أن يُعبّر عن جمال الطليق كنّاه بـابن يعقوب (يو سف عليه السّلام) ولم يكن يتصور وجود مثل هذا الجمال، ولذلك قال : « وَكُنْتُ أَحْسَبُ هَذَا فِي التَّكَاذِيبِ » ويعني بالتكاذيب هنا الأساطير .. فجمال الطليق أسطورة في نظر الشاعر، واستخدم أسلوب المقابلة واستعان بالطباق أحياناً ليبين كيف خيّب الله ظن عداته، ولم يحقق مرادهم، بل جاء دخوله السجن بنتيجة عكسية، وذلك بسبب قربه من الطليق .

وكأنني بالشاعر أراد أن يبين أنه لا يضايقه في سجنه شيء إلا فراقه لمن يحب، وهذا يعني أنه لا يقصد بذلك الطليق لأنه معه في سجنه وتأمّل وصفه لمحبوه، وكيف أضفي كل ملامح الحسن والجمال على هذا المحبوب الذي فرّق السجن بينهما، حيث حشد لذلك كل ما هو جميل .

الفضة الصافية البياض، وبريق الذهب، والياسمين الغض، والورد النضير وماء الحُسن .

وإذا كان الصبر أمراً مستحباً في حالات الضيق، إلا أنّ الشاعر يراه شديد القبح في وقت الفراق « ما أقبح الصبر عندي بعد فُرقتَه !! » .

.. وكم يتمنى الشاعر ويرجو أن تذوب نفسه على حبيبته « يا نَفْسُ ذُوبِي عَلَيَّ » وتأمّل شدة شوقه لمحبوه هذا الشوق الذي أضحي ناراً تتلظى، وكذلك أحزانه التي أثارها الفراق .. والشاعر يتقلب على اللظى .. والبيت .

يا غائباً قد أطالتْ كَفُّ غَيْبَتِهِ عَلَى لَظَى الشُّوقِ والأحزانِ تقليبي
فَقَدْ جاء يحمل صورة بلاغية مركبة من أكثر من صورة .. فللغيبة كف تقلب الشاعر .. وللشوق والأحزان نار تتلظى .. وهذا يكشف صورة المعاناة التي يعانيها الشاعر، ويبرز حالة القلق النفسي، والحزن الدائم التي يعيشها ويكاء الشاعر مستمر دائماً، ودموعه

تنهمر غزيرة لدرجة دفعت القطر إلى التعجب من عينيه .. وهذا يتضح من قوله :

« تَعَجَّبَ الْقَطْرُ مِنْ عَيْنِي حِينَ هَمْتُ »

واستخدام الشاعر للْفَظِ (هَمْتُ) ، واستخدامه لكلمة (شَائِب)

دلالة على كثرة الدموع أيضا ... وجاءت الصورة البلاغية في قوله :

عِنْدِي اسْتَقَرَّتْ جُنُودُ الْكَرْبِ أَجْمَعُهَا فَلَسْتُ تَسْمَعُ مِنْ بَعْدِي بِمَكْرُوبٍ

وهي استعارة مكنية تفضح انهيار الشاعر بعد أن حاول إظهار مجلده لحاسديه وشائبيه في بداية القصيدة، وجعل للكرب الذي اشتد عليه أسباباً كثيرة .. منها السجن الضيق، والقيد الثقيل، والأعداء الجادون في تعنيفه والإساءة إليه، ولجأ إلى تنكير كلمات (سجن، قيد، أعداء) للتهويل من ناحية، والتحقير من ناحية أخرى، وذلك يكشف عن ضيقه وتأففه .

وما أبشع الصورة التي رسمها للسجن :

« فِي مَنْزِلٍ مِثْلِ ضَيْقِ الْقَبْرِ أَوْسَعُهُ »

وإذا كانت هذه الصورة التي رسمها للسجن بشعة، فإنه قد ساق صورة عربية قديمة لحنينه الشديد لمن يُحِبُّ في قوله :

« يَحْنُ قَلْبِي إِلَيْكَ حَنِينَ الْهِيمِ وَالنَّيْبِ »

وخلاصة القول : إن الشاعر قد جاءت تعبيراته، وصوره طبيعية غير متكلفة ، والصور التي استخدمها صور عربية تقليدية لم يأت فيها بجديد، بل ظهر تأثيره بالمشاركة في هذا الأمر، وتجربة السجن تجربة قاسية عنيفة كما يبدو من حديث الشاعر عن

الكروب المجتمعة عليه، وصورة السجن الذي يضيق ضيق اللحد، والبكاء المستمر الناتج عن الحزن الدائم .

وإن كان لنا مأخذ على الشاعر فهو أنه قد بدأ قصيدته بداية تشير إلى سخريته من أعدائه، واستهزائه بهم، والتجلد أمامهم وكأن السجن لا تأثير له عليه لوجود الطليق معه وإلى جواره ولكنه فجأة يتحول إلى رجل منهار حزين باكٍ، يقاسي متاعب السجن، وآلام القيد، ومضايقة الأعداء له .

وهذا معناه أن النكبة أصابت الشاعر بقلق نفسي، واضطراب فكري فكان لذلك أثره الواضح في شعره.

ونختم حديثنا بما يؤكد أن تجربة السجن في حياة ابن مسعود قد أضعفته فعلاً، ولذلك كتب إلى المنصور بن أبي عامر يدافع عن نفسه، وينفي التهمة التي ألصقوها به، وهي تهمة الزندقة، ويكشف أن مثل هذا الأمر، وهو الرهق في الدين أمر يعاقب عليه المولى عز وجل الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، وفي رسالته يقول : (١)

دَعَوْتُ لِمَا عَيْلَ صَبْرِي فَهَلْ	يَسْمَعُ دَعْوَايَ الْمَلِكُ الْحَلِيمُ ؟ !
مَوْلَايَ مَوْلَايَ أَلَا عَطْفَةٌ	تَذْهَبُ عَنِّي بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ
إِنْ كُنْتُ أَضْمَرْتُ الَّذِي زَخَرَفُوا	عَنِّي فَدَعْنِي لِلْقَدِيرِ الرَّحِيمِ
فَعِنْدَهُ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى	وَعِنْدَهُ الْفِرْدَوْسُ ذَاتُ النِّعَمِ

فالآيات تكشف عن نفاق صبر الشاعر وهو في سجنه، وتسرب الملل إلى قلبه، وتخلى الجلد عنه ولذلك قال : « دعوتُ لما عيل صبري » واستخدم أسلوب الاستفهام

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٣٨٩ ت د. احسان عباس .

الدال على التمني والدعاء :

« فهل يسمع دعواي المليك الحليم » ؟

واستخدم أسلوب النداء المؤكد توكيداً لفظياً (مَوْلَايَ مَوْلَايَ) ، ثم اتبعه بأسلوب التحضيض (ألا عطفة تُذهب عني العذاب الأليم)

وهذه الأبيات توحى إليّ بأن الشاعر إما أن تكون التهمة قد لفّقت له تليفقاً، وهو منها بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب، أو يكون قد تاب إلى الله وأُتاب بعد أن نزل به العقاب .

وهكذا نرى كيف تُغيّرُ الحنّ والنكبات من سلوك الإنسان، بل وتؤثر في فكره، وإن كان شاعراً أثرت في شعره كما حدث مع أبي عبد الله محمد بن مسعود البجاني ومع غيره من الشعراء .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(٤) أَبُو مَرْوَانَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ إِدْرِيسِ الْجَزِيرِيِّ

التعريف بالشاعر :

من الشعراء المنكوبين في حياتهم، أبو مروان الجزيري، وهو واحدٌ ممن نكبهم الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فيمن نكب من الشعراء، والأدباء والكتاب، والعلماء إبان عصر سطوته .

وأبو مروان هو عبد الملك بن إدريس الأزدي الجزيري الجولانيّ من أهل قرطبة، ولاه المنصور بن أبي عامر أعمالاً مهمة، منها الشرطة، وديوان الإنشاء^(١) .

قال عنه صاحب المظمح^(٢) : « علمٌ من أعلام الزمان، وعينٌ من أعيان البيان، باهي الفصاحة، طاهر الجنب والسّاحة، تولى التحبير أيام المنصور والإنشاء، وأشعر بدولة الأفراح، والانتشاء، ولبس العزة ضافية البرود، ووردَ بها النعمة صافية الورود، وامتنى من جياذ التوجيه أعتق من لاحقٍ والوجيه^(٣) » .

محنة الشاعر ونكبته :

كان أبو مروان عبد الملك الجزيريّ من الذين يتجرّأون على المنصور بن أبي عامر، ولذلك أذاقه مرارة السجن أكثر من مرة، فقد سجنه مرة في سجن «طُرُوشة»، ومرة أخرى في سجن الزاهرة بقرطبة، وفي المرة الأخيرة أخرجته المنصور من سجنه وأعادته إلى

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ جـ ٤ ص ٣٢٤ .

(٢) مظمح الأنفس، الفتح بن خاقان ١٣ ونفع الطيب للمقري جـ ١ ص ٥٨٦ - ٥٨٧ .

(٣) لاحق والوجيه : فحلان من فحول الخيل .

منصب الوزارة ، وظل في هذا المنصب بعد وفاة المنصور، وتوليَّ ابنه المظفر الحجابة ، ولكن بعد فترة غضب عليه عبد الملك المظفر بن أبي عامر، وألقى به في غياهب السجن حتى مات سنة ٣٩٤ هـ ، وقيل : إن المظفر قتله .

والسبب في غضب المظفر عليه ما حكاه صاحب المطمح بقوله : (١) .

« قتل المظفر صهره عيسى بن القطاع ، صاحب دولته وأميرها المطاع ، وكان أبو مروان قديم الاضطناع له والانقطاع ، فاتهم معه ، وكاد أن يذوق حمامه و مصرعه ، إلا أن إحسانه شفع ، وبيانه نفع ودفع ، فحطَّ عن تلك الرُتب ، وحُمِلَ إلى طرطوشة على القتب ، فبقي هناك معتقلاً في برج من أبراجها ، نائي المنتهى ، كأنما يناجي السُّها ، قد بعدَ ساكنه عن الأنيس ، وقعد من النجم بمنزلة الجليس ، تمرُّ الطيورُ دونه ولا يتجوزه ، ويرى منه الثرى ولا يكادُ يحوزه ، فبقي فيه دهرًا لا يرتقي إليه راق ، ولا يرجى لبثه راق ، إلى أن أُخرج إلى ثراه ، واستراح ممَّا عراه . »

وهناك رواية أخرى عن مقتل أبي مروان الجزيريَّ حكاها صاحب الذخيرة وموجزها ما يلي : (٢) « لقد ولي المظفرُ بن أبي عامر أمورَ دولته عيسى بن سعيد القطاع ، فحسده رجال منهم عبد الملك الجزيري ، وتآمر الحاسدون عليه مع طرفة فتى المظفر ، وعزموا على التخلص من عيسى ، ولكنه أحسَّ بما دبَّروا له ، وعزموا عليه ، فأسرَّ إلى المظفر بالأمر ، وبين له أن هؤلاء زينوا لطرفة أبهة الملك وأن هدفهم سُدَّة الحكم ، فدبَّر المظفر للقبض عليهم ، ونجح تدبيره ، وأمر بحبس الجزيري في مطبق الزاهرة ، وانتَهز عيسى بن القطاع الفرصة ، فكتب إلى مفرج العامري ، وعبد الملك بن مسلمة ، وكانا من أعداء الجزيري ، وحرَّضهما على إبادته ، فأدخل عليه في مطبقه قوم من السودان فخنقوه ، وأشيع أنه

(١) المرجعان السابقان .

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ج ٤ م ١ ص ٥٠ - ٥٢ .

مات، وأُخرج بعد أيام جُسمانه، وأسلم إلى أهله ولا أثر به، ودفن في شوال سنة ٣٩٤هـ، فُصرِعَ منه - رحمه الله - يومئذ فارس نثر ونظام، ومُزَّقَ بقتله وشيُّ الكلام » .

وعلى أي الروايتين فقد كان قتل أبي مروان الجزيري على يد المظفر، ولا يجزئ ابن القطاع في الرواية الثانية على تدبير أمر التخلص من رجل مثل أبي مروان بدون علم المظفر، وأخذ الإذن منه .

من نتاج المحنة في شعر الجزيري :

لقد أوجت محنة أبي مروان الجزيري ونكبته إليه بشعر كثير ضاع معظمه، وما بقي منه رغم قَلْتِه يكشف عن مدى تأثيره بتلك النكبة ، وما خالط شعره من آثارها، فمن ذلك قوله يصف سجنه الذي اعتقل فيه ^(١) .

فِي رَأْسِ أَجْرَدَ شَاهِقِ عَالِي الدُّرَى مَا بَعْدَهُ لِمَوْمِلٍ مِنْ مَعْمَرِ
يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ أَعْوَرٍّ نَاعِقٍ وَتَهْبُ فِيهِ كُلُّ رِيحٍ صَرَصَرِ
وَيَكْـأَدُ مَنْ يَرْقَى إِلَيْهِ مَرَّةً مِنْ عُمْرِهِ يَشْكُو انْقِطَاعَ الْأَبْهَرِ

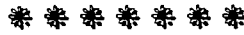
فوصفه لمحبسه يدل على أنه كان في عزلة تامة عن جميع خلق الله فلقد كان سجنه في برج شاهق الارتفاع، فوق ما يتصوره عقل عاقل في علوه وبعده عن الأرض، وقربه من السماء، لدرجة أنه لا يعتقد إنسان أن بعد مثل هذا الارتفاع إرتفاع آخر مماثل، وواضح من وصف الجزيري له، أن هذا البرج كان خرباً لا يصلح لسكنى آدمي حتى ولو كان معاقباً، بل يصلح لسكنى البوم والغريان ، وتأمل التأكيد على ارتفاعه الشاهق بقوله :

(١) الأسر والسجن في شعر العرب ، د. أحمد مختار البرزة ص ٥٠٨ . . .

ويكــاد من يرقى إليه مرّةً من عُمره يشكو انقطاع الأبهـر
وتأمل كذلك قوله :

« وتهب فيه كلُّ ريح صرّ صرّ »

فهذا يدل على خرابه، وعدم الاعتناء به، فهو غير محكم بحيث تصفر فيه الريح من كل ناحية، ولك أن تتخيل حال من يجلس في مكان كهذا



ولقد علّمت المحنة شاعرنا دروساً تربوية أخلاقية حرص على تلقينها لأولاده ...
وكان ذلك في قصيدة تعدّ من أشهر ما أمّلته عليه ظروف نكبته ، وهذه القصيدة قد
استهلها ببيان أثر السجن في نفسه حيث قال : (١) .

أَلْوَى بَعْدَ زَمِّ تَجَلْدِي وَتَصْبِرِي	نَأْيُ الْأَحِبَّةِ وَاعْتِيَادُ تَذَكُّرِي
شَحَطَ الْمَزَارُ ، فَلَا مَزَارَ وَنَافَرَتْ	عَيْنِي الْهَجُوعَ فَلَا خِيَالَ يَعْتَرِي
أَزْرَى بِصَبْرِي وَهُوَ مَشْدُودُ الْعُرَى	وَالْآنَ عُودِي وَهُوَ صُلْبُ الْمَكْسَرِ
وَطَوَى سُرُورِي كُلَّهُ وَتَلَدَّذِي	بِالْعَيْشِ طَيِّ صَحِيفَةٍ لَمْ تَنْشَرِ
هَآ إِنَّمَا أَلْقَى الْحَبِيبَ تَوْهَمًا	بَضْمِيَرٍ تَذَكَّارِي وَعَيْنٍ تَذَكُّرِي

(١) المطمح : ١٣ ، نفع الطيب ج ١ ص ٥٨٨ ، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) د. إحسان عباس ص ١٠٢ ، وتاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٣٢٥ ، وبتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ٨٨ - ٩٠ .

وَإِذَا الْفَتَى فَقَدَ الشَّبَابَ سَمَّاهُ
عَجَباً لِقَلْبِي يَوْمَ رَاعَتْنِي النَّوَى
مَا خِلْتَنِي أَبْقَى خِلَافَكَ سَاعَةً
إِنْسَانٌ عَيْنِي إِنْ نَظَرْتُ وَسَاعِدِي
فَإِذَا شَكُوتُ إِلَيْهِ شَكْوَى رَاحَةٍ
أُرْبَى عَلَيَّ فَحَظُّهُ مِمَّا بَنَا

حُبُّ الْبَنِينَ ، وَلَا كَحُبِّ الْأَصْغَرِ
وَدَنَا فِرَاقُكَ كَكَيْفٍ لَمْ يَنْفَطِرْ
لَوْلَا السُّكُونُ إِلَى أُخِيكَ الْأَكْبَرِ
مَهْمَا بَطَّشْتُ وَصَاحِبِي الْمُسْتَوِزِرِ
ذَكَرْتُهُ فَشَكََا إِلَيَّ بِأَكْثَرِ
حِظُّ الْمَعْلَى مِنْ قِدَاحِ الْمَيْسِرِ

ثم ينتقل بعد كل هذا إلى إسداء بعض الإرشادات والتوجيهات التربوية لولده لكي يعمل بها فلا ينكب مثل أبيه :

وَاعْلَمْ بِـ_____ أَنَّ الْعِلْمَ أَرْفَعُ رُتْبَةً
فَاسْلُكْ سَبِيلَ الْمُقْتَنِينَ لَهُ تَسَدُّ
وَالْعَالَمُ الْمَدْعُو حَبْرًا إِنَّمَا
وَالْعِلْمُ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَصْحَابِهِ
وَاحْزَنْ لِسَانَكَ وَاحْتَرِسْ مِنْ نَطْقِهِ
وَأَصْفَحْ عَنِ الْعَوْرَاءِ إِنْ قِيلَتْ وَعَدُّ
وَكُلِ الْمَسِيئِ إِلَى إِسَاءَتِهِ وَلَا
وَإِذَا سُئِلْتَ فَجِدْ وَإِنْ قُلَّ الْجَدَا

وَأَجَلٌ مُكْتَسَبٌ وَأُسْنَى مَفْخَرِ
إِنَّ السِّيَادَةَ تَقْتَنَى بِالْإِدْفَرِ
سَمَاءٌ بِاسْمِ الْحَبْرِ حَمْلُ الْمَحْبَرِ
مَالَمْ يُفِدْ عَمَلًا وَحُسْنَ تَصَبُّرِ
وَاحْزَنْ بَوَادِرِغِي ثُمَّ احْذَرِ
بِالْحِلْمِ مِنْكَ عَلَى السُّفِيهِ الْمَعُورِ
تَتَعَقَّبِ الْبَاغِي بِبَغْيِي ، تَنْصَرِ
جُهْدُ الْمُقَلِّ إِزَاءَ جُهْدِ الْمُكْثَرِ

تحليل القصيدة

لقد استهلَّ أبو مروان الجزيريَّ قصيدته ببيان ما أصابه من انهيار نفسيّ، وما حلَّ به من خورٍ في عزمته، فلا صبر، ولا تجلّد وكُل ذلك سببه بعدُ أحبته عنه وفراقه لهم، ودوام تفكّره فيهم .. ولقد ابتعد عنهم، وبعد مزارهم له، بل انقطع المزار، فالسجن ناءٍ بعيد، ولا راحة فيه، وقد ترتب على ذلك أن خاصم النوم عينيه فحرم زيارة طيفهم له كما حرم زيارة أشخاصهم، وهذا مما زاده ألماً وإحساساً بالحرمان، وهذا ما أزرى بصبره، وأصابه بالخور والضعف، فلان عوده بعد صلاية، وذهب سروره، وضاعت لذة العيش عنده، وفقد الرغبة في العيش والحياة، بعد أن صار لقاؤه بأحبته خصوصاً أولاده وهماً وخيلاً، ولولا أنهم في قلبه وضميره لكان الأمر أسوأ من ذلك، فهو يراهم بعين البصيرة لا البصر .

كما عبّر الشاعر عن شوقه الشديد، ولهفته المحرقة على بنيه جميعاً الذين هم ثمرة شبابه خصوصاً ولده الأصغر الذي كان في أشد الحاجة إليه ليعيش في كنفه، ويستمتع بحنانه، ويتعجب الشاعر كيف تحمّل قلبه فزع النوى يوم الفراق، وكيف تحمّل انتزاع صغاره من أحضانه . ؟ وهو الذي لم يطق يوماً أن يبتعد عنهم إلا لشاغل ضروري يشغله، أو إذا وجد الفرصة لحديث ولده الأكبر موجهاً ومرشداً قياماً بواجب الأبوة .. وتأمّل كيف يصف مكانة الابن عند أبيه عندما يقول :

إِنْسَانٌ عَيْنِي إِنْ نَظَرْتُ وَسَاعِدِي مَهْمًا بَطِشْتُ وَصَاحِبِي الْمُسْتَوَزِر

وهذه الصفات لا تحتاج إلى تعليق، فقد أغنى منطوقها ومفهومها عن كل تعليق .

ثم ينتقل الأب الحاني الذي أثّرت فيه النكبة، فاستشعر عجز أبوته بسبب قيوده التي تثقله، وتذكّله، حتى حولته إلى إنسان بائس محطّم لا يملك إلا النصيح باللسان فقط،

خصوصاً النصيح لابنه الأصغر، أقول : انتقل بعد ذلك إلى توجيه نصائح تربوية عظيمة، فأرشدته إلى أمضى الأسلحة في معترك الحياة ألا وهو سلاح العلم، فحثه على طلب العلم والاستزادة منه، والحرص عليه، كما أوصاه أن يكون عاملاً بعلمه، فلا قيمة للعلم إذا لم يؤدَّ إلى عمل صالح، يصل به إلى أسمى الرتب، وأكرم المنازل كما يوصيه بوصايا سلوكية إذا عمل بها عاش عيشة طيبة هنيئة، وأصبحت حياته مليئة بالمسرات، بل وعاش سليماً من الأذى الذي لحق بأبيه، وكأني بالشاعر يحس أنه كان أولى بالعمل بتلك الوصايا حتى لا يصيبه ما أصابه، ومن هذه الوصايا :

١- حفظ اللسان والاحتباس من نطقه .

٢- الصفح عمّن أساء إليه، والتخلق بخلق الحلم .

٣- مداراة السفهاء، وعدم مجاراتهم في سفاهاتهم .

٤- عدم مقابلة الإساءة بمثلها ، بل يقابلها بالحسنة .

٥- أن يكون جواداً كريماً حتى ولو بأقل القليل وهكذا لا ينسى الأب في محنته أن يحصن أولاده بكل نصيح طيب ، وإرشاد مفيد .. لأنه لا يريد لهم نفس المصير الذي انتهى إليه .

نظرات نقدية في شعر المحنة عند أبي مروان الجزيري :

١- إن الحزن العميق يخيم على جو القصيدة فالشاعر يتفتت كبده، ويتمزق قلبه، ويشعر بالمذلة القاتلة، ويحس بالأبوة العاجزة، حتى إنه لم يعد يملك إلا توجيه النصيح والإرشاد .

٢- سادت رغبة الشاعر في الانطلاق من قيوده، واشتد حنينه إلى الحرية التي يتحرق

شوقاً إليها، لكي يلقي بنيه وأهله الذين انقطعت زيارتهم له وترتب على ذلك إحساسه بالحرمان الدائم مما أياسه من الحياة وملذاتها ونعيمها ولذيذ العيش فيها فتحول إلى فلسفة الزهد، وهذا ناتج عن قلقه وحيرته مما ألجأه إلى نصيح أولاده لعل ذلك يخفف حدة توتره وقلقه .

٣- يبدو على الشاعر الانهيار التام، فقد نفذ صبره، فلا صبر لديه، وذهب تجلده، فلا تجلد، وإنتابه القلق، فلا راحة ولا نوم، وخارت قواه، وزوى عوده النضير، ولأن بعد أن كان صلباً قوياً .

٤- استخدم الشاعر للتعبير عن عاطفته المتوهجة تجاه أبنائه الألفاظ الموحية .. فنأي الأُحبة مذهباً للصبر والتجسد ، وللتعبير عن شدة البعد بينه وبين أحبته يقول: « شحط المزار فلا مزار » كما استخدم (لا) النافية للجنس لينفي كل ألوان المزار حقيقة وخيالا، وقوله : « أزرى بصبري » يُعطي إحساساً بالتقصير وهو تقصير ليس له فيه يد، إنما هو أمر لا إرادي .

كما أن قوله :

ها إنما ألقى الحبيب توهماً
بضمير تذكري وعين تفكري
يكشف عن لون من ألوان التحدي للواقع المر الذي يعيشه الشاعر، فإن كان سجنانه قد حال بينه وبين أحبابه في الواقع فيكفي أنهم في قلبه وضميره دائماً .

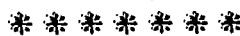
وعندما يتحدث عن ولده فيقول : (إنسان عيني إن نظرت .. إلخ) فهذا إيحاء بالمكانة العظيمة للولد في قلب أبيه، وكيف أنه لا غنى للوالد عن ولده، ويبدو أن محتته قد انعكست على ولده الأكبر، فناله من بطش من حبس أباه شيء، وهذا ما يوحى به قوله في قصيدته :

فَإِذَا شَكُوْتُ إِلَيْهِ شَكَاةً رَاحَةً ذَكَرْتُهُ فَشَكََا إِلَيَّ بِأَكْثَرِ
أَرَبِيَّ عَلَيَّ فَحَظُّهُ مِمَّا بِنَا حَظَّ الْمُعْلَى مِنْ قَدَاحِ الْمِيَسْرِ

٥- ألفاظ الشاعر وتعبيراته عربية فصحية، ومعانيه واضحة، بل هي سطحية جداً عندما اتجه إلى الشعر التعليمي التربوي، لما أراد بذلك نصيح ولده وقد استخدم بعض الصور البيانية في موضعها حيث جعل نأي الأُحبة مُذهَباً للصبر والتجلد، أو محتقراً للصبر على سبيل الاستعارة المكنية، وهي صورة مركبة لامفردة، كما صَوَّر الهجوع شيئاً محسوساً تنفر منه العين وتبغضه، وصور السرور شيئاً يُطَوَّى ومثله التلذذ بالعيش والحياة وشبهه بطيِّ الصَّحيفة وعدم نشرها لمعرفة ما فيها، وكذلك صَوَّر فكره بإنسان يرى ويبصر، وأشار إلى المشبه به بشيء من لوازمه وهو العين على سبيل الاستعارة المكنية وجاء بالتشبيه البليغ « إنسان عيني إن نظرت » حيث جعل المشبه وهو الابن الأكبر نفس المشبه به وهو إنسان العين للدلالة على عظم مكانة هذا الابن .

واتجاه الشاعر إلى الشعر التعليمي أو التوجيهي التربوي يدل دلالة قاطعة على أثر المحنة والنكبة فيه، حيث لم يعد لديه ما يشغله إلا نَجاة أولاده، كما أنه لم يجد ما يعطيه لهؤلاء الأولاد إلا النصيح والتوجيه .

والقصيدة وإن دَلَّت على شاعرية أبي مروان عبد الملك الجزيري فإنها أيضاً دلت على أثر نكبته في شعره، حيث اتجه إلى الشكوى .. شكوى البين والفراق، والكشف عن التوجع والتفجع، والتعبير عن شدة الشوق والحنين كما كان لنكبته أثرها الواضح في اختيار الألفاظ والعبارات والصور البيانية، والموسيقى الداخلية الحزينة .



رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أَسْلَمَ اللهُ (الفردوس)

(٥) «أَبُو عَامِرٍ أَحْمَدُ
ابْنُ أَبِي مَرْوَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ شُهَيْدٍ»

التعريف بالشاعر^(١) :

من الشعراء الذين اشتد بهم البلاء، وحلّت بهم النكبات، الشاعر (أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد)، وقد ولد في قرطبة سنة ٣٨٢هـ .

وكان أبوه الوزير أبو مروان عبد الملك بن شهيد، فهو من أسرة نال معظم أفرادها مناصب الوزارة والرياسة وبيته من بيوت الشعر والأدب في الأندلس، وكان أبوه مقرباً للحاجب المنصور، ولذلك استعمله على إقليم بلنسية في شرق الأندلس، وبالغ في تكريمه عند عودته إلى قرطبة بعد تسع سنوات قضّاها هناك ثم طلب إعفائه من الخدمة فأعفاه وجعله من ندمائه .

وقد نشأ أبو عمر أحمد بن شهيد عزيز النفس، ونال قسطاً كبيراً من التعليم برغم موت أبيه وهو غلام صغير لم يتخط الحادية عشرة من عمره، وقد عاصر سنوات الفتنة البربرية في قرطبة، ونكب بها وهو في ريعان شبابه، وقد تحدثنا عن أثر الفتنة المبيرة في حياته، وعرضنا نتاجه الأدبي المتولد من تأثيرها في كتابنا (الفتن والنكبات العامة، وأثرها في الشعر الأندلسي) .

(١) راجع في ترجمته وأخباره : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٣٢١ وما بعدها ، نفح الطيب ج ٣ ص ٥٨ ومطمح الأنفس ص ١٦ - ٢٢ ، تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٤٥٤ ، الأدب الأندلسي د. أحمد مكيكل ص ٣٦٧ .

البلاء الذي حلّ بالشاعر :

أبو عامر بن شهيد من الشعراء الذين أضرت بهم فتنة قرطبة ضرراً بالغاً كما أشرنا ، ولكن إلى جانب ذلك نكب في نفسه بكراهية الحكام له ، وكذلك كراهية كثير من رجال العلم والأدب المحافظين ، وذلك راجع إلى ما عرف به ابن شهيد من تحرر وانطلاق بالغيث ، ولما تميّزه من ميل شديد إلى المجون والعريضة ، وكان ناقداً صلباً مرّ اللسان ، كما نكب بالسجن لفترة على يد المعتلي بن حمّود صاحب مالقة وإشبيلية ، وبعد انتهاء فتنة قرطبة أصيب ابن شهيد سنة ٤٢٥ هـ بمرض النسمة ، وهو ضيق التنفس أو الربو ، ثم أصابه ، الفالج فاجتمعت عليه العلتان معاً ، وفي أواخر أيامه لزم فراشه دون حراك ، فكان كالحجر لا يرح ولا يتقلب ، حتى إنه لم يكن يتحمّل أن يحركه أحد لعظيم أوجاعه لدرجة أنه همّ بالتخلص من حياته ، لولا أنه آثر الرضا بقضاء الله وقدره ، واستسلم له حتى وافته منيته ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ٤٢٦ هـ .

وعلى الرغم من شدة مرض ابن شهيد ، وملازمته الفراش ملازمة تامة ، إلا إنه كان صافي الذهن متوقد القريحة ، يصدر عنه الشعر قوياً متين السبك .

شعر الحن والنكبات في أدب ابن شهيد :

لقد كان النتاج الأدبي لابن شهيد إبان فترات محنه ونكباته غزيراً ، ومن أشهر قصائده الشعرية قصيدته التي قدّم لها صاحب المطمح بقوله : ^(١) « ودبت إلى أبي عامر بن شهيد أيام العلويين عقارب ، برئت بهامنه أبا عد وأقارب ، واجهه بها صرف قطوب ، وانبرت إليه منها خطوب ، نبا لها جنبه عن المضجع ، وبقي بها ليالي يارق ولا يهجع ، إلى أن أعلقت في الاعتقال آماله ، وعقلته في عقالٍ أذهبت ماله ، فأقام مرتها ، ولقي وهناً ، وقال :

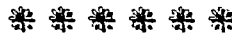
(١) نفع الطيب للمقرئ ج ٣ ص ٣٦١ ، المطمح ص ٢٠ ، وقد عرضنا جانباً غير قليل منها في كتابنا (الفتن والنكبات العامة) ونقلها هنا كاملة إتماماً للفائدة ، ولقربها جداً من النكبات الخاصة .

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الْهَوَانِ مَجِيدٌ
نَعَى صَبْرَهُ عِنْدَ الْإِمَامِ فَيَالَهُ
وَمَا ضَرَّهُ إِلَّا مُسْزَاحٌ وَرَقَّةٌ
جَنَى مَا جَنَى فِي قُبَّةِ الْمُلْكِ غَيْرُهُ
وَمَا فِيَّ إِلَّا الشُّعْرُ أَثْبَتَهُ الْهَوَى
أَفْوَهُ بِمَا لَمْ آتِهِ مُتَعَرِّضُ
فَإِنْ طَالَ ذِكْرِي بِالْمُجُونِ فَإِنَّهَا
وَهْلٌ كُنْتُ فِي الْعُشَّاقِ أَوَّلَ عَاقِلٍ
فِرَاقٌ وَشَجْوٌ وَاشْتِيَاقٌ وَذِلَّةٌ
فَمَنْ يُلْبِغُ الْفَتْيَانَ أَنِّي بَعْدَهُمْ
مُقِيمٌ بَدَارٍ سَاكِنُهَا مِنَ الْأَذَى
وَيُسْمَعُ لِلْجَنَانِ فِي جَنَابَتِهَا
وَلَسْتُ بِذِي قَيْدٍ يَرُنُّ ، وَإِنَّمَا
وَقُلْتُ لِصَدَاحِ الْحَمَامِ وَقَدْ بَكَى
أَلَا أَيُّهَا الْبَاكِي عَلَى مَنْ تُحِبُّهُ

يَجُودُ وَيَشْكُو حَزَنَهُ فَيَجِيدُ
عَدُوَّ لِأَبْنَاءِ الْكِرَامِ حَسُودُ
ثَنَّتُهُ سَفِيهُهُ الذِّكْرُ وَهُوَ رَشِيدُ
وَطُوقَ مِنْهُ بِالْعَظِيمَةِ جِيدُ
فَسَّارَ بِهِ فِي الْعَالَمِينَ فَرِيدُ
لِحُسْنِ الْمَعَانِي تَارَةً فَازِيدُ
عَظَائِمُ لَمْ يَصْبِرْ لِهِنَّ جَلِيدُ
هُوتَ بِحُجَّاهُ أُعَيْنَ وَخُدُودُ؟ !
وَجَبَّارُ حِفَاطٍ عَلَيَّ عَتِيدُ
مُقِيمٌ بَدَارِ الظَّالِمِينَ وَحِيدُ
قِيَامٌ عَلَى جَمْرِ الْحِمَامِ قُعُودُ
بَسِيطُ كَثَرِ جِيعِ الصَّدَى وَنَشِيدُ
عَلَى اللَّحْظِ مِنْ سُخْطِ الْإِمَامِ قِيُودُ
عَلَى الْقَصْرِ الْفَاءِ وَالْدُمُوعُ تَجُودُ
كِلَانَا مُعْنَى بِالْخَلَاءِ فَرِيدُ

وَهَلْ أَنْتَ دَانٍ مِنْ مُحِبِّ نَأْيٍ بِهِ
فَصَفَّقَ مِنْ رِيَشِ الْجَنَاحَيْنِ وَأَقْعَا
وَمَازَالَ يُكِينُنِي، وَأُبْكِيهِ جَاهِدًا
إِلَى أَنْ بَكَى الْجَدْرَانُ مِنْ طُولِ شَجُونَا
أَطَاعَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا
فَلِلشَّمْسِ عَنْهَا بِالنَّهَارِ تَأَخَّرُ
أَلَا إِنَّهَا الْأَيَّامُ تَلْعَبُ بِالْفَتَى
وَمَا كُنْتُ ذَا أَيْدٍ فَأَذْعَنُ ذَا قُوَى
وَرَأَضْتُ صَعَابِي سَطْوَةً عَلَوِيَّةً
تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا كُفَّ مَرَكِبِي
فَقُلْتُ لَهَا : أُمْرِي إِلَى مَنْ سَمَتْ بِهِ
إِلَى الْمُعْتَلِي عَالِيَتْ هَمِّي طَالِبًا
هُمَامٌ أَرَاهُ جُودَهُ سَبِيلَ الْعُلَا،
حَنَانِيكَ إِنَّ الْمَاءَ قَدْ بَلَغَ الْوُزْبَى
ظَمِئْتُ إِلَى صَافِيِ الْهَوَاءِ وَطَلَّقَهُ

عَنِ الْإِلْفِ سُلْطَانٍ عَلَيْهِ شَدِيدُ
عَلَى الْقُرْبِ حَتَّى مَا عَلَيْهِ مَزِيدُ
وَلِلشَّوْقِ مِنْ دُونِ الضَّلُوعِ وَقُودُ
وَأَجْهَشَ بَابَ جَانِبَاهُ حَدِيدُ
تَصَرَّفُ فِي الْأُمُورِ كَيْفَ تُرِيدُ
وَلِلْبَدْرِ عَنْهَا بِالظَّلَامِ صُدُودُ
نَحْنُ نَحْنُ تَهَادَى تَارَةً وَسُودُ
مِنَ الدَّهْرِ مَبْدِ صَرْفِهِ وَمُعِيدُ
لَهَا بَارِقَ نَحْوِ النَّدَى وَرُعُودُ
أَقْرَبُكَ دَانٍ أَمْ مَدَاكَ بَعِيدُ
إِلَى الْمَجْدِ أَبَاءَ لَهُ وَجُودُ
لَكَرَّتْهُ إِنَّ الْكَرِيمَ يَعُودُ
وَعَلِمَهُ الْإِحْسَانَ كَيْفَ يَعُودُ !!
وَأُنَحْتُ رَزَايَا مَالِهَا عَدِيدُ
فَهَلْ لِي يَوْمًا فِي رِضَاكَ وَرُودُ ؟ !



ولقد استجاب المعتلي بن حمود لاستعطاف ابن شهيد، وعفا عنه، وأطلق سراحه، وقرّبه، وحسنت علاقته به، فأخذ يمدحه، ويبعث إليه بالمدايح من مدينة قرطبة، ويهنئه بانتصاراته على خصومه .

ولكن ابن شهيد داهمه البلاء في بدنه، وهو مالم يستطع له دفعاً أبداً .

قال صاحب المطمح: (١) « ولزمته آخر عمره علةٌ دامت سنين ، ولم تفارقه حتى تركته يدجنين ، أحسب أن الله أراد بها تمحيصه ، وإطلاقه من ذنب كان قنيصه ، فطهره تطهيراً ، وجعل ذلك علي العفو له ظهيراً ، فإنها أقعدته حتى حِمِلَ في الحفّة ، وعادته حتى غدت لرونقه مشتفة ، وعلى ذلك فلم يعطل لسانه ، ولم ييطل إحسانه ، ولم يزل يستريح إلى القول ، ويزيح ما كان يجده من الغول ، ومما قاله عندما اشتد به المرض ، واقعه عن الحركة حتى صار حجراً لا يبرح ولا يتقلب ، مع شدة ضغط الأنفاس ما يلي: (٢) .

أَنُوحُ عَلَى نَفْسِي ، وَأَنْدُبُ نَبَلَهَا
رَضِيتُ قَضَاءَ اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ
أَظِلُّ قَعِيدَ الدَّارِ تَجَنَّبِي الْعَصَا
وَأَنْعِي خَسِيسَاتِ ابْنِ آدَمَ عَامِلًا
أَلَا رَبِّ خَصِمٌ قَدْ كَفَيْتُ ، وَكَرْبَةٌ
وَرُبُّ قَرِيضٍ كَالْجَرِيضِ بَعَثَتْهُ
فَمَنْ مَبْلَغُ الْفَتْيَانِ أَنَّ أَخَاهُمْ
عَلَيْكُمْ سَلَامٌ مِنْ فَتَى عَضِهِ الرَّدَى
يُبِينُ وَكَفُّ الْمَوْتِ تَخْلَعُ نَفْسُهُ

إِذَا أَنَا فِي الضَّرَاءِ أَزْمَعْتُ قَتْلَهَا
عَلَيَّ وَأَحْكَامًا تَيَقَّنْتُ عَدْلَهَا
عَلَى ضَعْفِ سَاقِي أَوْهَنَ السَّقَمِ رِجْلَهَا
بِرَاحَةِ طِفْلِ أَحْكَمِ الضُّرِّ نَصْلَهَا
كَشَفْتُ ، وَدَارَ كُنْتُ فِي الْمَحَلِّ دَبْلَهَا (٣)
إِلَى خُطْبَةٍ لَا يَنْكُرُ الْجَمْعُ فَصْلَهَا (٤)
أَخُوفَتِكَةَ شَنْعَاءَ مَا كَانَ شَكْلَهَا ؟
وَلَمْ يَنْسُ عَيْنًا أَثْبَتَتْ فِيهِ نَبْلَهَا
وَدَاخِلَهَا حَبٌّ يَهْوَنُ ثَكْلَهَا

(١) المطمح ٢١ ، نفح الطيب ج ٣ ص ٣٦٢ ، الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٢٨ .

(٢) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٢٨ تحقيق د. إحسان عباس .

(٣) دبلها : مصلحها ومعمرها .

(٤) الجريض : الغم والغصص .

وَمِمَّا كَتَبَ بِهِ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ ، وَهُوَ فِي عِلَّتِهِ أَيْضاً : (١) .
أَقْرَ السَّلَامَ عَلَى الْأَصْحَابِ أَجْمَعِهِمْ وَخَصَّ عَمْرَأَ بَأَزْكَى نُورِ تَسْلِيمِ
وَقُلْ لَهُ يَا أَعَزَّ النَّاسِ كُلِّهِمْ شَخْصاً عَلَيَّ وَأَوْلَاهُمْ بِتَكْرِيمِ
اللَّهُ جَارَكَ مِنْ ذِي مَنَعَةٍ ظَفِرَتْ مِنْهُ اللَّيَالِي بِعَلَقٍ غَيْرِ مَذْمُومِ
مَا كَانَ حَبُّكَ إِلَّا صَوْبَ غَادِيَةٍ طَيْباً ، وَحَاشَا لِحَبِيٍّ فَيْكَ مِنْ لُومِ
إِنْ شَاءَ صَرَفُ الرَّدَى تَقْدِيمَ أَطْوَعِنَا فَقَدْ رَضِيتُ - حَمَاكَ اللَّهُ - تَقْدِيمِي
وَأِنْ أَحَبَّ الثَّرَى جِسْماً لِيَأْكُلَهُ أَسْمَحَ بِجِسْمِي لَهُ يَفْدِيكَ تَعْظِيمِي
عَشْنَا أَلْيَفَيْنِ فِي بَرِّ الْهَوَى زَمْنًا حَتَّى زَقَابُنُونًا طَاسِئِ الشُّومِ
فَشَتَّتْ نُوْبُ الْأَيَّامِ أَلْفَ تَنَّا قَسْرًا وَلَمْ يُغْنِهَا ظَنِّي وَتَنْجِيْسِي
وَفِي رِسَالَةٍ أُخْرَى كَتَبَ بِهَا إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ وَهُوَ فِي عِلَّتِهِ يَوْمئِذٍ (٢) .

هَذَا كِتَابِي وَكَفُّ الْمَوْتِ تَزْعِجُنِي عَنْ الْحَيَاةِ ، وَفِي قَلْبِي لَكُمْ ذِكْرُ
إِنْ أَقْضَيْكُمْ حَقَّكُمْ مِنْ قِلَّةِ عُمْرِي إِنِّي إِلَى اللَّهِ لَأَحِقُّ وَلَا عُمْرُ
لَهْفِي عَلَى نِيرَاتٍ مَاصَدَعَتْ بِهَا إِلَّا وَأَظْلَمَ مِنْ أَضْوَائِهَا الْقَمَرُ
فَاقْرَ السَّلَامَ عَلَى الْمَنْصُورِ أَفْضَلَ مِنْ سَعَى لِثَارِ بَنِي الْإِسْلَامِ فَاتَّصَرُّوا
وَاعْطَفَ بِهَا عَطْفَةً تَهْتَزُّ مِنْ كَرَمِ عَلَى الْمُظْفَرِ فَهُوَ الْفَلَجُ وَالظَّفَرُ

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٣١ - ٣٣٣ ت د. إحسان عباس .

(٢) زقابنونا : صاح بيعادنا .

(٣) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٣١ .

وقال أيضاً وهو في علته يتحسر على ما أفنى من عمره في الملهيات والشهوات مشيراً إلى أنه سوف يحاسب على كل ذلك، ويفكر في ما سوف يقوله أحبابه بعد أن يواروه الثرى، وفي معرض هذا يتحدث عن الموت الذي لا يصرف عن أحد، ويشير إلى ما في قلبه من هوى لأحبابه لا ينتهي، حتى وهو يعالج سكرات الموت، وبلغت روحه الحنجرة.. (١).

تَأْمَلْتُ مَا أَفْنَيْتُ مِنْ طُولِ مُدَّتِي
وَحَصَلْتُ مَا أَدْرَكْتُ مِنْ طُولِ لَذَّتِي
وَمَا أَنَا إِلَّا رَهْنٌ مَا قَدَمْتُ يَدِي
سَقَى اللَّهُ فِتْيَانًا كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ
إِذَا ذَكَرُونِي وَالْثَرَى فَوْقَ أَعْظَمِي
يَقُولُونَ : قَدْ أَوْدَى أَبُو عَامِرٍ الْعَمَلَا
هُوَ الْمَوْتُ لَمْ يُصَرَفْ بِإِجْرَاسِ خَاطِبِ
وَلَمْ يَجْتَنِبْ لِلْبَطْشِ مُهْجَةً قَادِرِ
يَحُلُّ عَرَى الْجَبَّارِ فِي دَارِ مُلْكِهِ
وَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ بَيْنَ جَوَانِحِي
يُحَرِّكُنِي وَالْمَوْتُ يَحْفَزُ مُهْجَتِي
وقال يودع إخوانه في أواخر أيام حياته: (٢).

وَكُلُّ خَرَقٍ إِلَى الْعَلْيَاءِ سَبَاقِ
يَهْدِي، وَصَائِبُهُمْ يُوْدِي بِإِحْرَاقِ
اسْتَوْدَعُ اللَّهُ إِخْوَانِي وَعَشْرَتَهُمْ
وَفَتِيَّةً كَنُجُومِ الْقَذْفِ نَيْهَرَهُمْ

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٣٢. (٢) السابق ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

وَكُوكِبًا لِي مِنْهُمْ كَانَ مَغْرِبُهُ
 اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مَا أَفَارَقُهُ
 كُنَّا أَلْيَسَيْنِ خَانَ الدَّهْرِ أُلْفَتَنَا
 فَإِنْ أَعَشْ فَلَعَلَّ الدَّهْرَ يَجْمَعُنَا
 لَا ضَيْعَ اللَّهُ إِلَّا مَنْ يُضَيِّعُهُ
 قَدْ كَانَ بَرْدِي إِذَا مَا مَسَّنِي كَلَفٌ
 حَتَّى رَمَتْنَا صُرُوفُ الدَّهْرِ عَنْ كَثَبٍ
 إِنِّي لَأَرْمُقُهُ وَالْمَوْتُ يَضْغَطُنِي

قَلْبِي، وَمَشْرِقُهُ مَا بَيْنَ أَطْوَاقِي
 إِلَّا وَفِي الصُّدْرِ مِنْهُ حَرٌّ مُشْتَاكِ
 وَأَيُّ حَرٍّ عَلَى صَرْفِ السَّرْدِ بَاقِي
 وَإِنْ أُمْتُ فَسَيَسْقِيهِ كَذَا السَّاقِي
 وَمَنْ تَخَلَّقَ فِيهِ غَيْرَ أَخْلَاقِي
 لَا يَثْلُمُ الْحُبُّ آدَابِي وَأَعْرَاقِي
 فَفَرَّقْتَنَا، وَهَلْ مِنْ صَرْفِهِ وَاقِي؟
 فَأَقْضِي فُرْجَةً مُرْتَدَّ أَرْمَاقِي

ولما أيقن أبو عامر بن شهيد بدنو الأجل كتب وصيتين أولاهما خاصة والثانية
 عامة لكل من يحضر دفنه .

أما الوصية الخاصة فقد أرسل بها إلى صديقه الفقيه أبي محمد بن حزم
 الشافعي وفيها يقول : (١) .

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْعَيْشَ وَلَيْ بِرَأْسِهِ
 تَمَنَيْتُ أَنِّي سَاكِنٌ غِيَابَهُ
 أَذْرُ سَقِيطَ الْحَبِّ فِي فَضْلِ عَيْشَةٍ
 خَلِيلِي مَنْ ذَاكَ الْمَنِيَّةَ مَرَّةً

وَأَيَّقَنْتُ أَنَّ الْمَوْتَ لَا شَكَّ لَا حِقِّي
 بِأَعْلَى مَهَبِّ الرِّيحِ فِي رَأْسِ شَاهِقِ
 وَحِيداً ، وَحَسْبِي الْمَاءُ ثَنِي الْمَفَالِقِ
 فَقَدْ ذُقْتُهَا خَمْسِينَ قَوْلَةَ صَادِقِ

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٣٣ .

كَأَنِّي وَقَدْ حَانَ أَرْتَحَا لِي لَمْ أَفْرُ
فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي ابْنَ حَزْمٍ وَكَانَ لِي
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ إِنِّي مُفَارِقٌ
فَلَا تَنْسَ تَأْبِئِنِّي إِذَا مَا فَقَدْتَنِي
فَلِي فِي أَدْكَارِي بَعْدَ مَوْتِي رَاحَةٌ
وَإِنِّي لَأَرْجُو اللَّهَ فِيمَا تَقَدَّمْتُ

قَدِيمًا مِنَ الدُّنْيَا بِلَمْحَةٍ بَارِقٍ
يَدًا فِي مِلْمَاتِي وَعِنْدَ مَضْيَاقِي
وَحَسْبُكَ زَادًا مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِقٍ
وَتَذْكَارَ آبَائِي وَفَضْلَ خَلَا ثَقِي
فَلَا تَمْنَعُونِيهَا عَلَالَةً زَاهِقٍ
ذُنُوبِي بِهِ تُمَادِرِي مِنْ حَقَائِقِي

أما الوصية الثانية فهي وصيته إلى كل من يحبه ويعزه، فقد أوصى أن يدفن إلى جانب صديقه أبي الوليد الزجالي وأن يكتب على قبره على صفحة لوحة رخامية ما يلي: (١)

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾

هذا قبر أحمد بن عبد الملك بن شهيد المذنب، مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن البعث حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، مات في شهر كذا من عام كذا، ويكتب تحت هذه الأسطر هذا النظم :

يَا صَاحِبِي قُمْ فَقَدْ أَطْلُنَا	أُنَحْنُ طُولَ الْمَدَى هَجُودُ ؟
فَقَالَ لِي : لَنْ نَقُومَ مِنْهَا	مَا دَامَ مِنْ فَوْقِنَا الصَّعِيدُ
تَذَكَّرْ كَمْ لَيْلَةٍ لَلْهَوَانَا	فِي ظِلِّهَا وَالزَّمَانُ عِيدُ ؟
وَكَمْ سُرُورٍ هَمِي عَلَيْنَا	سَيَحَابَةُ ثَرَّةٍ تَجُودُ ؟
كُلُّ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ تَقْضَى	وَشُؤْمُهُ حَاضِرٌ عَتِيدُ
حَصْلُهُ كَاتِبٌ حَفِيزُ	وَضَمُّهُ صَادِقٌ شَهِيدُ
يَاوَيْلِنَا إِنْ تَنَكَّبْتَنَا	رَحْمَةً مِنْ بَطْشِهِ شَدِيدُ
يَا رَبُّ عَفَوْنَا فَأَنْتَ مَوْلَى	قَصَرَ فِي أَمْرِكَ الْعَبِيدُ

(١) المصدر السابق ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

وقد لقي ابن شهيد حنفة يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ٢٦٤ هـ، وووري ثراه، وقام محبوه من شعراء عصره برثائه، ومنهم أبو الأصبع القرشي، وأبو حفص بن برد الأصغر، وغيرهما .

التعليق على شعر النكبات عند ابن شهيد :

شعر الحنة والنكبة عند ابن شهيد يكشف عن مدى تأثره بما امتحن به من كراهية بعض الناس له، وحقدهم عليه، وما أصابه من سجن وتعذيب، ثم أخيراً المرض الذي ابتلي به، وهو ضيق النفس (الربو) والفالج بعد ذلك، وقد ظهر هذا التأثير في شعره، ففي السجن يكتب إلى ابن حمود يمدحه، ويستعطفه، ولكنه يصنع صنيع أبي الطيب المتنبى، فيذكر نفسه بالفخر إلى جانب ممدوحه، وكأنه لا يحب أن يؤثر الممدوح وحده بكريم الصفات .

كما ترى في حديثه روح الفكاهة والمجون هذه الروح المستمدة من أبي نواس، ثم بعد هذا كله يلجأ إلى الاستعطاف، وطلب العفو، بأسلوب خلط فيه بين الاعتذار عما بدر منه ، واستمache العذر فيما أحدثه، وبين المدح لابن حمود والثناء عليه، وكان حديثه صادقاً مؤثراً، ولذلك فاز بالعفو، وإطلاق سراحه وتقريبه .

وعندما أصابه المرض رأينا كيف ناح على نفسه، وشرح الحال التي آل إليها، حال الضعف والعجز، وذلك لأن الردى قد عضه بنابه، وكيف أنه وهو على هذه الحالة التي تقرب الموت منه مازال صاحب نفس معببة لكل الناس، وهذا الحب هو الذي يهون عليه ما هو فيه، وكأنني به يريد أن يقول لمن يكرهونه : لماذا الكراهية والبغض ، وأنا محب لكم ولغيركم برغم ما بي من مرض مقعد ؟ !

وعندما يخاطب إخوانه يكثر من إعلان ندمه على ما حصل من ملذات الحياة، وكل هذا مرّ كلمحة عابرة، بل رآه صفة خاسرة، كما رأى أنه محاسب على كل ذلك عندما يواريه أحبابه ومشيعوه التراب، وينصرفون عنه ، باكين عليه، ولكنه الموت الذي لا يصرفه عمّن حان حينه كلمات خطيب، أو نظم شاعر، ولا يفرق بين قوي أو ضعيف ، ولا يخشى كل جبار وقد أكثر ابن شهيد من توديع إخوانه، وأوصاهم بتذكره .

ومن هذا يتضح أثر المحنة في ابن شهيد وشعره ، حيث امتلأ شعره بكلمات الندم على التفريط فيما مرّ من أيام عمره، وجاءت ألفاظه تحمل كثيراً من معاني التحسّر، والخوف من الحساب، لأنه أسرف كثيراً في ملذاته وشهواته وفي النهاية صوّر كل ذلك بصفقة خاسرة، وبضاعة كاسدة .. وقد تشابهت أفكاره ومعانيه في كثير من شعره الذي قرضه أيام محنته، فجاءت كلها تدور حول الحديث عن علته، ووداع إخوانه، وإيصائهم بما يجب عمله بعد موته، كما أنه تنسّك وزهد، وتاب إلى الله وأناب، كما فعل أبو نواس الشاعر العباسي في أواخر حياته عندما أحسّ بقرب منيته تماماً .



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثالث

أبرز الشعراء المنجوبين

في عصر ملوك الطوائف

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تميهـد وتـقـديـم

إن عصر ملوك الطوائف في الأندلس قد بدأ بداية فعلية بعد أن زالت دولة المنصور ابن أبي عامر، وأصبحت خبراً بعد عين، عندما قُتل ولده عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر الذي تولى الحجابة بعد وفاة أخيه عبد الملك المظفر، وتلقب بالمأمون، ولكن الفقهاء كانوا يلقبونه بعبد الرحمن سانشول، لأنهم كانوا يكرهونه لا نحداره من أم نصرانية بنت رجل يسمى (سانشو)، وكان مقتل عبد الرحمن بن أبي عامر سنة ٣٩٩ هـ بسبب ما دعاه إليه طمعه، حيث مارس ضغطاً شديداً على الخليفة هشام المؤيد ليكتب له صكاً بولاية العهد، وتحت الضُّغط والتهديد كتب له هشام هذا الصك، وكان ذلك سبباً في هياج الأمويين وإعلانهم الثورة على هشام المؤيد، وقاد ثورة الأمويين هذه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ولما حاول شنجول أن يخمد الثورة ويقضي على زعمائها قتلوه وصلبوا جثته، ثم أجبروا الخليفة هشام المؤيد على أن يتنازل عن الخلافة لمحمد بن هشام بن عبد الجبار، وبويع محمد بالخلافة، وتلقب بالمهدي سنة ٣٩٩ هـ، ولكن الأمور لم تستقر، بل اندلعت الفتنة القرطبية التي أشعل نيرانها البربر، والتي أكلت الأخضر واليابس، واستمرت قرابة ربع قرن وذلك من سنة ٣٩٩ هـ إلى سنة ٤٢٢ هـ، وهي السنة التي أعلن فيها إلغاء الخلافة الأموية نهائياً، وقيام حكم أشبه ما يكون بالحكم الجمهوري الرئاسي، حيث تشكل مجلس للحكام من العلماء والفقهاء، ووجه القوم برئاسة شيخ الجماعة أبي الحزم بن جهور.

وإبان الفتنة تغير الحاكم في قرطبة أربع عشرة مرة خلال ثلاث وعشرين سنة، ودبت الفوضى، وتمزقت الأندلس بين رؤساء الطوائف والولاة والعمال، حيث اغتنم هذه الفرصة كلُّ قادر على الاستقلال بما تحت يده - إمارة كانت أو ولاية، أو حتى مدينة وتوابعها من القرى - وأعلن الاستقلال وأردف ذلك بإعلان ما تحت يده دولة، أو مملكة، واتخذ له عاصمة لمملكته ونصب نفسه ملكاً على ما تحت يده، وتلقب بألقاب الملوك

والخلفاء ، وأصبحت الأندلس مجموعة من الممالك أو الدويلات الصغيرة المتناثرة المتناحرة ، يحكمها ملوك عرفوا تاريخياً باسم ملوك الطوائف .

ومن أشهر ممالك الطوائف ما يلي :

- (١) دولة بني هود في سرقة .
- (٢) دولة بني رزين في شنتيمرية الشرق .
- (٣) دولة بني حمود في قرطبة .
- (٤) دولة العامريين في بلنسية .
- (٥) دولة بني الأفطس في بطليوس .
- (٦) مملكة بني عباد في إشبيلية .
- (٧) دولة بني جهور في قرطبة .
- (٨) دولة بني ذى النون في طليطلة .
- (٩) دولة بني الأحمر في غرناطة .

وممالك ودويلات أخرى لم تكن لها شهرة هذه الممالك والدويلات، واستمر عهد ملوك الطوائف حتى سنة ٤٩٥هـ، وهي السنة التي استطاع فيها يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في المغرب القضاء على آخر ممالك الطوائف وإعلان ضمّ الأندلس إلى دولة المرابطين في المغرب، وعاصمتها مراكش .

والحقيقة أن ملوك الطوائف كانوا وبالأعلى الأندلس من الناحيتين السياسية والعسكرية، لكنّ الأدب في عهدهم ازدهر، وارتفع شأنه، وكثرت مراكزه، وكثر عدد الشعراء .

وأمام كثرة عدد الشعراء تعرّض عدد منهم لبعض المحن والفتن والنكبات ممّا كان له انعكاساته على شعرهم وأدبهم، وآثاره على توجهاتهم وأغراضهم، سواء كانت هذه المحن في البدن أو في الأولاد والأهل، أو في الأموال، وهي محن تخص من نزلت بهم فقط، ويقتصر تأثيرها عليهم وعلى ذويهم دون باقى أفراد المجتمع ومن أبرز الشعراء الذين امتحنوا ونكبوا في عصر ملوك الطوائف :

- (١) أبو عبد الله بن الحناط الأعمى . (٢) حكم البكري . (٣) ابن غصن الحجاري .
- (٤) ابن زيدون . (٥) أبو جعفر اللّمائي . (٦) أبو بكر بن عمار .
- (٧) ابن الحداد . (٨) ليون بن عبد العزيز . (٩) ابن اللبانة .
- (١٠) أبو الحسن الفكيك .

وسوف نتناولهم بالدراسة حسب ترتيبهم المبين في هذا الفصل إن شاء الله .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(١) أبو عبد الله ابن الحنَّاطُ

التعريف بالشاعر : (١)

هو أبو عبد الله محمد بن سليمان « بن الحنَّاط » القرطبي ، وكان أبوه يبيع الحنطة فعرف بذلك ، وكان ضعيف البصر صغيراً ، وأصابه العمى كبيراً من كثرة القراءة ومطالعة الكتب .

وقد نشأ في بيئة فقيرة ، فتكفل به بنو ذكوان من وجهاء قرطبة وهم معروفون بالثراء ، وكفوه مؤنثته فتفرغ لطلب العلم ، وعاش ابن الحنَّاط بعد ذلك يتكسب بعلمه ، ومعرفته لشيء من الطب ، كما كان يتكسب بشعره ، وذلك بمدح الملوك والأمراء ، وقد مدح علياً بن حمود من بني حمود الذين استبدوا بقرطبة أيام الفتنة البربرية بين سنة ٤٠٠ هـ إلى سنة ٤٢٢ هـ ، كما مدح أخاه القاسم بن حمود الملقب بالمأمون .

وكان ابن الحنَّاط الأعمى ماهراً في علوم العربية ، وفنون الأدب ، بارعاً في الطب ، عارفاً بالمنطق ، ملماً بالبلاغة ، يجيد النثر والشعر متشيعاً لأبناء فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ - ربما اعتقاداً ، وربما تكسباً لأن ذلك يقربه إلى بني حمود الذين كانوا يفخرون بعلويتهم .

هذا وقد توفي ابن الحنَّاط الأعمى القرطبي في أواخر سنة ٤٣٧ هـ في الجزيرة الخضراء .

(١) تراجع في ترجمة الشاعر وسيرته ما يلي : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ، نفح الطيب للمقري ج ١ ، ج ٣ ، تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٤٨٢ - ٤٨٧ .

نكبة الشاعر :

لقد كان من أبرز سمات ابن الحنّاط الأعمى الجرأة على الناس والتطاول عليهم بلسانه، كما كان شديد الجرأة أيضاً على الحق وقد اشتدت مناوئته لأبي عامر بن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦ هـ ، ودفعه ذلك إلى الاستهتار في القول ، والفعل حتى طرد من قرطبة شرّ طردة، ونفي قسراً وقهراً إلى الجزيرة الخضراء .

وأمضى فيها ما بقي من حياته ، وكان صاحبها وحاكمها محمد بن القاسم بن حمّود، خلال الفترة (٤٢٨ - ٤٤٠ هـ) ، وظل ابن الحنّاط بعيداً عن بلده وموطنه بقية حياته، يعاني آلام الغربة، ويتشوق إلى أرض الآباء والجدود، ويحنّ إلى مراتع صباه، وملاعب شبابه ، ولما تولى أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور مقاليد الأمور في قرطبة سنة ٤٢٢ هـ بعد إعلان انتهاء الخلافة الأموية وإلغائها نهائياً، ظن ابن الحنّاط أن الفرصة أصبحت مواتية ليعود إلى قرطبة، ولكن خاب ظنه، لأنّ أبا الحزم كان عالماً فاضلاً ويعرف الكثير عن سوء خلق ابن الحنّاط وجرأته على الناس وعلى الحق ، فرفض أن يعود إلى قرطبة فظل في منفاه في الجزيرة الخضراء .

ولما توفّي أبو الحزم جهور في السادس من المحرم سنة ٤٣٥ هـ بادر ابن الحنّاط يعزيّ ولده أبا الوليد بن جهور، ويستعطفه لعله يسمح بعودته ، ولكنّ أبا الوليد فيما يبدو لم يستجب له، لأن ابن الحنّاط ظل في منفاه حتى قضى نجه هناك كما أشرنا في أواخر سنة ٤٣٧ هـ .

النّـتـاج الشّعريّ لنكبة ابن الحنّاط .

بعد أن طرد ابن الحنّاط من قرطبة، وحلّ بالجزيرة الخضراء قال :^(١)

- ١- تفرّغتُ من شغل العداوة والظّنِّ وصرتُ إلى دار الإقـسـامة والأَمْنِ
- ٢- أمقتولة الأَجفانِ من دمع حزنِها أفيقي فإني قد أفقتُ من الحزنِ
- ٣- فلله سيري يوم ودعت صحبتي زماعاً^(٢)، ولم أقرع على ندم سني

(١) الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٤٥٠ تحقيق د. احسان عباس . (٢) زماعاً : جزعا .

٤- رَحَلْتُ فِكَمٍ مِنْ جُوزِيرٍ وَغَضَنْفَرٍ
٥- وَمَا عَنْ قَلِيٍّ فَارَقْتُ تُرْبَةً أَرْضَكُمْ

يُرْوِي الثَّرَى مِنْ فَضْلٍ أَدْمَعَهُ الْهَسْتَيْنِ
وَلَكِنِّي أَشْفَقْتُ فِيهَا مِنَ الدَّفْنِ

ومن هذه القصيدة يقول واصفاً الرحلة ، وما عاناه فيها :

٦- مَرَرْتُ بِشُوسٍ، وَالنُّجُومُ كَأَنَّهَا
٧- وَأَسْرَيْتُ مِنْ بَدْرِ الظَّلَامِ بِأَلْيَةٍ
٨- لَبَسْنَا بِهَا لَيْلًا مِنَ الثَّلْجِ أَيْضًا،
٩- وَرَحْنَا عَلَى أَلْبِيرَةٍ فَاسْتَقَلَّ بِي
١٠- وَلَمَّا تَنَكَّبْنَا الْمُنْكَبَّ لَمْ نَجِدْ
١١- تَرَامَتْ بِنَا الْأَهْوَالُ فِي كُلِّ لُجَّةٍ
١٢- تَرَى السُّفْنَ فَوْقَ الْمَوْجِ فِيهَا كَأَنَّهَا

تَوَقَّدُ مِنْ فِكْرِي، وَتُسْرَجُ مِنْ ذَهْنِي
بَصُحَّةٍ مُطْفِئِ الْجَمْرِ أَوْ مَكْفِيٍّ الظُّعْنِ
كَسْتَهُ يَدُ الصَّنْبَرِ ثَوْبًا مِنَ الْقُطْنِ
جَنَاحُ عُقَابٍ لَا يَرُوحُ إِلَّا إِلَى وَكْنِ
لَنَا مَرْكَبًا أَهْدَى سَبِيلًا مِنَ السُّفْنِ
تَخِيلُهَا جَوْ اتَّجَلَّلَ بِالْـمُـدَّجِنِ
تَحَدَّرُ مِنْ رَعْنٍ، وَتَوْفْسِي عَلَى رَعْنِ
ثُمَّ يَخْتَمُ قَصِيدَتَهُ مَادِحًا مُحَمَّدًا بْنَ الْقَاسِمِ بْنِ حَمُودٍ قَائِلًا :

١٣- فَبَوَّاتُ رَحْلِي ظِلٌّ أَرُوعَ مَا جَدِ
١٤- إِمَامٌ وَصِيٌّ الْمُطْفِئِ وَابْنُ عَمِّهِ

يَقُولُ بِلَا خُلْفٍ، وَيُعْطِي بِلَا مَنٍّ
أَبُوهُ، فَتَمَّ الْفَخْرُ بَيْنَ أَبِي وَابْنِ

تحليل وتوضيح :

إن الشاعر يتصور أنه بوصوله إلى الجزيرة الخضراء قد انتهت أيام العداوة والرحيل من مكان إلى آخر، وبدأ عهد الاستقرار والإقامة في تلك الدار الآمنة، ويعني بها الجزيرة الخضراء، ثم يتوجه إلى من حزنه عليه حتى تفرحت أجفانها، وابتضت عينها من شدة حزنها مواسياً ومخففاً عنها متمنياً لها أن تفيق من حزنها، وتعود إلى طبيعتها، فقد أفاق هو من حزنه بعد أن شعر بحياة الأمن والطمأنينة .

ويحاول الشاعر أن يدخل في روع كل سامع لأبياته هذه، أوقارئ لها أنه يوم

رحيله عن قرطبة ودّعه الرجال والنساء بدموع هتانة تروّت بها الأرض، وتشبّع بها الثرى، وكنتى عن النساء بالجؤزر وعن الرجال بالغضنفر وهو الأسد، ثم يقول، ما فارقت قرطبة كارهاً لها ولا لأهلها، ولكنه فرّ منها خوفاً على نفسه من قتل محتوم، وهذه المعاني التي تناولها في معظمها معانٍ مطروقة، ففي قوله : « أمقتولة الأجفان .. الخ » معنى تردّد على لسان ابن زيدون عندما فرّ من سجنه ، وشعر بحزن أمه عليه فى قوله :

أمقتولة الأجفان مالكٍ والهاً ألم ترك الأيام نجماً هوى قبلي ؟
وفي قوله :

وماعنّ قلى فارقت تربة أرضكم ولكنني أشفقت فيها من الدفن

المعنى في الشطر الأول تردّد في شعر ابن زيدون أيضا في قوله :

لم نجف أفق جمالٍ أنت كوكبه سالين عنه، ولم نهجره قالينا
ولا اختياراً تجنّبناه عن كذب لكن عدتنا على كره عوادينا
وكذلك في قوله :

وما باختيارٍ تسلّيتُ عنك ولكن مكره لا بطل

فمعنى الإكراه والإجبار على البعد والتخلي عن المكان نراه يتردّد بين الشعارين، وأعتقد أن ابن الحناط كان أسبق إلى هذا المعنى من ابن زيدون لأن مناسبة قصيدته كانت أسبق من المناسبة التي قال فيها ابن زيدون قصيدته .

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف رحلته المضنية من قرطبة إلى أرض الجزيرة الخضراء، وشأنه شأن شعراء الأندلس في هذه الفترة وما بعدها، أشرك عناصر الطبيعة معه في معاناته فعندما مرّ بمدينة شوس تخيل النجوم تتوقد من أفكاره، وتستمد سراجها من ذهنه، وأسرى من مدينة ألبة بصحبة بدر الظلام، ووصف ثلوجها، وصورها قد كسيت بثوب من القطن الأبيض، ويبدو أن رحيله كان في فصل الشتاء، كما مرّ بألبيرة، والمنكب حيث ركب البحر من هناك ولقد وصف كيف كانت السفن بين الأمواج الهوج،

تنحدر من موجة هائجة نائرة تلاطمها لتُوفي على أخرى أشدَّ رعونة وهياجاً، وهذا أمر يدخل الهلع والفرع في النفوس .

وأخيراً ينتقل إلى مدح صاحب الجزيرة الخضراء آنذاك وهو محمد بن القاسم بن حمّود، ويصفه بالعظمة والسموّ، وبالصدق في القول، وبالكرم الذي يدفع صاحبه إلى العطاء بلا منّ، كما وصفه بكرم حسبه ونسبه حيث يتصل نسبه برسول الله ﷺ فالفخر بعلو النسب محصور بين الأب وولده .

ومن أثر النكبة أيضاً ما كتب به ابن الحنّاط إلى أبي الوليد بن أبي الحزم بن جهور عقب وفاة والده ، وتوليه مقاليد الحكم سنة ٤٣٥ هـ منتهزاً تلك الفرصة ليعزيه ، ويستعطفه لعله يسمح بمالم يسمح به والده الراحل ، ويوافق على عودته إلى قرطبة ، وفي هذا يقول : (١)

- | | |
|---|---|
| ١- إِنَّا إِلَى اللَّهِ فِي الرُّزْءِ الَّذِي فَجَعَا | وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي الْحُكْمِ الَّذِي وَقَعَا |
| ٢- وَلِيَ أَبُو الْحَزْمِ عَنْ مُلْكٍ تَقْلَدُهُ | أَبُو الْوَلِيدِ فَعَزَّ الْمُلْكُ وَامْتَنَعَا |
| ٣- أَبٌ كَرِيمٌ غَدَا الْفَرْدُوسُ مَسْكَنُهُ | وَابْنٌ نَجِيبٌ تَوَلَّى الْأَمْرَ وَاضْطَلَعَا |
| ٤- لِلَّهِ شَمْسٌ ضَحَى فِي اللَّحْدِ قَدْ غَرَبَتْ | فَأَعْقَبَتْ قَمَرًا بِالسَّعْدِ قَدْ طَلَعَا |
| ٥- يَا وَاحِدَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا أَقْلُ زَلَالٍ | يَدْعُوكَ جَانِبُهُ أَنْ تَقْتَصَّ أَوْ تَدْعَا |
| ٦- لَوْ أَنَّهُ أُعْطِيَ السُّدُنِيَا بِمَارْحَبَةٍ | وَلَمْ يَنْلُ عَفْوَكَ الْمَأْمُولَ مَاقِنَعَا |
| ٧- وَمَا عَسَاكَ سِوَى الْإِحْسَانِ تَصْنَعُهُ | إِلَى مُسِيئٍ رَجَا عِتْبَاكَ فَارْتَجَعَا |
| ٨- وَقَدْ رَأَيْتَ ابْنَ سَعْدَى حِينَ أَمَكْنَهُ | بِشَرِّ عَفَا عَنْهُ فَادْفَعْ بِالَّذِي دَفَعَا |
| ٩- لَيْمَحُحُونَ مَدِيحِي فِيكَ مِنْ كَثْبٍ | مَحْوًا حَدِيثَ مَلَامِي حَيْثُمَا سَمِعَا |

يبدو أن أبا الحزم بن جهور وولده أبا الوليد لم يسلموا من جرأة ابن الحنّاط ، وأنه ربّما وقع في عرضهما ، وأساء إليهما، ولذا منعه من دخول قرطبة ، ولم يسمح له

(١) الذخيرة لابن بسام ق ١ ص ٤٤٩ .

بالعودة، ولذلك انتهز فرصة وفاة أبي الحزم بن جهور، وتنصيب ولده أبي الوليد حاكماً لقرطبة خلفاً لأبيه، وبادر بتقديم واجب العزاء إليه، ومدحه، ثم مزج هذا المدح بالاستعطاف، فتأمل أبيات الاستعطاف والاسترحام بعد أبيات العزاء والمدح، وذلك من قوله: « يا واحدَ الدينِ والدُّنيا أَقْلُ زَلْلاً.. البيت » ترى أن الشاعر قد نادى الممدوح أبا الوليد بصفة التفرد بجميل الصفات الدينية والدينية بين نظرائه من الملوك والحكام، ويرجوه عن طريق الطلب بقوله: (أَقْلُ زَلْلاً) حيث يعترف بانحرافه عن الصواب، وبأنه قد أخطأ في حق الممدوح، ويسلم زمامه إليه ليفعل به ما يشاء، فإما أن يقتصر منه، وإما أن يعفو عنه، ويضع الشاعر الدنيا بأسرها في كَفَّةٍ، وعفو أبي الوليد في كفة ويرجع كفة العفو، مبيناً أنه لو أُعْطِيَ الدُّنيا بأسرها، ولم ينل عفو الممدوح عنه ما قنع بنعيم الدنيا، ويخاطب الشاعر ممدوحه قائلاً: لا أطلب منك غير الإحسان تقدمه وتصنعه إلى إنسان اشتدت إساءته، ولم يعد أمامه إلا أن يرجو رضاك عنه، وترك محاسبتة على ما فعل وارتكب، وقد أعاده طمعه في عفوكَ إلى معاودة الرجاء والإلحاح في طلب هذا العفو، وقد ذكره بما وقع بين ابن سعدى أوس بن حارثة بن لأم الطائي وبشر ابن أبي خازم الأسدي المتوفى سنة ٩٥٠ م، ^(١) وكان بشر في أول أمره يهجو أوس بن حارثة، فأسرته بنو نبهان من طيء، فركب أوس إليهم واستوهبه منهم - وكان قد نذر ليحرقته إن قدر عليه - فوهبه له فقالت له أمه سعدى: قبح الله رأيك، أكرم الرجل وخلّ عنه، فإنه لا يمحو ما قال غير لسانه، وعفا أوس عن بشر، فانقلب مادحاً له ونقض كل هجاء هجاه به بما قاله من قصائد المدح، ولما مات أوس رثاه بشر رثاءً مبكياً، وكأني بآبن الحنّاط يطلب العفو، ويقرن طلبه هذا بأنه مستعد أن يكون رجل أبي الوليد المخلص وشاعره، كما أنه يعد بأن يصنع صنيع بشر فينقض بلسانه كل مذمة نطق بها، ويؤكد ذلك بقوله:

لِيُمَحِّوْنَ مَدِيحِي فِيكَ مِنْ كُتُبٍ مَحْـوًّا حَدِيثَ مَلَامِي حَيْثُمَا سُمِعَا

وهكذا تدفع النكبة ابن الحنّاط إلى أن ينهج نهج غيره من الشعراء المنكوبين في اللجوء إلى أسلوب الاسترحام، والاستعطاف، بل والتذلل، وإبداء الخنوع والخضوع،

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ١ ص ١٤٨ .

وإظهار الندم على ما بدر منه، وإعلان التوبة والإنابة، وكذلك الوعد بالإخلاص، وهذا لون من ألوان النفاق الاجتماعي قد اشتهر بين أمثاله من الشعراء .

ولابن الحنّاط الأعمى قصيدة يتشوّق فيها لموطنه قرطبة، وهو في منفاه في الجزيرة الخضراء، لم يبق منها إلا مطلعها الغزلي وهو :

- | | |
|--|---|
| بمُنْعَرَجِ الأَجْزَاعِ واللَّيْلِ عَاكِفٌ | ١- أَرَقْتُ ، وَقَدْ غَنَى الحَمَامُ الهَوَاتِفُ |
| عَلَى النَّأْيِ مِنْ ذِكْرِي المَلِيحَةِ طَائِفٌ | ٢- أَعْدَنْ لِي الشُّوقَ القَدِيمَ وطَافَ بِي |
| بِحَيْثُ اسْتَوَتْ غِيْطَانُهُ وَالنَّفَائِفُ | ٣- وَمَا الجَانِبُ الشَّرْقِيُّ مِنْ رَمْلٍ عَالِجُ |
| وإنْ دَرَسَتْ آيَاتُهُ والمُعَارِفُ | ٤- بِأَحْسَنَ مِنْ أَطْلَالِ عُلُوَّةٍ مَنظُرًا |
| فِيَا مَنْ قَلْبٌ مِنْ نَوَى الخَيْفِ خَائِفٌ | ٥- خَلِيلِي هَلْ بِالخَيْفِ لِلشَّمْلِ أُلْفَةٌ |
| مِنَ المِزْنِ تُزْجِيهَا البرُّوقُ الخَوَاطِفُ | ٦- سَقَى عَرَصَاتِ السِّدَارِ كُلِّ مِلْثَةٍ |
| تُفَرِّقُهَا لِلرَّيْحِ أَيْدٍ عَوَاصِفُ | ٧- كَأَنَّ نَشِيرَ القَطْرِ مِنْهَا جَوَاهِرُ |
| سَيُوفُ عَلِيٍّ بِالدِّمَاءِ رَوَافِفُ | ٨- كَأَنَّ ابْتِسَامَ البرِّقِ فِيهَا إِنْ بَدَتْ |

والأبيات تحمل معاني الشوق واللهفة، والدعاء لديار الأحبة بالخير والسُّقيا، وراح يصف المِزْنَ والبرُّوقَ، ونَشِيرَ القَطْرِ هنا وهناك، ولمعان البرق، وأظهر تشييعه وهو يتحدث عن عليٍّ أو أنه كان يريد مدح علي بن القاسم بن حمّود الذي عاش في كنفه فترة غير قصيرة، وكما أشرت ليس في معانيه جديد ، بل هي معاني مطروقة وقديمة .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكن الله الفردوس

(٢) حَكَمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَكْرِيِّ

التعريف بالشاعر :

هو أبو الحسن حَكَمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَكْرِي، من طبقة أبي بكر الوافي، عاش في كنف بني عَبَادَ، وقد تأثر بما وقع للمعتمد بن عَبَادَ على يد يوسف بن تاشفين حتى إنه كره قول الشعر بعده .

يقول ابن بسّام ^(١) : « وأبو الحسن من شعراء الدولة العبادية، لم تكن له رحلة لسواها، ولا قدم غير ذراها، ولما انجابت غيومها، وامتحت نجومها بخلع صاحبها، خلع أبو الحسن صنعة الشعر خلَعَ النجاء، وتبرأ منها تبرُّؤ العبادية من دعوة زياد، إلا إمام الطيف بعين الفرق ... إلخ » .

محنة الشاعر وبلاؤه :

يبدو أن أبا الحسن حَكَمَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْبَكْرِي كان من المحبين للمعتمد بن عَبَادَ، شديد الإخلاص له، متفانياً في خدمته، ملازماً لحضرته، لم يغادره إلى سواه، ولا مدح إله، ولما نكب المعتمد، ودالت دولته، وحمل أسيراً إلى أغمات، أظلمت الدنيا في وجه أبي الحسن، واعتبر المحنة محتته، والنكبة نكبته، وطلق الشعر بعده، خصوصاً شعر المدح، وما أثر عنه إلا قصيدة طويلة تكشف عن شكوى صارخة من الأيام، وتنكب الدهر للأعلام، وفيها يقول ^(٢) :

١- أَلَا حَتَّ وَلِلظُّلْمَاءِ مِنْ دُونِهَا سَدْلُ
عَقِيْقَةٌ بَرَقَ مِثْلَمَا انْتَضَى النُّصْلُ
٢- نَكِرْتُ الدُّنَا وَالْأَهْلَ فِيهَا لَيْسَ لِي
بِهَا عِقْوَةٌ أَوْيَ إِلَيْهَا وَلَا أَهْلٌ

(١) الذخيرة ٢ م ٢ ص ٥٦٣ . (٢) المصدر السابق ص ٥٦٤ .

٣- وأفردني صرْفُ الزَّمانِ كأنني
 ٤- فَيَالَيْتَ شعري هلْ مُقامي لِنَيْةٍ
 ٥- وسيرٌ يخلي المرءَ مِنْهُ قَرِيبُهُ
 ٦- فكمْ مِنْ حَبِيبٍ كَانَ رَوْضَةً نَاطِري
 ٧- ضَحَى ظِلُّهُ إِذْ كَوَّرَتْ لِي شَمْسُهُ
 ٨- غَبَرَتْ وَبَادُوا غَيْرَ أَنَّ تَلَبُّثِي
 ٩- إِذَا كَانَ عَيْشُ الْمَرْءِ أَدهَى مِنَ الرَّدَى
 ١٠- وَلِلنَّاسِ هَمَّاتٌ تَبْجِجُ بِالْغِنَى
 ١١- إِذَا قَنَعَ الْمُضْطَرُّ كَانَتْ بِكَفِّهِ
 ١٢- وَمَنْ رَادَ لَمْ يَعْلَمْ مِنَ اللَّهِ نَجْمَةً
 ١٣- رَأَيْتُ النُّهْيَ فِي الْمَرْءِ فَضْلاً يُشْفُهُ
 ١٤- وَمَنْ مِيزَ الدُّنْيَا بِتَمْيِيزِ أَهْلِهَا
 ١٥- فَيَالَيْتَ عِلْمِي فِيهِمْ أَنَّهُ عَمَى
 ١٦- وَطُتْ مِنْ الْأَيَّامِ أَحْشَنَ جَانِبِ
 ١٧- وَلَكْتُ مِنَ الْأَعْدَاءِ شَرِي ضَغِينَةٍ
 ١٨- وَقَارَعْتَهُمْ حَتَّى فَلَكَتْ شِبَاتَهُمْ
 ١٩- وَلَكِنْ صَرَفَ الدَّهْرُ قُرْنَ إِذَا سَطَا
 ٢٠- حَبَسْتُ كَمَا ضَمَّ الْمُهَنْدُ غَمْدَهُ
 ٢١- وَعَرَيْتُ مِنْ مَالِي وَمَا مَلَكَتْ يَدِي
 ٢٢- أَرَى أَعْيُنَ الْأَعْدَاءِ بِشَرِّ طَلَاقَةٍ
 ٢٣- فَمَنْ لِي بِأَنِّي فِي جَنَاحِ غَمَامَةٍ

طَرِيرٌ مِنَ الْهِنْدِيِّ أَخْلَصَهُ الصَّقْلُ
 تَصِيخٌ لِنَجْوَاهَا الْمُطِيَّةُ وَالرَّحْلُ
 فَرِيداً كَمَا خَلَّى تَرِيكَتَهُ الرُّعَالُ
 يَرِفُ وَيَنْدَى بَيْنَ أَفْنَانِهِمَا الْوَصْلُ
 فَشَخْصٌ نَعِيمِي لَا يَقُومُ لَهُ ظِلُّ
 وَرَاءَهُمْ عَيْشٌ يَلْذُّ لَهُ الْقَتْلُ
 فَعَاءُ سُدَّةِ الْأَيَّامِ دَاهِيَةٌ خَبِلُ
 وَإِنْ كَانَ جَمْعاً ضَمَّهُ اللُّؤْمُ وَالْبُخْلُ
 مَقَالِيدُ لَمْ يَهْمَ لَهَا أَبْدَأُ قُفْلُ
 فَفِي كُلِّ مَحَلٍّ مَسْنُ غَمَامَتِهِ وَبِلُ
 وَلَكِنْ مَنْ يَحْوِيهِ لَيْسَ لَهُ فَضْلُ
 تَبَيَّنَ أَنَّ الْعَقْلَ مِثْلُ اسْمِهِ عَقْلُ
 وَحِلْمِي الَّذِي أَشْقَى بِهِ أَنَّهُ جَهْلُ
 فَهَلْ لِي مِنْهَا جَانِبٌ دَمَتْ سَهْلُ ؟
 لَبَسْتُ بِهَا مَازِيَةً مَجْهولاً النُّحْلُ
 بِسُورَةِ عَزٍّ لَا يَكْفُفُهَا الدُّلُ
 يَخْرُ حَفَافِيهِ الْفَوَارِسُ وَالرَّجُلُ
 وَقِيدَتْ مِثْلَ الْقِرْمِ يَضْغُطُهُ الْعَقْلُ
 كَأَنِّي مِنْهُ مُحْرِمٌ مَالَهُ حُلُ
 وَأَوَّجُهُ أَمَالِي مِقْطَبَةُ طَحْلُ
 لَهَا بَارِقٌ نَحْوَ الْأَحْبَةِ مُنْعَلُ

شرح لمفردات القصيدة :

القصيدة تزخر بالكلمات العربية الفصيحة التي تحتاج إلى شرح وتوضيح ومن هذه الكلمات ما يلي حسب أرقام الأبيات :

- (١) عقيقة برق : ومضة برق سريعة . (٢) عقوة آوي إليها : محلّة اسكنها .
- (٣) طير من الهندي : حدّ سيف هندي . (٤) تصيخ لنجواها : تسمع لهمسها .
- (٥) خلكي تريكتة الرأل : فارق فرخ النعام بيضته التي خرج منها .
- (٦) بين أفنانها : بين أغصانها .
- (٧) ضحّي ظلّه : زال ظلّه وانتهى ، كورت شمسهُ : اضمحلت وزهد ضوءها .
- (٨) غبرت وبادوا : مكثت وبقيت بينما بادَ الأجباب ، تلبثي : أي مكثي .
- (٩) عائدة الأيام : تحولها من حال إلى حال ، خبل : لا سرور فيها .
- (١٠) لم ييهم لها قفل : أي لم يغلق لها قفل فهي مفتوحة دائماً .
- (١٢) من راد : من طلب الرزق، نجعة : أمل في الرزق، محلّ : مكان فقر مجذب .
- (١٦) دمث : سهل لين .
- (١٧) شري ضغينة : غضب وحقد ، ماذية : الدرع اللينة البيضاء أو عسل النحل .
- (١٨) قارعتهم : نازلتهم وبارزتهم ، فللت شبّاتهم : أبطلت تأثيرهم .
- (١٩) القرن : النُدّ والنظير ، سطا : وثب على خصمه ، حفايه : حوايه .
- (٢٠) مثل القرم يضغطة العقل : القرم : البعير العظيم ، العقل : ما يقيد به البعير .
- (٢٢) طحل : متغير لونها إلى اللون الأسود أو الرماديّ من كثرة المصائب .

التحليل والتعليق :

الواضح أن الشاعر من طبقة المحافظين الذين يهتمون بفصاحة الألفاظ وجودة السبك، وجمال الصياغة، فالألفاظ الشاعرية قوية فصيحة كما أنها موحية معبرة .
والصور التي استعان بها على إظهار معانيه، وإبراز أفكاره تتميز بالميل إلى البداهة .
فصور الدهر صقلته كما يصقل السيف الهندي أصفى لمعانه الصقل، ويصور أفراد وحيداً، وخروجه من موطنه، وتركه له بفرخ النعام حينما يخرج من بيضته، ويتخلى عنها تاركاً إياها .

والحبيب عنده كالروض، القُربُ فيه يرفُ ويندى ويتلألُ وغياب الحبيب يشبه غياب
الظل، وزوال ضوء الشمس، أي أن كل ألون النعيم في حياته قد غابت عنه بغياب
الأحبة، وكيف يلدُّ له عيش وهو مقيم بينما الأهل والأحباب قد بادوا، فعيشه مرٌّ،
عدمه عنده أفضل من وجوده، ولكن الأمل في الله كبير، فمن طلب فضل الله لم
يعدمه .

ولما انتقل إلى حديث الأيام معه، وصفها بالخشونة ، وأعداؤه من حوله ينارلهم
فيفل شباتهم، ولكن ماذا يفعل مع صرف الدهر الذي ليس له به طاقة، ويصور نفسه
محبوساً بأنه كالهنديّ ضمّه غمده فمنعه من التأثير، أو كالبعير العظيم شل حركته
العقال الذي يقيده وعندما صوّر تعريته من ماله، وما ملكت يمينه فلا يستمتع بشيء منه
جاء بصورة المحرم إحرماً أبدياً لا يحل له التمتع بما حرم عليه .

وأماله مقطبة الوجه، متغير لونها من هول ما نزل به، حيث تحوّلت إلى لون الرماد،
ويتمنى أن يكون في جناح غمامة، وهل للغمامة جناح ؟ إنما هو تعبير مجازيّ مستعار،
وكل أمله أن تحمله نحو أحبته .

هذا من ناحية التصوير، أما من ناحية الاهتمام بزخرفة التعبير فالقصيدة لا تخلو من
بعض المحسنات البديعية التي جاءت عفوية غير متكلفة ، وبلا إغراق، ومن هذه المحسنات
الطباق في قوله : غبرت - بادوا، والحلم - الجهل، والعزّ - الدّل، (أخشن جانب) -
(دمث سهل)، والفوارس - الرُّجل، وكذلك المقابلة بين شطري البيت الثاني والعشرين
وهو :

أَرَى أُعِينَ الْأَعْدَاءَ بِشَرِّ طَلَاقٍ وَأَوْجُهُ أَمَّالِي مَقْطَبَةً طَحُلُ

وكذلك الجناس التام في كلمتي « العقل » فالأولى بمعنى حاسة الإدراك، والثانية
بمعنى القيد يعقل به البعير فتمنع حركته، وذلك في قوله : « وتبين أنَّ العقلَ مثل
اسمه عقل »

وهكذا نرى أن الشاعر قد أبرز كل ما استطاع من امكانيات لديه ليوضح معانيه التي

تلخصت في الشكوى الصّارخة من الأيام وما أنزلته به من تشريد وضياح، و ما أذاقته من مرارة البين إذ ظعن الأحباب أو بادوا، وأنه لم يعد في عيشه لذة، كما أن الدهر أصبح حرباً عليه، وعلى الأعلام البارزين من الرجال، وكأنه يومئ من طرف خفي إلى ما أصاب مليكه وأميره المعتمد بن عبّاد، ولكنه قويّ الأمل في فضل الله الذي لا يخلو منه صقع ولا مكان، فهو سبحانه قادر على كل شيء .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أنّ وقع الفجیعة كان صعباً شديداً على أبي الحسن حكم بن محمد البكري، ولذلك أصيب تعبیره بشيء من الاضطراب، بل والغموض أحياناً، كما اضطربت أفكاره أيضاً، فهو يشكو ويفخر في آن واحد، وكأنه أراد أن يتجلد لحوادث الدهر، أو يتماسك أمام الشامتين، وهذا الغموض في بعض المواطن في قصيدته، والاضطراب في أفكاره ناتج بلا شك مما حل به من فجیعة فراق أحبابه من بني عبّاد الذين عاش في كنفهم، بل دفعته الفجیعة إلى هجر شعر المدح فأقسم ألا يمدح أحداً بعد المعتمد، وهذا دليل إخلاص الشاعر، وشدة اعتزازه بنفسه، ويبدو أن الشاعر قد سجن بسبب هذا الإخلاص كما أشار في قصيدته، وسجنه أيضاً أثر على حياته وأدبه .

(٣) أَبُو مَرْوَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ غُصْنِ الْحَجَّارِيِّ

التعريف بالشاعر :

هو أبو مروان عبد الملك بن غُصْنِ الْحَجَّارِيِّ من أهل وادي الحجارة تلقى علومه بالمشرق ، ثم عاد إلى بلده ، وصحب ابن^(١) عبيدة المستبد بوادي الحجارة مدينته وموطنه ، أو « أبا عبيدة » كما أوردته بعض^(٢) الكتب .

وكان أبو مروان بن غصن أحد الأعلام في الآداب والتاريخ و التأليف^(٣) ، كما كان فقيهاً أديباً شاعراً صاحب منظوم ومنتثور ، وقال عنه ابن عبد البر في رسالة أرسل بها إلى المعتضد عباد : « ... وإن مِمَّن استولى على الأمد الذي وصفته ، وحوى قصب السبق فيما ذكرته ، الأديب الكامل أبو مروان بن غصن الحجاري ، وهو كما علمت مِمَّن لا يجارى في ميدان ولا يطاول بعنان ، إن نظم فبنيان مرصوص ، وإن نشر فلآلئ وفصوص .. »^(٤) .

نكبة عبد الملك بن غصن الحجاري :

لما عاد أبو مروان عبد الملك بن غصن الحجاري إلى وطنه بعد رحلته إلى الشرق حيث تلقى علومه هناك على نفر من علماء المشرق خطب ودّه كثير من ملوك الطوائف كل يريده لنفسه لما عرف عنه من براعة في كثير من أنواع العلوم والآداب ، ولرقة شعره وعذوبته ، ولكنه فضّل أن يكون إلى جانب حاكم مدينة وادي الحجارة ، فوزرله وعاش في كنفه .

(١) نفح الطيب للمقمري ج ٣ ص ٤٢٤ . (٢) تاريخ الأدب العربي د. عمرو فروخ ج ٤ ص ٥٢٦ .

(٤) نفح الطيب ج ٣ ص ٣٦٣ .

(٣) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٣ .

ولقد طمع المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة في الاستيلاء على مدينة وادي الحجارة، ورغب في ضمها إلى ملكه لقرب المسافة بينها وبين طليطلة مما أثار ثائرة أهل وادي الحجارة، ومنهم أبو مروان الذي انبرى يهجو المأمون بن ذي النون، ومما هجاه به قوله : (١)

تَلَقَّبْتَ بِالْمَأْمُونِ ظُلُمًا، وَإِنِّي لَأَمْنٌ كَلْبًا حَيْثَ لَسْتُ مُؤْمِنُهُ
حَرَامٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُودَ بِبِشْرِهِ وَأَمَّا النَّدَى فَاَنْدَبُ هُنَالِكَ مَدْفَنُهُ
سَطُورُ الْمُخَازِي دُونَ أَبْوَابِ قَصْرِهِ بِحُجَابِهِ لِلْقَاصِدِينَ مَعْنُونُهُ

فغضب عليه المأمون غضباً شديداً، وتربص به الدوائر حتى نكبه ، وحبسه بسجن (ويزة) مدة هو وجماعة معه ، فقام ابن غصن بإرسال رسالة شعرية إلى المقتدر بن هود صاحب سرقسطة (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) يسأله فيها أن يكون شفيعاً فيه عند المأمون، فاستجاب له، وشفع فيه، ونجح في إطلاق سراحه، واستقبله في سرقسطة، وخلع عليه ثوب وزارته، وجعله من أعلام سلطنته وإمارته (٢)، وكانت وفاة عبد الملك بن غصن سنة ٤٥٤ هـ، وقيل : إنه اتجه إلى بلنسية كما في الذخيرة .

أثر النكبة في أدب ابن غصن الحجاري :

كما هو حال الشعراء المنكوبين بالحبس دائماً أرسل عبد الملك بن غصن الحجاري إلى ابن ذي النون من سجنه يسترحمه ويستعطفه بقوله : (٣)

فَدَيْتُكَ هَلْ لِي مِنْكَ رُحْمِي لَعَلَّنِي
وَلَيْسَ عِقَابُ الْمِذْنِينِ بِمَنْكِرٍ
أَفَارِقُ قَبْرًا فِي الْحَيَاةِ فَنُشِرُ
وَلَكِنْ دَوَامُ السُّخْطِ وَالْعَتَبِ يَنْكِرُ
وَمِنْ عَجَبِ قَوْلِ الْعِدَاةِ مَثَقُلٌ
وَمِثْلِي فِي الْإِحَاحَةِ الدَّهْرِ يَعْذَرُ

كما أسرع بالكتابة إلى المقتدر بن هود صاحب سرقسطة راجياً أن يشفع فيه

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٣٦٣ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

(٣) نفح الطيب ج ٣ ص ٤٢٤ .

ويخلصه من سجنه ، ومما كتب به إليه قوله :^(١)
 أَيَا رَاكِبَ الْوَجَنَاءِ بَلَّغْ تَحِيَّةً
 لَمَّا دَهَنِي الْحَادِثَاتُ وَلَكُمُ أَجْدُ
 وَمِثْلُكَ مِنْ يُعَدِّي^(٢) عَلَى كُلِّ حَادِثٍ
 فَلَعَلَّكَ أَنْ تَخْلُو بِفِكْرِكَ سَاعَةً
 وَهَذَا أَنَا فِي بَطْنِ الثَّرَى وَهُوَ حَامِلٌ
 حَنَانِكَ أَلْفًا بَعْدَ أَلْفٍ فَإِنِّي
 وَأَنْتَ أَلَّذِي يَدْرِي إِذَا رَامَ حَاجَةً

أَمِيرَ جُذَامٍ مِنْ أَسِيرٍ مُقَيَّدٍ
 لَهَا وَزَرًا أَقْبَلْتُ نَحْوَكَ أَعْتَدِي^(٣)
 رَمِي بِسَهَامٍ لِلرَّدَى لِمَنْ تُرْصِدُ^(٤)
 لَتُنْقِذَنِي مِنْ طُولِ هَمٍّ مُجَدِّدٍ
 فَيَسِّرَ عَلَيَّ رَقْبِي^(٥) الشِّفَاعَةَ مَوْلَدِي
 جَعَلْتُكَ بَعْدَ اللَّهِ أَعْظَمَ مَقْصِدِي
 تَضِلُّ بِهَا الْآرَاءُ مِنْ حَيْثُ يَهْتَدِي

كما يبدو من الأبيات بدأ الشاعر بإرسال تحيات الأسير المقيد العاجز عن فعل أي شيء إلى هذا الأمير المرتجى فضله، مبيناً أنه لما دهنه الحادثات ولم يجد ملجأ يحميه منها ولا معيناً يعينه عليها أسرع يستعين بابن هود فمثله خير من يعين على نوائب الدهر ومصائبه، ويرجو أن يتفرغ وقتاً لإنقاذه، وانتشاله من همومه التي تطول وتتجدد عليه مادام في سجنه، ويعترف الشاعر أن ابن هود لو نجح في إنقاذه فسيكون قد ولد من جديد بشفاعته فيه، وذلك لشدة خوفه من بطش من وقع في أسرهِ وهو المأمون بن ذي النون، ويرجو الشاعر من ممدوحه أن يضفي عليه من حنانه الكثير والكثير، فإنه جعله مقصده الذي يلجأ إليه مستنجداً به بعد الله تعالى كما يبين له ثقته التامة في قدرته على إنقاذه، والأخذ بيده .

وقد كتب ابن غصن الحجاري وهو في السجن رسالة شعرية من ألف بيت سماها « رسالة السجن والمسجون » وأرسل بها إلى المأمون ومما جاء فيها قوله :^(٦)

يَحْيَى الْمَلِكُ الَّذِي بِهِ حَيَاتُ نَفْسِي وَفَازَتْ بِكُلِّ مَا اسْتَهْتِ

(١) المصدر السابق جـ ٣٦٤ . (٢) يُعَدِّي : أَسْتَعِينُ ، وَزَرًا : ملجأ ومعيناً

(٣) يُعَدِّي : يعين ويغيث . (٤) تُرْصِدُ : تعد وتجهز .

(٥) رَقْبِي : من المراقبة وهي هنا بمعنى الشرط أي يسر علي شرط الشفاعة مولدي .

(٦) الذخيرة لابن بسام ق ٣ م ١ ص ٣٣٣ .

لَوْ حَبَسْتَ فِي الْوَرَى مَوَاهِبَهُ لَمْ يَخْلُ حُسَابُهَا مِنَ الْغَلَتِ

ومن هذه الرسالة أيضاً قوله :

قَدْ اسْتَرَدَّ الشَّبَابُ خَلْعَتَهُ وَنَبِهْتَنِي الْخُطُوبُ مِنْ سَنَةِ
لَوْلَا أَنِيْنِي عَلَى فِرَاشِي لَمْ يِدَّ خِيَالِي لِعَيْنٍ مَلْتَفَتِ
وَلَوْ أَتَتْنِي الْمُنُونُ تَطْلِبْنِي مَا عَلِمْتُ مَوْضِعِي وَلَا رَأَتْ

ويشير في رسالته هذه مفتخراً بأنها تتكون من ألف بيت لا يماثلها قريض آخر وهي تسير فتبلغ ما لم يبلغه القمر، وتسري حيث لم تسر نجوم .. فيقول :

وَأَلْفُ بَيْتٍ مِنَ الْقَرِيضِ إِذَا مَاتَ جَمِيعُ الْأَنَامِ لَمْ تَمُتْ
لَوْ أَنَّ شِعْرَ الْوَرَى يُنْظَمُ فِي عَقْدٍ لَكَانَتْ بِمَوْضِعِ السُّطَّةِ
سَائِرَةٌ حَيْثُ لَمْ يَسِرْ قَمَرٌ وَلَا سَاسَرَتْ أُجْمٌ وَلَا جَرَتْ

وقد خصص الشاعر جانباً كبيراً من رسالته الشعرية التي تكونت من ألف بيت لمدح يحيى بن ذي النون الملقب بالمأمون مستندراً عطفه ، و معنى ذلك أن نكبة الحبس في السجن بناحية (وبذة) قد حوَّلت الشاعر من الهجاء إلى المدح ، والإشادة بفضل ابن ذي النون بعد أن نعتته وهو حرٌّ طليق بعيد عن متناول يده بأقبح الصفات وأرى أن هذا المدح قد جاء خالياً من الصدق الوجداني لأنه يتملق الممدوح لكي يعفو عنه ، وفي خضم مدحه لا ينسى أن يفخر بنفسه ، وبشعره على طريقة أبي الطيب المتنبي ، بل ويظهر تأثره به ، واقتفاء أثره خصوصاً في الأبيات الثلاثة الأخيرة حيث نهج منهج المتنبي في عتابه لسيف الدولة الحمداني لعدم إقباله عليه ، وذلك في قوله : (١)

(١) ديوان المتنبي ص ٣٤٦ .

وَلِيَّ فَيْكِ مَالَمْ يَقْلُ قَائِلٌ
وَعِنْدِي لَكَ الشُّرْدُ السَّائِرَاتُ
فَإِنِّي إِذَا سِرَرْنَ مِنْ مَقُولِي

وَمَالَمْ يَسِرْ قَمَرٌ حَيْثُ سَارَا
لَا يَخْتَصِصْنَ مِنْ الْأَرْضِ دَارَا
وَتُبْنَ الْجِبَالُ وَخَضْنَ الْبَحَارَا

ومما كتب به عبد الملك بن غصن الحجاري من سجنه رسالة أرسل بها إلى أخيه يقول فيها : (١)

أَأُرَوِي ، وَيَنْ ضُلُوعِي حَرِيقُ ؟
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَفِي كُلِّ حِينٍ
تَهَيِّمُ الْخُطُوبُ بِوَصْلِي ، فَمَا
أَبَا وَاحِدِي وَشَقِيْقِي وَيَا
أَخِيكَ أَنْخُو نَكَبَاتٍ لَهَا
كَسَبَدْتُ وَنَظَمِي دُرَّ نَفِيسٍ
وَمَا أَظْلَمَ الْجَهْلُ فِي مَعْشَرٍ
وَلَوْ جَائِلِيكَ تَخَوَّلْتَهُ

وَأَشْجَى وَإِنْسَانٌ عَيْنِي غَرِيقُ ؟
يَحْمِلُنِي الدَّهْرُ مَا لَا أَطْـَـيِقُ
لَهْنٍ إِلَى غَيْرِ قَلْبِي طَرِيقُ
فَرِيقَا يَبْكِيهِ مِنِّي فَرِيقُ
يَرْقُ الْعَدُوُّ ، فَكَيْفَ الصَّدِيقُ ؟ !
وَضَعْتُ وَنَثَرْتُ مِنْكَ عَيْقُ
وَفِي أَفْقِهِمْ مِنْ عُلُومِي شَرِيقُ
بِمَوْعِظَةٍ أَمَّنَ الْجَوَائِلِيكَ

ومن هذه القصيدة قوله :
وَطَيْفٌ صَدِيقِي كَرِيمٌ لَهُ
سَرَى وَأَهْتَدَى لِي وَمِنْ دُونِهِ
فَشِيْعُهُ مِنْ دُمُوعِي أَنْسَكَابُ
وَفَارَقَ ذَا سَقَمٍ لَا يَبِينُ

بِنَفْسِي وَإِنْ بَانَ عَنِّي لُصُوقُ
جَدَارِ مَعْلَى وَبَابٍ وَثِيقُ
وَوَدَّعَهُ مِنْ فُرُؤَادِي خَفُوقُ
لَوْلَا الزَّفِيرُ ، وَلَوْلَا الشَّهِيْقُ

(١) الذخيرة لابن بسام ق ٣ م ١ .

تحليل وتعليق :

يشكو الشاعر انعدام الطرب في حياته، لأنه لا يجتمع الطرب والحزن في قلب واحد، فلقد أشعل الحزن ناره بين ضلوعه، واغرورقت عيناه بالدموع، وذلك لأن المصائب تتوالى عليه، وقد أثقل الدهر عليه بما لا يطيق من صروفه، وكأن خطوب الدهر عشقته وهامت به حباً وغمماً، ولم يعد لهنَّ إلى غير فؤاده طريق، ويتجه إلى أخيه مخاطباً قائلاً : يا أخي الأوحـد الذي ليس لي غيره ما أنا وأنت إلا فريق واحد يبكي بعضه بعضاً لما أصابني من كساد، وأنا من أنا، نظمي درر نفيسة، وشعري قلائد، وضعت وأنا الكاتب الهمام الذي يفوح المسك من نثره، وأنا الذي لا يقرب الجهل أناساً علمي تشرق كالشمس المنيرة في أفقهم، فلدي من القدرة على الإيضاح والإبانة والإقناع ما لو تخولت به بمواعظي رئيس النصارى كي يؤمن بالإسلام لآمن من فوره، ثم يذكر صديقاً له يزوره طيفه دائماً رغم بعده عنه بجسده، فقد سرى طيف الصديق إليه رغم بعد المسافات، وارتفاع الحواجز والأسوار وكثرة الأبواب الموصدة، وكثيراً ما ودعت طيف هذا الصديق بدموعي المنسكبة وخفقات فؤادي المكوم، وقد فارقتني طيف صديقي، وقد حولني سقمي إلى شبح لا يبدو للعيان لولا زفيره وشهيقه .. وهذا المعنى في البيت الأخير سبق وأن رددته في رسالته إلى المأمون يحيى بن ذي النون عندما قال :

قَدْ اسْتَرَدَّ الشَّبَابُ خَلْعَتَهُ	وَنَبَّهْتَنِي الْخُطُوبُ مِنْ سَنَةٍ
لَوْلَا أَنِّي عَـلَيَّ فِرَاشِي لَمْ	يَدَّ خُـيَالِي لِعَيْنٍ مَلَّتْ
وَلَوْ أَتَتْنِي الْمَنُونُ تَطْلُبْنِي	مَا عَلِمْتُ مَوْضِعِي وَلَا رَأَتْ

فهو يردُّ دمعاني ضياع الشباب ، فالشباب قد استردَّ خلعته منه وأيقظته الخطوب من غفلته، فلم يعد له جسد تراه عين الناظر إليه، لولا أنينه من مرضه، حتى المنون لو جاءت تطلبه ما اهتمت إلى موضعه ولا رآته لشدة نحول جسده الذي أصبح لا يرى إلا بالكاد .. وهذه المعاني تكشف عن هول ما حلَّ به، وأصابه بسبب نكبته .

وجهة نظر نقدية :

لا شك أن نكبة ابن غصن الحجاري قد كان لها أثرها في شعره فالمعاني التي

أصبح يرددها تدور رحاها حول ما يلي :

(١) إن خاطب سجنائه (يحيى بن ذي النون) أسرف في المدح في محاولة لتليين فؤاده، واستدرار عطفه، ثم شكى وبكى، ويظهر تملقه له من عدة اتجاهات:

أ - أنه يمدحه وهو أسير لديه مكبل بأغلاله ، يخشى عقوبته .

ب - بمقارنة ما هجاه به أيام أن كان حراً طليقاً بما مدحه به أثناء حبسه تشعر بالتناقض التام بين الموقفين .

(٢) إذا توجه بخطابه لمن يطلب شفاعته كالمقتدر بن هود أفرط في التوسل والرجاء، وكذا المدح والثناء ، وتطل نبرة الصدق الوجداني على استحياء .. وأرى أن الشاعر لم يكن صادقاً كل الصدق في مدح المقتدر إلا بعد خروجه من السجن بشفاعته ومن ذلك قوله : (١)

حَيَاتِي مَوْهُوبَةٌ مِنْ عَلاكَ وَكَيْفَ أَرَى عَادِلًا عَنْ ذَرَاكَ
وَلَوْ لَمْ يَكُ لَكَ مِنْ نِعْمَةٍ عَلَيَّ وَأَصْبَحْتُ أَبْغِي سِوَاكَ
لَنَادَيْتُ فِي الْأَرْضِ هَلْ مَسِيفٌ مُجِيبٌ فَلَمْ يَصْغِ إِلَّا نَدَاكَ
(٣) وعندما يخاطب أخاه تحسُّ صدق الشكوى والنجوى، فهنا يبدي الشاعر كل ما لديه من أسى وألم وحسرة على ما ألمَّ به في صدق واضح ويدو لنا شدة تأثر الشاعر بغيره من الشعراء، فقد تأثر جيداً بالمتنبي حيث كان لا يبخل على نفسه بالفخر، وهو في معرض مدح غيره أو عتابه كما أشرنا منذ قليل إلى موقفه وهو يعاتب سيف الدولة الحمداني حيث راح يفخر بشعره الذي جعله سابقاً لا مسبوقاً، وكذلك فعل شاعرنا وهو يخاطب يحيى بن ذي النون برسالته الشعرية المكونة من ألف بيت .. كما تأثر بشعراء آخرين غير المتنبي منهم علي بن الجهم في قوله :

فَسَارَ مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَهَبَّ هُبُوبَ الرِّيحِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

(١) نفع الطيب للمقري ج ٣ ص ٣٦٤ .

وكذلك ابن شماخ الغافقي من جملة قصيدة أرسل بها إلى المعتمد بن عباد يقول فيها :

إِنْ لَمْ تَسِرْ هَذِهِ الْغُرَاءُ سَائِرَةً مُنِيرَةً بَيْنَ أَنْجَادٍ وَأَغْوَارِ
فَلَيْسَتْ الرِّيحُ فِي الدُّنْيَا بِسَائِرَةٍ وَلَيْسَتْ الشَّمْسُ فِيهَا ذَاتُ أَنْوَارِ

أما من ناحية الألفاظ، فقد حرص الشاعر على الدقة التامة في اختيار الألفاظ المعبرة الموحية بمعانيه التي يقصد إليها، وتأمل عنصر الاستعطاف والاسترحام في قوله :

فَدَيْتَكَ هَلْ لِي مِنْكَ رُحْمَى لَعْنِي أَفْـَـارِقُ قَبْرًا فِي الْحَيَاةِ فُـَـنْشَرُ

وانظر التعبير عن شدة وقع المصيبة في قوله « ولما دهنتني الحادثات » ولعل القارئ يدرك معي سوء الحالة التي بلغها الشاعر في سجنه من خلال قوله :

لَوْلَا أَنِّي نِي عَلَى فَرَأَشِي لـــــــ يَدُ خِيٍّ أَلِي لَعَيْنٍ مُلْتَفِتِ
وَقَوْلُهُ : وَفَارِقَ ذَا سَقَمٍ لَا يُبِينُ لَوْلَا الزَّفِيرُ، وَلَوْلَا الشَّهِيْقُ

كما نلمح التصاق المصائب به، وعدم تخليها عنه في قوله :

« تهيم الخطوب بوصلي » وقوله : « أخوك أخو نكبات »

وهكذا يبدو أثر النكبة واضحاً كل الوضوح في شعر ابن غصن الحجاري في معانيه وألفاظه وصوره .. ومن يتأمل يكتشف مزيداً من آثار نكبته في هذا الشعر وغيره .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(٤) ابْنُ زَيْدُون

من الشعراء الذين عضتْهم الفتن والنكبات بأنيابها، وأصابتهم بحدّها وظهر أثر ذلك في شعرهم شكلاً وموضوعاً، صورة ومضموناً الشاعر الفحل أبو الوليد بن زيدون .

التعريف بالشاعر : (١)

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي، ينتهي نسبه إلى قبيلة بني مخزوم ، وهي بطن من بطون قريش .

وقد ولد ابن زيدون بالرصافة من ضواحي قرطبة، وذلك عام ٣٩٤ هـ ، وفي الرصافة قضى ابن زيدون طفولته وصباه وسط بيئة طبيعية تمتاز بوفرة الحدائق والبساتين، والجداول الجارية رقاقة صافية، والأزاهير النضرة المتفتحة والطيور المغردة الشادية، والفواكه الطيبة الشهية، وجمال المناظر الطبيعية، فهي بيئة تبعث الرغبة في قرض الشعر، وتهيب النفس للوصف البديع، كما أن ابن زيدون قد نشأ وتربى في بيت علم وأدب، وجاه وثراء، فوالده كان فقيهاً نبيهاً عالماً أديباً، لم يرزق من الذرية إلا أحمد، ولذلك أولاه من رعايته الكثير، وأفاض عليه من علمه الغزير، وهو ما يزال الطفل الغرير، فعنه تلقى مبادئ المعرفة في سنوات حياته الأولى، ثم انتقل هذا الوالد المربي إلى رحمة الله تعالى وابنه في سن الحادية عشرة من عمره، وكان ذلك سنة ٤٠٥ هـ فكفله جدّه لأمه القاضي أبو بكر محمد بن إبراهيم ابن سعيد القيسي المعروف بابن الهدايد، وكان يتولى أحكام الشرطة والسوق بقرطبة، وعرف بعلمه وفقهه وشدّته، فأفاض عليه هو الآخر من علمه، وقد قتل

(١) راجع في ترجمته وسيرته ما يلي : نفع الطيب أجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، الذخيرة جـ ١ ق ١ ، ابن زيدون وشعره د. السعدي فريهود ، السجن في الشعر العربي د. أحمد البرزة ، ديوان ابن زيدون تحقيق محمد سيد كيلاني ، وتحقيق حنا الفاخوري وتحقيق د. يوسف فرحات ، ابن زيدون د. شوقي ضيف (نوابع الفكر العربي) .

هذا الجدّ بيد ابن سعيد وزير آخر خلفاء بني أمية في الأندلس المعتد بالله، وذلك سنة ٤٢٢ هـ وابن زيدون في عنفوان شبابه، واكتمال رجولته ، فترك هذا الحادث أثراً سيئاً جداً في نفس شاعرنا، مما دفعه إلى المشاركة بكل ما أوتي من مقدرة في إسقاط حكم بني أمية، وإلغاء خلافتهم في قرطبة .

ولم تقتصر النشأة العلمية والأدبية لابن زيدون على ما تلقاه عن أبيه وجدّه لأمه، بل حرص على استقاء العلم وتلقيه من شيوخ عصره ومنهم : الفقيه أبو العباس أحمد ابن عبد الله بن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ هـ، وكذلك أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح القرطبي النحويّ الأديب المتوفى سنة ٤٣٢ هـ، وكان ابن أفلح هذا متقدماً في علوم العربية واللغة، راوية للشعر وكتب الأدب، حريصاً على تلاميذه حرص الأب الشفوق على أولاده، هذا إلى جانب دراساته الخاصة، وظروف الحياة التي عرّكته عركاً، وعرضته لاختبارات وابتلاءات كثيرة صقلته وصفت جوهره الأدبي، وأظهرت موهبته الشعرية في وقت مبكر من حياته .

أما من ناحية عمله ، فقد وزر ابن زيدون لأبي الحزم بن جهّور شيخ الجماعة في قرطبة، كما وزر لابنه من بعده أبي الوليد بن أبي الحزم بن جهّور، وكان صديقاً حميماً له من قديم، وحدثت بينهما أمور دفعت ابن زيدون إلى الفرار بنفسه متوجّهاً إلى إشبيلية حيث انتقل إلى خدمة المعتضد عبّاد، وظل إلى جواره حتى وفاته، فانتقل إلى خدمة ولده المعتمد بن عبّاد الذي تولى الحكم خلفاً لأبيه، وأخلص في خدمته وزين له الاستيلاء على قرطبة وضمها إلى مملكته، بل وساعده على فتحها كما حسن له الانتقال إليها وجعلها حاضرة ملكه، فاستجاب له، ومع المعتمد عاد ابن زيدون إلى قرطبة الحبيبة، ولكن أيام السعد لا تدوم فقد وقعت وقائع، ودارت وشايات تأثر بها المعتمد، مما جعله يفكر في التخلص من ابن زيدون، فانتهاز أول فرصة سنحت، وذلك عندما حدثت فتنة العامة في إشبيلية، حيث بادر المعتمد فأمر ابن زيدون بالتوجه إليها لاختماد تلك الفتنة بحجة أنه أكثر الناس قدرة على الإقناع بالبرهان والدليل، فحاول ابن زيدون أن يعتذر عن تلك المهمة لمرضه وشيخوخته وطول الرحلة مع ذلك عليه، ولكن المعتمد لم يقبل

اعتذاره ، فسافر ابن زيدون إلى إشبيلية ، حيث وصلها منهكاً متعباً من أثر وعناء السفر، وهناك قضى نجه حيث مات في إشبيلية سنة ٤٦٣ هـ ، ونقل جثمانه إلى قرطبة حيث ووريَ ثراها بعد حياة حافلة بالأحداث المتناقضة .

وقصة ابن زيدون مع ولادة بنت المستكفي مشهورة معروفة ، وستظهر أحداثها، وتبدو آثارها في شعره وأدبه من خلال ما ستكشف عنه الصفحات التالية.

الفتن والنكبات في حياة ابن زيدون :

إن ابن زيدون من الشعراء الذين تفرّدوا بحلول كثير من النكبات بساحتهم ، حيث ظلت تلاحقه حتى آخر عمره، وقد تنوعت تلك النكبات بين لونين بارزين: النكبات السياسية، والنكبات العاطفية وكان لكل لون من لوني النكبات آثاره الجلية الواضحة في أدب ابن زيدون شعراً كان أو نثراً ، مما يوجب علينا بسط الحديث عن كل لونٍ منهما على حدة ، وبيان آثاره وما نتج عنه من أدب متأثر به.

أولاً : النكبات السياسية :

ويلٌ للسلاسة من السياسة ، فأحوالها متقلبة ، وتقلباتها غريبة وضرباتنا مؤلمة موجعة، ولقد عانى ابن زيدون من تقلبات السياسة أشدّ المعاناة، وتركت معاناته منها آثارها الواضحة التي لم تمحها الأيام ولا السنون .

ولقد اندفع ابن زيدون مع تيار الأحداث السياسية عقب مقتل جده لأمه الذي احتضنه بعد وفاة والده، وهو الوزير الفقيه صاحب أحكام الشرطة والسوق أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي المعروف بابن الهدايد، وكان قاتله هو ابن سعيد وزير الخليفة الأموي هشام الثالث الملقب بالمعتد بالله، وذلك سنة ٤٢٢ هـ .. فمنذ هذا الوقت اندفع ابن زيدون بكل ما أوتي من قوة يشارك في الثورة على الحكم الأمويّ، ويضرب بمعوله لتقويض أركان الخلافة الأموية، وذلك انتقاماً لمقتل جده على يد وزير من وزراء الأمويين، وقد نجح الثائرون ومنهم ابن زيدون في تنفيذ أهدافهم المرسومة،

وأسقطت الخلافة الأموية، بل ألغيت وأقيم في قرطبة حكم رئاسي، حيث شكل مجلس رئاسة أعضاؤه هم جماعة العلماء وأهل الحل والعقد والفقهاء، ويرأسهم شيخهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، الذي كان أكثرهم دهاءً وأشدّهم ذكاءً، وأبعدهم نظراً، وأكثرهم حنكة، وهو شيخ ^(١) وقور عرفته قرطبة وجهاً من وجوهها، وقاضياً متعافاً، وكان بارعاً خبيراً في شئون الحكم، ونشأ على السياسة منذ أيام المصحفي، وقد تمرّس بها في ظل الحاجب محمد بن أبي عامر وعرف الكثير من طبائع الرجال، وتغير العهود وسقوط الدول، ولما أجهز وجهاء قرطبة على الدولة العامرية، وعلى الخلافة الأموية فيها بتدبيره، وفوضوا إليه أمور البلد كان قد تحنّك وغلبت فيه الأناة على التسرع، ونفذ بصره إلى كنه الأمور، فطلب اللباب وعزف عن القشور، ولذلك اكتفى بحقيقة الحكم دون مظهره، فكان كل شيء إليه، يعمل لتأسيس ملكه وهو يظهر الزهد والرغبة عنه، وكان أهم ما في الأمر أن يسيطر على جميع القوى متوازنة، وأن يصون استقلال قرطبة، ويحفظ مكانته وهيبته لدى الجميع، وقد نجح في كل ما رسمه ودبّره، وظل يحكم قرطبة لأكثر من اثنتي عشرة سنة، حتى توفي سنة ٤٣٥ هـ وخلفه ولده أبو الوليد بن جهور ..

ولقد اتصل ابن زيدون بهذه الدولة الناشئة في وقت مبكر، حيث كان صديقاً لأبي الحزم، مناصراً له، ومساعداً إياه على تحقيق أهدافه ومآربه حتى تمكن من الإمساك بزمام الأمور، وظل ابن زيدون الشاعر الأول في بلاط ابن جهور يلتبس مرضاته بغرر مدائح يرفع بها ذكره في وقت كان فيه الشيخ الأمير أحوج الناس إلى مثل هذا الشعر للدعاية له ^(٢)، ولا شك أن ابن جهور كان يشجع الشاعر على الإكثار من المديح، وكان لا يؤذيه منه وهو ضامن ولاءه ما يرى فيه من الاعتداد وحب الظهور، وكان ابن زيدون يهدف من وراء ذلك كله أن يحظى بأرفع المناصب في الدولة الجمهورية، ولكن أبا الحزم خيب آماله حينما اكتفى بجعله وزيراً بلا وزارة، وكاتباً يتولى شئون أهل الذمة وكفى، مما حدا بابن زيدون إلى العودة إلى فكرة التآمر مع المتآمرين،

(١) الأسر والسجن في شعر العرب د. أحمد مختار البرزة ص ٢٦٨ مؤسسة علوم القرآن .

(٢) الأسر والسجن في شعر العرب ص ٢٦٩ .

والانضمام إلى جماعة الناقمين على أبي الحزم ، الداعين إلى عودة الحكم الأموي من جديد^(١) وكان ذلك في السر دون العلن، ولكن أبا الحزم كشف أمر هؤلاء جميعاً ونكل بهم، وفرّ منهم من فرّ إلى إشبيلية، وجدّ الواشون في إقناع ابن جهور بخيانة ابن زيدون له، وأنه ضالع مع المتآمرين وهنا لم يبال أبو الحزم بمدائحهم، فغض منه وقطعه، ومالبث أن قبض عليه ولفق له تهمة خيانة الأمانة، حيث اتهم بالاستيلاء على عقار أحد مواليه بعد وفاته، وحوكم على إثر ذلك محاكمة سريعة لم يقبل منه خلالها دفاعاً، ولا دفعاً، وزج به في غياهب السجن سنة ٤٣١هـ، وقد قيل : إن الوزير ابن عبدوس الملقب بالفارق قد سعى في أمر سجنه لدى أبي الحزم، وذلك بسبب الرسالة الهزلية التي كتبها ابن زيدون على لسان ولادة بنت المستكفي وفيها سخر من ابن عبدوس منافسه في عشقها، وسبّه وتهكم عليه، ونجح ابن عبدوس في سعيه، فقد أوغر صدر أبي الحزم حتى ألقى بابن زيدون في السجن، ولم تجد محاولات شاعرنا التي بذلها لتبرئة ساحته ممّا نسب إليه، ولم تدفع عنه أدلة براءته شيئاً منها، وقد مكث في سجنه قرابة العامين حتى ساعده صديقه أبو الوليد بن أبي الحزم بن جهور على الفرار ريثما يقنع والده ببراءته، أو بالعفو عنه، والاستجابة لشفاعة من يشفع فيه خصوصاً أستاذه أبا بكر مسلم بن أحمد بن أفلح.

وقد هام ابن زيدون على وجهه متخفياً في قرطبة مما زاد في قلقه وشدة شقائه، ثم غادرها بعد يأس جارف إلى إشبيلية حيث مدح أميرها المعتضد عبّاد، وعاش في كنفه فترة حتى عفا عنه أبو الحزم جهور قبيل وفاته بأشهر قليلة فعاد إلى قرطبة سنة ٤٣٤هـ

وجاء هذا العفو استجابة لمساعي أبي الوليد بن جهور لدى أبيه ولشفاعة أبي بكر مسلم بن أفلح في تلميذه عند الشيخ الأمير ...

أثر هذه النكبة في حياة ابن زيدون الأدبية :

لقد كانت هذه المحنة عاملاً فعالاً في حياة ابن زيدون الأدبية، ففي السجن كتب رسالته الجدّية إلى أبي الحزم جهور، ونظم كثيراً من قصائد المدح

(١) مقدمة ديوان ابن زيدون ت محمد سعيد الكيلاني.

والاستعطاف والعتاب، وطلب العفو، وأثناء فراره وتخفيه كتب رسالة أدبية أعقبها بقصيدة رائعة إلى أستاذه أبي بكر بن أفلاح، كما كتب أعظم قصائده إلى محبوبته ولادة بنت المستكفي ولما لجأ إلى إشبيلية مدح أميرها المعتضد عباد بقصائد من درر شعره ^(١) كل هذا وغيره من آثار تلك المحنة، وهاتيك النكبة .

النتاج الأدبي لأولى نكبات ابن زيدون السياسية :

كانت أولى نكبات ابن زيدون السياسية كما رأينا على يد أميره أبي الحزم جمهور بن محمد بن جمهور الكلبي، حيث ألقى به في غياهب السجن ولم يلق بالاً لقصائده التي مدحه بها، ولم يستجب فيه لشفاعاة شافع، وقد فجرت تلك النكبة ينابيع الشعر لدى ابن زيدون، فخرجت منها قصائد هي من درر الشعر ومنها ما كتب به ابن زيدون إلى أبي الحزم من سجنه ما دحاً، ومحاولاً تبرئة ساحته مما نسب إليه ومستعظفاً إياه، وفيها يقول * :

- ١- أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِيَ الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِي
 - ٢- وَهَلَّا أَقَامَتْ أَنْجُمُ اللَّيْلِ مَأْتَمًا،
 - ٣- وَلَوْ أَنْصَفْتَنِي، وَهِيَ أَشْكَالُ هَمَّتِي
 - ٤- وَلَا افْتَرَقَتْ سَبْعُ الثَّرِيَّا، وَغَاظَهَا
 - ٥- لَعَمْرُ اللَّيَالِي إِنْ يَكُنْ طَال نَزْعُهَا،
 - ٦- تَحَلَّتْ بِأَدَابِي، وَإِنْ مَارِي
 - ٧- أُخْصَ لِفَهْمِي بِالْقَلَى، وَكَأَنَّمَا
 - ٨- وَأُجْفَى عَلَى نَظْمِي لِكُلِّ قِلَادَةٍ
 - ٩- وَلَوْ أَنَّنِي أَطِيعُ، كَيْ أَرْضَى الْعِدَا
- وَيَطْلُبُ ثَأْرِي الْبَرْقُ مَنْصَلَتَ النَّصْلِ؟
لَتَنْدُبُ فِي الْآفَاقِ مَاضَا عَمَّنْ ثَلِي؟
لَأَلْقَتْ بِأَيْدِي السُّدُلِ لَمَّا رَأَتْ ذُلِّي
بِمَطْلَعِهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَمْلِي
لَقَدْ قَرِطَسَتْ بِالنَّبْلِ فِي مَقْتَلِ النَّبْلِ
لَسَانِحَةً فِي عَرْضِ أُمْنِيَّةِ عَطْلِ
يَبِيتُ لَذِي الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى ذَحْلِ
مَفْصَلَةِ السَّمْطَيْنِ بِالْمَنْطِقِ الْفَصْلِ
شَرِيتُ بِيَعْضِ الْحِلْمِ حِطًّا مِنَ الْجَهْلِ

ثم يخاطب ابن زيدون أمه مواسياً لها ، وداعياً إياها إلى التصبر قائلاً :

(١) ديوان ابن زيدون تحقيق محمد سيد كيلاني ص ٧ المقدمة .
* ديوان ابن زيدون تحقيق حنا الفاخوري ص ٤٣ ، وتحقيق محمد سيد كيلاني ص ١٢ .

- ١٠- أمقتولة الأُجفان، مَالِكٍ وَالِهَاءِ،
- ١١- أَقْلِي بُكَاءً ، لَسْتُ أَوَّلَ حَرَّةٍ
- ١٢- وَفِي أُمِّ مُوسَى عِبْرَةٌ أَنْ رَمَتْ بِهِ
- ١٣- لَعَلَّ الْمَلِيكَ الْجَمَلَ الصُّنْعَ قَادِرًا
- ١٤- وَلِلَّهِ فِينَا عِلْمٌ غَيْبٌ، وَحَسْبُنَا
- ١٥- وَإِنْ رَجَائِي فِي الْهُمَامِ ابْنُ جَهْوَرٍ
- ١٦- هُمَامٌ ، عَرِيقٌ فِي الْكِرَامِ ، وَقَلَمًا
- ١٧- نَهَوْضٌ بِأَعْبَاءِ الْمُرُوءَةِ وَالتُّقَى،
- ١٨- إِذَا أَشْكَلَ الْخَطْبُ الْمُلْمُ، فَإِنَّهُ،
- ١٩- وَذُو تُدْرٍ لِلْعَزْمِ نَحْتِ أَنْاتِهِ،
- ٢٠- يَرِفُّ عَلَى التَّامِيلِ لِلْأَلَاءِ بِشَرِّهِ،
- ٢١- مُحَاسِنٌ، مَا لِلْحُسْنِ فِي الْبَدْرِ عَلَّةٌ،
- ٢٢- تُغْصُ ثَنَائِي، مِثْلَمَا غَصَّ، جَاهِدًا،
- ٢٣- وَتُغْنِي عَنِ الْمَدْحِ اكْتِفَاءً بِسُرُوحَا،

أَلَمْ تَرَكَ الْأَيَّامَ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي ؟!
 طَوَتْ بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى مَضَضِ الثُّكُلِ
 إِلَى الْيَمِّ فِي الثَّابُوتِ، فَاعْتَبِرِي وَأَسْلِي
 لَهُ بَعْدَ يَأْسٍ سَوْفَ يُجْمَلُ صُنْعًا لِي
 بِهِ عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ مِنْ حَكَمٍ عَدْلٍ
 لِمُسْتَحْكَمِ الْأَسْبَابِ مُسْتَحْصِدِ الْجَبَلِ
 تَرَى الْفَرْعَ إِلَّا مُسْتَمِدًّا مِنَ الْأَصْلِ
 سَحُوبٌ لِأَذْيَالِ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ
 وَآرَاءُهُ كَالْخَطِّ ، يُوضَحُ بِالشُّكْلِ
 كَمُونُ الرَّدَى فِي فَتْرَةِ الْأَعْيُنِ النُّجْلِ
 كَمَا رَفَّ لِلْأَلَاءِ الْحُسَامِ عَلَى الصُّقْلِ
 سِوَى أَنَّهَا بَاتَتْ تَمِلُ فَيَسْتَمْلِي
 سِوَارَ الْفَتَاةِ الرُّودِ بِالْمَعْصَمِ الْخَدْلِ
 غَنَى الْمُقْلَةَ الْكَحْلَاءَ عَنْ زِينَةِ الْكُحْلِ

ثم انتقل بعد المدح إلى عتاب أبي الحزم مبيِّناً له مكانته في قلبه فقال :

- ٢٤- أَبَا الْحَزْمِ، إِنِّي فِي عِتَابِكَ مَائِلٌ
 - ٢٥- حَمَائِمُ شَكْوَى صَبْحَتِكَ هَوَادِلًا،
- عَلَى جَانِبٍ ، تَأْوِي إِلَيْهِ الْعُلَا سَهْلٌ
 تُنَادِيكَ مِنْ أَفْئَانِ آدَابِي الْهَدْلُ

- ٢٦- جَوَادٌ، إِذَا اسْتَنَّ الْجِيَادُ إِلَى مَدًى،
 ٢٧- نَوَى، صَافِئاً فِي مَرَبِطِ الْهُونِ، يَشْتَكِي
 ٢٨- أَفِي الْعَدْلِ أَنْ وَافَتْكَ تَتْرَى رَسَائِلِي،
 ٢٩- أَعَدُّكَ لِلْجُلَى، وَأَمْلُ أَنْ أَرَى
 ٣٠- وَمَا زَالَ وَعْدُ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالْمُنَى،
 ٣١- أَأَنْ زَعَمَ الْوَأَشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعِماً
 ٣٢- وَأَصْدَى إِلَى إِسْعَافِكَ السَّائِغَ الْجَنَى
 ٣٣- وَلَوْ أَنَّنِي رَاقِعْتُ عَمْدًا خَطِيئَةً،
 ٣٤- فَلَمْ أَسْتَرْ حَرْبَ الْفَجَارِ، وَلَمْ أُطْعَمْ
 ٣٥- وَمِثْلِي، قَدْ تَهَفُّوْهُ نَشْرَةُ الصَّبَا،
 ٣٦- وَإِنِّي لَتَنْتَهَانِي نُهَآيَ عَنِ التَّيِّ
 ٣٧- أَأَنْكُتُ فِيكَ الْمَدْحَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ
 ٣٨- ذَمَّمْتُ إِذْنُ عَهْدَ الْحَيَاةِ، وَلَمْ يَزَلْ،
 ٣٩- وَمَا كُنْتُ بِالْمُهْدِي إِلَى السُّودَدِ الْخَنَاءِ،
 ٤٠- وَمَالِي لَا أَتْنِي بِآلَاءِ مُنْعَمٍ،
- تَمَطَّرَ فَاسْتَوَلَى عَلَى أَمَدِ الْخَصْلِ
 بَتَصَهَا لَهُ مَا نَالَهُ مِنْ أَذَى الشُّكْلِ
 فَلَمْ تَتْرُكْ وَضْعاً لَهَا فِي يَدِي عَدْلُ؟
 بِنُعْمَاكَ مَوْسُوماً، وَمَا أَنَا بِالْغُفْلِ
 كَأَنِّي بِهِ قَدْ شِمْتُ بَارِقَةَ الْمَحَلِ
 تُعَذِّرُ فِي نَصْرِي، وَتُعَذِّرُ فِي خَذْلِي؟ !
 وَأَضْحَى إِلَى إِنْصَافِكَ السَّابِغَ الظِّلِّ
 لَمَّا كَانَ بَدْعاً مِنْ سَجَايَاكَ أَنْ تُمْلِي
 مُسَيْلَمَةً، إِذْ قَالَ: إِنِّي مِنَ الرُّسُلِ
 وَمِثْلُكَ قَدْ يَعْفُو، وَمِثْلُكَ مِنْ مِثْلِ
 أَشَادِبِهَا الْوَأَشِي، وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي
 وَلَا أَقْتَدِي، إِلَّا بِنَاقِضَةِ الْغَمَزْلِ؟ !
 مُمَرّاً عَلَى الْأَيَّامِ، طَعْمُهَا الْحَلِي
 وَلَا بِالْمُسِيءِ الْقَوْلِ فِي الْحَسَنِ الْفِعْلِ
 إِذَا الرُّوضُ أَتْنَى بِالنَّسِيمِ عَلَى الطَّلِّ

ثم يعتذر عما بدر منه، وينفي عن نفسه التهمة، ويبين أنها وشاية فيقول :

- ٤١- هِيَ السُّعْلُ زَلْتُ بِي فَهَلْ أَنْتَ مُكَذِّبٌ
لَقِيلَ الْأَعَادِي، إِنَّهُ ————— زَلَّةُ الْحِسْلِ
- ٤٢- وَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَشْفَعَ الطُّولَ شَافِعًا،
فَتُتَجَّحَ مَيْمُونُ النَّقِيِّ —————، أَوْتُلِّي
- ٤٣- أَجِرْ، أَعِدْ، آمِنْ، أَحْسِنْ، أَبْدَأْ، عُدْ، اكْفِ، حُطْ
تُخَفُّ، ابْسُطْ، اسْتَأْلَفْ، صُنْ، احْمِ، اصْطَنِعْ، أَعْلِ
- ٤٤- مَنَى لَوْ تَسْتَى عَقْدَهَا بِيَدِ الرُّضَا،
تَيَسَّرَ مِنْهَا كُلُّ مُسْتَبَدٍّ ————— صَعَبِ الْحَلِّ
- ٤٥- أَلَا إِنَّ ظَنِّي بَيْنَ فِعْلِكَ وَاقِفٌ،
وَقُوفَ الْهُوَى بَيْنَ الْقَطِيعِ ————— عَةِ وَالْوَصْلِ
- ٤٦- فَإِنْ تُمَنَّ لِي مِنْكَ الْأَمَانِي، فَتُشِيمَةُ
لِذَاكَ الْفَعَالِ الْقَصْدِ، وَالْخَلْقِ ————— رَّسْلِ
- ٤٧- وَإِلَّا، جَنَيْتُ الْأَنْسَ مِنْ وَحْشَةِ السُّنُوي،
وَهَوَّلَ السُّرَى بَيْنَ الْمَطِيَّةِ وَالرُّحْلِ
- ٤٨- سِيعَنِي بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّي حَافِظُ،
وَيُلْفِي مَا أَرَخَصْتَ مِنْ خَطِّ رِي مُغْلِي
- ٤٩- وَأَيْنَ جَ————— وَابَّ عَنْكَ، تَرْضَى بِهِ الْعُلَا،
إِذَا سَ————— أَلْتَنِي بَعْدَ أَلْسِنَةِ الْحَفْلِ

شرح الأبيات والتعليق عليها :

لقد استهلَّ ابن زيدون قصيدته بأسلوب استفهامي ساقه في بيتين بدأ بهما (ألم يأن

.. الخ، وهلاً أقامت .. الخ) وكان الغرض من الأول منهما التمنى والتحسر، ومن الثاني التحضيض .

فهو يقول : ألم يحن الوقت بعد كي يبكي الغمام، فيبكي محاسني ومآثري وكذلك يبكي على كل من كان مثلي، وأن يطلب نصل البرق الحاد الماضي بثأري ممن أساءوا إليّ .. وهلاً بادرت أنجم الليل فأقامت مأتماً تندب فيه مآثري، ومناصبي، وما عرفت به من مكانة ووجاهة ولو أنها أنصفتني وهي مثلي لأصابها الذلُّ مشاركة لي لما رأت ذليّ بعد عزي، ولتفرقت كواكبها السبعة ونجومها اللامعة وأخفاها ما أصابني من تغير في الحال، ثم يشكو الشاعر ما أصابته به الليالي من مصائب، وما نزل به من نكبة « لَعمرُ الليالي ! .. » فهو يقول : إن تكن الليالي قد أطالت نزع الروح مني بما أصابتنني به من كوارث ونكبات ومصائب، فقد أصابت غرضها، وأصابت موضع النبل مني بلا هوادة، ومع أن الليالي صارت حرباً عليّ إلا أنها قد تحلّت بآدائي ومآثري، وإن مآربي لموشكة على بلوغ ما أتمناه .

وفي البيت السابع يأسي الشاعر ويأسف على سبب ما خصَّ به من كراهية وجفاء، وما يُشْنُ عليه من حرب دون سواه، ويبين أنه يحاربُ لا لشيء سوى أنه من ذوي الفهم والعقل والحجاء، وكأنَّ الزمان قد خصَّ أصحاب العقول النيرة بمثل هذه الحرب التي لا هوادة فيها، ويبين الشاعر أن شعره الذي يشبه القلائد، وكلامه المفصل القاطع، وقصائده التي هي الدُرر بين مثيلاتها من أسباب جفاء البعض له، وكراهيتهم إياه .. وكأنني بالشاعر وسط ظلام نكبته الحالكة يحرص على الفخر والاعتزاز بنفسه، ويتمنى الشاعر أن لو كان بمقدوره كي يرضي أعداءه أن يبيع حلمه وعلمه ببعض الجهل ، طالماً أن الرضا والحظوة لاينا لهما إلا الجاهلون .

وفي البيت العاشر يلتفت الشاعر إلى أمه التي تبكيه، وتأسى لما حلَّ به فيخاطبها

مواسياً لها، ومحاولاً التهوين عليها ، والتخفيف من وقع المصيبة عنها ويقول لها :
« أمقتولة الأجفان ! مالك والهأ ... » أي أمقرحة الأجفان من كثرة البكاء حزناً عليّ ،
يامنْ أذهب الحزن عقلها وأصابها بالحيرة لماذا الحزن ؟ ألم تكشف لك الأيام عن نجم
سقط قبلي من عليائه .. أقلّي من بكائك وارفقي بنفسك أمامه فلست أول حرّة أنساها
الحزن مضض فقدّها لولدها ، وخذي العظة والعبرة من أم موسى عليه السلام عندما
رمت فلذة كبدها في تابوت قذفت به في اليم ، وتعزّي بأحداث تلك القصة حتى يأتي
الفرج ويتحقّق الرجاء فعلّ المليك صاحب الفضل والمحسن الصنع دائماً يحسن إليّ ،
ويجمل صنعاً بي ، فأخرج مما أنا فيه ، وعلم الغيب عند الله تبارك وتعالى ، كفانا به
وكيلاً ، وحسبنا به عند جور الدهر علينا من حكم عدلٍ فلا تحزني والله معي ينصفني
ويحميني .

وأنا واثق من الأمير ابن جهور، ورجائي فيه راسخ ثابت ، فهو همام عريق في الكرم
والجود، ولا عجب في ذلك فهو يستمد من أصله ، كما أنه حريص على النهوض
بأسباب المروءة والتقوى ، وصاحب سيادة وفضل دائماً وله آراء سديدة في حل معضلات
المشاكل عندما تتعقد الأمور وتتشابك كما أنه صاحب عزّة ومنعة ، ومدافع ذو قوة متأنّ
يكن الموت في تأنيه وحلمه كمن الهلاك في الأعين النَّاعِسة .. وعندما يتأمل في أمر
يسطع بشره المتألّي عند تأمله ، كما يتألّأ الحسام الصقيل بعد الصقل ، وعلى الإجمال
فهو متكامل المحاسن ، وليس في محاسن البدر علة سوى أنها تنعكس على الآخرين ،
فيطلبون منها المزيد ، فمحاسنه طبيعة فيه يمتد أثرها إلى غيره منه ، ومهما وصفت تلك
المحاسن فأنا عاجز عن الإلمام بها ، فكلماتي تغصّ معانيها ، وتضيق عن الوصف ، بل
تعجز عن ذلك عجز السوار عن الإحاطة بمعصم الفتاة الحسناء بضاً سميئاً ، كما أن
كلماتي تستغني عن مدحه اكتفاءً بما عنده من محاسن ، فهو ممدوح بطبعه مستغن عن
هذا المدح استغناء العيون الكحيلة عن زينة الكحل .

وفي بيته الرابع والعشرين يتوجه ابن زيدون إلى الممدوح مباشرة بحديثه فيخاطبه معاتباً، وشاكياً ، قائلاً : صَبَحْتُكَ أبا الحزم مني حمائم شاكية هادلة تناديك من بين أغصاني، ومن أفنان آدابي، وتنبتك بأني جواد سريع أدرك الغاية، وأفوز بالرهان إذا تنافست الجياد في الوصول إلى غايتها، هذا الجواد السابق أقام على ثلاث قوائم وطرف الحافر في الرابعة يشكو إليك من مربط الخزي والهوان ما ناله من أذى في سجنه ، وما أثقله من قيود أذلته، وليس من العدل أن تأتيك رسائلتي متتابعة تحمل شكواي، فلا تلق لها بالاً، ولا ينالها شيء من عدلك..، وما زلت أمل أن أنال رضاك، وأن أحظى بعطاياك، وأتمنى أن أوسم بنعماك، وما أنا بالرجل الغفل النكرة المجهول، وما زلت أعد نفسي وأمنيتها بخيرك، وأخشى أن تخيب آمانياتي، وتكون أنت كسحابة تبرق ولا تمطر، ولا ينبغي أن تتأثر بمزاعم الواشين الكذابين النمامين فيما نسبوه إليّ زوراً وبهتاناً، فتقصر بسبب ذلك في مساعدتي، وتتخذ منه مبرراً لخدلي والإعراض عني، وهبْ أنني ارتكبت عمداً وإصراراً خطيئة فليس غريباً عليك، وعلى حسن طباعك أن تمهلني، وتملي لي، وعلى أيِّ حالٍ فأنا لم أرتكب جرماً أستحق عليه تلك العقوبة، فأنا لم أثر حرب الفجار، ولم أطلع مسيلمة الكذاب حين ادعى النبوة، وقال : إنه من الرسل، ومثلي يا أبا الحزم قد تجمّح به نشوة الشباب وتميل إلى أمر لا ترضاه منه ومثلك قد يعفو ويتجاوز، ومالك مثل !!

واعلم أن عقلي وأدبي يمنعاني من ارتكاب ما زعم الواشي الكذوب أنني قد ارتكبته، فأنا أبرأ مما ادعاه ونشره عني براءة الذئب من دم يوسف، فلا يليق بي أن أنقض مدحي لك كل هذه السنين ولا يليق بي أيضاً أن أقتدي بالتي نقضت غزلها فلست ممن ينقض العهد بعد توكيده .. وإن فعلت ذلك أكون قد ذمت عهد الحياة الحلوة الجميلة، ولكان طعمها الحلو مرّاً في فمي على الأيام، وما أنا بالذي يرشد الوضع الحقيقير إلى الرفعة والعلاء، ولا يقابل الحسنة بالإساءة، ولا يهدي مكان السيادة الفحش، ولا يسيء

القول إلى من أحسن إليه ، ولماذا لا أثني على المتفضل عليّ بالنعم ، وأنسب الفضل
لذويه كما يثني الروض بنسيمه على الندى ؟

وما وقع مني يا سيدي أشبه ما يكون بزلة قدم بسيطة ، وليس كما يدعي الأعداء
أنه أمر معقد وصعب الحل ، فزلتي ليست زلة معقدة ، فهل لك أن تضاعف فضلك
عليّ ، وتنجح محمود النفس وتقوي عزيمته وفي البيت الثالث والأربعين يسوق الشاعر
مجموعة من أفعال الأمر على سبيل الرجاء والالتماس فيقول :

أَجِرْ ، أَعِدْ ، آمِنْ ، أَحْسِنْ ، ابدأ ، عُدْ ، اكْفِ ، حُطْ
تَحَفَّ ، أَبْسُطْ ، اسْتَأَلْ ، صُنْ ، احْمِ ، اصْطَنِعْ ، أَعْلِ

فهو يطلب الجوار ، والنصرة ، والأمن ، والإحسان ، والعطاء ، والحفظ أو العفو عنه ،
والإكرام ، ونسط الكف بالعطاء ، واتخاذهُ إلفاً وصديقاً ، كما يطلب الحماية منه ، وأن
يصطنعه أي يستخدمه مرة أخرى ، وأن يعلي شأنه ومكانته ويبين للمدوح أن هذه أمنيات
لو توافرت بيد من نطلب رضاه لتيسر حل كل المعضلات ، فليتك تحقق لي تلك
الأمنيات العظام فذلك من جميل خصالك ، وعظيم فعالك ، وحسنات أخلاقك حتى
تنقذني من حيرتي فأنا في مفترق طريقين ، طريق القطيعة ، وطريق الوصال ، وإن تركتني
دون أن تمن عليّ جنيت الخسران والندامة ، وجنيت الأُنس من وحدة البعد ، وأهوال
السير ليلاً بين المطايا ، واعلم أنني لن أعدم من يقدر مواهبي ، ويحفظ مكانتي ، فسوف
أجد عند غيرك ما افتقدته عندك ، وسوف يحفظ غيرك ما ضيعت مني ، وما جعلته
رخصاً من قدرتي وقيمتي ومكانتي سوف يراه غيرك غالباً ثميناً .

فأين يا أبا الحزم الجواب الذي يحفظ كرامتي ، ويحقق رفعتي ، ويصون مكانتي ،
ويحفظ ماء وجهي إذا سألتني الناس ... ؟ .. وهذا أسلوب استفهامي غرضه الحث
والاستنهاض على تحقيق العفو عنه ، وإعادة مكانته إليه .

ولما اشتد ضيق ابن زيدون في سجنه ، وتحزبت الأمور من حوله عليه راح يسترحم أبا

الحزم بن جهور ويستعطفه ، ويكتب إليه المزيد من قصائد المدح والاستعطاف والاسترحام فمن ذلك قصيدته التي يقول فيها : (١)

- ١- مَا جَالَ بَعْدَكَ لِحْظِي فِي سَنَا الْقَمَرِ،
 - ٢- وَلَا اسْتَطَلْتُ ذِمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسْفٍ،
 - ٣- نَاهِيكَ مِنْ سَهْرٍ بَرَحَ تَأْلَفُهُ
 - ٥- فَلَيْتَ ذَاكَ السَّوَادَ الْجَوْنَ مُتَّصِلٌ
 - ٦- أَمَا الضَّنَى فَجَنَّتْهُ لِحْظَةٌ عَنْنٌ
 - ٧- فَهَمْتُ مَعْنَى الْهَوَى، مِنْ وَحْيٍ طَرَفِكَ لِي
 - ٨- وَالصِّدْرُ، مَذُورِدَتْ، رَفْهًا نَوَاحِيهِ،
 - ٩- حُسْنُ أَفَانِينَ، لَمْ تَسْتَوْفِ أَعْيُنُنَا
 - ١٠- وَأَهْلًا لَثَغْرِكَ ثَغْرًا بَاتَ يَكْلُوهُ
 - ١١- يَقْظَانُ لَمْ يَكْتَحِلْ غُمُضًا، مُرَاقِبَةٌ
 - ١٢- لَأَلْهُو أَيَّامَهُ الْخَالِي بِمُرْتَجِعٍ،
 - ١٣- إِذْ لَا التَّحِيَّةُ إِيْمَاءَ مَخَالَسَةٍ،
 - ١٤- مُنَى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَذَكُّرُهَا،
 - ١٥- مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَالِي، فَشَاهِدَهَا
 - ١٦- لَمْ تَطُورْ بَرْدَ شَبَابِي كِبَرَةً وَأَرَى
 - ١٧- قَبْلَ الثَّلَاثِينَ، إِذْ عَهْدُ الصَّبَا كَثَبٌ،
 - ١٨- يَا لِلرَّزَايَا، لَسَقَدْ شَافَهْتُ مَنَهِلَهَا
 - ١٩- هَا إِنَّهَا لَوْعَةٌ فِي الصِّدْرِ قَادِحَةٌ
 - ٢٠- لَا يَهْنِئُ الشَّامِتُ الْمُرْتَاحَ خَاطِرُهُ
- إِلَّا ذَكَرْتُكَ ذَكَرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ
إِلَّا عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقَصْرِ
شَوْقٌ إِلَى مَا أَنْقَضَى مِنْ ذَلِكَ السَّمَرِ
لَوْ اسْتَعَارَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ
كَأَنَّهُمَا وَالرَّدَى جَاءَا عَلَى قَدَرٍ
إِنَّ الْحُرَّ وَالْمُفْهُومَ مِنَ الْحَوَرِ
تَوْمَ الْقِلَافَةِ، لَمْ يَتَجَنَّحْ إِلَى صَدْرِ
غَايَاتِهِ بِأَفَانِينَ مِنَ النَّظَرِ
غَيْرَانِ تَسْرِي عَوَالِيهِ إِلَى الثُّغْرِ
لِرَابِطِ الْجَبَاشِ، مُقْدَامَ عَلَى الْغُرِّ
وَلَا نَعِيمَ لِيَالِيهِ بِمَنْتَظَرِ
وَلَا الزِّيَارَةِ الْمَمَامَ عَلَى خَطَرِ
إِنَّ الْغُورَامَ لِمُعْتَادٍ مَعَ الذِّكْرِ
مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُغْنِي عَنِ الْخَبَرِ
بَرْقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعْرِ
وَلِلشَّبِيبَةِ غُصْنٌ غَيْرُ مَهْتَصِرٍ
غَمْرًا، فَمَا أَشْرَبَ الْمَكْرُوهَ بِالْغَمْرِ
نَارَ الْأَسَى، وَمَشِيبِي طَائِرُ الشَّرِّ
أَنْيَ مَعْنَى الْأَمَانِي، ضَائِعُ الْخَطَرِ

(١) ديوان ابن زيدون بتحقيق حنا الفاخوري ص ٣٤، وتحقيق محمد سيد كيلاني ص ٧ وشرح د. يوسف فرحات ص ١٠٦ .

٢١- هَلْ الرِّيحُ بِنَجْمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ،
 ٢٢- إِنْ طَالَ فِي السَّجَنِ إِيدَاعِي فَلَا عَجَبٌ
 ٢٣- وَإِنْ يُثَبِّطَ أَبَا الْحَزْمِ الرِّضَا قَدْرٌ،
 ٢٤- مَا لِلذُّنُوبِ الَّتِي جَانِي كِبَائِهَا
 ٢٥- مَنْ لَمْ أَزَلْ، مَنْ تَأْنِيهِ عَلَى ثِقَةٍ،
 ٢٦- ذُو الشِّيمَةِ الرَّسُلِ، إِنْ هَيَّجَتْ حَفِيزَتُهُ
 ٢٧- مَنْ فِيهِ لِلْمَجْتَلِيِ وَالْمُبْتَلِيِ نَسَقًا،
 ٢٨- مُذَلِّلٌ لِلْمَسَاعِي حُكْمَهَا شَطَطًا
 ٢٩- وَزِيرٌ سَلِمَ، كَفَاهُ يَمْنٌ طَائِرُهُ
 ٣٠- أَغْنَتْ قَرِيبَتَهُ مُغْنَى تَجَارِيهِ
 ٣١- كَيْمِ اشْتَرَى، بِكَرَى عَيْنِهِ مِنْ سَهْرٍ،
 ٣٢- فِي حَضْرَةِ غَابَ صَرْفُ الدَّهْرِ خَشِيَتُهُ
 ٣٣- مَمْتَعٌ بِالرَّيْعِ الطَّلُقِ نَازِلُهَا،
 ٣٤- مَا إِنْ يَزَالُ يَبُثُّ النَّبْتُ فِي جِلْدِ
 ٣٥- حَرَمَتْ مِنْهُ، وَحَظَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ
 ٣٦- قَدْ كُنْتُ أَحْسَنِي وَالنَّجْمُ فِي قَرْنٍ،
 ٣٧- أَحْيَنَ رَفَّ عَلَى الْآفَاقِ، مِنْ أَدْيِي،
 ٣٨- وَسَيْلَةً سَبِيًّا، إِلَّا تُكَنَّ نَسَبًا،
 ٣٩- وَبَائِنٌ مِنْ ثَنَاءٍ حُسْنِهِ مِثْلٌ،
 ٤٠- يُسْتَوْدَعُ الصُّحُفَ، لَا تُخْفَى نَوَافِحُهُ
 ٤١- مِنْ كُلِّ مُخْتَالَةٍ بِالْحَبْرِ، رَافِلَةٌ،
 ٤٢- تَجُفَى لَهَا الرُّوضَةُ الْغَنَاءُ،

أَمْ الْكُشُوفُ لَغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؟
 قَدْ يُوَدِّعُ الْجَفْنَ حَدَّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
 عَنْ كَشْفِ ضُرِّي، فَلَا عَتَبَ عَلَى الْقَدْرِ
 غَيْرِي يُحْمِلُنِي أَوْزَارَهَا وَزَرِي
 وَلَمْ أَبْتَ مِنْ تَجْنِيهِهِ عَلَى حَذَرٍ
 وَالْجَانِبِ السَّهْلِ، وَالْمُسْتَعْتَبِ الْيَسْرِ
 جَمَالُ مَرَأَى عَلَيْهِ سِرٌّ مُخْتَبَرٌ
 عَلَيْهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ النَّفْسِ وَالنَّفَرِ
 شَوْمُ الْحُرُوبِ، وَرَأْيُ مُحْصَدِ الْمَرِّ
 وَنَابَتِ اللَّمْحَةُ الْعَجَلَى عَنِ الْفَكْرِ
 هَدُوءَ عَيْنِ الْهَدَى فِي ذَلِكَ السَّهْرِ
 عَنْهَا، وَنَامَ الْقَطَا فِيهَا فَلَمْ يَثْرِ
 يُلْهِمُهُ عَنْ طَيْبِ أَصَالٍ نَدَى بَكْرٍ
 مَذْ سَاسَهَا، وَيَفِيضُ الْمَاءُ مِنْ حَجَرٍ
 لِهَذِهِ الْعَبْرَةِ الْكُبْرَى مِنَ الْعَبْرِ
 فَفِيمَ أَصْبَحْتُ مُنْحَطًّا إِلَى الْعَفْرِ؟؟
 غَرَسَ لَهُ مِنْ جَنَاهُ يَانِعِ الثَّمَرِ
 فَهُوَ الْوَدَادُ صَفَا مِنْ غَيْرِ مَا كَدَرِ
 وَشِي الْمَحَاسِنِ مِنْهُ مَعْلَمُ الطُّرْرِ
 إِلَّا خَفَاءَ نَسِيمِ الْمَسْكِ فِي الصُّرْرِ
 فِيهِ اخْتِيَالُ الْكَعَابِ الرُّودِ بِالْحَبْرِ
 مَجَالُ دَمْعِ النَّدَى فِي أَعْيُنِ الزُّهْرِ

٤٣- يَا بِهِجَةَ الدَّهْرِ حَيًّا، وَهُوَ إِنْ فَنِيَتْ
 ٤٤- لِي فِي اعْتِمَادِكَ بِالتَّأْمِيلِ سَابِقَةً،
 ٤٥- فَفِيمَ غَضَّتْ هُمُومِي مِنْ عِلَافِ مَمِي،
 ٤٦- هَلْ مِنْ سَبِيلٍ، فَمَاءَ الْعُتْبِ لِي أَسْنِ،
 ٤٧- نَذَرْتُ شُكْرَكَ، لَا أَنْسَى الْوَفَاءَ بِهِ،
 ٤٨- لَا تَلَّهُ عَنِّي، فَلَمْ أَسْأَلْكَ مُعْتَسِفًا
 ٤٩- وَاسْتَوْفِرَ الْحِظَّ مِنْ نُصْحٍ وَصَاغِيَةٍ،
 ٥٠- هَبْنِي جَهَلْتُ فَكَانَ الْعَلَقُ سَيِّئَةً،
 ٥١- إِنَّ السِّيَادَةَ بِالْإِغْضَاءِ لَا بَسَّةَ
 ٥٢- لَكَ الشُّفَاعَةَ، لَا تُثْنِي أَعْتَبَهَا،
 ٥٣- فَاشْفَعْ أَكُنْ مِثْلَ مَطْمُورٍ بِلِدَّتِهِ،
 ٥٤- وَالْبَسَ مِنَ النِّعْمَةِ الْخُضْرَاءِ أَيْكُتْهَا
 ٥٥- نَعِيمَ جَنَّةٍ دُنْيَا إِنْ هِيَ أَنْصَرَمَتْ،

شَرْحُ وَتَحْلِيلُ الْقَصِيدَةِ :

حَيَّاتِهِ، زِينَةُ الْأَثَارِ وَالسَّيْرِ
 وَهَجْرَةٍ فِي الْهَوَى أُولَى مِنَ الْهَجْرِ
 وَحَاصٍ بِي مُطْلَبِي عَنْ وَجْهَةِ الظُّفْرِ؟
 إِلَيَّ الْعَذُوبَةُ مِنْ عِتْبَاكَ وَالْخَصَرُ؟
 إِنْ أَسْفَرْتُ لِي عَنْهَا أَوْجُهُ الْبَشَرِ
 رَدَّ الصُّبَا، بَعْدَ إِيفَاءٍ عَلَيَّ الْكِبَرِ
 كَلَاهُمَا الْعَلَقُ، لَمْ يُوْهَبْ، وَلَمْ يَعْرِ
 لَا عُدْرَمَتَهَا، سَوَى أَنِّي مِنَ الْبَشَرِ
 بِهَاءِهَا، وَبِهَاءِ الْحَسَنِ فِي الْخَفْرِ
 دُونَ الْقَبُولِ بِمَقْبُولٍ مِنَ الْعَذْرِ
 جَذْلَانِ بِالْوَطَنِ الْمَأْلُوفِ وَالْمَطْرِ
 ظِلًّا حَرَامًا عَلَى الْآفَاتِ وَالْغَيْرِ،
 نَعِمْتُ بِالْخُلْدِ فِي الْجَنَاتِ وَالنَّهْرِ.

أولاً : استهلَّ الشاعر قصيدته بمقدمة غزلية من شعر النسيب تحدث فيها عن تذكره لمن أحب كلما جالت عيناه في سنا القمر، وكلما مرَّ به ليل يتذكر الليالي السعيدة، وهي ليالي الوصل والقرب، وكلما أتعبه السهر امتزج تعبهُ بشوق مبرح إلى ما انقضى من ليالي السعادة التي أبهجته وأفرحته رغم قصرها، ويتمنى أن لو استعار الليل سواد القلوب والأبصار لكي يطول فلا ينقضي، ويبرر ما يحسُّ به من نصبٍ، وما اجتاحت حياته من متاعب بأنه ناتج عن لحظات تعاسة اعترضتها وكأنها والموت جاء على قدر وميعاد، ويوضح الشاعر فهمه للغة العيون فهمًا تامًا، فلقد فهم معنى الهوى من نظرات من يحبُّ، فالحوار عنده يفهم من الحور وجمال المحبوب في نظره متنوع لم تستوفِ الأعين

غاياته، ولم تحط به برغم تنوع النظرات، ويتحسر على ثغر المحبوب الذي بات في حماية غيور يقظان رابط الجأش مقدم، طلق اللهو بلا رجعة، فلا لهو أيامه الخوالي يعود، ولا نعيم ليلاليه ينتظر، ولا اختلاس لتحية منه، فكل هذه أمور قد انقضت، كل هذه أمنيات وذكريات زالت بلا عودة، إلا أن الغرام يعود مع الذكريات .. وفي رأيي أن هذا الغزل غزل مصطنع لأن الحال التي كان عليها شاعرنا كانت من السوء بمكان، بحيث لا يداعب خياله إلا أمنية واحدة، وهي أن يخرج من سجنه، وأن تعاد إليه حريته .. ولا يستبعد أن تكون هذه هي الحقيقة ولقد استغرق الشاعر في هذه المقدمة الغزلية أربعة عشر بيتاً من القصيدة، وقد أراد أن يتخذ منها مدخلاً إلى الحديث عما هو فيه من محنة .

ثانياً : أعقب الشاعر مقدمته الغزلية بحديث مستفيض شرح فيه حالته وبين أن سوء حالته لا يخفى على ذي عينين، فبرغم أنه مازال في سن الشباب إلا أن الشيب قد غلب على عارضيه ببياضه، وذلك قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، وعهد الصبا قريب، وغصن الشباب مستقيم غير مكسور، والسر في ذلك كله لوعة تتأجج في صدره، فتقدح نار الأسى والحزن، مما طير الشيب في رأسه قبل أوانه .. ثم يلتفت إلى الشامتين به الذين ارتاحت خواطره بما أصابه، فيقول : لا يهتئ هؤلاء الشامتين أني معني، متعب الأماني، ضائع المنزلة، فالرياح هل تعصف بنبات الأرض الصغير؟ طبعاً : لا، والكسوف لا يكون لغير الشمس والقمر .. فهذا تشبيه ضمني شبه فيه شائتيه بالنبت الصغير لا تهتم به الرياح العاصفة، وصور نفسه في منزلة الشمس والقمر لا بد أن يتعرضا للأحداث الغريبة، وما حدث له فعلاً أمر غريب سرعان ما سيزول، ولا عجب إن طال في السجن إيداعه، إذ يودع السيف القاطع غمده، ومع هذا لا يفقد قيمته، ولا شيئاً من محاسنه .. وإن شغل القدر أبا الحزم عن النظر في أمري، وكشف ضري، فلا لوم عليه ولا على القدر، ولكن الذي يثير الأسى والأسف عندي أن معيني، وسندي (أبا الحزم) يحملني تبعة ذنوب وخطايا لم أرتكبها، بل اقترفها غيري، وحوسبت وعوقبت أنا عليها .

ثالثاً : اتخذ الشاعر من حديثه عن حاله مدخلاً لمدح أبي الحزم بن جهور واستعطافه، واستلانة فؤاده .. فقال :

برغم إعراض ممدوحني عني إلا أنني لم أزل واثقاً من ترقُّقه بي ، كما أنني لم أبتُ على حذر من تجنيه عليّ، لمعرفتي بجميل سماته، وعظيم صفاته، فهو صاحب خلق سهل إذ هيج غضبه، و معشرٍ حلو، ومن اليسير استعتابه، وإقناعه، وسرعان ما يقتنع وينقاد، ومرآه جميل لكل ناظر إليه مختبر لمحاسنه، فنسقه واحد، وشرفه تليد، وعظمته وسيادته أمر بين واضح، كما أنه حريص على تذليل كل تصرف جائر عليه، يتغلب على الصعاب بما تميّز به من عزة النفس هو ورهطه وأهله كما أنه وزير سلام، أبعد حظه الميمون عن شؤم الحرب، ورأيه ثاقب ويتسم ببعد النظر، ووجهة نظره في كل أمر قاطعة فاصلة ثابتة .

وراح الشاعر يسوق الصفات الحسنة واحدة تلو الأخرى عبر أبيات المدح فيصف ممدوحه أيضاً بأنه صاحب تجارب وخبرة ،وسريع البديهة يقظ يحرص على السهر على رعيته لكي ينام الناس في أمن ودعة، وقد أبعد الله عنه مصائب الدهر، فاستقرت أمور مملكته، وأمن سرب القطاع على نفسه فاستقر هادئاً لا يفزعه أحد، وقد عمّت الخيرات في عهده، فخرج النبات من الأرض الجلد، ونبع الماء من الحجر، وهذا من علامات رضا الله عليه لعدله وجوده .

ثم يتحسر الشاعر على حالته، فيقول : كنت أحسبني قرين النجم في عليائه، فمالى أصبحت في التراب منحطاً ؟ ! إنّ هذا أمر مثير للعجب والدهشة لأنني صاحب أدب بارز ظاهر حسنه، وجماله يحتذى به، وجمال وشيه يدعو إلى جعله وسيلة وسبباً للوداد والقرب إن لم يكن نسباً لهذا الوداد الصافي الذي لا يعتريه كدر .. ويفخر الشاعر بأدبه في هذا المقام فخراً ظاهراً، وكأنه أراد أن يذكر ممدوحه بمكانته .. مؤكداً على أن أدبه يدون في الصفحات، ولا تختفي رائحته إلا كما تختفي رائحة المسك مع هبوب الرياح حينما تحملها إلى بعيد، كما أن أدبه تختال به الصحف ، كما تختال الكاعب الحسناء زهواً بثوبها

ثم يتوجه بالحديث إلى ممدوحه منادياً إياه بقوله : يا بهجة الدهر حيّاً، وزينة الآثار والسير بعد موته أذكرك بأن لي سابقة تجدد أملِي في الاعتماد عليك، وفي قلبي لك

حبٌ يفوق حرارة الهجر، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا صرّفت همومي عن السعي إلى الهمم العالية؟، ولماذا حاد بي مطلبي عن وجهة الفوز والظفر؟ هل من سبيل إلى رضاك غير سبيل اللوم الذي يؤلمني ويعكر صفوي .. ؟ فإن أسفرت لي عن رضاك أوجه البشريات فإنني لا أنسى شكرك، وسأظل وفياً دائماً الوفاء لك .

ولي رجاء ألا تلهو عني بشي، فأنا لم أسألك أمراً معقداً مستحيل التحقيق، كأن أطلب أن تردّ لي شبابي بعد التقدم في السن، كما أتمنى أن تجعل حظي وفيراً من نصحك وتوجيهك، فكلاهما أمر نفيس لا يعار ولا يوهب لأحد .

ثم يعتذر عن خطيئته .. فيقول : هبني جهلت الأمور فحوّلت الغالي النفيس الثمين بخساً، وقلبت الحسنه سيئة، فعذري أنني بشر أصيب وأخطئ، وأنت بالإغضاء وكف النظر عن المساوئ تبدو عليك السيادة لابسة ثياب البهاء، فبهاء الحسن وسحر الجمال في غض البصر، ولك أمر الشفاعة فيّ أولاً وأخيراً، فلا تمل بأعنتها عني أبداً وأقبل عذري .. ثم يدعوه أخيراً بالسعادة في الدارين في دار الدنيا والآخرة .

ولقد جاء في قلائد العقيان ^(١) : ولما عضته أنياب الاعتقال، ورضته تلك النوائب الثقال، وعوض بخشانة العيش من اللين، وكابد قسوة خطب لاتلين، تذكر عيشه الرقيق ومراحه بين الرصافة والعقيق، وحنّ إلى سعد زرت عليه جيوبه، واستهدى نسيم عيش طاب له هبوه، وتأسى بمن باتت له النوائب بالمرصاد، ورمته بسهام ذات اقتصاد، فقال يمدح أبا الحزم بن جهور ويشكو ما هو فيه : ^(٢)

- | | |
|---|---|
| والمُنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ | ١- الْهُوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ التُّجُومِ |
| لَوْ يَدُومُ السُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ | ٢- سَرْنَا عَيْشَنَا الرِّقِيقُ الْحَوَاشِي، |
| زَمَنٌ مَادِمَاهُ بِالذَّمِّ مِيمِ | ٣- وَطَرٌ، مَا انْقَضَى إِلَيَّ أَنْ تَقْضَى |
| وَمِزَاجُ الْوَصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ | ٤- إِذْ خَتَمَ الرِّضَا الْمُسْوُغَ مِنْكَ، |
| سُوءَ نَشْوَانٍ مِنْ سُلَافِ النِّعِيمِ | ٥- وَغَرِيضُ الدَّلَالِ، غَضُّ جَنَى الصَّبِّ |

(١) قلائد العقبان للفتح بن خاقان طبعة بولاق الدكرور سنة ١٢٨٣ هـ ص ٧٧ .

(٢) ديوان ابن زيدون ت محمد سيد كيلاني ص ١٨ ، وتحقيق حنا الفاخوري ص ٥٤ ، وشرح د. يوسف فرحات ص ٢٨٠ .

٦- طَالَ مَا نَافَرَ الْهُوَى مِنْهُ غُرٌّ
 ٧- زَارَ مُسْتَخْفِيًا ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يَخَ
 ٨- فَوَشَى الْحَلِيَّ إِذْ مَشَى ، وَهَفَا الطَّيْبُ
 ٩- أَيُّهَا الْمُؤَذِّنِي بَظْلَمِ اللَّيَالِي ،
 ١٠- قَمَرُ الْأَفْقِ إِنْ تَأَمَّلْتَ وَالشَّمْسُ
 ١١- وَهُوَ الدَّهْرُ ، لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْحُو
 ١٢- بَوَّأَ اللَّهُ جَهْورًا شَرَفَ السُّؤْ
 ١٣- وَاحِدٌ ، سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأُمُ
 ١٤- قَلَدَ الْغُمُرُ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ ،
 ١٥- خَطَرٌ يَقْتَضِي الْكَمَالَ بِنُوعِي
 ١٦- أَيُّهَا إِذَا الْوَزِيرُ ، هَا أَنَا أَشْكُو ،
 ١٧- مَا عَنَّا أَنْ يَأْنِفَ السَّابِقُ الْمُرُ
 ١٨- وَبَقَاءُ الْحُسَامِ فِي الْجَفْنِ يَثْنِي
 ١٩- أَفْصِرُ مِثْنَيْنِ خَمْسًا مِنَ الْأَيِّ
 ٢٠- وَمُعْنَى مِنَ الضُّبْنَى بَهَنَاتُ ،
 ٢١- سَقَمُ ، لَا أَعَادُ فِيهِ ، وَفِي الْعَا
 ٢٢- نَارُ بَغْيٍ سَرَى إِلَى جَنَّةِ الْأُمُ
 ٢٣- بِأَبِي أَنْتَ ، إِنْ تَشَأْ تَكُ بَرْدًا
 ٢٤- لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءِ ، وَالْحَمْدُ فِي صَوِّ
 ٢٥- وَزَعِيمٍ بِأَنْ يَذَلَّ لِي الصَّعْدُ
 ٢٦- أَمَلٌ ، يُرْغَمُ الْحَفَاءُ إِلَيْهِ ،
 ٢٧- وَوَدَادٌ ، يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَاءَ وَيَبْ

لَمْ يَطُلْ عَهْدُ جَيْدِهِ بِالْتَّمِيمِ
 ففى سُرَى الْبَدْرِ فِي الظَّلَامِ الْبَهِيمِ
 سَبُّ إِلَى حَسٍّ كَاشِحٍ بِالنَّمِيمِ
 لَيْسَ يَوْمِي بِوَاحِدٍ مِنْ ظُلُومِ
 سِ ، هُمَا يَكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ
 بِالْمُصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوِ الْعَظِيمِ
 دَدَفِي السُّرُ وَاللُّبَابِ الصَّمِيمِ
 رَ ، فَكَانَ الْخُصُوصُ وَفَقِ الْعُمُومِ
 وَكَتَفَى جَاهِلٌ يَعْلَمُ الْعِلْمِ
 خُلِقَ بَارِعٌ ، وَخُلِقَ وَسِيمِ
 وَالْعَصَا بَدَأَ قَرَعَهَا لِلْحَلِيمِ
 بَطُ فِي الْعِشْقِ مِنْهُ وَالْتَطْهِيمِ
 مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالصَّمِيمِ
 سَامٌ ، نَاهِيكَ مِنْ عَزَابِ أَلِيمِ
 نَكَاتٌ بِالْكُلُومِ قَرَحَ الْكُلُومِ
 ثَدِ أَنْسٌ ، يَفِي بِيَرِّ السَّقِيمِ
 نِنْ لَطَاها ، فَأَصْبَحَتْ كَالنَّصْرِيمِ
 وَسَلَامًا كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ
 بِ الْحَيَا لِلرِّيَّاحِ لَا لِلْغُيُومِ
 سَبُّ مَثَابِي إِلَى الْهَمَامِ الزَّعِيمِ
 وَهُوَ ثَبَتَ الْمَقَامِ مَاضِي الْعَزِيمِ
 قَفَى بِقَاءِ عَهْدِ الْكَرِيمِ

- ٢٨- وثَنَاءٌ ، أُرْسِلَتْهُ سَلَوَةُ الظَّاعِنِ
 ٢٩- فَهُوَ رِيحَانَةُ الْجَلِيسِ ، وَلَا فَخْرَ ،
 ٣٠- لَمْ يَزَلْ مُغْضِيًّا عَلَى هَفْوِهِ الْجَانِي ،
 ٣١- وَمَتَّى يَبْدَأُ الصَّنِيعَةَ يُولَعُكَ
 عَنْ شَوْقِهِ ، وَلَهُوَ الْمَقِيمِ
 وَفِيهِ مَزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ
 مُصَيِّخًا إِلَى اعْتِدَارِ الْكَرِيمِ
 تَمَامَ الْخِصَالِ بِالسَّتِيمِ

الشرح والتحليل:

استهل الشاعر تلك القصيدة بمقدمة تحدث فيها عن الأيام السعيدة التي انقضت وولت وبانقضاء زمن غير مدموم، فأخر أيام العيش السعيد الهنيء مسك، ومزاجه من رحيق الجنة ومائها العذب، وجنى الشوق دلال طري ناعم ناضر سكران من خمرة النعيم، وطالما زاحم الحب فيه غمراً لا عهد له بتجارب الحياة، ولم يمض على نزع التميمة من عنقه وقت طويل، ولم ينس الشاعر أن يشير إلى زيارة الحب له تحت جنح الظلام مستخفياً، ولكن كيف يخفي البدر، ولقد وشت به حليته، وطيب رائحته .. فأوغر بزيارته قلب الحاقد الذي يضرع العدو .. ويخاطب الحب معاتباً على أنه قد أذن بظلم الليالي له، وهو الذي لم يسمح يوماً بظلمه .. ويتمنى ألا يتأثر بفطرة سجنه فالكسوف للشمس والقمر دون سائر النجوم والكواكب، والدهر يخص بمصائبه كل عظيم من الناس، ولا يأبه بالحقير منهم .. وهذه المقدمة تبدو فيها نبرات الأسى على الأيام الخوالي .. أيام السعادة والنعيم وتظهر فيها نغمات العتاب للمحب المنصرف عنه، وقد اتخذ الشاعر من ذلك مدخلاً إلى مدح أبي الحزم بن جهور وبشه شكواه وقد نعتة بصفات جليلة فهو صاحب الشرف والسيادة والرفعة والمروءة كما إنه خبير بكل الأمور، بل مصدر خبرة لمن يريد أن يكتسب الخبرة، وعالم يكتسب منه الجاهل العلم، وشرفه عالٍ متكامل الجوانب فقد جمع بين جمال الخلق وجمال الخلقة.

وينتقل من هذا المدح إلى الشكوى .. « أيها الوزير ! ها أنا أشكو، وشكواي تنبيه للحليم كي يستدرك ما كاد أن يقع فيه من الخطأ »، ويدفع عن نفسه الخطأ بقوله :
 إن الجواد مهما تمرّد فإن تمرّده لا يقلل من أصالته وتمام حسنه، ولكن بقاء السيف في

غمده يمنعه من القطع والإجابة ، فليتك تخرج هذا السيف من غمده ... والشاعر يعني بذلك نفسه .. ويشير ابن زيدون إلى المدة التي مرت عليه في سجنه وهي خمسمائة يوم ويتعجب من طول هذه المدة عن طريق الاستفهام التعجبي بقوله : أفصبر مئين خمساً من الأيام ؟! بمعنى أطلب مني الصبر بعد هذه المدة ، فضلاً عما تخللها من ألوان العذاب الأليم، والمعاناة الشديدة، وكثير من الهنات التي أصابت بالجروح جروحاً قديمة، وما أصابني من مرضٍ لم يعدني فيه أحد، وفي زيارتي مؤانسة لي، وتخفيف عني، وهي مما يساعد على شفائي، ولكن نار البغي والظلم مشت إليّ فحولت جنّتي إلى ليل مظلم، وأحرقت سعادتي.

ثم يُفدّي أبا الحزم بأبيه وأمه متمنيا أن يكونَ برداً وسلاماً عليه كمنار إبراهيم .. قال تعالى ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١) وللشفيع الشكر على شفاعته، كما أن الثناء في نزول المطر للرياح وليس للغيوم، وكفيل بتذليل صعابي شكري للملك الهمام الزعيم، وودادي له يبقى دائماً مهما غير الدهر الناس والأشياء، وثنائي أرسله إليه سلوة للراحل، ولهواً للمقيم، ويعود الشاعر إلى المدح مرة أخرى فيصف الممدوح بأنه ريحانة المجالس، ففيه رائحة الجليس الطيب ولا فخر في ذلك، وفيه رحيق كأس النديم يحسه تماماً ويدركه، ومن سماته أنه حلیم يغض الطرف دائماً عن هفوة الجاني، ويصغي أبداً إلى اعتذار الكريم، ومتى يبدأ بالإحسان يتمه حتى النهاية ، ويطمعلك في هذا الإتمام بجميل صفاته ومحاسنه .

ومّا عاتب به الشاعر أبا الحزم بن جهور قوله : (٢)

بَنِي جَهْـوَرٍ ؟ أَحْرَقْتُمْ بِجَفَائِكُمْ جَنَانِي وَلَكِنَّ الْمَـدَائِحَ تَعْبُقُ
تَعْدُونَنِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ، إِنَّمَا تَطِيبُ لَكُمْ أَنْفَاسَهُ حِينَ يَحْرَقُ !!

ومعنى البيت : يا بني جهور أحرقتم بجفائكم قلبي، وبرغم ذلك فإنّ المدائح التي أمدحكم بها تعبق بالروائح العطرة، وكأنكم تعتبروني كالعنبر، لا تطيب لكم رائحته إلا

(١) سورة الأنبياء الآية (٦٩)

(٢) ديوان ابن زيدون : ت محمد سيد كيلاني ص ٦٠ ، وتحقيق حنا الفاخوري ص ٥٩ .

حين يحرق ...

ومن عتابه أيضاً لأبي الحزم بن جهور وهو في سجنه قوله : (١)
قُلْ لِلزَّوْزِرِ وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدْحِهِ زَمِنِي، فَكُنَّ السَّجْنُ مِنْهُ ثَوَابِي :
لَا تَخْشُ فِي حَقِّي بِمَا أَمْضِيَتْهُ مِنْ ذَاكَ فِيَّ، وَلَا تَوَقَّ عِتَابِي
لَمْ تَخْطِ فِي أَمْرِي الصَّوَابَ مُوقِّفًا هَذَا جَزَاءُ الشَّاعِرِ الْكَذَّابِ
ومعنى هذه الأبيات الثلاثة كما يلي :

الأبيات رسالة عتاب بعث بها الشاعر إلى أبي الحزم، ويقول مخاطباً حامل تلك الرسالة : قل للوزير الذي عشت حياتي مادحاً له، متفرغاً لمدحه، فكان جزائي منه هو السجن « لا تخش لوماً على ما أَمْضِيَتْهُ في حقي، ولا تتجنب عتابي، فأنت لم تخطئ في حقي، بل أصبت كبد الحقيقة ووقفت كل التوفيق، وما حل بي من جزاء إنما هو جزاء الشاعر الكذاب » ... وهو بالشرط الأخير (هذا جزاء الشاعر الكذاب) ينقض كل ما سبق ذلك من مدائح مدح بها أبا الحزم بن جهور .

ومن الجدير بالذكر أن ابن زيدون لم يترك باباً من أبواب الشكوى والاستعطاف إلا وطرقه لعله يظفر من خلال ذلك بشفاعة نافعة، أو بوساطة مجدية، أو صلة مشمرة، ولذا لم تقتصر قصائده التي جادت بها قريحته على مخاطبته أبا الحزم بن جهور، بل خاطب أصدقاءه من الوزراء، والعلماء، ومن ذلك ما كتب به من سجنه بعد أن (٢) فقد الوفاء من آلافه يخاطب به أبا حفص بن برد، وقد حار ولم يجد هادياً، وصار رهيناً لا يرجو فادياً، وعلم أن الناس متقلبون، وعلى من انقلب الدهر ينقلبون لا يدينهم في الشدة إثناء، ولا يثنى عليهم عن ذوي الحظوة زهو ولا انتحاء* وفي ذلك يقول : (٣)

١- مَا عَلَى ظَنِّي بِإِسْ يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَاسُورُ
٢- رُبَّمَا أَشْرَفَ بِالْمَرِّ عِ عَلَى الْآ مَالِ يَبْسُ

(١) ديوان ابن زيدون : ت محمد سيد كيلاني ص ٦٠ ، وتحقيق حنا الفاخوري ص ٥٩ .

(٢) فلائذ العقبان للفتح بن خاقان ص ٧٧ * انتحاء : تعظم وتكبر .

(٣) ديوان ابن زيدون تحقيق محمد سيد كيلاني ص ٦٥ ، وتحقيق حنا الفاخوري ص ١٤٦ ، وشرح د. يوسف فرحات ص ١٣٨ .

٣- وَلَقَدْ يُنَجِّيكَ إِغْفَا

٤- وَالْمَحَادِيرُ سِهَامٌ،

٥- وَلَكُمْ أَجْدَى قُعُودٌ،

٦- وَكَذَا الْوَدَّهْرُ، إِذَا مَا

٧- وَبَنُو الْأَيَّامِ أَخِيَا

٨- نَلْبَسُ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ

٩- يَا أَبَا حَافِصٍ، وَمَا سَا

١٠- مِنْ سَنَارِ أَيْكَ لِي فِي

١١- وَوَدَادِي لَكَ نَصٌّ،

١٢- أَنَا حَيْرَانٌ، وَلِلْـ

١٣- مَاتَرَى فَمَنْ مَعْرِحَا

١٤- وَرَأَوْنِي سَامِرِيَا

١٥- أَذُوبُ هَامَتُ بِلَحْمِي،

١٦- كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا

١٧- إِنْ قَسَا الدَّهْرُ فَلِلْمَا

١٨- وَلَكِنْ أَمْسَيْتُ مَحْبُوبُ

١٩- يَلْبَدُ الْوَرْدُ السَّبْتِي

لِ، وَيُرْدِيكَ أَحْسِرَاسُ

وَالْمَقَادِيرُ قِيَّاسُ

وَلَكُمْ أَكْثَرُ التَّمِيسِ

عَزَّ نَاسٌ ذَلَّ نَاسُ

ف: سَرَاةٌ وَخَسَاسُ

مُتَعَمِّدٌ ذَاكَ اللَّبَاسُ

وَالْكَافِي فَهُمْ إِيَّاسُ

غَسَقَ الْخَطْبُ أَقْبَاسُ

لَمْ يَخَالِفْهُ قِيَّاسُ

أَمْرٌ وَضُوحٌ وَالسُّتَاسُ

لَوْ عَنِ الْعَهْدِ وَخَاسُوا؟

يَتَّقِي مِنْهُ الْمُسَاسُ

فَانْتِهَاشٌ وَانْتِهَاسُ

لِي، وَلِلذُّبِ اعْتِسَاسُ

عَمِنَ الصَّخْرِ انْبِجَاسُ

سَلَا فَلِلْغَيْثِ احْتِبَاسُ

وَلَهُ بَعْدُ أَفْسَاسُ

- ٢٠- فَتَأْمَلُ كَيْفَ يَغْشَى مُقَلَّةَ الْمَجْدِ الْفُتَى
٢١- وَيَفْتُ الْمِسْكُ فِي السُّرَى ب، فَيُوطِئُ الْوَدَى
٢٢- لَا يَكُنْ عَنْهُ نَدَى وَرْدَا إِنَّ عَنْهُ يَدِي لَكَ آسُ
٢٣- وَأَدِرْ ذِكْرِي كَأَسَى مَا أَمْتَطَتْ كَفَّكَ كَأَسُ
٢٤- وَاعْتَنِمَ صَفْوَ اللَّيَالِي، إِنَّمَا الْعَيْشُ اخْتِلَاسُ
٢٥- وَعَسَى أَنْ يَسْمَحَ الْوَدَى هُمْرُ، فَقَدْ طَالَ الشَّمْسُ

شرح وتحليل القصيدة :

إنَّ هذه النفثة التي أرسلها ابن زيدون من سجنه نفثة مصدور ، وصرخة ملكوم يحس أن طاعنيه هم أناس أخلص لهم، وأحسن معاملتهم فانقلبوا عليه ، وقابلوا الإحسان بالإساءة ، كما أن القصيدة تكشف عن حالة انعدام الوزن التي هوى إليها شاعرنا بسبب ما حلَّ به وما ابتلي بوقوعه، فهو يتأرجح بين اليأس وبصيص من الأمل، كما يتأرجح بين الاستسلام والاستكانة، والإصرار على علو مكانته والحرص على استعادتها رغم كيد الكائدين .

ولذلك نراه قد قسم قصيدته إلى أقسام أربعة .. فلقد افتتح قصيدته بمعاني التسليم بما قدَّر عليه، والرضا بما نزل به، وأسلم زمام قياده للدهر يجرحه ويأسو لجراحه، يمنحه ويحرمه، ويرى أنه لا داعي للإغراق في التفكير في مجريات الأحداث، وترقب النتائج فربما ولد الأمل من رحم اليأس، وبلغ الإنسان ما يأمله من حيث لا يدرى، وربما ينجو الغافل غير الحريص، ويصيب الردى اليقظ المحترس، والمقادير قد تأتي بالمحاذير، فالمحاذير سهام و المقادير أقواس تطلق تلك السهام، وكثيراً ما فاز القاعد عن السعي بما يبتغي

ويتمني، وأخفق الساعي الدؤوب السعي، والجاد في تحصيل مبتغاه في سعيه، وعاد بخفي حنين ولا داعي للتألم بما يحدث الدهر، فالحياة دول بين الناس، ولا بد فيها من فئة عزيزة وأخرى ذليلة، وقد يتبادل أهل كل فئة المواقع مع أهل الفئة الأخرى فمن كان اليوم عزيزاً ربما صار في الغد ذليلاً، وربما صار الغني صاحب السيادة والرفعة فقيراً محتاجاً ذريّ الهیئة، وصار الفقير غنياً من سراة القوم، فالدنیا متاع لا يدوم، وزينة لا تستمر.

ثم ينتقل بعد هذه المقدمة التي استغرقت ثمانية أبيات من قصيدته إلى صديقه أبي حفص بن برد ذي الحجا والألمعية الذي يفوق إياس بن معاوية في ذكائه، وهو مضرب المثل في الذكاء وسرعة البديهة، ولذلك يتوجه إليه سائلاً إياه المشورة، لكي يستنير برأيه، ويسترشد بتوجيهاته في خطبه المدلهم، ويؤكد له أنه يصدقه الود، وأن وداده له أمر قاطع لاخلاف عليه، ويعرض عليه قضيته التي حيرته، بل وأذهلته، حتى أصبح لا يهتدي إلى طريق الخلاص، ويسأله الرأي في أناسٍ تحولوا عن العهد، وخانوه ونكثوا فيه، ولذلك خانوا قضيته، وتنكروا له، وهو بذلك يعرض بأبي الحزم بن جهور وحاشيته هؤلاء الذين أصبحوا يتحاشونه، وكأنه موسى السامري الذي ابتدع عبادة العجل وصور لبني إسرائيل أن هذا إلههم وإله موسى، فعاقبه الله تعالى بتحريم مخالطة الناس له، فصار منبوذاً يجتنبه الناس، بل تحول كثير من الناس في علاقاتهم بابن زيدون كما يقول إلى ذئاب ضارية تظهر له الود، وتنهش لحمه بلا هوادة، فهم منافقون يظهرون وده، ويبتغون له الحقد والكراهية، ويسعون إلى مزيد من الإيذاء له.

ولم ينتظر ابن زيدون رأي صاحبه أبي حفص بن برد، بل راح يخفف عن نفسه، ويدعم آماله في الخلاص من محنته، والخروج من سجنه، ويحسب أن قسوة الدهر عليه أمر مؤقت، ولا غرابة في ذلك فللماء من الصخر انبجاس، ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾^(١) ويهون الشاعر من أمر حبسه، وهو على يقين من مجيء الفرج بعد الضيق، والنور بعد الظلام، ويشير إلى قيمته

(١) سورة البقرة الآية (٧٤).

ومكانته فيصور نفسه من خلال التشبيه الضمني بالغيث يحبس خلف السُدود لوقت الحاجة إليه ، وبالأسد الشجاع الذي يلزم الأرض حيناً ، وإذا هاجم كان هجومه عنيفاً ، فسكون الأسد استعداد للوثوب ، وليس ضعفاً ولا خنوعاً ، كما يصور نفسه مقلة يغشاها النعاس لفترة تعقبها اليقظة ، ومسكاً يوطأ في التراب ويداس وقتاً ولكن سرعان ما ينم عن نفسه ، وتظهر قيمته .

ثم يناشد الشاعر صديقه أن يدوم على وده ، وأن يتذكره دائماً ، ولا يفرط في اغتنام الفرص المواتية ، ولا يضيعها ، فالعيش اختلاس أي : سلب وفرصة ، ويرجو أخيراً أن يوجد عليه الدهر بعد بخل ، وأن يلين بعد شدة وصلابة ، ويقبل عليه بعد إدبار ، فقد طال زمن الاستعصاء ، ولذلك يرجو ابن زيدون أن يسمح الدهر بالحرية ولقاء الأحاب والأصحاب ، وينعمة الحياة الحرة الكريمة ، وكفاه استعصاءً وامتناعاً .

وهكذا جاءت معاني القصيدة وأفكارها وألفاظها متضافرة متعاونة على أمر واحد هو ما اعترى حياة ابن زيدون من تناقض عجيب كان أثراً من آثار محنته ، فهو متقلب بين اليأس والأمل ، نافر من الأصحاب الذين تنكروا له وتحاشوه ، يطلب النصيح والمشورة ، ويقف موقف الناصح المشير ، يستعطف ويفخر بنفسه ، ويزهو بمكانته وقيمته ، وهكذا حال من أصابه الدهر في مقتل كان يأمن جانبه نراه في حالة من الاضطراب وعدم الاتزان .

ولم يتوقف ابن زيدون عن مخاطبة كل من يتوسم فيه القدرة على أن يشفع فيه ، ويقنع ابن جهور بالعفو عنه ، ولذا نراه قد خاطب صديقه أبا حفص بن برد بالقصيدة السينية التي عرضناها ، كما توجه إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أفلح برسالة أدبية ضافية أعقبها بقصيدة مطولة ، وذلك عقب فراره من سجنه الذي قضى فيه نحو خمسمائة يوم ، حيث أقام متوارياً متخفياً في قرطبة ، وكان ذلك بمساعدة من صديقه أبي الوليد محمد بن أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور يقول صاحب قلائد العقيان : « وله عند فراره وخروجه من ساراه ، وقد أقام بقرطبة متوارياً يخاطب ولأدة ، ويستنهض الأديب أبا بكر للشفاعة ، ويستنزل أبا الحزم بن جهور »^(١) وفي قصيدته التي أرسل بها إلى أستاذه

(١) قلائد العقيان لفتح بن خاقان ص ٧٩ .

من مكمنه يقول: (١)

وَشَطَطٌ بِمَنْ نَهَوَى الْمَزَارَ، وَمَا شَطُّوا
حَوَادِثُ، لَا عَقْدٌ عَلَيْهَا، وَلَا شَرَطٌ
بِشَتْ جَمِيعَ الشُّمْلِ مَنَا، لِمُشْتَطُّ
زِيَارَتِهِ غَيْبٌ، وَالْمَامَهُ فَرَطٌ
إِلَى نُطْفَةِ زَرْقَاءَ أَضْمَرَهَا وَقَطٌ
أَدِيرُ الْمُنَى عَنْهُ الْقَسَادَةُ وَالْخَرَطُ
نَوَاحِي ضَمِيرِي، لَا الْكَثِيبُ وَلَا السَّقَطُ
مَتَى ضَاقَ ذَرْعاً بِالَّذِي حَازَهُ الْمَرَطُ
هَوَى خَفَقاً مِنْهُ بِحَيْثُ هَوَى الْقَرَطُ
فَمَنْ زَفَرْتِي شَكْلٌ، وَمَنْ عَبَرْتِي نَقَطُ
فَرِيسَةٍ مِنْ يَعْدُو، وَنَهْزَةٍ مِنْ يَسْطُو؟
تَخُونُهُ شَكْلٌ، وَأَزْرَى بِهِ رِبْطُ
وَمَاذِمٌّ مِنْ غَرِيبَةٍ قَسَدٌ وَلَا قَطُ
لَهَا الْخَطَرُ الْعَالِي، وَإِنْ نَالَهَا حَطُ
وَرَهْطِي فَذَا، حِينَ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطُ
عَلِيٍّ، وَلَا جَحْدٌ لَدَيَّ وَلَا غَمَطُ
فَيَنْتَهَبُ الظَّلْمَاءَ مِنْ نَارِهَا سَقَطُ
فَمَنْ خَاطَرِي نَثْرٌ، وَمَنْ رَوْضِهِ لَقَطُ
وَكَائِنٌ لِشَيْبِ الْهَمِّ فِي كِبْدِي وَخَطُ
مِنِ الرُّوْضَةِ الْغَنَاءِ طَاوَلَهَا الْقَحَطُ

١- شَحَطْنَا، وَمَا لِلدَّارِ نَأْيٌ، وَلَا شَحَطُ
٢- أَحْبَابِنَا، أَلَوْتُ بِحَوَادِثِ عَهْدِنَا
٣- لَعَمْرُكُمْ إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي قَضَى
٤- وَأَمَّا الْكَرَى، مَذَلَّمَ أَرْزُكُمْ، فَهَاجِرٌ،
٥- وَمَا شَوْقٌ مَقْتُولِ الْجَوَانِحِ بِالْصَّدَى
٦- بِأَبْرَحَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكُمْ، وَدُونَ مَا
٧- وَفِي الرَّبِّبِ الْإِنْسِيِّ أَحْوَى كُنَاسِهِ
٨- غَرِيبَ فَنُونَ الْحَسَنِ، يَرْتَاحُ دَرْعَهُ
٩- كَأَنَّ فُؤَادِي، يَوْمَ أَهْوَى مُودِعاً،
١٠- إِذَا مَا كَتَابُ الْوَجْدِ أَشْكَلَ سَطْرَهُ
١١- أَلَا هَلْ أَتَى الْفَتَيَانَ أَنَّ فَتَاهُمْ
١٢- وَأَنَّ الْجَوَادَ الْفَائِتَ الشَّائِضَ صَافِنٌ،
١٣- وَأَنَّ الْحَسَامَ الْعَضْبَ ثَاوٍ بِجَفْنِهِ،
١٤- عَلَيْنِكَ أَبَا بَكْرٍ بَكَرْتُ، بِهَمَّةٍ
١٥- أَبِي، بَعْدَ مَا هِيلَ التُّرَابُ عَلَى أَبِي،
١٦- لَكَ النُّعْمَةُ الْخَضِرَاءُ تَنْدَى ظِلَالُهَا
١٧- وَلَوْلَاكَ لَمْ تَنْقُبْ زِنَادَ قَرِيبِحَتِي
١٨- وَلَا أَلْفَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ بَدَائِعِي،
١٩- هَرَمْتُ وَمَا لِلشَّيْبِ وَخَطٌ بِمُفَرَّقِي
٢٠- وَطَاوَلَ سُوءَ الْحَالِ نَفْسِي فَأَذْكَرْتُ

(١) ديوان ابن زيدون : ت محمد سيد كيلاني ص ٦١ ، وتحقيق حنا الفاخوري ص ٦٠ وشرح د. يوسف

٢١- مَثُونٍ مِنَ الْأَيَّامِ خَمْسٌ قَطَعَتْهَا
 ٢٢- أَتَتْ بِي، كَمَا مَيِّصَ الْإِنَاءِ مِنَ الْأَذَى
 ٢٣- أَتَدْنُو قُطُوفَ الْجَنَّتَيْنِ لِمَعْشَرٍ،
 ٢٤- وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنْ تَغْرِنِي الْمُنَى،
 ٢٥- أَمَا وَأَرْتَنِي النِّجْمُ مَوْطِئَ أَخْمَصِي،
 ٢٦- وَمُسْتَبْطَأَ الْعُتْبَى، إِذَا قُلْتُ قَدْ أَنِّي
 ٢٧- وَمَا زَالَ يَدْنِيَنِي وَيَنَائِي قَبُولُهُ،
 ٢٨- وَنَظْمٌ ثَنَائِي، فِي نَظَامٍ وَلَآئِهِ،
 ٢٩- عَلَى خَصَرِهَا مِنْهُ وَشَاحٍ مَفْصَلٍ،
 ٣٠- عَدَا سَمْعَهُ عَنِّي، وَأَصْغَى إِلَى عَدَا،
 ٣١- بَلَغْتُ الْمَدَى إِذْ قَصَرُوا، فَقَلْبُوبُهُمْ
 ٣٢- يُولُونَنِي عَرْضَ الْكَرَاهَةِ وَالْقَلَى،
 ٣٣- وَقَدْ وَسَمُونِي بِالتِّي لَسْتُ أَهْلَهَا،
 ٣٤- فَرَرْتُ فَإِنْ قَالُوا الْفِرَارُ إِرَابَةٌ،
 ٣٥- وَإِنِّي لِرَاجٍ أَنْ تَعُودَ كَبَدْتُهَا
 ٣٦- وَحَلِمَ أَمْرِي تَعْفُو الذُّنُوبَ لِعَفْوِهِ،
 ٣٧- فَمَا لَكَ لَا تَخْتَصُّنِي بِشَفَاعَةٍ،
 ٣٨- يَفِي بِنَسِيمِ الْعَبِيرِ الْوَرْدَ نَفْحَهَا،
 ٣٩- فَإِنْ يَسْعَفِ الْمَوْلَى فَنَعْمَى هَنِيئَةً
 ٤٠- وَإِنْ يَأْبَ إِلَّا قَبْضَ مَبْسُوطٍ فَضْلُهُ،

أَسِيرًا وَإِنْ لَمْ يَدُ شَدُّ وَلَا قَمَطُ
 وَأَذْهَبَ مَا بِالثُّوبِ مِنْ دَرَنِ مَسْطُ
 وَغَايَتِي السُّدْرَ الْقَلِيلُ أَوْ الْخَمَطُ
 وَلَلْغَرِّ فِي الْعَشَوَاءِ مِنْ ظَنِّهِ خَبَطُ
 لَقَدْ أَوْطَأَتْ خَدِّي لِأَخْمَصٍ مِنْ يَخْطُو
 رِضَاهُ، تَمَادَى الْعُتْبُ وَاتَّصَلَ السُّخْطُ
 هَوَى سَرَفٍ مِنْهُ وَصَاغِيَةً فَرَطُ
 تَحَلَّتْ بِهِ الدُّنْيَا لَالَةً وَسَطُ،
 وَفِي رَأْسِهَا تَاجٌ، وَفِي جِيدِهَا سَمَطُ
 لَهُمْ فِي أَدِيمِي كُلَّمَا اسْتَمَكَّنُوا عَطُ
 مَكَامِنَ أَضْغَانٍ أَسَاوِدُهَا رُقْنَطُ
 وَمَادَهَرُهُمْ إِلَّا النَّفَّاسَةَ وَالْغَبَطُ
 وَلَمْ يُنَمِ أَمْثَالِي بِأَمْثَالِهَا قَطُ
 فَقَدْ فَرَّ مُوسَى حِينَ هَمَّ بِهِ الْقَبْطُ
 لِي الشَّيْئَةَ الزَّهْرَاءُ وَالْخَلْقُ السُّبْطُ
 وَتَمْحَى الْخَطَايَا مِثْلَ مَا مَحَى الْخَطُ
 يُلُوحُ عَلَى دَهْرِي لِمَيْسَمَهَا عِلْطُ
 إِذَا شَعِشَعَ الْمَسْكُ الْأَحْمُ بِهِ خَلْطُ
 تَنْفَسُ عَنْ نَفْسِ الْلَطِّ بِهَا ضَغْطُ
 فَفِي يَدِ مَوْلَى فَوْقَهُ الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ

الشرح والتحليل :

بدأ الشاعر حديثه إلي أستاذه بحديث عن البعاد والفراق للأهل والأحباب فقال :
ابتعدنا، وليست دار الأحباب بعيدة ، وبعد المزار بمن نحب ، وهم لم يبتعدوا .. فبرغم
قربنا من دار من نحب إلا أننا لا نستطيع زيارتهم، ثم يتوجه بالخطاب إلي أحبابه ، منادياً
إياهم نداء القريب قريباً قليلاً أكثر منه مكانياً (أأحبابنا) ذهبت بعهدنا الحديث حوادث
جائرة لا عهد لها باقي ولا شرط، وقضى الزمان لعمركم بتفريق شملنا بعد اجتماع ، وهو
زمان جائر ظالم، ومذ بعد المزار بيننا ، وانقطع لقاءكم بنا هجرنا النوم وخاصمنا، وقليلًا
ما يأتي إلينا، وإن شوقي إليكم لأشد من شوق الظمان الذي يشواق نقطة ماء احتفظت
بها حفرة صغيرة في صخرة ، وعذابي أشق من عذابه، وإبعاد الأمنيات أكثر عذاباً لي
من عذاب من ينزع شوك شجر القتاد وقشره بيده، وكيف لا أتعذب وبين الناس ظبي
صاحب شفاه حمراء ضارية قد حلّ في فؤادي ، فاتخذة مسكناً له، فبيته ومقره في
ضميري وفؤادي وليس بين كثران رمال الصحراء، وهذا الظبي الفتان سمات جماله
غريبة (غريب فنون الحسن) يختال بنفسه في مشيته حتى تظن أن خصاماً قد وقع بين
قميصه وإزاره، وكأن قلبي يوم ودّاعه قد هوى وخفق للقرط المتدلي فوق خدّه، وقد بدت
سطور كتاب الحب مختلطة شديدة الاختلاط، قد اتخذت أشكال الكلمات من زفراتي
والنقط الذي على حروفها من دموعي .

وبعد هذه المقدمة الغزلية الساخنة يتحسر على مآله، وما وصل إليه من حاله فيقول:
هل علم الشباب من المحبين والأصدقاء أن فتاهم وصاحبهم ، أصبح فريسة لمن يعدو،
وضحية لمن يعتدي، وصيداً سهلاً لمن يسطو، وأن الجواد السابق البعيد الغاية أضحي
رهين قيود أذلته وحقرت من شأنه، وأزرت بمكانته، وهل علموا أن السيف الصارم
القاطع بات رهين غمده، دون أن يذم من حدّيه القطع طولاً ولا عرضاً .. إن لم يكونوا
قد علموا فليعلموا ما آل إليه حالي .. .

وبعد أن كشف عن حالته المحزنة خصّ بالخطاب أستاذه قائلاً :

يا أبا بكر بادرتُ إليك بهمة لها شأن عالٍ، وقيمة كبيرة، وإن كان قد نالها حظٌ وإهانة في الوقت الحاضر، ومازلت أبيعاً عظيم الإباء بالرغم من خسارتي في أبي الذي هيل عليه التراب، كما أن قومي أفذاذ برغم أن أبناء قومي تفرّقوا، وخسارتي فيهم عظيمة، ويدعو لأستاذه فيقول : لك النعمة الخضراء .. أي الوفيرة حيث سيصيبني منها خيرٌ كثير، ولست ممن ينكر النعمة أو يجحدها .. وأقر لك بالفضل بعد الله، فلولاك لم تتفجّر مواهبي، ولم تظهر نار قريحتي، ولم أك شاعراً مرموقاً، ولم يبرز هذا الشعر إلى حلبة الوجود، ولا تلتق يد الربيع بدائعي وفنوني فمن ذهني أنثر البدائع وزهره يلتقطها.

وبعد هذه الدققة من الفخر بشاعريته الممتزجة بثنائه على أستاذه وعرفانه بفضله وجميله يعود إلى الشكوى، فيقول : إنه قد هرم دون أن يظهر الشيب في مفرقه، لأن الهم قد سكن كبده فشيبه وازداد حالي سوءاً فأضحت نفسي خربة كجنة غناء أصابها قحط شديد، وكيف لا يجتاحه القلق النفسي وقد مرّ عليه في سجنه مئون من الأيام خمس قطعها رهين قيوده وإن لم تؤثر في قيود ولكنها .. الحرية الضائعة، والأيام النكدة الصعبة التي فعلت به فعل اليد بالإناء تغسله وتنظفه، وبالثوب تبله وتعصره .. أي أن هذه الأيام قد عركته عركاً، وقلبتة على كل جانب ..

ومما يحزن الشاعر أن الشيء يعطى لمن لا يستحقه، فقطوف الجنّين اليانعة تعطى لأناس لا يستحقونها بينما هو محروم لا يناله منهما إلا السدر، والثمار المرة الطعم والحسك والشوك، ويقصد بالجنّتين جنتي الدنيا والآخرة، وكما قلت : البيت كناية عن أن الأمور أضحت بيد من لا يستحقها، وهذا حال لم يكن يتوقعه الشاعر وما كان يظن يوماً أن الأمانى ستفرّقه، ولكنها قلة الخبرة بالحياة ومفاراتها العجيبة، والذي لم يبل الحياة، ويجرب الأمور لا بد أن يخبط في الظلمة على غير هدًى ولا بصيرة، ومن مفارات الحياة أنها أرّنتي النجم موطئ قدمي، وها هي قد جعلت خدي موطئ من يخطو، وربّ مستبطني طلب الرضا مني حينما استرضيه يتمادى في لومي وتقرّيعي (يعني ذلك أبا الحزم) وما زال يقرّني شكلاً، ويبعد قبوله عني موضوعاً، فحبه لي حب فاسد وقد جاوز بتصرفه هذا معي حد الاعتدال، ويمدح الشاعر أبا الحزم برغم هذا

السلوك تجاهه، ويصفه بأنه زينة الدنيا به تحلّت وتزينت فهو فيها واسطة العقد أي أعظم جواهره وآلئه، ونظمي الذي أمدحه به زينة له، بل يصلح أن يكون زينة للدنيا بأسرها ، وبرغم ذلك صرف عني سمعه، وأعرض عني ولم يصغ إليّ، بينما أصغى بكل اهتمام إلى أعدائي الذين كلما تمكنوا منه فزقوا جلدي ، ونهشوا لحمي بافتراءاتهم ، وهؤلاء أناس حاقدون عليّ لالشيء إلا لأنني بلغت أهدافاً بعيدة المدى بينما قصرّوا هم ولم يفوزوا بشيء، لذلك امتلأت قلوبهم حقداً يشبه سم الحيات الرقطة التي يمتزج في لونها سواد وبياض وهي من أشد أنواع الحيات خطورة، وللأسف أنهم وصفوني لديه بصفات ذميمة ليست في إطلاقاً ولا في أمثالي، والحقيقة أن حياتهم تتسم بالبخل، وإنكار الحق، والجحود ..

وينتقل الشاعر إلى الحديث عن فراره من سجنه ويبرر ذلك بقوله :

إن كان الفرار من السجن يثير الشك والريبة كما يدعون ، فقد فرّ قبلي موسى عليه السلام حينما أراد القبط قتله ، فلا عيب في الفرار إذا أصبحت حياة المرء مهددة ، وبرغم ذلك فكلي أمل أن تعود المياه إلى مجاريها ، وتصفو الحياة كما بدأت صافية ، فلي صفات سامية نيرة وأخلاق حميدة سهلة ، ومن صفاتي الحلم والصبر، وكما أرجو عودة الحياة السعيدة، فإنني أرجو أن يقيض لي حلم امرئ عاقل تغفر الذنوب بعفوه ، وتمحى به الخطايا كما يمحي الخط ..

وأخيراً يبيح لأستاذه بمراده فيرجوه أن يختصه بشفاعته تكون يداً بيضاء له في عنقه أبد الآبدين، ويفوق نفحها رائحة النسيم المحمل بعبق الورود والرياحين فإن يسعف الله ففي ذلك نعمة هنيئة تنفس عن نفس مكروية ألمها ما أصابها وأضرّ بها كثرة الضغط عليها، وإن أبى إلا استرداد ماجاد به علينا من نعم، وما أفاض به من فضل فهذا فوق طاقتنا، ولا إرادة لنا فيه ونسلم الأمر لله صاحب الأمر من قبل ومن بعد، ومن فوق وفوقه، فهو وحده بيده القبض والبسط ..

وسنختم حديثنا عن نكبة ابن زيدون على يد أبي الحزم جهور إلى حين بعرض نفثة

من نفثاته، وزفرة من زفراته ، وهو منفي غريب بعد مغادرته قرطبة عقب فراره من سجنه، وحلّ عليه عيد من الأعياد فتذكر أيام لهوه بقرطبة الحبيبة ، فاشتاق إليها، وعبر عن حنينه وشوقه بقوله : (١)

- ١- خَلِيلِي، لَا فَطْرِي سِرٌّ وَلَا أَضْحَى ،
 - ٢- لَنْ شَاقَنِي شَرُّ الْعُقَابِ، فَلَمْ أزلْ
 - ٣- وَمَا انْفَكُّ جَوْفِي الرُّصَافَةَ مُشْعِرِي
 - ٤- وَيَهْتَاجُ قَصْرَ الْفَارِسِيِّ صَبَابَةَ
 - ٥- وَلَيْسَ ذَمِيمًا عَهْدَ مَجْلِسِ نَاصِحٍ،
 - ٦- كَأَنِّي لَمْ أَشْهَدْ لَدَى عَيْنِ شَهِدَةٍ
 - ٧- وَقَائِعَ جَانِبِهَا التَّجَنِّي، فَإِنْ مَشَى
 - ٨- وَأَيَّامَ وَصَلٍ بِالْعَقِيقِ اقْتَضَيْتَهُ،
 - ٩- وَأَصَالَ لَهُو فِي مَسْنَاءِ مَالِكٍ،
 - ١٠- لَدَى رَاكِدٍ يَصْبِيكُ، مِنْ صَفْحَاتِهِ،
 - ١١- مَعَاهِدَ لَذَاتٍ، وَأَوْطَانٍ صَبْرَةٍ،
 - ١٢- أَلَاهِلَ إِلَى الزَّهْرَاءِ أُوْبَةُ نَارِجٍ،
 - ١٣- مَقَاصِيرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَابَتَهَا،
 - ١٤- يُمَثِّلُ قُرْطِبَهَا لِي الْوَهْمُ جَهْرَةً،
 - ١٥- مَحَلُّ ارْتِيَاكِ يَذْكُرُ الْخُلْدَ طَيْبَهُ،
 - ١٦- هُنَاكَ الْجَمَامُ الزُّرْقُ تَنْدَى حَفَافُهَا
 - ١٧- تَعَوَّضْتُ مِنْ شِدْرِ الْقِيَانِ خِلَالَهَا
- فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقًا كَمَا أَضْحَى ؟
أُخْصُ بِمَمْنُوحِ الْهُوَى ذَلِكَ السَّفْحَا
دَوَاعِي ذَكَرِي تُعَقِّبُ الْأَسْفَ الْبَرْحَا
لِقَلْبِي، لَا تَأَلَوْ زَنَادَ الْأَسَى قَسْدَحَا
فَأَقْبَلَ فِي فَرْطِ الْوُلُوعِ بِهِ نَصْحَا
نَزَالَ عِتَابُ كَانَ آخِرُهُ الْفَتْحَا
سَفِيرُ خَضُوعٍ بَيْنَنَا أَكْدَ الصُّلْحَا
فَالَا يَكُنْ مِيعَادُهُ الْعِيدَ فَالْفَصْحَا
مِعَاطَاةً نَدَمَانِ إِذَا شَتَّتَ أَوْسَابُهَا
قَوَارِيرُ خَضِرَ خَلَّتْهَا مُرَدَّتْ صَرْحَا
أَجَلَّتْ الْمُعْلَى فِي الْأَمَانِي بِهَا قَدْحَا
تَقْضَى تَنَائِيهَا مَدَامَعُهُ نَزْحَا
فَخَلْنَا الْعِشَاءَ الْجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحَا
فَقَبَّتْهَا فَالْكُوكَبَ الرَّحْبَ ، فَالْسَطْحَا
إِذَا عَزَّ أَنْ يَصْدَى الْفَتَى فِيهِ أَوْ يَضْحَى
ظِلَالٌ عَهْدَتُ الدَّهْرَ فِيهَا فَتَى سَمْحَا
صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الْكَرَى ضَبْحَا

(١) ديوان ابن زيدون تحقيق محمد سيد كيلاني ص ٢٠٥، وحناء الفاخوري ص ٤٨٨، وشرح د. يوسف فرحات ص ٥٥ .

١٨- وَمَنْ حُمِلِيَ الْكَأْسَ الْمَفْدَى مُدِيرُهَا تَقَحَّمْ أَهْوََالَ حَمَلَتْ لَهَا الرُّمَحَا
١٩- أَجَلٌ إِنْ لَيْلِي فَوْقَ شَاطِئِ نَيْطَةٍ لِأَقْصَرُ مِنْ لَيْلِي بِأَنَّةَ فَالْبَطْحَا

الشرح والتحليل :

على طريقة الشعر العربي القديم يخاطب صديقيه على سبيل التجريد معلنا أنه لا يفرحه عيد الفطر ولا عيد الأضحى ، فالشوق يغلبه ، فهو في مكابدة الشوق إلى وطنه صباح مساء .. فشوقه إلى حيِّ العقاب من قرطبة شديد وإلى سفحه أشدّ، وما زالت فسحات الرصافة ومتندياتها تحرك لديه الذكريات، وتشير لديه كثيراً من المشاعر التي يعقبها الأسى والأسف ويقده قصر الفارسيّ هناك زناد الشوق في فؤاد شاعرنا ، ويتذكر مجالس ناصح التي كان يزداد الإقبال عليها ويولع الناس بها، وزاد البعد حتى كأن الشاعر لم يشهد قرب موضع « عين شهدة » في قرطبة لقاء عتاب أعقبه التسامح والرضا والصفاء ، ويتأكد الصلح بعد خصام سببه التجنيّ ، وكم كانت أيام اللقاء في « العقيق » إن لم يكن ذلك اللقاء في العيد كان في يوم الفصح من أعياد النصارى، وكم كانت لنا أمسيات لهو في موضع « مستاة مالك » نقيمها للمنادمة أو السكّن والنوم والراحة قرب ماء راكد تراه فتحسبه قوارير خضراء صبت وملست أي نعمت وسويت فصارت ساحة واسعة كبيرة خضراء زاهية. فكانت تلك الأماكن أماكن لذات وعشقٍ سعيت فيها وراء الأمناني والأحلام سعي من يبحث عن حظه بضرب السهام والقдах أي بالميسر .

ثم يتحدث الشاعر عن المعالم الجميلة، وأهمها مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر في ضاحية من ضواحي قرطبة، ويتمنى أن يتحقق أمله في العودة إلى الزهراء التي استنزف بعده عنها ، وشوقه إليها دموعه، فدورها واسعة، وقصورها فارهة وكذا مصاييحها تتلأأ فتخال الليل فيها نهاراً، ومن يتأمل القباب والسطوح والأبنية الكبيرة يظن أنه في عالم من عوالم الخيال، بل يرى فيها الفتى كل ماحرم منه في أماكن أخرى، وكأنه في جنة الخلد .. ففيها برك ومياه، وعلى ضفافها أشجار وارفة الظلال، شديدة الخضرة ، تجعل الدهر فتى سمحاً سخياً كثير العطاء، وها أنذا بدلاً من

استمتاعي بأصوات القيان والمعازف في مجالس اللهو أصغي اليوم في غربتي إلى أصدقاء الصحاري التي تطير النوم المريح ، وبدلاً من حمل الكأس التي يقدمها الساقى المفدى ها أنذا أقتحم أهوالاً تقتضي حمل السلاح لمواجهةها، وكم كان ليلى قرب شاطئ نهر نيطة في قرطبة أقصر من ليلى قرب نهر آنة في موضع البطحا، ولقد مكث ابن زيدون في منفاه الذي اختاره لنفسه بعد فراره من قرطبة وسجنها قرابة عام أو أكثر، حيث لجأ إلى المعتضد عباد أمير إشبيلية الذي أكرم وفادته، وأحسن استقباله فمدحه ابن زيدون بالغرر من قصائده، ولكن لم يهنأ له عيش، ولم تصف له حياة، إذ ظل دائم الحنين إلى قرطبة ومغانيها، يتذكر جمال لياليها ، وبهاء مبانيها، شديد اللفة على والدته التي ليس لها بعد الله غيره، فأخذ يوالي إرسال رسائله إلى الأهل والمحبين، والأصحاب الأوفياء المخلصين، ولم تنقطع مدائح عن أبي الحزم جهور ممزوجة بطلب العفو مشوبة بالاستعطاف والاسترحام .

كما خاطب كل من يتوسم فيه القدرة والجرأة على التوسط بينه وبين أميره الغاضب عليه، حاثاً على الإسراع بتلك الوساطة، والمبادرة بالشفاعة، خص بذلك أستاذه أبا بكر مسلم بن أفلح الذي أرسل إليه رسالة مطولة بليغة شرح فيها حاله وما آلت إليه، وشكى ما حل به من ظلم، ونفي عن نفسه التهمة التي نسبت إليه، وفند مزاعم الواشين عليه، وبرر سبب فراره من السجن بعد طول انتظار لعفو لم يأت، وكشف عن لهفته على أمه التي ابيضت عيناها من الحزن عليه، ثم استحثه بحق ما بينهما على الشفاعة فيه والدفاع عنه وطلب العفو واتبع ذلك بقصيدة من عيون شعره شكى فيها وبكى، حرك بها المشاعر وألهب، فبادر استاذهُ أبو بكر بعد اقتناع، وسعى بعد توالي الرسائل والرقاع يخاطب قلب أبي الحزم ويستلين، يسانده في ذلك أبو الوليد ويعين، وكان أبو الوليد بن أبي الحزم صديقاً محباً لابن زيدون، ولذا لم يدخر جهداً في السعي لدى والده طالباً العفو عنه مدعماً بذلك مساعي أبي بكر حتى استجاب أبو الحزم وعفا عن شاعرنا، وسمح بعودته إلى قرطبة فأسرع ابن زيدون بالعودة إليها فرحاً سعيداً، ولكن أبا الحزم لم يعمر طويلاً بعد تلك العودة إذ أنه توفي ليلة السادس من المحرم سنة ٤٣٥هـ، وخلفه ابنه أبو الوليد بن أبي الحزم صديق ابن زيدون، فبادر الأخير بتقديم واجب المدح والعزاء

بقصيدته التي مطلعها :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَمَهَا الْقَبْرُ ،
وَأَنَّ الْحَيَا ، إِنْ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ ،
إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفَعْلَ بَعْدَهَا ،
فَلَا يَتَهَنُّ الْكَاشِحُونَ ، فَمَا دَجَا
وَأَنَّ يَكُ وَلِيَّ جَهْوَرٍ فَمَحْمُودٌ

وفيها يقول بعد أن مدح أبا الوليد راثيا أبا الحزم :

أَبَا الْحَزْمِ قَدْ ذَابَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى ،
دَعِ الدَّهْرَ يَفْجَعُ بِالذَّخَائِرِ أَهْلُهُ ،
تَهْوَنُ الرِّزَايَا بَعْدَ ، وَهِيَ جَلِيلَةٌ
فَقَدْ نَاكَ فَقْدَانُ السَّحَابَةِ لَمْ يَزَلْ

ثم يتوجه ابن زيدون بعزائه إلى أبي الوليد قائلاً :

عَزَاءٌ فَدَتَكَ النَّفْسُ عَنْهُ فَإِنْ ثَوَى
وَمَا الرِّزْءُ فِي أَنْ يُودَعَ التُّرْبَ هَالِكٌ ،
أَمَامَكَ ، مَنْ حَفِظَ الْإِلَهَ ، طَلِيْعَةً
وَمَا بِكَ مِنْ فَقْرٍ إِلَى نَصْرٍ نَاصِرٍ ،
لَكَ الْخَيْرُ ، إِنِّي وَاثِقٌ بِكَ شَاكِرٌ

ابْنُ زَيْدُونٍ فِي كَنَفِ أَبِي الْوَلِيدِ بْنِ جَهْوَرٍ :

لقد خلف أبو الوليد بن أبي الحزم والده في الحكم بعد وفاته في ليلة السادس من المحرم ٤٣٥ هـ ، فقرب ابن زيدون منه ، وأحلّه في بلاطه مكانة سامية واجتهد الشاعر في

مدحه، فصاغ في ذلك كثيراً من دُرر قصائده ومزج مدحه له بالتعبير عن آماله وطموحاته بل وأهدافه البعيدة المدى التي يريد أن يبلغها ويحققها في ظله، ومن درره التي مزج فيها المدح بالرغبة وكشف عن مطامح نفسه تلك القصيدة التي مطلعها : (١)

مَالُ الْمَدَامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكَ ،
هَلَّا مَزَجْتَ لِعَاشِقَيْكَ سُلَافَهَا ،
وفيها يقول مادحاً أبا الوليد :

لِلْجَهْوِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلَّاتُ
مَلِكٍ يَسُوسُ الدَّهْرَ مِنْهُ مُهَذَّبٌ ،
جَارَى أَبَاهُ بَعْدَ مَافَاتِ الْمَدَى ،
شَمْسُ النَّهَارِ ، وَبَدْرُهُ ، وَنَجْمُهُ ،
يَسْتَوْضِحُ السَّارُونَ زَهْرُ كَوَاكِبِ
بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا ، وَبُشْرَا أَنَا مَعَا ،
كَالَرَوْضِ أَضْحَكُهُ الْغَمَامُ الْبَاكِي
تَدِيرُهُ لِلْمَلِكِ خَيْرٌ مَلَاكِ
فَتَلَاهُ بَيْنَ الْفُتُوْتِ وَالْإِدْرَاكِ
أَبْنَاءُهُ مِنْ فَرْقَدٍ وَسِمَاكِ
مِنْهُمْ ، تُنِيرُ غِيَا هَبِّ الْأَحْلَاكِ
هَذَا السُّوزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَتَاكِ

وينطلق ابن زيدون في نفس القصيدة مبيناً أن طموحه لا يتوقف عند حدٍّ فوزه بمنصب شاعر البلاط، بل يتطلع إلى ما هو أبعد من ذلك ، ويطمع في منصب رفيع، وأخذ يلح في طلب هذا المنصب لعله يظفر به، ومن ملامح إلحاحه أبياته التي يقول فيها :

يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ ، الَّذِي لَسَنَائِهِ
فَرَحُ الرِّيَاسَةِ ، إِذْ مَلَكَتْ عَنَانَهَا
مَنْ قَالَ إِنَّكَ لَسْتَ أَوْحَدٌ فِي النُّهَى
قَلْدَنِي الْوَرَايَ الْجَمِيلَ ، فَإِنَّهُ
وَإِذَا تَحَدَّثَتِ الْحَوَادِثُ بِالرُّنَا
وَسَنَاهُ تَعَنَوْا السَّبْعُ فِي الْأَفْلاكِ
فَرَحُ الْعُرُوسِ بَصِيحَةِ الْإِمْلَاكِ
وَالصَّالِحَاتِ فُتْدَانِ بِالْإِشْرَاكِ
حَسْبِي لِيَوْمِي زِينَةٌ وَعِشْرَاكِ
شَزْرَا إِلَيَّ فَقُلْ لَهَا : إِيَّاكَ

(١) ديوان ابن زيدون تحقيق محمد سيد كيلاني، وتحقيق حنا الفاخوري .. بتصرف .

هُوَ فِي ضَمَانِ الْعَزْمِ يَعْبَسُ وَجْهَهُ
وَأَحْمَمَ دَارِي تَضَاعَفَ عِزُّهُ ،
وَالدَّجْنُ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ حَاجِبٌ ،
لِلخَطْبِ ، وَالخَلْقِ النَّدِيِّ الضَّحَّاكِ
لَمَّا أَهْمِينَ بِمَسْـُوحِي وَمَمْدَاكِ
وَالجَفْنِ مَثْوَى الصُّلَامِ الْفَتَّاكِ

وظل ابن زيدون يلح على أبي الوليد في كل مدائحه مبيناً له أنه لا يسعى للمال من وراء ما يطلبه من منصب رفيع ، فإن لديه ما يكفيه ويفيض عن حاجته ، بل يطلب المنصب للجاء والرفعة وسمو المنزلة ومن هذا قوله في قصيدته التي أريت على الستين بيتاً ، وهي داليتها التي مدحه بها وكشف فيها عن أوطار نفسه بقوله : (١) .

فَدَيْتُكَ ، إِنِّي قَاتِلٌ ، فَمُعْرَضٌ
مُنَى كَالشَّجَا دُونَ اللَّهَاءِ تَعَرَّضْتُ ،
أَمْثَلِي غُفْلٌ ، خَامِلُ الذَّكْرِ ، ضَائِعٌ
وفيهما يقول أيضاً :

أَنَا السَّيْفُ لَا يَنْبُو مَعَ الْهَزْ غَرْبُهُ ،
بَدَأَتْ بِنُعْمَى غَضَّةً ، إِنَّ تَوَالِيَهَا
لَعَمْرُكَ مَا لِلْمَالِ أَسْعَى ، فَإِنَّمَا
وَلَكِنْ لِحَالٍ إِنْ لَبِسْتُ جَمَالَهَا ،
إِذَا مَا نَبَا السَّيْفُ الَّذِي طَبَعَ الْهِنْدُ
فَحُسْنُ الْأَلَى فِي أَنْ يَوَالِيَهَا سَرْدُ
يَرَى الْمَالَ أَسْنَى حَظَّهُ الطَّبِيعُ الْوَعْدُ
كَسَوْتِكَ ثَوْبَ النَّصْحِ أَعْلَامُهُ الْحَمْدُ

ولكي يستجيب له أبو الوليد بن حزم ، ويوليه منصباً رفيعاً راح يدلُّ له على إخلاصه في خدمته والتفاني في محبته ومودته فقال :

أَتَتِكَ الْقَوَافِي شَاهِدَاتٍ بِمَا صَفَا
لِي حَظِّي وَلِي سِرُّهُ وَفَقَّ جَهْرُهُ ،
يُمِيزُهُ مِّنْ سِوَاهِ وَفَاقُهُ ،
مِنَ الْغَيْبِ ، فَأَقْبَلَهَا فَمَا غَرَّكَ الشَّهْدُ
فَظَّاهِرُهُ شَكْرٌ ، وَبَاطِنُهُ وَدُ
وَإِخْلَاصُهُ ، إِذْ كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ

(١) المصدران السابقان يتصرف

ولقد استجاب له أبو الوليد بن أبي الحزم جهور، وولاه النظر في شئون أهل الذمة، وبعد فترة بسيطة رقاها إلى رتبة سفير، وهي رتبة أعلا من رتبة الوزير، حيث كان السفير يلقب بذي الوزارتين وكان عمله هو الاتصال بالملوك والأمراء وأولي الأمر، وقد أصاب ابن زيدون نجاحاً باهراً في عمله هذا، وكثرت اتصالاته بالملوك والأمراء، ولأقى منهم إعجاباً بلباقته وظرفه، وشاعريته وأدبه ولقد وجد في مجالس بعض الملوك بغيته من اللهو والمتعة خصوصاً مجلس إدريس بن علي بن حمّود، الملقب بالعالِي، وكان أديباً شاعراً مجانته معروفة، واستهتاره بارز معلوم ... وكذا غيره ..

نكبة ابن زيدون على يد أبي الوليد وآثارها :

لَمَّا تَوَلَّى ابن زيدون مهمة السفارة بين الملوك والأمراء وبين أبي الوليد بن أبي الحزم، ووجد في مجالس كثير من الأمراء والملوك طلبته من اللهو والمجون، حَبَّبَ إليه ذلك طول الإقامة عندهم خصوصاً إدريس بن حمّود الذي بلغ من استهتاره أنه كان يهيب القلاع والحصون لمن يعجب بهم من أصحابه وندمائهم ومن يشاركونه استهتاره ومجونه، فوجد ابن زيدون في بلاط هذا الملك مرتعاً خصباً، وميداناً رحباً يشبع فيه نزواته، ويحقق رغباته، وقد بلغ به طمعه أن أطلال الإقامة عند إدريس بن حمّود غير مكترث بالأمر أبي الوليد الذي قلده هذا المنصب الخطير ليقوم بمهام جدّ سياسية يجب أن يبادر بإحجازها فوراً وفي أسرع وقت ثم يعود إلى الأمير لعله يحتاجه في مهمة أخرى خطيرة وعاجلة، فهو لم يبعث به ليلهو ويلعب، ولذلك غضب عليه أبو الوليد غضباً شديداً وعزله من منصب السفارة، فأسرع ابن زيدون بالعودة إلى قرطبة وأخذ ينظم القصائد في مدح أبي الوليد وطلب عفوه ورضاه، ومن أبرز قصائده وأشهرها في هذا المعنى لاميته التي يقول فيها :^(١)

- ١- هَلْ عَهْدَنَا الشَّمْسُ تَعْتَادُ الْكِلَلْ، أَمْ شَهِدْنَا الْبَدْرَ يَجْتَابُ الْحُلْ؟
- ٢- أَمْ قَضِيْبُ الْبَانَ يَنْعِيهِ الْهَوَى، أَمْ غَزَالُ الْقَفْرِ يُصْبِيهِ الْغَزَلْ؟

(١) ديوان ابن زيدون تحقيق محمد سيد كيلاني ص ٤٩ ، وتحقيق حنا الفاخوري ص ١٢٢ ، وشرح د. يوسف فرحات ص ٢٣٠ .

٣- خَرَقَ الْعَادَاتِ مُبْدِي صُورَةً،
 ٤- مُشْرَبُ الصَّفْحَةِ مِنْ مَاءِ الصَّبَا،
 ٥- مَنْ عَذِيرِي مِنْهُ ، إِنْ أَغْبَيْتَهُ
 ٦- قَاتِلْ لِي بِالتَّجْنِي مَالَهُ،
 ٧- أَيُّهَا الْمَخْتَالُ فِي زِينَتِهِ،
 ٨- لَكَ إِنْ أَذَلَّتْ عُنْذِرُ وَاضِحٌ،
 ٩- سَبَبُ السُّقْمِ ، الَّذِي بَرَحَ بِي،
 ١٠- إِنْ مِنْ أَضْحَى أَبَاهُ جَهْرًا،
 ١١- مَلِكٌ لَذَّ جَنَى الْعَيْشِ بِهِ،
 ١٢- أَحْسَنَ الْمُحْسِنِ مَنْ أَفْجَزَى،
 ١٣- سَعِيَ فِي كُلِّ بَرٍّ مِثْلُ،
 ١٤- لَا يَزَلُ مِنْ حَاسِدِيهِ مُكْثَرُ،
 ١٥- يَابَنِي جَهَنَّمَ، الدُّنْيَا بِكُمْ
 ١٦- إِنَّمَا دَوْلَتُكُمْ وَأَسَاطَةُ،
 ١٧- نَحْنُ مِنْ نَعْمَائِكُمْ فِي زَهْرَةٍ،
 ١٨- طَابَ كَانُونَ لَنَا أَثْنَاءَهَا،
 ١٩- زَهَرَتْ أَخْلَاقُكُمْ ، فَابْتَسَمَتْ،
 ٢٠- أَيُّهَا الْبَحْرُ الَّذِي مَهْمَا تَفَضَّ
 ٢١- مِنْ لَنَا فِيكَ بَعِيبٍ وَاحِدٍ،
 ٢٢- شَرَفٌ تَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ بِهِ ،
 ٢٣- أَنَا غَرَسٌ فِي ثَرَى الْعِلْيَاءِ، لَوْ
 ٢٤- لِي ذِكْرٌ، بِالَّذِي أَسَدَيْتَهُ ،

حَشَدَ الْحُسْنِ عَنْهَا فَاحْتَفَلَ
 مُشْبَعُ الْوَجْنَةِ مِنْ صَبْغِ الْخَجَلِ
 نَسِيَ الْعَهْدَ ، وَإِنْ عَاوَدْتُ مَلَّ
 لَيْتَ شِعْرِي ، أَحْلَالَ مَا اسْتَحَلَّ؟
 أَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْخَالِ فَخَلَّ
 كُلُّ مَنْ سَاعَفَهُ الْحُسْنَ أَدَلَّ
 صَبْحَةً كَالسُّقْمِ فِي تِلْكَ الْمُقْلِ
 قَالَتْ الْأَمَّالُ عَنْهُ ، فَفَعَلَ
 حَيْثُ وَرَدَ الْأَمْنُ لِلصَّادِي عُلَّ
 مِثْلُ مَالِجٍ مُسِيئٍ فَاحْتَمَلَ
 إِذْ مَسَاعِي مِنْ يَنَازِيهِ مِثْلُ
 أَوْمُقْلٍ : « سَبَقَ السَّيْفُ الْعَزْلَ »
 حَلَيْتَ أَيَّامَهُمَا بَعْدَ الْعَطَلِ
 أَهْدَتْ الْحُسْنَ إِلَى عَقْدِ الدُّوَلِ
 جَدَّدَتْ عَهْدَ الرَّبِيعِ الْمُقْتَبِلِ
 فَكَانَ الشُّمْسُ حَلَّتْ بِالْحَمَلِ
 كَابْتَسَامِ الْوَرْدِ عَنْ لَوْلُو طَلِ
 بِالْبَدْيِ يَمْنَاهُ ، فَالْبَحْرِ وَشَلِ
 تَحَذَّرُ الْعَيْنُ إِذَا الْفَضْلُ كَمَلِ
 مِثْلُ مَا يَغْنَى عَنِ الْكُحْلِ الْكَحَلِ
 أَبْطَأَتْ سَقْيَاكَ عَنْهُ لَذَبَّ بَلِ
 نَابَهُ ، وَدَّ حَسُودٌ لَوْ حَمَلِ

- ٢٥- فَلَيْمْتُ، بالداءِ مِنْ حَالِي، فَتَيَّ
 ٢٦- فَوَعَى الْحُكْمَةَ عَنْ قَائِلِهِمْ
 ٢٧- أَقْبَلْتُ نِعْمَاكَ تُهْدِي نَفْسَهَا،
 ٢٨- فَقَبِلْتُ السَّيِّدَ مِنْ بَطْنِ يَدِ،
 ٢٩- كُلُّنَا بَلَّغْنَا مَا أَمَّلَهُ
 ٣٠- وَإِذَا مَا رَأَيْتَ الدَّهْرَ فُفْتُ،
- أَدْبَتَهُ سَيْرُ النَّاسِ الْأَوَّلِ
 « الزَّمِ الصَّحَّةَ يَلْزَمُكَ الْعَمَلُ »
 لَمْ أَرْغُ حَظِّي مِنْهَا بِالْحِيلِ
 ظَهَرَهَا الدَّهْرُ مُحَلًّا لِلْقَبْلِ
 فَأَبْلَغُ الْغَايَةَ مِنْ كُلِّ أَمَلٍ
 وَإِذَا رُمْتَ الْأُمَّانِي فَانْلُ

الشرح والتحليل :

لقد جاءت القصيدة صدًى لأحاسيس رجل غرق في النعمة حتى شحمتي أذنيه، وعلى حين غرة رآها تولي مدبرة بعد إقبال محجمة بعد إقدام، وذلك بسوء فعله، وحمق تصرفه، فبادر يستدرك ويعتذر ويسترضي ولي نعمته ويستعطفه لعله يرضى ويعفو، ويعيده إلى منصبه الذي عزله منه، ومكانته التي أقصاه عنها .

وقد استهل الشاعر قصيدته كأغلب قصائده في المدح والاستعطاف بمقدمة غزلية تحدث فيها عن محبوب توارى خلف غلالة رقيقة، وقد ارتدى أجمل حلله، وكامل زينته فبدى كالبدر في ليل التمام، والمحبوب قضيب بان في استقامة عوده وليونته وتشبهه، غزال الفلا في الحسن والبهاء، جماله خارق للعادة، ترى في وجهه نضارة الشباب وحيويته، وتصبغ وجنتيه حمرة الخجل والحياء .. ويشكو الشاعر من تدلل الحب عليه، فهو إن باعد في زيارته له نسي العهد، وإن قارب مل منه وتضجر، وهذا تجن وظلم فمن ينصره من هذا المحبوب ..

وأخيراً يسلم للمحبوب بحقه في التدلل، فمن كان في مثل جماله كان أولى الناس بالكبر والدلال، وكفالك أن أصبتني بمرض فتك بي انتقل إلي من فتور عينيك .. هكذا يقول لسان حال الشاعر ..

(١) ديوان ابن زيدون تحقيق محمد سيد كيلاني ص ٤٩ ، وتحقيق حنا الفاخوري ص ١٢٢ ، وشرح د. يوسف فرحات ص ٢٣٠ .

وينتقل من هذه المقدمة الغزلية إلى مدح أبي الوليد بن أبي الحزم جهور مبيناً أن من كان جهور أباه اتجهت نحوه الآمال فحقق منها ما شاء ووصف الشاعر مليكه بأنه ملك كريم معطاء بواسطته يلذ العيش لكل طاعم، ويروى الظمان على دفعات، كما أنه يجزي كل محسن بإحسانه، ويحمل المسيء تبعه إساءته، فهو متصف بالعدل لا يعرف الجور وهو مثال يحتذى في السعي إلى كل خير، بينما مساعي منائيه هباء وأوهام لا قيمة لها، وكلماً قصر حساده في سعيهم تعللوا بقولهم : « سبق السيف العزل » .

ويعم الشاعر بالمدح بني جهور قائلاً : يا بني جهور إن الدنيا قد حسنت بكم أيامها، وسعدت بعد تعاسة ، وامتألت بالخيرات بعد خلوها منها زمناً، ودولتكم هي واسطة العقد، فهي جوهرة قد أهدت الحسن إلى عقد الدول ونحن جميعاً نعيش من نعمائكم في ربيع دائم متجدد، وأخلاقكم تفتحت فبدت باسمه كالورد تألأت فوقه قطرات الندى لامعة جميلة .

ثم يعود من التعميم إلى التخصيص فيخاطب أبا الوليد قائلاً :

أيها البحر الذي فاضت يمينه بالعطاء فيضاً أعجز البحر وشلّ قوّته فبدى إلى جانبك قليل الماء، نادر العطاء، وها أنت قد كملت محاسنك فلا عيب فيك سوى كمال فضلك الذي نخشى عليه من العين الحاسدة، وقد حزت الشرف العظيم الذي يغنيك عن كل مدح، مثلما تستغني العيون الكحيلة عن زينة الكحل .

ثم يتحدث الشاعر مستعطفًا مسترحماً راجياً العفو فيقول مخاطباً أميره أبا الوليد قائلاً : أنا غرس يديك، وأنت الذي رفعتني إلى العلياء، فإن أبطأت في رعايتي والنظر إليّ، وإن قطعت عني مددك أصابني الذبول والموت، فلا غنى لي عن سقياك، واعلم أنّ ذكرى باق بعطايك، وبإحسانك إليّ، ونجمي عالٍ بعظيم رعايتك، وهذا ما يتمنى الحاسدون زواله عني، فليمت بداء الحسد كل حاسدٍ لفتى أدبته سير الأوائل من أهل الصلاح والشرف، وحفظ إرشادهم وتوجيههم بقولهم : « الزم الصّحة يلزمك العمل » ومن ملامح سعادتي أن تقبل عليّ نعمك مهدية نفسها إليّ دون أن أحتال لأطلب

حظي منها، وهذا شرف عظيم، ولذلك بادرت فقبلت النعمة من يد كريمة ظهرها طوال الدهر محل التقبيل، ولقد بلغت كل ما نأمله، فابلق أنت أيضاً كل آمالك، محفوفاً برعاية الله وحفظه، وإذا ما أردك الدهر لعملٍ جليل فامض إليه، وإذا طلبت الأمانى فلها رضى طيبة ..

ومن شعر الاستعطاف الذي توجه به ابن زيدون إلى أبي الوليد الذي كان يرجو من ورائه أن يحظى بصفحة عنه ، وإعادته إلى سابق مكانته ومنزلته هذه القصيدة البائية والتي مطلعها : (١)

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الشُّفِيعَ شَبَابٌ ، فَيَقْصُرُ عَنْ لَوْمِ الْمُحِبِّ عِتَابُ
عَلَامَ الصَّبَا غَضٌّ ، يَرِفُ رَوَاؤُهُ إِذَا عَنْ مَنْ وَصَلَ الْحَسْبَانِ ذَهَابُ

وبعد مقدمة غزلية طويلة أعقبها استغراق في المدح لأبي الوليد والثناء عليه ، ونعتة بعظيم الصفات يتوجه الشاعر إلى أميره أبي الوليد مستعطفاً ومننداً بالوشاة الحاسدين ، ومشيراً إلى أهميته وقيمته عند أميره بقوله :

١- فَدَيْتُكَ كَمْ أَلْقَى الْفَوَاعِرَ مِنْ عَدَا
٢- عَفَا عَنْهُمْ قَدْرِي الرَّفِيعُ فَأَهْجَرُوا
٣- وَقَدْ تَسْمَعُ اللَّيْثَ الْجَحَاشُ نَهْيَ قَهْهَا
٤- إِذْ رَاقَ حَسَنَ الرُّوضِ ، أَوْفَاحَ طَيْبِهِ ،
٥- يَقُولُونَ شَرْقُ ، أَوْ غَرْبُ ، صَرِيْمَةٌ
٦- فَأَنْتَ الْحُسَامُ الْعَضْبُ أَصْدَى مَتْنِهِ ،
٧- وَمَا السَّيْفُ مِمَّا يَسْتَبَانُ مَضَاؤُهُ ،
٨- وَإِنَّ الَّذِي أَمَلْتُ كُدْرَ صَفْوِهِ ،

قَرَأَهُمْ لَنِيرَانَ الْفَسَادِ ثِقَابُ
وَبَيْنَهُمْ خُلُقِي الْجَمِيلُ فَعَابُوا
وَتُعَلِّي إِلَى الْبَدْرِ النَّبَاحَ كِلَابُ
فَمَاضِرُهُ أَنْ طَنَّ فِيهِ ذُبَابُ
إِلَى حَيْثُ أَمَالَ النُّفُوسَ نَهَابُ
وَعُطِّلَ مِنْهُ مَضْرِبُ وَذَبَابُ
إِذَا حَازَ جَفْنَ حَدِّهِ وَقَرَابُ
فَأَضْحَى الرُّضَا بِالسُّخْطِ مِنْهُ يَشَابُ

(١) ديوان ابن زيدون: تحقيق محمد سيد كيلاني، وتحقيق حنا الفاخوري ، وشرح د. يوسف فرحات بتصرف

٩- وَقَدْ أَحْلَفْتُ ، مِمَّا ظَنَنْتُ ، مَخَايِلُ ،
 ١٠- فَمِنْ لِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ عَلَيْهِمْ ،
 ١١- لِيُخْزِيَهُمْ أَنْ لَمْ تَرِدْنِي نَبْوَةً ،
 ١٢- فَقَدْ تَتَغَشَّى صَفْحَةَ الْمَاءِ كُدْرَةً
 ١٣- سُورُ الْغَنَى ، مَا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ حَسْرَةٌ ،
 ١٤- وَإِنْ يَكُ فِي أَهْلِ الزَّمَانِ مُؤَمِّلٌ
 ١٥- أُيَعُورُ مِنْ جَارِ السَّمَائِينَ جَانِبُ ،
 ١٦- فَأَيْنَ ثَنَاءٌ يَهْرُمُ الدَّهْرُ كِبَرَةً ،
 ١٧- سَابِقِي عَلَى حَظِّي لَدَيْكَ كَمَا بَكَى
 ١٨- وَأَشْكُو نَبُو الْجَنبِ عَنْ كُلِّ مُضْجَعٍ
 ١٩- فَتَقْ بِهِزْ بَرِ الشَّعْرِ وَاصْفَحْ عَنِ الْوَرَى ،
 ٢٠- وَلَا تَعْدِلِ الْمُتَنِينَ بِي ، فَأَنَا الَّذِي
 ٢١- يُنُوبُ عَنِ الْمُدَّاحِ مِنِّي وَاحِدٌ
 ٢٢- وَرَدْتُ مَعِينَ الطَّبَعِ إِذْ ذِيدَ دُونَهُ
 ٢٣- وَنَجَدْنِي عِلْمٌ ، تَوَالَتْ فُنُونُهُ ،
 ٢٤- فَعَدَّ يَدَ بِيضَاءٍ يَصْدَعُ صَدْقُهَا ،
 ٢٥- وَحَاشَاكَ مِنْ أَنْ تُسْتَمِرَّ مَرِيرَةً

شرح وتحليل :

وقد صَفَرْتُ ، مِمَّا رَجَوْتُ ، وطابُ
 إِذَا لَجَّ بِالْخَصْمِ الْأَلْدُ شَغَابُ
 يساء الفتى من مثلها ، ويرابُ
 ويغطو على ضوء النهيار ضبابُ
 وأرى المني ، مالم تمل بك صابُ
 فأنت الشراب العذب وهو سرابُ
 ويمعز في ظل الربيع جنابُ
 وحليته في الغابرين شبابُ
 ربيعاً ، لَمَّا ضلَّ عنه ذؤابُ
 كما يتجافى بالأسير ظرابُ
 فإنهم إلا الأقل ذبابُ
 إذا حضر العقم الشُّـوارِدُ غابوا
 جميع الخصال ، ليس عنه منابُ
 أناس لهم في حجرته لوَابُ
 كما يتوالى في النظام سخابُ
 فإن أراجيف العداة كذابُ
 لعهدك أويخفى عليك صوابُ

إنَّ الأبيات التي سجلناها مستلة من قصيدة بلغت نيفاً وتسعين بيتاً تكشف عن طول نفس الشاعر .. وقد عرضنا الأبيات التي تحمل معاني الاعتذار والاستعطاف ، وطلب العفو عن الخطأ الذي وقع فيه بإهماله واجباته المنوطة به ، وانغماسه في اللهو مع اللاهين .. وفي هذه الأبيات يفدي شاعرنا أميره بنفسه ، ثم يكشف له عما يلاقه من

حسد الحاسدين، وكيد الكائدين، هؤلاء الذين فغروا أفواههم وكأنهم يريدون التقامه وابتلاعه، ومنتهى إكرامهم له أن يشعلوا نار إفساد العلاقة بينه وبين أميره، ويأسف الشاعر لسوء تصرف هؤلاء الحاقدين، حيث سما قدره العالي فوق سفاسفهم، وترفع عن مهاتراتهم، وعفا عنهم، فتمادوا في غيهم وقالوا في حقه قولاً قبيحاً، وحاول الشاعر أن يتعد عنهم بأخلاقه الجميلة فراحوا يلصقون به العيوب المشينة ويبرزونها، وعلى كل حال فهذه تصرفات لا يأبه بها، فالجحاش قد تسمع نهيقها الأسود، والكلاب قد توجه نباحها نحو البدر، وكل هذا لا يؤثر، ولا يضير الروض البهي الظاهر جماله طنين الدُّباب فيه، ولعلَّ القارئ يلمح كيف استخدم الشاعر التشبيه الضمني.. فهو الليث، وهو البدر، والروض، وأعداؤه جحاش، وكلاب، وذباب .

ويكشف الشاعر لأmirه أن هذه الضغائن ما تزال قائمة لم ترح مكانها، فهي تكمن كمنون الأفاعي، كما أنها اتخذت من صدور هؤلاء الأعداء مكاناً تبیت فيه، وكم مرة حاول العدا إبعادك عنك، وما زالوا يقولون لي : اقطع علاقتك به، اذهب شرقاً أو غرباً حيث تجد من يعرف قيمتك وحيث تغتنم الآمال اغتناماً، ولماذا البقاء هنا وأنت سيف قاطع قد أصاب الصدا نضله وتعطل حدّه لعدم استخدامه، وتعمد إهماله، وينبه الشاعر أميره قائلاً : لا أخفي عليك، إنَّ آمالي قد تكدر صفوها وحلَّ السخط محلَّ الرضا، لأنك قد أخلقت ظني، فتغير ما اعتقدت أنه سحب ممطرة، وقد فرغ الوعاء من كل خير كنت أرجوه منه، فهل لي من سلطان أصدُّ به خصومي إذا اشتدوا في خصوماتهم ، وأذلهم به إن لم تلحقني جفوة تسيئ إليَّ وأنا الفتى الكريم الأخلاق ممَّا يلحق بي الريب والشك، وأملّي أن يكون ما حدث لي مجرد كدرة عكّرت صفو مائي وسرعان ما تزال، أو مجرد ضباب يحجب ضوء القمر عني وقريباً سينقشع، فإن سرور الغنى مهما بلغ ينقلب حسرة إن لم يكن منك، والأمانى الحلوة تنقلب إلى أمان مرة الطعم إن تحققت على يد غيرك، وبدونك أملّي في أهل الزمان سراب، لأنك الشراب العذب الذي لا أرتوي بدونه ، أیصاب من جاور السماكين بعور يعيبه، أو تقفر الأرض وتصلب في ظل الربيع الممرع ؟ ! هذا لا يحدث وإلا فأين الثناء الذي يهرم الدهر بعده من الكبير، وتبقى حليته وزينته مع الأجيال في سن الشباب ؟

ولمزيد من الاستعطاف و الاسترضاء يخاطب الشاعر أميره قائلاً : لئن أهملت أمري ،
وأعرضت عني فسوف أبكي حظي لديك ، كما بكى الشاعر ربيعة بن ذؤاب الأسدي
صديقه عتيبة بن الحارث بن شهاب ، بعد وفاته ، وسأظل أشكو نفور جنبي من فراشي
كما ينفر الأسير من الحجارة المديبة الناتئة المؤلمة .

ثم يرجو الشاعر أميره بعدَ هذا الاستعطاف أن يثق فيه فهو أسد الشعر ومن سواه من
الحاقدين الواشين ذباب ، ولا يجوز أن يكون هؤلاء مع ابن زيدون في صعيد واحد ،
فهم لا يعدلونه ، لأن من كان في الدرجة الثانية لا يعدل أصحاب الصدارة والامتياز لأنه
يعجز عن مجاراتهم ، ويفخر الشاعر بأنه إذا حضر بفرائد شعره ودرره غاب هؤلاء جميعاً ،
وبأنه هو الذي ينوب عن جميع المدّاح لأنه قد جمعت له كل الخصال الطيبة لم تنفر
منها خصلة واحدة ، وأن ما وصل إليه من الطبع لم يصل إليه غيره وبهم ظمأ شديد
إليه ، ولا غرو فإن التجارب قد صقلته ، وتتابع فنون العلم وأنواعه عليه ، كما يتتابع
الدرّ الثمين في العقد ..

وفي النهاية يؤكد الشاعر رجاءه لأمره ملتمساً أن يعيدَ إليه مكانته ويفيض عليه
أياديه البيضاء السخية الصادقة التي ييهر صدقها ، وألا يلقي بالاً لأراجيف الأعداء فهي
كاذبة لا قيمة لها ، ويختم التماسه بقوله :

حاشاك أن يرتفع صوت أعدائي ، وتقوى شكيمتهم وتشدد شوكتهم وتعلو كلمتهم
في عهدك ، وأرجو ألا يخفي عليك جانب الحق والعدل .

وكُلّما أعرض أبو الوليد عن شاعرنا ابن زيدون ، ولم يستجب لرجائه واستعطافه
إزداد ضجر الشاعر ، واشتد ألمه .. وفي إحدى نوبات التألم والمعاناة من مثل هذا
الإعراض القاتل كتب ابن زيدون إلى أبي الوليد بن أبي الحزم معاتباً بقوله : ^(١)

- ١- بَنَيْتَ فَلَا تَهْدُم ، وَرَشْتَ فَلَا تَبْر ، وَأَمَرْتَ حُسَادِي وَحَاشَاكَ أَنْ تُبْرِي
- ٢- أَرَى نَبْوَءَ ، لَمْ أَدْرِ سِرّاً عَتْرَاضِهَا ، وَقَدْ كَانَ يَجْلُو عَارِضَ الْهَمِّ أَنَّ أَدْرِي

(١) المصادر السابقة كيلاني ص ٥٩ ، وفاخوري ص ١٤٤ ، ود. فرحات ص ١٠٥ .

- ٣- جَفَاءٌ ، هُوَ اللَّيْلُ ادْلَهَمَ ظَلَامَهُ ،
 ٤- هَبِ الْعَزْلُ أَضْحَى لِلْوَلَايَةِ غَايَةً ،
 ٥- فَفِيمَ أَرَى رَدَّ السَّلَامِ إِشَارَةً ،
 ٦- أَنَسَ هُمْ أَخْشَى لِلذَّعَةِ مَقُولِي ،
 ٧- فَإِنْ عَاقَتِ الْأَقْدَارُ ، فَالْنَفْسُ حَرَةً ،
- فَلَا كَوَكَبٌ لِلْعُذْرِ فِي أَفْقِهِ يَسْرِي
 فَمَا غَايَةُ الْمُوفِيِّ مِنَ الظَّلِّ أَنْ يُكْرِي
 تُسَوِّغُ بِي إِزْرَاءَ مَنْ شَاءَ أَنْ يُزْرِي
 إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّا فَعَلَتْ لَهُمْ مُضِرٌ
 وَإِنْ تَكُنِ الْعَتَبِيُّ ، فَأَحْرِبَهَا أَحْرَ

وهكذا نرى انزعاج الشاعر الشديد من إغراض أبي الوليد عنه ، فيتوجه إليه راجياً وملحاً في الرجاء بقوله : لقد بنيت فلا تهدم ما بنت يداك ، وكسوت فلا تعر وتضعف ، وأمراضت حسادي بحبك لي وإشاري بخيرك فلا تشمتهم بي ، وتشف غيظ قلوبهم بغضبك علي وإغراضك عني ، ثم يشكو الشاعر من الجفاء الذي يقابل به ، ويتساءل : ما سر هذا الجفاء ؟ ، ليتني أعرف السبب وراء ذلك لعل نفسي تستريح فكما يقال : « إذا عرف السبب بطل العجب » فإنني أرى جفاء كظلمة الليل البهيم حولي ، ولا أرى بادرة أمل في قبول عذر .. هب أيها الأمير أنك عزلتني ولمتني ، فما علاقة ذلك بما بيننا من ودٍّ وحب ؟ ولماذا تتبع ذلك بحرمانني من عطفك وودك ولو كان قليلاً ؟ ولماذا تتعمد رد السلام علي بإشارة أو إيماء ، بلا ترحيب وبشاشة كما كنت تفعل في سابق عهدك مما أفسح المجال لتحقيري بين الناس ، والتقليل من شأنني ، والإزراء بمكانتي لدى أناس كانوا يخشون لذعات لساني ويهابونني إن لم تغرهم بي بمواقفك مني ، وأفعالك معي ، وعزة نفسي تأبى مثل هذا .. فإن حالت الأقدار بيني وبين ما أؤمل وأبتغي من العفو والمسامحة ، فنفسي حرة أئبة لا تقبل الضيم ، وإن فزت بالرضا فأجدر به ، وهو الحري بقبوله .

ولكن كل هذه الصيحات ذهبت أدراج الرياح ، ولم تكن ذات جدوى ، فأبو الوليد سادر في إغراضه إغراضاً تاماً ، وأعداء ابن زيدون قد ازداد قريهم من الأمير ، مما جعل شاعرنا يتوجس خيفة ، ويخشى على نفسه من مزيد من الدسائس ، فاضطر إلى مغادرة قرطبة إلى بلنسية واتصل بالوزير أبي عبد الله بن محمد بن مروان بن عبد العزيز الذي أكرم ابن زيدون ، وأحسن استقباله مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه ، ثم اتصل بالرسائل

بالمظفر سيف الدولة بن الأفتس أمير بطليوس، وطلب النزول عليه ضيفاً، وأردف رسائله إليه بمدائح أسرة، فرحب به ابن الأفتس، ورحل إليه ابن زيدون وأقام عنده فترة لم تطل حيث عفاه عنه أبو الوليد، وتبوأ مكانته، وأحسن أن النكبة قد زالت، والغمة قد انقشعت، وأنه سينعم بالهدوء والاستقرار في بلده وموطنه، ولكن كما يقول القائل : « تأتي الرياح بما لا يشتهي السفن » فلقد اكتشف أبو الوليد مؤامرة كانت تدبر ضده في الخفاء لقلب نظام حكمه، وإرجاع الحكم الأموي مرة أخرى، وكان من المشتركين في تدبير تلك المؤامرة سنة ٤٤٠ هـ أسرة بني ذكوان، وهي من كبار الأسر في قرطبة، ومنها أحد أساتذة ابن زيدون، وهو أبو بكر بن ذكوان، ويبدو أن ابن زيدون قد خشي على نفسه أن توجه إليه أصابع الاتهام فبادر إلى التنصل من المؤامرة ومدبريها، وراح يتبرأ من كل من له صلة بها، ويظهر سخطه وغضبه وعداؤه لكل ضالع فيها، ويعلن ولاءه للأمير أبي الوليد وإخلاصه له، بل ويعلن استعداده لتولي الوزارة إذا جاء الأمير بها، وهو بذلك نهأز فرص، ولكنه لم يكن يدري أن الشبه تحوم حوله .. وأن الأمير عاد للإعراض عنه، إلا بعد أن خيب أبو الوليد ظنه وأسند الوزارة إلى إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السقاء، وأوكل إليه تدبير الأمور، مما أدخل اليأس في قلب ابن زيدون وجعله يوقن أن نجم حياته السياسية قد أفل وغرب لدى بني جمهور .

أمام ذلك اضطر ابن زيدون إلى الفرار صوب إشبيلية مرة أخرى حيث استقر في كنف أميرها المعتضد عباد الذي رحب به وعينه وزيراً له، وبعد فترة يسيرة رفعه إلى مرتبة ذي الوزارتين، وعهد إليه بالسفارة بينه وبين من يجاوره من الأمراء والملوك، كما اتخذه كاتباً له، ونديماً يشاركه مجالس لهوه ومجونه، وظل ابن زيدون إلى جوار المعتضد عباد قرابة عشرين عاماً ولما مات المعتضد سنة ٤٦١ هـ خلفه ابنه المعتمد الذي كان صديقاً حميماً للشاعر فظل إلى جواره، وهياً له الطريق لفتح قرطبة ودخولها في شعبان سنة ٤٦٢ هـ واتخذها المعتمد حاضرة للملك، وانتقل إليها معه ابن زيدون، ولكن سرعان ما نشبت فتنة في إشبيلية فأرسل المعتمد ابن زيدون على رأس جماعة لإخماد الفتنة، والقضاء على أسبابها، وفي إشبيلية مات ابن زيدون سنة ٤٦٣ هـ بعد حياة مليئة بالتقلبات .

وكان من نتاج ما أصابه على يد أبي الوليد أن اتجه ابن زيدون إلى الإسهاب في مدح غيره من الحكام سواء في بلنسية أو في بطليوس، أو في إشبيلية وأفاض في هذا المدح إفاضة وصلت حد المبالغة، ولا يتسع المجال لعرض قصائد المدح التي دبجها والتي يذخر بها ديوانه .. ولكن آن لنا أن نتقل من الحديث عما أصابه من نكبات السياسة إلى الحديث عن نكبته العاطفية في علاقته بولادة بنت المستكفي وأثر هذه النكبة العاطفية العارمة في شعره .

نكبة ابن زيدون العاطفية :

إن نكبة ابن زيدون هذه المرة لم تنشأ من جرأ عمله في السياسة ولكنها نشأت من جرأ الهوى والغرام ، فمن التي أحبها ابن زيدون ؟ وما الذي فعلته به ، وكيف نكب عاطفياً بسببها ؟

إن التي أحبها ابن زيدون، وتعلق بها قلبه حتى أسهده هذا التعلق هي ولادة بنت المستكفي ..

نعم إنها ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصرين محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان .

ولقب أبوها بالمستكفي بالله، وقد ولي الخلافة في قرطبة سنة ٤١٤ هـ قبل هشام المعتد بالله آخر خلفاء بني أمية في الأندلس، وبقي فيها أقل من عامين ، وكانت مدة خلافته شؤماً على الأندلس، يقول عنه ابن بسام « لم يجلس في الإمارة مدة الفتنة أسقط منه ولا أنقص »^(١) حيث كان عريداً ماجناً مستهتراً، ولذلك ثار عليه أهل قرطبة، فهرب مستخفياً في زي النساء بين امرأتين ، ثم قتل بعد هروبه بقليل شريداً طريداً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً وذلك سنة ٤١٦ هـ .

(١) الذخيرة لابن بسام القسم الأول م ص ٣٨٧ ، والصلة لابن بشكوال طبعة مدريد سنة ١٨٨٢ .

وأم ولادة كانت قينة حبشية ، وليس للقيان حجاب ولا تصون فخرجت تنهج نهج أمها ، وتسير على عاداتها من ترك الحجاب ، ومقابلة الناس وجها لوجه .. ولم تعرف سنة ولادتها ، قال عنها ابن بسام ^(١) : « وكانت من نساء أهل زمانها ، واحدة أقرانها : حضور شاهد ، وحرارة أو ابد ، وحسن منظر ومخير ، و حلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها في قرطبة متددى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، ويعشو أهل الأدب إلى ضياء غرتها ، ويتها لك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة متابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها - سمح الله لها وتغمد زللها - اطرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها .. » .

ولقد كتبت فيما زعمه الرواة والمؤرخون على أحد عاتقي ثوبها مطرزاً بالذهب ^(٢) :

أنا والله أصْلَحُ لِلْمَعَالِي وَأَمْشِي مِشْيَتِي وَأَتِيهِ تِيَهَا

وكتبت على العاتق الآخر :

وَأَمْكِنُ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خَدِّي وَأَعْطِي قُبْلَتِي مَنْ يَشْتَهِيهَا

ولذلك وصفها الكثيرون بالاستهتار، والعبث ، والجرأة في التعبير عن عواطفها، إلا أن المقرئ في نفح الطيب نفى عنها صفة العبث والاستهتار حيث قال عنها ^(٣) :

« ... كانت واحدة زمانها، المشار إليها في أوانها ، حسنة المحاضرة ، مشكورة المذاكرة وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف »

وعن مجاسنها قيل : « كانت ولادة ممشوقة القد رشيقة، سوداء العينين ، ذهبية الشعر ، لها خال أسود في خدها » ^(٤)

(٢) في الأدب الأندلسي جودت الركابي جـ ١٦٧ .

(١) الذخيرة المصدر السابق ص ٣٧٩ .

(٤) محطات أندلسية : محمد حسن قجة ص ١١٣ .

(٣) نفح الطيب جـ ٤ ص ٢٠٥ .

وكان من بين المترددين على ناديها، المنافسين في نيل رضاها أبو الوليد بن زيدون الذي تعرّف إليها أيام أن كان وزيراً لبني جهور، وكان في ميعة الشباب، وتمكنت بينهما أواصر الود والصدقة حتى وقع في أشراك حبها، وهام بها، وشجعتة هي على ذلك ، وأطمعته من نفسها وهي على أبواب الأربعين من عمرها إذ كتبت إليه :

تَرَقَّبْ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي فـإِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِلْسَّرِّ
وَبِي مـِنْكَ مَالُوْكَانَ بِالْبَدْرِ مَابِدَا وَبِالشَّمْسِ لَمْ تَطْلُعْ ، وَبِالنَّجْمِ لَمْ يَسِرْ

ويحكي لنا ابن زيدون وقائع اللقاء الأول قائلاً فيما يحكيه ابن بسام ^(١) : « فلما طوى النهار كافوره، ونشر عنبره، أقبلت ولادة بقدر كالقضيبي، وردف كالكتيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الخجل، فملنا إلى روض مديح، وظل سجع، وقد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، وذر الطل منثور، وجيب الراح مزرور، فلما شبننا نارها، وأدركت فينا ثارها، باح كل منا بحبه، وشكا إليه ما بقلبه، وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور، فلما انفصلنا صباحاً أنشدتها ارتياحاً :

وَدَعَّ الصَّبْرَ مُحِبُّ وَدَعَاكَ ذَائِعٌ مِنْ سـُـرَّةِ مَا اسْتَوَدَعَكَ
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فـِي تِلْكَ الْخَطَا إِذْ شِيعَكَ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنَى حَفَظَ اللَّهُ زَمَاناً أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطْلُ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ بَتُّ أَشْكَوْ قَصَرَ اللَّيْلِ مَعَكَ

وهذه الأبيات الأربعة قد رواها المقرئ في نفح الطيب على أنها من شعر ولادة حيث

قال : ^(٢)

وَوَقَّتْ بِمَا وَعَدَتْ، ولما أرادت الانصراف ودعته بهذه الأبيات ثم روى الأبيات، والصحيح قول ابن بسام في الذخيرة، وكذلك قول الفتح بن خاقان في قلائد العقيان لأنهما أقرب عهداً بالشاعر من المقرئ .

(١) الذخيرة لابن بسام ق ١ م ٣٧٧ . (٢) نفح الطيب : ج ٤ ، ص ٢٠٦ تحقيق إحسان عباس .

ولقد عاش المحبَّان زمناً يتبادلان كؤوس الهوى وعبارات الغرام ويترعان من بحار
النعيم تظللهم السعادة الوارفة ، ويغمرهما الحب بدفعته حتى وقعت الواقعة إذ سهر
المتيمان ذات ليلة ، وغنتهما جارية قينة من قيان ولادة تسمى (عتبة) قول القائل :

أَحَبَّتْ نَنَا إِنِّي بَلَغْتُ مُؤْمَلِي ، وَسَاعَدَنِي دَهْرِي ، وَوَصَلَنِي حَبِي
وَجَاءَ يَهْنِينِي الْبَشِيرُ بِقَرِيهِ ، فَلَأَعْطِيته نَفْسِي ، وَزِدْتُ لَهُ قَلْبِي

فأبدى ابن زيدون إعجاباً بغنائها ، ونجراً ، وسألها أن تعيد الصوت مرة أخرى دون
إذن من ولادة ، فأخذ ولادة ما يأخذ النساء من الغيرة ، وسرت في كيانها نارها ، فتغيّر
لونها ، وظنّت أنه يغازل تلك الجارية ، فلطمتها وصرفتها ، واستدارت إليه معنفة مؤنبه
وأشددته قولها :

لَوَكُنْتَ تَنْصَفُ فِي الْهَوَى مَا بَيْنَنَا لِمَ تَهَوَّ جَارِيَتِي وَلَمْ تَتَّخِئْ
وَتَرَكْتَ غَضَنًا مُثْمَرًا بِجَمَالِهِ وَجَنَحْتَ لِلْغُصْنِ الَّذِي لَمْ يَثْمِرْ
وَلَقَدْ عَلِمْتَ بَأَنَّنِي بَدْرُ السَّمَاءِ لَكِنْ وَلَعْتُ لَشِقْوَتِي بِالْمُشْتَرِي

واعتبر ابن زيدون إهانتها لعبته وضربها لها اعتداءً عليه ، وإهانة له فأشدّ قائلاً :

وَمَا ضَرَبْتُ عُتْبَى لَذَنْبٍ أَتَتْ بِهِ ، وَلَكِنَّمَا وَلَادَةٌ تَشْتَهِي ضَرْبِي
فَقَامَتْ تَجْرُ الذِّلَّ عَائِرَةً بِهِ ، وَتَمَسَحُ طَلَّ الدَّمْعِ بِالْعَنَمِ الرُّطْبِ

وحدثت بين العاشقين جفوة ، وتباعداً لبعض الوقت ، وكلاهما يكتنم هواه في
فؤاده ، حتى بادرت ولادة فكتبت إلى ابن زيدون رسالة شعرية تقول فيها :

أَلَا هَلْ لَنَا ، مِنْ بَعْدِ هَذَا التَّفَرُّقِ ، سَبِيلٌ فَيَشْكُو كُلُّ صَبٍّ بِمَا لَقِيَ
وَقَدْ كُنْتُ ، أَوْقَاتَ التَّرَاوُرِ فِي الشَّيْءِ ، أَيُّتُ عَلَى جَمْرٍ مِنَ الشَّوْقِ مُحْرِقِ
فَكَيْفَ ، وَقَدْ أُمْسِيَتْ فِي حَالِ قَطْعَةٍ ، لَقَدْ عَجَّلَ الْمَقْدَارُ مَا كُنْتُ أَتَقِي
تَمُرُّ اللَّيَالِي لَا أَرَى الْبَيْنَ يَنْقُضِي ، وَلَا الصَّبْرُ مِنْ رِقِّ التَّشْوِيقِ مُعْتَقِي
سَقَى اللَّهُ أَرْضًا قَدْ غَدَتْ لَكَ مَنْزِلًا بِكُلِّ سَكُوبٍ هَاطِلِ السُّودِ مَغْدِقِ

فأجباها ابن زيدون على نفس الوزن والرويّ قائلا :

لَحَا اللَّهُ يَوْمًا لَسْتُ فِيهِ بِمُلْتَقٍ مُحْيَاكَ مِنْ أَجْلِ النَّوَى وَالتَّفَرُّقِ
وَكَيْفَ يَطِيبُ الْعَيْشُ بَعْدَ مَسَرَّةٍ وَأَيُّ سُرُورٍ لِلْكَئِيبِ الْمُؤَرَّقِ ؟ !

وعادت العلاقة بعد ذلك إلى سابق عهدها ، وعاد المحبان إلى التلاقي والتناجي ، ولكن إلى حين ، نعم لقد دام ربيع الحب بين ولادة وابن زيدون زمناً ليس بالقصير ، ثم بدأت عوامل الفرقة والخصام تتسلل إلى هذا الربيع ، ومن عوامل هذه الفرقة ما يلي :

أولاً : الغيرة الشديدة التي كانت تنهش قلب ولادة ، والتي دفعتها إلى إساءة الظن بمن أحبها وأخلص لها في حبه ، كما جعلتها تسيئ معه التصرف لأتفه الأسباب ، كما حدث عندما استحسن صوت جارتها عتبي .

ثانياً : مالمسته ولادة من إخلاص ابن زيدون لبني جهور ، وتفانيه في خدمتهم ، وهم الذين كانت لجهود شيخهم أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور اليد الطولى في تقويض ملك آبائها وأجدادها في قرطبة وقد ترك ذلك في نفسها أثراً سيئاً انعكس على علاقتها بابن زيدون ويبدو أنها كانت تطمع في الاعتماد على رجل يعمل على إعادة مجد الآباء والأجداد ، وظنت أنها قد وجدت بغيتها في ابن زيدون ، ولكن خاب ظنها فيه ، فأعرضت عنه ، وقلبت له ظهر المجن .

ثالثاً : ظهور منافس جديد لابن زيدون في حب ولادة ، كان أكثر منه ثراءً ، وأعظم استعداداً للعطاء المادي الذي تحتاج إليه ولادة لكي تظل محتفظة بمظهرها الاجتماعي الرفيع ، وهذا المنافس هو الوزير بن عبدوس ، الذي ألقى بكل مشاعره ، و ما ملكت يده بين يدي ولادة .

رابعاً : حمق تصرف ابن زيدون في كثير من الأحيان ، والذي أوصله إلى حد صفعها على وجهها في لحظة من لحظات الخلاف والشجار بسبب اتهاماتها له ، وذلك بمقولة الدفاع عن نفسه ويبدو أن ذلك كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، وقضت إلى غير رجعة على كل أمل في عودة العلاقة بينهما ، وذلك برغم ما أبداه ابن

زيدون من ندم على هذا التصرف وسجله في شعره قائلاً :

إِنْ تَكُنْ نَالَتْكَ بِالضَّرْبِ يَدِي وَأَصَابَتْكَ بِمَا لَمْ أَرِدْ
فَلَقَدْ كُنْتُ لَعَمْرِي فَادِيَاً لَكَ بِالْمَالِ وَبِعُضِّ الْوَلَدِ
فَنَقَى مِنِّي بَعْدَ ثَابِتٍ وَضَمِي بِرِ خَالِصِ الْمُتَّقِدِ
وَلَيْتَنِي سَاءَكَ يَوْمٌ فَاعْلَمِي أَنْ سَيَتْلُوهُ سُرُورٌ فِي غَدِ

خامساً : كثرة الوشايات التي حملها الوشاة والحساد إلى ولادة ضد شاعرنا والتي اتهموه فيها بالغرور والصلف، والإدعاء بسيطرته على قلب ولادة، وأنها لا يمكن أن تستغني عنه ، هذا إلى جانب خيائته لها مع القيان والإماء، ولقد لقيت هذه الوشايات أذناً صاغية لدى ولادة إلى أن حصلت القطيعة ووقع الهجر .

سادساً : مما زاد الطين بلة، وأوصل أمر العلاقة بين ابن زيدون ولادة إلى طريق وعرة، بل مسدودة ما أقدم عليه كي يبعد عنها منافسة ابن عبدوس حينما كتب الرسالة الهزلية على لسان ولادة وأرسلها مع جارية من جواربها إلى منافسه هذا، وذاع أمر هذه الرسالة وما احتوته بين الناس ، وكان من بين عباراتها عبارات تحمل تشهيراً بولادة ومن ذلك ما ساقه على لسانها تقول : « وكم بين من يعتمدني بالقوة الظاهرة، والشهوة الوافرة، والنفس المصروفة إليّ، واللذة الموقوفة عليّ، وبين آخر نضب غديره، ونزحت بيره، وذهب نشاطه ... »

هذا إلى جانب ما قذف به منافسه لما يئس من إبعاده عن ولادة، وفيه تشهير بولادة أيضاً ، ومن ذلك قوله :

عَيْرُ تَمُونًا بِأَنْ قَدْ صَارَ يَخْلُقُنَا فِيمَنْ نَحِبُ وَمَا فِي ذَاكَ مِنْ عَارٍ
أَكَلْ شَهِيٍّ أَصْبَنًا مِنْ أَطَايِبِهِ بَعْضًا وَبَعْضًا صَفْحًا عَنْهُ لِلْفَارِ

والفار هو لقب ابن عبد وس وشاعرنا بذلك يدعي أنه قد نال من ولادة كل ما يشتهيه، ولم يترك لمنافسه الذي جاء بعده إلا فضلة لا يرغب فيها، وفي هذا إهانة بالغة

لمشاعر الأنثى، مما دفع ولادة إلى الغضب الشديد عليه ، بل ردت عليه بعنف واضح ، وهجته هجاء مقزراً ، ونعته بأحط الصفات ولقبته بالمُسَدَّس وفيه تقول : (١)

وَلَقَبْتَ الْمُسَدَّسَ وَهُوَ نَعْتٌ تَفَارَقَكَ الْحَيَاةُ وَلَا يَفَارِقُ
فَلْوَطِيٍّ وَمَأْبُونٌ وَزَانٍ وَدَيَّ ثَوْتُ وَقَرْنَانٌ وَسَمَارِقُ

فوصفته بصفات ست كل صفة منها أقبح من الأخرى، وهناك أبيات هجت بها ولادة ابن زيدون أرى أنها لشدة قبحها أنزه كتابي عن عرضها، وقد ذكرها المقرئ في كتابه نفح الطيب صريحة .

سابعاً : من العوامل المهمة التي ساعدت على حدوث الجفوة والقطيعة بين الحبيبين : ولادة وابن زيدون كثرة نقد ابن زيدون لشعر ولادة غافلاً عن أن الأنثى تحب الإطراء عليها ومدحها ، وتكره النقد والناقد، حتى إن ابن زيدون لم يتأ بنفسه عن مثل هذا النقد في موقف الصلح بعد القطيعة، وهو موقف يقتضي الملاينة ، والتغاضي عن العيوب « فعين الحب عن كل عيب كليلة » فلقد روى المقرئ (٢) أنه لما أرسلت ولادة إلى ابن زيدون رسالتها الشعرية بعد موقف من مواقف الخصام، والتي بدأتها بقولها : « أَلَا هَلْ لَنَا مِنْ بَعْدِ هَذَا التَّفَرُّقِ » وختمتها بقولها :

سَقَى اللَّهُ أَرْضاً قَدْ غَدَتْ لَكَ مَنَزَلاً بِكُلِّ سَكُوبٍ هَاطِلِ الْوَبْلِ مُغْدِقُ

ففي أثناء رده على هذه الرسالة كتب إليها يقول : وَكُنْتُ رُبَّمَا حَثَّتْنِي عَلَى أَنْ أَنْبِئَكَ عَلَى مَا أَجِدُ فِيهِ عَلَيْكَ نَقْداً ، واني انتقدت عليك قولك : « سَقَى اللَّهُ أَرْضاً قَدْ غَدَتْ لَكَ مَنَزَلاً » فَإِنَّ ذَا الرِّمَّةِ قَدْ انْتَقَدَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ مَعَ تَقْدِيمِ الدَّعَاءِ بِالسَّلَامَةِ .

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مِيَّ عَلَى الْبَلَى وَلَا زَالَ مِنْهَا بِجَرِّ عَائِكَ الْقَطَرُ

إذ هو أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له ..

أمام كل هذه العوامل كان من (٣) الطبيعي والحالة هكذا أن تقطع ولادة صلتها

(١) نفح الطيب للمقرئ ج ٤ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ . (٢) نفح الطيب للمقرئ ج ٤ ص ٢٠٧ .

(٣) ديوان ابن زيدون : تحقيق محمد سيد كيلاني المقدمة ص ٢٧ .

برجلٍ لا يعرف حدّاً يقف عنده في حديثه عنها ومعها، وقد لوث سمعتها، وجعلها مضغة في الأفواه، وأعلن مراراً وتكراراً أنه اتصل بها اتصالاً غير مشروع، ولم يعف عن هذا الإعلان والتشهير حتى بعد أن تقدمت به السنّ، وهو يعلم أن ذلك يؤلمها، ولكنه لم يحسب لشعورها أيّ حساب، ومهما ^(١) يكن من أمر فقد حصلت القطيعة، وكانت ولادة هي البادئة، وسمحت لمحّب جديد، ليس بالشاعر المرفه هذه المرة، ولكنه الوزير الخطير أبو عامر بن عبدوس أن يتقرب منها مما أثار ابن زيدون وألهب نار الغيرة في قلبه، ودفعه إلى تصرف أحمق، فأرغى وأزبد، وهدد وتوعدّ، وقال ما قال في حق ولادة وابن عبدوس مما شكل عاملاً من عوامل التآمر عليه والكيد له حتى كان مآله السجن .

الآثار الأدبية لنكبة ابن زيدون العاطفية :

من الجدير بالذكر أن نار العشق عندما شبت في قلب ابن زيدون وبادلتها ولادة حبّاً بحبّ، ورشفاً معاً كؤوس السعادة في ظلال الغرام فجرّ عشقه ينابيع الشعر فيأضة، نظمها ابن زيدون قصائد تشي بنعيم عينيه بوصل محبوبته له، وقربها منه، ويتراقص فؤاده طرباً وتخلق روحه في سماء الكون سعادة، وتنتشي نفسه بلذة الوصل ومن ذلك ما جاء في قوله : ^(٢)

وَشَادَنَ أَسْأَلُهُ قَهْوَةً فَجَادَ بِالْقَهْوَةِ وَالْوَرْدِ
فَبِتُّ أُسْقَى الرَّاحَ مِنْ رِيْقِهِ وَأُجْتَنِّي الْوَرْدَ مِنَ الْخُدِّ

وكذلك قوله :
يَا مُخْجَلِ الْغُصْنِ الْفَيْنَانَ إِنْ خَطَرَا وَفَاضِحِ الرَّشْشِ الْوَسْنَانَ إِنْ نَظَرَا
مَا كَانَ حُبُّكَ إِلَّا فَتْنَةً قُدِرَتْ هَلْ يَسْتَطِيعُ الْفَتَى أَنْ يَدْفَعَ الْقَدَرَا
ومن شعره الذي يفيض سعادة أيام الهناء قوله :

لَقَدْ كُنْتُ فِي السَّنِّ تَرْبَ الْهَلَالِ لَقَدْ قُتِّتَ فِي الْحُسْنِ بَدْرَ الْكَمَالِ
لَقَدْ بَلَّغْتَنِي دَوَاعِيَ هَوَاكَ إِلَى غَايَةِ مَا جَرَتْ لِي بِيَالِ

(١) في الأدب الأندلسي د. جودت الركابي ص ١٧١ .

(٢) ابن زيدون د . شوقي ضيف ص ٣٢ - ٣ م سلسلة نوايغ الفكر العربي .

فَقُلْ لِلْهَوَى يَجْرِمُ سِلْءَ الْعَنَانِ فَمَيْدَانُ قَلْبِي رَحِيبَ الْمَجْمَالِ
 والمتتبع لديوان ابن زيدون يرى أن شعر الحب عنده هو أسبق ألوان الشعر فيه ، كما
 أن شعر الغزل والنسيب في هذا الديوان بما في ذلك المقدمات الغزلية لقصائد المدح فيه
 يشكل ثلث الديوان أو أكثر لذلك لا يمكننا عرض كل ما قاله في الغزل ، ولا نغفل أن
 غزله جلّه إن لم يكن كله كان في ولادة ، حيث لم نقف على محبوبة أخرى علق بها
 قلبه .

ولما حدثت الجفوة ، واشتدت القطيعة بين المحبين تحولت أشعاره من التعبير عن
 السعادة والهناء إلى التعبير عن اللوعة والحرقه ، وفيها مرارة الشكوى من هجر الحبيب
 بعد الوصال .

نعم جاءت قصائده تفيض بالدموع والآهات والزفرات والتنهيدات ، والتحسر على
 كل مافات وتكشف عن ظلام الدنيا من حوله ، وعبوسها في وجهه ، وتنم عن كيد فتتها
 الحزن ، واعتصرتها الحسرة ، وفؤاد يتمزق بخنجر الهجر والجفاء .

أجل نطقت أشعاره تنادي ولا مجيب ، وتعتذر طالبة الصفح ولا مستجيب ، فبات
 ابن زيدون حزينا كاسف البال مقهوراً محزوناً يشجي الوجود ومن حوله بشجوه ، ويكي
 حمام الأيك لبكائه ، ولقد كان النتاج الشعري لنكبة ابن زيدون العاطفية كثيراً جداً
 ولذلك سنكتفي بعرض أشهر القصائد ، ونحيل القارئ على الديوان ليقف على المزيد
 من هذا اللون الشاكي الباكي ..

ومن شعر ابن زيدون في عتاب محبوبته قوله : (١)

بَاعَدَتْ بِالْإِعْرَاضِ غَمِيرُ مَبَا عِدْ	وَزَهَدَتْ فِيمَنْ لَيْسَ فَيْكَ بِزَاهِدِ
وَسَقَيْتَنِي مِنْ مَاءِ هَجْرِكَ مَالِهْ	أَصْبَحْتُ أَشْرَقُ بِالزُّلَالِ الْبَارِدِ
هَلَّا جَعَلْتَ - فَدَتِكَ نَفْسِي - غَايَةً ،	لَلْعَبِّ أُبْلُغَهَا بِجَهْدِ الْجَاهِدِ
لَا تُفْسِدَنَّ ، مَا قَدْ تَكَّدَ بَيْنَنَا	مِنْ صَالِحٍ ، خَطَّ رَاتُ ظَنِّ فَاسِدِ

(١) ديوان ابن زيدون : تحقيق محمد سيد كيلاني ص ١٧٥ .

حَاشَاكَ مِنْ تَضْيِيعِ أَلْفِ وَسِيلَةٍ ،
 إِنْ أَجِنْتَهُ خَطَأً فَقَدْ عَاقَبْتَنِي
 عُدِّي لِمَا أَصَفَيْتَنِيهِ مِنَ الْهُوَى
 وَضَعِي قِنَاعَ السُّخْطِ عَنْ وَجْهِ الرِّضَا
 شَجَى الْعَدُوِّ لَهَا ، بِذَنْبٍ وَاحِدٍ
 ظَلَمْتُ بِأَبْلَغٍ مِنْ عِقَابِ الْعَامِدِ
 بَدَأَ فَلَسْتُ لِمَا كَرِهْتَ بَعَائِدُ
 كَسِيمًا آخِرَ إِلَيْهِ أَوَّلَ سَاجِدِ

وإذا كان الشاعر في هذه المقطوعة يعلن لها جرتة أنه لن يبادلها هجراً بهجر، ولن يزهد فيها كما زهدت فيه، ويشرح لها أثر هجرها عليه إذ أصبح يغص ويشرق بالماء الزلال، ويحضها على ألا تفسد ما بينهما بالتأثر بوشاية الواشين، لترضي بذلك كل حاسد، ثم يرجوها أن تعود إلى صافي الوداد، ويعدها أنه لن يعود إلى ما تكرهه منه، ويسألها الرضا عنه معلناً أنها إن فعلت سيكون أول خاضع لها فإنه في المقطوعة التالية يتحسر على عدم استجابتها له، ويتألم لما وصل إليه الحال بينهما من تقاطع وتنافر فيقول : (١)

كَمَ ذَا أُرِيدُ وَلَا أُرَادُ
 أَصْفِي الْوِدَادَ مُدَلَّلاً
 يَقْضِي عَنِّي عَلَيَّ دَلَالَهُ
 كَيْفَ السَّلْوُ عَنْ الَّذِي
 مَلَكَ الْقُلُوبَ بِحُسْنِهِ ،
 يَاهَا جَرِي ، كَمْ أَسْتَفِي
 أَلَا رَثَيْتَ لِمَنْ يَبِي
 إِنْ أَجِنَ ذَنْباً فِي الْهُوَى
 كَانَ الرِّضَا ، وَأُعْيِيْذُهُ
 يَأْسُوءَ مَا لَقِيَ الْفُؤَادُ
 لَمْ يَصْفُ لِي مِنْهُ الْوِدَادُ
 فَبِي كُلِّ حَسِينٍ ، أَوْ يَكَادُ
 مَثْوَاهُ مِنْ قَلْبِي الْوَسْوَادُ ؟ !
 فَلَهَا إِذَا أَمَرَ انْقِيَادُ
 بَدَّ الصَّبْرَ عَنْكَ فَلَا أَفَادُ
 تَ وَحْشُوْ مُقْلَتِهِ السَّيْهَادُ ؟ !
 خَطَأً فَقَدْ يَكْبُو الْجَوَادُ
 أَنْ يُعْقَبَ الْكَوْنُ الْفَسَادُ

(١) ديوان ابن زيدون ت محمد سيد كيلاني ص ١٧٤ - ١٧٦ .

ولما كان الشاعر لا يستطيع السلو، ولم يستجب المحبوب لنداءاته ويعفو عن ذلته فإنه راح يتساءل ولا مجيب، كما راح يشكو مابه فيقول: (١)

مَـنْـتَى أَثْنُكَ مَا بِي؟	يَا رَاحَتَـيْ وَعَذَابِي
مَتَى يَنْوِبُ لِسَانِي	فِي شَرْحِهِ عَنِ كِتَابِي؟
الَّتِي يَعْلَمُ أَنِّي	أَصْبَحْتُ فِيكَ لِمَا بِي
فَلَا يَطِيبُ طَعَامِي	وَلَا يَسُوغُ شَرَابِي

وفي موقف آخر يستمر الشاعر في تساؤله، واسترضاء محبوبته قائلاً: (٢)

هَلْ لِدَاعِيكَ مَجِيبٌ	أَمْ لَشَاكِيكَ طَبِيبٌ؟
يَا قَرِيباً حِينَ يَنَـأَى	حَاضِراً حِينَ يَغْـيِبُ
كَيْفَ يَسْـَـلُوكُ مُحِبٌّ	زَانَهُ مِنْـكَ حَبِيبٌ
إِنَّمَا أَنْتَ نَسِيمٌ	تَتَلَقَّاهُ الْقُلُوبُ

وتزداد الجفوة، وتشتد القطيعة، وتمعن ولادة في الهجر حتى كاد ابن زيدون أن يجنّ فراح يخاطبها معاتباً وشاكياً جورها عليه وإرضاءها لحسادته قائلاً (٣)

أَوْسَلِّبُ مِنْ وَصَالِكَ مَا كُسِيتُ؟	وَأَعْزِلُ عَنْ رِضَاكَ وَقَدْ وَلِيتُ
وَكَيْفَ وَفِي سَبِيلِ هَوَاكَ طَوْعاً	لَقِيتُ مِنَ الْمَكِيدِ مَا لَقِيتُ
فَدَيْتُكَ، لَيْسَ لِي قَلْبٌ فَأُسْلُو	وَلَا نَفْسٌ فَأَنْفٌ إِنْ جَفَـيْتُ
فَإِنْ يَكُنِ الْهَوَى دَاءً مُمِيتاً	لِمَنْ يَهْوِي فَإِنِّي مُسْتَمِيتُ
أُسْرُ عَالِيكَ عَتَباً لَيْسَ يَبْقَى	وَأُضْمِرُ فِيكَ غَيْظاً لَا يَبِيتُ
وَمَارِدِي عَلَى الْوَاشِينَ إِلَّا	رَضِيتُ بِجَوْرِ مَالِكِيَّتِي رَضِيتُ

ولكن المحبوبة سادرة في غيها ، ممعنة في هجرها ، ماضية في إرهاب من أحبها مخلصاً في حبها ، فلجأ ابن زيدون إلى تذكيرها بالعهد الذي بينهما ، محذراً لها من استجابتها لحاسديه وشائتيه ، مذكراً إياها بتغاضيه عن كثير من أخطائها في حقه ، ورضاه بكل تصرف ييدر منها تجاهه حتى ولو كان مسيئاً مؤلماً ..

ثم يبين لها أنه ابتعد عنها مكرهاً غير راغب في البعد .. كل هذه المعاني وغيرها في قصيدته اللامية التي يقول فيها : (١)

- ١- لَئِنْ قَصَرَ الْيَأْسُ مِنْكَ الْأَمَلُ ،
 - ٢- وَنَجَاكَ بِالْإِفْئِنْكَ فِي الْحَسُودِ ،
 - ٣- وَرَأَقَكَ سَحَرُ الْعَدَا الْمُفْتَرَى
 - ٤- وَأَقْبَلْتَهُمْ فِي وَجْهِ الْقَبُولِ ،
 - ٥- فَإِنَّ ذِمَامَ الْهَوَى لَمْ أزلْ
 - ٦- فَدَيْتَكَ ، إِنْ تَعَجَّلِي بِالْجَفَا ،
 - ٧- عِلَامَ أَطْبَتِكَ دَوَاعِي الْقَلَى ؟
 - ٨- أَلَمْ أَلْزِمِ الصَّبْرَ كَيْمًا أَخْفَ ؟
 - ٩- أَلَمْ أَرْضَ مِنْكَ بَغِيرِ الرِّضَا ،
 - ١٠- أَلَمْ أَغْتَفِرْ مَوْبِقَاتِ الْبُذُنُو
 - ١١- وَمَا سَاءَ ظَنِّي فِي أَنْ يُسَيِّئَ
 - ١٢- عَلَيَّ حِينَ أَصْبَحْتَ حَسْبَ الضَّمِيرِ ،
 - ١٣- وَصَلَانِكَ مِنِّي وَفِي أَبِي ،
 - ١٤- سَعَيْتَ لَتَكْدِيرِ عَهْدٍ صَفَا ،
 - ١٥- فَمَا عَوِفْتَ مِقْتَنِي مِنْ أَدَى ،
- وَحَالَ تَجَنُّيكَ دُونَ الْحِيلِ
فَأَعْطَيْتَهُ جَهْرَةً مَسْأَلِ
وَعَرَّكَ زُرْهُمُ الْمُفْتَعَلِ
وَقَابَلَهُمْ بِشُرْكَ الْمُقْتَبَلِ
أَبْقَيْتَهُ حَفْظًا كَمَا لَمْ أزلْ
فَقَدْ يَهَبُ الرِّيثَ بَعْضُ الْعَجَلِ
وَفِيهِمْ تَنْتَكَ نَوَاهِي الْعَدَلِ ؟
أَلَمْ أَكْثَرَ الْهَجَرَ كَيْمًا لَا أَمَلُ ؟
وَأُبْدِي السُّرُورَ بِمَا لَمْ أُنَلِ ؟
بِ ، عَمْدًا أَتَيْتَ بِهَا أَمْ زَلَلِ ؟
بِي الْفَعْلَ حُسْنُكَ حَتَّى فَعَلَ
وَلَمْ تَبْغِ مِنْكَ الْأَمَانِي بَدَلِ
لَعَلَّتْ الْعِلَاقَةُ أَنْ يَتَذَلِ
وَحَاوَلْتَ نَقْصَ وَدَادِ كَمَا لَمْ
وَلَا أَعْفَيْتَ ثِقَتِي مِنْ خَجَلِ

(١) ديوان ابن زيدون ت محمد سيد كيلاني ص ١٦٩ - ١٧١ .

- ١٦- وَمَهْمَا هَـزَزْتُ إِلَيْكَ الْعَنَّا
 ١٧- كَلَّا أَنْكَ نَاطَرْتُ أَهْلَ الْكَلَامِ،
 ١٨- وَلَوْ شِئْتَ رَاجَعْتَ حُرَّ الْفَعَالِ،
 ١٩- فَلَمْ يَكْ حَظِّي مِنْكَ الْآخَسُ،
 ٢٠- عَلَيْكَ السَّلَامُ سَلَامُ الْوَدَاعِ،
 ٢١- وَمَا بِاخْتِيَارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكَ،
- ب ، ظَاهَرَتْ بَيْنَ ضُرُوبِ الْعِلَلِ
 وَأَوْتَيْتَ فَهَمًّا بَعْلَمَ الْجَدَلِ
 وَعَدْتَ لَتُنْكَ السُّجَايَا الْأَوَّلِ
 وَلَا عُدَّ سَهْمِي فِيهِ الْإِقْلُ
 وَدَاعَ الْهَوَى مَاتَ قَبْلَ الْأَجْلِ
 وَلَكُنْتُ مَكْرَهُ لَا بَطْلُ

ولم تُجدِ توسلاتُ ابن زيدون، فكما أظهرت الأبيات السابقة كانت محبوبته ماهرة في إظهار العِلل والمعاذير، لبقة في المحاوراة والمناورة، وظل على هذا الحال يتوسل ويستجدي الرضا دون طائل حتى نجح حاسدوه في إيغار قلب أبي الحزم بن جهور عليه، ودبرت مؤامرة ضد شاعرنا فزج به في السجن حيث مكث فيه خمسين مئة من الأيام، ومن سجنه وهو يرسف في قيوده، ومن ثانيا ظلام محنته ونكبته يرسل إلى محبوبته ولادة هذه الرسالة الشعرية علها تعطف عليه، وتخفف عنه ما يعانيه، وفيها يقول : (١)

- ١- إِلَيْكَ مِنَ الْأَنَامِ عِدَا ارْتِيَا حِي،
 ٢- وَمَا اعْتَرَضَتْ هُمُومُ النَّفْسِ إِلَّا
 ٣- فَدَيْتُكَ إِنْ صَبَرِي عَنْكَ صَبْرِي،
 ٤- وَلِي أَمَلٌ ، لَوْ الْوَأَشُونَ كَفُّوا،
 ٥- وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ،
 ٦- وَلَمَّا أَنْ جَلَّتْكَ لِي، اخْتَلَسَا،
 ٧- رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابِ،
 ٨- فَلَوْ أَسْطَيْعُ طَرْتُ إِلَيْكَ شَوْقَا،
 ٩- عَلَى حَالِي وَصَبَالٍ وَاجْتِنَابِ،
 ١٠- وَحَسْبِي أَنْ تَطَالَعُكَ الْأَمَانِي،
- وَأَنْتَ عَلَى الزَّمَانِ مَدَى اقْتِرَاحِي
 وَمِنْ ذِكْرِكَ رِيحُ بَانِي وَرَاحِي
 لَدَى عَطَشِي، عَلَى الْمَاءِ الْقَرَّاحِ
 لِأَطْلَعُ غَرْسَهُ ثَمَرَ النَّجَاحِ
 رِضَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِ
 أَكْفُ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ الْمُتَاحِ
 وَغُصْنِ الْبَانِ يَرْقُلُ فِي بِي وَشَاحِ
 وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُورُ الْجَنَاحِ
 وَفِي يَوْمِي دُنُوٌّ وَانْتِزَاحِ
 بِأَفْقِكَ، فِي مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ

(١) ديوان ابن زيدون تحقيق حنا الفاخوري ص ٤٠٣ .

- ١١- فُوَادِي مِنْ أَسَىِّ بَكَ غَيْرُ خَالٍ ، وَقَلْبِي عَنْ هَوَىِّ لَكَ غَيْرُ صَاحٍ
١٢- وَأَنْ تُهْدِيَ السَّلَامَ إِلَيَّ غَيًّا وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيحِ

ولمَّا فرَّ ابن زيدون من سجنه بمساعدة أبي الوليد بن أبي الحزم بن جهور وتخفي لبعض الوقت في قرطبة ، ثم غادرها إلى بطليوس ، وابتعدت به الدَّار ، وشط المزار ، وكان يحمل يأسه بين ضلوعه ، وألمه في فؤاده ، أرسل إلى ولادة راتعة التونية التي قدم لها الفتح بن خاقان عندما أراد عرضها في كتابه قلائد العقيان قائلاً : (١)

« ولم يزل يروم دُنُوَ ولادة فيتعذَّر ، ويباح دمه دونها ويهدر ، لسوء أثره في ملك قرطبة وواليها ، وقبائح كان ينسبها إليه ويواليها ، أحقدت بني جهور عليه ، وسدَّتْ أَسْنَتَهُمْ إِلَيْهِ ، فلمَّا يَس من لَقِيَّاهَا ، وحجَّب عنه مُحِيَّاهَا ، كتب إِلَيْهَا يَسْتَدِيم عَهْدَهَا ، ويؤكد ودَّهَا ، ويعتذر عن فراقها بالخطب الذي غشيه ، والامتحان الذي خشيه ، ويعلمها أنه ماسلاً عنها بخمر ، ولاخبا ما بين ضلوعه لها من ملتهب جمر ، وهي قصيدة ضربت في الإبداع بسهم ، وطلعت في كل خاطرٍ ووهم ، وقصر عنها حبيب وابن الجهم ، وأولها :

- ١- أَضْحَى التَّنَائِي بِدِيْلًا مِنْ تَدَانِيْنَا ،
٢- أَلَا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبْحًا
٣- مَنْ مَبْلُغُ الْمُبْسِيْنَا بَانْتِزَاحِهِمْ
٤- إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يَضْحَكُنَا
٥- غِيْظَ الْعَدَا مِنْ تَسَاقِيْنَا الْهَوَى فَدَعَا
٦- فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا ،
٧- وَقَدْ نَكُونُ ، وَمَا يُخْشِي تَفَرُّقُنَا ،
٨- يَأْلَيْتَ شَعْرِي ، وَلَمْ نَعْتَبْ أَعَادِيكُمْ ،
٩- لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ
- وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا
حِينَ ، فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ دَاعِيْنَا
حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَلِيْ وَيُلِيْنَا
أَنْسَاءً بِقُرْبِهِمْ ، قَدْ عَادَ يُكِينَا
بِأَنْ نَغْصُ فَقَالَ الدَّهْرُ أَمِيْنَا
وَأَنْبَتَ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِيْنَا
فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يَرْجِي تَلَاقِيْنَا
هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ الْعُتْبَى أَعَادِيْنَا
رَأْيَا وَلَمْ تَتَّقْ دِيْنَهُ دِيْنَنَا

(١) قلائد العقيان للفتح ابن خاقان ص ٨٢ ، وديوان ابن زيدون تحقيق كيلاني ص ١٩٥ - ١٩٩ .

١٠- مَا حَقُّنَا أَنْ تُقَرُّ وَاعَيْنَ ذِي حَسَدٍ
 ١١- كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسْلِينَا عَوَارِضَهُ
 ١٢- بُنِيتُمْ وَبِنَا ، فَمَا ابْتَلَيْتُمْ جَوَانِحَنَا
 ١٣- نَكَادُ حِينَ تَتَاجِيحُكُمْ ضَمَائِرُنَا
 ١٤- حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا ، فَغَدَتُ
 ١٥- إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ ، مِنْ تَأَلَّفُنَا
 ١٦- وَإِذْ هَضَبُنَا فَنَوْنَ الْوَصْلِ دَانِيَةً
 ١٧- لَيْسَ عَهْدُكُمْ ، عَهْدُ السُّرُورِ ، فَمَا
 ١٨- لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يَغَيِّرُنَا ،
 ١٩- وَاللَّهِ مَا طَلَبْتُ أَهْوَاؤَنَا بَدَلًا
 ٢٠- يَا سَارِي الْبَرْقِ ، غَادِ الْقَصْرِ ، وَاسْقِ بِهِ
 ٢١- وَاسْأَلْ هُنَالِكَ هَلْ عَنَى تَذَكُّرُنَا
 ٢٢- وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا ، بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا
 ٢٣- فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً
 ٢٤- رَبِيبُ مُلْكٍ ، كَأَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَهُ
 ٢٥- أَوْصَاغَهُ وَرَقًا مَحْضًا ، وَتَوَجَّهَ
 ٢٦- إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَّةً
 ٢٧- كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِلًّا فِي أَكْلَتِهِ ،
 ٢٨- كَأَنَّمَا أُبْثِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ
 ٢٩- مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا ،

بِنَا ، وَلَا أَنْ تَسُرَّ وَاكْشَحْنَا فِينَا
 وَقَدْ يَتَسَنَّأُ فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا
 شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَتْ مَأَقِينَا
 يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْ لَا تَأْسِينَا
 سُودًا ، وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لِيَا لِينَا
 وَمَرِيعُ اللَّهِو صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
 قَطَافُهَا ، فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا
 كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا
 إِنْ طَلَمَّا غَيَّرَ السَّنَى الْحَيِّينَا
 مِنْكُمْ ، وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا
 مِنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوَدَّ يَسْقِينَا
 الْفَنَاءَ تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يَعْنِينَا
 مَنْ لَوْ عَلَى الْقُرْبِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا
 مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَبًا تَقْضَايِينَا
 مَسْكَأً ، وَقَدْ قَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
 مِنْ نَاصِعِ التَّبَرِّ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينَا
 تَوْمَ الْعُقُودِ ، وَأَدَمَّتْهُ الْبَرَى لِينَا
 بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحْيَايِينَا
 زُهر الكواكبِ تَعْوِيذًا وَتَزْيِينَا
 وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَايِينَا

٣٠- يَا رَوْضَةً طَالَمَا أُجِنْتُ لَوَاحِظَنَا
 ٣١- وَيَا حَاحَاحَ يَاحَ تَمَلِّينَا بِزَهْرَتِهَا
 ٣٢- وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا ، مِنْ غَضَارَتِهِ ،
 ٣٣- لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلًا لَا وَتَكْرَمَةً ،
 ٣٤- إِذَا انْفَرَدْتَ ، وَمَا شَوْرَكَتْ فِي صِفَةٍ ،
 ٣٥- يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ ، أَبَدَلْنَا بِسَدْرَتِهَا
 ٣٦- كَأَنَّا لَمْ نَبْتَ وَالْوَصْلَ ثَالِثًا ،
 ٣٧- إِنْ كَانَ قَدْ عَزَفِي الدُّنْيَا اللَّقَاءُ فَفِي
 ٣٨- سِرَّانِ فِي خَاطِرِ الظُّلُمَاءِ يَكْتُمُنَا
 ٣٩- لَا غُرُو فِي أَنْ ذَكَّرْنَا الْحَزْنَ حِينَ نَهَتْ
 ٤٠- إِنَّا قَرَأْنَا الْأُسَى يَوْمَ النَّوَى سُورًا
 ٤١- أَمَّا هَوَاكَ ، فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ
 ٤٢- لَمْ نَجِفْ أَفَقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبِهِ
 ٤٣- وَلَا اخْتِيَارًا مُجْتَنِبَاهُ عَنْ كُتُبِ ،
 ٤٤- نَأْسَى عَلَيْكَ إِذَا حُثَّتْ مُشْعَشَعَةٌ
 ٤٥- لَا أَكُؤُسُ الرِّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا
 ٤٦- دُومِي عَلَى الْعَهْدِ ، مَا دُمْنَا ، مُحَافِظَةً ،
 ٤٧- فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْبِسُنَا ،
 ٤٨- وَلَوْ صَبَا نَحُونًا ، مِنْ عُلُوِّ مَطْلَعِهِ ،
 ٤٩- أَبْكِي وَفَاءً ، وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِي صِلَةً ،
 ٥٠- وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ ، إِنْ شَفَعْتَ بِهِ

وَرَدًّا ، جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا ، وَنَسْرِينَا
 مُنَى ضُرُوبًا ، وَلَذَاتِ أَفَانِينَا
 فِي وَشِي نَعْمَى سَحْبًا ذِيْلَهُ حِينَا
 وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلِي عَنِ ذَاكَ يُغْنِينَا
 فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِضْحَاحًا وَتَبْيِينَا
 وَالْكُوثرُ الْعَذْبُ ، زَقُومًا وَغَسْلِينَا
 وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَأَشِينَا
 مَوَاقِفَ الْحَشْرِ نَلْقَاكُمْ وَيَكْفِينَا
 حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يَفْشِينَا
 عَنْهُ النَّهْيُ ، وَتَرَكَنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
 مَكْتُوبَةً ، وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
 شَرِبًا ، وَإِنْ كَانَ يَرُونَا فَيُظْمِنَا
 سَالِّينَ عَنْهُ ، وَلَمْ نَهْجِرْهُ قَالِينَا
 لَكِنْ عَدَدْنَا عَلَى كَرِهِ عَوَادِينَا
 فِينَا الشُّمُولُ ، وَغَنَانَا مُغْنِينَا
 سِيمًا ارْتِيَا حَاحَ ، وَلَا الْأَوْتَارُ تَلْهِينَا
 فَالْحَرُّ مِنْ دَانٍ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا
 وَلَا اسْتَفْدَنَا جَبِيبًا عَنْكَ يَشِينَا
 بَدْرُ الدُّجَا لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يُصْبِينَا
 فَالطِّيفُ يُقْنَعُنَا ، وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا
 بِيضَ الْأَيْدِي الَّتِي مَازَلْتَ تُولِينَا

شرح وتحليل :

لا مرء في أن نونية ابن زيدون هي رائعة من روائعه فعلا، حيث صدرت عن وجدان صادق، وعاطفة جياشة، فعبّرت عن نشيج روح الشاعر، وكشفت عن معاناته التي تعتصر فؤاده، وبَيّنت اتصالاً حقيقياً وثيقاً بين ما ضيقه وحاضره، نعم الماضي بما كان فيه من نعيم ظن شاعرنا أنه مقيم، والحاضر بما يحمله من شقاء وعناء، ومرارة وكدر لا يبدو له صفاء، وبما فيه من أمل بعيد المنال .

فلقد صدرت هذه القصيدة من قلب الشاعر المكلم، وهو شريد طريد، مهدر الدم، وكأنّ الدهر قد حشد له كل القوى متضافرة على حربه، فالمحبوبة قد هجرته قبل ذلك بفترة، وولي نعمته غاضب عليه مهدر دمه، مصمّ أذنيه لا يسمع له رجاء، ولا يجيب نداء، وكذا الأصحاب الذين كان يتوقع منهم دفاعاً عنه قد تخلّوا عن صحبته، وتنكروا لصداقته خوفاً على أنفسهم ومناصبهم إلا القليل منهم، وحسّاده قد قويت شوكتهم، واشتدت شكيمتهم، وسمعت كلمتهم، ونجحت خطبتهم، وبعد عنه المال والأهل والولد .. كل هذه المنغصات قد أحاطت - بشاعرنا الذي يعاني الغربة - إحاطة السور بالمعصم، والعجيب أنه لم يتضجر من واحدٍ منها إلا من هجر محبوبته له، ولم يدم قلبه خنجر إلا خنجر قلاها له بعد حب، وابتعادها بعد قرب . وكأنني به يتصور أنها لو كانت إلى جواره تأسو له، وتمسح جراحه، وتخفف عنه لوعته ما حرّكت كل عوامل الشر التي تطارده شعرة واحدة في رأسه .

إذن فنكبة العاطفة أقوى في قلب الشاعر أثراً من نكبة السياسة، ولذلك جاءت تلك القصيدة تعبر عن تجربة واقعية عاشها ابن زيدون بكل مشاعره وحواسه ذاق خلالها حلاوة الوصل ومرارة الهجر، ورشف كؤوس السعادة أعقبتها كؤوس الشقاوة، عانى فيها من ذل الغرام والقتال ولذلك اشتقت كلماته من ضربات قلبه، ومن نبض فؤاده المعنى ولقد جاء ببيان قصيدته عفويّاً غير مقصود بترتيب أو تقسيم ولكنه خرج إلينا قائماً على خمس دعائم شكلت هذا البنيان :

الدعامة الأولى :

حديث عن ذكريات الماضي السعيد وواقع الحاضر المرير وقد استغرق الشاعر في هذا الحديث أكثر من ثلث أبيات قصيدته ولم ينس خلال هذا الحديث أن يدلل بين وقت وآخر على حفاظه على العهد، والوفاء للمحبة، واستمرار حبه لها، وتحمله المعاناة ومرارة الهجر .. ومثال ذلك قوله :

لم نعتقدُ بعدكمُ إلاَّ الوفاءَ لكمُ رأياً ، ولم نتقلدُ غيرهَ ديناً
وكذلك قوله مدلاً على قوة تحمله لآلام الهجر ، وتجلده أمام المعاناة :

نَكَادُ حِينَ تَنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
وفي تدليله على حفاظه على العهد، وعدم التخلي عن حبه لمحبه ولأدلة يقول :

لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا، إِنَّ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا
والله مَا طَلَبْتُ أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا مِنْكُمْ وَلَا أَنْصَرَفْتُ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

أما الدعامة الثانية :

فهي مناجاة لعناصر الطبيعة المحيطة به، وإشراكها في علاج آلامه، وإزالة معاناته، بل ودعوها إلى مشاركته مشاعره وآلامه.... وتمثل ذلك في مناداته قائلاً : يا ساري البرق، يا نسيم الصبأ، هل أرى الدهر يقضينا .. ؟ وخلال مناجاته لهذه العناصر لم ينس محاولة التقرب من المحبة بذكرها بالخير، وتذكيرها بأيام الود وأثر هجرها له بعد أن أذاقته حلاوة الوصل، لعل ذلك يدفعها إلى التخلي عن هذا الهجر ، وذاك التمتع .

الدعامة الثالثة :

وصف المحبة ،وقد بالغ الشاعر في وصف محبته ووصفاً حرياً بأن يأسر قلب أي امرأة توصف به ، انطلاقاً من القول المعروف « والغواني يغرهنّ الشاء » .

الدعامة الرابعة :

عودٌ إلى مناجاة المحبوبة بعد أن ناجى عناصر الطبيعة ودعاها إلى التوسط بينهما ،
كأنني به أحس أن هذه الوساطة لن تجدي ، فعمد إلى الحديث المباشر ، وخاطبها خطاب
المتذلل لها الحريص على الوفاء ، المقيم على العهد ، الذي لا يصرفه عنها صارف ، لعل
ذلك يغير مشاعرها ..

الدعامة الخامسة :

التماس ورجاء .. ، فما الذي التمسهُ الشاعر من هذه المحبوبة المتأبّية عليه ؟ إنه
يلتمس أن تدوم على عهد المحبة والمودة ويستعطف فؤادها الذي أصابه الجمود مؤكداً أنه
لن يثنيه عنها أحد ولن يشغله عنها شيء مهما بلغ حسنه ، حتى ولو نزل إليه بدر الدجى
من عليائه .. ويختم التماسه بتحية السلام ما بقي قليل من الحب في قلبه يفضح مكنون
صدره ..

تحليل المعاني العامة في القصيدة :

(١) بدأ الشاعر قصيدته بحديث ربط فيه بين ماضيه وحاضره حيث أخبر في
حسرة وألم أن قد أضحى التباعد والهجر بديلاً عن الوصل والقرب ، وحلّ الجفاء ،
ونابت القطيعة مناب اللقاء الطيب ، وحينما بزغ نور الصباح يوم الفراق أصابنا الفزع
والهلع ، فلقد كان قدوم صبح هذا اليوم أشبه ما يكون بقدوم الناعي (الذي يعلن
خبر الموت) يؤذنا بهلاكنا ، فمن ياترى يخبر الذين ألبسونا ثوب الحزن بفراقهم لنا ، -
هذا الثوب الذي لا يلى مع الأيام بسبب بعد الأحياء عنا - أن زمن السرور قد ولى إلى
غير رجعة ؟ ، هذا الزمان الذي كان يضحكننا ويسعدنا بقرب الحبيب قد انقلب علينا
فأبكى قلوبنا .

ولقد اغتاط الأعداء الحاقدون الحاسدون من تقاربنا وتظليل أشجار السعادة الوراثة
لنا ، فدعوا علينا بأن نغصّ ونشرق وأن تنقلب حياتنا جحيماً بدل النعيم ، وأمن الدهر على
دُعائهم أي استجاب لمطلبهم ، وترتب على ذلك أن انحلت روابط المحبة التي كانت

تصل بين روحينا ، وانهار صرح المودة الذي بيننا بأيدينا، فبالأمس كنا معاً، وكنا لا نخشى الفراق، ولا نتوقع أن يشقينا البعاد، واليوم ابتعدنا، وتفرقتنا، ولا رجاء في تلاقينا مرة أخرى، وبالله العجب .. ما الذي حدث ؟ فنحن لم نحاول يوماً أن نرضي أعداءنا فهل نالوا اليوم مأربهم، وأرتاحت قلوبهم، ورضيت نفوسهم بما أصبحنا عليه من الهجر والخصام ؟

وبرغم هجركم لنا أحببتنا فإن الوفاء لكم هو عقيدتنا التي لا نعيد عنها بعد البعد والخصام، بل لا نرضى بغير الوفاء لكم ديناً ومذهباً ..

ومن حقنا عليكم ألا تسعدوا حسادنا، وتُفروا أعينهم بما حلَّ بنا ولا أن تسرُّوا شائناً لنا كارهاً بما وصلنا إليه من الهجر المؤلم ، ويقر الشاعر بأن دوام الحال من المحال .. فيقول : كم كنا نظن أن اليأس لن يعرف طريقه إلينا أبداً، ولم نك ندرك حقيقة ولا مظاهره، ولكنه للأسف قد لحق بنا وأصابنا فكيف استطاع أن يتسلل إلى قلوبنا ؟ !

كما يخاطب المحبوبة مبيناً أثر هجرها له قائلاً : لقد ابتعدتم عنا، وابتعدنا عنكم ، وكانت النتيجة المؤلمة أن جفَّت أحشاؤنا ، وبس قلبنا من شدة الشوق إليكم واللهفة عليكم، وما زالت دموعنا منهمة لم تحف ألماً وحزناً وحسرة، وكلما ناجيناكم، وحلقت في سماء أرواحنا ذكراكم تجدد الحزن حتى كاد حزننا أن يقضي علينا لولا بصيص من نور الأمل، الأمل في اللقاء، وعودة أيام الصفاء، أيام كانت حياتنا رغبة، وعيشنا باسماء، وأجواء حبنا صافية ليس فيها ما يكدر صفو علاقتنا، هذه الأيام السعيدة التي نلنا فيها كل ما تآقت إليه نفوسنا، وتحقق بيننا الوصال، أسأل الله أن يعيدها، وأن ينزل شآبيب الخير عليها فقد كنا فيها سعداء، وكنتم أنتم كالرياحين المنعشة لأرواحنا، فلا تظنوا أننا ننسى هذه الأيام، أو أن بعدكم عنا يغير من حبنا لكم ، مع أن البعد جفاء، وكم غير البعد مشاعر المحبين والله ما توجهت أهواؤنا إلى غيركم ، ولا طلبت قلوبنا بدلاً منكم ولا ابتعدت عنكم أمانينا ، فأنتم الأمل الدائم المنشود .

(٢) ثم يتوجه الشاعر إلى عناصر الطبيعة من حوله ، يشركها معه في أحاسيسه

ويحاول أن يتخذ منها شفيعاً إلى المحبوبة فيقول : أيتها المزن ، والسحب البارقة أمطري قصر المحبوبة بالخير صباح مساء ، فكم مرة سقتنا كؤوس الحب الصافي ، واسألني أيتها السحب البارقة السارية هناك : هل يعاني المحبوب ما أعانيه ؟ وهل يتألم كما أتألم ؟ فلقد بات تذكره مصدر ألم لي .. وأنت يا نسيم الصبأ ، يارياح الشرق الرقيقة الناعمة بلغي تحتيتنا إلى المحبوب الذي لو تعطف علينا وحيانا عن بعد لبعث فينا الأمل في الحياة حياة سعيدة ، وليت الدهر يسمح لنا بالوصل مرة أخرى ، هذا الوصال الذي أصبح بعيداً جداً .

(٣) وينتقل الشاعر إلى وصف المحبوبة ، وقد نعتها بصفات حسية ، وبالغ في وصفها لعل ذلك يستميل قلبها نحوه .. كما وصفها بصفات معنوية جميلة .. ومن الصفات التي نعت بها المحبوبة أنها سليلة الملوك ، وقد تربت تربية الملوك المرفهة المترفة المهدبة ، حتى إنها إذا قورنت بينات جنسها فاقتهن ، فكأن الله قد خلقها من مسك ، وخلق غيرها من الطين ، وإذا نظرت إليها وجدتها شديدة بياض البشرة في رقة ولمعان ، فكأن بشرتها فضة بيضاء صافية ، وشعرها ذهبي لامع ، وكأنها قد توجت بتاج من التبر الخالص الناصع ، والمحبوبة مترفة ترفل في النعيم إذا مشت تثنت في مشيتها تثقلها حبات العقود الفضية ، وأسالت دمها الخلاخيل الذهبية في رجليها ، فهي من شدة الرفاهية والركة واللين تؤلمها وسائل الرفاهية ، وأدوات الزينة التي لا تقوى على حملها .

وليأذن لي القارئ أن أعجب من مبالغة ابن زيدون في هذا الوصف حيث إن ولادة لم تكن تملك من حطام الدنيا إلا القليل الذي يستر مظهرها الاجتماعي الذي لم تشأ أن تتنازل عنه ، لأن أباهما فر كما قلنا متخفياً في زي النساء ، وقتل شريداً طريداً خارج قرطبة ، ونهب ثوار الفتنة كما هو معروف محتويات قصور الأمويين ، فكيف نجحت هاتيك الحلبي التي اثقلت من كثرتها محبوبته فتأودت وتشتت .. ؟ ! على كل حال إن هي إلا محاولة من الشاعر في الإطراء الشديد على ولادة لعلها تلين أو ترحم قلبه المسكين ، ونعود إلى بيان المعاني وتوضيحها فنقول : إن الشاعر قد جعل محبوبته أيضاً منعمة مخدومة تظل نائمة حتى تشاركها الشمس فراشها وكأنها مرضعة لها ، تعطف عليها ، بل ربما ينتهي اليوم دون أن تترأى للشمس إلا قليلاً لأن لديها من يقوم على خدمتها ،

ويكفيها حاجتها، كما يصف محبوبته بأن جمال وجهها وضاء كجمال الكواكب الزاهرة المشرقة، وكأن الكواكب اللامعة قد أثبتت في خديها لتزيدها جمالاً، ولتكون بمثابة تعويذة تقيها شر حسد الحاسدين ويعترف الشاعر في ذلة وخضوع أنه لا يكافئ المحبوبة شرفاً ومجداً، وحسباً ونسباً، ولكن هذا لا يحول دون علاقته بها فالحب يذيب الفوارق، وكفي ما يحمله من حب لها، ومودة تجاهها سبباً لأن يكون جديراً بها، ثم يعود لمناجاة المحبوبة جاعلاً إياها الروضة التي امتعت نظره بجمال زهورها وورودها، والحياة التي أنعمت عليه بالملذات المتنوعة والنعيم الذي ليس من نصارته وشياً، وظل يخطر مزهواً في نعمة وخفض من العيش، وكل هذه أيضاً مبالغات يستميل بها قلب المحبوبة، وله الحق في ذلك كي يبلغ أمله ويحقق مراده .

وكأنني بالشاعر قد تخيل من يسأله عمّن يصف ، ولمن يناجي، فبادر بقوله : لسنا نسملك .. البيت، أى لانسميك أيتها الحبية إجلالا لقدرك وإكراماً لك من ناحية ، ومن ناحية أخرى فأنت غنية عن التعريف، فقدرك العالي أغنانا عن ذلك ، ولأنك فريدة في صفاتك متميزة عن غيرك من بنات جنسك، ومادمت كذلك فإن توضيح الصفات يكفي في الكشف عن الذات .

وعودة إلى مخاطبة المحبوبة، واصفاً إياها بأنها الجنة التي عاش في ظلالها أسعد أيام حياته، ثم حرم من سدرتها، وكوثرها ، وأبدل بها طعام أهل النار وشرابهم الزقوم والغسلين - والشاعر هنا متأثر بمعانى القرآن الكريم كما نرى - وهذه مقارنة سريعة أجراها الشاعر بين حاله في الماضي إلى جوار محبوبته، وحاله في الحاضر بعد الهجر، والبعد .. لقد انتهى كل نعيم كان فيه، انتهت ليالي اللقاء بالمحبة يشاركهما الوصل جلستهما، والسعد حارسهما الأمين الذي يحجب الحبيبين عن أعين الرقباء الحاسدين .. ، ثم يعلن الشاعر رضاه بهجر محبوبته له، فإنه إن عزّ عليه اللقاء في الدنيا فإنه سيلقاها يوم الحشر .. وكأنني به قد تأثر بقول المجنون :

يَا حُبُّ لَيْلَى قَدْ بَلَغْتَ بِي الْمَدَى وَزِدْتَ عَلَيْهِ مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ الْهَجْرُ

(١) ديوان ابن زيدون ت محمد سيد كيلاني ص ١٧٤ - ١٧٦ .

فَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوَى كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَا سَلْوَةَ الْأَيَّامِ مَوْعِدِكَ الْحَشْرُ

نعم فالشاعر يكفيه أن يلقي المحبوبة في الآخرة إن عزّ اللقاء في الدنيا ، ويكفيه ما تحقّق له من لقاء قبل الهجر، إذ كان والمحبوبة لدى اجتماعهما ليلاً كسرين يحويهما الظلام ويسترهما طوال الليل في وجدانه وخاطره، إلى أن ينبّج الصبح مهدداً بفضح سرهما .

(٤) ولا عجب من أن يترك شاعرنا الصبر وينساه، وأن يتذكر الحزن والألم برغم أن العقل يدعو إلى التعقل، وينهي عن الاستسلام إلى مثل هذا الحزن، ولكن صدمة الفراق كانت أعمق أثراً، وأشدّ وقعاً من أن يلبي داعي العقل ، فلقد قرأ الحب الحزن يوم الفراق سوراً مكتوبة بينما لقن الصبر تلقينا ودعي إليه من خارج نفسه، فكان الأول أقوى أثراً في نفسه من الثاني ..

ويعود الشاعر فيؤكد أنه يعيش على حب ولادة، لأنه يجد فيه ربه الذي يظميه إليها دائماً ، وبرغم هذا فإنه لا يرضى به مورداً آخر يرتوي منه ولم ولن يتعب عن أفق جمال هي كوكبه المنير، ويقر بأنه لم يتركها أو ينسها عن عمد بغضاً وكراهية، ولم يختار هذا البعد بإرادته، ولكن الظروف القاسية، والأقدار المتجنية هي التي أكرهته على ذلك إكراهاً ويقول الشاعر مخاطباً المحبوبة : أنت في خيالي لم تفارقيه، ولم تستطع مجالس الشراب واللهو أن تشغلني عنك، أو أن تصرف طيفك عني، أو تبدّد صورتك من خاطري .

(٥) ثم يتوجه شاعرنا إلى محبوبته راجياً ملتصقاً مستعطفاً طالباً منها أن تدوم على عهد المحبة والمودة كما هو دائم على ذلك، فالحر من رضي لغيره ما يرضاه لنفسه، وكره له ما يكرهه لنفسه، وهو من دان نفسه بما أدان به غيره، ويؤكد - ربما للمرة الرابعة في قصيدته - أنه لم يمل عن حبها إلى غيرها، وأنه لن يحيد عن هذا الحب حتى ولو نزل إليه البدر المنير من عليائه طالباً إياه أن يكون بديلاً لمحبوبته، ولذا يلجّ في أن تنعم عليه بالوفاء والوصال فإن ذلك يمتعه، فإن لم تستطع ذلك في الواقع فلتجد عليه بطيفها ، ولتحسن تذكّره دائماً فهذا يكفيه، ويرضيه ، ويتمنى أن تجود عليه

بجواب لرسالته هذه، فإن الجواب الذي ينتظره فيه إمتاع له ، وياحبذا لو أردفت ذلك ببيض أياديها فجادت عليه في جوابها بما يسره ويسعده ، وفي هذا منة عليه، ويد بيضاء يذكرها بها، ويحفظها لها .. ثم يختم رسالته القلبية بالسلام والتحية قائلاً : « عليك مني سلام الله، يدوم بدوام شوقنا إليك ويتجدد بتجدده .. هذا الشوق الذي نحاول اخفائه وستره، ولكنه يظهر بالرغم عنا فيفضحنا ..

والقصيدة كما يتبدى لنا نفثة عاطفية قوية ، حشد فيها ابن زيدون كل إمكانياته الوجدانية، وأودعها كل مشاعره تجاه محبوبته، وكشف فيها عن أثر نكبته العاطفية التي ألهمت مشاعره، وحركت وجدانه .

وربّ ضارة نافعة .. فلقد أضّر الهجر بابن زيدون ولكن ذلك عاد على أدبنا العربي، وتراثنا الشعري بدرّة من الدرر الثمينة شغلت الشعراء قديماً وحديثاً فحاكوها وعارضوها ومن عارض هذه القصيدة الشاعر^(١) أبو بكر بن الملح ، وكذلك شمس الدين محمود الكوفي الواعظ، وصفي الدين الحلي، وعارضها في عصرنا الحديث أمير الشعراء أحمد شوقي، وعبد الرحمن شكري .

وألفاظ الشاعر جاءت موحية معبرة، وموسيقاها تأسر القلب، وفي القصيدة كثير من المعاني التي مال فيها الشاعر ناحية المشاركة متأثراً بهم، وهذا لا يقلل من شأنه، فلقد كان هذا أمراً شائعاً عند شعراء الأندلس الذين كانوا يحنون إلى الجذور الأصلية للشعر العربي .. ولن نطيل الحديث حول هذه القصيدة أكثر مما أطلنا فإن هناك قصائد أخرى من نتاج نكبة ابن زيدون العاطفية تنتظر دورها في العرض، وسنكتفي بعرض نصوصها فقط تاركين لفطنة القارئ فهمها، وهذا أمر يسير لما تحمله من عواطف جياشة ولأنها خرجت من قلب محب صادق، وما خرج من القلب فهو حتما يصل إلى القلب .

ومن هذه القصائد قصيدته (إني ذكرتك بالزهراء) و التي قدّم لها الفتح بن خاقان

يقوله : (٢)

(١) ابن زيدون وشعره د. محمد السعدي فهود ص ٨١ - ٨٤ .

(٢) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص ٧٣ .

« وكان يكلف بولادة بنت المهدي »^(١) هذه ويهيم، ويستضيئ بنور تخيلها في الليل البهيم، وكانت من الأدب والظرف، وتتميم المسمع والظرف، بحيث تختلس القلوب والألباب، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب، فلما حلّ بذلك الغرب، وانحل عقد صبره بيد الكرب، كرّ إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها، ويتسلى برؤية ما فيها، فوافاها والربيع قد خلع عليها برده، ونثر سوسنه وورده، وأترع جدّ أولها، وأنطق بلابلها، فارتاح ارتياح جميل بوادي القرى، وراح بين روض يانع، وريح طيبة السرى، فتشوّق إلى لقاء ولادة وحنّ، وخاف تلك التوائب والحنّ، فكتب إليها يصف فرط قلقه، وضيق أمدّه إليها وطلقه، ويعاتبها على إغفال تعهده، ويصف حسن محضره بها ومشهده. قائلاً: ^(٢)

- ١- إِنِّي ذَكْرَتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا،
- ٢- وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ،
- ٣- وَالرَّوْضُ عَنْ مَائِهِ الْفِضْيِ مُبْتَسِمٌ،
- ٤- نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ،
- ٥- كَأَنْ أَعْيْنُهُ إِذْ عَايَنْتُ أَرْقِي،
- ٦- وَرَدْتُ أَلْقَى، فِي ضَاحِي مَنْابِتِهِ،
- ٧- سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُو فَرَّ عَبَقٌ،
- ٨- كُلُّ يَهِيحُ لَنَا ذِكْرَى تَشَوَّقَنَا
- وَالْأَفْقُ طَلَقٌ وَمِرْأَى الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا
- كَأَنَّهُ رَقٌّ لِي فَأَعْتَلَّ إِشْفَاقَا
- كَمَا شَقَقْتَ عَنِ اللَّبَاتِ أَطْوَاقَا
- جَالَ النَّدَى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا
- بَكَتْ لِمَا بِي، فَجَالَ الدَّمْعُ رِقَاقَا
- فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى فِي الْعَيْنِ إِشْرَاقَا
- وَسَنَانُ نَبْهِهِ مِنْهُ الصَّبْحُ أَحْدَاقَا
- إِلَيْكَ، لَمْ يَعُدْ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا

(١) الصحيح أنها بنت المستكفي .

(٢) الديوان : تحقيق محمد سيد كيلاني ص ١٧١ ، وتحقيق حنا الفاخوري ص ٣٩٩ ، وشرح د. يوسف فرحات .

- ٩- لَا سَكَنَ اللَّهُ قَلْبًا عَقَّ ذِكْرُكُمْ ،
 ١٠- لَوْ شَاءَ حَمَلِي نَسِيمُ الرِّيحِ ، حِينَ سَرَى
 ١١- يَوْمَ كَأَيَّامٍ لَذَاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ ،
 ١٢- لَوْ كَانَ وَفَى الْمُنَى ، فِي جَمْعِنَا بِكُمْ ،
 ١٣- يَا عَلِيَّ الْأَخْطَرَ الْأَسْنَى الْحَبِيبَ إِلَى
 ١٤- كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوَدِّ مَذْزَمٍ
 ١٥- فَالآنَ أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمْ
- فَلَمْ يَطُرْ بِجَنَاحِ الشُّوقِ خَفَاقًا —
 وَأَفَاكُمُ بِنَفْسِي أَخْنَاهُ مَا لَاقَى
 بَتْنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُرَاقًا —
 لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقًا —
 نَفْسِي ، إِذَا مَا اقْتَنَى الْأَحْبَابُ أَعْلَاقًا —
 مَيِّدَانِ أَنْسٍ جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقًا —
 سَلَوْتُمْ وَبَقَيْنَا نَحْنُ عُشَاقًا —

في هذه الأبيات يؤكد الشاعر لمحبوبته أنه عندما حلَّ بمدينة الزهراء اعتراه شوق شديد إلى تلك المحبوبة، وذكره جمال الطبيعة حوله بأيام الوصل والقرب ، واستطرد يصف مظاهر الجمال من حوله، فالنسيم أصابته رقة وكأنه أشفق على الشاعر فرق له، والتدى يترقق على الأزهار فكأنها تبكي لحالة الأرق التي يعاني منها ويعيشها — فكل ما حوله من جمال الطبيعة يذكره جمال محبوبته ، ويلهب نار الشوق في قلبه، ومن هول ما به ضاق صدره، وخفق فؤاده، ويدعو الشاعر على القلب إذا استخفَّ بذكرى المحبوبة، وينعته بعدم الوفاء، ويتمنى لو يحمله نسيم الصباح إليها لترى بنفسها كيف أتعب فتاها الشوق، وأرقه البعاد، وأضناه السهاد وياليت نسيم الصباح يحقق أمنيته، فيكون قد قدَّم له أكرم الأيام وأسماها، ويتوجه إلى محبوبته مناجياً : يا أنفس ما عندي، وأغلى من رأيت، ويا أحب الناس إلى نفسي، إذا ما باهي الأحباب بنفائسهم لقد تعاهدنا من زمن على الودِّ الخالص الصادق ميداناً لأنسنا انطلقنا فيه وسعادتنا تحوطنا ، وسرورنا يغمرنا، والآن ونحن في أمس الحاجة إلى ودِّكم، أراكم نسيتم ما بيننا، وهجرتمونا بينما نحن على العهد مقيمين أوفياء مخلصين .

ومع أن القصيدة تجربة شعورية نفسية متكاملة إلا أنني أرى أن المعاني التي ساقها الشاعر في هذه القصيدة ليس فيها جديد، كما أن عاطفته يبدو أنها قد أصابها فتور لأنه لم يتلق منها رداً إيجابياً على رسالته التونية (أضحى التناهي) ولكنه حرص على إشراك عناصر الطبيعة معه في أحاسيسه وأراد أن يجعلها شاهداً على ما يعانيه ، كما حرص

كشأنه دائماً على أن يؤكد التزامه بالوفاء ، وتمسكه بالعهد الذي بينهما ولكن هيهات هيهات ، لقد أصبح الأمر حُبّاً من طرف واحدٍ فالحُبوبة شغلت عنه بغيره، وأصبح من العسير أن تعود إليه .

ولم يستطع الشاعر أن يظفر بالعمفو عنه فيخرج مرة أخرى من قرطبة ومن دار الغربة يرسل إلى محبوبته هذه الزفرة قائلاً : (١)

- ١- هل تذكرُون غريباً عادَهُ شَجَنٌ
 - ٢- يُخْفِي لَوَاعِجُهُ ، وَالشُّوقُ يَفْضَحُهُ
 - ٣- يَا وَلِيَّتَاهُ ! أَبْقَى فِي جَوَانِحِهِ
 - ٤- وَارَّقَ الْعَيْنَ ، وَالظُّلُمَاءُ عَاكِفَةٌ ،
 - ٥- فَبِتُّ أَشْكُو وَتَشْكُو فَوْقَ أَيْكَتِهَا
- مِنْ ذِكْرِكُمْ وَجَفَا أَجْفَانُهُ الْوَسَنُ
فَقَدْ تَسَاوَى لَدَيْهِ السَّرُّ وَالْعَلَنُ
فُوَادُهُ ، وَهُوَ بِالْأُطْلَالِ مُرْتَهَنُ
وَرَقَاءُ قَدْ شَفَّهَا ، إِذْ شَفَّنِي حَزَنُ
وَبَاتَ يَهْفُو ارْتِيَا حَا بَيْنَنَا الْغُصْنُ

ومرة أخرى يخاطب ابن زيدون محبوبته مستعطفاً بقوله : (٢)

- أَنْتِ الْحَيَاةُ ، فَإِنْ يُقَدَّرُ فِرَاقُكَ لِي ،
وَاللَّهِ مَا سَاعَنِي أَنِّي خَفَيْتُ ضَنْيَ ،
لَوْ كَانَ أَمْرِي ، فِي كَتَمِ الْهَوَى ، بِيَدِي
- فَلْيُحْفَرِ الْقَبْرُ ، أَوْ لِي حُضْرُ الْكَفَنُ
بَلْ سَأَتْنِي أَنْ سَرِّي بِالضَّنَى عَلَنُ
مَا كَانَ يَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِي الْبَدَنُ

وها هو يعاتب محبوبته التي ازدادت له هجرانا بقوله : (٣)

- جَازَيْتَنِي عَنْ تَمَادِي الْوَصْلِ هَجْرَانَا ،
عَهْدِي كَعَهْدِكَ ، مَا الدُّنْيَا تَغْيِرُهُ
مَا صَحَّ وَدِّي إِلَّا اعْتَلَّ وَدُّكَ لِي ،
يَا أَلَيْنَ النَّاسَ أَعْطَا فَا ، وَأَفْتَنَهُم
- وَعَنْ تَمَادِي الْأَسَى وَالشُّوقِ سُلْوَانَا
وَأِنْ تَغْيِرَ مِنْكَ الْعَهْدُ أَلْوَانَا
وَلَا أَطْعَمُكَ إِلَّا زِدْتُ عَصِيَانَا
لِحِطَاءٍ ، وَأَعْطَرْتُ أَنْفَاسَنَا وَأَرْدَانَا
- مَا خَيْرُ ذِي الْحُسْنِ إِنْ لَمْ يُولِ إِحْسَانًا ؟!

(١) في الأدب الأندلسي جودت الركابي ص ٢٢٣ عن المعجب .

(٢) ديوان ابن زيدون تحقيق حنا الفاخوري ص ٤٢٤ .

(٣) ديوان ابن زيدون : تحقيق حنا الفاخوري ص ٤١٦ .

وعادَ الشاعر يمنح المحبوبة ثقته ، ويتمنى أن تثق به ، ويعدها بأنه لن يخون العهد
 برغم أنها قد أرضت عداه ، وأغضبتَه وقد وضع أنه لم يرتكب ذنباً يقتضي الهجر ،
 والقطيعة ، ولكن هذه عاداتها دائماً أن تتجني على من تحب .. وفي ذلك يقول : ^(١)
 ثقي بي ، يا مُعَذِّبِي ، فـلـيـأني
 وإنْ أَصْبَحْتُ قَدْ أَرْضَيْتُ قَوْمًا
 وَهَلَ قَلْبٌ كَقَلْبِكَ فِي ضُلُوعِي
 تَمَنَّنْتُ أَنْ تَنَالَ رِضَاكَ نَفْسِي
 وَلَمْ أَجْنِ الذُّنُوبَ فَتَحْقِدِيهَا ،
 سَاحَظْتُ فِيكَ مَا ضَيَّعْتُ مِنِّي
 بَسْخَطِي ، لَمْ يَكُنْ ذَا فِيكَ ظَنِّي
 فَأَسْلُو عَنْكَ حِينَ سَلَوْتُ عَنِّي
 فَكَانَ مَنِيَّةً ذَاكَ الـتـمـنـي
 وَلَكِنْ عَادَةُ مِنْكَ الـتـتـجـني

ولما بلغ منه اليأس مبلغه خاطبها قائلاً : ^(٢)

أَرَحَصْتَنِي مِنْ بَعْدِ مَا أَعْلَيْتَنِي ،
 بَادَرْتَنِي بِالْعَزْلِ عَنْ خُطْطِ الرِّضَا ،
 هَلَّا وَقَدْ أَعْلَقْتَنِي شَرَكَ الْهُوَى ،
 الصَّبْرُ شَهِدٌ عِنْدَ مَا جَرَّ عَتِي ،
 كُنْتُ الْمُنَى فَأَذَقْتَنِي غُصَصَ الْأَذَى ،
 وَحَطَّطْتَنِي ، وَلَطَّـالَمَا أَعْلَيْتَنِي
 وَلَقَدْ مَحَضْتُ النُّصْحَ إِذْ وَلَيْتَنِي
 عَلَّيْتَنِي بِالْوَصْلِ أَوْ سَلَيْتَنِي
 وَالسُّنَّارُ بَرْدٌ عِنْدَ مَا أَصْلَيْتَنِي
 يَا لَيْتَنِي مَا فَهَتْ فِيكَ بَلَيْتَنِي

وكما سبق وأشرت إليه أن شعر ابن زيدون الناج عن نكبته العاطفية غزير جداً ، لأن
 معظم ما قاله في الغزل والنسيب إن لم يكن كله قاله في علاقته بولادة ، فإذا عرفنا أن
 هذه العلاقة لم تبدأ بينهما إلا بعد زوال الدولة الأموية ، أي بعد سنة ٤٢٢ هـ وتولى
 أبي الحزم بن جمهور مقاليد الحكم ، واستخدمه ابن زيدون كاتباً لدولته ثم وزيراً بها
 حتى كانت نكبته السياسية ، ودخوله السجن أدركنا قوة تأثير هذه العلاقة في شعر ابن
 زيدون كما لمسنا غزارة انتاجه الشعري بسببها ، وكانت العلاقة بينه وبين ولادة قد ساءت
 قبيل دخوله السجن لأنه كما أشرنا أن (من أسباب) سجنه تأمر غريمه الوزير ابن عبدوس
 عليه ، وكيده له عند أبي الحزم بسبب الرسالة الهزلية التي كتبها على لسان ولادة إليه

(١) ، (٢) ديوان ابن زيدون تحقيق حنا الفاخوري .

وفيهما سخر منه وتهكم بقصد إفساد العلاقة بينهما^(١)، وكان من أثر ذلك عدد كبير من القصائد التي تكشف عن قوة تأثير نكبته العاطفية في شعره .

وقد اكتفينا بعرض القليل من شعره الناتج عن نكبته العاطفية ونحيل القارئ على ديوانه بتحقيقاته المختلفة، وشروحه المتعددة، وفي كتب التراث أيضاً منه الكثير، وذلك كالذخيرة لابن بسام وقلائد العقيان للفتح بن خاقان، ونفح الطيب للمقري، والمعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب للمراكشي، وغيرها ..

وجهة النظر النقدية في شعر النكبة عند ابن زيدون :

إنَّ المتأمل في شعر ابن زيدون يرى أنه يُعدُّ ترجمة أمينة عن حياته النفسية، وتعبيراً عن عواطفه وأحاسيسه، وانعكاساً لأحداث حياته ، فقد أحب وكره، ورغب ورهب، وطرب وجدّ، وهزل، وملأت عواطفه عليه نفسه فانطلق يُعبّر عنها، وأمده أحداث حياته التي تقلب فيها بين الأمل والألم والنعيم والحرمان بمضمون وجداني^(٢) واضح ومؤثر، ولقد حرص الشاعر على إشراك عناصر الطبيعة معه في كل مشاعره وأحاسيسه، وأذن لها أن تمتدّ ظلالتها وارفة على شعره.

ولقد تأثر شعر ابن زيدون بأحداث حياته ، تلك الأحداث الجسام التي خاض غمارها والتي وجّهت أدبه وجهات معينة، وخلقت له ميادين القول، وألهمته الموضوعات، وأوحت إليه بالمعاني، وهيأت له الألفاظ والعبارات، وعزفت له الموسيقى الملائمة .

ولقد تزامنت الأحداث العصبية في حياة ابن زيدون تزامناً عجيباً، فنكبته العاطفية بهجر ولادة له قد سبقت نكبته السياسية ودخوله السجن بقليل ثم تداخلت معها بصورة كان لها أثرها فيما صدر عنه من أشعار، ولكن ينبغي أن نلمس أثر كل نكبة منهما على حدة .

(١) ابن زيدون د. شوقي ضيف . (نوايغ الفكر العربي) ص ٣٢ .

(٢) ابن زيدون وشعره : د. السعدي فرهود ص ٤١ .

أما نكبته السياسية فقد أفرزت لنا عدداً من المدائح التي وجهها إلى أبي الحزم بن جهور، ولكنها مدائح لا تتوافر فيها نبرة الإخلاص بقدر ما تجلت فيها نغمات الاستعطاف والاسترحام، وطلب العفو والتدلي إلى هاوية الدّل والتذلل، وامتزجت بالمديح امتزاجاً جعلها تكاد تغطي عليه، بل نكاد نقول : إن الشاعر كان لا يقصد المديح لذاته، بل اتخذه وسيلة للاستعطاف والاسترحام وتبدو هذه السمة جليلة واضحة في قصائده التي أرسل بها من سجنه أو من مكمنه حيث كان يتخفي بعد فراره من السجن، أو من منفاه بعد هربه من قرطبة مهدر الدم يخشى على نفسه ، كما تبدّت نغمة اليأس كذلك في بعض قصائده ، خصوصاً تلك التي أرسلها إلى أصدقائه بعد أن يئس من عفو أبي الحزم عنه وتطل علينا معاني الحزن والأسى الذي تولّد لديه نتيجة تخلي الكثيرين عنه في محنته ، وانتصار الحاسدين الحاقدين عليه ، ونجاحهم في الكيد له .

أما عندما غضب عليه صديقه أبو الوليد بن أبي الحزم بعد تأمر بني ذكوان أصدقاء الشاعر لقلب نظام الحكم في عهده ، فقد عمد إلى إرساله خارج قرطبة بحجة قيامه بالسفارة، بينما كان قصده هو إبعاد ابن زيدون بلياقة وأدب عن قرطبة لأمرين : أولهما : اتقاء شره وعدم الإساءة إليه ، وثانيهما : الأخذ بالأحوط مع الحفاظ على مشاعر صديقه القديم الذي كان يعرف طموحاته ومطامعه ويبدو أن ابن زيدون قد أدرك الهدف من وراء إبعاده عن قرطبة ، وأحس أن صديقه يكبح جماح نفسه، ويحاول ألا ينزل عقوبة شديدة بصديقه ، بينما الحاقدون الحاسدون يشنون إليه بأمور قد تدفعه يوماً إلى إنزال الأذى والعقاب به فقرر عدم العودة إلى قرطبة واتجه عبر بلنسية وبطليوس إلى إشبيلية حيث لاذ بحمي المعتضد عبّاد .. وقد أفرزت المحنة هذه المرة كثيراً من القصائد الشعرية في العتاب والمدح ، ومزج مدحه لأبي الوليد بالعتاب تارة ، وبالتذكير بأيام الصفاء أخرى، بينما مدح الأمراء الذين أحسنوا وفادته في بلنسية وبطليوس وإشبيلية ، ومزج هذه المدائح بالإشادة بفضلهم، والاعتراف بجميلهم.

كما كان من نتاج حياة الغربة أن جادت قريحته بأشعار تفيض شوقاً وحنيناً إلى قرطبة ، ومغانيها ، وديار الأحبة وما فيها ، فلقد ترك في قرطبة ومجالياتها راتع الصبا

وملاعب الشباب ، وراح يكي الأيام السعيدة التي قضاها بين ربوعها ويستمطر الوابل الصيب لها بعد أن أصبح يراها بعيدة المنال .

بينما جاءتْ نكبته العاطفية قبيل سجنه بقليل ، ويعدها النقاد والباحثون عاملا من عوامل سجنه ، إذ أساء إساءة بالغة إلى غريمه الوزير ابن عبدوس المقرب من ولي الأمر آنذاك ، فتآمر عليه ، ونجح مع غيره من شائتيه في أن يودي به إلى السجن .

ولقد أثرت هذه النكبة هي الأخرى في شعر ابن زيدون بوضوح ، فإذا عرفنا أن الغالبية العظمى من شعر الغزل إن لم يكن كل الشعر في هذا الغرض عند ابن زيدون قد قاله في ولادة بنت المستكفي فإننا نعجب أن أكثره قد قاله بعد هجر ولادة له ، فلقد كان قبل حلول أيام الهجر والقليل مشغولاً بارتشاف كؤوس الهوى والغرام حتى الثمالة ، يتقلب في بساتين النعيم ، ويقطف ثمار الغرام جنية شهية دون عناء فلماً نكب نكبته العاطفية ، وهجرته ولادة واتجهت إلى غريمه ابن عبدوس ، وحرمته اللقاءات الممتعة التي كانا يتساقيان فيها الهوى ، شعر بالحرمان ^(١) فجعل يجتر شجونه ، وتراوده الوسوس والأوهام في حبه ، ويحاول أن يثبت للمحبوبة إخلاصه ، ويتقلب على جمر الهوى فتلتهب حشاه ، ويجهد أن يطفئه بالشعر ، لعل المحبوبة ترق وتعطف وتستجيب لداعي الحفاظ على العهد ، والوفاء بالوعد ، وتعود إلى أيام الحب الأول ، ولكن هيهات هيهات ، فقد أصغت إلى حساده ، وأرضت في سخطه شائتيه .

ولقد أكثر شاعرنا في رسائله الشعرية إلى معذبتة من التعجب من انقلابها عليه ، وتنكرها له ، وراح يذكرها بعهودها ووعودها ، كما أجهد نفسه في اللهث وراءها ، ومحاولة استعادة حبها ، وحرص أثناء ذلك على التأكيد على ولائه الكامل لها ، وعدم الرضا بغيرها حتى ولو كان بدر الدجى في علاه ، كما راح يبذل الوعود المغرية .

وكان من أثر هذه النكبة العاطفية أن أخرج إلى حيز الوجود أعظم قصائده التي

(١) ابن زيدون وشعره د. محمد السعدي فرهود ص ٤٦ .

راح يُردّد أنغامها على قيثاره أحزانه وآلامه كما رأينا .

وأخيراً يمكننا أن نقول : لقد كان من العوامل المؤثرة في شعر ابن زيدون ، والمتسببة في جودته وامتياز به بل كان من أهم تلك العوامل وأشدّها تأثيراً ما يلي :

أولاً : حبه لولادة ، وإخلاصه لها في الحب ، وهجرها له هجراً آلمه ، وأشقاه ، وألهب مشاعره ، وحرك وجدانه وأظهر معاناته من تباريح الهوى ، ونيران الشوق .

ثانياً : نكبته على يد أبي الحزم بن جهور و دخوله السجن بعد مؤامرة حيكت ضده ، ونجح مدبروها وعلى رأسهم ابن عبدوس في تنفيذها والانتقام منه .

ثالثاً : فراره من السجن ، وتحوّله إلى شريد طريد مهدر الدّم بعد أن كان صاحب منصب وجاه ، ومعاناته حياة الاغتراب بعيداً عن الأهل والأحباب .

رابعاً : كثرة حسّاده وشائعيه الذين ظلوا في مسيرة الكيد له طوال حياته ، حتى كان كيدهم سبباً من أسباب إخراجه من قرطبة بعد أن استقر بها مع مليكه المعتمد بن عبّاد ، حتى مات غريباً في مدينة إشبيلية .

ولا يفوتنا أن ننوه إلى أن النكبتين السياسية والعاطفية قد تعانقتا وتضافرتا في كل أطوراهما ، فأثرتا في حياة ابن زيدون على وجه العموم ، وفي شعره على وجه الخصوص أقوى تأثير ، وأشدّه .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أُسْكِنَهُ اللهُ الفردوسَ

(٥) « أبو جَعْفَرُ بْنُ أَيُّوبَ اللَّمَّائِي »

التعريف بالشاعر :

من الأدباء الذين عاشوا في عصر ملوك الطوائف أبو جعفر أحمد بن أيوب اللمائي ، من أهل مالقة ، وكان وزيراً كاتباً لناصر الدين بن حمود صاحب مالقة ، كما تولى تدبير ملكه ، وقد علاّ صيته وارتفعت مكانته .

وكان صاحب أملاك في غرناطة ، ولذا دأب على السفر إليها لتفقد أحوال تلك الأملاك ، وزيارة ملوك غرناطة الصنهاجيين أيام باديس بن حبّوس (٤٣٠ - ٤٦٦ هـ) غالباً ، أو في أيام والده حبّوس (٤١٠ - ٤٣٠ هـ) .

قال صاحب المطمح عن اللمائي : « إمام من أئمة الكتابة ، ومفجر ينبوعها ، والظاهر على مصنوعها بمطبوعها ، وإذا كتب نثر الدرّ في المهارق ، ونمت فيه أنفاسه كالمسك في المفارق ، وانطوى ذكره على انتشار إحسانه ، مع امتداد لسانه ، فلم تطل لدوحته فروع ، ولا اتصل لها من نهر الإحسان كروع ، فاندفت محاسنه من الإهمال في قبر ، وانكسرت الآمال بعدم بدائعه كسراً بعد جبر ، وكان كاتب عليّ بن حمود العلوي ، وذكر أنه كان يرتجل بين يديه ، ولا يروي ، فيأتي على البديه بما يتقبله المروي ويديده ، وكان أبو جعفر جيد الشعر ، كما كان جيد النثر » (١)

ما امتحن به أبو جعفر اللمائي :

أبو جعفر اللمائي من الذين ابتلوا وامتحنوا في أبدانهم ، فقد عرض له داء النّسمة (ضيق النفس) ، وتمادت علته ، واشتدت عليه ، ولم ينجع شيء في علاجها ، بل تضاعفت ، وأزمنت ، فلم تفارقه حتى كانت سبباً في وفاته ، وكان ذلك في مدينة مالقة

(١) راجع في ترجمته وأخباره : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٦٢٠ - ٦٢٤ ، والمطمح ص ٢٥ - ٢٦ ، ونفح الطيب ج ٣ وتاريخ الأدب العربي ، د عمرو فروخ ج ٤ ص ٦٠٥ .

سنة ٤٦٥ هـ ونقل جسمانه إلى حصن (الورد) قرب حصن (منت بور) تنفيذاً
لوصية أوصى بها قبل موته (١).

آثار المحنة في شعر أبي جعفر اللّمائي :

اشتدت العلة بأبي جعفر، فضاقت صدره، وتمكن منه اليأس، وأيقن أنه لا شفاء من
هذا المرض، كما أحس عجز الأطباء، وقلة نفع الدواء، برغم كثرة ما جرب منه، فقال
عليه البيهية : (٢).

عَظُمَ الْبَلَاءُ فَلَا طَبِيبَ يُرْتَجَى مِنْهُ الشُّفَاءُ وَلَا دَوَاءَ يَنْجَعُ
لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ لَمْ أُعَالِجْهُ بَاهٍ طَمَعَ الْحَيَاةَ ، وَأَيْنَ مَنْ لَا يَطْمَعُ
« وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ »

فالشاعر في هذه الأبيات البسيطة قد عبر عن تجربة المرض، وما يعانيه من ويلاته
أصدق تعبير، فقد جاء في بيته الأول بأسلوب خبري حمل كل معاني التحسر واليأس،
فالبلاء عظم واشتد، وانتفي وجود الطبيب الحاذق الذي يكون سبباً في شفائه، كما
انتفي وجود الدواء الناجع المفيد في إذهاب علته .

وفي البيت الثاني يعترف بأنه بذل في سبيل العلاج من مرضه الكثير والكثير وجرب
عدداً كبيراً من ألوان الدواء، وسبل العلاج حتى لم يبق شيئاً لم يجربه، ودافعه إلى كل
هذا البذل طمعه في الحياة، وكأنه استشعر أن هناك من يسأله : ولماذا تطمع في الحياة؟
فأجاب من فوره : وأين من لا يطمع ؟ وهو استفهام غرضه البلاغي النفي .. أى لا
يوجد من لا يطمع في الحياة وطول العمر، ثم اقتبس بيتاً من قصيدة أبي ذؤيب الهذلي
في رثاء أولاده الخمسة الذين قضى عليهم مرض الطاعون في عام واحد وهو :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
واقْتَبَاسُهُ لِهَذَا الْبَيْتِ الَّذِي تَمَثَّلَ بِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَكْبَتَهُ قَدْ أَصَابَتْهُ بِيَأْسٌ قَاتِلٌ ، وَأَنَّهُ
لَنْ يَبْرَأَ مِنْهَا ، وَكُلَّ دَوَاءٍ لَنْ يَفِيدَ لِأَنَّهُ لَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ الْمَوْتَ الَّذِي أَصْبَحَ أَمْرًا مُحْتَمًا

(٢) المصدر السابق .

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٦٢١ .

وكلما اشتدت علته كثرت شكواه، ولم تقتصر على الشكوى من العلة وحدها، بل عمت الشكوى، فاشتكى إلى جانب ذلك من نوائب الدهر، وما ألمّ به من شيب، وما حلّ به من ضعف ومن أشهر قصائده في هذا المجال ما كتب به إلى صديق له يقول: (١)

أَمْسَى سِقَامِي زَاجِرِي وَمُؤْنِي
أَوْهَتْ خُطُوبُ الدَّهْرِ مِنِّي عَاتِقِي
وَهَمَّتْ سَحَائِبُهُ عَلَيَّ فَغَادَرَتْ
فَاطِلُ أَبْصَرٍ فِيهِ مَالَمُ أَحْتَسِبُ
سَنَ حَدِيدٍ ثَحْتِ جَدِّ شَارِفٍ
أَغْدُو عَلَى بَكْرِ لَصْرَفِ بَنَاتِهِ
أَفْتَضُّ مِنْهُمَا كُلَّ يَوْمٍ عَذْرَةَ
يَاسِيدِي، وَأَخِي الْوَفِيِّ، وَمَا أَخِي
وَإِذَا غَدَا الْعِلْمُ الْمُشْرِفُ أَهْلُهُ
هَلَا أَهْتَدَيْتَ إِلَى خُطَابِ مُرْزِي
لَمْ يَبْقَ مِنْهُ الدَّهْرُ غَيْرَ مَدَامِعِ
أَخَفْتَنِي الْإِيَّامُ فِي لَهَوَاتِهِمَا

وَعَدَا مَشِيْبِي وَأَعْظِي وَمُؤْدَبِي
ثَقْلًا، وَزَعَزَعَ مِنْكَبَاهُ مِنْكَبِي
أَرْضِي قَرَارَةَ كُلِّ خُطْبٍ مُعْجَبِ
جَوْرًا، وَأَقْرَأَ فِيهِ مَالَمُ أَكْتُبِ
وَسَوَادُ رَأْسٍ فَوْقَ قَلْبٍ أَشِيبِ
وَأَرْوَحُ مَبْتَنِيًّا بِأُخْرَى ثِيبِ
لَا تُتْهِمِي، وَأَرْفُ مَالَمُ أَخْطُبِ
مِنْهُ إِلَى قَلْبِ الْإِخَاءِ بِأَقْرَبِ
نَسَبًا يُؤَلِّفُنَا فَنَحْنُ بَنُو أَبِ
مَا بَيْنَ أَضْلَاعِ الْخُطُوبِ مُغِيبِ
سُفْحِ، وَقَلْبِ بِالسَّقَامِ مُعَذِّبِ
وَسَجَنِي فِيهَا فَكَيْفَ شَعَرْتُ بِي؟ !

ثم يقول أبو جعفر ما دحا كتاب صديقه إليه :

وَكُتِبَتْ عَنْ وَدٍّ، وَقَدْ كَتَبَ الْإِخَا
بِأَدَقِّ مِنْ دَمْعِ الْمَشُوقِ فُؤَادَهُ
فَظَلَلَتْ مِنْهُ فِي غَدِيرِ بِلَاغَةٍ
كَرَمَتْ مَغَارِسَهُ فَنُورِقَ فَرْعَهُ
خَفِيَتْ مَعَانِيَهُ عَلَى أَوْهَامِنَا،

بَيْنَ النُّفُوسِ صَحَائِفًا لَمْ تُكْتَبِ (٢)
وَأَرْقَ مِنْ رَيْقِ الْحَبِيبِ وَأَعَذَبِ
عَذَبِ، وَمَلَّتْ الْحَدَائِقُ مُعْشَبِ
عِلْمًا وَأَثَمَرَ بِالْكَلَامِ الطَّيِّبِ
فَالْفِكْرَ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبِ

(١) المصدر السابق، وتاريخ الأدب العربي. عمر فروخ ج ٤ ص ٦٠٧ .

(٢) ابتداء من هذا البيت إلى آخر القصيدة زيادة عند د. عمر فروخ في كتابه المشار إليه .

التَّحْلِيلُ وَالتَّعْلِيلُ :

بالتأمل في أبيات القصيدة نستشف أنها عبارة عن رسالة شعرية بعث بها الشاعر إلى صديق له رداً على رسالة وصلته منه، وقد استهلَّ أبو جعفر رسالته بالشكوى الصارخة من علتين اجتمعتا عليه هما : المرض المزمن الذي لازمه (داء النسمة) ، والشيب الذي اشتعلت به رأسه، وثالثهما الدهر بمصائبه وتقلباته ، وأما المرض فقد أُمسى زاجراً له ومؤنباً على ما فرط في عمره، وأما المشيب فغداً واعظاً ومؤدباً له فلا تفريط، ولا انغماس في الملذات والشهوات، بل زهد وتنسك ، واستعداد ليوم الرّحيل، وملاقاة وجه الملك الجليل، وزيادة على ذلك جسم الدهر على صدره بمصائبه ونكباته، وخطوبه الجسام، فقد انهيمرت عليه سحابات تلك المصائب، ولم تتركه إلا وقد أصبحت حياته مليئة بكل مثير ومعجب من الملمات والأحداث والنكبات الصعبة الشديدة، وأصبحت عجلة الأيام تدور في غير اتجاهه، وعلى غير هواه، بل تأتي بعكس ما يريده أو يبتغيه، وهذا ما ينقص عليه حياته .

ثم انتقل الشاعر إلى مخاطبة صديقه بلفظة الإخاء، واصفاً ما بينهما من علاقات المودة الوطيدة بعظيم الصفات، وصدق القائل : « رَبُّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمٌّكَ » ، وما الأخ الشقيق بأقرب إلى قلبه من صديقه هذا، فما بينهما من أخوة العلم المشرف أهله أقوى من أخوة النسب، فهما في العلم بنو أب واحد ويتعجب اللمائي كيف استطاع صديقه العثور عليه، والوصول إليه وهو مغيب بين ضلوع المصائب المحيطة به من كل جانب إحاطة الصدر بالفؤاد، أو السوار بالمعصم، ولم يبق منه الدهر إلا دموعاً مسفوحة بلا فائدة، وقلباً آلمه وعذبته السقام، وقد أخفته الأيام في لهواتها ، واللهوات جمع لهاء، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم (لسان المزمار) ، أي أن الأيام قد ابتلعت في حلقها، وسجنته فأخفته عن الأنظار، فيكيف شعر به هذا الصديق ؟ !

أما باقي الأبيات الزائدة في كتاب تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ فقد مدح فيها الشاعر رسالة صديقه ، ووصفها بالبلاغة والفصاحة دون تطرق إلى الشكوى كما سبق .

وإذا أعدنا النظر في الأبيات لمسنا تجربة شعورية صادقة لدى الشاعر فالقصيد
بأبياتها تكشف عن حالة الشاعر النفسية والبدنية على حقيقتها دون زخرفة أو تزيين ،
فهو مريض أثقلت عليه إلى جانب مرضه هموم المشيب ، وضعف الشيخوخة وحطمت
نكبات الأيام المستمرة له ، والمتعاقبة عليه ، وقد تحولت حياته إلى أوهام ، فهو يبصر ما لا
يدرك ، ويقرأ ما لا يكتب ، أي إن حياته قد اكتنفها الغموض والتناقض ، كما أصبحت
عيشته منغصة لا تشتهى ، بل كل ما يشتهي فيها أصبح بالنسبة له غير ذي قيمة .

وقد استعان الشاعر بألفاظ تتناسب مع حالته ، بل وتكشف عنها ، كقوله : « أوهت
خطوب الدهر مني عاتقي » فهذا التعبير كناية عن الضعف الشديد الذي أصابه ، وقوله :
وَهَمَّتْ سَحَابُهُ عَلَيَّ فَغَادَرْتُ أَرْضِي قَرَارَةَ كُلِّ خَطْبٍ مُعْجَبٍ
كناية عن أمرين : الأول كثرة المصائب ، وهذه يدل عليها قوله (همت) ،
والثاني كناية عن تحول حياته إلى مستودع ومستقر لمصائب الأيام ، هذه المصائب العجيبة
المثيرة للدهشة ، وصور الشاعر البيانية بسيطة سهلة يدل اختيارها على بساطة الشاعر الذي
يئس من الشفاء ، « فالسقام زاجر ومؤنب » ، و« الشيب واعظ ومؤدب » « والدهر
جاسم عليه حتى أوهى عاتقه » ، وزحزح منكبه منكب الشاعر ، وحياته أرض قيعان
منخفضة تتجمع فيها المياه المنهمرة من السحب ويعني بها المصائب المتوالية عليه توالي
الأمطار ، والقلب أشيب ، وهذه البساطة لا شك أنها نتيجة ما حلّ بالشاعر فأصبح راضياً
بما قل وكفى من حياته .

وفي أواخر أيام حياته عادهُ صديق له وهو طريح الفراش ، ولما جلس إلى جواره ولمس
حاجته إلى هواء يتنفسه ، تناول مروحة من ريش طير ، وأخذ يروح عليه بها فأحس أبو
جعفر بألم شديد ينتابه نتيجة ذلك ، فقال على البديهة : (١)

رَوَّحَنِي عَائِدِي فَقُلْتُ لـــــــ : لَأَلَا تَزِدْنِي عَلَى الَّذِي أَجْدُ
أَمَا تَرَى الســــنَّارَ وَهِيَ خَامِدَةٌ عِنْدَ هُبُوبِ الرِّيحِ تَتَقَدُّ ؟ !

(١) نفح الطيب للمقري ج ٣ ص ٥٩٦ ت د . إحسان عباس والذخيرة ق ١ م ١ ص ١٢١ .

ولك أن تتأمل ما عبّر به أبو جعفر في هذين البيتين عن شدة علته، وكيف أصبح لا يطيق نسمات الهواء الخفيفة من مروحة صغيرة ، وكأنها تشعل ناراً في صدره بعد أن كانت خامدة .

ولذلك قال لعائده : (لَا تَزِدْنِي عَلَى الَّذِي أَجِدُ) فكأنه يقول له : إن صدري أصبح من الرقة بمكان بحيث لم يعد يحتمل أي شيء
وجاء البيت الثاني حُسنَ تعليل لما ساقه في بيته الأول :

أما ترى النَّارَ وهي خامدةٌ عند هبوبِ الريح تتقد ؟ !
وهو أسلوب استفهامي غرضه البلاغي التقرير ، والمُح في البيت تشبيهاً ضمناً ، فكأنني به قد صوّر ما في صدره من السقم والعلّة بالنار الخامدة ، توقدها وتلهبها نسمات الهواء .

لله درُّ أبي جعفر اللّمائي لقد أثّرتْ علتهُ فعلاً في حياته ، وفي شعره ، وطريقة اختياره لألفاظه وعباراته وصوره ، ومعانيه وأفكاره .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

(٦) «الوزير أبو بكر بن عمار الأندلسي»

التعريف بالشاعر :

من الشعراء الذين نكبوا في عصر الطوائف نكبة لم ينج منها ، ولم تقم له قائمة بعدها ، الشاعر الكاتب الوزير ^(١) أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار الشلبي الأندلسي ، المولود في قرية شنبوس قرب شلب جنوبي غرب الأندلس سنة ٤٢٢ هـ في آخر سنوات الفتنة البربرية في قرطبة .

وقد نشأ فقيراً معدماً محروماً ، ولكنه كان طموحاً انتهازياً ، الغاية عنده تبرير الوسيلة ، فلا مانع عنده من ركوب أي مركب يوصله لغايته ، دون نظر إلى أية اعتبارات أخرى ، بل دفعه إيمانه الشديد بهذا المبدأ أن آمن بالصدقة بقدر ما تبلغه أهدافه التي ينشدها .

وقد بدأ ابن عمار طلب العلم في شلب ، ثم انتقل منها إلى قرطبة لتحصيله ، ولما آنس في نفسه القدرة على العمل أخذ يطوف في البلاد يمدح هذا وذاك من مختلف المنازل والدرجات والمراتب ، ويعرض خدماته ، حتى استقر به الحال في كنف المعتضد عبّاد ملك إشبيلية سنة ٤٤٥ هـ ، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، وكان ميّالاً إلى اللهو طمّاعاً ، وفي بلاط المعتضد تعرّف ابن عمار على الأمير المعتمد ابن عبّاد ، وكان غلاماً يافعاً وسيماً يصغر ابن عمار بقليل ، وفيه ميل إلى اللهو والمجون ، كما كان شاعراً طموحاً فيه إصرار على بلوغ أهدافه مهما كان الثمن ، وقد أحسّ المعتضد بخطر ابن عمار على ولده المعتمد ، فعمد إلى طرده وإبعاده عن إشبيلية سنة ٤٥٠ هـ ، فعاد إلى التجوال

(١) راجع في ترجمته ما يلي : الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٣٦٨ - ٤٣٣ ، المطرب لابن دحية ص ١٦٩ - ١٧٤ ، وفیات الأعيان ج ٢ ص ٤٢٥ - نفح الطيب أجزاء ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٦٣٨ ، تاريخ الأدب الأندلسي (ملوك الطوائف د. احسان عباس) .

مرة أخرى فزار المريّة ، والسّهلة وأخيراً استقر في سرقسطة عند بني هود ، ولكنّ عينه من بعيد كانت على المعتمد بن عباد .

ولما توفّي المعتضد سنة ٤٦١ هـ خلفه في ملكه المعتمد ولده ، وبمجرد أن تولّى الملك أسرع في استدعاء صديقه القديم ابن عمار ، ولما كان حبّ الرئاسة يجري في دم ابن عمار ، فقد طلب من مليكه أن يولّيه شلّب ، فولاه عليها ، ثم استدعاه بعد ذلك حيث ولاه الوزارة .

ومن المثير للأسى والأسف أن ابن عمار كان عاملاً رئيساً من عوامل إشعال نيران الفتنة والخلافات والتناحر بين ملوك الطوائف ، فهو الذي شجع المعتمد على انتزاع المدن والممالك من ملوك الطوائف الآخرين ، بل هو الذي دفعه إلى الاستعانة بملوك النصارى على إخوانه المسلمين ، وأنسته شهوة الحكم كل القيم والمبادئ الأخلاقية ، والمثل العليا ، بل دفعته أيام الحرمان التي عاشها قبل الوصول إلى ما وصل إليه أن يظأ بقدميه كل شيء إلا شيئاً يبلغه هدفه ، ويوصله إلى غايته ، فقد عاش ابن عمار أياماً جلّلت بالسّواد ، امترى أخلاف الحرمان ، وقاسى شدائد الزمان ، وبات بين الدُّكّة والدُّكان ، واستجلس دهليز فلان وأبي فلان ، وبدلاً من تذكّر هذه الأيام فيواسي المحرومين ، ويقيل عشرات المتعثرين ، شكراً لله رب العالمين ، اندفع متهوراً ، فكان وحشاً كاسراً .

نكبة ابن عمار :

كان ابن عمار شيطاناً من شياطين الإنس ، ولذلك طرده المعتضد عباد من إشبيلية خوفاً على ولده المعتمد من نزوات هذا الشيطان فهمام على وجهه في الأرض يبحث عن مأوى ، واستقر في سرقسطة حتى استدعاه المعتمد بن عباد مرة أخرى إلى إشبيلية بعد وفاة والده المعتضد ، وتولّيه الملك من بعده ، وقد أنس له المعتمد ، وأمن

جانبه اعتماداً على ما بينهما من صداقة قديمة، وودّ ظنّ أنه سيدوم، ممّا دفع ابن عمّار إلى الاستبداد الزائد، ومنحه جرأة زائدة ظاهرة على الآخرين، حتى بلغ به الأمر أن تمرّد على المعتمد نفسه، وذلك بعد استيلائه على مرسية باسمه، ثم راق له أن يستبدّ بها، وأن يستقل بحكمها، وكأنه قال : لماذا لا أرفع رأسي بمحازاة رأس المعتمد ؟ ولماذا لا أكون ملكاً مثله لي بلاطي ووزرائي، وحشمتي وحاشيتي وخدمي ؟ أأست أنا الذي وسّعت ملكه، ودبرت له أمره ؟ إنها نفثات شيطانية دارت في رأسه، ولم يتوان لحظة في تنفيذ ماوسوس به شيطانه إليه ، فأعلن استقلاله بمرسية، ودفعه طموحه الذي لا حدود له إلى الخروج للاستيلاء على طليطلة، ولكنه باء بالفشل، ولمّا حاول العودة إلى مرسية مرة أخرى لم يستطع لأن خليفته عليها وقائد عسكره ابن رشيق استبدّ بها ومنعه من دخولها، فهام على وجهه مرة أخرى، وما بينه وبين المعتمد يزداد وحشة وفساداً، ويتحول من سيئ إلى أسوأ، وتشتد العداوة بينهما ومّا زاد في حدة العدواة أن ابن عمار كان سبباً في اعتقال ولده الرشيد بيد النصاري الإفريجة في مرسية، لأنه هو الذي اقترح عليه الخروج إلى شرق الأندلس مع الرشيد بجيش إشبيلي للاستيلاء على مرسية^(١)، وظل الرشيد معتقلاً حتى افتداه والده .

وكان ابن عمّار قد ألقي بعضى الترحال في سرقسطة حيث لجأ إليها كي يعيش في كنف ملكها المؤتمن بن هود (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ) وهناك أدّى له خدمة هي مساعدته في التغلب على أحد أتباعه المتمردين عليه ، ومن سرقسطة ظل يناوش المعتمد ابن عبّاد بقصائده ..

ودارت على البعد بينهما مساجلات شعرية عجيبة كانت من أسباب تربص المعتمد به، وتبيته النية للقبض عليه ومحاكمته تمهيداً للقضاء عليه ، والاقتصاص منه .

ولمّا أراد الله لابن عمار نهايته سبّب الأسباب لذلك، فقد تمرّد بنو سهيل في قلعة شقورة، فانبرى ابن عمّار مستأزناً من المؤتمن بن هود في الخروج للقضاء على تمردهم، وهو يدبّر في رأسه أمراً آخر، هو أن يخدعه كما خدع المعتمد عند فتح مرسية، وخرج

(١) الذخيرة لابن بسام ق ٢ ص ١٠٥ .

ابن عمار إلى تلك القلعة بحجة إعادتها كما زعم إلى سلطان المؤمنين ، ولكن بني سهيل خدعوا ابن عمار، واعتقلوه ، وألقوا به في غياهب السجن في ربيع الآخر سنة ٤٧٧ هـ ، ثم باعوه للمعتمد بن عباد بمبلغ كبير من المال ، فنقل إلى قرطبة ، ومنها إلى إشبيلية حيث أُلقي في سجنها لفترة قصيرة، ظل يخاطب المعتمد وأولاده إبانها مسترحماً مستعطفاً دون فائدة، وظل كذلك حتى دخل عليه المعتمد بن عباد بعد أن حفزته اعتماد الرميكية التي هاجها ابن عمار في فترة انطلاقه بعيداً عن ملك المعتمد، ولما دخل عليه ظن أنه جاء ليفكه من قيوده ، ولكنه عاجله ^(١) بضربة من طبرزان كان في يده (سلاح يشبه الفأس) في رأسه ضربة فلقت هامته فلقنتين فقضى عليه، وأمر به دفن بقيوده كما هو على حالته التي قتل عليها تحت باب من أبواب القصر، وبذلك كانت نهاية ابن عمار التي خطها لنفسه بيديه جزاء طمعه وطموحه الزائد عن الحد.

نتاج النكبة من شعر ابن عمار

كانت أول نكبة لابن عمار هي نكبة الطرد من إشبيلية التي مثلت فردوس حياته في فترة شبابه صديقاً للمعتمد، وخذنا له ونديماً ، ولما طرد ابن عمار من إشبيلية بأمر المعتضد عباد، وهام على وجهه في أرض الأندلس يبحث عن مأوى، كانت عينه مازالت ناظرة إلى المعتمد لأنه كان بالنسبة له الأمل الذي يوحى له بالصبر وكان دائماً ما يرسل إليه بقصائده التي يخاطب بها قلب والده المعتضد لعله يعفو عنه . ومن رسائله رسالة شعرية يكشف فيها عن أثر ما حدث في حياته، ويبين ما اكتنفها من متاعب، وما ألم به من ذل بعد عز، وكأنه خشي أن يعود به دهره إلى أيام الشقاء والحرمان، وأخذ يتذكر أيامه في إشبيلية، ولياليه التي كان فيها نديماً للمعتمد. وينتقل إلى مدح المعتمد، متخذاً من مدحه مدخلاً لمدح أبيه المعتضد، ويستعطفه لعله يرق فيعفو عنه، ويعيده إلى جنته التي طرد منها شر طردة، وفي هذه الرسالة الشعرية يقول : ^(٢)

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٦٤٠ .

(٢) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٦٤٥ .

عَلَيَّ وَلَا مَبَا بَكَاءِ الْغَمَائِمِ ؟
وَعَنِي أَثَارَ الرُّعْدِ صَرْخَةِ طَالِبِ
وَمَالَيْتُ زَهْرَ النُّجُومِ حَدَادَهَا
أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْجِيَادَ فَإِنَّهَا
أَشْلُبُ ؟ وَلَا تَنْسَابُ عِبْرَةً مُشْفِقُ !
كَسَاهَا الْحَيَا بَرْدَ الشَّبَابِ ! فَإِنَّهَا
ذَكَرْتُ بِهَا عَهْدَ الصَّبَا فكَأَنَّمَا
لِي بَالِي ، لَا أَلُوِي عَلَيَّ رُشْدَ لَائِمِ
أَنَالَ سَهَادِي مِنْ عَيُونِ نَوَاعِسِ

* ومن هذه القصيدة أيضاً يقول :

هُوَ الْعَيْشُ ، لَا مَا أَشْتَكِيهِ مِنَ السُّرَى
وَصَحْبَةَ قَوْمٍ لَمْ يَهْدُبْ طِبَاعَهُمْ
نَدَامَى ، وَلَا غَيْرَ السُّيُوفِ أَزَاهِرِي
وَمَا حَالُ مَنْ رَبَّتُهُ أَرْضُ أَغَارِبِ
وَنَبِثْتُ إِخْوَانَ الصَّفَِّاءِ تَغَيَّرُوا
لَقَدْ سَخَطُوا ظُلُمًا عَلَى غَيْرِ سَاخِطِ
إِلَى الْحَاجِبِ الْأَعْلَى ، إِلَى الْعَضْدِ الَّذِي
لَهُ هَزَّةٌ فَنِي الْجُودِ مَعْتَصِدِي
سَمَاءً بِأَبْيَسِهِ ذُرَّةَ الشَّرَفِ الَّذِي
إِذَا نَشَرَتْ لَحْمٌ بِذَكَرَاهُ فَخَرَّهَا

وَفَنِيَّ وَلَا مَا نِيَّاحُ الْحَمَائِمِ ؟
لَثَارِ ، وَهَزَّ الْبَرْقُ صَفْحَةَ ضَارِمِ
لَغَيْرِي ، وَلَا قَامَتْ لَهُ فِي مَلَاتِمِ
نَأَتْ بِي عَنْ أَرْضِ الْعُلَا وَالْمَكَارِمِ
وَحَمَصِ ؟ وَلَا تُعْتَادُ زَفْرَةَ نَادِمِ (١)
بَلَا دُ بَهَا عَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي (٢)
قَدْ حَتَّ بَنَارَ الشُّوقِ بَيْنَ الْحِيَازِمِ (٣)
عَنَانِي وَلَا أَتْنِيهِ عَنْ غِيِّ هَائِمِ
وَأَجْنِي عَذَابِي مِنْ غُصُونِ نَوَاعِمِ

إِلَى كُلِّ ثَغْرِ أَهْلِي مِثْلَ طَاسِمِ (٤)
لِقَاءِ أَدِيبٍ أَوْ نَوَادِرِ عَالِمِ
لَدَيْهِمْ ، وَلَا غَيْرِ الْغُمُودِ كَمَائِمِي (٥)
وَأَلْقَتْ بِهِ الْأَقْدَارُ بَيْنَ الْأَعَاجِمِ ؟
وَذَمُّوا الرُّضَا مِنْ عَهْدِي الْمُتَقَادِمِ
عَلَيْهِمْ ، وَلَا مَوَا - ضِلَّةً - غَيْرَ لَائِمِ
تَطُولُ بِيَمَانَهُ قِصَارُ الصُّورَامِ (٦)
تَهْزُ إِلَى تَشْتِيَتِ شَمْلِ الدَّرَاهِمِ
أَبَا طَحَهُ سَهْلُ السَّنْدَى وَالْمَكَارِمِ
طَوَتْ طَيْئِي مِنْ خَجَلَةٍ ذَكَرَ حَاتِمِ

(١) بُرْد : ثوب ، عَقَّ : رَدَّ وَخَلَعَ .

(٢) طاسم : خرب غير مسكون .

(٣) الصورام : السيوف القاطعة .

(١) زفرة : نفس حار .

(٢) الحيازيم : جوانب الحلق عند العنق .

(٥) كمائم : جمع كمامة وهي السُتر أو المأوي .

أَبَى أَنْ يَسْرَاهُ اللَّهُ غَيْرَ مُقَلِّدٍ
إِذَا جَرَّ أَذْيَالَ الْجِيُوشِ إِلَى الْعَدَا
وَمَثْوَى الْمَعَالِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
حَمَالَةَ سَيْفٍ أَوْ حَمَالَةَ غُـلَامِ
أَطَاعَتُهُ أَوْجَرَتْ ذُبُولَ الْهَزَائِمِ

ثم يتوجه إلى المعتمد بن عباد مخاطباً، متبعاً أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، منادياً إياه بكنيته (أبا القاسم) تكريماً وتقديراً، متوسلاً له أن يقبل مدحه، ويعتذر عن تقصيره، فهو لا يملك ما يهديه إليه غير أشعاره، ومتمنياً أن ينجح في سعيه لدى أبيه لتعود المياه إلى مجاريها، ويلتئم شمله بشمله، فيقول في نفس القصيدة :

أَبَا الْقَاسِمِ، أَقْبَلْهَا إِلَيْكَ فَإِنَّمَا
أَنَا الْعَبْدُ فِي ذُلِّ الْخُضُوعِ لَوْ أَنَّنِي
وَإِنِّي - إِذَا أَنْصَفْتَ - بَعْدَكَ خَادِمٌ
لَعَلَّ الَّذِي أَقْدَى بَتْرَحَةَ رَاحِلِي
فَتَرَجَعَ أَيَّامَ مَضَتْ وَكَوَانَهَا
ثَنَّاؤُكَ مُسْكِي، وَالْقَوَافِي لَطَائِمِي ^(١)
أَرَى الْبَدْرَ تَاجِي، وَالنَّجُومَ خَوَاتِمِي
لِدَهْرِي، وَكَانَ الدَّهْرُ عِنْدَكَ خَادِمِي
عَيُونًا سَيَجْلُوهَا بِفَرَحٍ قَادِمٍ ^(٢)
إِذَا امْتَلَأَتْهُمَا النَّفْسُ لَذَّةَ حَالِمٍ

ولما تمرّد ابن عمار على صديقه المعتمد بن عباد، ونزع إلى الاستقلال بمرسیة، وكان سبباً في اعتقال الرشيد بن المعتمد بيد الفرنجة، وأصبح هو المعلوم ^(٣) في المعلوم من أمره والمجهول، وفساد حاله عند المعتمد يتزايد، وتدابره يتسائد، وفي أثناء ما وقع من تدبير تلك الأمور، ونجوم الاستيحاء والتغيير، خاطبه المعتمد عاتباً متمثلاً ببيتين لإبراهيم بن عباس الصولي، قالهما لما انحرف عنه ابن الزيات، وكان الحارث بن بسختر صد يقاله فهجره فيمن هجره من إخوانه، وتخلّى عنه في وقت كان في أشد الحاجة إليه، فأنشد قائلاً البيتين اللذين تمثل بهما المعتمد وهما :

(١) اللطائم: جمع لطيمة وهي قافلة تحمل المسك لبيعه .

(٢) أقذى العين : ألمها وآذاها ، والترحة : الخوف .

(٣) الذخيرة لابن بسام ق ٢ م ١ ص ٤٠٥ .

وَكُلُّ خَلِيٍّ غَيْرُهُ الْحَوَادِثُ
نَعْمًا ، وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ثَالِثٌ

تَغْيِيرٍ لِي فِي مَنْ تَغْيِيرٍ حَارِثٌ
أَحَارِثٌ إِنْ شُورَكَتَ فِيكَ فَطَالَمَا

فَأَجَابَهُ ابْنُ عَمَّارٍ بِقَصِيدَةٍ يَقُولُ فِيهَا : (١)

وَلَا أَنَا مِمَّنْ غَيْرُهُ الْحَوَادِثُ
لِيُنْأَى بِحَظِّي مِنْكَ ثَانٍ وَثَالِثٌ
وَلَا نَفَحَتْ تِلْكَ السَّجَايَا الدَّمَائِثُ (٢)
حَلَاوَتُهُ عَنِّي السَّرَجَالُ الْأَخَابِثُ (٣)
لَدَيَّ وَلَا أَنِي لِعَهْدِكَ نَاكِثٌ (٤)
كَمَا سَاعَدْتُ مِثْنِي الْمِثَانِي الْمِثَالِثُ (٥)
تَجَافَتْ بِنَا تِلْكَ الْخُطُوبُ الْكَوَارِثُ
وَلَا تَلَيْتَ مِنِّي مَسَاعٍ خَبَائِثُ (٦)
نَهَابًا ، وَلِلْأَيَّامِ أُيْدٍ عَوَابِثُ
إِذَا مِتَّ عَنْهَا قَامَ بَعْدِي وَارِثُ
قَدِيمًا نَبَاهَا فِ ، وَأَدْرَكَ رَائِثُ
تَعْنُ بِكَفَيْكَ الْجِبَالُ السَّرَنَائِثُ
وَقَدْ غَابَ مِنِّي لِلْخَوَاطِرِ بَاعِثُ
تَحَلُّ عَرَاهُ الْعَمَاقِدَاتِ النُّوَافِثُ

لَكَ الْمِثْلُ الْأَعْلَى ، وَمَا أَنَا حَارِثُ
وَلَا شَارِكُكَ الشَّمْسُ فِيَّ وَإِنَّهُ
فَدَيْتُكَ ، مَا لِلْبَشْرِ لَمْ يَسِرْ بَرْقُهُ
أُظُنُّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَذْهَبْتُ
تَنْكَرْتُ لَا أَنِّي لِفَضْلِكَ نَاكِرُ
وَلِكُنْ ظَنُّونَ سَاعَدَتْهَا نَمَائِمُ
أَبْعَدَ مَضَتْ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ حِجَّةً
مَضَتْ لَمْ تَرَبْ مِنِّي أُمُورٌ شَوَائِبُ
حَلَلْتُ يَدَايِي هِيَ كَذَا وَتَرَكْتَنِي
وَهَلْ أَنَا إِلَّا عَبْدٌ طَاعَتِكَ الَّتِي
أَعْدُ نَظْرًا لِأَتَوْهِنَ الرَّأْيِ إِنَّهُ
سَتَذَكِّرُنِي إِنْ بَانَ جَبَلِي وَأَصْبَحْتُ
وَتَطْلُبُنِي إِنْ غَابَ لِلرَّأْيِ حَاضِرُ
أَعُوذُ بِعَهْدِ نَظْمِهِ بِكَ أَنْ تَرَى

(١) المرجع السابق .

(٢) الدمائث : اللينة السهلة .

(٣) الأخابث : الذين كثر خبثهم وقدرهم .

(٤) ناكث : ناقض للعهد .

(٥) نمائم : ججمع نائمة وهي الإيقاع بين الناس .

(٦) ترَبَ : تدخل الريب والشك ، أمور شوائب : أي مختلطة بما يشورها .

بالنظر في أبيات ابن عَمَّار نوقن أنه استشعر نعمة التهديد من المعتمد كما أحسَّ بأنه يتهمه بالخيانة ، والتنكر له وَعَضَّ اليد التي أحسنت إليه ، بل أيقن أنه أصبح مستهدفاً ، ولذلك بذل جهده مكثفاً في الدِّفاع عن نفسه ، وأحال ما حدث بينه وبين المعتمد من قطيعة إلى ما فعله خصومه من إقدامٍ على تعكير صفو العلاقة بينه وبين ملكيه وصديقه ، حتى دفعوا المعتمد إلى سوء الظن برفيق الصبا والشباب ، ووزيره ومدبِّر مملكته طوال خمس وعشرين سنة كاملة ، وأعلن ابن عَمَّار أنه ليس مُمَّنٌ ينكر الفضل ، أو يجحدُ النعمة أبداً ، خصوصاً فضل المعتمد ، وقيم الدليل على براءة ساحته بأنه خدم تحت إمرته خمساً وعشرين سنة لم يبدر منه ما يثير الشك ، ولم يقدم إطلاقاً على ما يكرهه ابن عباد ، فكيف به يتخلى عنه ، ويتركه نهباً للأيام ، ثم استخدم أسلوب القصر (هل أنا إلا عبد طاعتك ؟) ليدلل على إخلاصه التام ، ويبين مكانة المعتمد عنده ، كما يثبت أنه يعرف قدر نفسه ، فهو لم يتعدَّ طورَ العبودية ، ولا يمكن أن يكون أكثر من عبد مطيع للمعتمد ، ليس هو وحده ، بل هو وأولاده من بعده ، هؤلاء الذين يرثون العبودية له بعد موته ، ويتمنى ابن عَمَّار أن يعيد المعتمد النظر في أمر ما بينهما ، ولا يأخذه بأقوال الوشاة ، وأصحاب النفوس الضعيفة ، والقلوب الحاقدة ، وعليه ألا يتسرع في إصدار حكمه عليه ، ففي التأني السلامة ، وفي العجلة الندامة ، ومن تأنَّى نال ما تمنى ، وقديما قالوا : « نبا هافٍ وأدرك رائث » أي زلَّ المتسرع ولم يبلغ هدفه ، بينما بلغ مناه المترث المتأنِّي .

وظهر حرص ابن عمار على أن يبين للمعتمد أنه لن يستغني عنه ، بل سيظل محتاجاً إليه ، خصوصاً إذا طلب المشورة فلم يجد صاحب رأيٍ سديد يشير عليه بالصواب في عظام الأمور ، وكأني بابن عَمَّار وقد وضع نصب عينيه قول أبي فراس الحمداني :

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ
وكأنه يترسم خطاه في مثل هذا الموقف الذي يريد أن يذكُر فيه بشدة الحاجة إليه .
ولكن المعتمد ظل على حاله من الغضب على ابن عَمَّار ، يترصد خطاه ، وهو

يُضْمَرُ لَهُ الشَّرُّ، وَابْنُ عَمَّارٍ عَلَى الْبُعْدِ يَحْسُ بِذَلِكَ وَيَفْرُقُ لَهُ ، خُصُوصاً بَعْدَ أَنْ عَرَفَ أَنَّ الْمُعْتَمِدَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ سَبَبُ اعْتِقَالِ وَلَدِهِ الرَّشِيدِ بِيَدِ النَّصَارَى إِيَّانَ حَمَلْتَهُ عَلَى مُرْسِيَّةٍ، وَأَمَامَ هَذِهِ الصُّورَةِ الْخَفِيفَةِ يَسْتَمِرُّ ابْنُ عَمَّارٍ فِي إِرْسَالِ رَسَائِلِهِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي تَحْمِلُ اعْتِذَارَاتِهِ، وَدَلَائِلَ بَرَاءَتِهِ ، وَتَعْبِيرٌ عَنْ خَوْفِهِ الشَّدِيدِ مِنْ بَطْشِ الْمُعْتَمِدِ وَانْتِقَامِهِ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ يَلْحُظُ فِي طَلَبِ الْعَفْوِ عَنْهُ ، وَمَحْوِ سَيِّئَتِهِ بِحَسَنَاتِهِ الْكَثِيرَةِ السَّابِقَةِ، وَمِنْ هَذِهِ الرِّسَالِ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا : (١)

<p>وَأَمْضِي عَزِيمِي أَمْ أَعُوجُ مَعَ الرُّكْبِ (٢) وَأَنْ أَعْقِبَهُ نَكَصْتُ عَلَى عَقْبِي (٣) يَغْيِرُهَا مَا قَدْ تَعَرَّضَ مِنْ ذَنْبِ تَرْبِنِي بَعْدِي عَنْكَ أَنْسَ مِنْ قُرْبِي وَأَرْجُوكَ لِلْحَبِّ الَّذِي لَكَ فِي قَلْبِي وَلَا بَدْ يَوْمَماً أَنْ يُفْلَلَ مِنْ غُرْبِي (٤) يُطَبِّقُهَا مَا بَيْنَ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تُخَفَّفَ مِنْ عَتَبٍ إِلَى الدَّهْرِ لَمْ يَرْتَعْ لِنَائِبَةِ سِرْبِي (٥)</p>	<p>أُصَدِّقُ ظَنِّي أَمْ أُصَيِّخُ إِلَى صَحْبِي إِذَا انْقَدْتُ فِي رَأْيِي مَشَيْتُ مَعَ الْهُوَى وَإِنِّي لَتَلْتَنِينِي إِلَيْكَ مَوْدَةً فَمَا أَعْجَبَ الْأَيَّامَ فَنِي مَا قَضَتْ بِهِ أَخَافُكَ لِلْحَقِّ الَّذِي لَكَ فِي دَمِي وَكَمْ قَدْ فَرَّتْ يَمْنَاكَ بِي مِنْ ضَرِيبَةٍ وَلَا بَدْ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ ثَنَاءٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَفْوَ مِنْكَ سَجْـئِيَّةٌ فَلِي حَسَنَاتٌ لَوْ أُمْتُ يَبْعُضُهَا</p>
---	--

وَيَعْلُقُ ابْنُ بَسَامٍ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ عَقِبَهَا قَائِلاً :

« فَلَتَخْدَعِ الْأَلْبَابُ، وَتَسْتَعْطِفِ الْأَعْدَاءُ لِلْأَحْبَابِ، إِلَّا أَنَّ الْمَصْرَاعَ الْأَوَّلَ فِي قَوْلِهِ :

أَخَافُكَ لِلْحَقِّ الَّذِي لَكَ فِي دَمِي وَأَرْجُوكَ لِلْحَبِّ الَّذِي لَكَ فِي قَلْبِي

كَأَنَّهُ شَيْءٌ تَكْهَنُهُ مِنْ شَأْنِهِ، وَطَيْرَةٌ أَلْفَاها اللهُ عَلَى لِسَانِهِ، وَصَدَقَ . كَانَ لَهُ فِي عُنُقِهِ

(١) الذخيرة لابن بسام ق ٢ م ١ ص ٤٠٧ . (٢) أُصَيِّخُ : أَسْمَعُ ، أَعُوجُ : أَقِيمُ .

(٣) نَكَصْتُ : رَجَعْتُ .

(٤) فَرَّتْ : قَطَعَتْ لِلْإِصْلَاحِ ، يُفْلَلَ مِنْ غُرْبِي : يَذْهَبُ بَعْدِي وَيَصْرِفُهُ .

(٥) يَرْتَعْ : يَخَافُ ، النَّائِبَةُ : الْمَصِيبَةُ ، سِرْبِي : أَهْلِي وَطَرِيقِي .

ربق، وفي دمه حق احتال له فئاله ، والمرء يعجزُ لا محالة » . ومعنى كلام ابن بسام أن ابن عمار قد أيقن بالنهاية المحتومة ، واعترف بأن في عنقه ذنب يستحق عليه العقوبة، فكان هذا لوناً من ألوان التطير ، ومن يقرأ الرد المقتضب الذي أرسل به المعتمد لابن عمار على هذه الرسالة يحس بما أحس به شاعرنا المنكوب فقد تكلف المعتمد الرد تكلفاً حيث قال (١) :

<p>وَرَدْتُ لَكَ الْعُتْبَى حِجَاباً عَنِ الْعُتْبِ صَفُوحاً عَنِ الْجَانِي رُؤُوفاً عَلَى الصَّحْبِ وَأَصْفَحُ عَمَّا كَانَ إِنْ كَانَ مِنْ ذَنْبِ وَلَا صَارَ نَسِيحاً أَلَا ذِمَّةً مِنْ شُعْبِي فَلَيْسَ يُجِيدُ الشَّعْرَ مَشْرُكُ اللَّبِّ</p>	<p>تَقَدَّمَ إِلَى مَا اعْتَدْتَ عِنْدِي مِنَ الرَّحْبِ مَتَى تَلْقَنِي تَلْقُ الَّذِي قَدْ بَلَوْتَهُ سَأُؤَلِّيكَ مِنِّي مَا عَهَدْتَ مِنَ الرُّضَى فَمَا أَشْعَرَ الرَّحْمَنُ قَلْبِي قَسْوَةً تَكَلَّفْتَهُ أَبْغَيْي بِهِ لَكَ سَلْوَةً</p>
--	--

قال ابن بسام : « فلم يزد جواب المعتمد هذا إلا توحشاً ونفاراً ، وتوقفاً عن اللحاق به ، وازوراراً ، ولله در أبي الطيب المتنبى في قوله :

<p>وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُمٍ وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمٍ وَلَوْ أَحْسَنْتَ مَا اسْتَبَعْدَتْ عَنِّي وَمَا أَوْلَى الْمَسِيئِ سَوْءَ ظَنِّ »</p>	<p>إِذَا سَاءَ فَعَلَ الْمَرْءُ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَعَادَى مُحِبِّيهِ لِقَوْلِ عِدَائِهِ وَقَدْ نَقَلَهُ الْمُتَنَبِّى مِنْ قَوْلِ أَعْرَابِيٍّ « أَسَأْتَ إِلَيَّ فَاسْتَوْحَشْتَ مِنِّي أَسَأْتَ فَسَاءَ ظَنُّكَ بِي لِجَاجَا »</p>
--	---

والذي أدخل الرعب في قلب ابن عمار، وجعله يحس أن المعتمد يستدرجه ويحاول إيقاعه في شرك نصب له، هو البيت الأخير
تَكَلَّفْتَهُ أَبْغَيْي بِهِ لَكَ سَلْوَةً فليس يجيد الشعر مشترك اللب

لأنه يشعر بعدم إخلاص المعتمد في رده ، وفيما وعد به من العفو وإنما يتكلف

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤٠٨ .

القول تكلفاً لعله ينسيه إساءة ابن عمار، وعلل هذا التكلف بأن قلبه ليس خالياً من هموم أَلَمَّتْ به فشغلته، ولذلك لم يجرؤ ابن عمار على التوجه إلى المعتمد مرة أخرى .

وليت الأمور استقرت بابن عمار في منفاه الذي اختاره لنفسه بسوء فعله، فلقد شاعت قصيدة لابن عمار يفخر فيها بنفسه ، وفيها يقول : (١)

هَيَّاهُ يَطْمَعُ بِالنَّجَاةِ لَطَالِبُ	سَاعَ إِذَا وَنْتَ الْكَوَاكِبُ سَارِ
كَيْفَ التَّفَلُّتُ بِالْخَدِيعَةِ مِنْ يَدِي	رَجُلِ الْحَقِيقَةِ مِنْ بَنِي عَمَارِ
رَجُلٍ تَطْعَمُهُ الزَّمَانُ فَجَاءَهُ	طَرَفَيْنِ فِي السَّيِّئِ الْإِحْلَاءِ وَالْإِمْرَارِ
سَلِسَ الْقِيَادَ إِلَى الْجَمِيلِ وَإِنْ يَهْجُ	فَدَعَ الْعَنَانَ لِهَبَّةِ السَّيِّئِ تِيَارِ
طَبْنٍ بِأَعْرَاضِ الْأُمُورِ مُجَرَّبُ	فَطَنِي لِأَسْرَارِ الْمَكِيدِ أَيْدِ دَارِ
كَشَّافٍ مَظْلَمَةٍ وَسَائِسِ أُمَّةٍ	نَفَاعَ أَهْلِ زَمَانِهِ ضَرَارِ
شَرَابِ أَكْثَرِ الْمُدَامِ وَتَارَةِ	شَرَابِ أَكْثَرِ الْمُدَامِ وَتَارَةِ

فلما بلغت هذه القصيدة المعتمد بن عباد، لم يرقق له أن يفخر ابن عمار بنفسه ، ويرفع من شأنه وقدره بهذه الصورة التي تساوي رأسه برأس الملوك سادته، فتندر المعتمد عليه، وسخر منه واستهزأ وشاعت على لسانه قصيدة يسخر فيها من ابن عمار، ويقلب فخاره عاراً عليه، معلقاً على قوله :

كَيْفَ التَّفَلُّتُ بِالْخَدِيعَةِ مِنْ يَدِي	رَجُلِ الْحَقِيقَةِ مِنْ بَنِي عَمَارِ
---	--

وذلك بقوله : (٢)

الْأَكْثَرِينَ مُسَوِّدَا وَمُمْلَكَا	وَمُتَوَجِّهَا فِي سَالِفِ الْأَعْصَارِ
الْمَكْثَرِينَ مِنَ الْبُكَاءِ لِنَارِهِمْ	لَا يُوقِدُونَ بِغَيْرِهِ لِلْسَّارِي
وَالْمُسَوِّثِينَ عَلَى الْعَمِيَالِ بِزَادِهِمْ	وَالضَّارِبِينَ لِهَامَةِ الْجِبَارِ

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤١٢ . (٢) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤١٣ .

النَّاهِضِينَ مِنَ الْمُهْـوَدِ إِلَى الْعَلَا وَالْمُنْهَضِينَ الْغَارَ بَعْدَ الْغَارِ
إِلَى آخِرِ مَا سَاقَهُ الْمُعْتَمِدُ بِأَسْلُوبٍ سَاخِرٍ، مُتَنَدِّرًا بَابِنَ عِمَارٍ وَحَسْبِهِ وَنَسْبِهِ، يَقُولُ ابْنُ
بَسَّامٍ (١) « فَلَمَّا بَلَغَ ابْنُ عِمَارٍ شَعْرَ الْمُعْتَمِدِ هَذَا، وَقَدْ بَلَغَ مِنَ التَّنْدِيرِ فِيهِ الْغَايَةَ، وَتَجَاوَزَ
مِنَ الطَّنْزِ (السَّخَرِيَّةِ) عَلَيْهِ النِّهَايَةَ، فَلَمْ يَحْدُ صَبْرَهُ، وَلَمْ يَشْكُ أَنَّهُ مِنْ شَعْرِهِ، فَشَاعَتْ فِي
النَّاسِ أَشْعَارُ عَزِيزٍ إِلَى ابْنِ عِمَارٍ، فِي الْقَدْحِ فِي الْمُعْتَمِدِ وَآلِهِ وَذَوِيهِ وَعِيَالِهِ، مِنْهَا قَصِيدَةٌ
أُولَاهَا :

أَلَا حَيٍّ بِالْغَرْبِ حَيًّا حَلَالًا أَنَا خَوَا جَمَالًا وَحَازُوا جَمَالًا (٢)
وَعَرَجَ يَوْمَيْنِ أُمُّ الْقُرَى وَنَمَّ فَعَسَى أَنْ تَرَاهَا خَيَالًا
لِتَسْأَلَ عَنْ سَاكِنِيهَا الرَّمَادَ وَلَمْ تَرَ لِلنَّارِ فِيهَا أَشْتَعَالَ

وقد عرَّضَ ابنُ عِمَارٍ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ لِلْمُعْتَمِدِ، وَزَوَّجَهُ اعْتِمَادَ الرِّمِيكِيَّةِ وَأَوْلَادَهَا
تَعْرِيفًا فَاضِحًا فَاحِشًا نَسِيقًا مِنْهُ مَا خَفَّ وَقَعُهُ وَمِنْهُ (٣)
تَخَيَّرَتْهَا مِنْ بَنَاتِ الْهَجَانِ رِمِيكِيَّةٌ مَا تُسَاوِي عَمَّا قَالَا
فَجَاءَتْ بِكُلِّ قَصِيصٍ الْعَذَارِ لَيْثِيمَ النَّجَّارِينَ عَمَّا وَخَالَا
قَصَصَ أَرَقْدُودٍ وَلَكِنَّهُمْ أَقَامُوا عَلَيْهَا قُرُونًا طَوَالَا
ثُمَّ يُفَحِّشُ فِي الْقَوْلِ لِلْمُعْتَمِدِ، وَيَرْمِيهِ بِالسُّوءِ وَالْعُهْرِ بِقَوْلِهِ :

أَتَذْكُرُ أَيَّامَنَا بِالصَّبَا وَأَنْتَ إِذَا لُحْتَ كُنْتَ الْهَلَالَا
أُعَانِقُ مِنْكَ الْقَضِيبَ الرُّطِيبَ وَأَرْشِفُ مِنْ فَيْكِ مَاءَ زَلَالَا

(٤)

سَأَهْتِكُ عَرَضَكَ شَيْئًا فَشَيْئًا وَأَكْشِفُ سِتْرَكَ حَالًا فَحَالًا
وَعَلَى آيَةِ حَالٍ لَقَدْ أَقْرَعَ ابْنُ عِمَارٍ فِي هِجَائِهِ لِلْمُعْتَمِدِ بَنَ عِبَادَ، وَشَهْرَهُ، وَبِأَهْلٍ

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤١٤ . (٢) الحلال : ضد الحرام ، والحلال أيضا : متاع الرجل .

(٣) نفح الطيب للمقري ج ٤ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٤) هذا بيت فاحش تأنف من ذكره لما يحمله من تبذُّل واضح .

بيته تشهيراً قبيحاً ، وجاء في قصيدته ما يندى جبين الإنسان لذكره خجلاً ، وهذا ما أوصد باب العفو في وجهه ، حيث قطع على نفسه خط الرجعة ، بما أقدم عليه فزاد من ضيق المعتمد منه وغضبه عليه ، وتوعده له ، « فلم يزل ^(١) المعتمد يرتصد فيه الغوائل ، وينصب له الجبال ، إلى أن لاح لابن عمّار عند صاحب شقورة برق خلّب .

وكان قد تجاوز بطمعه في الرئاسة طمع أشعب ، فسوّل للمؤمن بن هود امتطاء صهوتها ، وسهّل له تسنّم ذروتها ، وإنما أراد أن يخدعه كما خدع ابن عباد ، فدفع في صدره ، وحق به سيء مكره ، فلما طرق إليه ، ولحق بحصنه ، لم يلبث أن حصل في سجنه ، غدرأ به ، فجعل ابن عمّار يلاطفه ويسترحم ، وينشده الله في حقن الدّم ، ووعدته في نفسه ، وضمن له أموالاً ، فلم يصغ إليه ، وشدّ صفاده اعتقلاً ، وطير إلى المعتمد بالخبر ، وكان القبض على ابن عمّار بشقورة يوم الجمعة لستّ بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٧ هـ .

ثم نقل إلى قرطبة في يوم الجمعة السادس من رجب من نفس العام مقيداً على دابة هجين ، حاسراً في ثوب خلق بين عدليّتين ، وتشفع فيه بعض وجوه الأندلس ، عطفاً عليه ، ورحمة به ، غير أن المعتمد لم يقبل فيه شفاعاً لسوء فعالة ، وقبيح مقال ، ولعظيم خيائته ، ومجاوزته الحدّ .

ثم تم نقله من قرطبة إلى إشبيلية في انتظار محاكمته ، وإنزال العقوبة به ، وفي الفترة التي أقام فيها بمحبسه في إشبيلية كان شعر ابن عمّار ينهال منسلاً إلى كل من يتوسم فيه خيراً ويعرف أن له بالمعتمد علاقة طيبة لكي يشفع فيه خصوصاً أبناء المعتمد ابن عباد ، بل خاطب المعتمد نفسه مراراً وتكراراً مسترحماً مستعطفاً دون فائدة ، حتى أضحى ذليلاً قلقاً لا يعرف للراحة طعماً ، ومن أشعار ابن عمّار وهو رهين سجنه ، تثقله قيوده ننقل عن الذخيرة لابن بسّام ما يلي ..

كتب ابن عمّار إلى صاحب المريّة يلتمس منه أن يفتديه بالمال ، ويعدّه أن يكون خادماً مطيعاً له ، حتى يوفيه حقه ، ويسدّد له دينه ، ويحس القارئ في استجداء ابن عمّار

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤١٥ .

لصاحب المربة مدى الذل الذي يتجرع كؤوسه، وتنطق به كلماته، ومن ذلك قوله (١):
أَصْبَحْتُ فِي السُّوقِ يَنَادِي عَلَى رَأْسِي بِأَنْسُوعٍ مِنَ الْمَالِ
فَهَلْ فَتَنِي يَتَانِعُنِي مَاجِدٌ أَخَذَهُ مُدَّةَ إِمْهَالِي
تَا لَلُّهُ لَاجَارَ عَلَى نَقْدِهِ مِنْ ضَمْنِي بِالثَّمَنِ الْغَالِي
أَرْبِحُ بِهَا مَوْلَايَ مِنْ صَفْفَةٍ فِي سِلْعَةٍ مِنْ بَرَكِ الْعَالِي
وكتب إلى المعتمد من محبسه بسجن شقورة يستعطفه ويلج في طلب عفوه عنه ،
ونسيان إساءته، ويسلم أمره إليه يتصرف فيه كيف شاء ، ومما كتب به قوله (٢) :

نَفْسِي تَحْنُ إِلَى فِدَاءِ تَفِيدُكَ نَفْسِي مِنْ شِرَاءِ
فَسَابِقُ بِنَفْسِكَ وَعَدَهُمْ مُسْتَرْخَصٌ أَلَيَّ بِالْغَلَاءِ
ثُمَّ امْضُ فِيَّ عَلَى اخْتِصِيَا رَكٍ مِنْ فَنَاءٍ أَوْ بَقِيَاءِ
وَاللَّهِ مَا أَذْرِي إِذَا قَالُوا : غَدَا يَوْمُ اللِّقَاءِ
مَا أَقْتَلَ الْحَيَّالِينَ لِي إِنْ كَانَ خَوْفِي أَوْ حَيَاتِي

ثم أردف ذلك بقصيدة طويلة، استودعها كل قدراته الفنية وأفرغ في كلماتها
وعباراتها كل عاطفته نحو المعتمد، ودافع عن نفسه في استماتة محاولاً تفنيد الوشائات،
ورد كيد الساعين عليه في نحورهم هؤلاء الذين يحاولون توسيع الهوة بينه وبين المعتمد،
وتعميق الفجوة، وفي هذه القصيدة يقول : (٣)

سَجَايَاكَ إِنْ عَافَيْتَ أُنْدَى وَأَسْمَحُ وَعُذْرُكَ إِنْ عَاقَبْتَ أَجَلِي وَأَوْضَحُ
وَإِنْ كَانَ بَيْنَ الْخَطِئَتَيْنِ مَزِيَّةٌ فَسَأَنْتَ إِلَيَّ الْأُدْنَى مِنَ اللَّهِ أَجْنَحُ
حَنَانِيكَ فِي أَخْذِي بِرَأْيِكَ لَا تَطْعُ عِدَايَ وَلَوْ أَثْنَوْا عَلَيَّ وَأَفْصَحُوا

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٢٠ .

(٣) المعجب للمراكشي ص ٨٥ ، الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤٢٠ ، الأدب العربي في الأندلس د. عبد العزيز عتيق ص ٢٣٤ .

وَمَاذَا عَسَى الْأَعْدَاءُ أَنْ يَتَزَيَّدُوا
نَعَمْ لِي ذَنْبٌ، غَيْرَ أَنْ لِحَلِمِكُمْ
وَأَنْ رَجَائِي أَنْ عِنْدَكَ غَيْرِمَا
وَلَمْ لَا، وَقَدْ أَسْلَفْتُ وَدَأَّ وَخِدْمَةٌ
أَقْلَنِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ رِضَا
وَعَفَّ عَنِّي أَثَارَ جُرْمِ جَنِيتهِ
وَلَا تَلْتَفْتُ رَأْيَ الْوَشَاةِ وَقَوْلِهِمْ
وَمَاذَاكَ إِلَّا مَا عَلِمْتَ فَإِنِّي
كَأَنِّي بِهِمْ لَا دَرَّ لِلَّهِ دَرَهُمْ
وَقَالُوا : سَيَجْزِيهِ فَلَانٌ بِفَعْلِهِ
أَلَا إِنَّ بَطْشَنَا لِلْمُؤَيَّدِ يَتَقَى
وَبَيْنَ ضُلُوعِي مِنْ هَوَاهُ تَمِيمَةٌ
عَلَيْهِ سَلَامٌ كَيْفَ دَارَ بِهِ الْهَوَى
وَيَهْنِيهِ إِنَّ مِتُّ السُّلُوفَ فَإِنِّي

سَوَى أَنْ ذَنْبِي وَاضِحٌ مُتَّصِحٌ
صَفَاءَ يَزُلُ الذَّنْبُ عَنْهَا فَيُسْفَحُ
يَخُوضُ عُدُوِّي الْيَوْمَ فِيهِهِ وَيَمْرَحُ
يَكُرَّانَ فِي لَيْلِ الْخَطَايَا فَيُصْبِحُ ؟
لَهُ نَحْوُ رُوحِ الْبَلَّةِ بَابُ مَفْتَحٍ
بِنَفْحَةِ رَحْمِي مِنْكَ تَمَحُّو وَتَصْفَحُ
فَكُلُّ إِنْءَاءٍ بِالَّذِي فِيهِهِ يَنْضَحُ
إِذَا ثَبَتُ لَا أَنْفَكَ آسُو وَأُجْرَحُ
أَشَارُوا بِجَاهِي بِالشَّمَاتِ وَصَرَحُوا
فَقُلْتُ : وَقَدْ يَعْفُو فَلَانٌ وَيَصْفَحُ
وَلَكِنْ حَلِمْنَا لِلْمُؤَيَّدِ أَرْجَحُ
سَتَنْفَعُ لَوْ أَنَّ الْحَمَامَ مَجَالِحُ (١)
إِلَيَّ فَيَدْنُو أَوْ عَلَيَّ فَيَنْزَحُ
أَمُوتُ وَلَيَّ شَوْقٌ إِلَيْهِ مَبْرَحُ

وعندما أرسل المعتمد ابنه يزيد الملقب بالراضي إلى شقورة لكي يتسلم ابن عمار من
سجن بني سهيل في قلعة شقورة في شهر رجب سنة ٤٧٧ هـ استبشر ابن عمار خيراً ،
وتفأكل بلقب الراضي وظن أن المعتمد قد رضي عنه وصفح فكتب إلى يزيد بقوله (٢) :

قَالُوا : أَتَى الرَّاضِي فَقُلْتُ : لَعَلَّهَا
فَالْ جَرَى فَعَسَى الْمُؤَيَّدُ وَاهِبٌ

خُلِعَتْ عَلَيْهِ مِنْ سَمَاتِ أَبِيهِ
لِي مِنْ رِضَاهُ وَمِنْ أَمَانِ أَخِيهِ

(١) مُجَلِّع : مُتَحَسِّرٌ مُبْتَعِدٌ عَنْهُ . (٢) الذخيرة : ق ٢ م ١ ص ٤٢٣ .

قَالُوا : نَعَمْ ، فَوَضَعْتُ خَدِّي فِي الثَّرَى
يَا أَيُّهَا الرَّاظِي وَإِنْ لَمْ يَلْقَنِي
هَبْكَ احْتَجَبْتَ لَوَجْهِ عَنَّا بَيْنَ
خَفِّ عَلَى يَدِكَ الْكَرِيمَةِ أَسْطُرًا
شُكْرًا لَهُ وَتَيَمُّنًا بَيْنِي وَهُوَ
مِنْ صَفْحَةِ الرَّاظِي بِمَا أَذْرِيهِ
بَذَلُ الشَّفَاعَةِ أَيُّ عَذْرٍ فَيْسِهِ ؟
فِي مَنْ أَسْرَتْ فَتْنَتِي تَفْدِيهِ

فأبيات ابن عمار تكشف عن تفاؤله بمجيئ الراضي، ويتنهد الفرصة فيسأله أن يكون شفيعاً له عند أبيه، وأن تكون شفاعته سبباً في التخفيف عنه ، وكما أشرت سابقاً لم يترك ابن عمار باباً يوصله إلى قلب المعتمد إلا وطرقه، ولا طريقاً إلا حاول ولوجه ، لعله يظفر بما يرجيه من العفو والصفح، ولذلك اتجه يخاطب المأمون ابن المعتمد ، والذي أشار إليه في الأبيات السابقة :

فَأَلَّ جَرَى فَمَعَسَى الْمُؤِيدُ وَاهِبٌ
لِي مِنْ رِضَاهُ وَمِنْ أَمَانِ أَخِيهِ
فهو يشير في قوله : (ومن أمان أخيه) إلى المأمون حيث هو مشتق من أمن يأمن
أمناً فهو مأمون، وآمن .

وقد كتب إلى المأمون قصيدة هي من حر نظامه ، وجزل كلامه وفيها يخاطبه قائلاً : (١)

هَلَّا سَأَلْتَ شَفَاعَةَ الْمَأْمُونِ
مَاضِرٌ لَوْ نَبَهْتَهُ بِتَحِيَّةٍ
وَهَزَزْتَ مِنْهُ ، فَقَدْ يُقَلِّبُ سَيْفَهُ
مَالِي أَنَّهُ نَظَرًا لِمَنْ يَغْفُ عَنْهُ
وَأَهْزُ مِنْ عَطْفِ ثَنَاهُ عَطْفَهُ
بِيَدِي مِنَ الْمَأْمُونِ أَوْثَقُ عِصْمَةٍ
أَوْقَلْتُ : مَافِي نَفْسِهِ يَكْفِينِي
يَسْرِي النَّسِيمُ بِهَا عَلَى دَارِينِ
يَوْمَ الْجَلَادِ الْحَيْنِ بَعْدَ الْحَيْنِ
حَظِيهِ مِنْ دُنْيَا وَلَا مِنْ دِينِ
حَتَّى خَشِيتُ عَلَيْهِ فَرْطَ السُّلَيْنِ
لَوْ أَنَّ أَمْرِي فِي يَدِ الْمَأْمُونِ

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٢٢٤ ، والحلة السراء ج ٢ ص ١٥٠ .

أَمْرِي إِلَىٰ مَوْلَىٰ إِلَيْهِ أَمْرُهُ
 حَيْثُ اسْتَوَىٰ الْخَصَمَانِ حَقًّا وَتَقَىٰ
 مَلِكٌ طَمَعِي سِرَّ الْمَهَابَةِ شَخْصُهُ
 جَبَلٌ سَمَاءٌ بِذَوَا بَتْنِيهِ إِلَى الْعُلَا
 مُتَوَقَّدُ الْجَنَابَاتِ كَلَّلَ دُوحَهُ
 ذَلَّتْ لِأَيْدِي الْمُجْتَهِنِينَ قُطُوفُهُ
 وَنَأَىٰ لِأَبْصَارِ الْعَصَاةِ فَإِنَّمَا
 بَحْرٌ إِذَا رَكِبَ الْعَفَاةُ سَكُونُهُ
 وَإِذَا طَمَعِي لِلذَّنْبِ لَمْ يُسْمَعْ بِهِ
 كَمْ أَسْكَبَ الْعَذْبُ الْفُرَاتِ عَلَيَّ فَمَيَّ
 وَالْيَوْمَ قَدْ أَصْبَحْتُ فِي غَمْرَاتِهِ
 بَعْدَتْ سَوَاحِلُهُ عَلَيَّ وَأَدْرَكَتْ
 لَا شَكَّ فِيَّ أَنِّي غَرِيقُ عُبَابِهِ
 يَا فَتَحْ جَرْدَهُمَا عِنَايَةَ فَارِسٍ
 مُتَقَدِّمٍ مِنْ جَدِّهِ بِكَتْيَابِهِ
 وَأَقْرَنَ شَفَاعَتَكَ الْكَرِيمَةَ عِنْدَهُ
 فِي شَكَّةٍ مِنْ هَيْبَةٍ وَسَكِينَةٍ
 فَابْذُوكَ مَنْ تَغْشَى الْمُلُوكَ بِسَاطِهِ
 مَا يَعْرِضُ الْجَبَّارُ مِنْهُ لِحَاجَةٍ
 يَا فَتَحْ إِنْ نَازَلْتَهُ مُسْتَنْزَلًا
 وَلِيَخْلُصَنَّ إِلَيْكَ مِنْ أَعْلَاقِهِ

وَكَفَاكَ مِنْ فَوْقِ كَفَاكَ وَدُونِ
 عِزِّ الْغَنِيِّ بِسِذْلَةِ الْمِسْكِينِ
 لَوْلَا أَسْرَةُ وَجْهِهِ الْمَيِّمُونَ
 وَرَسَا بِهِضْبَتُهُ عَلَى التَّمَكِينِ
 بِجَنَابَتِي وَفَجَّرَ صَفْحَهُ بَعِیُونَ
 وَدَنَا إِلَيْهِمْ مِنْ ظِلَالِ غُصُونِ
 يَتَوَهَّمُونَ نَعِيمَهُ بِظُنُونِ
 وَهَبَ الْغَنَىٰ فِي عِزَّةٍ وَسُكُونِ
 إِلَّا الدُّعَاءُ يَعَانُ بِالتَّوَأْمِينِ
 وَرَمَىٰ يَدِي بِاللُّؤْلُؤِ الْمِكْنُونِ
 إِنْ لَمْ تُغْثِنِي رَحْمَةً تَنْجِينِي
 أُمُوجُهُ فَتَلَاعَبَتْ بِسَفِينِي
 إِنْ لَمْ يَمُدَّ الْفَتْحُ لِي يَمِينِ
 بَطْلِي عَلَى حَرْبِ الْوَلَسِيِّ أَمِينِ
 مُسْتَظْهِرٍ مِنْ لَفْظِهِ بِمَكِينِ
 بِتَوَاضُعٍ عَنِ عِزَّةٍ لَاهُونِ
 وَبِضْجَةٍ مِنْ رَحْمَةٍ وَحْنِينِ
 شَوْسَاءٌ فَمَا يَرْمُونَهُ بَعِیُونَ
 إِلَّا بِرَفْعِ يَدٍ وَوَضْعِ جَبِينِ
 فَاهْنَأُ بِفَتْحٍ مِنْ رِضَاهِ مُبِينِ
 عَلِقَ يَشْدُ عَلَيْكَ كَفَّ ضَنْدِينِ

وكما ترى فقد أكثر ابن عمار من مدح الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون، كما عرج على مدح أبيه المعتمد بن عباد، وحرص على أن يحفز الفتح كي يشفع له عند أبيه، ويبدل ما استطاع من جهد في سبيل إقناع والده بالعفو ونسيان ما كان، ولكن يبدو أنه لم يجد أذناً صاغية، أو استجابة من الفتح أو من إخوانه، وكيف يستجيب له أحدهم وقد هجاهم هجاءً مفرعاً، كما عرض بوالدتهم وبشرفها ؟ !

ولكنه حب الحياة، والرغبة العارمة في النجاة، والأمل في الحصول على العفو، كل ذلك يدفعه إلى طرق باب ثالث أبناء المعتمد وهو الرشيد لعله يجد لديه ما لم يجده لدى أخويه الراضي والمأمون، فيلجأ إليه مخاطباً إياه، وما دحاً له ولأبيه، وضارعاً متذللاً لعله يظفر بمراده فيقول : (١).

قاصداً بالسلام قصر الرشيد ^(٢)	قل لبرق الغمام مطو البريد
وتناثر في صحنه كالفريد	فتقلب في جوه كفؤ ادي
ضجتي في سلاسل قيودي	وانجذب في صلاصل الرعد تحكي
بقاء التمكين والتمهيد	فجزاك الله من ملك حر
وودود علي السنوي ممدود	من مطيع عهد الوفاء مطاع
د وباروضة الندى والجود	كنت اشدو عليك يا دوحة المحج
ولساني رطب على التغريد	إذ جناحي ندي بظلك طلسق
لقوة مخوت الجناح صمود ^(٣)	وأنا اليوم تحت ظل عقاب
ظ مروع، وخاطر مزؤود ^(٤)	أتقيها بناظر خافق اللح
من ثناً طيب وذكر حميد	غير أنني سأصطفني لك جهدي
وذلول من المعاني شرد	في قليل من القوافي كثير

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤٢٦ ، والحلة السراء ج ٢ ص ١٥٢ .

(٢) مطو البريد : صاحب البريد .

(٣) عقاب لقوة مخوت : أنشى العقاب السريعة الانقضاء فيسمع لجناحيها دوي .

(٤) مزؤود : مفزوع .

كَلِمَاتٌ كَأَنَّهَا الدُّرُّ نَظْمًا
 أَنْتَ بَدْرُ النُّجُومِ تَحْتَ سَنَا الشَّمْسِ
 أَنْتَ رِيحَانَةُ الْعُلَا لِبَنِي عِبَا
 أَنْتَ فِيهِمْ إِنْ يُعْتَمُوا لَيْلَةَ قَدَرٍ
 فَهَنْئًا أَبَا الْحُسَيْنِ خِلَالَ
 وَهَنِيَاءً مَنْ الْمُؤَيَّدَ حَظًّا
 لَكَ فِي نَفْسِهِ الْعَزِيزَةِ حُبٌّ
 وَعَلَى لَحْظِهِ السَّيِّئِ زِيَّةُ طُلُوعِ
 وَإِذَا مَا شَدَا بِذِكْرِكَ شَادَ
 فَعَلَامَ السُّرَى بِصَبْحِ رِضَاهُ
 وَإِلَى أَيْنَ فِي الشَّفِيعِ إِذَا مَا
 بِفَتْحِي نَارِحِ الْمَكَانِ مُطْلُ
 مُشْفِقٍ يَسْتَجِيبُ لِي مِنْ قَرِيبِ
 لَوْ أَطْلُتُ عَلَيَّ رَحْمَةً عَيْنِي

طَوَّقْتُ مِنْكَ أَيَّ طَوَّقٍ وَجَيِّدٍ
 مَسَّ أَتَتْكُمْ عَلَى سَمَاءِ السُّعُودِ
 دَ السَّادَةِ الْكَرَامِ الصَّيِّدِ
 وَإِذْ يُصْبِحُونَ يَوْمَ الْعِيْدِ
 وَصِفَاتٍ جَلَّتْ عَنِ التَّحْدِيدِ
 لَا مَزِيدَ عَلَيْكَ لِلْمُسْتَزِيدِ
 شَابَ فِيهِ حَلَاوَةُ التَّوْحِيدِ
 كَطُلُوعِ الْبَشِيرِ بِالتَّائِيدِ
 قَالَ أَحْسَنْتَ هَزَةَ الْمُسْتَعِيدِ
 مَعَ سَنَا وَجْهِكَ الْأَغْرَ السَّعِيدِ
 لَمْ أَلِدْ مِنْكَ عِنْدَهُ بِالرُّشِيدِ
 غَائِبِ الشَّخْصِ ذِي اعْتِنَاءٍ عَتِيدِ
 وَأَنَا أَسْتَغِيثُهُ مِنْ بَعِيدِ
 هُ أَنْجَلْتُ شِدَّتِي وَذَابَ حَدِيدِي

كل هذا الإلحاح في طلب الشفاعة، والسعي وراء الظفر بالعمو لم يأت بشمرة،
 ووثب عليه المعتد فقتله بنفسه كما بينا وقد وجدوا في قرابه بعد مقتله أبياتاً تدلُّ على
 اليأس إلا من رحمة الله تعالى، وفيها يقول : (١)

يَقُولُ قَوْمٌ إِنَّ الْمُؤَيَّدَ قَدْ
 يَأْقُومُ مَاذَا الشَّرَاءُ ثَانِيَةً
 أَوْحَشَنِي وَالسَّمَّاحُ عَادَتُهُ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ إِنْ يَكُنْ حَرَجًا

أَحَالَ فِي فِدَتِي عَلَى نَقْدِهِ
 تَرَى لِمَعْنِي يَرِيبُ مَنْ عِنْدَهُ ؟ !
 سَمَّاحُهُ بِالْغَلَاءِ فِي عِبْدِهِ
 فَلَيْسَ فَنِي مِثْلُهُ سِوَى حَمْدِهِ

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ق ٢ م ١ ص ٤٣٢ .

وَحِيلَ إِنْ وَصَلْتُ حَضْرَتَهُ جَعَلْتَهُ رَغْبَةً إِلَى جَنْدِهِ
لَوْ سَامَحُوا فِي الْفِرِّ نَدَارُ مَقَهُ مِنْ طَرَفِهِ لَمْ أَخَفْهُ مِنْ غُـمِّهِ
يَأْرَبُ بَشَرٌ بِرَحْمَةٍ وَحَيَاةٍ يُؤْنَسُ مِنْ بَرَقِهِ وَمِنْ رَعِيْدِهِ

يقول ابن بسام في معرض التعليق على ما يمكن أن يسمى بشعر الاستجداء والاستعطاف والاسترحام في شعر ابن عمار : (١)

« صدرت هذه الأشعار يومئذ عن ابن عمار، وهو في قيود الحديد، وقالها على البديهة والارتجال، في تلك الحال، من شدة الاعتقال، وبالِ يناجيه اللَّبَّال، قد تيقن أنه لا يفلت، ولا ينظر إلا إلى عدوِّ يشمت، والموت يلاحظه من حيث لا يتلفت، إذ كان المعتمد قد أحضره على تلك الحال غير مامن مرة بين يديه، ويعدد ذنوبه عليه، ولو قال كلُّ قصيد، ورواه حولاً كاملاً في أمن ودعة، وفرط شهوة أو شدة حمية وعصبية، لما زاد على ما أجاد، فكانت هذه القصائد القلائد، مع ما تشمل عليه من بدائع الروائع رقي لم تنفع، ووسائل لم تنجع، وإذا سبق القدر، فلاورد ولا صدر » .

والحقيقة إن قصائد ابن عمار إلى المعتمد كادت تثمر ثمارها، فقد رق له قلبه، ووعد بالعتفو، إلا أن ابن عمار لم يكتف السر، وخاطب الرشيد من يومه، فعرف بعض خصومه ذلك، وأخبروا المعتمد بخبره، فثار عليه، ونقض وعده وقضى عليه، وقيل : إن اعتماد الرميكية، زوج المعتمد وأم أولاده هي التي أوغرت صدر المعتمد عليه، وذكرته بإساءته إليها وإليه، وبما أفحش فيهما وفي أولادهما من القول البذيء، وظلت تشعل نار الحقد في صدره حتى دخل عليه في محبسه فضر به بالطبرزين، وهو سلاح يشبه الفأس، ففلق رأسه، وترك الطبرزين في رأسه كما هو، فسرت الرميكية وقالت ضاحكة : قد بقي ابن عمار هدهداً (٢) وقد دفن ابن عمار، وأهيل عليه التراب على هيئته التي قتل عليها، وقيوده في ساقيه، وذلك تحت باب النخيل بالقصر المبارك بإشبيلية سنة ٤٧٧ هـ .

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤٢٨ . (٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٢١٢ .

والرأي المنصف في شعر ابن عمّار ، أنه كان شاعراً قوياً العارضة ، ينسال عليه الشعر أنسيالاً ، فيقول على البديهة مرتجلاً في جميع الأغراض ، وفي كل المناسبات وشعر المحنة والنكبة عنده من أقوى ما جادت به قريحته ، لأنه كان يصدر عن قلب معني ، وصدر منقبض مستوحش ، ونفس فزعة خائفة تتلّمس مخارج النجاة ، وتبحث عن طوق تتعلق به ، فكان إذا خاطب من يتشفع به استنفذ في التعبير كل طاقته ، حتى لم يترك مزيداً على ما قال لغيره .

وأرى أن شعر النكبة الذي جادت به قريحة ابن عمّار قد ناقض شعره وهو حرّ طليق ، يعتقد أنه أصبح بمنجاة من المعتمد وأن يده لن تناله فقصيدته التي أقزع فيها الهجاء للمعتمد وأهله ، يناقضها ما خاطب به المعتمد ، وهو في سجن بني سهيل في قلعة شقورة ، كما يناقض ما خاطب به أولاده الذين هجأهم ، مما يدفعني إلى الشك في نسبة قصيدة الهجاء هذه إلى ابن عمّار وأعتقد أنها وضعت في شعره ، ودست عليه من خصومه بغرض إيغار صدر المعتمد عليه ، وقد أثمرت ثمارها المرة فعلاً .. ، وربما تكون من شعره ، ولكن النكبة تغيّر المواقف ، ولكل وجهة .

ويروي ابن بسّام^(١) أنه لما وردت على المعتمد قصيدة ابن عمّار التي مطلعها :
« سجاياك إن عافيت أُنْدى وأُسمَح »

وختمها قوله :

« وبين ضلوعي من هـواك تميمة ستنفَع لو أن الحمَامَ مجلَح »

جعل الحاضرون من أعداء ابن عمّار ينتقدونه ، ويعيبون شعره ويقولون : أي معنى أراد ؟ ما قال شيئاً ولا كاد ، فقال لهم المعتمد : مهما سلبه الله من المروءة والوفاء ، فلم يسلبه الشعر ، إنما قلب بيت أبي ذؤيب الهزلي :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها الفيت كلّ تميمة لا تنفع

فسكت القوم إلا أبا سالم العراقي جعل يتمضغ بقوله :

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤٢٢ .

« يكرّان في ليل الخطايا فيصبح » ، وقال : مامعناه ؟

وهلاً بدّل هذا اللفظ بسواه ، فتعبّث به المعتمد متحدياً أن يُغيّر العبارة قائلاً: أبا سالم ، أنزله ، وإن استطعت بفضلك فأبدله !! فتعثر أبو سالم وتعلثم .

فلقد كان المعتمد منصفاً لابن عمّار ، وعارفاً بجودة شعره بصرف النظر عن خيائه التي أحدثت الخلاف بينهما .

والرأي في شعر ابن عمار أنه سلس العبارة إجمالاً ، سائغ اللفظ ، وريشته قادرة على التصرف بالمعاني ، ورسم الصورة المبتكرة ، وتأليف اللوحة بالخطوط الزاهية ، والألوان التي تجمع بين الانطباعات الشعورية الوجدانية ، وبين معالم الموضوع ، فهو واحد من شعراء الطبع ، ويعد في الطبقة الأولى بين شعراء الأندلس ، وأقرب شعراء البلاطات إلى التفرد بطابع خاص مميّز^(١) .

أما عن أثر النكبة في شعر ابن عمّار فهو واضح جداً حيث حولته من العزة إلى الذل ، وظهر ذلك في شعره فتحول من شعر الفخر أو الوصف وكان بارعاً كل البراعة فيهما إلى المدح المستجدي به ، كما أكثر في شعره من التذلل والتضرع ، وطلب الشفاعة ، راجياً أن يجيره أحد ، كما أنه نعت ممدوحيه في هذه الظروف بكثير من النعوت والصفات التي خلعها عليهم استجلاباً لقلوبهم واستدرااراً لعطفهم ، كما تفنن في ألوان الاعتذار التي ساقها إلى المعتمد ففاق غيره في مجال الاعتذار ، وهذا كله من أثر النكبة التي حلت به فغيّرت نمط الشعر عنده ، وهو الذي قال في اللهو والمجون ، وووصف الخمر ومجالس الأنس ، ومظاهر الطبيعة ماقال ، إلا أنه لما قضى عليه بالحبس ، ورأى المصير الأسود الذي ينتظره تحول إلى الاعتذار والمدح والاستجداء والاستشفاع ، كما ظهرت ملامح الأسى والحزن ومظاهر الحسرة في كل أشعاره التي قالها أثناء نكبته ، وهكذا تحوّل النكبات الشعراء من حالٍ إلى حال .. ورحم الله ابن عمّار وعفي عنه .

(١) الشعر والبيئة في الأندلس د/ ميشال عاصي ص ٨٣ عن دائرة معارف البستاني .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(٧) « أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَدَّادِ الْأَنْدَلُسِيُّ الْوَادِي أَسْيَى »

التعريف بالشاعر: (١)

هو محمد بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم القيسي الأندلسي الوادي أسي، وكان يلقب مازناً ، ويعرف بابن الحدّاد لأن والده كان يعمل حدّاداً .

وقد سكن مدينة المرية، ونبغ في علوم كثيرة منها الفلسفة، والرياضيات، والفلك ، كما نبغ في قرض الشعر حتى صار شاعراً فحلاً مجيداً ، كما كان حافظاً للحديث الشريف، شديد الاهتمام بالتأريخ والنقد ، وأجاد علم العروض وألف فيه كتاباً مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية وآراء الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ هـ .

وقد عمل أبو عبد الله بن الحدّاد هذا في خدمة بني صمّاح، وتفرغ لملاح المعتمد بن صمّاح (٤٤٤ - ٤٨٠ هـ) وقضى في ذلك معظم حياته حتى توفي سنة ٤٨٠ هـ .

نكبة ابن الحدّاد :

حدثت جفوة بين الشاعر أبي عبد الله بن الحدّاد وبين المعتمد بن صمّاح في غضون سنة ٤٦١ هـ وسبب هذه الجفوة أن الشاعر أطلق بيتين يقول فيهما : (٢)

سَامِحٌ أَخَاكَ إِذَا أَتَاكَ بِرَزَلَةٍ فَنَحْ لُوصُ شَيْءٍ قَلَمًا يَتِمَكَّنُ
فَنَحْ لُوصُ شَيْءٍ آفَةٌ مَوْجُودَةٌ إِنَّ السَّرَّاجَ عَلَى سَنَاهُ يَدْخُنُ

(١) انظر في ترجمة الشاعر وسيرته ما يلي : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٦٩١ ، نفح الطيب ج ٣ ص ٥٠٢ ، وفيات الأعيان ج ٥ ص تاريخ الأدب العربي : د. عمرو فروخ ج ٤ ص ٦٥٥ ، شعر أبي عبد الله ابن الحداد منال منيزل ص ٩ وما بعدها .

(٢) نفح الطيب : ج ٣ ص ٥٠٤

وأنشد أحد الأدباء هذين البيتين متمثلاً، فأعجباً المعتصم، وسأل عن قائلهما،
فأخبر، فتبسّم وقال : أتعرف إلي من أشار بهذا المعنى ؟ قال : ما أعرف إلا أنه مليح،
فقال المعتصم : كنت في الصبا وهو معي ألقب بسراج الدولة، فقاتله الله ما أشعره،
فسلوه، فلماً باحثوه في ذلك أقرّ بحسن حدس المعتصم، واكتنفته سعايات، وكان ممن
يغلب لسانه عقله، ولذلك هجا المعتصم هجاءً صريحاً متهماً إياه بالبخل الشديد ،
والتقتير في العطاء، كما وصفه بأنه كثير المنّ، قليل الجود، لا يقدر من يخدمه، بل
يستوي عنده من أفنى عمره في خدمته و البعيد الغريب، وقد ساق ذلك في أبيات يقول
فيها^(١) :

يا طالبَ المعروفِ دونك فاتركنْ	دارَ المريّةِ واترك ابنَ صمّادح
رجلٌ إذا أعطاك حُـبّةً خردلٌ	ألقاك في قيّد الأسير الطائح
لو قد مضى لك عمر نوح عنده	لا فرق بينك والبعيد النازح

عند ذلك اغتاض منه المعتصم، وأبعده، وفرّ عن بلده منكوباً بتوعد المعتصم ولجأ إلى
بني هود في سرقسطة، حيث عاش في كنف المقتدر أحمد بن هود، ثم ابنه الحاجب
المؤمن وما زاد في محنته أن أخاه قبض عليه في المريّة وحبس، قيل انتقاماً من أبي عبد
الله، وقيل لأنه قتل رجلاً، ونالت الشاعر بسببه مطالبة أخفي نفسه من أجلها حيناً^(٢)
حتى استطاع الهروب إلى مرسية، ثم إلى سرقسطة وذلك سنة ٤٦١ هـ وظل هناك حتى
سنة ٤٦٤ هـ حين عفا عنه المعتصم فعاد مرة أخرى إلى بلاطه .

أثر النكبة في شعر أبي عبد الله بن الحداد :

عندما خرج الشاعر من المريّة ، واتجه إلى مرسية في طريقه إلى سرقسطة وبلغه أن
أخاه قد حبس عزّ عليه ذلك، وألمّ به حزن شديد وندم على خروجه وتركه أخاه يواجه
الحنّة وحده فقال من قصيدة يعتذر عن خروجه من المريّة بعد اعتقال أخيه ، وكتب بها

(١) المرجع السابق ص ٥٠٥ .

(٢) الذخير لابن بسام ق ١ م ٢ ص ٦٩٢ .

من مرسية: (١)

١- السَّـدُّهُرُ لَا يَنْفَكُ مِنْ حَدَّثَانِهِ
٢- فَدَعِ الزَّمَانَ فَإِنَّهُ لَمْ يَعْتَمِدْ
٣- كَالْمَزْنِ لَمْ يَخْصُصْ بِنَافِعِ صَوْبِهِ
٤- لَكِنْ لِبَارِيهِ بَوَاطِنُ حِكْمَةٍ
ومنها قوله متحسراً على فراق أخيه :

٥- وَعَلِمْتُ أَنَّ السَّعْيَ لَيْسَ بِمَنْجَحٍ
٦- وَالْجِدُّ دُونَ الْجَدِّ لَيْسَ بِنَافِعٍ
- ومنها يمدح ابن صمادح مسترضياً :

٧- وَسَمَا إِلَى الْمَلِكِ الرُّضَى ابْنَ صَمَادِحٍ
٨- وَهَوَى بِنَجْمِي مِنْ سَمَاءِ سَنَائِهِ

وَالْمَرْءُ مُنْقَادٌ لِحُكْمِ زَمَانِهِ
بِجَلَالِهِ أَحَدًا وَلَا بِهَوَانِهِ
أَفْقًا وَلَمْ يَخْتَرْ أَذَى طُوفَانِهِ
فَفِي ظَاهِرِ الْأَضْدَادِ مِنْ أَكْوَانِهِ

مَا لَا يَكُونُ السَّعْدُ مِنْ أَعْرَافِهِ
وَالسُّرُوحُ لَا يَمْضِي بِغَيْرِ سَنَانِهِ

فَأَدَالَنِي بِالسُّخْطِ مِنْ رِضْوَانِهِ
وَقَضَى بِحَظِّي مِنْ ذَرَى سُلْطَانِهِ

وبلغت هذه الأبيات المعتصم بن صمادح فقال : شعره أعقل منه، صدق فإنه لا يتهيأ له صلاح عيش إلا بأخيه، وهو منه بمنزلة السنان من الرمح، ثم أمر بإطلاقه، ولحاقه به .

ويبدو أنه مما نكب به الشاعر أيضاً فقدته الثقة في الناس، وشدة إحساسه بعدم إخلاص أحد منهم له، ويظهر هذا الإحساس الذي قد يدفع صاحبه إلى الانطواء على نفسه، واعتزال الناس جميعاً في قوله معاتباً أبا بكر بن عمار الأندلسي وزير المعتصم بن عباد : (٢)

١- وَزَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ
٢- فَلَمْ تَرِنِي الْأَيَّامُ خِلَا تَسْرِنِي
٣- وَلَا صَبَرْتُ أَرْجُوهُ لِدَفْعِ مُلِمَّةٍ
وَطُولُ اخْتِبَارِي صَاحِباً بَعْدَ صَاحِبٍ
بَوَادِيهِ إِلَّا سَاءَئَنِي فِي الْعَوَاقِبِ
مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى التَّوَائِبِ

(١) السابق ص ٧٢٤ ، ونفع الطيب ج ٣ ص ٥٠٤ ، شعر أبي عبد الله بن الحداد ص ٩٣ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥ ص ٤٠ ، شعر أبي عبد الله بن الحداد ص ٤٠ .

وهذا الإحساس نابع من رقة مشاعر ابن الحداد، ربما لأنه نشأ أصلاً في بيئة فقيرة، وانتسب لأب رقيق الحال كان يعيش عيشة الكفاف متكسباً من مهنته، وكأني به يشعر أمام ذلك أن الأوفياء من الناس قد ذهبوا، ولذلك اعتزل المجتمع وعاش بين كتبه، وأوراقه وأقلامه ومحابه يثها أشجانه، ويبدو لنا هذا الاتجاه في قوله: ^(١)

- ١- ذَهَبَ النَّاسُ فَأَنْفَرَادِي أَنِيْسِي وَكَتَابِي مُحَدَّثِي وَجَلِيْسِي
 - ٢- صَاحِبٌ قَدْ أَمِنْتُ مِنْهُ مَلَأَ لَا وَاخْتِلَالًا وَكُلُّ خُلُقٍ بَشِيْسِي
 - ٣- لَيْسَ فِي نَوْعِهِ بَحِيٌّ وَلَكِنْ يَلْتَقِي الْحَيُّ فِيْهِ بِالْمَرْمُوسِ
- وهذه الأبيات من قصيدته المعروفة بحديقة الحقيقة

ومما أنشده عندما فر من المرية مبدياً ندمه على ما أنفقه من سنوات عمره في قول الشعر مادحاً الأمراء والوزراء، والتعبير عن رغبته في هجر الشعر لعدم جدواه والاتجاه إلى الفلسفة ما رواه ابن بسام عنه حيث قال شاعرنا: ^(٢)

- ١- لَزِمْتُ قَنَاعَتِي وَقَعَدْتُ عَنْهُمْ فَلَسْتُ أَرَى الْوَزِيرَ وَلَا الْأَمِيْرَ
- ٢- وَكُنْتُ سَمِيْرَ أَشْعَارِي سِفَاهَا فَعَدْتُ لِفَلَسَفِيَّاتِي سَمِيْرَا

وأثر النكبة في شعر أبي عبد الله بن الحداد واضح فمعانيه أضحت تدور حول الأسى والحزن، وكذلك الندم على ما بدر منه ونظرتة إلى الناس نظرة شك وريب، وكراهيته للمجتمع والناس، مما يدخل في يقيننا أن ابن الحداد بعد حياة طويلة في خدمة بني صمادح ظهر له من ينافسه، وفضل عليه، مما آله وأحزنه وأضناه، وملاً جوانحه بمشاعر الإحباط فاندفع هاجياً من كان بالأمس يمدحه، ورأى أن يعتزل الشعر ويعود إلى الفلسفة .

(١) نفح الطيب للمقري ج ٤ ص ١١٥ .

(٢) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤٣٢ .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخدي
أسكنه الله الفردوس

(٨) « أَبُو عَيْسَى لُبُونُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ »

التعريف بالشاعر :

هو ذو الوزارتين أبو عيسى لبون بن عبد العزيز بن لبون^(١) ، وهو أحد وزراء ابن ذي النون المعتزين في دولته ، المعدن لبأسه وصولته ، ولكنه ثار ، وخاض الهول المثار ، وخلص من الهلك ، واقتنص نافر الملك ، وكان شهم الفؤاد ، معدوداً في الأجواد ، مفضلاً في الوزراء والقواد ، وحل بمريبطر (مريبطر مدينة في شمال بلنسية ، وتعد من أعمالها) واقتطعها وحل بها سلك الرياسة ومطلعها ، والدنيا تسعده ، وتنجزه ما تعده .. ولكن إلى حين ، وكان أبو عيسى لبون أديباً ناثراً شاعراً مجيداً ، وزر للمأمون بن^(٢) ذي النون (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) ثم لأخيه القادر بن ذي النون (٤٦٧ - ٤٧٨ هـ) .

ثم انتقل بعد استيلاء الإسبان على طليطلة إلى بلنسية وتولى فيها القضاء ، ولما أصبح قائداً على قلعة عبد السلام قرب وادي الحجاره وولي أمرها عاش هناك فترة ثم وثب على مريبطر شمال بلنسية على الساحل ، ونجح في الاستبداد بحكمها دون أن يخلع لقب الوزارة ، وأضحى صاحب ملك وصولجان ، ومجلس وديوان ، يؤمه القصاد ، وتحوطه الرياض ، كما أخبر بذلك المقرئ نقلاً عن صاحب القلائد في ترجمة ذي الوزارتين أبي^(٣) عيسى لبون قال : أخبرني الوزير أبو عامر بن الطويل أنه كان بقصر مريبطر بالجلس المشرق منها ، والبطحاء قد لبست زخرفها ، ودبج الغمام مطرفها ، وفيها حدائق ترنو عن مقل نرجسها ، وتبت طيب تنفسها والجلنار قد لبس أردية الدماء ، وراع أفئدة الندماء فقال :

(١) الذخير لابن بسام ق ٣ م ١ ص ١٠٤ .

(٢) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٨٣٦ عن أعمال الأعلام ص ٢٠٩ .

(٣) نفع الطيب للمقرئ ج ١ ص ٦٧٢ عن القلائد للفتح بن خاقان ص ٩٩ والمغرب ج ٢ .

قُمْ يَا نَدِيمُ أَدْرِ عَلَيَّ الْقَرْقَفَا أَوْ مَا تَرَى زَهْرَ الرِّيَاضِ مُفَوَّفَا
فَتَخَالَ مَحْبُوباً مُدَلًّا وَرَدَهَا وَتَظُنُّ نَرْجِسَهَا مُجَبَّأً مَدْنَفَا
وَالجَلَنَارُ دِمَاءُ قَتَلَى مَعْرُكٍ وَالْيَاسَمِينَ حَبَابُ مَاءٍ قَدْ طَفَا

وليت أبا عيسى رضي بأن يعيش عيشة الملوك والحكام والرؤساء إلا أنه قد طمع وزاد لديه الرجاء، فكان في طمعه النكبة والبلاء .

نكبة أبي عيسى لبون بن عبد العزيز :

إن النكبة التي مني بها هذا الرجل وحلت به عجيبة الشأن ، ونقول :

لقد نكب بمحض إرادته، وبكامل رضاه ورغبته، فقد لعب^(١) عليه ابن رزين :
حسام الدين أبو مروان عبد الملك بن هزيل بن عبد الملك بن خلف بن رزين قيل : إن أصله من عرب هواة، وقيل من براءة شمال الأندلس .

وقصة هذه اللعبة التي لعبها على أبي عيسى ما يلي : أن ابن رزين كان معروفاً بالدهاء والمكر، وكان ملكه في السهلة من كورة شنتيرية ما بين^(٢) سرقسطة ووادي الحجارة (أو شنتيمرية الشرق) فأراد أن يضم مريبطر إلى مملكته دون مشقة ولا عناء، وبلا حرب أو إراقة دماء، فاحتال على أبي عيسى لبون بن عبد العزيز حاكمها والمستبد بها، وخدعه بأن عرض عليه أن يتنازل له عن مريبطر مقابل أن يعوّضه عنها بلداً آخر غيرها لا تقل عنها مكانة، ولما استجاب له لبون نكث بوعده، ونقض عهده، وغدر به لعلمه أن لبون لا يملك عدداً ولا عُدَّة ولا عتاداً ليحاربه عليها، وهذا ما حدث . . فقد استكان أبو عيسى واستسلم، ورضي بالأمر الواقع، وعاش بقية حياته في شنتيمرية الشرق على العطاء الذي كان يجود به عليه ابن رزين الذي دام ملكه ستين سنة أو يزيد، وكانت وفاته سنة ٤٩٦ هـ بعد وفاة أبي عيسى لبون بسنوات قليلة .

(١) الذخيرة لابن بسام ق ٣ م ١ ص ١٠٥ .

(٢) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٧٣٧ .

أثر النكبة في شعر لبون بن عبد العزيز :

تحوّلت حياة أبي عيسى لبون بن عبد العزيز بتأثير النكبة من الرخاء إلى الشدة، ومن العز إلى الدل، ومن رجل مقصود لخير، إلى رجل قاصد يستجدي قليل العطاء، ومن حاكم إلى محكوم .. وهذا ما جعله يشعر بالندم على تفريطه فيما تحت يده، وراح يبكي الأيام الخالية، ويجتر حزنه عليها ، ومما قاله بعد أن نكب بضيا ع ملكه، وأخذ سلطانه من سلكه، يحن إلى ليلاليه السالفة ، وظلال أنسه الوارفة الأبيات التالية : (١)

- | | |
|---|--|
| ١- يَالَيْتَ شِعْرِي، وَهَلْ فِي لَيْتٍ مِنْ أَرْبَ | هـِيَهَاتَ لَا تَقْتَضِي مِنْ لَيْتٍ أَرَابُ |
| ٢- أَيْنَ الشَّمْسُ الَّتِي كَانَتْ تَطَالَعُنَا | وَالجُـوُّ مِنْ فَوْقِهِ لِلَّيْلِ جَلَابُ ؟ |
| ٣- وَأَيْنَ تِلْكَ اللَّيَالِي إِذْ تُلْمُ بِنَا | فِيهَا وَقَدْ نَامَ حَرَّاسٌ وَحِجَابُ ؟ |
| ٤- تَبْدِي إِلَيْنَا لَجِينَ حَشَوَهُ ذَهَبُ | أَنَامِلُ الْعَاجِ وَالْأَطْرَافِ عُنَابُ |

ومن الواضح أن الاستفهام يحمل معنى التحسر على الأيام التي مضت، وأصبح من المستحيل أن تعود، أو أن يعود نعيمها، ولقاء الأحباب فيها ولحظات الوصل والسعادة ...

ويبدو أن ابن رزين بعد أن قبض على نواصي الأمور بناحية مريبطر ، واستتب له أمرها تماماً، بدأ يعامل أبا عيسى لبون معاملة لا تليق، فقتّر عليه في العطاء، وحدّد إقامته وتحركاته مما جعل لبون يشعر بالذل ، وتتحرك في نفسه بقية من أنفة وعزة فيصرخ قائلاً : (١)

- | | |
|---|---|
| ١- ذُرُونِي أَجْبُ شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا | لَأُشْفِي نَفْسِي أَوْ أَمُوتَ بِدَائِي |
| ٢- فَلَسْتُ كَكَلْبِ السَّوءِ يَرْضِيهِ مَرِيضٌ | وَعَظْمٌ ، وَلَكِنِّي عِقَابُ سَمَاءِ |
| ٣- تَحُومُ لَكَيْمًا يَدْرِكُ الْخَصْبَ حَوْمَهَا | أَمَامَ أُمَمٍ أَوْ وَرَاءَ وَرَاءِ |
| ٤- وَكُنْتُ إِذَا مَا بَلَدٌ لِي تَنَكَّرْتُ | شَدَدْتُ إِلَيَّ أُخْرَى مَطِيَّ إِبَائِي |

(١) الذخيرة : لابن بسام ق ٣ م ص ١٠٧ .

(٢) الذخيرة لابن بسام ق ٣ م ١ ص ١٠٨ ، تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٧٣٧ .

٥- وَسَرْتُ وَلَا أُلَوِي عَلَى مُتَعَذِّرٍ
٦- كَشَمْسٍ تَبَدَّتْ لِلْعُيُونِ بِمَشْرِقٍ
وَصَمَّمْتُ لَا أُصْغِي إِلَى السُّنُحَاءِ
صَبَاحاً، وَفِي غَرْبٍ أَصِيلَ مَسَاءٍ

أرأيت كيف أن الشاعر يتمنى أن يتركوه يطوف في أرض الله الواسعة ويشرق ويغرب ، لعله يشفي نفسه مما بها من حزن وألم أو أن يموت بدائه دون شفاء في أرض يشعر فيها بعزته ؟

ويحسُّ القارئ ثورة أبي عيسى على الوضع المهين الذي تردى إليه بعد تنازله عن ملكه في قوله :

فلمست ككلب السوء يرضيه مريض وعظّم ، ولكنني عقاب سماء

والمعنى واضح ، فهو يرفض أن يكون كلب سوء يرضى بأقل القليل ويرضى بالهوان والذلة .. ولكنه يرى نفسه كالعقاب يحلق دائماً في جو السماء، فمكانه العلياء .. كما أنه لم يعيش حياة الذل هذه أبداً، بل كانت مطيته معدة دائماً للرحيل إلى حيث يجد عزته دون إصغاء لعذر معتذر، ولا لنصح ناصح، ولا يبالي بلوم اللائمين له فهو كالشمس ترى في المشرق صباحاً، وفي الغرب وقت الأصيل، وقبيل حلول المساء .

وله من قصيدة طويلة يشكف فيها الخديعة التي وقع فيها وأدت إلى تخليه عن ملكه ، وبنات الأسى ملء الجوانح ، وعوض بالبارح من السّانح : (١)

١- خَلِيلِي عَوْجًا بِي عَلَى مَسْقَطِ الْحَمَى
٢- فَأَسْأَلُ عَنْ لَيْلٍ تَوَلَّى بِأَنْسِنَا
٣- لَيْالِي إِذْ كَانَ الزَّمَانُ مُسَالِمًا
٤- وَإِذْ كُنْتُ أَسْقَى الرَّاحَ مِنْ كَفٍّ أَغِيدُ
٥- أَعَانِقُ مِنْهُ الْغُصْنَ يَهْتَزُّ نَاعِمًا
لَعَلَّ رُسُومَ الدَّارِ لَمْ تَتَغَيَّرَا (٢)
وَأَنْدَبُ أَيَّامًا خَلَّتْ ثُمَّ أَعْصَرَا
وَإِذْ كَانَ غُصْنُ الْعَيْشِ مَيَّاسَ أَخْضَرَا
يُنَاوِلُنِيهَا رَائِحَةً أَوْ مُبَكَّرَا
وَأَلْتَمُّ مِنْهُ الْبَدْرَ يَطْلُعُ مُقَمَّرَا

(١) الذخيرة : لابن بسام ق ٣ م ١ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) لم تتغيرا : هكذا وردت الجملة في الأصل وذلك للضرورة الشعرية .

٦- وَقَدْ ضَرَبْتُ أَيْدِي الْأَمَانِ قَبَائِلَهَا
 ٧- فَمَا شِئْتَ مِنْ لَهْوٍ ، وَمَا شِئْتَ مِنْ دَدٍ^(١)
 ٨- وَمَا شِئْتَ مِنْ عَوْدٍ يَغْنِيكَ مَفْصَحاً
 ٩- وَلَكِنَّهَا الدُّنْيَا تُخَادِعُ أَهْلَهَا
 ١٠- لَقَدْ أَوْرَدْتَنِي بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ
 ١١- وَكَمْ كَاذَبْتَ نَفْسِي لَهَا مِنْ مُلْمَةٍ
 ١٢- خَلِيلِي مَا بَالِي عَلَى صَدَقِ نَيْتِي
 ١٣- وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي لِأَيِّ جَرِيْمَةٍ
 ١٤- وَلَمْ أَكُ فِي كَسْبِ الْمَكَارِمِ عَاجِزاً
 ١٥- لَئِنْ سَاءَ تَمْزِيقُ الزَّمَانِ لِدَوْلَتِي
 ١٦- وَأَيْقُظَ مِنْ نَوْمِ الْغُرَارَةِ نَائِماً

التوضيح والتعليق :

يتخيل الشاعر صديقين يخاطبهما راجياً أن يعرجا به على حماه السابق لعله يرى رسوم دياره لم تتغير، ولكي يسأل هذه الديار عن ليالي الأُنس التي مضت وولت ، وخُلفَ عنها الحزن والأسى ، ولكي يقف نادباً حظه وأيامه الجميلة التي ضيعها بحمقه وسوء تفكيره .. هذه الليالي التي عمرت بالأمن والأمان ، فلم يك فيها منغصٌ فالزمان كان مسالماً له ، وكانت الحياة هنيئة رخيّة : عيش رغيد ، وأنسٌ دائم ، ومرح مستمر ، ومجالس طرب ولهو ولعب كما يشاء الإنسان .

ولكن دوام الحال من المحال ، فالدنيا إذا حلتْ أو حلتْ ، وإن أملتْ أمرتْ ، وإن

(١) دَد : لعب . (٢) مؤشراً : محدّد الأطراف .
 (٣) هذا صدر بيت لامرئ القيس وعجزه : ... وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوْمِ فَعْرَعَا .
 (٤) نية : فتور وإعراض ، والتعذر : العسر بعد اليسر .

أَضْحَكَتْ أَبْكَتْ ، وإنْ أَصَفْتُ كَدَّرْتُ ثم يتحسر الشاعر على ما حلَّ به ، ويأسى لما أصابه ، فقد أوقعته الدنيا في المهالك التي لا مخرج له منها ، وكثيراً ما عانى مما أصابه وقاسى ويات ليله ساهراً مُسَهِّداً من الألم والحزن ، لا يعرف للراحة طعماً ولا للنوم سبيلاً .. ويتعجب الشاعر مما يحدث له .. ويشير إلى أنه كان صادق النية فيما أقدم عليه ، فلم يقابل زمانه صدق نيته بالفتور والإعراض والتضييق عليه ؟ ويقسم على أنه لم يرتكب جرماً يستحق أن يعاقب عليه من زمنه ، ولا اقترب إثماً يدعو هذا الزمن للتغير ، وينفي عن نفسه تهمة العجز عن كسب المعالي ، أو البخل بخيره على غيره من الناس .

وفي النهاية وبعد هذه الزفرات يقول : لقد تعلمت من إساءة زماني إليّ ، وتمزيقه لدولتي وملكي درساً ، وخرجت منه بفائدة : أما الدرس فقد عرفت حقيقة أناس كنت أغترُّ بمظهرهم ، وأجهل مخبرهم ، وأما الفائدة فهي أن ما حدث قد ردّني عن جهلٍ وحماقات ، وبصّرني بأمور كدت أن أفعلها فأضربُ بها غيري ، كما أيقظني ما حدث من غفلتي ، وأكسبني علماً وخبرة بالحياة وبالزمان وبالناس ، وكنت في أسس الحاجة إلى ذلك ..

وفي رأيي وعقيدتي أن هذا جهد العاجز .. فالشاعر تبدو في حديثه نبرة العجز عن استرداد ملكه ، وليس أمامه إلا الاستسلام والتعلل بعلل واهية ، والتشبث بآمالٍ بعيدة المنال ، ويبدو هذا الاستسلام ، ويظهر ضعفه في قوله : (١)

- | | |
|--|---|
| ١- نَفَضْتُ كَفِّي مِنَ الدُّنْيَا وَقُلْتُ لَهَا | إِلَيْكَ عَنِّي فَمَا فِي الْحَقِّ أَغْتَبِنُ |
| ٢- مِنْ كِسْرِ بَيْتِي لِي رَوْضٌ وَمِنْ كِتْبِي | جَلِيسٌ صِدْقٍ عَلَى الْأَسْرَارِ مُؤْتَمِنٌ |
| ٣- أَدْرِي بِهِ مَا جَرَى فِي الدَّهْرِ مِنْ خَبِيرٍ | فَعِنْدَهُ الْحَقُّ مَسْطُورٌ وَمُخْتَرَنٌ |

(١) نفع الطيب جـ ٣ ص ٥٩٧ .

٤- وَمَا مُصَابِي سِوَى مَوْتِي وَيَدْفِنِي قَوْمٌ وَمَا لِهِمْ عِلْمٌ بِمَنْ دَفَنُوا

فانظر كيف قنع الشاعر بالكفاف، ورأى أن يلزم كسر بيته وكتبه يتخذ منها جليساً وأنيساً، ولا يعنيه سوى أن يحيا هكذا مجهول الهوية بين الناس، حتي إذا ما مات دفنه قوم لم يعلموا عنه شيئاً وهكذا حولته النكبة إلى ناسك زاهد، وأظهرت ذلك في أدبه شعراً ونشراً، ومعاني الأبيات الأربعة سبق بها الشاعر حيث ساقها أبو عبد الله بن الحداد في قوله :

ذهب الناس فانفـرادي أنيسي وكتابي مُحـلِّدني وجليسي
صاحبٌ قد أمنتُ منه كلالاً واخـتـلـالاً وكلُّ خـلـقٍ بئـيس^(١)

وهذا يكشف عن أن نتاج الحن والنكبات يكاد يكون مشتركاً بين كثير من الشعراء الذين مروا بنكبات متشابهة وهذا ليس بغيب فإن قضية التأثير والتأثر معترف بها في عرف النقاد وتقع كثيراً بين اللاحق والسابق من الشعراء.

(١) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ١١٥ قصيدة (حديقة الحقيقة) .

رَفْعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(٩) « أَبُو بَكْرُ بْنُ اللَّبَّانَةِ »

التعريف بالشاعر : (١)

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني، ولد في مدينة دانية، ونسب إلى أمه التي كانت تباع اللبن، وكان شاعراً متصرفاً، وقادراً غير متكلف مرصوص المباني، ممتزج الألفاظ والمعاني، لو كانت له مادة تفي ببيانها، لكان أشعر أهل زمانه، وكانت أمه امرأة برزة فارسة دكان، وصاحبة مكيال وميزان، مشغلة ببيع لبنها، مقبلة على ما يعينها من حال زمانها، حتى غلب اسم اللبانة عليها، ونسب أولادها إليها، وقد اشتهر أبو بكر الداني بابن اللبانة .

وكان ابن اللبانة شاعراً يتكسب بشعره، يطوف على ملوك الطوائف ما دحاً ومُسترفداً وقد بدأ بمدح صاحب المروة أبي يحيى محمد بن معن المعروف بالمعتصم بن صمادح (٤٤٤ - ٤٨٤ هـ) وكان ذلك سنة ٤٦٠ هـ ، ولكن العلاقة فسدت بين ابن اللبانة والمعتصم مما اضطر شاعرنا إلى الفرار بنفسه متوجهاً إلى بطليوس ليمدح أميرها أبا حفص عمر بن محمد بن الأفطس الملقب بالمتوكل على الله، ولكن الوشاة لم يتركوا ابن اللبانة، بل أفسدوا بسعيهم ما بينه وبين ابن الأفطس هذا، مما دفع الشاعر إلى مغادرة بطليوس متجهاً إلى قرطبة ليهنيئ المعتصم بن عبّاد بفتحها سنة ٤٦٩ هـ، ثم انتقل مع المعتصم إلى إشبيلية حاضرة ملكه آنذاك، وظل ملازماً للمعتصم، مادحاً إياه، ومشيداً بكل أمجاده وانتصاراته، مستقراً في كنفه هانئ البال، وظل على هذا الحال حتى

(١) راجع في ترجمته وأخباره ما يلي : الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٦٦٦ ، والمطرب لابن دحية ص ١٧٨ - ١٧٩ ، نفح الطيب للمقرئ ج ٤ ، وتاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٥ ص ٨٠ - ٨٧ .

استولى المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين على إشبيلية، وحمل المعتمد بن عباد، وأهل بيته إلى أغمات، حيث سجن هناك وظل ابن اللبانة وفيماً لمليكه كل الوفاء، شهدت بذلك أشعاره التي خاطبه بها في سجنه، أو التي رثاه بها بعد موته سنة ٤٨٨ هـ.

وبعد وفاة المعتمد اتجه ابن اللبانة إلى ميورقة ليعيش في كنف أميرها ناصر الدولة مبشر بن سليمان، وكما هي عادة الوشاة لا حقوا هذا الشاعر، فأفسدوا العلاقة بينه وبين ناصر الدولة، ففر ابن اللبانة إلى بجاية محتماً ببني حمود هناك، وفي أواخر أيام حياته عاد مرة أخرى إلى ميورقة حيث توفي بها سنة ٥٠٧ هـ.

محنة الشاعر ونكبته :

لقد امتحن ابن اللبانة في نفسه مرتين، ولم يعرف طعم الراحة والطمأنينة إلا في كنف المعتمد بن عباد، ولكنَّ الحظَّ عانده كما عرفنا من استقراء تاريخ حياته، فكانت محنته بفقد ابن عباد أشدَّ وأقسى على نفسه مما وقع له قبل ذلك، وما ابتلي به ونكب بسببه، وقد عرضنا في كتابنا « الفتن والنكبات العامة » بكائيات ابن اللبانة على المعتمد بن عباد، وهنا سنرى ما كان نتاجاً للابتلاءات التي حلت به هو شخصياً، والنكبات التي أقلقت، ونغصت عليه حياته، وكما أشرت في حديثي عند التعريف بالشاعر أنه قد امتحن مرتين، ونكب نكبتين، وكان له في كل نكبة نتاجه الأدبي الذي ظهر أثر نكبته فيه .

أولاً : نكبته الأولى :

عندما فسدت العلاقة بين ابن اللبانة والمعتصم بن صمادح صاحب المريّة واضطر إلى التوجه صوب بطليوس ليمدح ملكها المتوكل على الله عمر بن الأفطس ويعيش في كنفه وينال رفده، رزق بواشٍ حقود، أضمر له الشر، ودبر الكيد لكي يقتلع جذوره من بطليوس اقتلاعاً، هذا الواشي الحاقد هو أبو الحسن بن الأستاذ الذي ولاه المتوكل خطة الأشراف، فقطع جـراية جملة من الأضياف، ومنهم شاعرنا ابن اللبانة، ولذلك غضب غضباً دفعه إلى هجاء ابن الأستاذ ببيتين تندّر عليه فيهما، وعيّر بلقب المتنبي الذي كان مشهوراً به، وكان يغضب لسماعه، ويثور على من يناديه

به ، وهذان البيتان هُما : (١)

مَعشَرُ الْأَضْيَافِ ضُجُّوا قَدْ أَتَى السُّدُورَ بِآيِهِ
قَدْ أَتَى أَكْثَرُكُمْ بَنِي شُرْعُهُ قَطْعُ الْجَرَايَةِ
فشار ابن الأستاذ ، وسعى جاهداً إلى إيغار صدر المتوكل على الله على ابن اللبانة ،
فغضب عليه غضباً شديداً مما ملأ قلب الشاعر بالخوف على نفسه ، ولذلك فرَّ هارباً ،
وهام على وجهه لينجو مما تخوف منه ، وأرسل إلى المتوكل قصيدة يعاتبه من خلالها
وفيها يقول (٢) .

١- نَبَا بِيَدِي حُسَامٌ مِنْ رِضَاكَ فَوَافَتَنِي النَّوَائِبُ عِنْدَ ذَاكَ
٢- تَجَاوَزَ فِيكَ وَدِّي كُلُّ حَدٍّ وَلَكِنْ التَّجَاوُزَ مَا أَطْبَاكَ
٣- وَلَوْ جَاوَزْتَنِي قَدَرُ اعْتِقَادِي لَنَلْتُ بِكَ الْمَجْدَ وَالسَّمَاءَ
٤- وَلَوْ يُوْتِي مِنْهُ نُورٌ طَرْفِي لَمَا أَوْمَأَ إِلَيَّ أَحَدٌ سِوَاكَ
ويعرض ابن اللبانة بخضمه ابن الأستاذ في نفس القصيدة بقوله :

٥- ثَنَّاكَ عَنِ الْقَبُولِ عَلَيَّ وَاشْ وَلَكِنْ عَنْ هِبَاتِكَ مَا ثَنَّاكَ
٦- وَأَعْجَبُ كَيْفَ حَالَتْ مِنْكَ حَالِي وَلَمْ تَذَرِ السَّامَةَ مِنْ حَلَكَ
٧- فَكَيْفَ أَثْمَتَ فِي تَعْدِيبِ قَلْبِي وَمَا عَقَدْتَ عَلَيَّ حُوبَ حَبَاكَ
٨- أَطَعْتَ عَلَيَّ مَنْ لَأَمْتُ حَتَّى أَرَى مَشْوَاهُ مَثْوَى مِنْ عَصَاكَ
٩- مَحَاحَسَنَاتِ قَصْدِي وَإِنْ قَطَاعِي بَيِّنَةٌ أَقَامَ لَهَا دِرَاكَ
١٠- فَجَنَّبَ مَاءَ بَشْرِكَ عَنْ جَنَابِي وَنَفَرَ طَيْرَ حَظِّي مِنْ رُبَاكَ
١١- وَوَقَّرَ رَأْسِي قَبْلَ ارْتِحَالِي كَأَنَّ بِهِ اسْتِدْلًا عَلَيَّ غَنَاكَ

(١) الذخيرة : لابن بسام ، ت د . احسان عباس ق ٣ م ٢ ص ٣٦٦ .

(٢) المصدر السابق .

- ١٢- وَهَبَهُ أَطَاقَ عَنْ مَثْوَاكَ صَرَفِي
 ١٣- وَإِنْ تَكُ مَرَّةً عَثَرْتُ جِيَادِي
 ١٤- وَلَوْ كُلُّ السَّهَامِ أَصَابَ قَصْدِي
 أَيْقَدُ صَرَفَ قَلْبِي عَنْ هَوَاكُمَا ؟ !
 فَمَا قَدَّمْتُ مِنْ سَبْقٍ كَفَاكَ
 لَمَّا كُنَّا إِلَى الْأَقْدَارِ ذَاكُمَا

ثم يدافع ابن اللبانة عن أدبه وشعره حيث وصفه خصومه بأنه أدب وضيع فيقول :

- ١٥- وَقَالُوا لَيْسَ لِي أَدَبٌ سَنِيٌّ
 ١٦- وَهَلْ قَذَفَ الْجَوَاهِرُ غَيْرَ بَحْرِي ؟
 ١٧- سَتَعْلَمُ بَعْدَ سَيَّرِي أَيُّ عَلِقِ
 ١٨- وَأَيُّ شَذَأَ أُيِّتَ لَهُ أَنْتَشَاقًا
 لَقَدْ زَعَمُوا مَعَ الْغَيْبِ اشْتِرَاكُمَا
 فَحَتَّى كَمْ يُطِيقُونَ ابْتِشَاكُمَا
 لِأَجْيَادِ الْعُلَا نَبَذْتُ يَدَاكُمَا
 وَكَانَ نَسِيمُهُ بِالْحَمْدِ صَاكًا
 شَرَحُ الْمَفْرَدَات :

(١) ما اطباكا : ما دعاك .

(٦) حالت : انقلبت وتغيرت، حلى : جمع حلية . (١٥) سَنِيٌّ : رفيع .

(٧) حُوبٌ : إثم، حُباكا : عطاياك . (١٦) ابْتِشَاكٌ : كذب .

(٩) دَرَاكًا : متابعة مستمرة . (١٧) عَلِقَ : نفيس .

(١٨) صَاكٌ : أي التصق، بمعنى كان نسيمه محمود الشذا كما كان الحمد لصيقاً به لا يتركه .

التحليل والتعليق :

أرسل ابن اللبانة قصيدته هذه إلى ملك بطليوس المتوكل على الله عمر بن الأفطس، وهو يفر هارباً طلباً للنجاة بنفسه من بطشه، وعينه تتجه صوب قرطبة التي آل أمرها إلى المعتمد بن عباد آنذاك، واتخذ من تهنئة المعتمد بهذا الفتح المبارك فرصة

(١) الذخيرة : لابن بسام ق ٣ م ص ١٠٧ .

للتقرب إليه ليلوذ به، ويعيش في كنفه، ورعايته .

ومن المعروف عن ابن اللبانة أنه كان كاتباً شاعراً ، بل كان من الشعراء المعدودين المقدمين في عصر ملوك الطوائف، ويُعد أيضاً من أصحاب الموشحات والقصائد الطوال، وشعره وفير كثير، وما موقفه من المعتمد بن عباد، وما جادت به قريحته تجاهه بعيد، وكيف لا، وقد ألف في الدولة العبادية كتاباً سماه (سقيط الدر، ولقيط الزهر) .

والقصيدة التي بين يدينا الآن بدأها الشاعر بعتاب رقيق مهذب وجهه إلى أميره الغاضب عليه، يكشف فيه عن إحساسه بازوراره عنه، وتغيره عليه، وهذا ما جعله يشعر وكأن مصائب الدنيا قد وافته مجتمعة .

ثم يردف ابن اللبانة معاتباً بقوله : (لقد تجاوز ودادي لك، والتفاني في رضاك كل حد، بينما أنت لا تلقى بالاً، ولا تهتم بمودتي، وليتك جازيتني وكافأتني على قدر حبي لك، وإخلاصي ووفائي لشخصك، فلو حدث هذا لنلت بك المعالي، وبلغت أسمى المنازل، وثق أني على عهد الوفاء والإخلاص دائماً لن أحيده عنه، حتى ولو بلغني غيرك ما أتمناه، فلن يشغلني عنك، فطرفي معلق بك لا يميل عنك .

ثم ينتقل الشاعر بعد هذه المقدمة التي بث فيها المتوكل عتابه إلى كشف خصمه الذي وشى به، وتسبب في تحول المتوكل عنه، وحرمانه من رضاه السامي، وهو ابن الأستاذ، ووصفه بأنه لا يوصف بأقل من واشٍ حاقك كاذب، ويتعجب الشاعر من تحول المتوكل عنه، وتغيره عليه رغم أنه مازال متحلياً بكامل حليته وزينته الأخلاقية التي عرف بها، فأخلاقه الطيبة لم تتغير وطباعه الرضية لم تتبدل فما الذي جعل لوشاية الواشي كل هذا التأثير ؟

ثم يسوق الشاعر سؤالاً تعجبياً منطوقه : كيف أثمت في تعذيب قلبي ؟ ! بينما عطايك لا تعطى علي إثم أو غضب يا سيدي لقد أطعت في واشٍ أسأل الله ألا يميّتي حتى أراه معذباً مشرداً معاقباً عقاب من عصاك، فلقد استطاع - قاتله الله - أن يمحو

(١) الذخيرة لابن بسام ق ٣ م ١ ص ١٠٨ ، تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٤ ص ٧٣٧ .

حسناتي عندك، وفضيلة قصدي إليك لمدحك، وذلك بما سعى به، وأو غر صدرك بسببه عليّ، وبما ظلّ يوسوس به متابعاً حتى تأكد من أن سعيه قد أثمر ثماره المرة، وحرمني بذلك ماء بشرّك، وزعزع مكانتي عندك، وشتّت ما استقرّ من أمري، وقطع عني رائي الذي لا يؤثر في ثروتك، ولا يقيم الدليل على غناك، ولكن يا سيدي هب أنه استطاع إبعادني عنك بجسدي، فهل يستطيع إخراج حبك من قلبي ؟ ! وهب أنني أسأت فلكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة، وسيئتي تمحوها حسناتي عندك، ولو أصاب الإنسان قصده في كل رمية، ما تركنا للأقدار شيئاً .

وينتقل الشاعر في النهاية إلى الدفاع عن أدبه شعراً ونثراً، وذلك بتفنيد تهمة حاولوا إلصاقها به، هي أن أدبه ليس أدباً رفيعاً، بل هو أدب غث لا سمن فيه ولا ريّ، فانبرى ابن اللبانة يصف أصحاب هذه الفرية بأنهم يدعون معرفة الغيب، وهذا باطل، ثم ساق أسلوب استفهام غرضه البلاغي التقرير والفخر (وهل قذف الجواهر غير بحري ؟) ثم أرفده بآخر غرضه التعجب والإنكار (فحتى متى يطيقون ابتشاكاً ؟) أي إلى متى يستطيعون الكذب والافتراء ؟ ثم يختم قصيدته بأسلوب التفات من الغيبة إلى الخطاب حيث يتوجه مخاطباً المتوكل محدثاً بقوله : ستعلم بعد رحيلي عن مملكتك أيّ نفيس من جياذ الرفعة والمعالى نبذت يداك، وأيّ شذاً طيب. قد رفضت أن تستنشق ، بينما نسيمه كان حميداً زكياً التصق به الحمد، ولازمه الطيب ..

تعليق على القصيدة :

معاني القصيدة معانٍ سلسة لا تعقيد فيها ، ولا تكلف كما ترى، وألفاظه وتراكيبه سهلة تتميز بالرشاقة، وجودة السبك، فالشاعر أميل إلى الطبع منه إلى الصنعة، وقصيدته تدلّ على أن شعره مطبوع، وتنم عن قريحة معطاءة، وعاطفة صادقة، وتعبّر عن فن من فنون الشعر، وغرض من أغراضه القديمة، ألا وهو فنُّ الشكوى والعتاب، ويبدو تأثره بالنابغة الذبياني في عتابه واعتذاره للنعمان بن المنذر إلا أن الأول كان أقوى وأمتن .

(١) الذخيرة : لابن بسام ق ٣ م ١ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

وقد استخدم الشاعر بعض الصور البيانية في توضيح معانيه كقوله :

« نبا بيدي حُسامٌ من رضاكا » واستخدم أسلوب الكناية عن بلوغ الرفعة والمعالي بقوله : « لنلت بك المجرة والسماكا » ، وكنى عن الإعراض عنه بقوله : « فجنب ماء بشرك عن جنابي » كما كنى عن الوقوع في الخطأ غير المقصود بقوله : « وإن تك مرة عثرت جيادي » مترجماً الحكمة القائلة : « لكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة »

كما استخدم الاستعارة التصريحية في الرد على خصومه في قوله :

« وهل قذف الجواهر غير بحري » وهي صورة بيانية ركبت من أكثر من استعارة تصريحية ، فقد صور أدبه شعراً ونثراً بالجواهر وصور نفسه بالبحر الزاخر الذي يقذف بالجواهر ، وتأمل اختياره للفعل قذف « ولم يقل « أخرج » أو « طرح » ليدل على كثرة جواهره ، أعني أشعاره الرفيعة المستوى .

وفي النهاية يصور نفسه بالجواد النفيس الذي يخسر من ينبذه ويتخلى عنه ، وبالشدأ الطيب الذي يلازمه الحمد والثناء دائماً ، وكل هذا عن طريق التشبيه الضمني الذي جاء في البيتين الأخيرين .

كما أكثر الشاعر من الأساليب الخبرية ، وهي وسيلة العتاب والدفاع عن النفس ، ولما اقتضى الأمر الاستعانة بالأساليب الإنشائية لم يتوان الشاعر عن استخدامها .

وذلك كأسلوب الاستفهام (فكيف أثمت في تعذيب قلبي .. ؟)

وغرضه التعجب والدهشة من إقدام المتوكل على تعذيب قلب الشاعر بإعراضه عنه ، وتنكره له .

وكذلك قوله : (..... أيقدر صرف قلبي عن هواكا ؟ !)

وغرضه النفي ، بمعنى فإنه لا يقدر على صرف قلبي عن هواك .

وقوله : (وهل قذف الجواهر غير بحري) وغرضه التقرير والفخر، ثم قوله :

(.... فَحَتَّى كَمْ يَطِيقُونَ ابْتِشَاكَ ؟) وغرضه الإنكار والسخرية من خصومه .

وخلاصة القول كما قدمت : إن الشاعر قد صدّق مليكه العتاب واتسم عتابه بالتهذيب .. كما عرّى خصومه تماماً وكشفهم ودافع عن نفسه، وعن أدبه .

وجاءت أفكاره مرتبة، فلقد بدأ معاتباً، ثم كشف عن مكمن الداء وسبب فساد العلاقة، واتبع ذلك باستعطاف لاتذلل فيه، وأردف ذلك بدفاع عن شعره، ثم ختم رسالته بهمسة في أذن المتوكل هي أقرب إلى التحذير منها إلى أي شيء آخر .. كأنه يقول : أرجو ألا تندم على سماعك لو شاية الواشي، فإنك ستخسر جواداً سباقاً إلى المعالي طيب العرف حسن السيرة، مصحوباً بالحمد والثناء .

ثانياً : المحنة الثانية لابن اللبّانة :

بعد أن دالت دولة بني عبّاد، وتوفي المعتمد ، وضاع أمل ابن اللبّانة في عودة نعيم هذه المملكة العبادية اتجه ابن اللبّانة إلى « ميورقة » ليمدح أميرها ناصر الدولة مبشراً بن سليمان، وعاش في كنفه فترة ولكن شاعراً قد عرف عنه العجب الشديد^(١) بنفسه عجباً يُخلُّ به وبأدبه، فقد كان أعجب الناس تهافتاً ما بين قوله وفعله، وأحطهم في هوى نفسه وأهتكمهم لعرضه، وأجرأهم على ربه، فلمّا ساء فيه القيل والقال، وكثرت حوله الوشايات غضب عليه ناصر الدولة، وتغيّر من ناحيته، وكان ابن اللبّانة على علاقة بالوزير أبي القاسم وزير ناصر الدولة، فظن أنه سيسفّع له عند سيده ومولاه، ولكنه رأى تغيّر الأمير عليه يشدد، ورأى أبا القاسم متقاعساً لاحيلة له ولا يد، فأنكر ذلك، وهب من غفلته، واحتال في تفلّته، فلاذ بالفرار، وعادَ ببني حمّود بحكم الاضطراب «

وسنعرض نتاج هذه المحنة لبیان كيف تفجّر النكبات والحن الطاقات، وتحرك القرائح، فتعطي عطاءً شعرياً ممتازاً .

(١) الذخيرة لابن بسام ق ٣ م ٢ ص ٦٨٣ - ٦٩٢ ت د. احسان عباس .

النتاج الشعري لمحنة ابن اللبّانة الثانية :

قبل أن يخرج ابن اللبّانة من ميورقة حاول أن يرمي بسهم أخير لعله يصيب فيذهب ما بينه وبين ناصر الدولة ، فأرسل إليه يسترضيه ويعتذر إليه لعله يظفر بعفوه عنه ... ومن ذلك قوله : ^(١)

كَنَشَرُ الرُّبَا بُكْرَةً وَأَصِيلاً
وَلَكِنْ أَدْرَجُ قَلْبِي قَلِيلاً
كَمَا يَجْرَحُ اللَّحْظُ خَذًا أَسِيلاً
أَلَا يَكُونُ زُجَاجاً عَلِيلاً
لَمَّا فَلَنِي الدَّهْرُ سَيْفًا صَقِيلاً
وَهَلْ خُلِقَ الصَّلُّ إِلَّا ضَّئِيلاً
فَلَمْ أَرْضَ بِالْعِزِّ مِنْهَا بَدِيلاً
فَأَشْبَهَ عِنْدِي طَرْفًا كَحِيلاً
لَمَّا كُنْتُ أَوْثَرُ عَنْكَ الرَّحِيلاً
وَبَاتَ فَـلَا يَأْمَنُ السُّيُولَا
أَبْلُ بِيرِدٍ نَدَاهُ الْغَلِيلاً
فَأَسْكُنُ لِلْأَمْنِ ظِلًّا ظَلِيلاً
فَصَيَّرَنِي اللَّهُ فِيهَا الْخَلِيلاً
لَأَتَمَسَّ الْعُذْرَ مِنْكُمْ جَمِيلاً
وَلَا عِلْمَ لِي فَكَّرْتُ الْمَقِيلَا
مَيُورِقَةً مِصْرًا وَجَدَوَاكَ نِيلاً

سَلَامٌ عَلَى الْمَجْدِ يَنْدَى قَلِيلاً
سَلَامٌ وَكُنْتُ أَقُولُ الْوَدَاعَ
جُرِحْتُ لَدَيْكَ وَكُنْتُ الْبَرِيئَا
أَضْأَفَ عَلَيْهِ أَنْصَدَاعُ الصَّفَا
وَلَوْ لَمْ أَكُنْ مَاضِي الشُّفْرَتَيْنِ
تَسْرَضُ السَّائِي الشَّامَتَيْنِ
أَنْتَ ذَلْتُمْنِي مِنْكَ مَحْبُوبَا
تَكَلَّفْتُ فِيهِمَا سَوَادَ الْخُطُوبِ
وَلَوْ لَا مَقَامِي بَيْنَ الْعِدَا
وَمَنْ بَلَّهَ الْغُيُوثُ فِي بَطْنِ وَادٍ
عَسَى رَأْفَتُهُ فِي سَرَّاحِ كَرِيمِ
لَعَلَّنِي أُرَاحُ مِنَ السَّطَالِينِ
لَقَدْ أَوْقَدُوا لِي نِيرَانَهُمْ
يَمِينًا بِكُمْ ، وَهُوَ أَزْكَى يَمِينِ
سَعَوْا لِي عِنْدَكَ فِي عِثْرَةِ
أَقْرَبِنَفْسِي وَإِنْ أَصْبَحَتْ

(١) الذخيرة لابن بسام ق ٣ م ٢ ص ٦٩٢ - ٦٩٣ .

نظرة تحليلية :

إنَّ الشاعر في هذه القصيدة يحاول أن يثبت لناصر الدولة أنه محبٌ له ، شديد الاعتزاز به ، وأنه اتهم عنده وجرح أحاسيسه من هذا الاتهام وهو البريء ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الشامتين الذين أثلج صدورهم ما يعانیه الشاعر من ازورار صاحب ميورقة عنه ، وما أصابه من تضاؤل المكانة عنده ، ولكن هذا لا يعنيه ، فكل عظيم يبدأ ضئيلاً ثم يرتفع ويرتفع حتى يصير عظيماً ، ويحاول الشاعر أن يثبت لمخاطبه أنه يتحمل من شخصه كل إساءة ، بل وكل مذلة ، وإن نفسه تستعذب كل ألم ، وكل مضرة تأتیه من قبله ، ولو كان الأمر قاصراً على ما يأتیه من قبل أميره ومليكه لهان الخطب ، ولمَّا فكَّر في الرحيل عنه ، بل هناك العداة الذين يتربصون به الدوائر ، ويحيكون المؤامرات للإيقاع به ، والانتقام منه ، وضرب مثلاً لوجوب أخذ الحيطة والحذر بقوله :

وَمَنْ بَلَغَ الْغَيْثُ بَيْطَ بَنِي وَادٍ وَبَاتَ فَلَا يَأْمَنُ الْـسَّيُولَ

بمعنى من رأى أول الشر، فلا يأمن آخره، وعليه أن يتجنبه، فدافعه للرحيل هو النجاة بنفسه من هؤلاء، خصوصاً وأنّ ممدوحه قد رفع عنه حمايته، وهذا يمكنهم منه، فهو يسعى للفرار بنفسه بحثاً عن موطن آمن، بعد أن نجاه الله من نيران فتنهم، كما نجيّ خليله إبراهيم من نيران الكفرة والمشرّكين .

وأخيراً يقسم معتذراً أنه بريء، وأن الوشاة جادّون في السعي والوشاية، ولن يهدأ لهم بال حتى يروا انتقام الأمير يصب على رأس الشاعر صباً، ولذلك كره البقاء حتى لا يحقق لهم ما أرادوا وفضّل الرحيل عن ميوزقة حتى ولو أصبحت هي مصر بجمالها وكثرة خيراتها ، وأصبح كرم الأمير نيلاً يمدُّ بهذا الخير الوفير، ما دام الشر يتربص به ، والأشرار يترقبونه .

ولمَّا يئس ابن اللبَّانة من عفوِ ناصر الدولة عنه، وأيقن أنه مأخوذٌ لا محالة، وأظلمتْ
دنيا ميورقة في وجهه كتب يودّع بعض إخوانه وأصحابه، ومزج الوداع بالحسرة، وإظهار
الشكوى من ضياع حظه بينهم في هذا البلد، وفي ذلك يقول: ^(١)

(١) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٦٨٥ - ٦٨٦ .

أَقُولُ نَحْيَةً وَهِيَ الْوَدَاعُ خِدَاعًا لِي وَمَا بَقِيَ الْخِدَاعُ
أَعْلَلُ بِالْمُنَى قَلْبًا شُعَاعًا وَهَلْ يَتَعَلَّلُ الْقَلْبُ الشُّعَاعُ^(١) ؟
وَأَتْرُكُ جِيْرَةً جَارُوا وَأَشْدُوا « أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا »^(٢)
إِذَا لَمْ يَرَعْ لِسِيْ أَدَبٌ وَيَأْسٌ فَلَا طَالَ الْحُسَامُ وَلَا الْيَرَاعُ
لَقَدْ بَاعَتْنِي الْأَيَّامُ بِخُسَا وَعَهْدِي بِاللَّذْخَائِرِ لَا تَبَاعُ
أَجَفْتَنِي فَلَمْ يَنْبُتْ رِيِيْعٌ وَحَطَّتْنِي فَلَمْ يَثْبُتْ يَفَاعُ^(٣)
وَمَكَّنْتُ الْعِدَا مِنِّْي فَعَاثَتْ بِلَحْمِي ضِعْفَ مَا عَاثَ السُّبَاعُ

وبعد هذا الوداع الباكي ، والشكوى من الضياع ، ومعاندة الحظ له ، وتكالب الأعداء عليه من كل جانب ، خرج ابن اللبانة مغادراً ميورقة ، ولجأ مضطراً إلى بني حمود بمدينة بجاية ، ولكنه ظل يتطلع إلى ميورقة ، ويتمني يوم العودة إليها ، ولذلك جعل يستنزل ناصر الدولة ويستعطفه ، ويداريه ويستلطفه ليمن عليه بإعادته ، وصرفه إلى عادته ، ومما كتب به إليه تلك الأبيات التي يقول فيها :^(٤)

نَسِيْمَكَ حَتَامٌ لَا يَنْبَرِي وَطِيْفَكَ حَتَامٌ لَا يَعْتَرِي
أَعْمِيْ ذُكَ مِنْ عَرْضِي أَنْ تَكُونَ وَأَنْتَ الَّذِي كُنْتُ مِنْ جَوْهَرِيْ
أَتَذَكَّرُ أَيَّامَنَا بِالْحَمِي وَأَيَّامَنَا بِلِسْوَى الْأَعْصَرِيْ
أَلَا رَأْفَةً مِنْ وَفِيِّ كَرِيْم أَلَا عَطْفَةً مِنْ سِنِّي سَرِي^(٥)

(١) القلب الشعاع : أي الخائف المفروق من شدة الهلع .

(٢) هذا صدر بيت للعرجي وعجزه : « ليوم كريهة وسداد نغز » .

(٣) اليفاع : المرتفع من الأرض ، وهذا كناية عن شدة قسوة الأيام .

(٤) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٦٨٥ .

(٥) السني : الرفيع ، السري : صاحب السخاء والكرم والمروءة .

وَحَلَّ فِدَا عَيْنِي الْمَشْتَرِي	رَمَى زُحْلٌ فِيَّ أَظْفَارَهُ
فَارْجِعْ مِنْكَ إِلَيَّ عُنْصُورِي	عَطَّارُ هَلْ لَكَ مِنْ عَوْدَةٍ
لِبَاسٍ نَسِجَ مِنْ الْمُسْفَخِ	سَيِّئَاتُنِي الْمَلِكُ مَهْمًا أَرَادَ
مَنْ جَعَلَ الْفَضْلَ لِلْجَوْهَرِ	وَلَوْ أَنَّ كُلَّ حَصَاةٍ تَزِيدُنِي

وكذا نرى المحنة تدفع الشاعر إلى مزيد من الاستعطاف والتذلل لعل ملك ميورقة يرضى عنه، ويعطف عليه، وتأمل قوله :

أَلَا رَأْفَةً مِنْ وَفِيٍّ كَرِيمٍ أَلَا عَطْفَةً مِنْ سَنِيٍّ سَرِيٍّ

وهذا شأن النكبات دائماً توحى بالحسرة والألم والتذلل والاستعطاف.

* * * * *

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

(١٠) « أَبُو الْحَسَنِ الْبَغْدَادِيُّ الْفُكَيْكُ »

التعريف بالشاعر :

أبو الحسن البغدادي الفكيك من الشعراء الوافدين على الأندلس من الشرق، وهو من الشعراء المذكورين في الذخيرة^(١)، وعنهما نقل المقرئ في نفح الطيب^(٢) وكان حلو الجواب، مليح التندر، يضحك من حضر، ولا يضحك هو إذا ندر، وكان قصيراً دميماً، ومع بديهته القوية، التي توفي على الروية، استهدم عدة قصائد لغير واحد من أهل الشام والعراق، وغيرها من تلك الآفاق، وكان مع ذلك حلو الحوار .. وقد عاش في كنف المعتمد بن عباد ومدحه، كما مدح المقتدر بن هود، وكان مشهوراً بالهجاء، وممن هجأهم أبو الحسن ناصر الدولة بن حمدان حيث قال فيه :^(٣)

وَلَكِنْ غَلَطْتُ بِأَنْ مَدَحْتُكَ طَالِباً جَدَّوَاكَ مَعَ عِلْمِي بِأَنَّكَ بَاخِلُ
فَالدَّوْلَةُ الْغَرَاءُ قَدْ غَلَطَتْ بِأَنْ سَمَّكَ نَاصِرَهَا وَأَنْتَ الْخَاذِلُ
إِنْ تَمَّ أَمْرُكَ مَعَ يَدٍ لَكَ أَصْبَحَتْ شَلَاءً فَالْأَمَثَالُ شَيْءٌ بَاطِلُ

ومما ينسب إليه في هجاء ناصر الدولة أيضاً وقيل لغيره :

وَوَعَدْتَنِي وَعَدّاً حَسْبُكَ صَادِقاً فَجَعَلْتُ مِنْ طَمَعِي أَجِيئاً وَأَذْهَبُ
فَإِذَا اجْتَمَعْتُ أَنَا وَأَنْتَ بِمَجْلِسٍ قَالُوا مُسِيلُ مَـةٍ وَهَذَا أَشْعَبُ

نكبة الفكيك :

عُرف عن الفكيك أن في دينه رهق أي أنه كان متهماً في دينه بالإلحاد أو الزندقة

(١) الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٣٧٠ . (٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١١٩ ، ١٢١ .
(٣) السابق ص ١٢١ . (٤) الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٣٧٣ .

فأفضت به الحال أن سجنه المعتمد بن عباد في إشبيلية، فأخذ يستعطف المعتمد ويرسل إليه من السجن بقصائد المديح يستدرُّ بها عطفه، ويستميل قلبه لكي يطلق سراحه، ويعفو عنه، ومن شعره الذي أرسل به إلى المعتمد من سجنه قوله : (١)

أَيَا ابْنَ عِبَادِ الْمَلِكِ الَّذِي يَدُهُ	مِنْ فَيْضِهَا الرُّزْقُ بَيْنَ الْخَلْقِ مَقْسُومٌ
أَضْحَى مَدِيحَكَ فِي دَرْعِ الْعُلَا عَطْرًا	بِهِ تَنْفَسُ مَنْثُورٌ وَمَنْظُومٌ
وَكُنْتُ أَحْسَدُ إِمَّا كُنْتُ أَنْشُدُهُ	فَالْيَوْمَ هَا أَنَا بَيْنَ النَّاسِ مَرْحُومٌ
فَمَنْ رَأَى شَاعِرًا فِي السَّجْنِ مُطْرَحًا	فِي ظُلْمَةٍ وَهُوَ بِالْبُهْتَانِ مَظْلُومٌ
نَادَيْتُ حُلْمَكَ وَالْأَقْدَارَ حَائِمَةً	« كَصَاحِبِ الْحُوتِ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ »
فَاحْلُلْ بِيَمِينِكَ رَبِّقَ الْأَسْرِ عَنْ عُنُقِي	فَنَأْتِ بِالْفَضْلِ وَالْإِفْضَالِ مَوْسُومٌ

ومن قصيدة أخرى يستعطف بها ويسترحم ، ولكنه يصف فيها أيضاً حاله ، وما صار إليه وهو في السجن فيقول (٢)

يَا مُحْيِيًا بِنْدَاهُ مَيِّتَ آمَالِي	وَمُصْلِحًا فِي فَسَادِ الدَّهْرِ أَحْوَالِي
إِنِّي لَا عَجَبُ مِنْ سَجْنٍ بِهِ أَمَنْتُ	نَفْسِي مِنَ الْخَوْفِ فِي عَرِيْسِ رَبَّالِ
وَلَمْ أَرِ فِيهِ مِثْلَ السَّيْفِ أَغْمَدُهُ	مِنْ انْتِضَاهِ لِأَشْعَارِي وَأَقْوَالِي
أُمْسِي وَحَوْلِي رِجَالٌ فِي الْكِبُولِ وَهُمْ	مُقَرَّنُونَ بِأَصْصِ فَادٍ وَأَغْلَالِ
كَمْ قَتَلْتُ لِي وَأَتَوَّابِي مَدْنَسَةً	وَقَدْ غَدَوْتُ مَذَالًا مِثْلَ أَذْيَالِ
أَصْرَتُ تَرْفُلُ فِي الْأَسْمَالِ ؟ قُلْتُ لَهُمْ :	أَسْمَالِي الْيَوْمَ بَيْنَ النَّاسِ أَسْمَى لِي

وبالتأمل في هاتين المقطوعتين نرى أن الفكيك يبالغ في مدح المعتمد حتى جعل أرزاق العباد مقسومة من فيض نداءه، وعطاء يده، ويبيِّن أنه محسود، وقد أوقع عليه حاسدوه ظلماً وبهتاناً أودى به إلى ظلمة السجن، وهو بهذا يحاول أن يتبرأ مما نسب إليه، ويخاطب المعتمد قائلاً :

(١) الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٣٧٣ . (٢) الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٣٧٤ .

ناديت حلمك والأقـدار حائمةٌ كصاحب الحوتِ نادى ^(١) وهو مكظوم

فالدنيا قد أظلمت من حوله حتى صار في وضعه كوضع صاحب الحوت يونس عليه السلام في ظلمة بطن الحوت .. وهو بهذا يستمد من معاني القرآن الكريم، وكأنه يقيم الدليل على براءته من اتهامه في دينه، وفي المقطوعة الثانية يصف المعتمد مادحاً بأنه محيي الآمال ومصلح فساد الأحوال، خصوصاً آمال الشاعر وأحواله ويعجب الشاعر من إحساسه بالزمن وهو في عرين الأسد .. ثم يصف حاله بين نزلاء السجن مستمداً صفتهم من معاني آيات القرآن الكريم فيقول :

أُسمي وحوّلي رجال في الكبولِ وهم مُقرّنون بأصفادٍ ^(٢) وأغلال

كما فعل في مقطوعته الأولى، وكما قلت : إنه يريد إثبات تعلقه بدينه وحفظه للقرآن، واستمداده منه ليثبت براءته، وينفي عن نفسه تهمة، ثم بين كيف تدنّست ثيابه وتمزّقت، وأصبح مهاناً بين الجميع، ممّا أثار عجب الكثيرين فسألوه : أهكذا صرت ترفل في الأسمال البالية بعد النعيم ؟ فكان ردّه عليهم ما أنا فيه اليوم أسمى وأفضل لي بين الناس وقد استخدم الجنس التام في تعبيره (أسمالي — أسمى لي) فالأولى بمعنى الثياب البالية الممزقة، والثانية بمعنى أعظم رفعة لي وسمواً.

والصبغةُ المشرقية واضحة جداً في شعر الفكيك، واتجاهاته واضحة، ومعاني شعره متأثرة تمام التأثير بمعاني من سبقوه، وامتحنوا محنته .. المدح المبالغ فيه، الاستعطاف والاسترحام والشكوى من الحال التي تحوّلت، والتعبير عن الآمال المنشودة وهكذا كما هو واضح من هاتين المقطوعتين .

(١) مأخوذ من قوله تعالى ﴿ فاصْبِرْ لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ سورة

القلم الآية (٤٨) .

(٢) مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وآخرين مُقرّنين في الأصْفاد ﴾ I سورة ص الآية (٣٨) .

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الرابع

نخبات التتبع الفاصلة

في ما بعد

عصر ملوحي الطوائف

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

تمهيد

يتناول هذا الفصل بالدراسة والتحليل أثر النكبات الخاصة في شعر أبرز الشعراء المنكوبين في أنفسهم أو أموالهم وما ملكت أيماهم، أو في أحبائهم وأعزائهم، وذلك خلال فترة ما بعد عصر ملوك الطوائف، وحتى نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس .

وتبدأ تلك الفترة بالسنة التي عاد فيها يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين إلى الأندلس عندما استغاث به فقهاؤها وأعيانها وعامتها، لينجدهم من عبث وفساد ملوك الطوائف المتناحرين من ناحية، ومن طغيان أعدائهم النصاري من ناحية أخرى، وذلك سنة ٤٨٣هـ، وهي السنة التي عاد فيها ابن تاشفين إلى الأندلس بجيوشه، ونجح في إيقاف الأعداء عند حدودهم .

ثم أخذ في استئصال ملوك الطوائف المتناحرين الواحد تلو الآخر، فما أتت سنة ٤٩٥ هـ إلا وكانت الأندلس قد انضمت إلى المغرب في دولة واحدة عاصمتها مراكش، واستمرت حتى سنة ٥٥٥ هـ حيث نجح الموحدون في العبور إلى الأندلس، وانتزعوها من المرابطين كما انتزعوا المغرب منهم قبل ذلك سنة ٥٤٦ هـ، واستمرت دولة الموحدين في الأندلس حتى سنة ٦٦٧ هـ حيث نجح القشتاليون في دخول مدينة إشبيلية حاضرة الموحدين في الأندلس، وبذلك دالت هذه الدولة وانتهت في الأندلس، كما يشمل هذا الفصل بالدراسة عدداً من أبرز شعراء مملكة بني الأحمر التي أسسها محمد بن يوسف بن نصر ملك أرجونة سنة ٦٣٥ هـ، وجعل حاضرتها مدينة غرناطة، هذه المملكة التي قدر لها أن تدوم نحو قرنين ونصف قرن من الزمان وسط أمواج العواصف والأعاصير، والصراعات وظلت تقاوم الفتن الضارية، والهجمات النصرانية الشرسة طوال

هذه الفترة وتعاقب على عرشها من أبناء وأحفاد مؤسسها محمد بن يوسف عشرون ملكاً، كان آخرهم أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن علي بن سعد بن الأحمر الذي سلّم مفاتيح غرناطة إلى ملك النصارى فرديناند وزوجهِ الملكة إيزابلا سنة ٨٩٨هـ. لتغرب شمس الإسلام في الأندلس وبطبيعة الحال لا بد من الإشارة إلى أننا تناولنا أبرز الشعراء المنكوبين خلال الفترة من سنة ٤٨٣هـ إلى سنة ٨٩٨هـ والتي تزيد عن أربعمئة عام خصوصاً من ظهر أثر النكبات في شعرهم بصورة جليّة واضحة، ولم نتوقف أمام الكثيرين من الشعراء ، بل تجاوزناهم لعدم ظهور نتاج شعري يكشف أثر ما حلّ بهم في أدبهم.

وأبرز الشعراء الذين سيأتي ذكرهم في هذا الفصل هم :

- ١ - المعتمد بن عبّاد .
- ٢ - عز الدولة الصمادحي .
- ٣- ابن سوار الأشبوني .
- ٤- بن خفاجة الأندلسي .
- ٥- آل سعيد.
- ٦- أبو القاسم البلوي الإشيلي .
- ٧- أبو عامر الأصيلي .
- ٨ - أبو الحسن الحصري الكفيف.
- ٩- لسان الدين بن الخطيب.
- ١٠- شعراء آخرون مثل :
- ابن شماخ الغافقي .
- ابن الجنان
- ابن قسّوم.
- أبو جعفر القضاءي .
- وذلك حسب ترتيبهم المبين .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(١) « الْمُعْتَمَدُ بْنُ عَبَّادٍ »

التعريف بالشاعر :

هو محمد بن عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، وقد كُنِيَ بأبي القاسم ولقب بالمعتمد على الله ، الظافر المؤيد، ولد سنة ٤٣٢ هـ (١) في مدينة باجة قرب إشبيلية ، وعاش حياة اللهو والمجون في شبابه ، ولما بلغ مبلغ الرجولة قاد الحملات العسكرية بتكليف من والده المعتضد عباد لتوسيع مملكته ، فأظهر كفاءةً وشجاعةً ، وقدرة على القيادة، ولما توفّي والده في سنة ٤٦١ هـ خلفه في ملكه ، وعاش حياة الترف، فشيد القصور المحاطة بالرياح ، والحدائق والبساتين (٢) ، وكان المعتمد ملكاً شاعراً فارساً، بل كان ملك شعراء الأندلس ، وشاعر ملوكها ، وقد امتد ملكه حتى شمل قرطبة وجزءاً كبيراً من الأندلس، وهو بطل موقعة الزلاقة المشهورة، وكان حوله من الشعراء نوابغ شعراء الأندلس مثل ابن زيدون ، وابن حمديس، وابن عبد الصمد ، وابن اللبّانة ، وابن عَمّار، والحصريّ، وغيرهم حتى إنه لم يجتمع بيباب ملك من ملوك الأندلس من الشعراء ما اجتمع بيباب المعتمد (٣) ، واتسع بلاطه لكثير من الأدباء والعلماء .. وليس هذا بغريب على المعتمد فلقد انحدر من أسرة شعراء ، وكان أولاده من البنين، والبنات شعراء، وكان هو أشعرهم قاطبة ، بل وأشعر ملوك الأندلس على الإطلاق ، ونعمت مملكته بمظاهر الثروة والترف والنعيم .

(١) في الذخيرة ق ٢ م ١ : أنه ولد في ربيع الأول سنة ٤٣١ هـ ، وهو أقرب إلى الصحيح (ص ٥٧) .

(٢) تاريخ الأدب العربي د . عمر فروخ ج ٤ ص ٧١٣ .

(٣) الأدب الأندلسي د . مصطفى الشكعة ص ٥٣٣ .

نكبة المعتمد

ما نكب شاعر ولا ملك ولا أمير نكبة المعتمد بن عباد ، فقد نكب بضيا ع ملكه ، وفقد ثروته ، وحمله مأسوراً مكبلاً في قيوده وأغلاله إلى بلد غير بلده وأرض غير أرضه ، بيد من ظنه صديقاً ، وفي الكفاح رفيقاً ، وشرّد أولاده ، وقتل منهم من قتل ، وأهين منهم من أهين وبيعت بعض بناته سبيات في الأسواق ، وتحول هو وجميع أهل بيته من حياة النعيم المقيم إلى حياة الدّل والعذاب والجحيم وظل كذلك حتى مات في منفاه بمدينة أغمات بالمغرب حيث حبسه أسره يوسف بن تاشفين ، وكانت وفاته سنة ٤٨٨ هـ .

وعن نكبة المعتمد بن عباد يحدثنا المقرئ في كتابه نفح الطيب^(١) نقلاً عن الفتح ابن خاقان حيث قال الفتح : « وما زالت عقارب تلك الداخلة تدب ، وريحها العاصفة تهب ، ونارها تقد ، وضلوعها تحنق وتحقد ، وتضمر الغدر وتعتقد ، حتى دخل البلد من واديه ، وبدت من المكروه بواديه ، وكرّ عليه الدهر بعوائده وعواديته ، وهو مستمسك بعري لذاته ، منغمس فيها بذاته ، ملقى بين جواريه ، مغتر بودائع ملكه وعواريته ، التي استرجعت منه في يومه ، ونهه فواتها من نومه ، ولما انتشر الداخلون في البلد ، وأوهنوا القوى والجلد ، خرج والموت يتسعر في ألحاضه ، ويتصور من ألفاظه ، وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقّده عند انتضائه ، فلقبهم برحبة القصر ، وقد ضاق بهم فضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقا ، وملأتهم فرقا ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله ، وذهاب ملكه وارتحاله ، فنزل من القصر بالقسر إلى قبضة الأسر ، فقيد للحين ، وحان له يوم شر ما ظن أنه يحين ، ولما قيدت قدماء ، وذهبت عنه رقة الكبل ورحمائه ، قال يخاطبه :

إِلَيْكَ فَلَوْ كَانَتْ قِيُودُكَ أَسْعَرَتْ تَضَرَّمُ مِنْهَا كُلُّ كَفٍّ وَمَعْصَمٍ
مَخَافَةً مَنْ كَانَ الرِّجَالُ بِسَيِّئِهِ وَمِنْ سَيِّئِهِ فِي جَنَّةٍ أَوْجَهَنِمِ

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢١٣ .

ولمّا آله عضّه ، ولازمه كسره ورَضَهُ ، وأوهاه ثقله ، وأعياه نقله ، قال :

تبدلت من عزّ ظلّ البنود بذلّ الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيلاً الحديد
فقد صار ذاك وذأ أدهماً يعضّ بساقِي عضّ الأسُود

ثم جُمع هو وأهله ، وحملتهم الجوّاري المنشآت ، وضمتهم جَوَانِحُهَا كأنهم أموات ، بعدما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العصر ، والناس قد حشروا بضفتي الوادي ، وبكوا بدموع كالغواصي ، فساروا والنوح يحدوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم « وقد حمّله يوسف بن تاشفين ورجاله إلى أغمات أسيراً يوم الأحد الحادي والعشرين من رجب سنة ٤٨٤هـ وظل في أسره يتجرع كؤوس الدُّلّ والهوان حتى مات في سجنه سنة ٤٨٨هـ .

أثر النكبة في شعر المعتمد بن عباد :

ينبغي أن نشير إلى أن شعر المعتمد بن عباد كان ترجمة صادقة لحياته ، بل هو صورة حقيقية لفترات حياته بحلوها ومرّها وكان أصدق ألوان شعره هو ما كان نتاجاً لنكبته ، وانعكاساً لمحنه ، فهو شعر وجدانيّ يفيض بالأسى والألم والحزن ، ويعبر أصدق تعبير عن حاله وما آل إليه أمره ، فقد بكى وأبكى ، وأثر في النفوس أبلغ تأثير ، وصوّر مرارة الأسر والسجن ، ومتاعب النفي وآلامه أبلغ تصوير ، ولذلك يعدّ شعر النكبة عند المعتمد أروع شعره قاطبة ، إذا لا تصنّع فيه ولا تكلف ، ولكنه اتسم بالطبع ، وجاء منساباً منسلاً طبيعياً ، وإليك أبرز ما قاله المعتمد في محنته .

مما قاله المعتمد بن عباد بعد أن أيقن بزوال سلطانه ، وتضعف بنيانه ، لما دُخل عليه البلد يوم الثلاثاء منتصف رجب سنة ٤٨٤هـ وقد خرج مدافعاً عن ذاته ، وذاباً عن حرّماته ، وظهر يومئذٍ من بأسه ، ومن تراميه - زعموا - على الموت بنفسه ، مالا مزيد لبشر

عليه، ولا تنتهي لخلقٍ إليه ، وفي ذلك يقول : (١)

- ١- لَمَّا تَمَاسَكَتِ الدُّمُوعُ
 - ٢- قَالُوا الْخُضُوعُ سِيَاسَةٌ
 - ٣- وَالَّذُ مِنْ طَعْمِ الْخُضُوعِ
 - ٤- إِنْ تَسْتَلِبْ عَنِّي الْبُلْدَانَا
 - ٥- فَالْقَلْبُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ
 - ٦- لِمَ أُسْتَلَبَ شَرَفُ الطُّبَا
 - ٧- قَدْ رُمْتُ يَوْمَ نَزَالِهِمْ
 - ٨- وَبَرَزْتُ لَيْسَ سِوَى الْقَمِيمِ
 - ٩- وَبَذَلْتُ نَفْسِي كَيْ تَسِي
 - ١٠- أَجَلِي تَأْخُرَ لِمَ يَكُنْ
 - ١١- مَا سَرْتُ قَطَّ إِلَى الْقَتَا
 - ١٢- شَيْمِ الْأُولَى أَنَا مِنْهُمْ
- وَتَنَبَّهَ الْقَلْبُ الصَّدِيعُ
فَلْيَدُ مِنْكَ لَهُمْ خُضُوعُ
عَلَى فِيمِ السُّمِّ النَّقِيعُ
مُلْكِي وَتُسَلِّمَنِي الْجُمُوعُ
لَمْ تُسَلِّمِ الْقَلْبُ الضُّلُوعُ
عَ أُسْلَبَ الشَّرْفُ الرُّفِيعُ ؟
أَلَّا تُحَصِّنَنِي الدُّرُوعُ
صَ عَلَى الْحَشَا شَيْءَ دَفُوعُ
لَ إِذَا يَسِيلُ بِهَا النُّجِيعُ
بِهَوَايَ ذُلِّي وَالْخُضُوعُ
لَ وَكَانَ مِنْ أَمَلِي الرُّجُوعُ
وَالْأَصْلُ تَتَبَعُهُ الْفُرُوعُ

وهذه الأبيات تكشف عن المقاومة العنيفة التي أبدتها المعتمد لرجال يوسف بن تاشفين، كما تبين لنا جرأته وجسارته في مواجهة أعدائه بدون دروع أو تروس، وفي جلاء تظهر الأبيات العزة والإباء كصفتين راسختين في نفس المعتمد، وأنه فضل السم النقيع القاتل على الخضوع، حتى ولو كان خضوعه في سبيل المناورة وليس خضوعاً حقيقياً وأخيراً يبين حبه للشهادة في كل معركة خاضها ويأسى لأنه لم يبلغ مناه في هذه المعركة ، ويتألم لأن منيته لم تلحقه، ولم يكن بهواه أن يذل ويخضع ، وهذه شيم كريمة فيه وفي آبائه من قبله، فهي صفات مورثة .

(١) الذخيرة لابن بسام ق ٢ م ١ ص ٥٢-٥٣ .

ولكنه قد أغار بقوله : (١)

مَا سِرْتُ قَطُّ إِلَى الْقِتَا ل وَكَانَ مِنْ أَمَلِي الرُّجُوعُ

على معنى لقول قيس بن الخطيم يقول فيه :

وَإِنِّي فِي الْحَرْبِ الضُّرُوسُ مُوَكَّلٌ بِتَقْدِيمِ نَفْسِي لَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا

يقول ابن بسام : لما كان يوم الأحد الموافق عشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ دخل البلد على المعتمد بعد أن جدَّ الفريقان في القتال، واجتهدت الفئتان في النزال، وفي أثناء تلك الحال، وما كان يناجي باله من اللبال، خاطب أبا بكر الخولاني المنجم بهذه

الآيات : (٢)

أَرَمِدْتَ أَمْ بِنُجُومِكَ الرُّمْدُ	قَدْ عَادَ ضِدًّا كُلُّ مَا تَعْدُ؟
هَلْ فِي حِسَابِكَ مَا نَزَّمْلُهُ	أَمْ قَدْ تَصَرَّمَ عِنْدَكَ الْأَمْدُ؟
قَدْ كُنْتَ تَهْمِسُ إِذْ تَخَاطَبُنِي	وَتَخْطُ كَرَهًا إِنْ عَصَتْكَ يَدُ
فَالآنَ لَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ	أَتَرَاكَ غَيْبَ شَخْصِكَ الْبَلَدُ؟
وَتَرَكَ بِالْعَذَرَاءِ فِي عَرْسٍ	أَمْ إِذْ كَذَبْتَ سَطَابِكَ الْأَسْدُ
الْمَلِكُ لَا يَبْقَى عَلَى أَحَدٍ	وَالْمَوْتُ لَا يَبْقَى لَهُ أَحَدُ

ثم أخرج المعتمد في ذلك اليوم إلى أن أطلقت له جميع أمهات أولاده وبنيه، وكل ما يخص أقاربه وذويه، وكل من يهمه أمره من الأهل وعمر بهم مركب فركبوا البحر في طريقهم إلى أغمات، إلى أن وصلوا إلى أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين رحمه الله .

وفي الآيات السابقة نرى كيف كان بعض الملوك يسمعون لأقوال المنجمين ، ويبدو أن أبا بكر الخولاني المنجم كان قد أخبره بأنه سينتصر على مهاجميه، ولكن خاب ظنه، وجاءت الرياح بما لا يشتهي السفن، وأحاطت جموع المرابطين به من كل

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٥٣ . (٢) السابق ص ٥٦ .

جانب ، وأيقن بالهزيمة ، خاطب مُنْجَمَهُ الذي يبدو أنه قد فرّ مع جموع الفارين من وجه هذا السيل الجارف من المهاجمين من جند المرابطين ويكفي أن تقرأ البيتين الأولين لتعرف مدى ما أصيب به المعتمد من يأْسٍ وقنوط ، وأنّ النَّصر أصبح بعيداً عنه كل البعد ، وانقلب كل شيء إلى ضِدِّهِ :

أَرَمَدْتُ أَمْ بِنَجُومِكَ الرَّمْدُ ؟ قَدْ عَادَ ضِدّاً كُلُّ مَا تَعَدُّ
هَلْ فِيَّ حَسَابُكَ مَا نَوَّمَلُهُ أَمْ قَدْ تَصَوَّرَ رَمَّ عِنْدَكَ الْأَمْدُ ؟ !
ويروى أنّ الوَزيزَ الطَّبِيبَ أبا العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر الإيادي كان في

أَغْصَانٍ ، وزار المعتمد في منفاه فوجد إحدى بناته مريضة ، فعالجها ، ودعا للمعتمد في مَنْفَاهِ فِرْدُ المعتمد على دُعَاءِ أَبِي العلاء زهر بن عبد الملك بِقَوْلِهِ : (١)
دُعَائِي بِالْبَقَاءِ وَكَبِيرُ يَهُوَى أَسِيرٌ أَنْ يَطُولَ بِهِ الْبَقَاءُ
أَلَيْسَ الْمَوْتُ أَرْوَحُ مِنْ حَيَاةٍ يَطُولُ عَلَى الشَّقِيِّ بِهَا الشَّقَاءُ ؟ !
ثم يقول كاشفاً عما آل إليه حال أكرم بناته التي أضرب بها الفقر حتي ألجأها الحين إلى استدعاء غَزَلٍ تغزله بأجرة لتسدّ به بعض خلَّتِهَا ، فأدْخَلَ إليها غَزَلَ لبنت عريف شرطته المنتقل إليه من دولة غرناطة ، وعلم المعتمد الأمر فتعجب من قلب الدهر وقال فيما قاله للوزير الطبيب أبي العلاء زهر :

أَأَرْغَبُ أَنْ أَعِيشَ أَرَى بَنَاتِي عَوَارِي قَدْ أَضْرَبَ بِهَا الْحَفَاءُ ؟ !
خَوَادِمَ بِنْتٍ مَنْ قَدْ كَانَتْ أَعْلَى مَرَاتِبِهِ - إِذَا أَبْدُو - السُّنْدَاءُ
وَطَرْدَ النَّاسِ بَيْنَ يَدَيَّ مُرَوْرِي وَكَفَّهُمْ إِذَا غَصَّ الْفُتْنَاءُ
وَرَكَّضَ عَنْ يَمِينٍ أَوْ شِمَالٍ إِذَا اخْتَلَّتْ الْأُمَامُ أَوْ الْوَرَاءُ
وَلَسْكَنَ الدُّعَاءُ إِذَا دَعَاهُ ضَمِيرٌ خَالِصٌ نَفَعَ الدُّعَاءُ
جَزِيئَةً أبا العلاء جزاء برٍّ نَوَى بَرّاً وَصَاحَبَكَ الْعِلَاءُ
سَيَّلَى الْكُلَّ عَمَّا فَاتَ عِلْمِي بَأَنَّ الْكُلَّ يَدْرِكُهُ الْفَنَاءُ

(١) السابق ق ٢ م ١ ص ٢٢٧ .

فتأمل كيف كان المعتمد مرهف الحس، شديد التأثر لدرجة أنه تمنى لنفسه الموت، لأنه وجد الموت خيراً له من حياة يشوبها الذل، وهل هناك أقسى على نفسه من أن يرى أكرم بناته، تدفعها الحاجة إلي أن تعمل بالأجرة في خدمة عريف شرطته الذي كان أعلى مراتبه أن يجري بين يدي المعتمد لينبه الناس إلى مقدم الملك، ويفسح له الطريق من المارة ... وهي التي صنع لها ولأخواتها ولأمهن اعتماد الرميكية بركة من طين الزعفران والمسك وماء الورد ليطأن فيها بأقدامهن ... فعجبا لتقلبات الأيام .

وقيل : إن رجلاً يعرف بابن الزنجاري سأل المعتمد وهو في منفاه أن يزوده بشيء من شعره فكتب إليه قائلاً : (١)

<p>فَعَلْتُ ، لَكِنْ عَدَانِي طَارِقُ النُّوبِ تَزْوِيدُكَ الشَّعْرَ لَا يُغْنِي عَنِ السَّغْبِ غَدَا لَهُ مُؤَثَّرًا ذَوَالُ اللَّبِّ وَالْأَدَبِ مَا أَعْجَبَ الْقَدَرَ الْمُقَدَّرَ فِي رَجَبِ نُعْمَى اللَّيَالِي مِنَ الْبُلُوَى عَلَى كَثَبِ بَطْشِي، وَيَحْيَا قَتِيلُ الْفَقْرِ فِي طَلْبِي غَلَبَ مِنَ الْعَجَمِ أَوْ شَمَ مِنَ الْعَرَبِ لَمْ يَجِدْ شَيْئاً قَرَاعَ السُّمْرِ وَالْقُضْبِ « السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ »</p>	<p>لَوْ اسْتَطِيعَ عَلَيَّ التَّزْوِيدُ بِالذَّهَبِ يَأْسَأُ الشَّعْرُ يَجْتَابُ الْفَلَاحَ بِهِ زَادَ مِنَ الرِّيحِ لَا رِيٍّ وَلَا شَبْعٍ أَصْبَحْتُ صَفْراً يَدِي مِمَّا تَجُودُ بِهِ ذُلٌّ وَفَقْرٌ أَدَا أَعَزَّةً وَغْنَى قَدْ كَانَ يَسْتَلِبُ الْجَبَّارُ مَهْجَتَهُ وَالْمَلِكُ يَحْرُسُهُ فِي ظِلِّ وَاهِبِهِ فَحِينَ شَاءَ الَّذِي آتَاهُ يَنْزَعُهُ فَهَا كَهَا قِطْعَةً تَطْوِي لَهَا حَسَدًا</p>
--	--

فشكوى المعتمد من تحول الحال من العز إلى الذل ، ومن الغنى إلى الفقر واضحة جداً في خطابه لمن سألته شيئاً من شعره وتأمل قوله :

<p>مَا أَعْجَبَ الْقَدَرَ الْمُقَدَّرَ فِي رَجَبِ نُعْمَى اللَّيَالِي مِنَ الْبُلُوَى عَلَى كَثَبِ</p>	<p>أَصْبَحْتُ صَفْراً يَدِي مِمَّا تَجُودُ بِهِ ذُلٌّ وَفَقْرٌ أَدَا أَعَزَّةً وَغْنَى</p>
--	--

(١) السابق ص ٦٨ .

لترى كيف أصبح يشكو من الذل بعد العز ، ومن الفقر بعد الغنى وتأمل المقارنة التي عقدها بمقابلته بين حاله أيام أن كان يزلزل قلوب الجبابرة ببطشه، ويعطف ويحنو على من قتلهم الفقير المدقع فيغمرهم بجوده وعطاياه، وحاله عندما قدر الله زوال ملكه، لم تنفعه عدته وعتاده، ولم يدفع عنه لا رمح ولا سيف ...

وعندما نكب المعتمد بفقد ولديه المأمون والراضي تضاعف حزنه واشتد أساه، وعظمت بلواه، ومما مَزَقَ نياط قلبه أن أولهما قد قتل إبان الأحداث في قرطبة، وحز رأسه وطاف قاتلوه بالرأس المدينة ، وتركوا جسده مطروحاً، كما قتل ثانيهما في رندة، فكانت نهايتهما مفجعة لأبيهما الذي انصدع قلبه بفقد ملكه وصولجانه، ثم اشتد صدعه، وزاد كربه بما حدث لولديه، فراح يبكيهما بكاء حاراً، ومما جاء في قلائد العقيان أن المعتمد رأى قمرية صادحة بشجنها، نائحة بفننها على سكنها وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغماً، ويغردان ترحة وترنماً فقال : (١)

بَكَتْ أَنْ رَأَتْ إِلْفَيْنِ ضَمَّهُمَا وَكَرَّ	مَسَاءً ، وَقَدْ أَخْنَى عَلَى إِلْفِهَا الدَّهْرُ
بَكَتْ وَلَمْ تَرْقُ دَمْعاً ، وَأُسْبَلَتْ عِبْرَةً	يُقَصِّرُ عَنْهَا الْقَطَرُ مَهْمَا هَمَّ الْقَطَرُ
وَنَاحَتْ فَبَاحَتْ وَاسْتَرَاخَتْ بِسَرِّهَا ،	وَمَا نَطَقَتْ حَرْفًا يَبُوحُ بِهِ سِرُّ
فَمَالِي لَا أَبْكِي أَمْ الْقَلْبُ صَخْرَةٌ ؟ !	وَكَمْ صَخْرَةٍ فِي الْأَرْضِ يَجْرِي بِهَا نَهْرُ
بَكَتْ وَاحِدًا لَمْ يَشْجَهَا غَيْرُ فَقْدِهِ	وَأَبْكِي لِأَلْفٍ عَدِيدٍ هَدَّاهُمْ كَثْرُ
بَنِي صَغِيرٍ أَوْ خَلِيلٍ مُوَافِقٍ	يَمَزُقُ ذَا قِفَرٍ ، وَيَغْرِقُ ذَا بَحَرٍ
وَنَجْمَانِ زَيْنَ لِلزَّمَانِ احْتَوَاهُمَا	بِقُرْطَبَةٍ الْكَدَاءِ أَوْ رَنْدَةِ الْقَبْرِ
غَدَرْتُ إِذْنُ إِنْ ضَنَّ جَفَنِي بِقَطْرَةٍ	وَإِنْ لَوُئِمَتْ نَفْسِي فَصَاحَبَهَا الصَّبْرُ
فَقُلْ لِلنُّجُومِ الزُّهْرُ تَبْكِيهِمَا مَعِي	لِثَلْثِهِمَا فَلَتَحْزَنِ الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ

(١) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص ٢٠ - ٢١ ، الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٦٨ ، ديوان المعتمد ص ١٥ ت رضا الحبيب .

وقال المعتمد أيضاً يبيكما بما يفتت الكبد ، ويفتت العضد : (١)

سأُبكي وأُبكي ما تطاول من عمري
يزيد ، فهل عند الكواكب من خبر
تخمش لهففاً وسطه صفحة البدر
وأصبر ما للقلب في الصبر من عذر
كما يزيده الله قد زاد في أجري
أدعى وفيّاً ! وقد نكصت إلى الغدر » (٢)
ولم تلبث الأيام أن صغرت قدري
إلى غاية ، كل إلى غاية يجري
إذا أتمما أبصر تمانني في الأسر
ثقيلاً فتبكي العين بالجس والنقر
وأكمما الشكلى المضربة الصدر
وتزجرها التقوى فتصغي إلى الزجر
أبا النصر مذ ودعت ودعني نصري
تجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو (٣)

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبر
هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه
تري زهرها في ماتم كل ليلة
ينحن على نجمين ، أكلت ذا وذا
أفتح لقد فتحت لي باب رحمة
« هوى بكما المقدار عني ولم أمت
توليتما والسن بعد صغيرة
توليتما حين انتهت بكما العلا
فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى
يعيد على سمعي الحديد نشيده
مع الأخوات الهالكات عليكم
فتبكي بدمع ليس للقطر مثله
أبا خالد : أورتني الحزن خالداً
وقبلكما قد أودع القلب حسرة

ومن المثير في بكاء المعتمد أولاده أنه لا يبيكهم وحده ، ولكنه يشرك معه عناصر الطبيعة ، فمرة يشرك طيور القمري ، ومرة يشرك نجوم السماء وكواكبها ، ويتهم نفسه بالغدر والوجود إن لم ينهمر الدمع من عينيه مدراراً ، كما يبلغ به الحزن والأسى مبلغه فيتمنى أن لو مات قبل أن يفقد أولاده ، كما يعود فيتهم نفسه بعدم الوفاء لا لشيء إلا

(١) الذخيرة ٢ م ١ ص ٦٩ .

(٢) هذا البيت ليس موجوداً في الذخيرة ، وقد أضيف عن الأدب العربي في الأندلس د. عبد العزيز عتيق .

لأنه ما زال على قيد الحياة بينما أولاده قد ضمتهم قبورهم ، ولكنه يتذكر ما هو فيه من حياة الدُّل والهوان في سجنه فيعود إلى خطاب فلذات كبده، وتوليتم وأنتم في قمة المجد، ولو عدتم إلى الحياة ورأيتم ما صار إليه حالي من الدُّل والضياع ، والفقر والحرمان، والسجن الذي يطبق عليّ من كل جانب لاخترتم العودة إلى الثرى مرة أخرى، فقيود الحديد تسمعني نشيدها ونشيجها، فتبكي العين والفؤاد، وأخواتكم الهالكات حزناً عليكم، وأمكم التي تتوقد نار الحزن في صديها لشكلكم، فتبكي عيناها بدمع منهمر كالقطر، بل لا يأتي القطر بمثله، فالحزن مخيم والأسى مقيم ، والأمجاد والانتصارات قد ولت ..

كما أن حبّ المعتمد لأولاده وشدة حُزنه عليهم دفعته إلى أن يسمو بهم إلى العلياء، فهم كواكب زاهرة، ونجوم مشرقة، بذهابهم ذهب كل شي، وبموتهم أصبح طعم العيش في فمه مرّ المذاق، وأظلمت الحياة في ناظره ...

ومما قاله المعتمد في رثاء ولديه المأمون والراضي، وقد رأى المطر ينهمر كأفواه القرب أياماً متوالية فاتجه إليه يخاطبه : (١)

يَا عَيْنُ، عَيْنِي أَقْوَى مِنْكَ تَهْتَانَا	أَبْكِي لِحُزْنٍ، وَمَا حُمِلْتَ أَحْزَانَا
وَنَارُ بَرَقِكَ تَخْبُو إِثْرَ وَقَدَّتْهَا	وَنَارُ قَلْبِي تَلْفِي الدَّهْرَ بِرُكْنَانَا
نَارٌ وَمَاءٌ صَمِيمٌ الْقَلْبُ أَصْلُهُمَا	مَتَى حَوَى الْقَلْبُ نِيرَاناً وَطُوفَاناً
ضِدَّانَ أَلْفَ صَرَفٍ الدَّهْرُ بَيْنَهُمَا	لَقَدْ تَلَوْنَ فِي الدَّهْرِ أَلْوَانَا

ففي هذه الأبيات الأربعة يخاطب المطر المنهمر كأفواه القرب أياماً عديدة متوالية قائلاً : يا عين - والعين : مطر أيام لا يقلع - عيني أقوى منك ذرفاً لدمعها المنهمر، والفرق بيني وبينك أنني أبكي حزناً وأسى وحسرة على من فقدت من أولادي، بينما أنت تبكي وما حملت حزناً على أحد، وقلبي الآن قد حوله الحزن إلى نارٍ وماءٍ، ولا عجب من اجتماع نار الحزن مع ماء دمع العين المنهمر، والقلب الباكي الحزين فإن كان الدهر قد ألف بين الضدّين وجمع بينهما في فؤادي فليس هذا بجديد عليه ، فقد

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٧٠ .

تلوّنت فيّ صروفه، وتنوّعت أحداثه بل ومصائبه وصارت في حياتي ألواناً متعددة ،
وأشكالاً متنوعة .

كما يعقد صورة أخرى من صور المقارنة بينه وبين الحيا المنهمر قائلاً :

إلى جانب أنك تبكي بلا حزن فإن نار برقك سرعان ما تخبو وينتهي أثرها ،
بينما نار قلبي ترى أبد الدهر وهي كالبركان الشائر الدائم الاشتعال ، وهذا كناية عن
استمرار الحزن في قلب المعتمد بن عباد، ثم يواصل المعتمد بكاءه قائلاً :

بَكَيْتُ فَتَحاً فَإِذَا مَرُمْتُ سَلْوَتَهُ	ثَوَى يَزِيدُ فَرَادَ الْقَلْبَ نِيـــــــرَانَا
يَا فَلَذَنِي كـــــــبِدِي يَأْبَى تَقْطُعُهَا	عَنْ وَجْدِهَا بِكُمَا مَا عَشْتُ سُلْوَانَا
لَقَدْ هَوَى بِكُمَا نَجْمَان مَارَمِيَا	إِلَّا مِنْ الْعُلُوِّ بِالْأَلْحَاطِ كَيُونَا (١)
مُخَفَّفٌ عَنْ قُوَادِي أَنْ تُكَلِّمَا	مُثْقَلٌ لِي يَوْمَ الْحَشْرِ مِيـــــــزَانَا
يَا فَتَحُ قَدْ فَتَحْتَ تِلْكَ الشَّهَادَةَ لِي	بَابَ الطَّمَعَةِ فِي لُقْيَاكَ جَذْلَانَا
وَيَا يَزِيدُ لَقَدْ زَادَ الرَّجَا بِكُمَا	أَنْ يَشْفَعَ اللَّهُ بِـــــــالْإِحْسَانِ إِحْسَانَا
كَمَا شَفَعْتَ أَخَاكَ الْفَتْحَ تَتَبِعُهُ	لِقَاكُمَا اللَّهُ غُفْرَانَا وَرِضْوَانَا
مَنْبِي السَّلَامِ وَمَنْ أُمُّ مُفْجَعَةٍ	عَلَيْكُمَا أَبَدًا مَشْنَى وَوَحْدَانَا
أَبْكِي وَتَبْكِي وَنُبْكِي غَيْرَنَا أَسْفَا	لَدَى التَّذَكُّرِ نِسْوَانَا وَوَلَدَانَا

وفي هذا الجزء من بكائيته يشير المعتمد إلى توالي المصائب عليه، فيقول : فقدت
ولدي الفتح وبكيتته وعندما أوشكت على السلوان قضى أخوه يزيد نجه، وبلغني خبر
مقتله فازداد اشتعال نيران الحزن التي كادت أن تخبو في قلبي، ثم يتجه ملتفتا من
الغيبة إلى الخطاب فيخاطب ولديه الفقيد مكنياً عن دوام الحزن عليهما بإخباره أن
تقطع كبده عليهما لا يفارق تلك الكبد الحزينة أبداً ويصور ولديه بنجمين في عليائهما
يرميان بالألحاط كوكب زحل ويخفف المعتمد من غلواء حزنه وأساه لفقد ولديه الفتح
وزيد أو الأمين والراضي .. باحتسابهما عند الله راجياً أن يلحق بهما في مستقر

(١) كيونا : اسم زحل بالفارسية (المنجد مادة « كون » ص ٧٠٤) ط ١٢ دار المشرق العربي .

رحمته، وأن يشفع له بالإحسان إحساناً بمعنى أن يجزيه على صبره خير الجزاء، ثم يدعو لهما بالمغفرة والرضوان، ويلقي عليهما سلاماً منه ومن أمهما الثكلي بعد أن بكاهما، وبكتهما معه وأبكيا غيرهما لبكائهما .

وتأمل كيف كان المعتمد يغبط أسراب الطيور وهي تمرُّ به سارحة في جو السماء تستمتع بحريتها، وتسعد باجتماع شملها وإحساسها بالأمن والطمأنينة في ملكوت الله الواسع، ويتمنى أن يكون مثلها، كل هذه الخواطر قد تواردت في قلب المعتمد عندما اجتاز يوماً عليه بموضع ثقافه^(١) سرب القطا فهاج وجده، وأثار من لاجع الشوق ما عنده فقال : (٢)

<p>سَوَارِحَ لَا سِجْنَ يَعُوقُ وَلَا كَبْلُ وَلَكِنْ حَنِيناً أَنْ شَكَلِي لَهَا شَكْلُ وَجِيعٌ وَلَا عَيْنَايَ يَبْكِيهِمَا تَكْلُ وَلَا ذَاقَ مِنْهَا الْبَعْدَ مِنْ أَهْلِهَا أَهْلُ إِذَا اهْتَزَّ بَابُ السَّجْنِ أَوْ صَلَّصَلِ الْقِفْلُ وَصَفَّتِ الَّذِي فِي جَبَلَةِ الْخَلْقِ مِنْ قَبْلُ سَوَايَ يَحِبُّ الْعَيْشَ فِي سَاقِهِ كَبْلُ فَإِنَّ فِرَاحِي خَانَهَا الْمَاءُ وَالظَّلُّ</p>	<p>بَكَيْتُ إِلَى سَرَبِ الْقَطَا إِذْ مَرَرَنْ بِي وَلَمْ تَكْ وَاللَّهِ الْعَلِيمُ حَسَّادَةً فَأَسْرَحُ لَا شَمْلِي صَدِيعٌ وَلَا الْحَشَا هَنِيئاً لَهَا أَنْ لَمْ يُفَرِّقْ جَمِيعَهَا وَأَنْ لَمْ تَبْتَ لَيْلاً تَطِيرُ قُلُوبُهَا وَمَا ذَاكَ مِمَّا يَعْتَرِينِي وَإِنَّمَا لِنَفْسِي إِلَى لُقْيَا الْحَمَامِ تَشَوُّقُ أَلَا عَصَمَ اللَّهُ الْقَطَافِي فِرَاحَهَا</p>
--	---

وكما قدمت يغبط المعتمد سرب القطا على حريته، واجتماع شمله وإحساسه بالأمن والأمان، ويتمنى أن يكون مثل هذا السرب لا يفرقه عن أهله وأحابيه سجن ولا قيد، وعندما تحدث عما يعترى المسجون في سجنه من خوف وفزع وهلع عندما يفتح باب السجن، أو يسمع صلصلة الأقفال، أو وقع خطوات الحراس الثقيلة الوقع بادر فنفي عن نفسه مثل هذا الفزع، وهو ما يعرف بالاحتراس، وأوضح أنه إنما يصف ما جبل عليه الناس وما قامت عليه طبائعهم، بينما هو مازال متماسكاً شجاعاً لا يعتربه الخوف،

(١) أي في موضع سجنه وهو مقيد أسير . (٢) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٧١ .

وإن كان رغم ذلك يفضل لقياء الحمَام ويتشوق للموت، فالموت، وهو عزيز النفس كريمة أحب إليه من حياة الدُّلِّ والهَوَان التي يحياها في سجنه، بينما غيره يرضى بمثل هذه الحياة ويهرب الموت، ثم يدعو لسرب القطايا بالعصمة والحفظ، ودوام النعمة عليها وعلى فراخها، فإن فراخه أي أولاده قد خانها الماء والظل .. وهذا التعبير الأخير يكشف عما يعتري قلب المعتمد من الحزن الدفين، والحسرة الشديدة لما أصابه وأصاب أهله وذويه برغم ما يظهره من تماسك، وما من مناسبة تخلُّ على المعتمد في سجنه إلا ويتذكر أيام عزه ومجده وصولجانه، وما كان يحدث في مثل تلك المناسبة من مظاهر الأبْهة، وتأمل ما رواه صاحب القلائد بقوله :

« وأوَّلُ عيدٍ أخذه بأغْـماتٍ وهو سارح ، وما غيَّرَ الشُّجُونُ له مسارِحَ ولازيَّ إلا حالةُ الخمولِ واستحالةُ المأمولِ ، فدخِلَ عليه من بنيهِ من يسلمُ عليه ويهنيه ، وفيهم بناته وعليهنَّ أطمارٌ ، كأنها كسوفٌ وهنَّ أقمارٌ ، يَكِينُ عند التَّسَايلِ ، ويدين الخشوعَ بعد التَّخَايلِ ، والضَّيَاعُ قد غيَّرَ صورهنَّ وحيرَ نظرهنَّ ، وأقدَّ أمهنَّ حافيةً ، وآثارَ نعيمهنَّ عافيةً فقال يخاطب نفسه على سبيل التجريد : ^(١)

فَسَاءَكَ الْعِيْدُ فِي أَغْمَاتٍ مَأْسُورًا
يَغْرُلْنَ لِنَاسٍ مَا يَمْلِكُنَّ قِطْمِيرًا
أَبْصَارُهُنَّ حَسِيرَاتٍ مَكَاسِيْرًا
كَأَنَّهُنَّ لَمْ تَطَأْ مِسْكَاً وَكَافُورًا
فَكَانَ فَطْرُكَ لِلْأَعْيَادِ تَفْطِيرًا
وَلَيْسَ إِلَّا مَعَ الْأَنْفَاسِ مَمْطُورًا
فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مِنْهَيًّا وَمَأْمُورًا
فَأَنَّمَا بَاتَ بِالْأَحْلَامِ مَغْرُورًا

فِي مَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا
تَرَى بَنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ جَائِعَةً
بَرَزْنَ نَحْوَكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً
يَطْبُأْنَ فِي الطَّيْنِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةً
أَفْطَرْتَ فِي الْعِيْدِ لِعَادَتِهِ إِسَاءَتَهُ
لَا خَدَّ إِلَّا تَشَكُّي الْجَدْبِ ظَاهِرَهُ
قَدْ كَانَ دَهْرُكَ إِنْ تَأْمُرُهُ مُمْتَلَأُ
مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ فِي مُلْكٍ يُسْرَبُهُ

قلائد العقيان ص ٢٥ ، الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٧٢ - ٧٣ ، وديوان المعتمد ص ١٦٣ - ١٦٤ .

لقد جرَّك مظهر بنات المعتمد المزري في نفسه الأسى والألم والحسرة فتحوّلت فرحة العيد إلى حزن، وكأنّ التهاني قد انقلبت تعازي يتلقاها، وذكّره الموقف ما تقوم به بناته من غزل للصوف بأجر يستعنّ به في قضاء مطالب حياتهن المتواضعة الآن، وبالهول ما أصاب المعتمد من ألم مَرَق ما بقي لديه من تماسك وشجاعة عندما أبصر بناته حافيات حاسرات كسيرات يطأن بأقدامهنّ في الطين وهنّ اللائي صنع لهنّ يوماً بركة من طين الكافور والمسك وماء الورد لكي يلعبن فيها لاهيات سعيدات، فكأنّ كل هذا الآن لم يكن .. كل هذا قد جعل العيد مناسبة للحزن بدلاً من السرور والسعادة، فبكى الجميع، وسالت الدموع ممزوجة بالنجيع ، وقد كان الدهر يتلقى الأمر من المعتمد فيطيع، وها هو قد انقلب عليه فأصبح هو المأمور والمنهيّ، وفي النهاية يحذر المعتمد غيره من الاغترار بالملك والسرور به، فما حدث له فيه عظة وعبرة لغيره .. وليت غيره من الملوك قد انعط، فلو حدث هذا ما ضاعت الأندلس ..

ويستشف المتأمل في تلك الأبيات تحطّم الأبوة الحانية على صخرة السجن في نفس المعتمد، فقد أصبح يشعر بالعجز التام عن تحقيق السعادة لبناته ولا يملك دفع الضرّ عنهنّ، وقد آلمه هذا العجز ، وهو الذي كان في الماضي صاحب أمر ونهيّ ويتأكد هذا الإحساس بالعجز أمام ولده الصغير أبي هاشم عندما دخل عليه في سجنه يوماً ، ورآه يرسف في قيوده فعزّ على المعتمد أن يراه ولده في هذه الصورة المهينة لاسيما أن هذا الغلام الصغير قد خنقته العبرة ، وغلبه البكاء عندما رأى أباه على هذه الصورة ، فشاركه المعتمد البكاء وأنشد قائلاً والحزن غالب عليه : (١)

قَيْدِي أَمَا تَعَلَّمْنِي مُسْلِمًا	أَبَيْتَ أَنْ تُشْفِقَ أَوْ تَرْحَمَا
دَمِي شَرَابٌ لَكَ، وَاللَّحْمُ قَدْ	أَكَلْتَهُ لَا تَهْشِمِ الْأَعْظَمَا
يَبْصِرُنِي فِيكَ أَبُو هَاشِمٍ	فَيَنْتَنِي وَالْقَلْبُ قَدْ هَشِمَا
أَرْحَمُ طِفْلاً طَائِشاً لَبَهُ	لَمْ يَخْشَ أَنْ يَأْتِيكَ مُسْتَرْحَمَا
وَأَرْحَمُ أَخَوِيَّاتٍ لَهُ مِثْلُهُ	جَرَّ عَثَنُ السُّمِّ وَالْعَلَقَمَا

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٧٣ ، ديوان المعتمد ص ١١٢ .

مَنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ شَيْئاً فَقَدْ خَفِنَا عَلَيْهِ لَلْبِكَاءِ الْعَمَى
وَالْغُرِّ لَا يَفْهَمُ شَيْئاً فَمَا يَفْتَحُ إِلَّا لِرَضَاعِ فَمَا

وكثيراً ما كان المعتمد بن عباد يخلو إلى نفسه فينوح على نفسه، ويندب حظّه، ويتذكر ما ضيّه، ويذكر حاضره، ومن الأبيات التي تعبر عن الشوق والحنين الذي يتوهج انفعالاً، ويقطر ألماً سيّالاً، وتظهر الأبيات إنسانية المعتمد، واعتزازه بهذه الإنسانية ما جاء في قوله : (١)

غريبٌ بأرضِ المغربينِ أسير
وتندبه البيضُ الصَّوَارِمُ والقنا
إذا قيلَ في أغماتٍ قد مات جوده
مضى زمنٌ والمُلكُ مُستأنسٌ به
برأيٍ من السُّدُهِرِ المُضِلِّ فاسدٍ
أذلُّ بني ماء السَّمَاءِ زمانهم
فِيَالَيْتَ شعري هل أبيتنَ لَيْلَةً
بمَنْبَةِ الزَّيْتُونِ موروثةً العلَا
بزهريها السَّامِي الدُّرَى جاده الحيا
ويلحظنا الزَّاهِي وسعدُ سعوده
تراهُ عَسِيرًا أم يَسِيرًا مناله
قضى الله في حِمَصِ الحَمَامِ وبُعْثَرِ
يقول صاحب الذخيرة : والثريا وسعد السعود والزاهي الذي ذكر في هذا الشعر

أسماء قباب ومصانع سلطانية كان تأتق في بانيها من قصور إشبيلية.

ومعنى هذا أن المعتمد وهو يندح على نفسه، يتذكر قصوره المشيدة في إشبيلية

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٧٥ ، ديوان المعتمد ص ٩٨ ، الأسر والسجن في شعر العرب د. أحمد البرزة ص ١٩ .

وحين يذكرها يزداد حنينه إليها، ويتمنى أن يعود لسكنائها والاستمتاع بمباهجها .. ولكن هيهات هيهات، فقد مضت تلك الليالي الحافلة بمباهج الترف ومجالس الأنس والطرب وللاعودة، ومما قاله المعتمد يتذكر به منازل فتشوقه، ويتصور بهجتها لتروقه، ويتخيل به استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قطّانه وسكانه وما آل إليه أمره من إظلام جوه من أقماره، وخلوه من حراسه، وسمّاره ما يلي : (١)

بَكَى الْمُبَارِكُ فِي إِثْرِ ابْنِ عَبَّادٍ بَكَى عَلَى إِثْرِ غَزْلَانٍ وَأَسْبَادِ
بَكَتْ ثُرَيَّا لَا غَمَتْ كَوَاكِبُهَا بِمِثْلِ نَوِّ الثُّرَيَّا الرَّائِحِ الْغِيَادِ
بَكَى الْوَحِيدُ، بَكَى الزَّاهِي وَقَبْتَهُ وَالنَّهْرُ وَالنَّجْمُ، كُلُّ ذَلِكَ بَادِي
مَاءُ السَّمَاءِ عَلَى أَفْيَائِهِ دَرٌّ يَالَجَّةَ الْبَحْرِ دُومِي ذَاتِ إِزْبَادِ

ولم تفارق الحسرة قلب المعتمد وهو في الأسر، فكلما مرّت الأيام وهو رهين محبسه تجددت حسرته، وأحدقت به غمته، فلا يجد متنفساً له إلا الشعر يبيث فيه أحزانه، ويشكو زمانه ومن ذلك قوله : (٢)

كُنْتُ حَلَفَ النَّدَى وَرَبِّ السَّمَاحِ وَحَبَّيْبِ النَّفْسِ وَالْأَرْوَاحِ
إِذْ يَمِينِي لَلْبَذْلِ يَوْمَ الْعَطَايَا وَلِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ يَوْمَ الْكَفَايحِ
وَشِمَالِي لِقَبْضِ كُلِّ عَنَانٍ يَقْحَمُ الْخَيْلُ فِي هِجَالِ الرَّمَايحِ
وَأَنَا الْيَوْمَ رَهْنٌ أَسِيرٌ وَفَقِيرٌ مُسْتَبَاحُ الْحِمَى مَهْيَضُ الْجَنَاحِ

وكثيراً ما كان المعتمد يعقد نفس المقارنة بين حاله قبل الأسر، وحاله في الأسر والحبس، فكما قارن بين حاله في الأبيات السابقة عقد نفس المقارنة بأسلوب آخر في الأبيات التالية والتي يقول فيها : (٣)

لَكَ الْحَمْدُ مِنْ بَعْدِ السُّيُوفِ كَبُولُ بِسَاقِيٍّ مِنْهَا فِي السُّجُونِ حُجُولُ
وَكُنَّا إِذَا حَانَتْ لِنَحْرٍ فَرِيضَةٌ وَنَادَتْ بِأَوْقَاتِ الصَّلَاةِ طُبُولُ
شَهِدْنَا فَكُنَّا بِرَنَا فَظَلَّتْ سِوْفُنَا تُصَلِّي بِهَا مَاتِ الْعِدَا فُتْطِيلُ

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٤٧ عن قلائد العقيان ص ٣. (٢) الشعر والبيئة في الأندلس ميشال عاصي ص ٨٧.

(٣) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٧٧ ، الديوان ص ١١١.

سُجُودٌ عَلَىٰ إِثْرِ الرُّكُوعِ مُتَابِعٌ هُنَاكَ بِأَرْوَاحِ الْكُفَاةِ تَسِيلٌ
ولقد ظل المعتمد علي هذا الحال من البكاء والنحيب ، والتحسر على ما فات ،
كما استمر في التعبير عن معاناته حتى أحس بدنو أجله ، وقرب نهايته نعى نفسه بأبيات
حزينة تعبر عن مدى ألمه وبأسه ، وشعوره بالظلم والضياع ، فكان أسبق ملوك الأندلس
إلى رثائه نفسه ، وكانت أبيات رثائه هذه آخر صرخة له يريد بها أن ينتصف بها لنفسه
من الزمان ومن غدر الأيام ، ووصى بأن تثبت على قبره ، وفيها يقول : (١)

قَبْرَ الْغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الْغَادِي	حَقًّا ظَفَرْتُ بِأَشْـلَاءِ ابْنِ عَبَّادٍ !
بِالْحِلْمِ ، بِالْعِلْمِ ، بِالنُّعْمَى إِذَا اتَّصَلَتْ ،	بِالْخُصْبِ إِنْ جَدُّوْا ، بِالرِّيِّ لِلصَّادِي
بِالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إِذَا اقْتَتَلُوا ،	بِالْمَوْتِ أَحْمَرَّ ، بِالضَّرِّ غَامَةَ الْعَادِي
بِالدَّهْرِ فِي نَقَمٍ ، بِالْبَحْرِ فِي نَعَمٍ ،	بِالْبَدْرِ فِي ظَلَمٍ ، بِالصَّدْرِ فِي النَّادِي
نَعَمْ ، هُوَ الْحَقُّ وَأَفَانِي بِهِ قَدَرٌ	مِنَ السَّمَاءِ فَوَافَانِي لِمِيعَادٍ
وَلَمْ أَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ النُّعْشِ أَعْلَمُهُ	أَنَّ الْجِبَالَ تَهَادَى فَوْقَ أَعْوَادٍ
كَفَاكَ ، فَارْفُقْ بِمَا اسْتَوْدَعْتَ مِنْ كَرَمٍ	رَوَاكَ كُلُّ قَطُوبٍ الْـسَّبْرُ رِعَادٍ
يَكُنِّي أَخَاهُ الَّذِي غَيَّبَ وَابِلُهُ	تَحْتَ الصَّفِيحِ بَدْمَعُ رَائِحِ غَادِي
حَتَّى يَجُودَكَ دَمْعُ الطَّلِّ مِنْهُمْ رَأً	مِنْ أَعْيُنِ الزَّهْرِ لَمْ يَبْخُلْ بِأَسْعَادٍ
وَلَا تَزَلْ صَلَوَاتُ اللَّهِ دَائِمَةً	عَلَى دَفِينِكَ لَا تَحْصِي بِتَعْدَادٍ

ولقد أفاض المعتمد بن عبّاد في الحديث عن نفسه ، ووصفها بالعديد من الصفات
الحسنة مثل العلم ، والحلم ، والكرم ، والشجاعة ، والقدرة على الرمي والضرب ، كما
وصف نفسه بأنه جبار كالدهر ، كريم كالبحر ، ينير في الظلماء كالبدْر ، له الصدر في
النادي ، ثم يعود فيستسلم للقدر ، ويطلب من قبره أن يرفق به ، ويدعو لقبره بالسقيا ،
والمعتمد عندما يفرط في مدح نفسه ، ويعدد محاسنه وصفاته ، لا يفعل ذلك زهواً ولا

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٧٥ ، والديوان ص ١٩٣ - ١٩٤ ، رثاء المدن والممالك د. عبد الرحمن حسين
ص ١٥٩ ، المعتمد بن عبّاد لعلي أدهم ص ٣٢٨ .

تكبراً فهو لا يملك من أمر نفسه شيئاً، وهو يعلم أنه قد تعرّى تماماً من جميع هذه الصفات ، وأنها قد ولّت عنه إلى غير رجعة، وولّى زمانها ولن يعود، ولكنه يخفف عن نفسه ويعزيها باجتراره لماضيه المجيد، كما يذكر الناس جميعاً بأمجاده، وكريم فعاله ، حتى لا ينسوه مع الأيام، خصوصاً وأنه على وشك أن يطويه قبره، ويخترمه الموت ، فينتهي أجله ^(١) .

وجهة نظر نقدية :

بعد أن عرضنا نماذج كثيرة من شعر النكبة عند المعتمد بن عباد نقول : نحن مع من ذهب إلى أن شعر المعتمد ^(٢) على وجه العموم شعر وجداني يفيض بالطبع والحنين مع سلامة التركيب ، وسهولة الألفاظ، ولقد انعكف فيه على نفسه، وجعله تعبيراً عن مشاعره الخاصة، ولم يخل أدبه من سمات الأصولية، ومحاكاة الأساليب الفنية التقليدية، لكنه في تحوله نحو المنابع الذاتية عند الشاعر استطاع أن يحمل نبضاً من الأصالة التي طبعته بسمات من اهتمامات الشاعر، ومعاناته الوجدانية الخاصة، وضعته جميعاً على دروب الانطلاق نحو التجديد الأندلسي في الشعر، ولقد أثرت النكبة في شعر المعتمد بن عباد فحولته من التكلف إلى الطبع، وصبغته بالوجدانية القوية، كما دفعته نكبته إلى التحول بمضمون الشعر نحو موضوعات لم يتطرق إليها قبل وقوع النكبة، فشعره قبل نكبته ومحنته « كان شعراً مترفاً أنيقاً يميل ^(٣) إلى شيء من الصنعة، ويدور حول المدح والحماسة، والوصف والغزل والعتاب، والرثاء، وبرز بروزاً واضحاً في وصف مجالس السرور، ووصف المعارك، والتغني بالانتصارات، فلماً وقعت النكبة، وحلّت بساحته المحنة، ووقع أسيراً، وألقى به في غياهب السجن في أغمات، يرسف في قيوده، أصبح شعره أصدق عاطفة وأشدّ تأثيراً في النفس، ولا ريب، فقد كان يعبر في هذا الشعر عن حاله التي يختبرها في حاضره، ففي هذا الشعر صور مرارة السجن، وآلام النفي » .

(١) يتصرف عن كتاب رثاء المدن الممالك د. عبد الرحمن حسين ص ١٥٩ .

(٢) الشعر والبيئة في الأندلس ، د. ميشال عاصي ص ٨٦ .

(٣) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ، ج ٤ ص ٧١٥ - ٧١٦ .

وقد فاض هذا الشعرُ بالتحسُّر على الماضي الذي أدير مؤلياً ، وتمني الأمنيات البعيدة التحقق، وكثيراً ما لجأ إلى أسلوب المقارنة بين ماضيه وحاضره، ومن الواضح البين في شعر المعتمد بعد النكبة الإكثار من الفخر بنفسه، وذكر محاسنها، والسمات التي كان يمدح بها، من أصالة، وشجاعة، وجُرأة، وإقدام، وجود وكرم، وحلم .. إلخ، وفي ذلك لون من ألوان التأسّي والتعزيّ لأنه ليس في حالة تسمح بالفخر والتباهي، كما أنها محاولة لتذكير الناس بشخصه حتى يظل محطّ أنظارهم ، ومركز اهتمامهم، خصوصاً وأنّه يفخر بصفات ولّت وانتهت، وأصبح من المستبعد عودتها ولمس آثارها، كما أن هذا الفخر يكشف عن أنفةٍ لخمّية، وعزةٍ عربية كان المعتمد يتمتع بهما، و ظل يتمتع بهما إلى آخر رمق.

وبالرغم من هذا فإنه لا يخفي على المتأمل في شعر المحن والنكبات عند المعتمد أن شاعرنا هذا كان يلازمه شعور كثيراً ما لازم عظماء الرجال، والقمم الشامخة منهم حينما يسقطون سقوطاً مروّعاً هذا الشعور هو الشعور بالاضطهاد من قبل القوى الخارجية، وقد تضخم الشعور بالاضطهاد، بل والإحباط عند المعتمد حتى ذهب به مذهباً من التهويل رأى نفسه فيه ومن خلاله في مركز العالم، بل الكون، فانهال^(١) باللوم و التقرّيع على زمانه لما ألحق به من الإساءة، وما سبب له من السقوط، وهو ادّعاء فيه تجاوز واضح، إلا أن الشاعر كان صادق الإحساس مع نفسه إذ أنه كان يعاني تجربة السقوط المروعة، ما بين ماضيه العزيز، وحاضره البائس الذليل، ولذلك كثيراً ما عقد مقارنات واضحة بين الماضي والحاضر، ومن النصوص الشعرية الدالة على ذلك إضافة إلى ما سبق ما يلي : (٢)

أَبَى الدَّهْرُ أَنْ يَقْنِي حَيَاءً وَيَنْدَمَا	وَأَنْ يَمْحُو الذَّنْبَ الَّذِي كَانَ قَدَمَا
وَأَنْ يَتَلَقَّى وَجْهَ عَتِيٍّ وَجْهَهُ	بِعُذْرِ يَغْشَى صَفْحَتِهِ السُّتْدَمَا
سَتَعْلَمُ بَعْدِي مَنْ تَكُونُ سَيُوفُهُ	إِلَى كُلِّ صَعْبٍ فِي مَرَاqِيكَ سَلْمَا

(١) الأسر والسجن في شعر العرب د. أحمد مختار البرزة ص ٤٦١ .

(٢) السابق مع ديوان المعتمد ج ١١٤ .

سَرَّجِعْ إِنْ حَاوَلْتَ دُونِي فَتُكَّةً بِأَخْجَلٍ مِنْ خَدِّ الْمُبَارِزِ أَحْجَمًا

أرأيت كيف يلقي باللائمة على الدهر، بل ويعنفه ، ويشير إلى أن الدهر سيندم لأنه لن يجد بديلاً للمعتمد يرقى به إلى سلم المجد ، ويحقق المفاخر ...؟

كما أن المعتمد كثيراً ما كان يرسم في شعر نكبته ومحتته جيشان الألم المكبوت، ويصور الألم الطافح للملك جبار قويّ العارضة، تحول صديقه إلى عدو لدود، وشنّ عليه حرباً خاطفة مدمرة، وانتصر عليه انتصاراً ساحقاً، وأوقع به أسيراً، وجردّه من ملكه، وأسقط تيجانه، وضيعّ صولته وصولجانه، ولحقت به إلى جانب ذلك محنٌ آخر غير محنة الأسر كمحنة مقتل أولاده الواحد بعد الآخر، وتشرّد بناته، وتحوّلهنّ إلى خادِمات يعملن بالأجر الزهيد طلباً للقوت، كما لجأ ولده فخر الدولة إلى العمل كنافخ كبير في سوق الذهب والفضة فأصبح يتنشق نتن دخان الفحم بعد أن كان لا يشم إلا عبق العود، وطيب الندّ ، فظل المعتمد يكابد آلام محتته، بل إن شئت فقل : يكابد آلام محنه المتعددة ، ونكباته المتآزرة والتي اجتمعت عليه مرة واحدة في صورة لا توصف بأقل من كونها لوناً من ألوان الاشتعال الذاتي الداخلي، فهو رجل عظيم النفس عزيزها، جبل على الشجاعة والإقدام وحب البطولة، وما يوم معركة الزلاقة يبعد .

وقد تعود على سماع عبارات التبجيل والتعظيم ، وكلمات الشناء من أكبر عدد من الشعراء ، وها هو يواجه مصيره البائس مجبراً مقهوراً ، وللتثبت من حقيقة هذا الأمر فلننأمل تلك الأبيات : (١)

إِلَى هَزِّ كَفِّي طَوِيلِ الْحَنِينِ	كَذَا يَهْلِكُ السَّيْفُ فِي جَفْنِهِ
وَلَمْ تَرَوْهُ مِنْ نَجِيعِ يَمِينِي	كَذَا يَعْطَشُ الرُّمْحُ لَمْ أَعْتَقْلَهُ
مُرْتَقِبًا غَرَّةً فِي كَمِينِ	كَذَا يَمْنَعُ الطَّرْفُ عِلَّكَ الشَّكِيمِ (٢)
تُرَاعِي فَرَائِسَهَا فِي عَرِينِ	كَأَنَّ الْفَوَارِسَ فِيهِ لِيُوثُ
مِمَّا بِهِ مِنْ شِمَاتٍ الْوَتِينِ (٣)	أَلَا شَرَفٌ يَرْحَمُ الْمُسْتَشْرِفِي

(١) ديوان المعتمد بن عباد ص ١١٦ ، الأسر والسجن في شعر العرب د. أحمد مختار البرزة ص ٤٧٦ .

(٢) علك الشكيم : شدة الأنفة . (٣) شِمَاتِ الْوَتِينِ : فرح شريان القلب في بلية السيف المعطل في غمده .

أَلَا كَرَّمَ يَنْعَشُ السَّمْهَرِيُّ وَيَشْفِيهِ مِنْ كُلِّ دَاءٍ دَفِينِ
أَلَا حَنَّةَ لَابْنِ مَحْنِيَّةٍ (١) شَدِيدَ الْحَنِينِ ضَعِيفَ الْأَنِينِ
يُؤْمَلُ مِنْ صَدْرِهِ صَمَّةٌ تَبَوُّؤُهُ صَدْرُ كَفٍّ مُعِينِ

ففي هذه الأبيات تحس الألم المكبوت في صدر الأسد المحبوس، وهو يرى حرمانه تنتهك فيحن إلى سيفه ورمحه وقوسه، ويتصور أنها جميعاً تحنُّ إليه، وتشتاق إلى لقيائه، كما يحن إلى ميادين القتال حنين النيب .. وهكذا ندرك كيف حولت النكبة شعر المعتمد إلى وجهة مغايرة لما كان عليه قبلها، وأحدثت فيه تغييراً في الشكل والمضمون والصور والمعاني، وهذا واضح جداً في شعر سنوات الأسر الأربع (٤٨٤ - ٤٨٨ هـ) وحتى وفاته في سجنه ومنفاه .

(١) ابن مَحْنِيَّة : القوس وسهمه .

رفع
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(٢) « عَزَّ الدَّوْلَةُ الصُّمَادِحِي »

التعريف بالشاعر :

هو الواثق عَزَّ الدولة أبو مروان ^(١) عبد الله بن محمد المعتصم بن معن بن صمادح، كان والده محمد المعتصم بن معن بن صمادح صاحب المرية ووارث حكمها عن أبيه، وقد أقام ابنه الواثق عَزَّ الدولة ولياً لعهدِهِ وهياً لتولي الملك من بعده، إلا إنه لما جاز يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين إلى الأندلس للمرة الثالثة عام ٤٨٣ هـ وفي نيته استئصال شأفة ملوك الطوائف، والاستيلاء على الأندلس، رأى المعتصم بن صمادح أن يتحايّل على يوسف ويخدعه لعله يترك المرية ولا يستولي عليها، فبادر بإرسال وليّ عهده ابنه الواثق عَزَّ الدولة إليه ليهنئته بانتصاراته وفتوحاته، إلا أن يوسف بن تاشفين لم يخدع واعتقل عَزَّ الدولة وسجنه مقيداً، وظل عَزَّ الدولة في سجن يوسف فترة حتى احتال والده في إنقاذه، ونجح في نقله عن طريق ثغر مالقة إلى المرية، وأوصاه بأن يفرّ هارباً وينجو بنفسه، وأهله إذا استولى ابن تاشفين على المرية.

وفي سنة ٤٨٤ هـ حاصر ابن تاشفين المرية في الثلث الأخير من شهر ربيع الأول، واستولى عليها، وكان المعتصم في النزاع الأخير من حياته، يعالج سكرات الموت على فراشه فلما أفاق لفترة وسمع قعقة السلاح، وصليل السيوف، واختلاط الأصوات قال كلمته الأخيرة : « لا إله إلا الله نغصّ علينا كل شيء حتى الموت » !! .

ولما مات ركب ابنه ووليّ عهده عَزَّ الدولة البحر، وفارق الملك كما أوصاه والده، وانتقل إلى شمال إفريقية، ولجأ إلى أحد أصدقائه في بجاية الأندلس وهي الجزائر اليوم،

(١) تاريخ الأدب العربي : د. عمرو فروخ ج ٥ ص ٧٧ ، وفي نفح الطيب ج ٣ ص ٣٦٧ هو الواثق عَزَّ الدولة أبو محمد عبد الله وفي الحلة السيرة ج ٢ ص ٩٠ هو أبو مروان عبيد الله .

وعاش هناك في كنفه، وقد فقد ملكه، وقنع بحياة الدعة والراحة، ولم ينهض يوماً إلى استرداد ملكه وملك أبيه وقد صاحب يحيى بن أبي بكر عندما سار لفتح طليطلة سنة ٥٠٤هـ، ولم يعيش بعدها طويلاً، بل وافته منيته في غضون تلك السنة .

وعز الدولة شاعر، ورث الشعر عن أبيه، كما كان أخوه رفيع الدولة الحاجب أبو زكريا يحيى بن المعتصم شاعراً أيضاً، وكانت أختهما أم الكرم بنت المعتصم شاعرة هي الأخرى ..

نكبة عز الدولة الصمادحي :

نكب عز الدولة مرتين : الأولى في حياة أبيه عندما أرسله ليهنئ ابن تاشفين بالفتح والانتصار كعادة ملوك الطوائف في شماتة بعضهم في بعض ، وقد فطن زعيم المرابطين لحيلة ابن صمادح فبادر بحبس ولده وولي عهده مقيداً ، وذلك إمعاناً في إذلاله ، وقد بادر أبوه فاحتال حتى أنقذه بعد فترة .

أما الثانية فتتمثل في فقدته لملكه وملك أبيه وجده باستيلاء المرابطين على المرية ، وفراره إلى بجاية، وتحوله من حياة الملك والأبهة إلى حياة الدعة والخمول والفقر ... وظل كذلك حتى وفاته في غضون سنة ٥٠٤هـ ..

أثر النكبة في شعر عز الدولة الصمادحي :

بطبيعة الحال لا بد أن يظهر للمحن والنكبات أثر في شعر من نزلت به ، لاسيما إذا كان من أصحاب الحس المرهف ، وإذا كانت المحنة ذات تأثير في حياته بحيث تحدث فيها نوعاً من التحول إلى نقيض ما كانت عليه، وهذا ما حدث مع عامة الشعراء الذين نكبوا، ولكنه كان مع الأمراء والملوك والوزراء أشد وقعاً .

ولذلك عندما سجن عز الدولة الصمادحي بأمر ابن تاشفين ورأى نفسه وقد ضاقت عليه قيوده، وأظلمت دنياه كتب إلى أبيه يقول : (١) .

(١) تاريخ الأدب العربي : د. عمر فروخ ج ٥ ص ٧٨ .

أبعد السنّا والمُعالي خُمُولُ ؟ !!
 وَمَنْ بَعْدَ مَا كُنْتُ حُرّاً عَزِيزاً
 حَلَلْتُ رَسُولاً بِغُرْنَاطِيَّةٍ
 وَتَقَفْتُ إِذْ جِئْتُهَا مُرْسَلاً،
 فَقَدْتُ الْمُرِيَّةَ أَكْرَمَ بِهَا !!
 وَبَعْدَ رُكُوبِ الْمَذَاكِي (١) كَبُولُ ؟ !
 أَنَا الْيَوْمَ عَبْدٌ أَسِيرٌ ذَلِيلُ ؟ !
 فَحَلَّ بِهَا بِي خَطْبٌ جَلِيلُ
 وَقَدْ كَانَ يُكْرِمُ قَبْلِي الرَّسُولُ
 فَمَا لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا سَبِيلُ

الأيّيات على قلتها تعبّر عن ردّ الفعل المنعكس كما يقول أصحاب علم النفس ، فإن الشاعر قد حدث له مالم يكن يتوقعه فهو رسول مبعوث من والده ، ومن عادة الموك والأمرء أن يكرموا الرسول ولا يهينوه خصوصاً إذا كان مسالماً ، ولم تعلن الحرب بين المرسل والمرسل إليه بعد ، ولكنّ الشاعر قد فوجئ بأمر القبض عليه واعتقاله ، ووضع القيود والأغلال في يديه ورجليه .. يالها من إهانة بالغة !!

ومن هنا نقرأ الدهشة والعجب في رسالة الشاعر إلى أبيه والتي بدأها بأساليب استفهامية الغرض البلاغي منها التعبير عن الدهشة ، بل والاستنكار .. فهو يقول :

أبعد العز ، ومراتب الرفعة والشرف أصبح في سجنني خاملاً ؟ أبعد ركوب الخيل العتاق في ميادين الوغى ، أصبح مقيداً أرُسُف في أغلالني ؟ ! ، أبعد الحرية والعزة الغامرة ، أصير عبداً ذليلاً أسيراً لا حول ولا طول لي ؟ !

وبالغرابية ما حدث ، فأنا لم أرتكب ما يوجب هذه العقوبة ، وما كنت إلا رسولاً للتهنئة ، وقد كان يُكرم قبلي الرسول ، ولكنني أهنت بحبسي وتكبيلي بالأغلال بدلاً من الإكرام .. وقد أيقن الشاعر من فعل ابن تاشفين معه أن المُرِيَّة - التي لم تكن قد هاجمها المرابطون بعد - ضائعة لا محالة ، ولذلك عبّر بصيغة الماضي بقوله : « فقدت المُرِيَّة » ، وأكدّ فقدانها بقوله : فما للوصول إليها سبيل .. لأنه كان يعرف الهدف من حبسه ، ألا وهو إرغام والده على التخلي عنها بدون مقاومة ..

(١) المذاكي : الخيول .

ولما لجأ عز الدولة إلى صديقه في بجاية الأندلس (الجزائر) الآن ، وأصبح خامل الذكر، وتعرى من أبهة الملك ووصلجانه بعد استيلاء المرابطين على المربة ، وكذلك موت أبيه أثر هذا التحول في نفسه وظهر أثره في شعره ، بل وفي سلوكه بعامة يحكي ابن اللبانة قائلاً :^(١)

« ما علمت حقيقة جورِ الدهرِ حتي اجتمعت ببجاية مع عز الدولة بن المعتصم بن صمادح ، فإني رأيت منه خير من يجتمع به ، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تنم من تحت حموله ، كما ينم فرند السيف وكرمه من تحت الصدأ ، مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ وحسن إسماعه ، ورقة طباعه ولطافة ذهنه ، ولقد ذكرته لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان ، ووصفته بهذه الصفات فتشوق إلى الاجتماع به ، ورغب إلي في أن استأذنه في ذلك ، فلما أعلمت عز الدولة قال : يا أبا بكر . لتعلم أنا اليوم في خمول وضيق ولا يتسع لنا معهما ، ولا يجمع بنا الاجتماع مع أحد ، لا سيما مع ذي أدب ونباهة يلقانا بعين الرحمة ، ويزورنا بمنة التفضل في زيارتنا ، ونكابد من ألفاظ توجعه ، وألحاظ تفجعه ما يجدد لنا همّاً قد بلي ، ويحيي كمداً قد فنى ، وما لنا قدرة على أن نجود عليه بما يرضي به عن همّتنا ، فدعنا كأننا في قبر ، نندرع لسهام الدهر بدرع الصبر ، وأما أنت فقد اختلط بنا اختلاط اللحم بالدم ، فكأننا لم نكشف حالنا لسوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا ، فلا تحمل غيرك محملك .

قال ابن اللبانة : فملاً والله سمعي بلاغة لا تصدر إلا عن سداد ونفس أبيّة متمكنة من أعنة البيان ، وانصرفت متمثلاً قول القائل :

لَسَانُ الْفَتَى نَصْفٌ وَنَصْفٌ فُرَادَهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ
وَكَأَنَّ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجَبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ

وما رواه ابن اللبانة يدل على تأثير نكبة ضياع الملك ، وإدبار أيام العز في سلوك عز

(١) نفع الطيب ج ٣ ص ٣٦٨ ، وابن اللبانة هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني توفي سنة ٤٠٧ هـ . وهو من أبرز شعراء ملوك الطوائف ، وفيه وفاء لكل من مدحهم وعاش في كنفهم .

الدولة ، فإنه يأبى أن يقابل أحداً حتى لا يشعر بنظرات الشفقة ، ولا يسمع كلمات المواساة ، فتتجدد أحزانه ، وتشب من جديد في قلبه نيران الأسى ، ثم يقف موقف العاجز عن العطاء الذي يرضي محدثه ، لأنه أصبح فقيراً خاملاً لا يملك من حطام الدنيا نقيراً ولا قطميراً ، وقد عبر عن هذه الحالة المثيرة للأسى في شعره شاكياً باكياً وذلك بقوله : (١)

لَكَ الْحَمْدُ ، بَعْدَ الْمُلْكِ أُصْبِحُ خَامِلاً
وَقَدْ أَصْدَأْتُ فِيهِ الْهُوَادَةَ مُنْصَلِي ، (٢)
وَلَا مَسْمَعِي يُصْغِي لِنَغْمَةِ شَاعِرٍ ،
طَرِيداً شَرِيداً لَا أَوْمِلُ رَجْعَةً
وَقَدْ كُنْتُ مَتَبوعاً فَأَصْبَحْتُ تَابِعاً
وَقَوْلِي مَسْمُوعٌ وَفَعْلِي مُحْكَمٌ
وَقَدْ كُنْتُ غَرّاً بِالزَّمَانِ وَصَرَفِهِ ،
بِأَرْضٍ اغْتَرَابَ لَا أَمْرٌ وَلَا أَهْلِي
كَمَا نَسِيتُ رَكْضَ الْجِيَادِ بِهَا رِجْلِي
وَكَفَنِي لَا تَمْتَدُّ يَوْماً إِلَى بَذَلٍ ،
إِلَى مَوْطِنٍ بُوْعِدْتُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِي
لَدَى مَعَشَرٍ لَيْسُوا بِجِنْسِي وَلَا شَكْلِي ،
وَهَا أَنَا لَا قَوْلِي يَجُوزُ وَلَا فِعْلِي
فَقَدْ بَانَ قَدْرُ الْعِزِّ عِنْدِي وَالسُّدُلُ

في الأبيات السابقة نسمع صوت الشاعر يغلبه نشيجه ، فنسمعه يحمده الله الذي لا يحمد على مكروهه سواه ، ثم يشكو إليه عز وجل ما أصبح فيه من خمول الذكر بعد صولجان الملك والإمارة ، كما يشكو غربته التي بات فيها لا يملك من أمره شيئاً ، كما أنه لا يضُرُّ ولا ينفع وسيفه قد علاه الصَّدَأُ لطول بقائه في غمده بلا عمل ، ونسي كيف تمتطى صهوات الجياد ، ورجله قد نسيت كيف كانت تهمز جواده تستحبه على السرعة والكرّ والفر والإقبال والإدبار ، بمعنى أنه قد افتقد كل أصول الفروسية لديه فوجدها قد ضاعت منه في غربته ، والشاعر قد تعودت أذناه على سماع أحاديث الشعراء ، وكانت تطربه موسيقى أشعارهم ، وهم يصفون ويمدحون وينشدون ، فيمدُّ يده بالعطايا والهبات ، ولكنه في غربته الآن لم يعد يصغي إلى شعر الشعراء ، لأنه أصبح غير قادر على البذل والعطاء ، لأنه أضحي طريداً شريداً لا أمل في عودته إلى موطنه وملكه

(١) نفع الطيب ج ٣ ص ٣٦٨ ، تاريخ الأدب العربي : د. عمر فروخ ج ٥ ص ٧٩ .

(٢) الهوادة : السكون والبقاء بلا حركة ، منصلي : سيفي .

وملك آبائه بعد أن استولى عليه المرابطون ، بل أصبح بعيداً عن الأهل والأحباب أيضاً، وهذا مما يضاعف أساه، وقد تبدلت به الحال، فبعد أن كان متبوعاً يقصده الناس قاصيهم ودانيهم أصبح الآن تابعاً لغيره، ومما يمزق فؤاده ويزيد في آلامه أنه الآن يتبع من هم أقل منه منزلة ومكانة، كما كان في الماضي إذا أمر يطاع، وإن قال يسمع لقوله، وإن فعل صدق الكل على فعله، ووصفوه بأنه الصواب، وها هو الآن لا يسمع له قول، ولا يجوز له فعل، وقبل المحنة كان يعيش في بحبوحة ورغد أنسياء كل شيء حتى جهل تقلبات الزمان، ولم يعرف شيئاً عن مصائبه، وها هو الآن قد نكبه زمانه، فعرف قدر العز والذل، كل هذه الأمور والتقلبات اجتمعت على الشاعر حتى صرخ من هول ما ألم به قائلاً :

إِنْ يَسْلَمِ النَّاسُ مِنْ هَمٍّ وَمِنْ كَمَدٍ فَإِنِّي قَدْ جَمَعْتُ الْهَمَّ وَالْكَمَدَ
لَمْ أَلْقِ مِنْهُ لَغِيرِي مَا يُحَاذِرُهُ ، فَلَيْسَ يَقْصِدُ دُونِي فَيُورِي أَحَدًا

وصرخة الشاعر هذه تعني أن كل ألوان الهم والنكد والكمد قد اجتمعت عليه حتى لم يبق أحد من الناس يخشى أن يحل عليه شيء من ذلك لأنها قد انصبّت على الشاعر وحده .

نظرة نقدية :

لقد كان عز الدولة الصّمّادحي شاعراً قوياً العارضة يتميز شعره بالبلاغة والفصاحة، وقوة السبك وتنوع أغراضه فقال في النسيب، والوصف، والثناء، والفخر إلا أن النكبة قد حولت شعره إلى البكاء على الملك المضاع والشكوى من تبدل الحال من العز إلى الذل، ومن الغنى إلى الفقر، وقد رأينا كيف أثرت النكبة في سلوكه أيضاً، فأصبح يتورأى من الناس خشية أن يلمح في عيونهم نظرات الإشفاق عليه والثناء لحاله من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه بات غير قادر على أن يبذل لزاثره من العطايا والهبات ما تعود عليه، فأثر أن يحتجب عن الناس ولا يلقاها .

وكثيراً ما مال بشعره إلى أساليب الاستفهام التي تحمل معنى الإنكار تارة، ومعنى التعجب والدهشة تارة أخرى، وكثرت في شعر النكبة عند عز الدولة الصّمّادحي

الأساليب الخبرية الدالة على التحسر غالباً، وهي الأفضل استخداماً في مثل حالته لأنه يحكي ما حدث له وحلّ به .

والتأمل في هذا اللون من الشعر يرى كثرة المقابلات وألوان الطباق الدالة على تبدل الأحوال من النقيض إلى نقيضه، كما لجأ إلى أسلوب الكناية كقوله : (لا أُمّر ولا أُحلي) كناية عن أنه أصبح لا يضر ولا ينفع، والبيتان الأخيران اللذان استهلهما بقوله : « إن يسلم الناس من هم ومن نكد »

كناية عن اجتماع الهموم عليه وحده دون العالمين .. ، وهكذا نلمس بوضوح أثر النكبة في شعر عز الدولة، ومن اللافت للانتباه أننا لم نعثر له على شعر أكثر مما عرضناه برغم أن المقرئ في كتابه نفح الطيب مدحه قائلاً : « لقد كان أشعر من أبيه » وربما يكون نتاجه من الشعر قد اندثر فيما اندثر من شعر الأندلسيين .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أُسْلَمَ النِّمَّ الفزوني

(٣) « أَبُو بَكْرُ بْنُ سَوَّارِ الْأَشْبُونِي »

التعريف بالشاعر :

هو الوزير الكاتب أبو بكر محمد^(١) بن سوار الأشبوني ، كان يقول الشعر تحبباً لا تكسباً ، وكان يمدح ملوك الطوائف وفاءً لا استجداءً ، فلما خلع ملوك الأندلس حالت به الحال ، وتقسمه الإدبار والإقبال ، ثم أسره العدو بعقب محنة ، وبين أطباق فتنة ، وقيد بقورية من عمل الطاغية ابن « فرزلند » ، ثم خرج من وثاقه خروج البدر من محاقه وعاش بعدها في كنف القاضي أبي الحسن علي بن القاسم بن عشرة ببلاد المغرب ، وهو من شعراء الذخيرة ولم تسعفنا المراجع التي بين أيدينا بشيء من ترجمته أكثر مما ذكرنا ، ولكن من خلال اتصاله بأبي الحسن بن عشرة ، وكذا اتصاله بالقاضي ابن حمدين الذي تولى القضاء سنة ٥٢٩ هـ في أيام ولاية يحيى بن علي بن غانية المتوفى سنة ٥٤٣ هـ نستطيع أن نقول : إن هذا الشاعر عاش في الفترة من سنة ٥٠٠ للهجرة إلى سنة ٥٥٠ هـ تقريباً لاسيما أن مدينة إشبونة التي ينسب إليها قد سقطت في يد الفرنجة سنة ٥٤٢ هـ وهي السنة التي وقع فيها في أسر الطاغية ابن « فرزلند » وبقي عاماً في الحبس في مدينة « قورية » كما أشار في قصيدته إلى ابن حمدين هذا ، وهي الفترة التي لمع فيها نجم قضاة بني العشرة ومنهم أبو الحسن علي بن القاسم بن عشرة الذي عاش الشاعر في كنفه بعد فكاكه من الأسر ، وكانوا يقطنون مدينة سلا قرب الرباط في بلاد المغرب ، والله أعلم .

(١) الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٨١١ ، وفي نفح الطيب ج ٣ ص ٦١٢ إشارة إلى أن اسمه محمد بن عيسى بن سوار الأشبوني ، وقد وردت تلك الإشارة في معرض حديث عن القاضي الفقيه علي بن القاسم بن محمد بن عشرة أحد رؤساء المغرب .

نكبة ابن سوار الأشبوني :

كما أشرنا عند تعريفنا بالشاعر أنه ساقه سوء طالعهِ إلى الوقوع في قبضة الفرّنجة أسيراً إيان ما عرف بفترة حروب الأسترداد ، وهي الفترة التي توالى فيها سقوط المدن الأندلسية مع بدايات القرن الخامس الهجري ومن المدن التي سقطت مدينتا إشبونة وشتترين في غرب الأندلس ، وقد سقطتا سنة ٥٤٢هـ، والأولى هي بلد الشاعر التي ينسب إليها، وقد نقل عقب أسره إلى السجن في مدينة قورية، وفي السجن ذاق ألوان الهوان والامتهان، لأن هذا ما كان يفعله النصارى مع أسراهم من المسلمين لكي يجبروهم على الارتداد عن دين الإسلام، ومكث في سجنه عاماً أسود من ليل الشتاء الطويل المظلم حتى افتدى نفسه مستعيناً بأهل المروءة بعد الله في دفع الفدية وفك أسره، ومنحه حريته، وما أن خرج من سجنه حتى لحق بالقاضي أبي الحسن بن عشرة، ولازمه في (سلا) ببلاد المغرب نديماً له، وجليساً يقارضه الشعر، ومن مطارحاتهما ما رواه المقرئ في نفح الطيب بقوله : ^(١) « خرج القاضي الفقيه أبو الحسن علي بن القاسم بن محمد بن عشرة أحد رؤساء المغرب الأوسط في جماعة من أصحابه منهم محمد بن عيسى بن سوار الأشبوني، ورجل يسمى بأبي موسى خفيف الروح، ثقیل الجسم، فجعل أبو موسى هذا يعبث بالحاضرين بأبيات من الشعر يقولها فيهم، فصنع القاضي أبو الحسن معابثاله :

وشاعرٍ أثقلَ من جسمِهِ ...

ثم استجاز ابن سوار فقال على البديهة :

تأتي معانيه على حكمِهِ

يَهْجُو فَلَإِيْهْجِيْ فَهَلْ عِنْدَكُمْ ظُلَامَةٌ تُعْدي عَلَى ظُلْمِهِ؟

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٦١٢ .

لَسَانُهُ فِي هَجْوِهِ حَيَّةٌ مَنِيَّةُ الْحَيَّةِ فِي سُمِّهِ
يُصِيبُ سِرَّ الْمَرْءِ فِي رَمِيهِ كَأَنَّمَا الْعَالَمُ فِي عِلْمِهِ
أَمَّا أَبُو مُوسَى فَفِي كَفِّهِ عَصَا ابْنِهِ وَالسَّحَرُ فِي نَظْمِهِ

فشاعرنا هذا كان معدوداً من أصحاب البديهة الحاضرة دائماً أبداً .

أثر النكبة في شعر ابن سوار :

لقد أثرت نكبة الأسر في شعر ابن سوار الأشبوني تأثيراً واضحاً جداً يبدو جلياً في إسهابه في وصف كيفية وقوعه في الأسر، ثم وصف ما حدث له في محبسه من التعذيب النفسي والبدني، كما أنه أسهب في الشكوى من سوء ما ألمَّ به، وحزنه عليه ما أصاب أمه من حزن وكذلك أخواته الباقيات عليه .. وله في ذلك قصائد طوال منها ما قاله في سجنه وهو أسير معتقل بمدينة (قورية) يخاطب القاضي أبا الحسن بن عشرة، ويصف كيفية القبض عليه، وما لاقاه من ألوان الهوان قائلاً : (١)

وَلَيْلُ كَهَمِّ الْعَاشِقِينَ قَمِيصُهُ رَكِبْتُ دِيَابِجِيهِ وَمَرْكَبُهَا وَعَرُّ
سَرِيْتُ وَأَصْحَابِي يَمِيلُهُمُ الْكَرَى فَهَمُّ مَنَّهُ فِي سَكْرِ وَمَابِهِمْ سُكْرُ
رَمَيْتُ بِجِسْمِي قَلْبَهُ فَنَفَذَتْهُ كَمَا نَفَذَ الْإِصْبَاحُ إِذْ فَتَقَ الْفَجْرُ
وَلَمَّا بَدَأَ وَجْهُ الصَّبَاحِ تَطَلَّعْتُ خَيُولُ مِنَ الْوَادِي مُحْجَلَّةٌ غُرُّ
فَقُلْتُ لَهُمْ : خَيْلُ النَّصَارَى فَشَمَرُوا إِلَيْهَا وَكَرُّوا هَاهُنَا يَحْسُنُ الْكُرُّ
وَكَانَتْ حُمَيَّا النُّومِ قَدْ صَرَعَتْهُمْ فَفَلُّوْا وَوَلُّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا فَرُّوا
وَأَفْرَدْتُ سَهْمًا وَاحِدًا فِي كِنَانَةٍ مِنَ الْحَرْبِ لَا يَخْشَى عَلَى مِثْلِهِ الْكَسْرُ
وَكُنْتُ عَهْدْتُ الْحَرْبَ مَكْرًا وَخُدْعَةً وَلَكِنْ مَعَ الْمَقْدُورِ مَالًا مَرِيئُ مَكْرُ
فَطَاعَتْهُمْ حَتَّى تَحَطَّمَتِ الْقَنَا وَضَارَ بَتْنُهُمْ حَتَّى تَكَسَّرَتِ الْبَتَرُ
أُضْرَجُ أَثْوَابِي دَمًا وَثِيَابُهُمْ كَأَنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ عَطَرُ

(١) الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٨١٥ - ٨١٧ .

وَأَحْسَدَقَ بِي، وَالْمَوْتُ يَكْشُرُ نَابَهُ
فَأَعْطَيْتَهَا وَهِيَ الدُّنْيَةُ صَاغِرًا
فَطَارُوا وَصَارُوا إِلَيَّ مُسْتَقَرِّهِمْ
فَقَالَ الْعَذَارَى حَرِّقُوهُ مَقَارِضًا
فَجَاءُوا بِـأَنْوَاعِ الْكُبُولِ وَنَظَّمُوا
وَسَاقُوا كِلَابًا كَالْفُحُولَةِ أَجْسَمًا
فُسَبِّحَانَ رَبِّي مَا أَجَلٌ جَلَالُهُ
فَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَتْهَا
فَنَادَيْتُ فِي حَوْلٍ مِنَ الدَّهْرِ كَامِلٍ
وَأَنَّ وَرَاءَ الْبَحْرِ أَرْوَعٌ مَاجِدًا
أَلَا خَيْرَانِي ابْنِي أَبِي هَلْ أَنَا كُـمـَا
سَلَا عَنْ سَلَا هَلْ مِنْ عَلَيَّ حَقِيقَةٌ
أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا عَلَيَّ وَقَرِيبُهُ
بَعْدَلٍ عَلَيَّ تُعَمِّرُ الْأَرْضُ كُلُّهَا
حَنِينِي إِلَيْهِ مُوثَقًا وَمُسَرَّحًا

وَمَنْظَرُهُ جَهَنَّمُ ، وَنَاطِرُهُ شَزْرُ
وَقَدْ كَانَ لِي فِي الْمَوْتِ لَوْ يَدْنِي (١) عَذْرُ
يُصَاحِبُنِي ذُلٌّ ، وَيُصَحِّبُهُمْ فَخْرُ
فَمَنْ قَتَلَهُ الْفَتَيَانِ عَطَلَتْ الْبَكْرُ
سَلَاسِلَ فِي جَيْدِي كَمَا يَنْظُمُ الدَّرُ
لَهَا أَعْيُنُ خَضِرٍ مَلَا حَظَهَا شَزْرُ
تَخَلَّصَنِي مِنْهَا لَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ
بِمَا رَحِبَتْ مَا كَانَ فِي طُولِهَا فَنَرُ
أَلَا رَجُلٌ حُرٌّ ، أَلَا رَجُلٌ حُرٌّ
بَغْرَتُهُ الْغُرَاءُ يُسْتَنْزِلُ الْقَطْرُ
وَشَيْكَأُ عَنِ الْقَاضِي أَبِي حَسَنِ ذَكَرُ
فَإِنِّي فـf

بلغت القصيدة خمسا وعشرين بيتاً جاءت كلها تحكي قصة وقوع الشاعر في الأسر، وفيها ينفي عن نفسه بكل إصرار تهمة الخور والجبن والضعف، ويبين أنه لم يكن لقمة سائغة للأعداء، بل خاض ضدهم معركة غير متكافئة بعد أن تخلى عنه أصحابه وولوا مدبرين، فخاض معركته وحيداً كالسهم الفريد في كنانة السهام، وطاعن أعداءه حتى تحطم رمحه، فضاربهم بسيفه حتى تكسر، واصطبغت ثيابه وثياب الأعداء أيضاً بالدماء، وكأن هذه الدماء عطر محبب إلى نفسه، وأخيراً أحاطوا به إحاطة السوار

(١) يدني : يضعف أو يسقط (المنجد) دني ص ٢٢٦ .

بالمعصم، وأحاط به الموت معهم من كل جانب، فلم يجد مفرّاً من أن يستسلم صاغراً، وكان يتمنى أن يدنو الموت منه ولو بصورة ضعيفة فهو أفضل له .

ثم يقص الشاعر كيف كانت فرحة أعدائه بأسره غامرة، وكيف كان الفخار يعلو هاماتهم بينما يعلو رأسه الذلُّ والهوان ويكشف عن إسرائعهم في نقله إلى مقرهم، وبالهول ما كان ينتظره فلقد حكم عليه علجهم بالموت حرقاً لأنه قتل من فتيانهم الكثيرين ممّا عطلّ زواج فتياتهم الأبنكار .. ولكنهم لم يسرعوا بقتله بل قيدوه بالسلاسل، وسلطوا عليه كلابهم فأذاقوه العذاب ألواناً ولكن الله نجاه منهم وما هو وقد خرج من سجنه فلم يجد له ملاذاً ولا ملجأ، وضاعت عليه الأرض بما رحبت، وكان نداؤه إبان أزمته ألا رجل حرّاً، ألا رجل حرّاً .. وقد انتقل من حكاية قصة أسره إلى مدح القاضي أبي الحسن بن عشرة، فوصفه بالسماحة والندى وبالإيمان والتقوى، وبالعدل المعهود في حكمه، والذي به تتسع الأرض ولو كانت قبراً، وتعمر ولو كانت قفراً، ثم يعلن عن شوقه للقياء وحنينه لنداه حيناً يشبه حنين الإنسان الذي يصارع الموج إلى البر خوفاً من الغرق في البحر .

وفي رسالة أخرى بعث بها إلى القاضي ابن حمدين الذي تولى القضاء في غرناطة سنة ٥٢٩هـ أيام ولاية يحيى بن علي بن غانية المتوفى سنة ٥٤٣هـ يصف الشاعر أيضاً ما ألمّ به ، ويذكر أسره وعذابه فيقول : (١)

فَلِذَلِكَ مَا سُمُّوا بَنِي حَمْدٍ	مِنْ مَعْشَرٍ حُمِدُوا فَأُحْمَدَ سَعِيهِمْ
فِيهِمَا وَمَا جَاءَتْ لَهُمْ بِقَرِينٍ	مَضَتْ الْقُرُونُ وَمَرَّتِ الدُّنْيَا وَمِنْ
حَبْلُ الرَّجَاءِ لَدَيْكَ غَيْرَ مَتِينٍ	لِلَّهِ دَرْكُ أَيُّهَا الْقَاضِي فَمَا
وَالْعَلَجُ يَلْطُمُ صَفْحَتِي وَجِيئِي	وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْعَدُوُّ يَعْضُنِي
حَوْلِي وَنُشَابُ الرَّدَى تَرْمِينِي	يَوْمَ الْعَذَابِ وَلِلْكَالَابِ تَضُورُ

(١) الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٨١٧ ، وابن حمدين المقصود هو قاضي القضاة الفقيه عبد الله بن محمد بن أحمد بن حمدين ، وقد مدحه ابن خفاجة الأندلسي المتوفى سنة ٥٣٣هـ ومن مدحه له قوله :
من آل حمدين الألى حليت بهم قدماً صدور كُتَّاب ومُدارس .

وَتَوَهَّمُونِي بِالْغَنَى وَأَضْرِبُنِي —
 قَالُوا : أَعْطَيْنَا أَلْفًا فَقُلْتُ : مُضَاعَفًا
 فَبَقِيتُ عَامًّا فِي الْإِسَارِ مُصَفَّدًا
 لِمَا يَحْسَبُ وَلَمْ تَكُنْ لِي حِيلَةً
 وَتَرَكْتَهُ بِيَدِ الْعَدُوِّ مُوثَقًا
 وَرَدَّتْ رَسَائِلُهُ عَلَيَّ فَتَارَةً
 وَلَنَا أُخَيَّاتٌ ، وَأُمٌّ أَتُكَلِّمُ
 فِقُلُوبُهُمْ كَالْقَلْبِ فِي خَفَقَانِهِ
 فَاتَيْتُ نَحْوَكَ وَالرَّجَاءُ يَسْقُودُنِي
 مَالُ الَّذِي أَخَذُوهُ إِذَا أَخَذُونِي
 لَمَّا رَأَيْتُ الْمَوْتَ مَلَأَ جُفُونِي
 بَسَلًا سَلَّ ضَرْبًا مِنَ السِّتِّينِ
 أَرْسَلْتُ فِي ابْنِ أَبِي فَكَانَ ضَمِيمِي
 فِي ذُلِّ أَغْلَالٍ وَضَيْقِ سَجُونِ
 يَشْكُو إِلَيَّ ، وَتَارَةً يَشْكُونِي
 وَأَخَافُ قَبْلَ الْجَمْعِ وَشُكَّكَ مَنْوُنِ
 وَعِيُونُهُمْ فِيَّ جَرِيهَا كَعِيُونِ
 وَجَمِيلُ ذِكْرِكَ خَلْفَهُ يَحْدُونِي

من الواضح الجلي أن هذه القصيدة هي صرخة استغاثة أطلقها الشاعر كسابقتها
 مستنجداً بمن عرف أنهم أهل مروءة، ونخوة، ونجدة فإن كان في قصيدته الأولى قد
 استنجد بالقاضي أبي الحسن بن عشرة، ففي قصيدته هذه يخاطب القاضي ابن حمدين
 مستنجداً به، وعلى عادة الشعراء قدّم لاستغاثته بمدح هذا القاضي، واتخذ مدحاً لما
 أراد أن يسوقه قوله :

والعلاج يلطم صفحتي وجبيني
 حولي ونشاب الردى ترميني

ولقد ذكرتُك والعُدُو يعضُنِي
 يوم العذاب وللكلاب تضُورُ

وكأنه يقول له : لقد ذكرتك في ظلام المحنة الحالك ، وأنا بين الحياة والموت،
 تتوالى عليّ الإهانات، وأتجرع كؤوس الذلّ مترعة وكلاب النصارى حولي متضوّرة تكشر
 عن أنيابها وآلات الموت بي محيطة .. وقد ظنّوا بي الغنى، وما دروا أنهم قدسلبوني كل
 مالي يوم أن أخذوني، ولذلك طالبوني بدفع ألف فدية أفتدي بها نفسي فقلت لهم لكم
 ضعف ما تريدون واخلّوا سبيلي، وبقيت على هذا الحال عاماً كاملاً مقيداً بالسلاسل
 التي تلتف حولي وكأنها حيات قد أحكمت تطويقي، ولما أصابني اليأس استدعيت أخي
 ليحل مكاني كرهينة حتى أدبر لهم ما أرادوا، وقد طال به المقام في السجن، فأرسل إليّ

يشكو ويبكي، مما يعانيه من ذل القيود، وضيق السجون كما أن بكاء أحيائي وأمي
الثكلي يصك أذني، ويدمي فؤادي على البعد، وأخشى أن يطول البعد، وأن ينتهي
الأجل دون أن يجتمع شملنا مرة أخرى .. ولذا أتيت نحوك يقودني رجائي، ويحدوني
جميل ذكرك طامعاً في معونتك حتى نخلص أخي من قيوده، ونجمع شمل الأسرة
الذي تمزق، ونمسح دموع الأم الثكلي والأخوات الكسيرات الحزينات .

وجهة نظر نقدية :

من الواضح البين أن الشاعر أراد بقصائده في محنته تحريك مشاعر من وجهها
إليهم، واستنهاض هممهم، وإثارة النخوة والحمية فيهم كي يهبوا لنجدته وغوثه، ومد
يد العون إليه لينتشلوه من ظلام المحنة الحالك، وينقذوه من نار النكبة المدمرة ..

ولذلك اتخذ أسلوب القصة له طريقاً، وصاغ قصة أسرهِ ومآلقاته في سجنه بأسلوب
مؤثر حشد خلاله كل المؤثرات من ألفاظ موحية .. فليل المحنة أسود كهـم العاشقين،
وأصحابه صرعتهم حمياً النوم، وهو في تفرده وحده سهم في كنانة، والثياب مضرجة
بالدماء، والأعداء قد أحدقوا به، والموت يكشّر نابه والكيول أنواع وأشكال، ومعذوبه
كلاب ضارية .. والدنيا في وجهه مظلمة ، والأرض رغم اتساعها ضيقة .. والعلاج يذله
بلطم صفحة وجهه وجبينه، وسلاسل القيد حيات تلتف حوله .. وأخوه الذي بقي
رهينة يشكو من ذل الأسر والسجن، والأم ثكلي، والأخوات الصغيرات حزينات،
دموعهن تجري كالطر المنهمر، وشمل الأسرة متفرق كما حشد الشاعر إمكانيات
استثارة همّة أهل النجدة بما مدحهم به .. فالقاضي أبو الحسن بن عشرة رجل عظيم
الحسن (أروع) يعجب حسنه الرائي، كما أنه ذو حسب ومجد، سمح الوجه، يعرف
التقوى حتى أنه بغرته يستنزل القطر .. الدنيا به عامرة، والأرض بدونه مقفرة وبعدله
تعمر الأرض وتتسع الدنيا .. وهي صفات بطبيعة الحال مبالغ فيها لأن الهدف من وراء
ذكرها استجداء المعونة، ونفس المبالغة في المدح لجأ إليها في استنهاضه لهمة ابن
حمدين، حيث أشار إلى أن بني حمدين استمدوا اسمهم من حمد الناس لهم، ولأن
سعيهم محمود دائماً وأن الدنيا قد عقلت منذ قرون عديدة مرّت فلم تأت لهم بقرين!!

أما من ناحية المحسنات البديعية، فلم يخلُ شعر ابن سوار منها كالمقابلة في قوله : « فهم منه في سكر وما بهم سكر » والجناس الناقص في قوله : « ففلُّوا وولُّوا .. وما فرُّوا ، وقوله : (فطاروا - صاروا) والطباق في قوله (يصحبني ذلٌّ ، ويصحبهم فخر) وقوله : (عامرها قفر) وقوله : (يشكو إليَّ - يشكوني) .

أما الصور البيانية فقد حشدها حشداً هائلاً حيث أكثر من التشبيهات، والاستعارات والكنايات، لأنه أراد أن يرسم صورة حقيقية لما يعانيه، ولما يبغيه ..

أما الصدق الوجداني فالشاعر في حديثه عن ظروفه التي ألمت به، ونكبته التي دهمته، وما لاقاه في سجنه، وما تعانيه أمه وأخواته، وما يعانيه أخوه الرهينة في سجنه صادق العاطفة، حديثه يهز القلوب هزاً .. أما أبيات المدح فإنها تفتقد إلى الصدق الوجداني لأنه إنما أراد بها أن تكون وسيلة يلج بها إلى قلوب الممدوحين لعلهم يسرعون بإجابته ، ويبادرون بنجدته .. ولذا أقول إن حرارة العاطفة تختلف في القصيدة الواحدة من موقع إلى آخر - فالشاعر هنا يمدح مستجدياً وليس إعجاباً بالممدوح .. وهذا كله من أثر نكبته التي جرّدت من كل ماله ودياره .. فكان لابد أن يستجدي غيره .

رَفَعُ

عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(٤) « ابْنُ خَفَاجَةَ الْأَنْدَلُسِيِّ »

التعريف بالشاعر (١) :

هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح عبد الله بن خفاجة الهواري الشقريّ الأندلسي، ولد في أسرة ذات ثراء ويسار في جزيرة شقر بين شاطبة وبلنسية شرقيّ الأندلس، وكان مولده سنة ٤٥٠ هـ، وكما كانت أسرته متميزة بالغنى واليسار، فإنها كانت على جانب لا بأس به من العلم والأدب، وقد تلقى ابن خفاجة علومه على عدد من علماء عصره أمثال القاضي أبي عليّ الصدفيّ المتوفى سنة ٥١٤ هـ، والفقيه أبي عمران موسى بن تليد الشاطبي المتوفى سنة ٥١٧ هـ، وأبي بكر ابن عتيق بن أسد المتوفى سنة ٥٣٨ هـ.

ولقد عاش ابن خفاجة الحياة بكل ألوانها، فقد قضى صدر شبابه يحيا حياة اللهو والمجون، ثم اعتزل هذا اللون من الحياة واعتزل الناس إلا القليلين منهم، وعاش ضرورة أى بلازواج يراعي أملاكه وضياعه التي ورثها عن والده، ومن ملامح حياة ابن خفاجة أنه لم يشتغل بعمل برغم أن الطريق كانت ممهدة أمامه للقضاء أو التدريس، وذلك اكتفاء بما يملكه، ونتيجة لما حباه الله به من نعمة الثراء فإنه لم يتكسب بشعره أبداً، ولم يطلب عطايا الملوك ولا هباتهم، بل لم يحاول التقرب منهم مع تهافتهم على أهل العلم والأدب عموماً والشعر على وجه الخصوص.

وقد كان ابن خفاجة شاعراً، كاتباً، مترسلاً، لمع نجمه في عهد المرابطين وذاعت شهرته، واتصل بولاتهم ومدحهم إعجاباً بهم وليس تكسباً ولا طلباً لعطائهم، وكان أكثر

(١) راجع في ترجمته وسيرته ما يلي : الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٥٤١، نفح الطيب ج ٣ ص ٤٨٨، وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٧ تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٥ ص ٢١٨، ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس د. حسن محمد نور الدين، ابن خفاجة الأندلسي عبد الرحمن جبير

مدحه لأبي اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين وقد برع في وصف الطبيعة لا سيما وصف الأنهار والأزهار ، والبساتين والرياض والرياحين ، فكان أوحـد الناس فيها حتى لقـبه أهل الأندلس بالجنـان ولقبـه الشَّقْنَدِيّ بصنوبريّ الأندلس ، وكانت وفاة ابن خفاجة سنة ٥٣٣هـ .

ولقد امتدت حياة ابن خفاجة حتى بلغ ثنتين وثمانين سنة ، وقد قال قبل وفاته بعام : (١)

أَيُّ عَمَلٍ يَشِ أَوْ غَدَاءٍ أَوْ سَنَةٍ	لابن إحدى وثمانين سنة
قَلَصَ الشَّيْبُ بِهِ ظِلُّ أَمْرِي	طالما جرت صباه سنة
تَارَةً تَسْطُو بِهِ سَيِّئَةٌ	تُسَخِّنُ الْعَيْنَ وَأُخْرَى حَسَنَةٌ

نكبة ابن خفاجة :

من خلال تتبعنا لتطورات حياة ابن خفاجة الأندلسي نرى أنه قد أثر أن ينأى بنفسه عن الاختلاط بالناس ، وترفع عن الاتصال بالملوك والأمراء وطلب عطاياهم ، واستمـاحة هباتهم وهداياهم ، كما رفض أن يربط نفسه بعمل يصبح بسببه مرئوساً لأحد ، ولذلك لم تكن نكبته لغضب ملك أو أمير عليه ، ولم ينكب بعمل فقده ، فإذا عرفنا أنه عاش ضرورة لم يتزوج أدركنا أنه لم ينكب بفقد زوج ولا ولد ، كما أنه مات ثرياً موسراً محبوباً من كل من عرفه ، لأنه كان لا يسعى إلى ما في يد غيره اكتفاءً وقناعة بما أنعم الله به عليه .. فما نكبته إذا ؟

لقد تميز ابن خفاجة بعاطفة جياشة ، وهمّة رفيعة ، وقد امتدّ به العمر حتى بلغ ثنتين وثمانين سنة ، شهد خلالها وفاة كثير من أصدقائه وأحبائه الذين امتلأت بهم حياته سعادة وسروراً ، وسار في جنازاتهم جميعاً يشيعهم إلى مثواهم الأخير الواحد تلو الآخر ، حتى تطلع حوله فوجد نفسه وحيداً ، فبكى وانتحب ، وتألّم واضطرب ، واهتز قلبه لفقد أصحابه وأحبائه .. كما أنه فقد ابن أخت له مات في أغمات ببلاد المغرب ،

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٣٢٨ .

وكان يعتبره بمثابة ابنه فأعطاه كل عاطفة الأبوة، ومنحه كل عنايته ورعايته ، فلما نعي إليه تألم لفقده وحزن حزناً شديداً ، فبكاه بحرقة ورثاه بشعر عاطفي حزين باكٍ

ولقد أكثر ابن خفاجة من رثائه للأحبة الراحلين عنه، وكان رثاؤه لهم باكياً مبكياً لأنه نطق صدقاً، وترجم عن وجدان صادق، وعاطفة جياشة ، لأنه لم يرث مجاملة ولا تملقاً، ولكنه يرثي لأنه هو المكلوم، وقديماً قالوا : « ليست النائحة كالثكلى .. »

النتاج الشعري لنكبات ابن خفاجة في أحبائه :

إن ما أصيب به ابن خفاجة الأندلسي من فجوعة في كثير من أحبابه وأصدقائه وأصحابه ورفاق شبابه قد حرك عاطفته الجياشة، وألهب وجدانه فانطلق لسانه يترجم عن أحزانه، ويشكف عن آلامه، وكان من نتيجة ذلك أن أثرى ابن خفاجة ديوان شعره بعدد لا يستهان به من قصائد التفجع والثناء، المشوبة بالنحيب والبكاء وسنعرض أبرز تلك القصائد وننبه بداية إلى أننا لن نستقصي كل ما قاله ، بل سنكتفي كما أشرنا بعرض أبرز قصائده المعبرة أصدق تعبير عن مشاعره وأحاسيسه .

ومن شعر التفجع ما قاله ابن خفاجة يندب معاهد الشباب ، ويتفجع لوفاة الإخوان والأحباب بعقب سيل أعاد الديار آثاراً ، وقضى عليها وهياً وانتشاراً ومنه قوله : (١)

ألا عرّس الإخوان في ساحة البلى	وما رفعوا غير القبور قباباً
فدمعٌ كما سحّ الغمام ولوعةٌ	كما أضرمّت ریح الشمالِ شهاباً
إذا استوقفتني في الديار عشيةٌ	تلدّدتُ فيها جيئةً وذهاباً
أكرّ بطرفي في معاهد فتيةٍ	نكلتهم بيض الوجوه شباباً
فطال وقوفي بين وجدٍ وفرقةٍ	أنادي رؤوماً لا تحير جواباً
وأمحو جميل الصبر طوراً بعبرةٍ	أخطئ بها في صفحتي كتاباً

(١) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٥٧٠ ، نفح الطيب ج ١ ص ٦٧٧ - ٦٧٨ ، قلائد العقيان ص ٢٣٦ .

وَقَدْ دَرَسَتْ أَجْسَامُهُمْ وَدِيَارَهُمْ فَلَمْ أَرَ إِلَّا أَعْظَمَ وَيَّاباً
وَحَسْبِي شَجَوًّا أَنْ أَرَى الدَّارَ بَلْقَعاً خَلَاءً وَأَشْلَاءَ الصَّدِيقِ تُرَاباً

هذه وقفة تأمل وقفها ابن خفاجة أمام كارثة دمرت الديار، وأبادت إخواناً له وأحباباً، فسالت دموعه كفيض الغمام، واشتدت لوعته حتى اضطربت نار الحزن في فؤاده، لأنه نظر إلى الديار التي هي معاهد فتية ثكلهم وفقدهم وهم في ريعان الشباب ومقتبل العمر، ونادى فلم يجبه سوى الصدى، وكلما أراد التذرع بالصبر، محت صبره دموعه الهتانة التي تسيل على صفحتي وجهه فتخط كأنها تصنع كتباً للحزن على هذا الوجه، ولا حيلة له فقد درست أجسام هؤلاء الأحبة كما درست ديارهم وتحول هذا وذاك إلى مجرد آثار خربة لا حياة فيها، وهل هناك ما يثير الشجو والأسى أكثر من رؤية الديار خراباً بلقعاً خالية من أهلها، ورؤية أشلاء الصديق المحبب إلى القلب تراباً ؟ ولا مراء فعاطفة الشاعر صادقة جياشة، ولذا جاءت ألفاظه قوية معبرة، ومعانيها بليغة نابعة من فؤاد مكلوم، واستعان بالصور المثيرة للحزن والأسى ..

ومن قصائد شاعرنا ابن خفاجة الطوال في هذا المجال هذه القصيدة التي قالها عقب وفاة صديقه ورفيق شبابه الوزير محمد بن ربيعة الذي نشأ معه فكانا بحيث لا يريان ينفصلان، كأنهما الدهر فرقدان، فاخترمه الأجل إثر وفاة جملة من الإخوان ، فقال يتفجع ويتوجع : (١)

- ١- شَرَابُ الْأَمَانِي لَوْ عَلِمْتَ سَرَابُ
- ٢- إِذَا ارْتَجَعْتَ أَيْدِي اللَّيَالِي هِبَاتُهَا
- ٣- وَهَلْ مُهْجَةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا طَرِيدَةٌ
- ٤- يَخْبُ بِهَا فَنِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
- ٥- وَكَيْفَ يَغِيضُ الدَّمْعُ أَوْ يَبْرُدُ الْحَشَا
- ٦- فَمَنَابَ عَنْ خَلِّ الصَّبَا خَلِّ شَيْبَةٍ
- وَعَتْبِي اللَّيَالِي لَوْ فَهِمْتَ عِتَابُ
- فَنَايَةَ هَاتِيكَ الْهَبَاتِ ذَهَابُ
- تَحُومُ عَلَيْهَا لِلْحِمَامِ عِقَابُ
- مَطَايَا إِلَيَّ دَارَ الْبُلْبُلَى وَرِكَابُ
- وَقَدْ بَسَّادَ أَقْرَانِ وَفَاتِ شَبَابُ ؟
- وَلَا عَاصَ مِنْ شَرِّ الشَّبَابِ خَضَابُ

(١) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٥٦٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٥٣٨ - ٥٣٩ ، ابن خفاجة الأندلسي عبد الرحمن جبير ص ١٣٣ - ١٣٤ ، ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس د. حسن محمد نور الدين ص ٨٩ - ٩٦ .

٧- فَهَا أَنَا أَبْكِي كُلَّ مَعْهَدٍ رَاحَةٍ
 ٨- أَقْلَبُ طَرْفِي لَا أَرَى غَيْرَ لَيْلَةٍ
 ٩- كَأَنِّي وَقَدْ طَارَ الصُّبَّاحُ حَمَامَةً
 ١٠- عَلَيَّ حِينَ لَا غَيْرَ اعْتِبَارِي خُطْبَةً
 ١١- وَقَدْ جَاشَ بَحْرَيْنِ جَنْبِي مَا نَجَّجَ
 ١٢- فَيَالَهُمْ مَنْ رَكِبَ صَحْبٍ تَتَابَعُوا
 ١٣- دَعَا بِهِمْ دَاعِي الرَّدَى فَكَأَنَّمَا
 ١٤- فَهَاهُمْ وَسَلَمَ الدَّهْرِ حَرْبٌ كَأَنَّمَا
 ١٥- هُجُودٌ وَلَا غَيْرَ السُّتْرَابِ حَشِيَّةٌ
 ١٦- فَحَتَّى مَتَى تَبْرِي اللَّيَالِي سَهَامَهَا
 ١٧- فَفِي كُلِّ يَوْمٍ فَتْكَةٌ لِمَلَمَةٍ
 ١٨- وَرَبِيعٌ خِلَاءٍ مِنْ خَلِيلٍ وَإِنَّمَا
 ١٩- يَذْكُرُنَا بِهِ كُلَّ حِينٍ جَوَارِهِ
 ٢٠- فَلَسْتُ بِنَاسٍ صَاحِبًا مِنْ رِبِيعَةٍ
 ٢١- أَجَلْتُ طِبَاعِي فِيهِ فَلَا أُنْسُ وَحِشَةٍ
 ٢٢- وَهِيَهَاتَ لَا أَغْنَى خَلِيلٌ غَنَاءَهُ
 ٢٣- وَمِمَّا شَجَانِي أَنْ قَضَى حَتْفَ أَنْفِهِ
 ٢٤- وَأَنَا تَجَارِينَا ثَلَاثِينَ حَقْبَةً
 ٢٥- كَأَنَّ لَمْ نَبْتَ فِي مَنَزِلِ الْقَصْفِ لَيْلَةٍ
 ٢٦- إِذَا قَامَ مِنَّا قَائِمٌ هَزَّ عَظْفَهُ
 ٢٧- جَمَحْنَا بِمِيدَانِ الصَّبَا ثُمَّ إِنَّنَا
 ٢٨- وَلَمَّا تَرَأَى لِلْمَشِيبِ بَرِيقَهُ

تَضَاهَكَ أَحْبَابُ بِهِ وَصَحَابُ
 وَقَدْ حُطَّ عَنْ وَجْهِ الصُّبَّاحِ نَقَابُ
 يَمُدُّ جَنَاحِيهِ عَلَيَّ غُـرَابُ
 فَتَوَعَّى وَلَا غَيْرَ الْعَوَيْلِ جَوَابُ
 لَهُ زُخْرَةٌ فِيَّ وَجِئْتَنِي وَعَبَابُ
 فَرَادَى وَهُمْ مُلَسَّدُ الْغُصُونِ شَبَابُ
 تَبَارَتْ بِهِمْ خَيْلٌ هُنَاكَ عَرَابُ
 جَثَا بِهِمْ طُـسُوعٌ عَنْ لَهُ وَضَرَابُ
 لَجْنِبٍ وَلَا غَيْرَ السُّقُبُورِ قَبَابُ
 وَحَتَّى مَتَى أُرْمِي بِهَا فُلْأُصَابُ ؟ !
 يَمْزُقُ جَيْبَ تَحْتِهَا وَإِهَابُ
 تَجَافَى حُسَامٍ مِنْهُمَا وَقَرَابُ
 فَيَحْزَنُنِي رِزْءٌ بِهِ وَمُصْـطَابُ
 إِذَا نَسِيتَ رَسْمَ الْوَفَاءِ صَحَابُ
 طَوَالَ اللَّيَالِي وَالنَّعِيمِ عَذَابُ
 وَهَلْ عَدَلَ الْعَزْدُ الْفِرَاتِ سَرَابُ
 وَمَا أُنْدَقُ رُمُوحَ دُونِهِ وَذَبَابُ
 فَفَاتَ سَبَاقِيَا وَالْحَمَامُ قَصَابُ
 نَجِيبُ بِهَا دَاعِي الصَّبَا وَنُجَابُ
 شَرَّابُ أَرْقَانَهُ بِهِ وَشَرَابُ
 كَرَّرْنَا فَكَانَتْ فِتْنَةً وَمَتَابُ
 وَأَقْشَعَ مِنْ ظِلِّ الشُّبَابِ سَحَابُ

٢٩- نَهَضْنَا بِأَعْبَاءِ اللَّيَالِي جَزَالَةً
 ٣٠- فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ كَيْفَ سَطَا بِهِ
 ٣١- وَكَيْفَ اسْتَلَانَتْ صَوْلَةُ الْمَوْتِ عَوْدَهُ
 ٣٢- وَلَا عَجَباً أَنَّنَا ذَلَّلْنَا لِحَادِثِ
 ٣٣- وَأَنَا خَضَعْنَا لِلْمُقَادِيرِ عُنُودَهُ
 ٣٤- وَلَوْ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ كَانَ أَصَابُهُ
 ٣٥- فَيَا ظَاعِناً قَدْ حَطَّ مِنْ سَاحَةِ الْبَلَى
 ٣٦- كَفَى حَزْناً إِنْ لَمْ يَرُدَّنِي عَلَى النَّوَى
 ٣٧- وَإِنِّي إِذَا يَمَمْتُ قُـبْرَكَ زَائِراً
 ٣٨- فَأُظْلِمَ قَرْنَ الشَّمْسِ وَهِيَ مُنِيرَةٌ
 ٣٩- وَرَفَرَقْتُ بَيْنَ الْحُزْنِ وَالصَّبْرِ عِبْرَةً
 ٤٠- وَلَوْ أَنَّ حَيًّا كَانَ حَاوِرَ مَيِّتاً
 ٤١- وَأَعْرَبَ عَمَّا عِنْدَهُ مِنْ جَلِيَّةٍ
 ٤٢- عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنْ صَاحِبِ قَضَى
 ٤٣- تَوَلَّى حَمِيدَ الذِّكْرِ لَمْ يَأْتِ وَصْمَةٌ
 ٤٤- أَغْرَ طَلِيقَ الصَّفْحَتَيْنِ كَأَنَّمَا
 ٤٥- أَلَا إِنْ جَسَماً يَسْتَحِيلُ لِتُرْبَةٍ
 ٤٦- فَلَا سَعْيَ إِلَّا أَنْ يَكُنْ لِأَجَلِي

وَأُرْسَتْ بِنَا فِي النِّائِبَاتِ هَضَابُ
 وَقَدْ كَانَ يَرْجَى تَسَارَةً وَبِهَابُ
 فَلَمْ يَنْبِ عَنْهُ لِلْمَنْيَةِ نَابُ
 تَذَلُّ لَهُ الْأَسْـَـدُ وَهِيَ غَضَابُ
 كَمَا خَضَعَتْ تَحْتَ السُّيُوفِ رِقَابُ
 لَجَاشَتْ نَفُوسٌ لِانْتِقَادِ صَعَابُ
 بِمَنْزِلِ بَيْنِ لَيْسَ عَنْهُ إِيَابُ
 رَسُولٌ وَلَكِنْ يَنْفِذُ إِلَيْكَ كِتَابُ
 وَقَفْتُ وَدُونِي لِلتُّرَابِ حِجَابُ
 وَضُاعَتْ بِلَادُ اللَّهِ وَهِيَ رَحَابُ
 لَهَا جِيْـَـمَةٌ فِي مَقَلَّتِي وَذَهَابُ
 لَطَالَ كَلَامُ بَيْنِنَا وَخَطَابُ
 فَأَقْلَعَ عَنْ شَمْسٍ هُنَاكَ ضَبَابُ
 فَأَجْهَشَ رُبْعَ بَعْدِهِ وَجَنَابُ
 فَتَبَقَّى وَلَمْ تَدْنَسْ عَلَيْهِ ثِيَابُ
 وَرَاءَ تُرَابِ الْقَبْرِ مِنْهُ شَهَابُ
 وَإِنْ حَـَـيَاةً تَنْتَهِي لِخَرَابُ
 وَلَا ذُخْرَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ثَوَابُ

بدأ الشاعر قصيدته بأبيات حكمية وعظمية، وكأنه أراد بداية أن يعزي نفسه، ويتخذ من هذا العزاء مدخلاً للتفجع والتوجع لفقد الأحباب فالأمني سراب، وعتب الليالي عتاب، والليالي مستردة ما وهبت، فالهبات عارية مستردة، والموت يطارد الإنسان كما يطارد طير العقاب حشرة صغيرة ويقترّب الموت من الإنسان بسرعة، كما أن الإنسان

يركض إلى الموت ركضاً ولأبدٍ للحَيِّ أن يستمر بكائِهِ ، وَلَا يَجْفُ له دمع فرحيل
الأحباب مستمر دائم، ويعنى الشاعر بذلك نفسه إذ أنه قد انتقل من المقدمة الحكيمية
إلى البكاء على الراحلين، وقد استخدم أسلوب الاستفهام « وكيف يغيضُ الدمعُ أو يبرد
الحشاً ؟ » استخداماً بلاغياً حيث إنّ غرضه النفي .. فهو لا يجف له دمع، ولا تبرد من
لظى الأحزان حشاه، لأنّ أقرانه قد بادوا وعصر الشباب قد ولى والذي يموت لا يعوّض،
فلا ينوب أحد مناب الآخر، ولا يجدد الخضاب هذا الشباب الضائع، وكل غيبة
لصاحب لا إياب منها، ولذلك يبكي الشاعر معاهد الصبا، وملتقى الأصدقاء والأحباب،
ويقف في تلك الأماكن يجيل الطرف لعله يرى أثر أصحابه، ولكن بصره يرتد إليه
خاسراً تغلبه دموعه، وذلك لأنه بفقد أصحابه أصبح وحيداً يشعر بالوحشة والخوف
والرهبة، وكأنه حمامة وديعة طوّقتها الغربان السوداء من كل جانب، فلا يملك إلا
النواح والبكاء، حتى أصبحت عينه تهمي دُمعاً لتحول وجنتيه إلى غريق في عباب بحر
الدموع هذه .

وباللهول فالراجلون قد عملت يد الردى فيهم عملها، فإذا بهم يتساقطون تساقط
أوراق الشجر في فصل الخريف صرعى الواحد تلو أخيه وكأنهم يتبارون على خيل
كريمة قوية أيهم يسبق الآخر نحو الردى والهلاك وهذا ما جعل الشاعر يحس وكأنّ
الدهر يصبّ إليه سهامه ليذمي بها قلبه، وكيف لا يذمى فؤاده، وأصحابه وأترابه هجود
في القبور حشاياهم التراب تحت جنوبهم بعد الحرير والديباج، وقبابهم القبور بعد
عاليات القصور، ولا يدري الشاعر إلى متى سيظلّ هدفاً لسهام الدهر يرمى بها فيصاب
منها بإصابات دامية .. فإنه لا يمر عليه يوم إلّا ويفتك بصاحب له أو حبيب أو تطل
عليه مصيبة تشق لهولها الجيوب، وتمزق الجلود، وربع يصير خراباً بعد رحيل ساكنيه
خصوصاً من أحبه منهم ...

وينتقل الشاعر من التعميم إلى التخصيص، فبعد أن بكى أصحابه الراحلين جملة
التفت يبكي الوزير محمد بن ربيعة، هذا الذي عاش مع الشاعر ثلاثين سنة متصلة لا
تنقطع، هذا الرجل كان وفياً إذا قلّ الأوفياء، ولذا حالت حياة الشاعر بعده إلى وحشة
بعد أنس، وعذاب بعد نعيم، ولقد تمنى الشاعر لفقيده أن لو مات ميتة الأبطال فلقد

عرفت فيه صفات الفروسية والشجاعة، ولذلك حزن الشاعر لموت صاحبه هذا على فراشه لأن الاستشهاد كان أمنية تمنّاها الفقيد، وتمناها له الشاعر ولكنها لم تتحقق .. وظلّ الشاعر يذكر صفات هذا الصديق، وأخيراً قنع بقضاء الله، ورضي بما قدره سبحانه وتعالى على صديقه، وأخذ يدعو إلى الصبر والكف عن البكاء .. وكأنه بذلك قد انتصر على أحزانه، ولكنه يفاجئنا بالعودة مرة أخرى إلى تصوير عظمة المصاب، وهول الخطب، وراح يذكر حاله عندما يزور قبر صاحبه فتجدد أحزانه والتراب يحجبه عنه، فإذا كل شيء حوله تحوّل إلى ظلام، وضاعت الدنيا حوله بما رحبت، وترقرقت الدموع في عينيه، وسيطر عليه الحزن ... ولو دار حوار بينهما لطال هذا الحوار برغم أنه حوار بين حيٍّ وميت .. ويختم قصيدته بالتحية وشيء من الحكمة، فالحياة مهما عمرت فهي إلى خراب، والجسم مهما طال به العمر فهو تراب، ولا قيمة لسعي الإنسان إلا إذا كان سعياً للآخرة ولا ذخراً إلا ما يحزره من ثواب وأجر عند الله ..

ولا شك في أن القارئ للقصيدة يحسُّ بالأسى المتدفق من فؤاد شاعرنا ابن خفاجة لفقد أصحابه الذين عايشوه وعاشهم، وجالسوه وجالسهم، ثم فتح عينيه فجأة ليجدهم قد رحلوا .. كما يشعر القارئ باضطراب عاطفة الشاعر فهو تارة يشتدُّ حزنه ويرتفع نشيجه، وتارة أخرى يستسلم للقضاء ويسلم بالقدر، ثم يعود إلى الحزن مرة أخرى، وهذا يدل على هول الصدمة التي أصابت فكره ووجدانه بهزة شديدة جعلته يتأرجح بين هذا وذاك .

أما قصيدته التالية فهي مرثية في ابن أخت له كان يحبه ويتعلق به وقد ورد النعي من أغمات بموته فقال ابن خفاجة تحت عنوان « مثنوى الحبيب » ما نصّه: ^(١)

أَرَقْتُ أَكْفَ الدَّمْعِ طَوْرًا وَأَسْفَحُ	وَأَنْضَحُ خَدَيَّ تَارَةً ثُمَّ أَمْسَحُ
وَدُونُكَ طَمَاحٌ مِنَ الْمَاءِ مَائِجٌ	يَعْبُ وَمُغْبَرٌ مِنَ الْبَيْتِ أَفْجِحُ
وَإِنِّي إِذَا مَا الْـلَّيْلِ جَاءَ بِفَحْمَةٍ	لَأُرْوِي زِنَادَ الْهَمِّ فِيهَا فَأَقْدَحُ
وَأَتَّبِعُ طَيِّبَ الذِّكْرِ أَنَّهُ مُوجِعٌ	فَسَيَنْفَحُ هَذَا حَيْثُ هَاتِيكَ تَلْفَحُ

(١) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٦٠٦ ، ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس ص ٩٩ - ١٠٢ وفي الثاني زيادات سنشير إليها في التوضيح والشرح إن شاء الله تعالى .

وَأَلْقَى بَيَاضَ الصُّبْحِ يَسُودُ وَخَشَةَ
وَيُوحِشُنِي نَاعٍ مِنَ اللَّيْلِ نَاعِبٌ
غَرِيقاً بِبَحْرِ الدَّمْعِ وَالْهَمِّ وَالذُّجَى
وَفِي نَظَرِي لِلَّيْلِ مَرِيطٌ أَذْهَمٌ
أَقُولُ وَقَدْ وَافَى كِتَابَ نَعِيهِ
غُلَامٌ كَمَا اسْتَخَشَنْتَ جَانِبَ هَضْبَةِ
أَرَامٍ بِأَغْمَاتٍ يَسُدُّ سَهْمَهُ
فِيَا لَغَرِيبٍ فَاجَأَتْهُ مَنِيَّةٌ
تَرَى بِي إِذَا أَعُولْتُ حُزْناً حَمَامَةً
وَأَيَّاسْتُ قَلْباً كَانَ يَخْشَعُ تَارَةً
فَمَا أَتَلَقَّيْتُ الْبَرْكَبَ أَرْجُو تَحِيَّةً
وَخَادَعْتُ عَنْهُ النَّفْسَ ، وَالنَّفْسُ صَبَةٌ
يَنْمُ بِأَسْرَارِ الصَّبَابَةِ مَدْمَعِي
فَلِي نَظْرَةٌ نَحْوَ الشَّمَالِ وَلَوْعَةٌ
فِيَا عَارِضاً يَسْتَقْبِلُ اللَّيْلَ وَالْفَلَاحَ
تَحْمَلُ إِلَى قَلْبِ (١) الْغَرِيبِ مَدَامِعاً
وَأُخْفَى (٢) سَلَامٍ يَعْبُرُ الْبَحْرَ دُونَهُ
وَعَرَجٌ عَلَى مَثْوَى الْحَبِيبِ بِنَظْرَةٍ

فَأَحْسَبُنِي أُمْسِي عَلَى حِينٍ أَصْبَحُ
فَأَزْجُرُّ مِنْهُ بَارِحاً لَيْسَ يَرِجُ
وَلَوْ كَانَ بَحْراً وَاحِداً كُنْتُ أَسْبَحُ
وَفِي وَجَنَّتِي لِلدَّمْعِ أَشْهَبُ يَجْمَحُ
يَجْمَحُ فَنِي أَلْفَاظُهُ وَيَصْرَحُ
وَلَانَ عَلَى طَبَشٍ مِنَ الْمَرْنِ أَبْطَحُ
فِيرْمِي ، وَقَلْبٌ بِالْجَزِيرَةِ يَجْرَحُ
أَتَتْهُ عَلَى عَهْدِ الشَّبَابِ تَجْلَحُ
تُرْنٌ وَطَوْرًا أَيْكَةُ تَتَرَنِّجُ
وَتَنْزَوِيهِ الْأَمَالُ طَبْشُوراً فَيَطْمَحُ
تَوَافِي لَهُ أَوْ رُقْعَةً تَنْصَحُ فَنَحُ
وَرَاوَعْتُ حَسَنَ الصَّبْرِ وَالصَّبْرُ أَرْجَحُ
وَكُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَرْشَحُ
تَلَدُّ بِي نَحْوَ الْجَنُوبِ فَأُجْنَحُ
وَيَسْرِي فَيَطْوِي الْأَطْوَلِينَ وَيَمْسَحُ
تَكُفُّبٌ فَتُرْوِي أَوْ تَعْبٌ فَتَنْفَحُ
فَيَنْدِي وَأَزْهَارُ الْبَطِّحِ فَتَنْفَحُ
تَرَاهُ بِهَا عَنِّي هُنَاكَ وَتَلْمَحُ

هذه الأبيات التي عرضناها هي التي وردت في رواية الذخيرة وهناك زيادات سنشير إليها أثناء التوضيح ، ونكشف عن مصدرها وما تحمله من معانٍ .

(١) أحسبها : تحمّل إلى قبر الغريب مدامعاً ، لأن ذكر كلمة قبر يجعل المعنى أوقع وأحسن لأن المتحدث عنه ميت .

(٢) أخفى سلام : أبلغ سلام يردّد (المنجد في اللغة والأعلام) .

وقد استهلَّ ابن خفاجة قصيدته بدمعه المسفوح، وأنين فؤاده المجروح، وهو يحاول أن يكفكف هذا الدمع المنهمر مدراراً بمسح خده تارة، وينضح ماء الدمع السائل عليه تارة أخرى - وهذا كناية عن غزارة دموعه - ولقد أرق الشاعر أرقاً شديداً بسبب فقد هذا الولد، ومما أجج نار الحزن في صدره أنه مات غريباً بعيداً عنه يفصل بينهما بحر هائج مائج، وبيد وفلوات واسعة رجة، وكلما أقبل الليل بسواده ازداد همه، واشتد حزنه وازداد تذكُّره لفقیده، يتذكر صفاته الحسنة الطيبة، فيتوجع لفقده، وإذا طلع الصبح عليه بنوره تحول في نظره إلى ليل بهيم، وأظلمت الدنيا في وجهه لشدة إحساسه بالشقاء، مما جعل اليأس يبلغ منه مبلغه، فلم يعد يحس بطعم السعادة إطلاقاً، هذا إلى جانب ما يؤرقه في ليله فكلما سمع صوت غراب تصور أنه الناعي الذي يذكره بمصابه فتضطرم نار الحزن تتلظى في صدره، ويحاول طرد الخواطر الحزينة المؤلمة فلا يستطيع لتمكنها منه تمام التمکن، فهو يرى نفسه غريقاً في بحار عديدة، بحر الدموع الذي يستمد من عينيه، وبحر الهموم الرابضة على صدره، وبحر الظلام الذي يضمه فيزيد من أحزانه، ولذا لا يستطيع فكاكاً ولا هروباً من تلك الأحزان .

ويصف الشاعر لحظة وصول كتاب نعي فقیده من أغمات بأنها كانت لحظة صعبة اعتراه فيها الذهول وعلته الدهشة، فهو غير مصدق لما يقرأ، وراح يردد أوصاف ابن اخته، فهو غلام طري عوده، ندي كالطر الخفيف الذي يلامس النبات الضعيف برقة متناهية غير مؤذ له ولا ضار، والبيت كله كناية عن ضعف ابن اخته ورقته، وراح الشاعر يخاطب الموت الذي رمى فقیده بسهمه فأصاب السهم قلب شاعرنا بالجزيرة وجرحه وأأسى لحبيبه الذي مات غريباً حيث فاجأته منيته وهو بعد في عهد الشباب وحملت عليه بشدة ..

ومما جاء في رثائه لابن اخته هذا قوله : (١)

وَأَسْتَقْبِلُ الدُّنْيَا بِذِكْرِي مُحَمَّدٍ فَيَقْبَحُ فِي عَيْنِي مَا كَانَ يَمْلَحُ
وَأُشْفِقُ مَنْ مَوْتِ الصَّبَا ثُمَّ إِنِّي لَا مَلَأَ أَنَّ السَّلَّةَ يَعْفُو، وَيَصْفَحُ

(١) راجع كتاب ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس د. حسن محمد نور الدين ص ١٠٠ - ١٠١ ، والأبيات المدونة لم يثبتها صاحب الذخيرة .

كَأَنَّ لَهَيْبًا ، بَيْنَ جَنْبَيَّ ، رَاقِدًا به ، وَرَكَايَا ، بَيْنَ جَفْنَيَّ تَمَتَّحُ (١)
 جَلَسْتُ أَسْوَمَ الدَّهْرِ فِيهِ مَلَامَةً وَكُنْتُ ، كَمَا قَدْ كُنْتُ أَثْنِي وَأُمْدَحُ
 والشاعر في هذه الأبيات الأربعة يخبر أنه كلما طافت به ذكرى محمد ابن أخته
 يقبُح في عينيه كل جميل مليح ، ويأسى لموته صغيراً ، ولكنه يأمل أن يعفو الله عنه
 ويصفح ، ويتلمس العذر في هلعه وفزعه وجزعه فإن ما بين جنبيه لهيب من الأحزان راقد
 لا يغادره ، وما بين جفنيه عيون ماءٍ تنضح بلاتوقف ، حتى أنه لام الدهر لوماً شديداً على
 اغتياله لفقيده ، وهو الذي كان يثني عليه ويمدحه .

ويصف الشاعر نفسه عندما يبكي فقيده بأنه يصبح كالحمامة الورقاء تهدل هديلاً
 حزناً ، أو يرى ضعيفاً من شدة الأسى ضعف أيكَة غلبتها ريح عاتية فأمالتها حيث تميل ،
 وهي لا تستطيع لها مقاومة ، ومرة أخرى يعود الشاعر فيشير إلى تغلب اليأس على قلبه
 بعد أن كانت الآمال تنزويه فتغرس فيه الطموح ، وبلغ من يأسه أنه لم يعد ينتظر من
 ركب القادمين من أغمات أن ينقلوا إليه تحيات عزيزه أو رسالة منه ، ويتحدث الشاعر
 فيقول : ها أنذا أحادع نفسي وأدافعها حتى لا تستسلم إلى الحزن تارة ، وتارة أخرى
 أراوغ حسن الصبر ، ولا بد في النهاية أن ترجح كفة الصبر .. ولكن دموعه دائماً تفضحه
 وتنبئ عن حزنه الدفين .. ويناجي الشاعر السحب العارضة ، والمعتضة في الأفق تستقبل
 الليل والصحاري ، تسري فتطوي الأطولين ، ويحمل هذا العارض إلى قبر الغريب الذي
 مات في أغمات دموعه ليروي هذا القبر بتلك الدموع كما يحمل السحب السارية
 سلامه الذي يندى به القبر ، وتتفتح به أزهار البطاح .. ويتمنى أن تعرج على مثوى حبيبهِ
 بنظرة ربما تراه بها نيابة عنه وتلمحه لحاً .. لعل ذلك يخفف عنه ما به من آلام ، ويزيل
 ما ألم به من الأحزان .

ونختم حديثنا عن فجيعة ابن خفاجة الأندلسي في أحبابه وأصدقائه وأصحابه بعرض
 قصيدة رابعة من قصائده التي كانت نتاجاً لنكباته المتتالية في أحب الناس إليه ، وأعزهم
 عليه ، ومناسبة هذه القصيدة أن صديقاً له توفي في إشبيلية ودفن بها ، وقد هز رحيله ابن
 خفاجة الأندلسي هزاً عنيفاً حرك وجدانه فعاش الفجيعة بكل

(١) ركايا : آبار ، تمتح : تنضح .

مؤثراتها، وعبر عن تجربة فقد الصديق الصدوق أصدق تعبير وذلك بقوله (١):

أَلَا لَيْتَ لِمَحِ الْبَارِقِ الْمُتَالِقِ
وَيَرْكَبُ مِنْ رِيحِ الصَّبَامَتِ سَابِحِ
فِيهِدِي إِلَى قَسْبِ بِحْمَصِ تَحِيَّةٍ
فَعَنْدِي لِحْمَصِ أَيُّ نَظْرَةٍ لَوْعَةٍ
حَنَانًا إِلَى قَبْرِ هُنَا لَكَ نَازِحِ
وَكَيْفَ بِشَكْوَى سَاعَةٍ أَشْتَفِي بِهَا
فَهَلْ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ مَا بَاتَ يَنْطَوِي
وَقَدْ أَذْكَرْتَنِي الْعَهْدَ بِالْأَنْسِ أَيْكَةً
وَأَكْبَيْتُ أَبْكَيَ بَيْنَ وَجْدٍ أَنَاخَ بِي
وَأَنْشَقُّ أَنْفَاسَ الرِّيحِ تَعْلَلًا
وَلَمَّا عَلَتْ وَجْهَ النَّهَارِ كَسَابَةً
عَطَفْتُ عَلَى الْأَجْدَاثِ أَجْهَشُ تَارَةً
وَقُلْتُ لِمُغْفٍ لَا يَهْبُ مِنْ الْكَرَى
لَقَدْ صَدَعَتْ أَيْدِي الْحَوَادِثِ شَمَلْنَا
وَأِنْ تَكُ لِلْخُلَيْنِ ثَمَّ التَّقَاءُ
فَاعْزُزْ عَلَيْنَا أَنْ تَبَاعَدَ شَمَلْنَا
فَسَقِيْنَا لَتَرْبٍ بَيْنَ أَضْلَعِ تَرْيَةٍ
وَأَلْوِي ضُلُوعِي أَنْدَبُ الْمَجْدِ وَالنَّدَى
وَمِثْلِي يَبْكِي لِلْمُصَابِ بِمِثْلِهِ ،

يَلْفُ ذُبُولِ الْعَارِضِ الْمُسْتَدْفِقِ
كَرِيمٍ ، وَمِنْ لَيْلِ السُّرَى ظَهَرَ أَبْلَقِ
مَتْنِي تَحْتَمِلُهَا رَاحَةُ الرِّيحِ تَعْبِقِ
وَاللَّيْنَجْمِ وَهَنًا أَيُّ نَظْرَةٍ مُطْرَقِ
وَشَلُّوْ عَثَا فِيهِ الْبَلَى مَتَمَزَقِ
وَدُونَ السَّتْلَاقِي كُلُّ بِيْدَاءٍ سَمَلَقِ
عَلَيْهِ الْحَشَا مِنْ لَوْعَةٍ وَتَحْرَقِ ؟
فَأَذْكَرْتَهَا نَوْحَ الْحَمَامِ الْمُطَوَّقِ
حَدِيثَ وَعَهْدٍ لِلشَّيْبَةِ مُخْلَقِ
فَاعْذِمُ فِيهَا طَيْبَ ذَاكَ التَّنَشُّقِ
وَدَارَتْ بِهِ لَلشَّمْسِ نَظْرَةٌ مُشْفَقِ
وَأَلْثَمُ طَوْرًا تَرْبَهَا مِنْ تَشْوَقِ
وَقَدْ بَتُّ مِنْ وَجْدٍ بَلِيلِ الْمُؤْرَقِ
فَهَلْ مِنْ تَلَاقٍ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ ؟ !
فَيَا لَيْتَ شَعْرِي أَيْنَ أَوْكَيْفَ نَلْتَقِي ؟ !
فَلَمْ أَدْرِ مَا أَلْقَى ، وَلَسْتُ أَدْرِمَا لَقِي
مَتْنِي أَنْذَكُرُهُ بِهَا أَتَشْوَقِ
بِأَفْصَحِ دَمْعٍ تَحْتَ أَخْبَرَسِ مَنْطِقِ
فَإِنْ أَخْلَقَ الصَّبْرُ الْجَمِيلُ فَأَخْلَقِ

(١) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٦٠٧ .

كعادة الشاعر في بكائه الصديق والأخ والحييب يحرص على أن يشرك معه عناصر الطبيعة من حوله، فيشرك البارق المتألق، والعارض المتدفق، وريح الصبأ، وليل السرى، ويجعلها عناصر متضافرة مع بعضها في سبيل شيء واحد هو أن تحمل سلام الشاعر تحياته من جزيرة شقر في شرق الأندلس حيث يقيم إلى قبر صديقه بإشبيلية تحيات معطرة متى تحتملها الريح تعبق بأريجها المعطار، ويسمى إشبيلية باسمها الذي أطلقه عليها أهل الأندلس في عصورهم المختلفة فهي حمص المغرب اقتداء بحمص المشرق وهي حاضرة من حواضر الأمويين في بلاد الشام.. ويكشف عن تطلعه الدائم إلى هذا البلد واللوعة تلفه، وإلى أرقه المستمر بسبب تلك اللوعة فهو يتابع النجم الساري مسهما مطرقاً، وذلك بدافع الشوق والحنين إلى قبر صديقه هناك، وشلوه الذي عاث به البلى، وأساه عليه جارف، وحزنه دائم، ويأسه من اللقاء واضح، ويتساءل سؤالاً عجيباً: فهل عند عبد الله نفس اللوعة والتحرق؟ كيف ذاك وهو ميت، قد انقطعت عنه سبل الحياة؟ لا أدري ما الذي حدا بالشاعر أن يقول:

فهل عند عبد الله مآبَات ينطوي عليه الحشاً من لوعة وتحرق؟
إنها إحدى شطحات الشاعر في غمرة حزنه الشديد، ولوعته المتجددة على ما أرى وأعتقد.

ويكي الشاعر عهود الصبأ والشباب كلما مرّ بمجاليتها وملاعبها ووقف في معاهدها، فالأليكة تذكره تلك الأيام الجميلة، وهو يقف تحتها باكياً شاكياً يذكرها بنوح الحمام المطوق، وراح يذرف الدمع يلفه الوجد وذكريات الشباب، وكأنني بالشاعر يخلط بين بكائه على صديقه، وبكائه على نفسه وأيام شبابه التي راح يحاول تشمم عبيرها فلا يجد له أثراً، ولما شاركه النهار حزنه، وتصور أن الشمس تنظر إليه نظرات مواساة حزينة، ولم يجد بين الأحياء من يسليه اتجه إلى المقابر يجesh بالكباء عندها، ويلثم تربها من شدة الشوق إلى ساكنيها، وراح يخاطب الصديق الراقد الذي لا يفيق من ثباته، بينما هو يبيت مؤرقاً.. قائلاً: لقد مزقت الحوادث شملنا.. فهل من تلاق بعد هذا التفرق؟! إنه أسلوب استفهام الغرض البلاغي منه الاستبعاد، مع الشوق واللهفة..

ولذلك أعقب ذلك بقوله :

وإنَّ تَكُ لِلْخَلِيقِ ثُمَّ التَّحَقُّقُ
فِيَالَيْتَ شَعْرِي أَيْنَ وَكَيْفَ نَلْتَقِي؟
فَأَعَزَّزَ عَلَيْنَا أَنْ تَبَاعَدَ شَمْلُنَا
فَلَمْ أَدْرِ مَا أَلْقَى، وَلَمْ أَدْرِ مَا لَقِي

ثم يختم رثاءه لصديقه بالدعاء بالسقيا لتراب صاحبه الذي يهيج شوقه عندما يتذكره، فيروح يندب المعالي والكرم في شخصه « بأفصح دمع وأخرس منطق » فكللماته الدموع ، وهذا شأنه دائماً، ويتمنى ألا يبلى الصبر الجميل لعله يتذرع به ..

وجهة نظر نقدية :

الأديب الشاعر أبو اسحق ابراهيم بن خفاجة الأندلسي المتوفى سنة ٥٣٣هـ قال عنه صاحب الذخيرة^(١) : « هو الناظم المطبوع ، والذي شهد بتقدمه الجميع ، المتصرف بين حكمه وتحكمه البديع ، تصرف في فنون الإبداع كيف شاء ، وأتبع دلوه الرثاء ، فشعشع القول وروقه ، ومد في ميدان الإعجاز طلقه ، فجاء نظامه أرق من نفس العليل ، وآثق من الروض البليل ، يكاد يمتزج بالروح ، وترتاح إليه النفس كالغصن المروح .. »

ومن يتأمل أدب ابن خفاجة بعين منصفة ، ويتذوق شعره بذوق يميز الغث من السمين يرى ويشعر بصدق هذه المقولة لابن بسام وما بين أيدينا مما نحن بصددده من شعر التفجع والتوجع الناتج عن النكبات النازلة بشاعرنا المرهف الحس ثبت ذلك ، فبرغم أن الشاعر لم ينكب في نفسه أو ماله ، بل عاش سليماً معافاً ، إلا أنه يرى أن نكبته في الصاحب والصديق والحبيب من الناس أفدح من نكبة المال وغيره .. لأن الصديق الصدوق شيء نادر الوجود ولذلك لا يعجب المرؤ من بكاء ونحيب ابن خفاجة على رحيل إخوانه وأصدقائه القاصي منهم والداني ، فإن معدن الإخلاص فيه واضح وانطلاقاً من إخلاصه ظهر لنا صدق عاطفته ، وجيشان وجدانه فياضاً في رثائه لأحبائه ، فهو لا يجامل لأنه لا حاجة له إلى المجاملة حيث حباه الله بنعم كثيرة جعل الناس يلوذون به ، ولا يسعى إلى اللوذان بهم ، والدليل على ذلك أنه لم يمدح تكسباً ولا تقرّباً كما فعل غيره من معظم شعراء الأندلس .

(١) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٥٤١ .

ولما كان الشاعر مغرماً شديداً بالغرام بالطبيعة من حوله بعناصرها المختلفة ، كثير التفاعل معها، شديد الاهتمام بها، فإننا نراه في كل شعره المتفجع المتوجع يشرك معه عناصر الطبيعة، الجامد منها والمتحرك، الصامت والمصوت ، وكأنها قد تحولت إلى أشخاص يحسون ويدركون، ويتحملون أنصبتهم من معاناة الشاعر ، ويحملون معه عبء معاناته ومقاساته، فالطبيعة بكل ما اشتملت عليه حزينة باكية لحزن ابن خفاجة ويكائه .

ولا يقلل من جيشان العاطفة عنده الحشد الهائل من الصور الخيالية البلاغية التي تعج بها قصائده الحزينة كما يرى بعض الباحثين حين يقول ^(١) : « ولكن أين نجد عاطفة الحزن الصادق بين هذه الاستعارات المتلاحقة ؟ ألم يجد ابن خفاجة حوله من يحزن على فقيده غير الأنواء والأمطار، والرعد ، والبرق ؟ ...

أقول : إن إشراك عناصر الطبيعة لم يقلل من حرارة العاطفة وصدقها عند ابن خفاجة ، بل أظهر ذلك تأجج تلك العاطفة وصدقها والدليل على ذلك أن المتوجه بهذا النقد نفسه أردف ذلك قائلاً : ^(٢)

« الحق أن ابن خفاجة لا يحزن إلا إذا اتصل الأمر بقريب له أو صاحب، أو إذا مزقت الفاجعة شغاف قلبه ، وحركت وجدانه الشاعر، أو ذكرته بأيام السرور الخالية، أو شبابه الذهاب ، أو أُنذرت بالموت المتربص له ولكل إنسان . وحينذاك يجري رثاؤه في طريق العاطفة الحزينة . وهي طريق الرثاء الحقيقي . وما أكثر ما يذكر ابن خفاجة ذلك » وأنا أردف وأقول: وما أندر مارثا ابن خفاجة أحداً إلا إذا كان شديد الارتباط به، ولذلك فلا مجال للطعن في عاطفته بسبب كثرة الصور في شعره، بل أرى أن كثرة الصور التي لا تكلف فيها كما عند ابن خفاجة دليل واضح على جيشان العاطفة ولا تجيش العاطفة إلا إذا كانت صادقة، وعلماء البلاغة يرون أن الخيال وليد العاطفة، والناقد الذي طعن في عاطفة ابن خفاجة عاد يقول : ^(٣) « والقارئ لا بد أنه سيشعر بالأسى المتدفق من قلب الشاعر حين يجده قد عاد بذكريته إلى أصحابه الذين رافقوا أيام

(١) ابن خفاجة الأندلسي : عبد الرحمن جبير - ٥٨ .

(٢) المصدر السابق . (٣) المصدر السابق ص ٥٩ .

شبابه ، فنالوا جميعاً من أوطار الحياة ، ونهلوا من أطايبها ، وسهروا ليلاتها ، وأجابوا داعي الصبابة والصبأ ثم فتح يوماً عينيه يفتقدهم .. فإذا بهم قد رحلوا ، وإذا بشبابه قد ذوى إلى غير رجعة ، لقد أنس بهم معاً ، ثم عصفت الدهر بهم معاً » ، وهل يستطيع الشاعر أن يؤثر في المتلقي عنه إلا إذا كان صادق الحس والوجدان ، جياش العاطفة ؟ .. وقديماً قالوا : « ماخرج من القلب وصل إلى القلب ، وما خرج من الفم لم يتعد الأذنين » وفي نهاية الحوار أقول : فنحن متفقان على سمو عاطفة ابن خفاجة برغم الحشد الهائل من التشبيهات والاستعارات والكنائيات .. بل والمحسنات البديعية ..

ولنختم حديثنا عن ابن خفاجة بذكر بعض أبيات من شعره التي يتفجع ويتوجع فيها ، ومن ذلك قوله في البكاء على الدمن ، والتأسف على ما فعلت به أيدي الزمن :^(١)

وَمَرَّتْ بِحِثِّ الرِّحْلِ فِيهِ	بِحِثِّ الرِّحْلِ فِيهِ
تَخَرَّمَ حَسَنَ مَنْظَرِهِ مَلِيحٌ	تَخَرَّمَ حَسَنَ مَنْظَرِهِ مَلِيحٌ
فَجَرِيَّةٌ مَاءٍ جَدُولُهُ بَكَاءٌ	عَلَيْهِ ، وَشَدُو طَائِفٍ رَهْ نَوَاحٍ

يقول صاحب النفح : « وهذا النوع من البكاء على الدمن ، والتأسف على ما فعلت بها أيدي الزمن . كثير جداً ، لا يعرف الباحث عنده له حداً ، وذلك لشدة ولوع النفوس بذكر أحبابها ، وحنينها إلى أماكنها التي هي مواطن إطرابها » .

وأخيراً لا ننسى أن نشير إلى أن النزعة المشرقية لا تخفي في شعر ابن خفاجة ، بل هي ظاهرة واضحة فصوره مستمدة من البيئة ، والمعاني واضحة إلا في القليل الذي يجنح فيه ابن خفاجة إلى توظيف العلوم التي درسها في شعره ..

رحم الله ابن خفاجة وجزاه خير الجزاء على حبه لإخوانه وأصحابه ..

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٠٤ .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(٥) « آل سعيد »

يُقَصَّدُ بحديثنا عن آل سعيد أولاد خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله الذي ينتهي نسبه إلى عمار بن ياسر العنسي الصحابي المعروف رضي الله عنه وأرضاه ويحدثنا التاريخ أن خلف بن سعيد قد انتهز الفرصة أيام الفتنة في قرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري واستبدَّ بقلعة يحصب ، ثم لما مات خلف تولى أمر القلعة بعده ابنه سعيد ، ثم تولّاها عبد الملك ابن سعيد ، ولما استولى الموحدون على الأندلس قاومهم عبد الملك بن سعيد ثم خضع لهم ، ولكن عبد المؤمن بن علي سلطان الموحدين لم يثق بولائه له فسجنه فترة ثم أطلق سراحه ^(١) وعبد الملك بن سعيد هو مهذب كتاب « المسهب في غرائب المغرب » ، ثم اعتنى به من بعده ولده محمد بن عبد الملك بن سعيد ، وكان ممن اهتموا بهذا الكتاب حتى سموه (المغرب في حلي المغرب) .

ومن الذين نكبوا من آل سعيد إلى جانب عبد الملك بن سعيد ولده أبو جعفر أحمد ابن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد ، وقد ولد في الفترة بين ٥١١ - ٥١٥ هـ - وقد قدّمه والده إلى عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين ، فألقى بين يديه قصيدة مدحه فيها ، وقد عمل أبو جعفر في خدمة عثمان بن عبد المؤمن والي غرناطة المستولي عليها سنة ٥٥١ هـ فكان كاتباً له ، وما أشبه أسباب نكبة أبي جعفر بأسباب نكبة ابن زيدون هذا السبب الذي تمثل في الحب والغرام ، فكما أحب ابن زيدون ولادة بنت المستكفي ، فقد أحب أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد امرأة تدعى حفصة بنت الحاج الركونية المولودة في غرناطة بعيد سنة ٥٣٠ هـ في أسرة ذات شرف وجاه وغنى ، وكانت تتميز بالجمال والذكاء والأدب والثقافة ، وكانت وفاتها سنة ٥٨٩ هـ وقد نافسه في

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٥ ص ٣٨ .

حبَّها عثمان بن عبد المؤمن والي غرناطة، وكانت حفصة تراوح بين المحبين، ودبت الغيرة بين العاشقين وكان أبو جعفر يعرض بغريمه شعراً ونثراً، وبلغ عثمان أن أبا جعفر قال لحفصة : « ما تحبين في هذا الأسود، وأنا أقدر أن أشتري لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه ؟ ! وكان عثمان أسود البشرة، كما أن أخا أبي جعفر بن عبد الملك المدعو عبد الرحمن بن عبد الملك فر إلى محمد بن مردنيش الثائر على الموحدين في مرسية، وشرقي الأندلس، فخاف أبو جعفر على نفسه أن يؤخذ بجزيرة أخيه، ففر إلى مالقة، وتخفى فيها، غير أن غريمه أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن سلط عليه رجاله حتى عرفوا مكانه وألقوا القبض عليه، وبعد فترة قتل أبو جعفر بيد أبي سعيد عثمان الموحدي .

وقيل : إن من أسباب الجفاء بينه وبين أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن أن أبا جعفر لما طلبه أبو سعيد ليكون كاتبه، ورفض أبو جعفر لفترة، خرج في هذه الفترة مع أصحابه للصيد، وخيموا في مكان ما، فشرب أبو جعفر حتى سكر وقال شعراً وهو سكران ومما قاله في شعره :

فقل لحريص أن يراني مُقيداً بخدمته لا يجعل الباز في القفص
وما كنت إلا طوع نفسي فهل أرى مطيعاً لمن عن شأو فخري قد نقص؟

فكان في أصحابه من حفظ هذين البيتين، ووشى بهما للسيد أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن فعزله أسوأ عزل، ثم انتظر حتى فر إلى ما لقة وقبض عليه ، وقتله سنة ٥٥٩ هـ .

أما أخوه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ، وكنيته أبو القاسم فإنه لما علم بمقتل أبي جعفر واصل فراره فرحل من الأندلس إلى المغرب ، ثم إلى مصر ، فالشام فالحجاز ، فالعراق ، فبلاد العجم ، وسكن في بخارى ، وظل فيها حتى قتل على يد التتار سنة ٦١٧ هـ بعد أن عاش طريداً مشرداً^(١) .

(١) راجع في آل سعيد ماييلي : نفع الطيب للمقري ج ٢ ص ٣٧٠ - ٣٧٤ ، ج ٤ ص ١٧٩ - ٢٠٤ . ابن الأثير ج ١٢ ص ٣٨٩ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٧٢ ، تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٥ ص ٣٣٨ .

أثر النكبات في أدب بني سعيد :

كان بنو سعيد أدباء شعراء، وأثّرهم واضح في مجال العلم والأدب، من خلال كتابهم « المغرب في حلى أهل المغرب » وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك كان أديباً بارعاً ، وشاعراً موهوباً، يقول الشعر في كل غرض .

كما كان أخوه أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الملك بن سعيد شاعراً مطبوعاً على قول الشعر، ملمّاً بكثير من العلوم والآداب، وشعره كان يتجه اتجاهاً وجدانياً واضحاً .

ولقد كان للنكبات التي حلت بهذه الأسرة الكريمة المنبت أثر جليّ واضح في أدبهم شعراً ونثراً، وظهر ذلك في القليل الذي وصل إلينا من أدبهم عبر كتابهم «المغرب» والكتب الأخرى، ومن ذلك ما كتبه أبو جعفر بن عبد الملك بن سعيد إلى والده يواسيه ويخفف عنه عندما سجنه عبد المؤمن بن علي سلطان الموحدين حيث قال له : (١)

فبِذَاكَ فَخْرُكَ وَاعْتِلَاءُ الشَّانِ	مَوْلَايَ إِنْ يَحْبِسُكَ خَيْرٌ خَلِيْفَةً
وَالْمَرْهَفَاتُ تُصَانُ فِي الْأَجْفَانِ	فَالْجَفْنُ يَحْبِسُ نُورَهُ مِنْ غُضْبَةٍ
يُعْلِيهِ لِلْأَسْلَافِ وَالتَّيْجَانِ	فَأَبْشُرْ فَتَزْعُ الْبُذُرُ مِنْ أَصْدَافِهِ
إِنَّ الْقَذَى مُلْقَى عَنْ الْأَجْفَانِ	وَلَكِنْ غَدًا مِنْ ظِلِّ دُونِكَ مُطْلَقًا
وَهَدَايَةُ الْإِنْسَانِ بِالْإِنْسَانِ	وَالْعَيْنُ تَحْبِسُ دَائِمًا أَجْفَانَهَا
وَيَهَانَ مَا يَبْدُو مِنَ الْعُنْوَانِ	وَالْطَّرْسُ يَخْتَمُ مَا حَوَاهُ نَفَاسُهُ
سَجَنًا لَغَيْرِ مَذَلَّةٍ وَهَوَانِ	فَاهْـنَأْ نَابَهُ - لَكِنْ مَلِيًّا مَكْتَهُ -
بَذَرَى الْخَلِيفَةَ فِي ذُرَى كَيَوَانَ (٢)	فَلْتَعْلُوْنَ رَغْمَ الْأَعَادِي بَعْدَهُ

مولاي غيرك يعزّي بمالم يزل يجري على الكرام، ويذكر تأنيساً له في الوحشة بما يطرأ من الكسوف والخسوف على الشمس المنيرة والبدر التمام :

(١) نفع الطيب ج ٤ ص ١٨٩ - ١٩١ .

(٢) كيوان : كوكب زحل وهذا اسمه بالفارسية ، ذرى : كنف ورحاب ، وقد يراد بها القمم إذا كانت بضم الذال (ذرى)

وَأَنْتَ تُعَلِّمُ النَّاسَ التَّعْزِيَّ وَخَوْضَ الْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ السَّجَالِ (١)
وقد كان مولاي أنشدني لعلي بن الجهم قائلاً : إِنَّ أَحَدًا لَمْ يُسَلِّ نَفْسَهُ عَمَّا
نالَه مِنَ السَّجْنِ بِمِثْلِهِ :

قَالُوا سَجِنْتَ ، فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرٍ سَجَنِي وَأَيُّ مُهَنْدٍ لَا يُغْمَدُ ؟ (٢)
الآيات ، ماذا تفيدك من العلم وصدرك ينبوعه ، وبخاطرك لا يزال غروبهِ وطلوعهِ ،
وإنما هي عادة تبعناها أدباً ، وقضينا بها ما في النفس من الإلغام بالتوجع والتفجع أرباباً ،
ولعلَّ الله تعالى يتبع هذه التسلية بتهنئة ، ويعقب بالنعمة هذه المرزئة .

فلما بلغ الأمر سلطان الموحدين أمر بتسريحه إثر ذلك ، ولما اجتمع وجه أبي جعفر
بوجه أبيه جعل يحمد الله تعالى جهرًا ، ويفرد بهذه الأبيات ، وكان سراحه بكرة :

طَلَعَتْ عَلَيْنَا كَالْغَزَالَةِ بِالضُّحَى وَعَزَّكَ طُمَاحٌ وَوَجْهٌ مُشْرِقٌ
فَغَفَرًا لَذَنْبِ السُّدْهِرِ أَجْمَعَ إِنَّهُ أَتَى الْيَوْمَ مِنْ حُسْنَاهُ مَا هُوَ أَلْيَقُ
فُلِحَ فِي سَمَاءِ الْعِزِّ بِالسَّعْدِ طَالِعَا وَقَدْرُكَ سَامَ أَفْقِهِ لَيْسَ يَلْحَقُ
فَقَدْ سَرَحَتْ لَمَّا غَدَوْتَ مُسْرَحَا قُلُوبٌ وَأَفْكَارٌ وَسَمْعٌ وَمَنْطِقٌ

فاهتزَّ أبوه من شدة الطرب ، وقال له : « والله إنك لتملأ الدُّلُوكَ إلى عقدِ الكرب » .

والرسالة وما بعدها واضحة وتحمل طابع أخذ الأمور بهدوء ، وعلاج المشكلة بركة ..
فكل ما فيها يحسن السجن في عيني والده .. وهي من قلب المعاني رأساً على عقب ،
وبذلك نجح أبو جعفر في أن يجعل السجن تكريماً لأبيه ، ورفعاً لمكانته ، وفي نفس
الوقت جعل ترك الآخرين طلقاء يتمتعون بحريتهم إهمالاً لهم وإهانة ..

وبلغ من فصاحته أن هنأ أباه بالسجن بأمر أمير المؤمنين ، ولكنه بلغ من حسن
الاحتراس مكاناً طيباً عندما اعترض بقوله :

« لَكِنْ مَلِيًّا مُكْتَهً » حتى لا يظن إنسان أنه شامت بأبيه وأنه يتمنى له طول السجن
كما ختم البيت بقوله : « لغير مذلة وهوان » فما أجمل هذا البيت :

(١) البيت من شعر المتنبي في رثاء أم سيف الدولة الحمداني . (٢) ديوان ابن الجهم : (٤١) .

فاهناً به - لكـــــــــــــــــن ملياً مكثه - سجننا لغــــــــــــــــير مذلةً وهــــــــــــــــوان
والأجمل منه أن يتبعه بقوله :

فلتعلون رغم الأعــــــــــــــــادي بعده بذري الخليفة في ذرى كيــــــــــــــــوان
ويؤكد ما قاله بنون التوكيد الخفيفة دليل ثقته في تحقق قوله، ومن الكياسة
والفطنة أن يجعل علو أبيه بعد هذا السجن في كنف الخليفة الموحد في كنف
غيره، فهو الذي سيرفعه بحنوه عليه ، وإيثاره بالفضل إلى مرتبة النجوم والكواكب التي
رمز لها « بكيوان » وهو اسم لكوكب زحل بالفارسية ، لأن هذا مما أراح صدر الخليفة
وأزال حقه على عبد الملك ، ومحاً سوء ظنه به ، فأفرج عنه في الحال عقب سماعه
هذه الأبيات .

وجاءت تعزيتُهُ لأبيه جميلة المسلك طيبة المغزى، واستعان خلالها بأسلوب
التضمنين حيث دعمَّ قوله بأقوال السابقين أمثال المتنبي، وعلي بن الجهم .. فذكر أباه
بما يخفف عنه ...

أما طريقته في التعبير عن فرحته بالإفراج عن أبيه وتسريحه فإن الأبيات التي صرخ
بها ، ورفع بها عقيرته وهو يستقبل أباه في عالم الحرية لتجعلني، بل وتجعل كل متلقٍ
قارئاً كان أو سامعاً يشاركه سعادته لأنها كلمات نبعت من سويداء فؤاده فبلغت مكانها
في أفئدة الآخرين، فهو صادق كل الصدق لأن الأمر بعيد كل البعد عن النفاق أو
الرياء، ولذلك تواردت الصور التي ترسم فرحته توالي الماء الرقاق في الجدول المنساب
بين أزاهير الرياض فطلعة أبيه ، كطلعة الشمس في الضحى، وعزه في رفعة وعلو، والدهر
يحمل البهجة والفرحة، والعز سماء والأب كوكب من كواكبها - الخ .

ولعل القارئ معي في أن أبا جعفر كان لبقاً أياً عزيز النفس حيث لم ييدر منه
تذللٌ ولا خضوع، بل استطاع أن يرضي غرور الموحد، ويثلج فؤاده بحلو التعبير،
ويستل سخيمته بجميل المنطق دون أن يتردى في هاوية التذلل، والرضا بالعبودية لغير
الخالق، وبلا تقبيل لباطن الأكف وظهورها .. وتأكّد لنا عزة نفسه وإياؤه من خلال
ماقاله عندما وقع في قبضة أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن والي الموحدين على غرناطة،

وَأُلْقِيَ بِهِ فِي السَّجَنِ، وَبِرْغَمِ عِلْمِهِ أَنَّهُ هَالِكٌ لَا مُحَالَةَ، فَإِنْ فِيمَا رَوَاهُ الْمُقْرِيُّ^(١) عَنْ «الْأَزْهَارِ الْمَشْهُورَةِ فِي الْأَخْبَارِ الْمَأْثُورَةِ» أَنَّهُ لَمَّا قُبِضَ عَلَى أَبِي جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدِ الْعَنْسِيِّ وَتُقِفَ (أَي قِيدَ) بِمَا لَقِيَ، دَخَلَ إِلَيْهِ ابْنُ عَمِّهِ، وَوَصَلَ إِلَى الْجَمَاعِ بِهِ رِثْمًا اسْتَوْذَنَ السَّيِّدَ أَبُو سَعِيدِ ابْنَ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ فِي أَمْرِهِ، قَالَ : فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ حِينَ رَأَيْتُهُ مَكْبُولًا ، فَقَالَ لِي أَعْلَى تَبْكِي بَعْدَ مَا بَلَغْتَ مِنَ الدُّنْيَا أَطَايِبَ لَذَائِهَا، فَأَكَلْتُ صَدُورَ الدَّجَاجِ، وَشَرِبْتُ فِي الزَّجَاجِ، وَلَبَسْتُ الدِّيَاجِ، وَتَمَتَّعْتُ بِالسَّرَارِيِّ وَالْأَزْوَاجِ، وَاسْتَعْمَلْتُ مِنَ الشَّمْعِ السَّرَاجَ الْوَهَّاجِ، وَرَكَبْتُ كُلَّ هِمْلَاجٍ، وَهَا أَنَا فِي يَدِ الْحَجَّاجِ، مُنْتَظَرٌ مَحَنَةَ الْحَلَّاجِ، قَادِمٌ عَلَى غَافِرٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى اعْتِذَارٍ وَلَا احْتِجَاجٍ ؟، قَالَ : فَقُلْتُ : أَفَلَا يُؤْسَفُ عَلَى مَنْ يَنْطَلِقُ بِهَذَا الْكَلَامِ ، ثُمَّ يَفْقَدُ ؟ !

فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ الْعَهْدِ بِهِ، حَيْثُ قُتِلَ بَعْدَهَا ..

وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ بِاطْمِئْنَانٍ : إِنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ هِيَ الشَّعْرُ الْمُنْثُورُ الَّتِي دَلَّلَ بِهَا أَبُو جَعْفَرٍ عَلَى شُبْعِهِ مِنْ مَتَعِ الْحَيَاةِ، وَزَهْدِهِ فِي مَا بَقِيَ مِنْهَا وَاسْتِسْلَامِهِ لِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَعَدَمَ جَرِيهِ لَاهُثًا وَرَاءَ خَصْمِهِ يَسْتَدِرُّ عَطْفَهُ وَيَسْتَرْحِمُهُ كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْأُمَرَاءِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ خَصْمَهُ عَنِيدٌ، وَأَنْ لَا فَائِدَةَ مِنْ رَوَاءِ اسْتِرْحَامِهِ وَاسْتِعْطَافِهِ، فَمَنْ الْأَفْضَلُ لَهُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِكَرَامَتِهِ وَعِزَّةِ نَفْسِهِ .. وَهَذَا الْمَوْقِفُ الَّذِي تَنَمُّ عَنْهُ الْعِبَارَاتُ الَّتِي وَجَّهَهَا لِابْنِ عَمِّهِ الْبَاكِي عَلَيْهِ لَمْ يَأْتِ مِنْ فَرَاغٍ ، إِنَّمَا نَبَعَ مِنْ مَوْقِفٍ سَبَقَهُ قَبْلَ الْقَبْضِ عَلَيْهِ أَثْنَاءَ تَخْفِيهِ فِي مَالِقَةِ، فَقَدْ أُرْسِلَ مِنْ مَكْمَنِهِ إِلَى أَبِي سَعِيدِ عَثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ رِسَالَةً شَعْرِيَّةٌ تَحْمِلُ اعْتِذَارًا رَقِيقًا كَشَأْنِ أَبِي جَعْفَرٍ فِي الْاعْتِذَارِ مَعَ الْإِحْتِفَازِ بِمَاءِ الْوَجْهِ دُونَ إِرَاقَةِ، وَبَلَا إِحْرَاقٍ لِبُخُورِ النِّفَاقِ وَالتَّمَلُّقِ، وَكَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَعْذِرَهُ أَبُو سَعِيدٍ، وَأَنْ يَقْدِرَ دَافِعُهُ إِلَى الْفِرَارِ، وَلَكِنْ الرَّدُّ عَلَيْهَا كَانَ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ وَسَجْنِهِ، وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ الَّتِي أَعْنِيهَا لَمْ يَشْرَ صَاحِبُ النِّفَاحِ إِلَى مَغْزَاهَا وَلَكِنْ دَلُّ عَلَيْهِ مَعْنَاهَا، بَلْ اِكْتَفَى بِالتَّقْدِيمِ لَهَا بِقَوْلِهِ : « وَلَهُ، وَقَدْ أَحْسَنَ^(٢) مَا شَاءَ .. » ثُمَّ سَاقَ الْأَبْيَاتَ عَقِبَ ذَلِكَ، وَبِقِرَاءَةِ الْأَبْيَاتِ قِرَاءَةً مُتَأَنِّيةً أَيقَنْتُ أَنَّهَا فِي الْاعْتِذَارِ لِأَبِي سَعِيدِ عَثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ لَعَلَّهُ يَعْفُو عَنْهُ، وَيَقْدِرُ

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠٤ . (٢) نفح الطيب ج ٤ ص ١٨٥ .

زكته، ويسمح له بالعودة إلى غرناطة ، وإليك هذه الرسالة : (١)

تَرَكْتُمْ لَا كَارِهًا فِي جَنَابِكُمْ
وَطَاحَتْ بِي الْأَطْمَاعُ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ
وَمَا بِاخْتِيَارٍ فَارَقَ الْخُلْدَ آدَمُ
وَلَكِنَّهَا الْأَيَّامُ لَيْسَتْ مُقِيمَةً
وَأَنْتَ إِنْ فَكَّرْتَ فِيهِ مَا أَتَيْتَهُ
وَلَكِنْ لِحَاجٍ فِي النُّفُوسِ إِذَا انْقَضَى
وَإِنِّي لَمَنْسُوبٌ إِلَيْكُمْ وَإِنْ نَأَتْ
وَإِنِّي لَمُثْنٍ بِالَّذِي نَلْتُ مِنْكُمْ
وَإِنْ خَتَمْتُمْ يَوْمًا فَخَانَنِي الْمَنَى
عَلَى أَنِّي أَقَرَرْتُ أَنِّي مُذْنِبٌ

وَلَكِنْ أَبِي رَدِّي إِلَيَّ بِابِكُمْ دَهْرِي
تَقْلَنِي مِنْ كُلِّ سَهْلٍ إِلَى وَعْثٍ
وَمَا عَنْ مُرَادٍ لِأَيُّوبَ بِالصَّبْرِ
عَلَى مَا اشْتَهَاهُ مُشْتَهَى أَمْسَدَ الْعُمُرِ
تَيَقَّنْتُ أَنَّ السُّتْرَ لَمْ يَكُ عَنْ غَدْرِ
رَجَعْتُ كَمَا قَدْ عَادَ طَيْرٌ إِلَى وَكْرِ
بِي الدَّارُ عَنْكُمْ ، وَالْغَدِيرُ إِلَى الْقَطْرِ (٢)
مَقِيمٌ عَلَيَّ مَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْبَرِّ
وَسَاءَ لَدَيْكُمْ بَعْدَ إِحْمَادِهِ ذِكْرِي
وَذُو الْجُودِ مِنْ يُغْنِي الْمَقْرَ عَنْ الْعُذْرِ

فأبو جعفر يرتكز في رسالته هذه على محور أساسي هو أنه إن كان فارق غرناطة، وفارق كنف أبي سعيد ، فإن ذلك الفراق لم يكن عن كراهية ولا رغبة في الغدر، ولكن ذلك نتيجة الحاح نفسي نشأ عن خوف ورهبة وعندما ينقضي هذا الخوف سأعود سريعاً عودة الطير إلى وكرة مشوقاً إليه، وقيم الدليل على ذلك بقوله : « وإني لمنسوب إليكم .. البيت » ثم يتبع ذلك بإقراره بأمرين : الأول : إقراره بالنعمة والفضل وإقامته على عهد البر .

والثاني : اعترافه بالذنب بعد نفيه جرم الخيانة عن نفسه، وكأنه يقر بالخطأ، ولكنه يطمع في سمو نفس أبي سعيد، فصاحب النفس العظيمة يغني من اعترف وأقر بذنبه عن الاعتذار ... ، ومع ذلك احتفظ بإباء نفسه، ولم يرق ماء الحياء من وجهه، وهذا ناتج عن قدرة لغوية ، وحس بلاغي طيب .

(١) المرجع السابق نفسه . (٢) في الكلام خبر محذوف تقديره (والغدير إلى القطر منسوب) وإذا أبدلنا الواو كافاً قلنا : (كالغدير إلى القطر) تحول الكلام إلى تشبيه واستقام المعنى ، ولم يحتاج الأمر إلى تقدير خبر محذوف .

أما أخوه أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الملك بن سعيد الذي يرجع إليه السبب الأساسي في فرار أبي جعفر من غرناطة ، فإنه لما أحس بالخطر يقترب منه بعد مقتل أبي جعفر فقد بادر بالفرار من الأندلس كلها ولكنه كان يفر من قضاء الله إلى قدر الله ، حيث ألقى عصا الترحال في بخارى ، وأقام بها وظن أنه أصبح في منجى من القتل ، ولكن لاهروب من المقدور فقد قتل على يد التتار الظالمين عندما اجتاحوا تلك البقعة من بلاد المسلمين ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١)

وأحداث تاريخ أبي القاسم تحدثنا أن نكبته تمثلت في تشرده عن وطنه وأهله وأحبابه ، حيث عاش شريداً طريداً ، يقاسي آلام الغربة ، ويعاني الوحدة حتى مقتله سنة ٦١٧ هـ بعد سنوات من العذاب والمعاناة ، واليأس من عودته إلى الأندلس ، ولقد انعكست آثار غربته على أدبه شعراً ونثراً ، ومن شعره في هذه الفترة ما أرسل به من «سمرقند» إلى أهله بالأندلس يصف شقائه في أسفاره ، ويبيد يأساً من الإياب (العودة) إلى وطنه ومرتع صباه ، وفي ذلك يقول : (٢)

مَنْ لَصَبٌ يَرَعَى النُّجُومَ صَبَابَهُ	ضَيْعَ السَّيْرِ فِي الْهُمُومِ شَبَابَهُ؟
زِدْتُ بَعْدَ فَرْدَتٍ اقْتِرَاباً	بُودَادِي كَذَاكَ حُكْمُ الْقَرَابَةِ
مَنْزِلِي الْآنَ سَمَرْقَنْدُ ، وَبِالْقَعْلِ	عَةِ رُبْعٍ وَطُئْتُ طِفْلاً تُرَابَهُ
شَدَّ مَا أَبْعَدَ الْفِرَاقُ انْتِزَاحِي	هَكَذَا الْكَلِثُ لَيْسَ يَدْرِي اغْتِرَابَهُ
لَا ، وَلَا أُرْتَجِي الْإِيَابَ لِلْأَمْرِ	إِنْ يَكُنْ يَرْتَجِي غَرِيبَ إِيَابَهُ

هذه الأبيات رغم قلتها إلا أنها عبّرت بصدق عن معاناة الشاعر إذ أنه قد استهلها

(١) سورة لقمان الآية (٣٤) .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٣٧٠ ، تاريخ الأدب العربي ج ٥ ص ٦١٩ د. عمر فروخ .

بهذا الأسلوب الاستفهامي الدال على الشوق واللهفة .

من لَصَبٌ يرعى النجوم صباه ضَيِّعَ السَّيرُ في الهموم شبابه ؟

من الذي يرعى المحب الذي يبيت ساهراً يراعي النجوم لشدة أرقه وعنف شوقه إلى محبيه، وقد شببته همومه ، وضعت شبابه لكثرة ما يفكر فيها .. ومن العجيب أنه كلما ازداد بعداً ازداد شوقه إلى أهله وأحبابه، وأكثر من التفكير فيهم وفي أحوالهم فأضحى وكأن قلبه معلق بقلعة يحصب أو كما كانوا يسمونها قعدة بني سعيد حيث مرابع الصبا، وملاعب الشباب هناك قرب غرناطة، ويتعجب من تأثير الانتزاح عليه، وتسببه في زيادة ابتعاده (شدَّ ما أبعد الفراق انتزاحي !) ولكن هكذا الرجل الشجاع شجاعة الليث لا يدري ولا يشعر بالمسافات التي يقطعها، وفي النهاية يكشف عن يأسه من العودة إلى موطنه قائلاً :

لَا، وَلَا أَرْتَجِي الْإِيَابَ لَأْمُرٍ إِنْ يَكُنْ يَرْتَجِي غَرِيبَ إِيَابِهِ

وفي رسالة أخرى بعث بها إلى أهله من مدينة بخارى بعد أن استقر به المقام فيها ، وقد جمع بين الشعر والنثر في رسالته يقول (١)

إِذَا هـ_____بَّتْ رِيَّاحُ الْغَرْبِ طَارَتْ	إِلَيْهَا مُهْجَتِي نَحْوَ التَّلَاقِي
وَأَحْسَبُ مَنْ تَرَكْتُ بِهِ يَلَاقِي	إِذَا هَبَّتْ صَبَّاهَا مَنَ الْآقِي
فَيَا لَيْتَ التَّفَرُّقَ كَانَ عَدْلًا	فَحُمِّلَ مَا يُطَيِّقُ مِنْ أَشْتِيَاقِي
وَلَيْتَ الْعُمَرَ لِمَنْ يَرِخُ وَصَالًا	وَلَمْ يَخْتَمْ عَلَيْنَا بِالْفِرَاقِ

إذا كان الشوق فوق كلِّ صفة، فكيف تعبّر عنه الشفة ؟، لكن العنوان دلالة على بعض ما في الصحيفة، والحاجب قد ينوب في بعض الأمور مناب الخليفة، وما ظنكم بمشوق طريح، في يد الأشواق طليح، يقطع مسافات الآفاق يتقلّب تقلّب الأفياء، ويتلون تلوّن الحرباء، حتى كأنه يخبر مساحات الأرض، ذات الطول والعرض، ويجوب أهوية

(١) نفح الطيب جـ ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٣ .

الأقاليم السبع خارجاً بما أدخله فيه اللجاج عن الشرع، فكان خليفة الإسكندر، لكن ما يجيش من هموم الغربة بفكري قائمة مقام الجيش والعسكر كتبت وقد حصلتني السعادة، وحظ الأمل والإرادة بحضرة بخارى قبة الإسلام .

وأجابه أهله من الغرب بكلام من جملته : « وان كنت قد تحصنت بقبة الإسلام فقد تعجلت لنا ولك الفقد قبل وقت الحمام » .

وأتبعوا ذلك بما دعاه لأن يخاطبهم بشعر منه :

عَتَبْتُمْ عَلَى حَتِيّ الْمُطَيِّ وَقُلْتُمْ نَعَجَلْتُ فَقَدْ قَبْلَ وَقْتِ حَمَامٍ
إِذَا لَمْ يَكُنْ حَالِي مُهِمًّا لَدَيْكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ رِحْلَتِي وَمَقَامِي

رسالة الشاعر كسابقتها تحمل معاني الشوق واللهفة ، فها هو يتقرب هبوب الرياح من الغرب لتطير إليها مهجته، أي سويداء قلبه وعصارتة ، ويظن أن أهله يتربصون ريح الشرق ويجونها لأنها تحمل لهم عطره ورائحته ، ويرى أن التفرق لم يكن عدلاً، ويدعو على من كان سبب افتراقه عن أهله وأحبابه أن يحمل من ألم الفراق مثل ما يحمل هو في قلبه ليشرب من نفس الكأس الذي سقى الشاعر منه، ويتمنى أن يقترب اللقاء قبل نهاية العمر، ولا تختتم حياته بعيداً عن أحبته .

ويجعل رسالته رسول الشوق والمودة إلى أهله، ويصف حالته وهو يجوب بقاع الأرض هائماً على وجهه ، وقد أصابه الهزال من شدة الشوق، وحل به التعب والإعياء ، وبلغابه مبلغاً عظيماً، ويصور نفسه بالإسكندر الأكبر الذي كان يجوب أنحاء العالم بجيوشه وعساكره، لكن عساكر شاعرنا المصاحبة له هي هموم غربته، ومخاوفه التي تتنابه وتساوره ولما رأى أهله أنه باستقراره في بخارى بعيداً قد عجل بالفقد والفراق قبل وقت الحمام أي الموت ردّ عليهم مشتطاً في عتبه عليهم متهماً لهم بأنهم إن لم يهتموا بحاله، ويعرفوا سبب ابتعاده عنهم ، فإقامته بينهم أو رحيله عنهم سواء ...

وجهة نظر نقدية :

لا شك أن النكبات كان لها أثرها ، ولها انعكاساتها في أدب هذين الشاعرين ولدي

عبد الملك بن سعيد ، فقد أثرت في وجدان كل منهما فجعلته مشوباً مُتوقِّداً وهاجاً ، وإن كان شعر أبي القاسم عبد الرحمن أكثر وجدانية من شعر أخيه أبي جعفر في كثير من الأحيان .

ومن ناحية التفنن في القول، واللباقة في العرض نرى أن أبا جعفر أكثر قدرة في أسلوب العرض، وهندسة العبارة، ودقة التعبير حيث كان أكثر دقة في انتقاء التعبيرات المناسبة لكل موقف في ظرف وحسن إحتراسٍ ودقة ..

أما التصوير فما بين أيدينا من نتاج أدبي سواء كان شعراً أو نثراً يبين لنا أن أبا جعفر من الشعراء الذين يفيض معينهم بالصور المتنوعة والتي يمكنه توظيفها بدقة في خدمة الفكرة والمعنى بينما نجد أن أبا القاسم قد غلبت علومه ومعارفه في صياغاته شعراً ونثراً خصوصاً علوم الجغرافيا والتاريخ فهو شديد الاهتمام بالرياح الغربية والشرقية والحديث عن الأقاليم السبعة، والإسكندر الأكبر .. إلخ .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

(٦) « أَبُو الْقَاسِمِ الْبَلَوِيُّ الْإِشْبِيلِيُّ »

التعريف بالشاعر :

هو أبو القاسم أحمد بن محمد البلويّ الإشبيلي، من أهل إشبيلية وكان أديباً شاعراً نائراً متوسعاً في فنون الأدب، مشتهراً بصناعة الكتابة، وقد عمل أول أمره كاتباً لنفَرٍ من ولاة الموحدين في الأندلس وأصيب في أواخر حياته بمرض الوسواس الذي كاد أن يذهب عقله وتوفي في سنة ٦٣٢ هـ. (١)

نكبة هذا الشاعر :

لم أتعرض لهذا الشاعر إلا لأن نكبته كانت فريدة من نوعها بين النكبات التي أَلَمْتُ بشعراء الأندلس، فلقد لحقه من الشُّوم ما جعل الناس يتشاءمون من صحبته ورؤيته، ويتحاشون لقاءه، حتى قيل : إنه لا يعمل لرئيس، ولا يصاحب نبيلاً فيصحبه إلا وحدث لهذا النبيل أو لذلك الرئيس حادث مؤلم أو أمر مؤذ، وكأنَّ النَّحْسَ والشُّومَ يسيران في ركابه أو يكمنان تحت إهابه، لذلك تخاشاه الناس فانقطع عيشه وسدت أبواب الرزق في وجهه، وعاش معزولاً عزلة البعير الأجرب بين جدران بيته حتى أَلَمَ به مرض الوسواس فصار يشك في كل شيء، ولا يثق حتى ولا في نفسه حتى كاد أن يصاب بالجنون، وظل على ذلك إلى يوم وفاته .

أثر هذه النكبة في أدبه :

ينبغي أن نشير إلى أننا لم نعر على شيء من النتاج الأدبي المتأثر بهذه النكبة إلا ما رواه صاحب القدح المعلى علي بن موسى بن سعيد العنسي وهو عبارة عن رسالة نثرية بعث بها أبو القاسم الإشبيلي إلى أحد إخوانه قبل نكبته يشكو فيها مما أَلَمَ به ، ويتوجع

(١) راجع : القدح المعلى : لعلي بن موسى بن سعيد العنسي ص ١٢٠ ، وتاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٥ ص ٦٨١ .

من بُؤسه ويأسه، ويسأله شيئاً يستعين به على شقاء الحياة .

وكذلك أبيات رواها المقرئ صاحب نفح الطيب لا يصل عددها إلى عدد أصابع اليد الواحدة لكنها جاءت بالغة الدلالة على ما أصاب الشاعر من البؤس واليأس بسبب عزله ، وتحاشي الناس له وفي هذه الأبيات يقول :^(١)

لَمَنْ أَشْكُو مُصَابِي فِي الْبَرَايَا	وَلَا أَلْقَى سِوَى رَجُلٍ مُصَابٍ !
أُمُورٌ لَوْ تَدَبَّرَهَا حَكِيمٌ	لِعَاشَ مَدَى الزَّمَانِ أَخَا اكْتِنَابٍ
أَمَا فِي الدَّهْرِ مَنْ أَفْشَى إِلَيْهِ	بِأَسْرَارِي فَيُؤْنَسَ بِالْجَوَابِ ؟
يَسْتَمِنُ مِنَ الْأَنَامِ فَمَا جَلِيْسٌ	يَعَزُّزُ عَلَيَّ نُهَاسِي سِوَى كِتَابِي

فأبو القاسم الإشبيلي يوجه اتهامه إلى الناس كما اتهموه، فكل الناس في نظره مصابون، فليس بينهم من يصلح لأن يشكو إليه ويشير إلى ما حلّ به بصورة التنكير بقوله : « أمور لو حكيم تدبرها ... البيت) أي أمور عظيمة جسيمة لو تدبرها إنسان عاقل حكيم لأصيب طول حياته بالاكتئاب، واستاءت نفسه، ثم يعود إلى أسلوب الاستفهام الانكاري « أما في الدهر من أفشى إليه البيت ؟ » أي ليس في الدهر من أبوح له بسرّي ليؤنسني بتعليل يشفي غليلي ويخفف عني بكلمة طيبة، وهذا ما أصابني باليأس الشديد من كل الناس، ولم أجد لي جليساً يؤنس وحدتي سوى كتابي الذي يعزّ عليّ، وأعتزّ به ..

إنها كلمات تقطر بالأسى والألم والحسرة ، وترسم المראה مجسدة في حياة صاحبها، وتكشف عن يأسه من كل الناس .

أما الرسالة التي رواها صاحب « القُدح المَعْلَى » فمِمَّا جاء فيها ^(٢) :

« ... وما كتبتُ إليك، يا أخي المشفقَ الحذبَ هذا الكتاب إلا وأنا مؤلِّهُ العقلَ ثمَّ حلُّ بي من اعتداء الزمان، وخِذلانِ الأصحاب، وأشدُّ من ذلك اختلالُ أحوالِ ربِّة الدار،

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٣٢٥ .

(٢) القُدح المَعْلَى . علي بن موسى بن سعيد ص ١٢١ - ١٢٢ ، وتاريخ الأدب العربي ج ٥ ص ٦٨١ .

وكونها جارت في أفعالها ، وأقوالها ، وجرت علي غير الاختيار :
عِنْدِي مِنَ الْحُزْنِ مَا لَوْ أَنَّ أَيْسَرَهُ يُلْقَى عَلَى الْفَلَكَ الدَّوَّارِ لَمْ يَدِرْ

وكيف يهنأ العيشُ مع سوء الحال باطنا وظاهراً ووارداً وصادراً .

أحياني الله بالحمام ، وحياني بحلول دار السلام .

لا مُشْتَكِي يا أخي ، إلا إليك وإن كنتُ أوردُ من ذلك ما يشقُّ عليك ، لكنني أعلمُ
حُسْنَ مُشَارَكَتِكَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، ومحافظتك على شروط الوداد والإخاء . »

في هذه الرسالة يخاطب صديقه ويصفه بالعطوف المشفق على صديقه عطف الأب
الحاني الشفوق على ولده .. ويبين حاله وهو يكتب الرسالة فقال : إنه مؤلِّه العقل .. أي
أذهب الحزن ممَّا حلَّ به عقله ، فالزمان جار عليه ، والإخوان تخلَّوا عنه وفارقوه ، وممَّا زاد
الطين بلة أن امرأته هي الأخرى جارت عليه ، وتخطت حدودها معه في أقوالها وأفعالها ،
وبالهلول ما به من الحزن ، وهذا واضح من قوله :

عِنْدِي مِنَ الْحُزْنِ مَا لَوْ أَنَّ أَيْسَرَهُ يُلْقَى عَلَى الْفَلَكَ الدَّوَّارِ لَمْ يَدِرْ
والبيت يجسدُّ ثقل الحزن والهمَّ على قلب الشاعر ، هذا الحزن الذي بلغ من شدته
وهوله درجة بالغة حتى إنه لو أُلْقِيَ عَلَى الْفَلَكَ الدَّوَّارِ لمنعه من الدوران لأنه سينوء بثقل
حملة .

ولقد أصبح الشاعر لا يشعر بهناء العيش ولا لذته لأن حاله قد ساءت ظاهراً
وباطناً ، ويسأل الله أن ينقذه ممَّا هو فيه بالموت ، ويسعده باستقباله في دار السلام أي
الجنة ، وفي تعبيره (أحياني الله بالحمام) تأثر بالقرآن الكريم حيث يقول الحق سبحانه :
﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) فالشاعر اعتبر موته الذي صار يتمناه وسيلة لنقله إلى الحياة الحقيقية
الأبدية وهي الحياة في الدار الآخرة حيث لا حقد ، ولا بغض ، ولا حسد ولا غل ولا
غدر ولا تشاؤم ...

(١) سورة العنكبوت الآية (٦٤) .

ويختم رسالته ببيان الغرض من إرسالها ، وهو طلب العون والمساعدة من صديقه معذراً إليه عن الانتقال عليه ، ومبيناً أن الذي أطمعه في كرم هذا الصديق ، هو ما عرف عنه من حسن مشاركته لصديقه في الشدة والرخاء ، ولما لمسه فيه من حفاظ على عهد الإخاء ، وشروط المودة

وجهة نظر نقدية :

إن أبا القاسم الإشبيلي كان شاعراً موهوباً ، وكان له قبل حلول النكبة به شعرٌ تغني به الناس ، وأثنوا عليه ومن ذلك قصيدته التي ألقاها بين يدي أبي العلاء إدريس الموحدي يهنئه فيها بالجلوس علي سيدة الحكم في إشبيلية وذلك سنة ٦٢٣ هـ ، وكان مطلع تلك القصيدة : « يا قبة السعد هزي قبة الوادي »

قال أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد « لم ألق بإشبيلية من الأدباء والشعراء إلا من يحفظ هذه القصيدة ، ويلهج بذكرها ، ثم لا يحفظون ما بعدها » (١)

ولن يحدث هذا بطبيعة الحال إلا إذا امتلأت القصيدة بالمعاني المشرقة والضياء ، والصُور الجيدة ، والتعبيرات الموحية لا سيما أن هناك شعراء آخرين ألقوا قصائد أخرى في التهنية أيضاً ، وفي نفس المناسبة ، ولكن كما يقول ابن سعيد : شغل الناس بقصيدة أبي القاسم الإشبيلي ، وانصرفوا عما سواها .. ولما نكب بكراهية الناس لقاءه ، وتجنب الولاة والحكام استخدامه ، وعزل بين جدران بيته تغير أسلوبه ، فلقد سيطر اليأس على تعبيراته ، وصوره ، فجاءت قاتمة سوداء وأصبحت كلماته موحيةً باليأس من الحياة ، والكراهية لهؤلاء الذين وصموه بوصمة التشاؤم وقالوا : إنه رجل شؤم ، وأصبح يتمنى الموت ، ويرى نفسه في الدنيا ميتاً ، ولن يحيا حياة حقيقية إلا بالموت ليحيا في الآخرة منعماً في دار السلام .

ومن خلال هذا يتأكد لنا أن النكبة الغربية من نوعها كما قدمت لها قد أحدثت تحولاً جذرياً في حياة الإشبيلي ، وفي أدبه شعراً ونثراً وهذا ما وضع لنا من النموذجين الوحيدين اللذين عثرنا عليهما من أدبه .

(١) القُدح المعلق علي بن موسى بن سعيد ص ١٢٠ ، تاريخ الأدب العربي : د. عمر فروخ ج ٥ ص ٦٨٠ .

رَفَعُ

عبد الرحمن النخعي
أسكن الله الفردوس

(٧) « أَبُو عَامِرُ بْنُ الْأَصِيلِيِّ »

التعريف بالشاعر :

أبو عامر بن الأصيلي شاعر من الشعراء الجوابين في الآفاق الذين يسعون إلى التكسب بالمدح، والاستجداء بالشعر في زمن كسدت فيه سوقه، وأصله من مدينة سرقسطة .

قال عنه ابن بسام : « وكان أبو عامر جوابة آفاق، وناظماً وناثراً باتفاق، وله بيتٌ شرف، وسابقة سلف، وقد أثبتُ بعض ما وقع إليّ من شعره، على معرفتي بقدرة، لنباهة سلفه واشتهار ذكره، وقال عنه أيضاً : « جوابة آفاق .. مشحوذ المدية في الكدية ، وهي التي بلغت بلاد النصرارى . (١) »

نكبة الشاعر :

نكب الشاعر في حياته بالفقر الشديد، ولما كان موهوباً في الشعر والنثر كما أشار ابن بسام فإنه أراد أن يستغل تلك الموهبة الأدبية الممتازة في التغلب على الفقر، فراح يسعى هنا وهناك مادحاً الأمراء والوزراء والحكام وسراة الناس، والأثرياء منهم طوافاً على مدن الأندلس وقراها، ولكن يبدو أنه في أغلب الأحوال لم يكن يظفر ببيغيته أو يصل إلى طلبته ، وهذا ما يكشف عنه شعره، ونتيجة لتجواله سعياً وراء الرزق، فقد هجر مراتب الصبا والشباب في سرقسطة، تاركاً وراء ظهره الأهل والأحباب، وظل يعاني آلام الغربة والشقاء والحرمان .

(١) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٨٥٧ .

أثر نكبته في شعره :

أول ملامح تأثير النكبة التي نكبها أبو عامر الأصيلي ، أنه عندما الجأ فقره إلى الخروج من مدينته سرقسطة ، وانقطعت به السبل عنها ، تشوق إليها وتذكر أيامه فيها ، فقال متذكراً ومتشوقاً : ^(١)

على سرقسطة أبكي دما	وأموأها العذبة المحية
وقوم كرام فواحسة	على الجمع منهم أو التثنية
وأصبحت في بلدة أهلها	سباع لأهل السنهي مؤذيه
تعرضت منهم بأرض أرى	أفاعيل أربابها ملهيه
فكم كأس ذل تجرعتها	ولم أبدها وهي لي مخزية
وكم ليلة بثتها طاويا	ونفسي عن الكشف مستحيه
« وقد يلبس المرء حر الثياب	ومن تحتها حالة مضنيه »
« كما يكتسي خده حمرة	وعلتها ورم في الرية » ^(٢)
عسى الله يعقبنا صحوة	فمن عنده الداء والأدوية

وإذا كان أبو عامر قد شكى وبكى على فراقه لبلده وأهله ، وأعلن تشوقه لمربع الصبا والشباب ، فإنه لم ينس أن يصف حاله في غربته ، فلقد حلّ ببلدة وصف أهلها بأنهم سباع ضارية تؤذي أهل العقول ، من أرباب العلوم والآداب ، فإنهم لا يعرفون أقدارهم ، كما أنهم أصحاب أفاعيل ملهية ، وأخبر أبو عامر عن الدلّ الذي تجرّع كؤوسه مترعة ، وتحمل مرارتها وعمل على إخفائها عن الأعين بينما هي مخزية له فاضحة ، وكم من الليالي بات جائعاً ، بات على الطوى ، ويمنعه حياؤه من الكشف عن مسغبته وهو يتضور جوعاً ، ثم اقتبس بيتين لأبي الفتح البستي معناهما :

أن المرء قد يتوارى تحت جميل الثياب من حقيقة فقره المضنية كمن يتورّد خده

(١) المصدر السابق .

(٢) البيتان بين الأقواس من شعر أبي الفتح البستي من شعراء البيتمة .

حمرة حتى يظنه الناظر إليه صحيحاً معافاً بينما سبب تورّد خديّه ورم في رثته .. وأخيراً يرجو الشاعر أن يعقبه الله صحة وعافية، فمن عند الله الداء والدواء .

ولقد طوّف أبو عامر بلاد الساحل مادحاً مستجدياً فما حظي منها بكبير طائل فراح يهجو تلك البلاد وأهلها، ويدعو عليهم وعليها قائلاً : ^(١)

إِلْهِىَ أَيْنَ الْفَرَارُ وَلَا فَرَارُ	وَمَنْ لِي بِالْقَرَارِ وَلَا قَرَارُ
أَرَى الْأَوْغَادَ يَتَمَرُّونَ دَوْرًا	وَمَالِي فِي بِلَادِ اللَّهِ دَارُ
إِذَا رَكَبُوا الْمَذَاكِي وَالْمِطَايَا	فَمَرَّ كَوْبِي عَلَى شَرَفِي حِمَارُ
أَجُولُ فَلَا أَرَى إِلَّا رَعَاءَا	كَبَارِهِمْ إِذَا اخْتَبَرُوا صِغَارُ
أَبَاجَةٌ لَا وَقَاكَ اللَّهُ شَرًّا	فَأَهْلَكَ أَهْلُ مَفْسَدَةِ شَرَارُ
أَشْلُبُ لَا جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا	فَلَا خَيْرَ لَدَيْكَ وَلَا خَيْرَ بِيَارُ
أَسْتَمِيعُ رِيَّةً قُبْحَتِ دَارًا	كَؤُوسُ الْمُخْزِيَاتِ بِهَا تُدَارُ
أَشْطِيشُ أَلَا غَرَقُ وَشِيكَ	تَمُوجُ عَلَى ثَرَاكِ بِهِ السِّبْحَارُ
أَوْنِبُ تَعْدَتِكَ الْغَوَادِي	وَلَا هَطَلَتْ بِسَاحَتِكَ الْقَطَارُ
أَلْبَلَّةُ كُنْتُ صَالِحَةً وَلَكِنْ	أَتَى ابْنُ حَلِيفَةٍ وَأَتَى الشَّنَارُ
بِلَادُ عَرِيَتْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ	فَمَلَبَسُ أَهْلِهَا مَسَقَتْ وَعَارُ
غَلَطْتُ فَزَرْتَهَا فَرَأَيْتُ قَوْمًا	مَنَازِلَهُمْ وَإِنْ عَمُرْتُ قِفَارُ
تُرْدُ عَنِّي أَشْعَارِي وَيُجَفُّ	رَسُولِي، وَالنَّبَاهَةُ لِي شَعَارُ
شَتَوْتُ بِهَا عَلَى كَرِهِ فُغْطَى	عَلَى حُدِّي وَمَعْرِفَتِي الْغَبَارُ

أرأيت كيف يقارن بين حالته وحالة من راح يستجديهم ويستعطيهم دون جدوى، فحظوظهم من الدنيا عظيمة، وحظه فيها تعيس، وفي ظني أن أبا عامر قد أطلق لسانه في

(١) الذخيرة : ق ٣ م ٢ ص ٨٦١ .

سبَّ هؤلاء الناس الذين يقطنون بلاد الساحل الأندلسي فوصفهم بأقذع الألفاظ ، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على أنَّ في قلبه مرجل من الغيظ يغلي، وفي صدره بركان من الحقد يتأجج كما راح يصبُّ جامٌ غضبه على البلاد بعد أن صبَّه على أهلها وساكنيها وراح يذكرها واحدة تلو أخرى، وينعت أهل كل بلد بما يراه فيهم أو يستحقونه، « فباجة » أهلها أهل مفسدة شرار، فلا وقاها الله الشر، و« شلب » لا خير لديها ولا خيار، فلا جزاها الله خيراً، و« شتميرية » تدار بها كؤوس المخزيات فقبحها الله من دار، ودعاً على « شلطيش » بالغرق وعلى « أونبة » بالحرمان من القطر والحيا، و« ألبة » كانت صالحة حتى أتاها ابن حليفة بالعار والشنار، ويبدو أن ابن حليفة هذا ممن ردُّوا أبا عامر الأصيلي ردّاً ذميماً ..

وفي النهاية ينعت تلك البلاد جميعاً بأنها عرّيت من كل خير فملبس أهلها الكراهية والبغض والعار، ثم يعترف بغلظه عندما زارها حيث رأى قوماً لا خير فيهم، فهم بخلاء يدعون الفقر والعوز حتى لا يعطوا أحداً فمنازلهم وإن عمرت خراب .. ويأسى لردِّهم أشعاره عليه، وإهانة رسوله وجفائهم له، وهو من أهل النباهة، ولقد أمضى فيها شتاءً على كره منه، فكساه غبار الكسل، وأضحى خاملاً لا يعرفه أحد فيها، وهذا ما آله، وأحزنه، وجعله ناقماً على البلاد وساكنيها، فصنع ماصنع وصاغ ما صاغ من كلمات الهجاء .

ويبدو أن أبا عامر لما لم يجد نفعاً في بلاد المسلمين، ولم ينل فيها مبتغاه، راح يضرب في الأرض حتى وصل إلى « قلمرية » وهي تحت حكم الطاغية « أذفونش » ملك النصارى، وراح يمارس هوايته في الكدِّ في طلب العطاء، ولكنه لم ينل شيئاً يرضيه فقال : (١)

قَلَقْتُ وَحَقٌّ ب_____ أَنْ يَقْلَقَا	مَصُونٌ غَدَاً غَرَضًا لِلشَّقَا
حَلَلْتُ بِلَادًا كَسَ_____ تَنْي بِهَا	يَدُ اللَّيْثِ مِنْ س_____ قَم يَلْمَقَا
وَرَدْتُ قَلْمَرِيَّةً طَامِعٍ _____	فَلَمْ أَلْفِ بَرًّا وَلَا مَرْفَقًا

(١) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٨٦٠ .

طَلَبْتُ الْعَقُوقَ بِهَا الْأَبْلَقَا
 وَقَدْ غَلَقَ الْبَابَ مِنْ غَلَقَا
 شَرَقْتُ وَحَقَّ بِي أَنْ أَشْرَقَا
 وَهَلْ لِي بِكُمْ أَبَدًا مُلْتَقَا
 وَإِنِّي لِأَحْزَنُ أَنْ أُغْرَقَا
 وَحَزَمَ بِأَيْدِ النَّصَّارَى لُقَى
 لِكُذِّبٍ فِيَّ الَّذِي صَدَقَا
 إِلَيَّ الرِّزْقِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْزُقَا
 بِسُوقِ النَّبَاهَةِ أَنْ تَنْفُقَا
 تَخِيرَ فَنِي رِزْقَهُ وَاتَّقَى
 عَلَيَّ فَشَبَهَتْهُ عَقَقَا

حُرِمْتُ كَأَنِّي دُونَ الْوَرَى
 وَرَمْتُ الْرُجُوعَ وَمَنْ لِي بِهِ
 إِذَا الشُّوقُ مَرَّ عَلَى خَاطِرِي
 أَحْبَابَنَا هَلْ لَنَا رَجْعَةٌ
 تَوَرَّكْتُ بِخَرِّ الْأَسَى بَعْدَكُمْ
 وَصِرْتُ وَإِنْ كُنْتُ ذَا هِمَّةٍ
 يَقُولُ أَنْفَاسٌ وَلَوْ أَنْصَفُوا
 فَلَنْ حَرِيصٌ بِهِنَّ نَهْمَةٌ
 لَيْسَ، وَلَكِنْ نَحُوسِي أَبْتُ
 وَلَوْ وَفَّقَ الْمَرْءُ فِي سَعْيِهِ
 تَلَوْنَ دَهْرِي بِأَحْدَاثِهِ

أَرَأَيْتَ كَيْفَ تَكَرَّرَ فِي شِعْرِ أَبِي عَامِرِ الْأَصِيلِيِّ مَعْنَى الْإِحْسَاسِ بِالشَّقَاءِ وَكَذَلِكَ
 الشُّعُورِ بِأَنَّهُ مُضْطَهَّدٌ مِنْ زَمَنِهِ غَرَضٌ لِسَهَامِ الدَّهْرِ، وَيَشْكُو أَيْضًا مَا أَلَمَ بِهِ حَيْثُ أَصَابَهُ
 الْمَرَضُ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْهَزَالُ فَلَا يَكَادُ يَرَى مِنْ فَرَطٍ مَا تَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ وَنَحَلَ جِسْمَهُ، وَقَدْ قَصَدَ
 « قَلَمِيَّةً » طَامِعًا فِي بَرٍّ يَجِدُهُ وَلَكِنْ لِلْأَسَفِ لَمْ يَلْقَ بَرًّا، وَلَا حَتَّى مَا يُمْكِنُ الْإِنْتِفَاعُ
 بِهِ، وَيَسُدُّ رَمِقَهُ وَهَذَا مَا يَعْنِيهِ بِقَوْلِهِ: « فَلَمْ أَلْفَ بَرًّا وَلَا مَرْفَقًا » وَالشَّاعِرُ يَصْرُخُ
 فِي أَسَى (حُرِمْتُ) وَهِيَ صَرْخَةٌ تَنَمُّ عَنْ حَقِيقَةِ مَا يَشْعُرُ بِهِ مِنَ الْحَرَمَانِ الدَّائِمِ مِنْ كُلِّ
 شَيْءٍ جَمِيلٍ، وَكَأَنَّهُ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ يَطْلُبُ (الْعَقُوقَ الْأَبْلَقَ) وَهَذَا كُنَايَةٌ عَنْ طَلَبِ
 الْمُسْتَحِيلِ، فَالْعَقُوقُ الْأَبْلَقُ طَائِرٌ فِي بِلَادِ الشَّامِ يُسَمَّى بِأَبْيِ بَلِيقَ، وَالْعَقُوقُ الذَّكَرُ، وَالْأَبْلَقُ
 أَيْ الْحَامِلُ وَالذَّكَرُ لَا يَحْمِلُ، فَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ ..

وَلَمَّا أَرَادَ الرَّجُوعَ إِلَى وَطَنِهِ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَدْ انْقَطَعَتْ بِهِ السَّبِيلُ، وَيَبْدُو أَنَّ هُنَاكَ مِنْ
 مَنَعَهُ مِنَ الْعُودَةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: « وَقَدْ غَلَقَ الْبَابَ مِنْ غَلَقًا » وَيَعْبِرُ الشَّاعِرُ عَنْ شَدِيدِ

الأسى بسبب فراقه لأهله ، ويجعل الأسى بحرّاً لجياً يخوض غماره ، ويلطم أمواجه ، ولكنه يشعر بالضعف ويخشى أن يغرق في بحر أساه المتلاطم الأمواج ، لأنه قد وقع في يد النصارى وهذا الأمر لم يكن مقصوداً إنما جاء صدفة ، وليته تبوأ مكانة ترضي لكنه أصبح ينظر إليه - وهو صاحب الهمة والعزم والحزم والعزم - مُهَمَّلاً مُحْتَقَرًا ، ولا صحة لما اتهمه به بعض الناس حيث قالوا : إنه حريص نهم شره يريد أن يخطف الرزق قبل أن يأتيه .. فيردُّ عليهم قائلاً : ليتكم تكذبون هذه التهمة فلست كذلك ، ولكن النحس يلازمي ، ويأبى أن يقهر أمام ذكائي ونباهتي ، ومن معالم التوفيق التي يحس بها الإنسان أن تتسع أرزاقه وتتسع لدرجة أن يختار منها ما يحلو له وما يرغب فيه ، ويدع مالا يرغبه لغيره .. أما أنا فقد تلون دهرى بأحداثه فمرة أراه أبيض مشرقاً ، ومرة أراه أسود قاتماً ، فصار في نظري كالعقّاق ، وهو طائر يشبه الغراب ، أو هو غراب أسود يتشاءم الناس منه .. فكأن الشاعر يريد أن يبين أن دهره أصبح مصدر تشائم ، وصار منبع النحس الذي يلازمه .

نظرة نقدية :

بلغ اليأس من أبي عامر الأصيلي مبلغه ، واشتد عليه فقره حتى أضناه وآلمه فاصطبغت الحياة في نظره باللون الأسود ، وتجلّت به ، وزاد شعوره بالدونية حتى أطلق لسانه ينهش كل من لم يمد له يد المساعدة ، أو يلبي له مطلبه وانعكس ذلك على عباراته وصوره .. فالناس سباع ضارية تقف لكل صاحب عقل أو فكر أو أدب بالمرصاد لتؤذيه وتفتك به ، والذلُّ أضحى كؤوساً يتجرعها ، بل تجرّعها متحملاً مرارتها ، وكثرت ليالي الجوع التي بات فيها على الطوى ، والناس في نظره أوغاد محتقرون لا يستحقون ما هم فيه من النعم ، وكل من وقع عليهم بصره رعاع من يدعي منهم علو المكانة يكشف عند أول اختبار فتراهم صغار العقول ..

وهكذا ترى أبا عامر يتدنّى من فرط ما أصابه إلى استخدام الألفاظ السوقية الهابطة ، ويمطر الكل سباً .

ولكنه عندما يعبر عن شوقه لأهله يعود إلى الاتزان في التعبير فهو يبكي دماً لا دموعاً على بلده ، ويمدح أمواهها بالعدوبة ، ويصف أهلها بقوله : « وقوم كرام »

ويتحسّر على بعده عنهم .

كذلك عندما يدافع عن نفسه ، ويعمل على دفع الاتهام الذي يحاول الناس أن يلصقوه به وهو (الشراة والنهم) مبرراً سعيه الدائب في طلب الرزق، وسفره المستمر هنا وهناك بأنه يحاول أن يتغلب على النحس الذي صار ملازماً له ويأبى فراقه ..

وأستطيع القول أن عاطفة أبي عامر الأصيلي لا تثبت على حال واحدة .. فتارة تحس أن الشوق يتأجج في صدره، وتارة أخرى تشعر باليأس يكاد ينطق على وجهه، وقد تتحول هذه العاطفة إلى عاطفة الحقد والكراهية عندما لا تلبى مطالبه، ولم ينج أحد من لسان أبي عامر الأصيلي كما تكشف عن ذلك أشعاره حتى هو نفسه لم ينج من نفسه، حيث راح يؤنب نفسه على زيارته لبلاد الساحل، كما راح يلوم نفسه على توجهه إلى بلاد النصارى .

وكل ما أصاب أبا عامر من اضطراب في عاطفته، وتفكيره، وأساليب تعبيره، واختياره لكلماته كان بسبب النكبة التي حلت به، وهي نكبة الفقر المدقع الذي عاش فيه، وكذلك الشعور المتدفق بسوء الحظ، والإحساس الجارف بالضياع .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(٨) « أَبُو الْحَسَنِ الْحُصْرِيُّ الْكَفِيفِ »

التعريف بالشاعر :

هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري القيرواني الحصري الكفيف .

ولد سنة ٤٢٠ هـ على الأغلب ، وأصيب بالعمى في بدايات سن الشباب ، وقد تلقى علومه على أساتذة أجلاء في القيروان التي ولد وعاش فيها منصرباً إلى التدريس وقول الشعر حتى هاجمها البدو واستولوا عليها واستباحوها سنة ٤٤٩ هـ فانتقل منها إلى مدينة سبتة حيث عمل بالتدريس أيضاً، ولمع نجمه في قول الشعر، وسمع به المعتمد بن عباد أيام إمارته قبل وفاة والده المعتضد عباد فاتصل به ، وظل يتلقى مدائحه حتى أقنعه بالانتقال إلى إشبيلية ، فعبر أبو الحسن إلى الأندلس سنة ٤٦٢ هـ، واتصل ببلاط المعتمد لفترة ، ثم انطلق يطوف على ملوك الطوائف مادحاً إياهم متكسباً بهذا المدح ، فمدح إقبال الدولة العامري أمير دانية، كما مدح غريمه وآسره والمستولي على دانية منه المقتدر بن هود، كما مدح أمير مرسية، والمعتصم ابن صمادح أمير المرسية، ومدح القضاة في مالقة خصوصاً أبا المطرف الشعبي، ولما استولى يوسف بن تاشفين على ممالك الطوائف عاد الحصري إلى مدينة طنجة، وظل فيها حتى توفي سنة ٤٨٨ هـ^(١).

نكبة أبي الحسن القيرواني الكفيف :

إنَّ مَا نُكِبَ بِهِ أَبُو الْحَسَنِ الْحُصْرِيُّ وَفَتَنَ أُمْرَانِ : أولهما هجوم البدو على مدينته القيروان، التي ولد فيها الشاعر ونشأ، وتقع على شاطئ برّ العدو ، كما أنها مدينة عظيمة بنى بها عقبة بن نافع مسجده المعروف عام ٥٦ هـ، وقد ازدهرت تلك المدينة وامتلأت بالعلماء والأدباء، وقد ابتليت بهجوم عرب الصعيد عليها بعد حصار دام أربع سنوات، ثم اقتحموها سنة ٤٤٩ هـ ، وفعلوا بها ما فعل غيرهم بالمدن التي سقطت في

(١) راجع الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٢٤٧ ، تاريخ الأدب العربي ، عمر فروخ ج ٤ ص ٧٠٧ ، ٧٠٨ .

أيديهم، فلم يرعوا إلا ولا ذمة، حيث استباحوها لأنفسهم، واعتدوا على الحرمات، وقتلوا ونهبوا، وخربوا البيوت، والمساجد (١)، فكانت فتنة مبيرة كفتنة قرطبة التي سبقتها ولقد اضطر كثير من الأدباء والعلماء إلى الفرار من هذه المدينة المنكوبة ومنهم أبو الحسن الحصري الكفيف الذي هاجر إلى مدينة سبتة كما أشرت، ومنها إلى إشبيلية وغيرها من مدن الأندلس، ولم ينس الشاعر وطنه ولا أرضه التي عليها نشأ، بل ظل يذكرها ويرثيها ويتفجع عليها ويكيها، ويشكو غربته وشقاءه وفقره ويتشوق لأهله.

وثاني الأمرين اللذين فتن بهما الشاعر ونكب هو فقدته لولده ووحيدة عبد الغني الذي مات يافعاً بعد مرض شديد، وحالة من نزيف دائم من أنفه وفمه، فبلغ من جزعه عليه النهاية، وتجاوز في ذلك الغاية، وصنع فيه مراثي على حروف المعجم (٢)، وراح بعد وفاته يشكو الوحدة والضياح، وفقد السند.

أثر النكبة والفتنة في شعر الحصري الكفيف :

لقد تركت نكبة ضياح الوطن، وفراق الأهل والأحباب أثراً واضحاً في شعر أبي الحسن الحصري، حيث انعكس صدى الأحداث في شعره، وكثر بكائه، وارتفع صوت نحيبه، وبات شوقه ناطقاً لا يستطيع إخفاءه، هذا الشوق الجارف للأهل والأحباب، والأصدقاء والأصحاب، ومن شعره الذي يفيض بكل تلك المعاني وأكثر منها قصيدته التي ودّع بها زوجه عند خروجه من بلده القيروان مع من خرج من الأدباء والعلماء والشعراء حيث يقول فيها (٣) :

رُدِّيْ حُشَّاشَةً عَاشِقِيْ مَهْجُورٍ	بَيْنَ الْمَلُومِ عَلَيْكَ وَالْمَعذُورِ
لِلْوَلْوِ الْمُنْظُومِ فِي فَمِكَ انْبَرْتُ	عِبْرَاتِهِ كَالْوَلْوِ الْمُنْثُورِ
ذَكَرَ الْفِرَاقَ فَمَاتَ إِلَّا شَوْقُهُ	وَأَوَّلُوا إِلَهَ مَوْتِي بِغَيْرِ قَبْرِ

(١) رثاء المدن والممالك الزائلة د. عبد الرحمن حسين محمد ص ١١٦ .

(٢) الذخيرة : لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٢٤٧ - ٣٢٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٦ .

وَدَّعْتُ مَنْ أَهْوَى بَلِ اسْتَوْدَعْتُهَا
فَبَكَتْ بَنَرٌ جَسْتَيْنِ خَفْتُ عَلَيْهِمَا
قَالَتْ : أَتُرَحِّلُ وَالْأُحْبَةَ هَا هُنَا ؟
قَالَتْ : مَتَى الرَّجْعَى ؟ فَقُلْتُ : إِذَا أَنْتَهَى
وَعَسَى مُفَرَّقَنَا سَيَجْمَعُ بَيْنَنَا
وَلَقِنْ أَبِي مَنْ تَعْلَمِينَ فَرُبَّمَا
لَا تَجْزَعِي مِنْ نَكْبَةِ الدُّنْيَا وَإِنْ

قَلْبِي وَسِرٌّ مَدَامِعِي وَزَفِيرِي
نَفْسِي فَلَمْ أَثْمُ بَغِيرَ ضَمِيرِي
قُلْتُ : الْقَضَاءُ كَمَا عَلِمْتُ ضُرُورِي
مَقْدُورٌ رَبِّي مُقَدَّرُ الْمَقْدُورِ
إِنَّ الْعَسِيرَ عَلَيْهِ غَيْرُ عَسِيرٍ
حَدَّثْتُ أُمُورًا لَا نَتَقَضِ قَاضِ أُمُورِ
سَاءَتْ فَرْبٌ مَسَاءَةٌ لِسُرُورِ

الشاعر في أبياته يصور لحظة وداعه لزوجته وأم ولده، وهو في طريقه لمغادرة القيرون، ويبين أنه كان يتمزق من داخله بين أمرين : ما يحسه من تأنيب الضمير على تركها وحيدة في تلك المدينة المنكوبة، وما يشعر به من ضيق ذات اليد، وعدم القدرة على حملها معه لأنه لا يجد ما يحملها عليه، وهذا أمر يعذر عليه، فراح يذرف العبرات، ويبين أثر الفراق على نفسه وروحه، مؤكداً أن الفراق قد أَمَاتَ فيه كل شيء إلا الشوق الذي في قلبه لزوجته، كما يبين أنه إن كان قد ودَّعَ زوجته فإنما ودَّعَ الجسد فقط بينما روحها وطيفها قد استودعها فؤاده، وهذا سرُّ مدامعه الدائمة وزفيره الملتهب دائماً، هذا الزفير الساخن الذي خشي معه أن يلثم جبين زوجته مودعاً حتى لا يؤذيها بلهيبه، ويدير حواراً بينه وبين زوجته يبين أن الفراق أمر ضروريّ قدّره الله، وعسى أن يجمع بينهما مرة أخرى، وإن لم يحدث فلا جزع ولا ضجر، فربما كان الفرج وليد الضيق، والسرور من المساءة .

ولما استقر في مهجره، ومَرَّتْ فترة طويلة، ولم يحس بريق الأمل في العودة إلى وطنه راح يتذكّر وطنه، ويشكو غربته، ويبكي وحدته فلا حبيب ولا جار، ويكشف عن معاناته من كثرة المعادين له، الحاقدين عليه الذين يعكسون أعماله إلى النقيض، فمدحه هجاء، وحسناته أوزار وابتسامه تجهم وعبوس، وفضله نقص، ولذلك يحسُّ بأن عزّته

مهانة وكرامته مهدورة في تلك الغربة القاسية فراح يدعو للقيروان أن يكشف الله عنها البلاء، لأن طيرها الذي هجر أيكها لا يستطيع الغناء والتغريد في غير هذا الأيك المحبب إليه، وراح يلح في هذا الدُّعاء، ويتمنى العودة، أو الاطمئنان على وطنه الذي يحب أن يراه سعيداً ... وإليك الأبيات التي تحمل تلك المعاني :^(١)

سَلَامٌ غَرِيبٌ لَا يُؤُوبُ فِيزَارُ	عَلَى الْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَإِنْ عَفَتَ الدَّارُ
لَمَنْ بَاتَ مِثْلِي لَا حَيْبَ وَلَا دَارُ	وَحَقُّ بَكَاءِ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ مُسْهَدُ
وَلِي حَسَنَاتٍ عِنْدَهُمْ هِيَ أَوْزَارُ	أَعَادَى عَلَى فَضْلِي وَأَسْتَصْحَبُ الْعَدَا
وَشُكُوَايَ كَفُّرٌ، وَاعْتِرَافِي إِنْكَارُ	مَدِيحِي هِجَاءٌ، وَابْتِسَامِي تَجْهَمُ
بَلَى قَلَمًا يَخْلُو مِنَ الْقَرْضِ دِينَارُ	وَلَمْ أَرِ مِثْلِي فَاضِلًّا يَنْقُصُونَهُ
فَلَيْتَ حَشَايَا الْوَطِيئَةِ أَكْوَارُ	عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَقِيَهُمْ بِذَلَّةِ
فَقَدْ مَرَضَتْ لِلْقَيْرَوَانِيِّنِ أَبْصَارُ	شَفَا اللَّهُ دَاءَ الْقَيْرَوَانِيِّنَ بَعْدَنَا
وَقَدْ بَعُدَتْ مِنْهَا فَرَاخٌ وَأَوْكَارُ ؟	وَكَيْفَ غَنَاءُ الطَّيْرِ فِي غَيْرِ أَيْكِهَا
تَطِيرُ إِذَا اشْتَاقَتْ وَمَا أَنَا طَيَّارُ	وَإِنِّي لِأَوَّلَى بِالْبُكَاءِ لِأَنَّهَا
وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا دُمُوعِي أَمْطَارُ	أَلَا يَا بَرُوقًا لُحْنٌ مِنْ نَحْوِ صَبْرَةٍ
وَلَوْ مِثْلُ مَا يُوعِي مِنَ الْمَاءِ مِنْقَارُ	عَسَى فِيكَ مِنْ مَاءِ الْحَيَاتِ شَرِيَةٌ

ولأبي الحسن الحصري الكفيف قصيدة بلغت إحدى وثلاثين بيتاً يندب فيها وطنه القيروان، ويتذكر من كان فيه من الأهل والإخوان ويصف آلام غربته القاتلة ، ويعلم وفاء بالعهد لأصحابه وابقاءه عليه، فأصحابه وأحبابه قد ارتبطوا به ارتباطاً روحياً يسمو فوق ارتباط الأجساد ، ولذلك فإنه يراهم دائماً في النوم برغم ما يفصل بينهم من مسافات ، وكذا وجود البحر بينهم، حتى أصبح يتعمد النوم لكي يلقي طيفهم وخیالهم، وذكر الأحبة في عقيدته شفاء لكل داء لديه، فبه يبرأ من علته، ويحمل أبو الحسن الريح أمانة إبلاغ الأحباب في القيروان بحياته ويشكو فقدته للسعادة بعد خروجه

(١) الذخيرة : لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٢٦٠ - ٢٧٠ .

من القُيُورِوان، وراح يدعو لها من قلبه بالسُّقيا فهي جديرة بكل خير إذ أنها صنوُ
الجنّاتِ تربةٌ وحصاةٌ ولم ينس الشاعر أن يصف أيام السَّعادة في وطنه، وملامح تلك
السَّعادة، ويتمنى أن يعود الوطن السليب إلى أصحابه، وأن يستعيد سابق أمجاده، حتى لا
تطول شماتة الأعداء الشامتين به، فإنه لاغنى له عن بلده ومربع صباه وشبابه، ويخشى
أن يفجأه الموت قبل تحقّق أمنيته الغالية ، وإليك هذه القصيدة والتي يقول فيها : (١)

فإن هم اغتربوا ماتوا وماتوا
عندي عهدٍ ولا ضاقت موادّاتُ
لبين أرواحنا في السنوم زوراتُ
وأين من نازح الأوطان نوماتُ ؟
لو أحسنت براء علّاتٍ تعلّاتُ
إليكم مثل ما تهدي التّحيّاتُ
بكتني الأرضُ فيها والسّمواتُ
ولم أقلّ ها لأحبابي ولا هاتوا
ولا العيونُ المراضُ البـابـليّاتُ
تروقني غـدواتُ أو عشيّاتُ ؟
تموت نفسي وفيها منه حاجاتُ
وأثني وبقليبي منه لوعاتُ
على سقامي فقد تشفي الرّسالاتُ ؟
كأنّه عبراتي المستهلّاتُ
مسكّيةٌ وحصاهـا جوهرـياتُ
فإنما أوجه الأحبابِ روضاتُ

موتُ الكرامِ حيّاةٌ في موّاظنهم
يا أهلَ وُدّي، لا والله ما انتكثتُ
لغن بعدتم وحال البحرِ دونكم
ما نمتُ إلّا لكي ألقى خيالكم
إذا اعتلّنا تعلّنا بذكركم
ماذا على الرّيح لو أهدت تحيّيها
أصبحتُ في غربي لولا مكاتمتي
كأنني لم أذق بالقيروان جنى
ولم تشقني الخدود الحمـر في يقني
أبعد أيامنا البيض التي سلفت
أمر بالبحر مرتاحاً إلى بلد
وأسأل السفن عن أخباره طمعاً
هل من رسالة حبٍّ أستعين بها
ألا سقى الله أرض القيروان حياءُ
فإنها لدة الجنّات تربتها
إلّا تكن في ربّاهـا روضة أنف

أَوَّلَا يَكُنْ نَهْرٌ عَزَبٌ يَسِيلُ بِهَا
أَرْضٌ أَرِيضَةٌ أَقْطَارُ مَبَارَكَةٍ
لَا يَشْمَتَنَّ بِهَا الْأَعْدَاءُ إِنْ رَزُوتَ
وَلَمْ يَزَلْ قَابِضُ الدُّنْيَا وَيَبَاسُطُهَا
هَلْ مَطْمَعٌ أَنْ تُرَدَّ الْقُيُورَانُ لَنَا
مَا إِنْ سَجَا اللَّيْلُ إِلَّا زَادَنِي شَجْنًا
وَلَا تَنْفَسْتُ أَنْفَاسَ الرِّيَاضِ ضُحًى
هَذَا وَلَمْ تَشْجُ قَلْبِي لِلرَّبَابِ رَبِّي
وَكَمْ دُعِيتُ لِبُسْتَانٍ فَجَدَدَلِي
وَلَوْ تَرَانِي إِذَا غَنَتْ بِلَابِلُهُ
إِنِّي لَأُظْمَأُ وَالْأَنْهَارُ جَارِيَةٌ
وَمَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا بِاسْطِطَاءِ يَدِهِ

فَإِنَّ أَنْهَارَهَا أَيْدٍ كَرِيمَاتُ
لِلَّهِ فَيُفِيهِهَا بَرَاهِينَ وَأَيَّاتُ
إِنَّ الْكَسُوفَ لَهُ فِي الشَّمْسِ أَوْقَاتُ
فِي مِمَّا يَشَاءُ لَهُ مَحُوٌّ وَإِبَّاتُ
وَصَبْرَةٌ ، وَالْمُعْلَى فَالْحَنِيَّاتُ ؟
فَلَأُتْبِعَتْ زَفْرَاتِي فِيهِ أَتَاتُ
إِلَّا بَدَتْ حَسْرَاتِي الْمُسْتَكْنَاتُ
وَلَا تَقْضُ قَلْبَهُ مِنْ لِبْنِي لِبَانَاتُ
وَجَدًا وَإِنْ كَانَ فِي مَعْنَاهُ سَلَوَاتُ
أَشْكُو الْبَلَابِلَ لَوْ تُغْنِي الشُّكِّيَّاتُ
حَوْلِي وَأُضْحِي وَدُونَ الشَّمْسِ دَوَّاحَاتُ
مَنْ قَبْلُ أَنْ يُمَكِّنَ الْمَأْسُورَ إِفْلَاتُ

أَمَّا نَكْبَةُ أَبِي الْحَسَنِ الْحَصْرِيِّ الثَّانِيَةِ فَقَدْ تَمَثَّلَتْ فِي فَقْدِهِ لَوْلَدِهِ فِي سَنِّ الصَّبَا بَعْدَ أَنْ عَانِيَ مِنْ مَرَضٍ أَصَابَهُ بِالْهَزَالِ الشَّدِيدِ إِلَى جَانِبِ الزُّعَافِ الْمُسْتَمِرِّ الَّذِي جَعَلَهُ يَنْزِفُ دَمًا أَحْمَرَ قَانَ حَتَّى خَارَتْ قَوَاهُ، وَالْأَبُ الْعَاجِزُ لَا يَمْلِكُ إِلَّا دُمُوعَهُ يَزْرِفُهَا، وَبَيْنَمَا وَلَدُهُ عَلَى فِرَاشٍ مَرَضُهُ يَعْانِي وَيُقَاسِي، وَيَنْزِفُ دَمَهُ بَلَا تَوَقُّفٍ يَتَمَرَّقُ فَوْادِ الْأَبِ حَزْنًا وَأَلْمًا ، فَيَصِفُ حَالَهُ وَلَدَهُ قَائِلًا : (١)

ذَوَى رِيحٍ نَانِي الْأَرْجِ
ذَبِيحٌ طُلَّ مِنْهُ دَمٌ
رَأَيْتُ دَمَاءَهُ وَدَمًا
تَرَفَّقَ يَا سَيِّدِي قَامَ بِهِ

وَضَاقَ بِخَوْفِي الْفَرْجِ
وَلَمْ يَقْطَعْ لِي بِهِ وَدَجٌ
عَيْنِي كَيْفَ تَمْتَرُجُ
أَبْعَدَ الْمُسْتَوَى عِوَجُ ؟

(١) الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

عَلَيْكَ مَعَ الْقَضَا حَرَجٌ
وَأَيْنَ حَجٍّ هَاهُ وَالْحَجَّ ؟
تَهَتْ عَشْرًا بِهِ الْحَجَّ ؟
إِلَى عَرَقِ السُّرَى تَشَجُّ
إِذَا دَخَلُوا بِهَا خَرَجُوا
وَهُمْ وَلَدٌ لَهَا نَتَجُّ

صَدَعْتَ بِمَا أُمِرْتَ وَمَا
فَأَيْنَ غَرَارٌ مَقُولُهُ
(١) شَأْيَ ابْنِ الْأَرْبَعِينَ وَمَا أَنْ
عُرُوقُ النَّاسِ كُلُّهُمْ
وَهَلْ هِيَ غِيَرٌ دَارُ أَدَى
تَأْمَلُ كَيْفَ تَأْكُلُهُمْ

الآيات السابقة تكشف لنا أنَّ الأب قد رأى بعين بصيرته ما لا يراه غيره بعين بصره، ولذلك جاء وصفه لولده المريض وصفاً دقيقاً، فهو ربحانٌ قد ذوى وذبل وهذا كناية عن الهزال الشديد، واصفرار اللون، وذهاب النضارة، وشبهه في نزف دمه بالذبيح، وإن لم يقطع ودجه وهو مجرى الدم، وعبر بالفعل رأيت في قوله : « رأيت دماءه .. البيت » فالرؤية هنا قلبية لا بصرية .. فقد رأى دماءه تمتزج بدماء عينيه التي تذرف حزناً عليه، ويتوجه الأب الحزين إلى المرض نفسه يخاطبه متخيلاً أنه يسمعه ويعي كلامه، ويتوجه إليه راجياً أن يترفق بوحيدة، ومن العجيب أن يصف الشاعر حالة ولده، ويخبرنا أنَّ من يراه يظن أنه في الأربعين من عمره بينما هو لم يتجاوز عشر حجج من هذا العمر، ثم يتحدث عن الموت والدنيا، ويقر بأن الموت حتم على كل إنسان، وأن الدنيا دار فناء، بل هي دار أذى، من دخل فيها سرعان ما يخرج منها ...

ولما صعدت روح ولده لبارئها راح أبو الحسن يكيه ويندب حظّه ويشكو وحدته

فيقول (٢) :

لِي وَلَا ابْنٍ وَلَا أَخٍ
بَعْدَ وَكَرٍّ وَأَفْرِخٍ
كَالْجَرَادِ الْمُسَخِّخِ
بَرْخٍ أَيْ بِرُخٍّ

أَنَا فَرْدٌ بَلَا خَلِيلٍ
أَنَا كَالْأَوْرِقِ أَشْوَكَتِكِي
أَنَا كَالزَّرْعِ وَالْعِيدَا
قُرَّةُ الْعَيْنِ دُونَهُ

(١) شَأْي : سبق .

(٢) راجع الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٢٧٥ .

صَاحِبَ الصُّورِ أَنْفَـاءً
عَلَّانِي مِنْهُ أَشْتَفِي
كُلِّ عُمُرٍ مُؤَقَّتٍ

حَضَرَ الْوَقْتُ فَأَنْفَخَ
بِالنَّسِيمِ الْمُضْمَخِ
فَمِنْ كِتَابِ مَوْخٍ

أرأيت كيف يصرخ قائلاً : أنه أصبح وحيداً، ويشبه نفسه بحمامة ورقاء ابتعدت عن
وكرها وفراخها فالحزن يكاد يقتلها، كما يرسم لنا صورة مؤلمة تشير الأسى وتتم عن
شكوى مرة، حيث صور نفسه بالزرع الأخضر، والأعداء من حوله كالجراد المسخخ أي
الذي يغرز ذنبه في الأرض اللينة ليضع بيضه أو يستعد للانطلاق نحو هذا الذرع ليدمره ..
ويكشف عن سبب هذا الإحساس فيبين أن قرة عينه يفصل بينه وبينه الآن برزخ،
ويتمنى أن يدركه الموت ليلحق بولده ويسعد بلاقائه ..

ومن رثائه لولده الذي فجعه موته قوله (١) :

بَنَفْسِي نَجَمٌ أَظْلَمَ الْآفَاقُ إِذْ هَوَى
أَحِينُ شَأْيٍ مِنْ فَضْلِهِ كُلِّ سَابِقِ
وَهَزَّ قَنَاقَةَ الْقَصْدِ لِلطَّعْنِ فِي الْعِدَا
رَمَتْهُ فَنَاصَتْهُ السَّهَامُ وَإِنَّهُ

وَكَاذِبٌ يُعْزِيَنِي بِهِ الْقَمَرَانِ
وَعَنَى شَأْمٌ بِاسْمِهِ وَيَمَانِ
وَرَأَشَ جَنَاحَ الْعِزِّ لِلطَّيْرَانِ
لَفِي زُرْدٍ مِنْ دَعْوَتِي وَكَنَانِ

يُفْدِي أَبُو الحَسَنِ وَلَدَهُ بِنَفْسِهِ، فَهُوَ نَجْمٌ قَدْ هَوَى فَأَظْلَمَ الْأَفْقُ بَعْدَهُ وَكَادَ الْقَمَرَانُ:
الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَعِزِّيَانِهِ فِي فَقِيدِهِ لِسَمَوِّ مَكَانَتِهِ عِنْدَهُ وَيَتَعَجَّبُ مَنْ فَقَدَ ابْنَهُ بَعْدَ أَنْ نَضَجَ
عُودُهُ وَاسْتَوَى، وَأَوْشَكَ عَلَى الْإِنْتِفَاعِ بِهِ، وَسَبَقَ بِفَضْلِهِ كُلِّ سَابِقٍ، وَتَغْنَى بِاسْمِهِ النَّاسَ
جَمِيعاً الشَّامِي مِنْهُمْ وَالْيَمَنِي وَبَعْدَ أَنْ اشْتَدَّ سَاعِدُهُ، وَأَضْحَى يَعْدُ لِلطَّعْنِ فِي الْعَدَاءِ، وَنَبَتَ
رَيْشُ جَنَاحِيهِ اسْتِعْدَاداً لِلطَّيْرَانِ رَمَتَهُ سَهَامُ الْمَوْتِ فَصَرَعَتْهُ وَإِنَّهُ لَفِي دَرْعِي وَسِتْرِي أَيَّ فِي
حِمَايَ وَلَمْ أَمْلِكْ لَهُ دَفْعاً ..

وأرى أن الشاعر في هذه المقطوعة قد جنح إلى المبالغة الزائدة فابنه لم يتجاوز العاشرة، فمتى سبق بفضلله كل سابق ؟ ومتى تغنى الناس من شام ومن يمن باسمه ؟

(١) السابق، ص ٢٧٦ .

متى استوى واستقام واستعد للطلعن في العدا ؟ وأظن أن الذي دفعه إلى هذه المبالغة حزنه الشديد على ولده، وشدة اعتزازه به ، وتعلقه بشخصه لأنه وحيد

وجهة نظر نقدية :

إن أبا الحسن الحصري شاعر فذٌ، ولذلك تهافت عليه ملوك الطوائف خصوصاً المعتمد بن عباد الذي ظل يلح في استدعائه إلى إشبيلية حتى استجاب له وتوجه إليه في إشبيلية، وعاش في كنفه فترة طويلة .

ثم غادره دون سبب معروف ليجوب بلاد الأندلس طوّافاً على ملوك الطوائف وبالنظر في النماذج الشعرية التي عرضناها كنتاج لنكبتيه اللتين حلّتا به نرى أن وجدان الشاعر قد تأثر بما حدث فكان جياشاً متأجّجاً .. تأمل حديث وداعه لزوجته لتلمس قوة العاطفة، وانظر حديثه عن وطنه الحبيب لتشعر بمدى اعتزازه بهذا الوطن العزيز على نفسه، وشدة تأثره بما حدث له، وآماله العريضة في عودته إلى أهله وللإنصاف نقول : إنَّ أبا الحسن الحصري الضريح برغم معاناته وما لاقاه من أعدائه، وما أحس به من ضيق وكرب لم يطلق لسانه للعيب في أحد كما فعل صنوه الجوّاب على ملوك الطوائف أبو عامر الأصيلي، بل اكتفى بالكشف عن معاناته وبيان أسباب تلك المعاناة فقط، والشاعر لم يفقد الأمل في أن تصلح الأحوال، ولا يعانده زمنه ...

وفي حديثه عن ولده تشتد عاطفته، وتزداد صدقاً لأنه يترجم عن فؤاد مشبوب بحب هذا الولد، ولقد نجح في رسم صورة المعاناة التي يعانيتها ولده في مرضه بأسلوب جيد رائع .

وكما أشرت قبل ذلك لقد رسم تلك الصورة من خلال ما يراه بعين البصيرة ، ولما مات ولده نجح الشاعر بسبب توهج عاطفته وعمق أساه ، وشدة حزنه في رسم صورة لما يحسّه فهو فردٌ وحيدٌ بلاَ صديق له ولا ولد ولا أخ .. واختار صورة الحمامة الوراق التي ضلّت طريق وكرها حين بعدت عنه ، وفيه أفراخها بما تحمّل تلك الصورة الممتدة من ملامح الأسى والحزن .

وعندما أراد أن يكشف عما يلاقيه من العدا تخير صورة الزرع الأخضر الذي يهاجمه الجراد من كل ناحية واختياره صورة الجراد على وجه الخصوص ليكشف هنا بأسلوب التصوير البارع عن كثرة العدا المحيطين به ..

وهكذا نلمس بوضوح آثار النكبة وانعكاساتها على شعر هذا الرجل . ومن الجدير بالذكر أنه بعد زوال ملك ملوك الطوائف اعتزل الحياة في مدينة طنجة وظل بها رهين مجسسه : العمى والبيت حيث مات سنة ٤٨٨ هـ رحمه الله رحمة واسعة وعفا عنه .

رَفْعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(٩) « لِسَانُ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ »

التعريف بالشاعر: (١)

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السُّلَماني، قرطبي الأصل، هاجر آباؤه الأوائل من قرطبة إلى طليطلة، ثم إلى لوشة ويكنى بأبي عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين، عُرفت أسرته قديماً ببني وزير، ولما سكن آباؤه في لوشة لقبت الأسرة ببني الخطيب، لأنَّ جدَّه سعيد تولى الخطابة فيها، ولقب بالخطيب ومن لقبه استمدت الأسرة لقبها .

وقد ولد أبو عبد الله لسان الدين بن الخطيب بمدينة لوشة في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٧١٣ هـ، وتربى ونشأ في بيت علم وأدب، وصلاح وتقى، وسلك سبيل أسلافه في طلب العلم حيث بدأ بحفظ القرآن الكريم ثم تجويده على أول شيوخه أبي الحسن القيجاطى أستاذ الجماعة في غرناطة كما قرأ عليه العربية أيضاً، وتلقى علوم التفسير والفقه على الشيخ الإمام أبي عبد الله بن الفخار البيري بالإضافة إلى علم النحو حيث كان هذا الشيخ الإمام شيخاً للنحويين في عهده . ومن تلقى العلم على أيديهم قاضي الجماعة في غرناطة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسن السبتي المتوفى سنة ٧٦١ هـ، وقد كان حجة في العربية والبيان والأدب، وإماماً في الفقه والحديث، ومن أشياخه أيضاً الإمام الرِّحَال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي المولود بتونس والمتوفى بها سنة ٧٧٩ هـ وكان شيخاً بارعاً في علوم الحديث والنحو واللغة كما كان بارعاً في الشعر ... ، هذا إلى جانب عددٍ كبير من أرباب العلم

(١) انظر نفح الطيب ج ٥ نقلاً عن الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، ثم كتاب تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٦ ص ٥٠٣ وما بعدها ..

وأساطينه في غرناطة وما جاورها .

ولسان الدين بن الخطيب كان واسع الثقافة ملمّاً بكثير من الفنون، يتميز بالقدرة على التعبير عمّا يريد، وأجاد علوم الفلسفة والطب ، والتاريخ ومن الناحية الأدبية لا يختلف اثنان على أنه كان أديباً ناثراً شاعراً مكثراً في الناحيتين، صاحب أسلوب قويّ، ويعدّ من الوشّاحين في عصره، حيث أجاد فنّ الموشحات وأنتج منها الكثير .

وقد عمل والده بديوان الإنشاء في خدمة السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر بن الأحمر سلطان بني الأحمر في غرناطة (٧٣٣ - ٧٥٥هـ) المعروف بـيوسف الأول، ولما توفّي والده في جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ قلّده السلطان أبو الحجاج عمل والده وهو في ريعان الشباب ، ووثق السلطان به فأسند إليه رئاسة ديوان الإنشاء، وجعله وزيراً من وزرائه المقربين ، ثم أسند إليه مهمة السفارة إلى الملوك المجاورين، ولما قتل السلطان أبو الحجاج سنة ٧٥٥ هـ خلفه ابنه محمد بن يوسف الغنيّ بالله فحرص على استمرار لسان الدين بن الخطيب في خدمته، وزادت حظوته عنده وقد سافر له إلى السلطان المريني أبي عنان فارس المتوكل على الله من سلاطين بني مرين في المغرب (٧٤٠ - ٧٥٩ هـ) فنجح في سفارته واستطاع أن يوطد عرى الصداقة والمحبة والتعاون بين سُلْطاني المغرب وغرناطة ، مما ساعدهما على التصديّ لطغيان ملك قشتاله المتحرش بغرناطة على وجه الخصوص ، فعظمت ثقة الغنيّ بالله بابن الخطيب وخلع عليه لقب ذي الوزارتين .

نكبتاً لسان الدين بن الخطيب :

« ١ » نكبتة الأولى :

إن الحياة لا تدوم على حال واحدة، ودوام الحال من المحال ولذا فإنه ما إن استقرّ لسان الدين بن الخطيب في كنف السلطان الغني بالله محمد بن يوسف المكنى بأبي عبد الله سلطان غرناطة، وبلغ في خدمته أعلى المناصب، ولقب بذي الوزارتين، وسارت الأمور حسبما يرغب ويشتهي الجميع، إذا بثورة تندلع ضد السلطان أبي عبد الله الغني بالله محمد بن يوسف أثناء وجوده خارج قلعته بغرناطة في رحلة ترفيهية، وقد أشعل

هذه الثورة أصهار أخيه إسماعيل المعتقل في قصر من قصور القعلة منذ تولّى الغني بالله الحكم بعد وفاة والدهما ، ونجح الثوار في تخليص إسماعيل من الاعتقال، ونادوا به سلطاناً على البلاد، وخلع أخيه الغني بالله وقد استولى الثوار على القلعة وقتلوا الحاجب المعروف بأبي نعيم رضوان وأبقوا على لسان الدين بن الخطيب لبعض الوقت ربما لحاجتهم إليه مؤقتاً، وكان ذلك في ٢٨ من رمضان سنة ٧٦٠ هـ، وفشل السلطان المخلوع في استعادة قلعته، أو استرداد سلطته، فاضطر إلى الفرار مع من نجوا من أهله وأنصاره إلى مدينة وادي آشي ريثما يدبر للعودة وبينما هو يحاول تجميع قواه ، وصله كتاب سلطان المغرب أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي المريني (توفي أواخر سنة ٧٦٢ هـ) يدعوهُ للنزول في حضرته بفاس حتى تنكشف الغمة، فتحول الغني بالله إليه ثاني أيام عيد النحر سنة ٧٦٠ هـ ونزل بمدينة فاس في يوم السادس من المحرم سنة ٧٦١ هـ، وأكرم السلطان أبو سالم وفادته ، وأحسن استقباله، وبالف في الحفاوة به، هذا بينما ظل لسان الدين بن الخطيب في غرناطة، في قبضة السلطان إسماعيل بن يوسف الأحمر .

ومن العجيب أنه برغم امتثال لسان الدين لحكم هذا السلطان، وحرصه على استرضائه، والتودد إليه، إلا أنه لم يأمن جانبه فنكبه، واعتقله، واستأصل ما له وأملاكه، وطبقت بابن الخطيب نكبة مصحفية كما وصفها ابن الخطيب في الإحاطة قائلاً : (١) « ولما هلك السلطان (أبو الحجاج يوسف الأول) ضاعف ولده الغني بالله حظوتي، وأعلى مجلسي، وقصر المشورة على نصحي، إلى أن كانت عليه الكائنة، فاقتدى في أخوه المقلب على الأمر به (إسماعيل بن يوسف) فسجل الاختصاص، وعقد القلادة، ثم حمّله أهل الشحنة من أهل أعوانه وثورته على القبض عليّ، فكان ذلك، وتقبض عليّ، ونكت ما أبرم من أمانني . » وظل ابن الخطيب معتقلاً حتى تشفع فيه سلطان المغرب، وأرسل إلى إسماعيل بن يوسف المستبد بغرناطة والمستولي عليها يشترط عليه لإبرام عقد مسالمة معه أن يرسل إليه لسان الدين بن الخطيب مع أهله، فاستجاب سلطان غرناطة لذلك، وبهذا نجا ابن الخطيب من القتل وتحول إلى الاغتراب والبعد عن أهل

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٧٦ عن الإحاطة لسان الدين بن الخطيب ورقة (٤٠٠) .

والأحباب، حيث لحق بسلطانته المخلوع، وأقام معه في مدينة فاس، حتى قدّر الله للغني بالله أن يسترد ملكه وسلطانه، ويعود إلى قلعته منتصراً، وذلك في منتصف سنة ٧٦٣هـ، ولما استقرت الأمور في غرناطة له استدعى وزيره ابن الخطيب من المغرب حيث بقي مع أولاد السلطان هناك، وعاد معهم إلى غرناطة.

« ٢ » نكبته الثانية « القاصمة »

قديمًا قالوا : « أحبب صديقك هوناً ما، فربما أصبح يوماً عدوك، وأبغض عدوك هوناً ما، فربما أصبح يوماً صديقك » تصدق هذه المقولة في لسان الدين بن الخطيب، فقد أخلص تمام الإخلاص لسلطانته الغني بالله، وكابد معه أيام نفيه، وذاق بصحبته لذة السراء، ومرارة الضراء، ولما عاد هذا السلطان إلى غرناطة وعاد بعده لسان الدين، استأنف عمله في خدمته متفانياً ومخلصاً، إلا أن الحاقدين الحاسدين تسلطوا عليه واستهدفوه بالوشايات والأكاذيب، وسعوا في إيقار صدر السلطان عليه، حيث اتهموه بالزندقة والإلحاد، والانحراف عن الطاعة، وأنّ ولاءه أصبح لغيره، وظلّوا يوالون اتهاماتهم له، حتى تغيّر السلطان عليه، وانصرف لغيره عنه، وأساء معاملته، فأدرك ابن الخطيب أن الخطر محقق به، وأنه إن لم ينج بنفسه فلا بد وأن يسوء مصيره، ولذلك عمل على الخروج من غرناطة.

ويكشف ابن الخطيب عن بدايات تلك النكبة بنفسه من خلال حديثه عن ظروف ما بعد العودة إلى غرناطة قائلاً : « (١) ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة، والتربة بكر الحسنات بهذه الخطّة، بل بالجزيرة فيما سلف من المدة، فتأتي بمَنّة الله تعالى من صلاح السلطان وعفاف الحاشية والأمن، ورمّ الثغور، وتثمير الجباية، وإنصاف الحماة والمقاتلة، ومقارعة الملوك المجاورة في إثارة المصلحة الدينية، والصدّع فوق المنابر ضمناً من السلطان بترياق سِمِ الثّورة، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ما الله تعالى المجازي عليه، والمعوض من سهر خلّعته على أعطافه، وخطر اقتحمته من أجله، لا للشريد الأعفر، ولا للجردِ تمرح في الأرسان، ولا للبدنِ تثقل للأكتاد، فهو الذي لا يضيع عمل

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٧٨ نقلاً عن الإحاطة .

مَنْ عَمِلَ ذِكْرًا أَوْ أَنْثَى سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ أُعْذَمِ الاستهداف للشرور، والاستغراض للمحذور، والنظر الشزر المنبعث من خزر العيون، شيمة من ابتلاه الله تعالى بسياسة الدهماء، ورعاية سَخَطَةِ أرزاق السماء، وَقَتْلَةَ الأنبياء، وعَبْدَةَ الأهواء، مِمَّنْ لَا يَجْعَلُ لِلَّهِ تَعَالَى إِرَادَةَ نَافِذَةً، وَلَا مَشِئَةً سَابِقَةً، وَلَا يَقْبَلُ مَعْذَرَةً، وَلَا يَجْمَلُ فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَتَلَبَّسُ مَعَ اللَّهِ بِأَدَبٍ، رَبَّنَا لَا تَسْلُطْ عَلَيْنَا بِذُنُوبِنَا مِنْ لَا يَرْحَمُنَا، وَالْحَالُ إِلَيَّ هَذَا الْعَهْدُ، وَهُوَ مُنْتَصَفُ عَامِ خَمْسَةِ وَسِتِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ عَلَيَّ مَا ذَكَرْتَهُ نَفَثْتُ عَنْ بَثٍّ، وَتَأَوَّهْتُ عَنْ حَمِيٍّ لِيُظْهَرَ بَعْدَ الْمُنْقَلَبِ قَصْدِي وَيَدُلَّ مَكْتُبِي عَلَى عَقْدِي. »

وبذل ابن الخطيب جهده في التحايل للخروج من غرناطة، والتحول من الأندلس إلى المغرب، فاستأذن السلطان أبا عبد الله الغني بالله في تفقد الثغور، فأذن له، فما أن وصل جبل الفتح فُرْضَةً المَجَازِ إِلَى الْعُدُوَّةِ إِلَّا وَمَالَ إِلَيْهِ مُسْرِعًا وَجَازَ إِلَى مَدِينَةِ سَبْتَةِ فِي الْمَغْرِبِ وَمِنْهَا إِلَى حَاضِرَةِ سُلْطَانِ بَنِي مَرِينٍ بِمَدِينَةِ «فَاس» حَيْثُ حُلَّ ضَيْفًا عَلَيْهِ، فَأَكْرَمَ أَبُو فَارِسَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمُسْتَنْصِرُ^(١) بَنَ عَلِيٍّ وَفَادَتَهُ، وَأَحْلَى شَخْصَهُ وَمِنْ جَاءَ مَعَهُ أَفْضَلُ مَكَانَةٍ وَكَانَ وَصُولُ ابْنِ الْخَطِيبِ فَاسَ فِي مُنْتَصَفِ عَامِ ٧٧٣ هـ .

وما أن علم بذلك أعداؤه وخصومه الناقمون عليه، الحاسدون له أمثال تلميذه الجاحد ابن زمرك، والقاضي أبي الحسن ابن الحسن النباهي صديق الأمس القريب، الساعي في السابق إلى مرضات ابن الخطيب، والذي كم قَبْلَ يَدِهِ تَقَرُّبًا وَتَحَبُّبًا، إِلَّا وَكَثُرُوا الْحَدِيثَ فِي شَأْنِهِ، وَكَثَّفُوا جُهُودَهُمْ فِي إِغْرَاءِ السُّلْطَانِ بِتَتَبُعِ عَثْرَاتِهِ، وَإِبْدَاءِ مَا كَانَ كَامِنًا فِي نَفْسِهِ مِنْ عَيُوبِهِ وَسَقَطَاتِهِ، وَإِحْصَاءِ مَعَايِهِ، وَشَاعَ عَلَى أَلْسِنَةِ أَعْدَائِهِ كَلِمَاتٌ قَدْ نَسَبَتْ إِلَى الزُّنْدَقَةِ أَحْصَوْهَا عَلَيْهِ، وَنَسَبُوهَا إِلَيْهِ، وَسَجَّلَهَا الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ بَنَ الْحَسَنِ النَّبَاهِيَّ عَلَيْهِ، وَزَيْنَ هَؤُلَاءِ الْخُصُومِ لِلْغَنِيِّ بِاللَّهِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى سُلْطَانِ الْمَغْرِبِ فِي الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ بِمَقْتَضَى مَا سَجَلَ عَلَيْهِ، وَإِمْضَاءِ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ : أَيُّ قَتْلِهِ، وَلَكِنْ السُّلْطَانُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمُرِينِيُّ رَدَّ رِسُولَ ابْنِ الْأَحْمَرِ رَدًّا قَاسِيًا، وَأَبَى أَنْ يَغْدِرَ بِابْنِ الْخَطِيبِ، وَأَرْدَفَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ لِهَذَا الرِّسُولِ وَهُوَ لِلْأَسَفِ الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ النَّبَاهِيَّ : « هَلَّا أَنْتَقَمْتُمْ مِنْهُ وَهُوَ عِنْدَكُمْ، وَأَنْتُمْ عَالِمُونَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ، أَمَّا أَنَا فَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ أَحَدٌ

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ١٠٢ نقلًا عن تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٢ - ٣٣٦ .

ما كان في جوارى » ولكن قدّر الله وما شاء فعل فهو سبحانه وتعالى إذا قضى فلا رادّ لقضائه ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، ولكي تنفذ مشيئة الله في لسان الدين بن الخطيب توفي السلطان عبد العزيز المريني سلطان المغرب في ربيع الثاني سنة ٧٧٤هـ ، وآل أمر دولته إلى ابنه أبي زيان السعيد بن أبي فارس عبد العزيز بن علي المريني .

وكان غلاماً صغير السن ، فتأمر ابن الأحمر الغني بالله سلطان غرناطة عليه ، وأشعل في المغرب نار الفتنة التي لم تهدأ إلا بخلع أبي زيان وتولية خليفة من صنائعهم المقربين إليهم بشروط قبلها وارتضاها ومنها : التنازل عن جبل الفتح لبني الأحمر ، وتسليم أبناء الملوك ومنهم السعيد بن أبي فارس السلطان المخلوع ، ليكونوا رهائن في قبضة الغني بالله ، وكذلك السماح بمحاكمة ابن الخطيب بعد القبض عليه متى قدر على ذلك .

وكان هذا الحاكم الصنيعة هو أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن سالم المريني ، الذي ما إن تولى الحكم حتى نفذ كل الشروط وسعى رجاله حتى قبضوا على ابن الخطيب ، وصادروا أملاكه وضياعه التي استطاع الحصول عليها إبان إقامته في المغرب ، وألقوا به في السجن مقيداً وكان ذلك سنة ٧٧٦هـ وطيروا الخبر إلى الغني بالله الذي أرسل من فوره صاحبه وكتبه بعد ابن الخطيب أبا عبد الله بن زمرك ، والقاضي أبا الحسن النباهي حيث وصلا إلى المغرب ، وعقدا لابن الخطيب محاكمة صورية على ملأ من الناس ، وجّهوا إليه تهماً كثيرة ، وتكلوا به وعذبوه أمام الناظرين .

ثم أعادوه إلى محبسه ، ودسوا عليه في السجن بعض الرعاغ الذين قاموا بخنقه ولزهاق روحه تحت جنح الظلام ، وفي صباح اليوم التالي أشيع خبر وفاته ، وأخرج جثمانه حيث دفن في مقبرة باب المحروق بفاس ، ثم أصبح الناس فوجدوا جثته على حافة قبره ، وقد جمعت لها أعواد ، وأضرمت عليها النار ، فاحترق شعره ، واسودّ جلده ، فأعيد إلى حفرته ، وكان في ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه الشنعاء ، ولأموا بسببها عدواً من أعداء لسان الدين بن الخطيب هو سليمان بن داود بن أعراب كبير بني عسكر وزير السلطان المستبد بحكم المغرب آنذاك أبي العباس أحمد بن إبراهيم المريني ،

واعتدوا ما فعل بابت الخطيب هنة من هناته (١)

الآثار الأدبية لنكبتى لسان الدين ابن الخطيب :

لقد خلفت النكبتان اللتان نكب بهما لسان الدين بن الخطيب نتاجاً أدبياً لا بأس به شعراً ونثراً . وقد حاولت جهدي أن أُلَمَّ بهذا النتاج قدر الاستطاعة ، وأسفرت الجهود المبذولة عن الوصول إلى عدد من القصائد الشعرية ، لا أقول هي كل نتاج النكبتين ولكن أهمُّ ما نتج عنهما ، وأولى القصائد هي نونية ابن الخطيب التي مدح بها أبا سالم ابراهيم بن أبي الحسن علي المريني سلطان المغرب في شعبان سنة ٧٦١ هـ عندما فتح مدينة تلمسان بينما ابن الخطيب وسلطانه المخلوع الغني بالله في ضيافة أبي سالم هذا وحماه ، وقد شرح فيها ابن الخطيب أمر الاغتراب ، الذي حير الألباب وللمناسبة أسباب ، لا تخفي على من له فكر مصيب ، وكل غريب للغريب نسيب وفي هذه القصيدة يقول (١) :

أطاع لسانى في مديحك إحسانى وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان
فأطلعته تغتر عن شنب المُننى وتُسفر عن وجه من السعد حيانى

وبعد أن أفاض في الحديث عن هذا الفتح وهناً به ، اتجه إلى مدح أبي سالم متخذاً من هذا المدح مدخلاً للحديث عن غربته ، وما أنزله به دهره ، وكيف تلون له إخوانه وتنكروا ، ولم ينقذه من نكبته إلا شفاعة أبي سالم فيه هذا الذي حرص على أن يهديه نونيته راجياً قبولها كما قبل رسول الله ﷺ هدية كعب بن زهير المتمثلة في قصيدته الالامية بانث سعاد ، وكما قبل شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه ، كل هذه المعاني تناولها بقوله :

عجبت لمن يغى الفخار بدعوة مجرّدة من غير تحقّيتي وبرهان
وسنة إبراهيم في الفخر قد أتت بكل صحيح عن علي وعثمان

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ٣٤١ ، أزهار الرياض ج ١ ص ٢٢٩ ، نفح الطيب ج ٥ ص ١١١ .

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٢ - ٣٧ .

ومن مثل إبراهيم في ثبوت موقف
إذا هم لم يلتفت بلحظة هائب
فصاحه قس في سماحة حاتم
شمائل ميمون النقيبة أروع
محبته فرض على كل مسلم
هنيئاً أمير المسلمين بنعمة
لزينت أجياد المنابر بالتي
قلائد فتح هن لكن قدرها
أمولاي حبي في علاك وسيلتي
أياديك لا أنسى على بعد المدى
فلا جحد ما خولتني من سجيتي
ومهما تعجلت الحقوق لأهلها،
وركني الذي لما بنا بي منزلي
وعالج أيامي وكانت مريضة
فأمنتني الدهر الذي قد أخافني
وخولني الفضل الذي هو أهله
تخونني صرف الحوادث فأنثني
وأزعجني من منشئي ومبوءي
بلادي التي فيها عقدت تمائي
تحدثني عنها الشمال فتشني
وأمل أن لا أستفيق من الكرى

إذا ما التقى في موقف الحرب صفان؟
وإن من لم ينفث بلفظة مبان
واقدام عمرو تحت حكمة لقمان
له قصبات السبق في كل ميدان
وطاعته في الله ععدة إيمان
حييت بها من مطلق الجود منان
أتاح لها الرحمن في آل زيان
ترفع أن يدعى قلائد عققان
ولطفك بي دأباً بمدحك أغراني
نعوذ بك اللهم من شر نسيان
ولا كفر نعماك العميمة من شاني
فإنك مولاي الحقيق وسلطاني
أجاب ندائي بالقبول وآواني
بحكممة من لم ينتظر يوم بحران
وجدد لي السعد الذي كان أبلاني
وشيكاً وأعطاني، فأفعم أعطاني
يقبل أرداني، ومن بعد أرداني (١)
ومعهد أحبابي، ومألف جيرانني
وجم بها وفري وجل بها شاني
وقد عرفت مني شمائل نشوان
إذا الحلم أوطاني بها ترب أو طاني (٢)

(١) أردان الأولى جمع ردن وهو طرف الكم ، أرداني الثانية بمعنى كسرني وهو جناس تام .

(٢) أوطاني الأولى : أقامني ، وأوطاني الثانية جمع وطن وهو منزل الإقامة وهو جناس تام .

تَلَوْنَ إِخْوَانِي عَلَيَّ وَقَدْ جَنَّتْ
وَمَا كُنْتُ أُدْرِي قَبْلَ أَنْ يَتَنَكَّرُوا
وَكَانَتْ، وَقَدْ حَمَّ الْقَضَاءُ، صَنَائِعِي
فَلَوْلَاكَ بَعْدَ اللَّهِ يَا مَلِكَ الْعَسَلَاءِ
تَدَارَكْتَ مِنِّي بِالشَّفَاعَةِ مُنْعَمًا
فَإِنْ عَرَفَ الْأَقْوَامُ حَقَّكَ وَقَفُّوا
وَأِنْ خَلَطُوا عُرْفًا بُنْكَرَ وَقَصُرُوا

عَلَيَّ خَطُوبَ جَمَّةٍ ذَاتِ أَلَوَانٍ
بَأَنَّ خُوَانِي كَانَ مَجْمَعَ خُوَانِي
عَلَيَّ بِمَالًا أَرْتَضِي شَرَّ أَعُوَانِي
وَقَدْ فُتَّ مَا أَلْفَيْتُ مِنْ يَتْلَافَانِي
بَرِيئًا رَمَاهُ الدَّهْرُ فِي مَوْقِفِ الْجَانِي
وَإِنْ جَاهَلُوا بَاءُوا بِصَفْقَةِ خُسْرَانٍ
وَزَنْتَ بِقُسْطَاسٍ قَوِيمٍ وَمِيزَانٍ

ومن هذه القصيدة قوله :

فَدُونَكُهَا مِنْ بَحْرِ فِكْرِي لَوْلَا
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ بِالشَّعْرِ يَعْنِي
وَوَاللَّهِ مَا وَفَيْتُ قَدْرَكَ حَقَّهُ

يَفْصِلُ مِنْ حُسْنِ النِّظَامِ بِمُرْجَانٍ
وَكَمْ حُجَّةٍ فِي شِعْرِ كَعْبٍ وَحَسَانٍ
وَلَكِنَّهُ وَسْعِي وَمَسْبُغِ إِمْكَانِي

فكما هو واضح من الأبيات التي سقناها نرى ابن الخطيب بعد أن أفاض في مدح أبي سالم عرج إلى الاعتراف بأياديه البيضاء عليه، وأقربها وشكره عليها، ومن أياديه البيضاء عليه أنه أنقذه من نكبته، وأمنه بعد خوف، وأعاد إليه البسمة والسعادة، وغمره بفضله الذي ملأ به أعطانه أي ساحاته، ثم شكى ابن الخطيب ما حلَّ به من صروف الدهر الذي كان في الماضي يقبل أُرْدَانَهُ، واليوم أُرْدَاهُ أي أوصله إلى درجة الهلاك حيث أخرج من وطنه وأرض نشأته ومبأته، ومعاهد الأحاب والأصدقاء، ومألف الجيران، هذه البلاد التي شب فيها صغيراً، ونشأ على ثراها شاباً، وعظم بها شأنه، وارتفعت مكانته، وها هو في غربته بعيداً عنها يتنسم أريجها من ريح الشمال، هذه الريح التي تنقلب حاملة أريج نشوته وسعادته، ويتمنى أن يظل في نوم دائم، لأنه يعيش في نومه أحلاماً تنقله إلى وطنه فيقيم فيه على ترابه الذي يعشقه، ثم يشكو من تنكّر الإخوان له وإنقلابهم عليه، وهم الذين كمّرتعوا في نعمته، وأكلوا على مائدته وهو لا يدري أن خَوَانَهُ أي مائدته قد جمع حوله خَوَانَهُ جمع خائن، أو خَوَانٌ على سبيل المبالغة .. هؤلاء

الخونة كانوا جميعاً صنائعه ، فلماً حمّ القضاء عليه انقلبوا فصاروا شرّ أعوان .

ومن الواضح البين كيف هياً ابن الخطيب نفس ممدوحه إلى قبول مدحته حيث دعاه إلى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في قبوله المدح من كعب بن زهير رضي الله عنه ، وكذلك من حسان بن ثابت رضي الله عنه .

وكما نرى ألحّ ابن الخطيب على أن يؤكد إخلاصه ووفاءه للمدوح فبدأ بتعديد مناقبه وشمائله وخصاله ، ثم سرد علينا أفضاله وكريم أياديه عليه ، وأثر هذه الأيادي البيضاء في حياته ، ونفي عن نفسه سمة من سمات جحود النعمة وكفرانها ، واستعاذ بالله من شر النسيان والجحود لأن هذا ليس من سماته ولا من شأنه .

ولقد تفنّن ابن الخطيب في مدح السلطان أبي سالم مستخدماً أساليب متعددة منها أسلوب الاستفهام الذي يحمل غرضاً بلاغياً هو النفي والإنكار في قوله :

ومن مثل إبراهيم في ثبّت موقفٍ إذا ما التقي في موقف الحرب صفان ؟

وجمع له صفات الشجاعة والفصاحة والإقدام والسماحة والحكمة في بيت واحد بقوله :

فصاحةٌ قسُ في سماحة حاتم وإقدام عمرو ، تحت حكمة لقمان

ولقد أفاض ابن الخطيب في استخدام المحسنات البديعية فاستخدم أسلوب التورية في قوله :

وسنة إبراهيم في الفخر قد أتت بكل صحـيح عن عليّ وعثمان

فالمعنى القريب أنه يقتدي بعليّ بن أبي طالب ، وبعثمان بن عفان رضي الله عنهما والمعنى البعيد المراد أنه اقتدي بأبيه وجده .. ومن شابه أباه فما ظلم ، واستخدم الطباق في قوله : « فأمنني الدهر الذي قد أضافني » ، وكذلك « جدّد - أبلى » وكذلك الجنس التام في قوله : « أعطاني - أعطاني » فالأولى من العطاء ، والثانية من الجموع فهي جمع عطن ، وهو الساحة ، والمعنى أنه قد ملأ ساحاته بعطاياه « وأعطاني فأفعم أعطاني » ، وكذلك « أرداني - أرداني » في قوله « يقبل أرداني ، ومن بعد أرداني »

فالأولى بمعنى يقبل أعطا في وأطرافي ، والثانية جاءت من الفعل أُردي بمعنى كسر أو أهلك ودمّر، وفي قوله : « أوطاني - أوطاني » في قوله : « إذا الحلم أوطاني بها تُرب أوطاني » فالأولى بمعنى ذهب بي وأقامني ، والثانية جمع وطن وهو منزل الإقامة

كما استخدم الجنس الناقص في قوله : « خَوَّاني - خَوَّاني » في قوله : « .. خَوَّاني مجمع خَوَّاني » فالأولى يقصد بها المائدة، والثانية جمع خَوَّان أي : شديد الخيانة صيغة مبالغة على وزن فعَّال ..

أما من حيث التصوير فقد أحسن ابن الخطيب اختيار الصور المناسبة حيث صور مناقب أبي سالم بالزينة، والمتابر بالחסناوات اللائي زين جيد كل واحدة منهن بتلك المناقب، كما صور فتوحاته بالقلائد وجعلها أرفع من قلائد العقيان، وصور أيامه في غرناطة وهو رهين الاعتقال بالمريض لم يعالجه من مرضه إلا أبو سالم الذي شبهه بالطبيب صاحب الحكمة .. ولما تحدث عن إخوانه الجاحدين صورهم بالحرباء التي تتخذ لكل مكان لوناً مناسباً يمكنها من التخفي، فهؤلاء يتلونون حسب الظروف والأحوال .. وغير ذلك من الصور التي اتخذها وسيلة لإيضاح معانيه وإظهار أفكاره .

ومن آثار النكبة الأولى أيضاً قصيدته الرائية التي ألقاها بين يدي أبي سالم عندما أفلته من شرك النكبة التي استأصلت المال، وأوهمت سوء الحال، بشفاعته، واستقبله مع السلطان الغني بالله في حفل بهيج مشهود يومئذ، وحرص أبو سالم على أن يرفع من قدر أبي عبد الله الغني بالله المخلوع من سلطنته، المغلوب على أمره، مما حرك وجدان ابن الخطيب، وأطلق لسانه، فوقف ينشد قصيدته مادحاً إياه بما هو أهله، مشيداً بمكانته، معدداً مناقبه، معترفاً بعظيم أياديه ومعروفه، وفي ذلك يقول : (١)

سَلاَ هلَ لديها منْ مُخْبِرَةٍ ذَكَرُ ؟ وهلَ أعشَبَ الوادي ونَمَّ به الزَّهْرُ ؟

(١) نفع الطيب ج ٥ ص ٨٥ - ٨٩ ، أزهار الرياض ج ١ ص ١٩٦ .

وَهَلْ بَاكَرَ الْوَسْمِيُّ دَارًا عَلَى الْلَوَى
 بِلَادِي الَّتِي عَاطَيْتُ مَشْمُولَةَ الْهُوَى
 وَجَوَى الَّذِي رَبَّى جَنَاحِي وَكَرِهَ
 نَبْتُ بِي لَا عَنْ جَفْوَةٍ وَمَلَالَةٍ
 وَلَكِنَّهَا الدُّنْيَا قَلِيلٌ مَتَاعُهَا
 فَمَنْ لِي بِقُرْبِ الْعَهْدِ مِنْهَا وَدُونَهَا
 وَلِلَّهِ عَمِينَا مَنْ رَأَى وَلِلْأَسَى
 وَقَدْ بَدَّدْتُ دُرَّ الدَّمُوعِ يَدَ الْنَوَى
 بَكِينًا عَلَى النَّهْرِ الشَّرُوبِ عَشِيَّةً
 أَقُولُ لِأُظْعَانِي وَقَدْ غَالَهَا السُّرَى
 رَوَيْدِكَ بَعْدَ الْعَمَسِ يُسِرُّ أَنْ أَبْشُرِي
 وَلِلَّهِ فَمِينَا سِرُّ غَيْبٍ ، وَرَبَّمَا
 وَإِنْ تَخُنَ الْأَيَّامُ لَمْ تَخُنِ السَّنْهُى
 وَإِنْ عَرَّكَتْ مِنْي الْخُطُوبُ مُجَرَّبًا
 فَقَدْ عَجَمْتُ عُودًا صَلِيبًا عَلَى الرَّدَى
 إِذَا أَنْتَ بِالْبَيْضَاءِ قَسَّرْتَ مَنَزَلِي

عَفَفْتُ أَبْهًا إِلَّا التَّوَهُّمُ وَالذِّكْرُ ؟
 بِأَكْنَفِهَا وَالْعَيْشُ فَمِينَا مُخْضَرٌ
 فَهِيَ أَنَا ذَا مَالِي جَنَاحٌ وَلَا وَكْرٌ
 وَلَا نَسَخَ الْوَصْلِ الْهَنْئِ بِهَا هَجْرٌ
 وَلَذَاتُهَا دُأْبًا تَزُورُ وَتَزُورُ
 مَدَى طَالِ حَتَّى يَوْمِهِ عِنْدَنَا دَهْرٌ
 ضِرَامٌ لَهُ فِي كُلِّ جَانِحِيَّةٍ جَمْرٌ
 وَلِلشُّوقِ أَشْجَانٌ يَضِيقُ لَهَا الصَّدْرُ
 فَعَادَ أَجَاجًا بَعْدَنَا ذَلِكَ النَّهْرُ
 وَأَنْسَهَا الْحَادِي وَأَوْحَشَهَا الزُّجْرُ :
 بَانْجَازَ وَعْدِ اللَّهِ ، قَدْ ذَهَبَ الْعَمَسُ
 أَتَى النِّفْعُ مَنْ حَالٍ أُرِيدَ بِهَا الضَّرُّ
 وَإِنْ يَخْذُلُ الْأَقْوَامُ لَمْ يَخْذُلِ الصَّبْرُ
 نَقَابًا تَسَاوَى عِنْدَهُ الْحَلُ وَالْمُرُّ
 وَعَزَمًا كَمَا تَمْضِي الْمَهْنَدَةُ الْبَتْرُ
 فَلَا اللَّحْمُ حُلٌّ مَا حَيَّيْتُ وَلَا الظُّهْرُ

ثم انتقل بعد حديثه عن نكبته وما ألمَّ به ، وبعد أن عزى نفسه وعمل على
 التخفيف عنها ، وإرشادها إلى التذرع بالصبر ، والتطلع إلى فرج الله الذي جعل بعد العسر
 يسراً ، وأعلن اعتزازه بصلافة عوده ، وقوة تحمله انتقل إلى مدح من آواه مع سلطانه
 وأحسن إليهما وهو السلطان أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي المريني قائلاً :

زَجَرْنَا بِإِبْرَاهِيمَ بَرِّءَ هُمُومِنَا
 فَلَمَّا رَأَيْنَا وَجْهَهُ صَدَقَ الزُّجْرُ
 بِمَنْتَجِبٍ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ كُلَّمَا
 دَجَا الْخُطْبُ لَمْ يَكْذِبْ لِعَزْمَتِهِ فَجْرُ

تَنَاقَلْتُ الرُّكْبَانَ طِيبَ حَدِيثِهِ
نَدَى لَوْحَاهُ الْبَحْرُ لَذَّ مَذَاقُهُ
وَبَأْسُ غَدَائِرِ تَاغٍ مِنْ خَوْفِهِ الْبَرْدَى
أَطَاعَتْهُ حَتَّى الْعُصْمِ فِي قُنَنِ الرَّبَى،
قَصَدْنَاكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ عَلَى السُّنَى
كَفَفْنَا بِكَ الْأَيَّامَ عَنْ غُلُوءِهَا
وَعُدْنَا بِذَلِكَ الْمَجْدِ فَنَاصِرِمَ الرَّدَى
وَلَمَّا أَتَيْنَا الْبَحْرَ يَرْهَبُ مَوْجُهُ
خَلَّافَتَكَ الْعُظْمَى وَمَنْ لَمْ يَدَنْ بِهَا
وَوَصَفُكَ يَهْدِي الْمَدْحَ قَصْدَ صَوَابِهِ
دَعَتْكَ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَخْلَصَتْ
وَمَدَّتْ إِلَى اللَّهِ الْأَكْفَ ضِرَاعَهُ
وَأَلْبَسَهَا النُّعْمَى بِيَسْبَعَتِكَ الَّتِي
فَأَصْبَحَ نَغْرُ الثَّغْرِ يَسْمُ ضَاكِحاً
وَأَمَنْتَ بِالسَّلَامِ الْبِلَادَ وَأَهْلَهَا
وَقَدْ كَانَ مَوْلَانَا أَبُوكَ مُصْرَحاً
وَكُنْتَ حَقِيقاً بِالْخِلَافَةِ بَعْدَهُ
وَأَوْحَشْتَ مَنْ دَارَ الْخِلَافَةِ هَالِكَةً
فَرَدَّ عَلَيْكَ اللَّهُ حَقِّكَ إِذْ قَضَى
وَقَادَ إِلَيْكَ الْمُلْكَ رَفَقاً بِخَلْقِهِ
وَزَادَكَ بِالسَّيْفِ عِزّاً وَرَفْعَةً
وَأَنْتَ الَّذِي تُدْعَى إِذَا دَهَمَ الْبَرْدَى

فَلَمَّا رَأَتْهُ صَدَّقَ الْخَبَرَ الْخَبَرُ
وَلَمْ يَتَعَقَّبْ مَدَّهُ أَبْداً جَزْرُ
وَتَرَفُّلُ فِي أَثْوَابِهِ الْفَسْتَكَةُ الْبُكْرُ
وَهَشَّتْ إِلَى تَأْمِيلِهِ الْأَنْجَمُ الزُّهْرُ
لِتُصَفَّنَا مِمَّا جَنَى عَبْدُكَ الدَّهْرُ
وَقَدْ رَابَنَا مِنْهَا التَّعَسُّفُ وَالْكَبَرُ
وَلَدْنَا بِذَلِكَ الْعِزِّمَ فَانْهَزِمَ الذَّعْرُ
ذَكَرْنَا نَدَاكَ الْغَمْرَ فَاحْتَقَرَ الْبَحْرُ
فَإِيْمَانَهُ لَغَوَّ وَعَرَفَانَهُ نُكْرُ
إِذَا ضَلَّ فِي أَوْصَافٍ مِنْ دُونِكَ الشَّعْرُ
وَقَدْ طَابَ مِنْهَا السُّسْرُ لِلَّهِ وَالْجَهْرُ
فَقَالَ لَهُنَّ اللَّهُ : قَدْ قَضَى الْأَمْرُ
لَهَا الطَّائِرُ الْمَيْمُونُ وَالْحَسْتُ الْحُرُ
وَقَدْ كَانَ مِمَّا نَابَهُ لَيْسَ يَفْتَرُ
فَلَا ظِلَّةَ تَعْرِى، وَلَا رَوْعَةَ تَعْرِو
بِأَنَّكَ فِي أَبْنَائِهِ الْوَلَدُ الْبَرُ
عَلَى الْفُورِ، لَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ قَدْرُ
أَقَامَتْ زَمَاناً لَا يَلُوحُ بِهَا الْبَدْرُ
بَأَنْ تَشْمَلَ النُّعْمَى وَيَسْنِدَلَ السُّتْرُ
وَقَدْ عَدَمُوا رُكْنَ الْإِمَامَةِ وَاضْطَرُّوا
وَأَجْرًا، وَلَوْ لَا السَّبْكُ مَا عُرِفَ التَّبَرُ
وَأَنْتَ الَّذِي تُرْجَى إِذَا أَخْلَفَ الْقَطْرُ

وَأَنْتَ الَّذِي إِذَا جَارَ الزَّمَانُ مُحَكَّمٌ لَكَ النَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ وَالنَّهْيُ وَالْأَمْرُ
 إن ابن الخطيب قد أفاض في مدح أبي سالم، وذكر مناقبه وتغنى بها، وشطط في
 ذلك شططاً ظاهراً بمبالغته الواضحة في بعض الأحيان كقوله :
 « لَتُنْصِفَنَا مِمَّا جَنَى عَبْدَكَ الدَّهْرُ » !!، ومثل قوله أيضاً :
 « خلافتك العظمى ومن لم يدن بها فإيمانه لغو، وعرفانه نُكْرٌ » !!

وكذلك في قوله :

« وَأَنْتَ الَّذِي تُدْعَى إِذَا دَهَمَ الرَّدَى وَأَنْتَ الَّذِي تُرْجَى إِذَا أَخْلَفَ الْقَطَرُ » !!
 « وَأَنْتَ الَّذِي إِذَا جَارَ الزَّمَانُ مُحَكَّمٌ لَكَ النَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ، وَالنَّهْيُ وَالْأَمْرُ » !!

وهي مبالغات تقدح في عقيدة ابن الخطيب، وربما كان لها أثر في وقوع نكبته
 الثانية، ففي ظني أن ذلك كان من الأسباب النفسية التي غيّرت قلب سلطانه عليه فيما
 بعد، وعلى أي حال فسنكتفي بعرض هذا القدر من القصيدة حيث عرضناها كاملة في
 كتابنا « الفتن والنكبات العامة، وأثرها في الشعر الأندلسي » الفصل السابع تحت عنوان:
 « دور الشعر في الاستغاثة والاستنجاد » كما تناولناها بالتحليل والنقد . ونحيل القارئ
 عليه (١) .

ومن الآثار الأدبية للنكبة الأولى لابن الخطيب ما كتب به إلى السلطان أبي سالم
 المريني في شهر رجب سنة ٧٦١هـ يلتمس منه خلاله أن يرسل برسول إلى السلطان
 إسماعيل بن الأحمر المستبد بغرناطة يحمل شفاعته من أبي سالم برد أموال ابن الخطيب
 المصادرة بمعرفته ، ويبيع ضياعه وقصوره وإحضر ثمنها، لعله يستطيع أن يشتري به
 ضياعاً وبيوتاً أخرى في المغرب ، لأنه يبدو من رسالته رغبته في أن يقيم نهائياً بشالة سلا
 مجاوراً لضريح السلطان أبي الحسن علي المريني والد أبي سالم ، وفي مدرج كتابه الذي
 أرسل به إلى أبي سالم القصيدة الآتية : (٢)

(١) الفتن والنكبات العامة للمؤلف ص ٢٢٢ - ٢٢٩ .

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٢١ نقلاً عن أزهار الرياض ج ١ ص ٢٨١ .

مَوْلَايَ هَا أَنَا فِي جَوَارِ أَيْكََا
 أَسْمَعُهُ مَا يَرْضِيهِ مِنْ تَحْتِ الثَّرَى
 وَاجْعَلْ رِضَاهُ إِذَا نَهَدْتَ كَتِيبَةً
 وَاجْزِمْ بِرِجْزِي قَلْبَهُ تَنَلِ الْمُنَى
 فَهُوَ الَّذِي سَنَّ السُّرُورَ بِأُمِّهِ
 وَأَبْعَثْ رَسُولَكَ مُنْذِرًا وَمُحْذِرًا
 قَدْ هَزَّ عِزْمَكَ كُلَّ قُطْبٍ نَازِحٍ
 فَإِذَا سَمَوْتَ إِلَى مَرَامٍ شَاسِعٍ
 ضَمَنْتَ رِجَالَ اللَّهِ مِنْكَ مَطَالِبِي
 فَلَنْ كَفَيْتَ وَجُوهَهَا فِي مَقْصِدِي
 وَإِذَا قَضَيْتَ حَوَائِجِي وَأَرَيْتَنِي
 وَاشْدُدْ عَلَى قَوْلِي يَدًا، فَهُوَ الَّذِي
 مَوْلَايَ مَا اسْتَثَرْتَ عَنْكَ بِمُهْجَتِي
 لَكِنْ رَأَيْتُ جَنَابَ شَالَةِ مَغْنَمًا
 وَفُرُوضُ حَقِّكَ لَا تَفُوتُ فَوْقَهَا
 وَوَعَدْتَنِي وَتَكَرَّرَ الْوَعْدُ الَّذِي
 أَضْفَى عَلَىكَ اللَّهُ سِتْرَ عَنَائِي
 بِبَقَائِكَ الدُّنْيَا تُحَاطُّ وَأَهْلُهَا

فَايْذُلْ مِنَ الْبِرِّ الْمَقْدِرَ فَيْكََا
 وَاللَّهُ يَسْمَعُكَ الَّذِي يَرْضِيكََا
 تُهْدِي إِلَيْكَ النَّصْرَ أَوْ تُهْدِيكََا
 وَتَطَالِعُ الْفَتْحَ الْمُبِينَ وَشَيْكََا
 وَأَبِيهِ فَاشْرَعْ شَرْعَهُ لَبْنِيكََا
 وَيَمَا تَوَمَّلْ نَيْلَهُ يَأْتِيكََا
 وَأَخَافُ مَمْلُوكًا بِهِ وَمَلِيكََا
 فَغُصُونُهُ ثَمَرُ الْمُنَى تَجْنِيكََا
 لَمَّا جَعَلْتِكَ فِي الثَّوَابِ شَرِيكََا
 وَرَعَيْتَهَا بَرَكَاتِهَا تَكْفِيكََا
 أَمَلًا فَرُبُّكَ مَا أَرَدْتَ يَرِيكََا
 بَرْهَانَهُ لَا يَقْبَلُ التَّشْكِيكََا
 إِنِّي وَمُهْجَتِي الَّتِي تُفْدِيكََا
 يُضْفِي عَلَيَّ الْعِزَّ فِي نَادِيكََا
 بَاقٍ إِذَا اسْتَجَزَيْتَهُ يَجْزِيكََا
 أَبَتِ الْمَكَارِمُ أَنْ يَكُونَ أَفْـيَكََا
 مِنْ كُلِّ مُحْذُورِ الطَّرِيقِ يَقِيكََا
 فَسَلِّ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَبْقِيكََا

لقد اتخذ ابن الخطيب من شدة حرص أبي سالم على البر بأبيه بعد وفاته مدخلا
 لبلوغ ما يريد منه، وجعل تحقيقه لمطلبه من إرسال رسول يسترد له أمواله من إسماعيل
 ابن أبي الحجاج بن الأحمر مرضاة لأبيه، وجبرا لقلبه، وبرابه، ولكي يستشير ابن
 الخطيب همة أبي سالم مدحه بقوة الشخصية، ومضاء العزيمة، ويتحقق آماله وقدرته

على بلوغ هدفه بسهولة، ثم انخرط في الدعاء له ، وتفديته بنفسه ومهجته ، ويذكرُ بأنه وعده باسترجاع أمواله، ووعد الحر دين عليه ، ويختتم أبياته بمزيد من الدعاء لأبي سالم أن يضيفي عليه الله ستره، ويقيه كل محذور من شرور الطريق، وأن يطيل في عمره ويقيه ، فإنه ببقائه تحاط الدنيا وأهلها بمكارمه وأفضاله .

وفي ظني أن شدة تلهف ابن الخطيب على استرداد أمواله جعلته يلح على مطلبه ، ويبحث عن كل المؤثرات التي تجعل أبا سالم يستجيب له .. فأكد على تذكيره بالبرِّ بوالده الذي يعيش ابن الخطيب إلى جوار ضريحه ومثواه، وكذلك تذكيره بأولياء الله الصالحين الذين أشار إليهم بقوله : « ضمنت رجال الله منك مطالبني » ويبدو أن أبا سالم كان يميل إلى المعتقدات الصوفية ، ولذلك يضرب ابن الخطيب على هذا الوتر الحساس لديه ، وهذا يدلُّ على ذكائه المتوقد.

وفي رسالة أخرى يخاطب لسان الدين السلطان أبا سالم ملتمساً بتحقيق مطلبه السابق مؤكداً على اتخاذ البرِّ بالوالد والوفاء لذكراه وسيلة للضغط على أبي سالم ليحقق له غرضه ويستردَّ له أمواله ، وفي تلك الرسالة المشار إليها يقول : (١)

عَنْ بَابِ وَالِدِكَ الرُّضَى لَا أَبْرَحُ ضُرِبْتُ خِيَامِي فِي حِمَاهُ فَصَيِّتِي حَتَّى يَرَاعَى وَجْهَهُ فَنَسِي وَجْهَتِي، أَيْسُوغُ عَنْ مَثْوَاهُ سِيرِي خَائِبًا أَنَا فِي حِمَاهُ وَأَنْتَ أَبْصَرُ بِالَّذِي فِي مِثْلِهِا سَيْفُ الْحَمِيَّةِ يَنْتَضِي وَعَسَى الَّذِي بَدَأَ الْجَمِيلَ يَعِيدُهُ	يَأْسُو الْـ زَمَانَ لِأَجَلِ ذَا أَوْ يَجْرَحُ تَجْنِي الْجَمِيْمَ بِهِ وَبِهِمِي تَسْرَحُ بِعْنَايَةِ تَشْفِي الْـ صَدُورَ وَتُشْرَحُ وَمَنَابِرَ الدُّنْيَا بِذِكْرِكَ تَصْدَحُ ؟! يَرْضِيهِ مِنْكَ فَوْزَنُ عَقْلِكَ أَرْجَحُ فِي مِثْلِهِا زَنْدُ الْحَفْـ فِيطَةِ يَقْدَحُ وَعَسَى الَّذِي سَدَّ الْمَذَاهِبَ يَفْتَحُ
--	--

ومن الآثار الأدبية لنكبة ابن الخطيب ما خاطب به ولده عبد الله عندما زاره في منفاه، وتجادبا أطراف الحديث، وتطرق بحديثهما إلى ما فقد بغرناطة، فقال لسان الدين

(١) نفع الطيب ج ٦ ص ٢٢ .

لولده : (١)

يَا بُنَيَّ عِنْدَ الْإِلَهِ احْتِسَابًا
كَفَيْفَ يَأْسَى عَلَى خَسَارَةِ جُزْءٍ
هَدَفٌ لَا تَنِي سَهَامُ الْبَلِيَالِي
وَاحِدٌ طَائِشٌ وَسَهْمٌ مُصِيبٌ
غَيْرُ ذِي الدَّارِ صَرَفُ الْهَمِّ فِيهَا
عَنْ أَثَاثٍ وَمَنْزِلٍ وَعَقَارٍ
مَنْ يَرَى الْكُلَّ فِي سَبِيلِ الْخَسَارِ
عَنْ سَبَاقِ تَجَسَّاهُ وَبِدَارٍ
لَيْسَ يَنْجِي مِنْهَا اشْتِمَالُ حَذَارٍ
فَمَنَاخُ الرِّجْلِ لَيْسَ بِدَارٍ

وبينما ابن الخطيب في منفاه في بلاد المغرب قتل السلطان أبو سالم ابراهيم بن أبي الحسن علي المريني، وكان مقتله في يوم الخميس ٢١ من ذي القعدة سنة ٧٦٢ هـ وبعد مقتله وسد الأمر لأبي زيان محمد بن يعقوب أبي عبد الرحمن بن علي أبي الحسن بن عثمان المريني، وهو ابن أخيه أبي سالم، وقد بويغ بالإمارة والمملك في الحادي عشر من صفر سنة ٧٦٣ هـ بعد فترة من الاضطرابات عقب مقتل سلفه، وقد بادر هذا السلطان الجديد فأقر ابن الخطيب على كل ما أقر به سلفه له، وطمأنه على نفسه، وهذا التصرف قد أثلج صدر لسان الدين، وأطلق لسانه بمدحه فكتب إليه رسالة اشتملت على نظم ونثر، ومما جاء فيها منظوماً قوله : (٢)

يَا ابْنَ الْخُلَائِفِ يَا سَمِيَّ مُحَمَّدٍ
أَبْشُرْ فَإِنَّتَ مَجْدُ الْمَلِكِ الَّذِي
مَنْ ذَا يَعَانِدُ مِنْكَ وَارِثُهُ الَّذِي
أَلْقَتْ إِلَيْكَ يَدُ الْخُلَافَةِ أَمْرَهَا
هَذَا وَبَيْنَكَ لِلصَّرِيخِ وَبَيْنَهَا
مَنْ كَانَ هَذَا الصَّنْعُ أَوَّلَ أَمْرِهِ
مَوْلَايَ عِنْدِي فِي عِلَاقِكَ مُحَبَّةٌ
يَأْمَنْ عِلَاقَهُ لَيْسَ يَحْصُرُ حَاصِرٌ
لَوْ لَآكَ أَصْبَحَ وَهُوَ رَسْمٌ دَائِرٌ
بَسْعُودِهِ فَلَكَ الْمَشْيِئَةُ دَائِرٌ
إِذْ كُنْتَ أَنْتَ لَهَا الْوَلِيُّ الْبَنَاصِرُ
حَرْبٌ مُضْرَسَةٌ وَبِحَرْبٍ زَاخِرٌ
حَسَنَتْ لَهُ الْعُقْبَى وَعَزَّ الْآخِرُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مِمَّا تَكُنُ ضَمَائِرُ

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٢٩٥ - ٣٠٠ . (٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٣٨٢ .

قَلْبِي يُحْدِثُنِي بِأَنَّكَ جَابِرٌ
 بَشَرِي جُدُودَكَ قَدْ حَطَطْتُ حَقِيبَتِي
 وَبَذَلْتُ وَسْعِي وَاجْتِهَادِي مِثْلَ مَنْ
 فَهُوَ الْوَلِيُّ لَدَى الَّذِي اقْتَحَمَ الرَّدَى
 وَوَلِيُّ جَدِّكَ فِي الشَّدَائِدِ عِنْدَمَا
 فَاسْتَهْدَ مِنْهُ النَّصْحَ وَاعْلَمْ أَنَّهُ
 إِنْ كُنْتُ قَدْ عَجَلْتُ بَعْضَ مَدَائِحِي

كَسْرِي، وَحَظِّي مِنْكَ حَظٌّ وَأَفْرُ
 فَوَسَّيْلَتِي لِعَلَّاكَ نُورٌ بَاهِرٌ
 يَلْقَى لِمَلِكِكَ سَيْفَ أَمْرِكَ عَامِرٌ
 وَقَضَى الْعَزِيمَةَ وَهُوَ سَيْفٌ بَاتِرٌ
 خَذَلْتَ عِلَاهُ قِبَائِلٌ وَعِشَائِرُ
 فِي كُلِّ مُعْضَلَةٍ طَبِيبٌ مَاهِرٌ
 فَهِيَ الرِّيَاضُ، وَلِلرِّيَاضِ بَوَاكِرُ

في الأبيات السابقة بادر ابن الخطيب بتهنئة أبي زيان على صيرورة الأمر إليه كما يشيد بجهوده في القضاء على الفتنة التي أحدثها من قتلوا عمه أبا سالم واغتالوه، وسرعته في استعادة ملك آبائه ممن استبدوا به وسلبوه، بعد حرب ضروس سريعة الضربات خاضها بشجاعة ضد هؤلاء البغاة، ومن كان هذا أول عمل يقوم به، فلا بد أن تحسن عقباه، وتعز آخرته، ثم ينتقل ابن الخطيب إلى التعبير عما يكنه قلبه من حب لأبي زيان، ويعلن عن توسمه الخير فيه، واستبشاره بمجيئ الخير بغرته، ويأمل أن يجبر كسره على يديه وأن ينال الخطوة لديه، ويضع نفسه تحت إمرة أبي زيان معلنا أنه مستعد لخدمته كما خدم جدّه أبا الحسن علي بن عثمان المريني من قبل في وقت تخلّت عنه فيه قبائل وعشائر، وكما خدم عمّه أبا سالم، ويتمنى أن يجعله مستشاره النصوح في كل الأمور فهو في كل معضلة طيب ماهر لديه علاجها ودواؤها، وأخيراً ما هذه المدحة البسيطة إلا بواكير ثمار رياض يزخر بكل ما هو طيب سوف تتبعها خيرات كثيرة، وكما يقولون : (أول الغيث قطر ثم ينهمر)، وهكذا نرى أن ابن الخطيب لم يضيع وقتاً طويلاً في بذل مساعية لتأمين حياته ومعاشه في منفاه حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

قد عرفنا كيف أن السلطان أبا عبد الله الغني بالله قد عاد إلى ملكه وسلطانه وبعد أن استتب له الأمر استدعى وزيره لسان الدين بن الخطيب من بلاد المغرب ليقدم عليه

وفي صحبته أولاده ، فلما قدم عليه قرّبه كما كان من قبل ، وبوّأ مكانته السابقة ، ولكنّ الحاسدين الحاقدين كابن زمرّك ، وأبي الحسن النباهي قد أوغروا صدر السلطان عليه فبدى عليه التغير من ناحيته ، وأعرض عنه ، فلما أحسّ لسان الدين بذلك حرص على أن يمهّد مع من يثق فيهم من الملوك والسلاطين ليوم فرارٍ لأبد منه ، ومن هؤلاء أمير المسلمين السلطان أبو حمّو موسى بن يوسف ابن عبد الرحمن بن زياد سلطان تلمسان ، حيث وجّه إليه قصيدة سنية فائقة ، جعلها مقدمة بين يدي نجواه ، لتمهّده مثواه ، وتحصّل له المستقر ، إذا ألجأه الأمر إلى المفرّ ، فلم تساعده الأيام ، كما هو شأنها مع أكثر الأعلام ، وهذه القصيدة قد بلغت مائة وأربعة عشر بيتاً جاء أغلبها في المدح ، وبعضها في الشكوى ، والتخوف من نكبات الدهر ، وتقلبات الأيام ، وسوف نجتزئ منها ما نراه شاهداً على إحساس ابن الخطيب بقرب نكبته الثانية ، فمأ جاء فيها : (١)

أُطْلِعَنَّ فِي سَدَفِ الْفُرُوعِ شُمُوساً	ضَحَكَ الظَّلَامُ لَهَا وَكَانَ عَبُوساً
وَعُطِفَنَّ قُضْباً لِلْقُدُودِ نَوَاعِماً	بَوَّئْنَ أَدْوَاخَ النَّعِيمِ غُرُوساً
وَعَدَلَنَّ عَنْ جَهْرِ السَّلَامِ مَخَافَةَ الْـ	وَإِشْيَ فَجَّئْنَ بِلَفْظِهِ مَهْمُوساً
وَسَفَرَنَّ مِنْ دَهْشِ الْوَدَاعِ وَقُومِـ	هِنَّ إِلَى التَّرَحُّلِ قَدْ أَنَاخُوا الْعِيسَا
وَحَلَسَنَّ مِنْ خَلَلِ الْحِجَالِ إِشَارَةَ	فَتَرَكْنَ كُلَّ حِجَالِهَا مَخْلُوساً
لَمْ أَنْسَهَا مِنْ وَحْشَةِ وَالْحَيِّ قَدْ	زَجَرَ الْحَمْمُولَ وَآثَرَ التَّغْلِيْسَا
لَا الْمُلتَقَى مِنْ بَعْدَهَا كَثْبٌ وَلَا	عُوجُ الرُّكَّائِبِ تَسَامُ التَّخْيِيسَا (١)
فِيـوَقَفْتُ وَقَفَّةَ هَائِمٍ بِرَحَاؤُهُ	وَقَفْتُ عَلَيْهِ وَحِبَسَتْ تَحْيِيْسَا
وَدَعَوْتُ عَيْنِي عَاتِباً وَعَيُونَهَا	بِعَصَا النُّوَى قَدِ بَجَسَتْ تَبْجِيْسَا
نَافَسْتُ يَا عَيْنِي دُرَّ دُمُوعِهِمْ	فَعَرَضْتُ دُرّاً لِلدُّمُوعِ نَفِيْسَا
مَا لِلْحَمَى بَعْدَ الْأَحْبَةِ مَوْحِشَا	وَلَكَمْ تَرَاءَى آهـَـلاً مَانُوسَا
وَلَسِرِيهِ حَوْلَ الْخَمَمِـيْلَةِ نَافِرَا	عَمَّنْ يَحْسُ بِهِ وَكَانَ أُنْيَسَا

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ١٩٥ - ٢٠١ نقلاً عن أزهار الرياض ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) التخييس : تذليل الدابة .

وَلَظْلَهُ الْمُرُودِ غَمْرٌ قَلْبِي بِهِ
حَيَاتِهِ فَأَجَابَنِي رَجْعُ الصَّدَى
مَا إِنَّ يَزِيدُ عَلَى الْإِعَادَةِ صَوْتُهُ
نَضَبَ الْمَعِينِ وَقُلُوصَ الظِّلِّ الَّذِي
تَتَوَاعَدُ الرَّجْعَى وَنَغْتَنُمُ اللَّقَا
فَإِذَا سَأَلْتَ فَلَا تَسْأَلُ مُخْبِرًا
عَهْدِي بِهِ وَالْدَّهْرُ يُتَحَفُّ بِالْمُنَى
وَالْعَيْشُ غَضُّ الرِّيعِ وَالْدُّنْيَا قَدْ أَجْزَأُ
أَتْرَى يُعِيدُ الدَّهْرُ عَهْدًا لِلصَّبَا
أَوْطَانُ أَوْطَارٍ تَعَوَّضَ أَفْقُهُمَا
هَيْهَاتَ لَا تَغْنِي لَعَسَلٌ وَلَا عَسَى
وَالدَّهْرُ فِي دَسْتِ الْقَضَاءِ مُدْرَسٌ
تَفْتَنُ فِي جَمَلِ الْوَرَى أَبْحَاثُهُ
وَسَجِيَّةُ الْإِنْسَانِ لَيْسَ بِنَاصِلٍ
يَغْتَرُّ مَهْمَا سَاعَدَتْ أَمَالُهُ

لَا يَقْتَضِي وَرْدًا وَلَا تَعْرِيسًا
لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا إِذَا مَا قِيَسَا
حَرْفًا فَيَشْفِي الْمَزِيدَ نَسِيسًا ^(١)
ظَلْنَا عُكُوفًا عِنْدَهُ وَجُلُوسًا
وَنَدِيرٌ مِنْ شَكْوَى الْغَرَامِ كَوْوَسًا
وَإِذَا سَمِعْتَ فَلَا تُحْسِ حَسِيَسًا
وَقَدْ اقْتَضَتْ نِعْمَاهُ أَنْ لَا يُوسَا
تُلَيْتَ بِمَغْنَاهُ عَلَيَّ عُرُوسًا
دَرَسَتْ مَغَانِي الْأُنْسِ فِيهِ دُرُوسًا
مِنْ رَوْنِقِ الْبِشْرِ الْبَهِيِّ عُبُوسًا
فِي مِثْلِهَا إِلَّا لَآيَةً عَيْسَى
فَإِذَا قَضَى يَسْتَأْنِفُ التَّدْرِيسَا
لَا سَيِّمًا فِي بَابِ نَعَمٍ وَيَسَا
مِنْ صَبْغِهَا حَسْبِي يَرَى مَرُوسَا
فَإِذَا عَرَاهُ الْخُطْبُ كَانَ يَوْوسَا

(١) التَّسْيِيسُ : غَايَةُ الْجَهْدِ ، وَأَضْعَفُ الصَّوْتِ .

فلو أنه نفساً مكنت من رشدها
 لم تستفز ر سوخها النعمى ولا
 قل للزمان إليك عن متدّم
 فإذا استحرّ جلادُهُ فأنا الذي اسدُ
 وإذا طغى فرعونهُ فأنا الذي
 أناذا أبومستواهُ من يحمي الحمى
 بحمي أبي حمو حططت ركائبى
 أسدُ الهياج إذا خطي قدماً سطا
 بدر الهدى يأي الضلال ضياؤه
 جبل الوقار رسا وأشرف واعتلى
 كم غمرة جلى، وكم خطب كفى
 كم حكمة أبدى، وكم قصيد هدى
 أعلى بني زيان واللفذ الذي

يوماً وقد سها الهدى تقديساً
 هلت إذا كشرت إليها السبوسى
 بضمان عز لم يكن ليخيساً (١)
 تتغشيت من سرد اليقين لبوساً
 من ضره وأذاه عذت بموسى
 ليثاً ويعلم بالزئير الخيساً
 لما اختبرت الليث والغريساً
 فتخلف الأسد الهزبر فريساً
 أبدأ فـيـجلو الظلمة الحند يساً
 وسماً فطأ طأت الجبال رؤوساً
 إن أوطأ الجرد العتاق وطيساً
 للسالكين أبان منه دريساً (٢)
 لبس الكمال فزين الملبوساً

وبعد أن أفاض ابن الخطيب مدحاً لأبي حمو، واستغرق أكثر من ثلثي قصيدته في مدحه والثناء عليه، والإشادة به، وقطع في ذلك شوطاً كبيراً خلع عليه خلاله أعظم الصفات، وأنبل السمات، وأكرم الشيم، حتى ليخيل للقارئ أن أبا حمو لا يدانيه في البشر أحد، وقد صرح ابن الخطيب عند ذلك قائلاً :

من قاس ذاتك بالذوات فإنه جهل الوزان وأخطأ التقييساً

(١) يخيس : يخلف وعده وعهده . (٢) دريساً : طريقاً خفياً .

بعد هذه الإفاضة في المدح استرضاءً لأبي حمو، نفاذاً إلى قلبه أعقب ذلك بمخاطبته قائلاً :

خُذْهَا إِلَيْكَ عَلَى النَّوَى سِينِيَّةٌ	تَرْضَى الطَّبَاقَ وَتَشْكُرُ التَّجْنِيَّةَ
إِنْ طُوِرَتْ بِالدَّرِّ مِنْ حَوْلِ الطَّلَى	يَوْمَ تَشْكُ حَظَّهَا الْمُوَكُّوسَا
لَوْلَاكَ مَا أَصْغَتْ لِحْطَبَةِ خَاطِبٍ	وَلَعُنْتُ فِي بَيْتِهَا تَعْنِيَّةَ
قَصَدَتْ سُلَيْمَانَ الزَّمَانَ وَقَارِبَتْ	فِي الْخَطْوِ تَحْسَبُ نَفْسَهَا بَلْقِيَّسَا
لِي فِيكَ وَدٌّ لَمْ أَكُنْ مِنْ بَعْدِ مَا	أَعْطَيْتُ صَفْقَةَ عَهْدِهِ لِأَخِيَّسَا
كَمْ لِي بِصِحَّةِ عَقْدِهِ مِنْ شَاهِدٍ	لَا يَحْذَرُ التَّجْرِيحَ وَالتَّدْلِيَّسَا
يَقْفُوا الشَّهَادَةَ بِالْيَمِينِ، وَإِنَّهُ	لَمْؤَمَّنٌ مِنْ أَنْ يُعَدَّ فَسِيَّسَا ^(١)

ثم يصرِّح لسان الدين بن الخطيب بأمنية حياته التي من جلها أرسل بهذه السينية قائلاً :

لَا يَسْتَقِرُّ قَرَارٌ أَفْوَكَارِي إِلَى	أَنْ أَسْتَقِرَّ لَدَى عَلَاكَ جَلِيَّسَا
وَأُرَى تَجَاهَكَ مُسْتَقِيمَ السَّيْرِ لِلْ	مَقْصَدِ الَّذِي أَعْمَلْتَهُ مَعْكَوَسَا
هِيَ دَيْنٌ أَبَامِي فَإِنْ سَمَحَتْ بِهِ	لَمْ يَبْقَ مِنْ شَيْءٍ عَلَيْهِ يَوْسَى

وفي تعليقنا على ما سقناه من سينية ابن الخطيب نقول : إن المسحة المشرقية بادية عليها، حيث لم تخلص القصيدة لغرض واحد، فقد بدأها بالغزل، وتحدث عن لحظة وداع الأحبة، ووصف الدموع المراقبة والنظرات الحزينة المتبادلة خلصة من وراء غلالات

(١) فسيَّساً : الفسيس هو الضعيف .

الدموع الرقيقة كما تأسى على الحمى بعد أن هجره الأحباب فأصبح موحشاً خرباً بعد أن كان مأهولاً مأنوساً، وقد ساد الاضطراب، فلم يعد فيه استقرار حتى أن سره أصبح نافراً لا يأمن لأحد، وقد حيا الشاعر فلم يسمع سوى رجع الصدى لتحيته، فقد نضب معين السعادة بعد أن كان مترعاً، والأمني محققة، والعيش رغيد .. وهكذا شأن الدهر دائماً يجمع ويفرق، ويسعد ويتعس، ويحلى ويمر .. وبعد هذه المقدمة يلوح بأنه لن يحميه من نكبات الدهر إلا أبو حمو موسى بن يوسف وذلك بقوله عن جور الدهر :

وَإِذَا طَغَى فِرْعَوْنُهُ فَلَأَنَا الَّذِي مِنْ ضُرِّهِ وَأَذَاهُ عُنْتُ بِمُوسَى
بِحِمَى أَبِي حَمُو حَطَطْتُ رُكَايِي لَمَّا اخْتَبَرْتُ اللَّيْثَ وَالْعَرِيسَا

ومن هنا كان مدخله لمدح أبي حمو بعد ثلاثة وثلاثين بيتاً من قصيدته استخدمها كمقدمة تمهيدية، وفي هذا إطالة زائدة بطبيعة الحال ..

وحتى ينتقل من التلميح والتلويح برغبته في اللجوء إلى حمى أبي حمو استغرق في مدحه، وتذليل الطريق إلى قلبه ما يقرب من بضع وستين بيتاً، وأخيراً وصل إلى بيت القصيد من خلال أقل من عشرة أبيات، ولذلك جاءت القصيدة غير متوازنة تفتقد إلى الوحدة العضوية، خصوصاً وحدة العاطفة، وانسجام الجوّ النفسي، وقد أشار راوي القصيدة الإمام الحافظ عبد الله التنسيّ نزيل تلمسان إلى تأثر ابن الخطيب بالاتجاهات المشرقية بقوله :

« إن لسان الدين ابن الخطيب حذاً في هذه القصيدة السينية حذو أبي تمام في قصيدته التي أولها :

أَفْشَى رِبْعُهُمْ أَرَاكَ دَرِيسَا تَقْرِي ضِيُوفَكَ لَوْعَةً وَرْسِيَا
واختلس كثيراً من معانيها وألفاظها » (١)

ولعلّ القارئ يلاحظ معي مدى التكلف الواضح في هذه القصيدة لأن ابن الخطيب لم يمدح رغبة، ولا حباً كما يدّعي، ولكنه كان يمدح تمهيداً لما سيأتي بعد

(١) نفع الطيب ج ٦ ص ٢٠١ .

من أمور يتوقع أن تطرأ على حياته فتضطره إلى اللجوء إلى حمى أبي حمو موسى بن يوسف، وكأنه كما يقول عامة الناس اليوم : « يقدم السبت لكي يلقي الأحد » ، وهو بهذا يعد متكسباً بمدحه لأنه لا يمدح عن حب للمدح، ولا اعتزاز بالمدوح كما يدعي، ولا يصنع ذلك بحافز داخلي، ولذا نلمس فتور عاطفته وتغيرها عندما وصل إلى أبيات المدح، واشتعالها وتأججها عندما كان يتحدث عن نفسه وما جرته عليه الأيام من صروف وأحداث .

وكعادة ابن الخطيب في المدح يلجأ إلى مبالغات تكشف تكلفه ، فيجعل المدوح فوق مستوى البشر جميعاً ، ويجعل المنكر لصفاته التي نعت بهها جاحداً وجاهلاً بالحقيقة، وفي ظني أن الظروف الصعبة التي كانت تحيط بالشاعر عند تديبجه هذه المدائح وأمثالها إبان نكبته الأولى أو في الفترة الممهدة لنكبته الثانية عندما لاحت له في الأفق مقدماتها هي التي أثرت في شعر المدح لديه خصوصاً وجعلته متكلفاً مبالغاً فيه إلى جانب آثار أخرى ظهرت في شعره منها كثرة الحديث عن أيام السعادة والهناء، وشكوى الدهر وأيام الشقاء ، والتألم من قسوة الأيام، والتحسر على مافات من عمره كالأحلام، وكثيراً ما كان يظهر في شعره إنساناً ملحاً شديداً الإلحاح يسعى لتحقيق مطلب، أو بلوغ مأرب، متوسلاً في ذلك بالموتى والمقبرين من آباء وأجداد الممدوحين، وكذلك أولياء الله الصالحين، راجياً شديداً الرجاء لمن خاطبهم بشعره في مثل هذه النكبة النبكاء، طارحاً عزّة النفس السماء ، ومعالم الأنفة والإباء وراء ظهره .

ولما وقعت الواقعة، وأزفت الآزفة، ليس لها من دون الله كاشفة، وغضب عليه سلطانه أبو عبد الله الغني بالله بن الأحمر، اضطر ابن الخطيب أن يعمل الحيلة، حتى استطاع الفرار من غرناطة إلى المغرب كما أسلفنا، وشاء الله تعالى أن تكون هناك النهاية، اشتعلت نيران فتنة مبيرة، ووقعت أحداث خطيرة، أسفرت عن تبدل الأحوال وفقد ابن الخطيب في غربته الحامي والنصير، لأنه لاذ بحمي غير اللطيف الخبير، وألقي القبض عليه، وسيق إلى سجنه مقيداً في يديه ورجليه حتى ينظر في مصيره.

وفي السجن توقع شاعرنا مصيبة الموت، فطفقَ تجهش بالشعر هواتفه يبكي نفسه، ويتحسر على ما كان، ويعظ بحاله أهل الزمان والمكان قائلاً: (١)

وَجِئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ	بَعْدَنَا وَإِنْ جَاوَرَتَنَا السُّبُوتُ
كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تِلَاةُ الْقُوتِ	وَأَنفَاسُنَا سَكَتُ دَفْعَةٍ
عَلَيْنَا نَسَاجَتُهَا الْعَنْكَبُوتُ	وَمَسَدَتْ وَقَدْ أَنْكَرَتْنَا الثِّيَابُ
وَكُنَّا نَقُوتُ فَهَذَا نَحْنُ قُتُوتُ	وَكُنَّا عِظَامًا فَصَرْنَا عِظَامًا
غَرَبْنَا فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السُّمُوتُ (٢)	وَكُنَّا شُمُوسَ سَمَاءٍ لَعْلًا
فَكَيْفَ يُؤْمَلُ مِنْهُ السُّبُوتُ ؟ !	وَمَنْ كَانَ مُنْتَظَرًا لِلزُّوَالِ
وَذُو الْبَخْتِ كَمْ جَدَلَتْهُ الْبُخُوتُ (٣)	فَكَمْ أَسْلَمَتْ ذَا الْحُسَامِ الظُّبُوتُ
فَتَيِّمُلْتُ مِنْ كَسَاهِ التُّخُوتِ (٤)	وَكَمْ سَيَقُ لِلْقَبْرِ فِي خِرْقَةٍ
وَفَاتَ وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَقُوتُ ؟ !	فَقُلْ لِلْعَدَا ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ
فَقُلْ : يَفْرَحُ الْيَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتُ	وَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْهُمْ لَمَنْهُ
تَتَابَعَ أَحَادُهُ وَالسُّبُوتُ	سَيَلَى الْجَدِيدُ إِذَا مَا الْمَدَى
فَإِنَّكَ عَمَّا قَرِيبٍ تَمُوتُ	وَلَا تَغْتَرَّرُ بِسَرَابِ الْحَيَاةِ

أمام هذه الأبيات يقف الإنسان متأملاً ، يستمدُّ منها العظة والعبرة فلقد صدرت عن قلب مكلوم ، وحكت مأساة نفس مقهورة ، بكل صدق عبرت عن هموم الفؤاد ، ولتأمل معاً معانيها التي تطل الحسرة مصحوبة بالأسى من خلالها.

فالشاعر أضحي بعيداً عن أهله وأخبايه برغم قرب بيوتهم منه إلا أن جذران السجن وقضبانه باعدت بينهم، وأصبح مصدر عظة وعبرة لمن يتعظ ويعتبر وهو صامت لا ينطق، فذو الوزارتين بالأمس هو ذو القيود اليوم، وسكتَ صوته المجلجل بالأمر والنهي والحديث

(١) نفع الطيب ج ٥ ص ١١١ - ١١٢ . (٢) السموت : جمع سمت وهو الهيئة والمظهر .

(٣) البخت : الحظ السعيد وجمعه بخوت ، جدلته : صرخته . (٤) التخوت : خزانات الثياب .

أهله، والسكون حدث بعد الجهر، والعظام صاروا عظاماً والمطعم تحول إلى طعام،
والفارس المقدام تقتله السيوف، وصاحب الغنى والثراء يموت فقيراً معدماً .. وابن
الخطيب يعني نفسه بكل هذه الأمور، وكأنه أحسن بشماته أعدائه فالتفت إليهم يذكرهم
بأن الموت على رؤوس العباد .. وكأن كلمات ابن الخطيب كانت ترجم بالغيب، فلقد
كان مصير خصمه ابن زمرك أسوأ من مصيره، فلئن كان ابن الخطيب قد خنق تحت
جنح الظلام فإن ابن زمرك قد تناوشته السيوف على مرأى ومسمع من الخدام وأمام أهل
بيته جميعاً، ولم يستطع أن يدفع عن نفسه المكروه ومما رواه صاحب نفح الطيب أنه رأى
بحضرة فاس - حاطها الله - تخميساً لهذه الأبيات بديعاً منسوباً إلى بعض بني الصباغ،
ومعنى ذلك أن هذه الأبيات لشدة وقعها وتأثيرها، وما تميزت به من صدق وجداني
تلقاها النقاد بالقبول وخمسونها فقالوا : (١)

أيا جاهلاً غره ما يفوت	وآلهة حال قليل الثبوت
تأمل لمن بعد أنس يبقوت	بعد ناور إن جاورتنا البيوت
وجئنا بوغـظٍ ونحن صموت	

لقد نلت من دهر نارفعة	تقضت كبرق مضي سرعة
فهيئات نرجو لها رجعة	وأصـرنا سـكنت دفعة

كجهر الصلاة تلاه القنوت	يؤمل سيبي وبأسـي يهاب
فسرعـان مرق ذاك الإهاب	ومدت وقد أنكرتنا الثياب

علينا نسائجـها العنكبوت	منحنا به الجـاه قوماً كراماً
فأها لعز تقضى مناماً	وكننا عظاماً فصـرنا عظاماً
وكننا نسوس أموراً عظاماً	وكننا نسوس أموراً عظاماً
وكننا نسوس أموراً عظاماً	وكننا نسوس أموراً عظاماً

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ٢٣١ ، نفح الطيب ج ٥ ص ١١٣ .

وَكُنَّا لِدَى الْمَلِكِ حَلِيَّ الطَّلَى فَأَهْمَاءٌ عَلَيْهِ زَمَانًا خَلَا
نَعَوُضُ مِنْ جِدَّةِ بَالِي وَكُنَّا شُمُوسَ سَمَاءِ الْعُلَا
غُرَبْنَا فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السُّمُوتُ
تَعَوَّدْتُ بِالرَّغْمِ صَرْفَ اللَّيَالِي وَحَمَلْتُ نَفْسِي فَوْقَ احْتِمَالِي
وَأَيَّقَنْتُ أَنْ سَوْفَ يَأْتِي أَرْحَمُ الْيَالِي وَمَنْ كَانَ مُنْتَظَرًا لِلزَّوَالِ
فَكَيْفَ يَوْمٌ مِلَّ مِنْهُ الثُّبُوتُ

وهكذا إلى آخر قصيدة ابن الخطيب التي عرضناها قبل قليل ومما قاله ابن الخطيب قبيل قتله وهو في سجنه ما يلي :

وَقُلْ لِلْعُدَاةِ مَضَى ابْنُ الْخَطِيبِ وَفَاتَ فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يُمُوتُ
فَمَنْ كَانَ يَشْمَتُ مِنْكُمْ بِهِ فَقُلْ : يَشْمَتُ الْيَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتُ

وجهة نظر نقدية :

رحم الله ابن الخطيب، فلقد أثرت نكباته في أدبه شعراً ونثراً فإذا نظرنا إلى شعره على وجه الخصوص قبل أن ينكب لوجدناه شعراً يتميز بالجدة والرقّة، وبهاء الرونق، وجودة السبك، وإن كان يميل إلى التأنق والصنعة، وما روضياته وموشحاته، ووصفه للمجالي، وقصائده في استنفار الهمم لإنقاذ الأندلس عنا ببعيد وكذلك قصائده في احتفالات السلاطين في غرناطة والمغرب بليلة ميلاد النبي ﷺ شاهدة بقوة عارضته، وعلو كعبه في الشعر.

ونحيل القارئ على كتاب نفح الطيب إذا أراد الإمام بكثير من قصائده، وكذلك كتاب الإحاطة لابن الخطيب، وكتاب أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، وكذلك ديوان ابن الخطيب

أما شعره إبان نكباته فقد كسته الصنعة، وظهر فيه التكلف حيث كان أكثره في مدح الملوك والسلاطين من آل مرين وآل زيان في المغرب، وكذلك مدح سلطانه أبي

عبد الله الغني بالله بن الأحمر ، و كان الهدف من مدح سلاطين المغرب هو استقطابهم لمناصرتهم ، واستمالة قلوبهم حتى يجد لديهم المأوى والحياة الآمنة ، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد ، حيث تلقاه هؤلاء الملوك بالترحاب ، ومنحوه الدور والضياع ، وأجروا عليه وعلى أولاده الجرايات حتى كان أمر الله الذي لا راد له .

وكما أشرت في تعليقي على قصائده إبان نكبتيه كان مدحه مصحوباً بالرجاء والإلحاح لقضاء مصالحه، وكذلك نراه مبالغاً شديداً المبالغة في وصفه للممدوحيه، والمبالغة بطبعها أمر متكلف ممقوت تدفع إليها الظروف القاهرة التي أحاطت بالشاعر كما أنه استخدم البديع واستطاع توظيف المحسنات لخدمة أهدافه وأغراضه، ولا تغفل الفتور العاطفي في شعر المدح الذي فرضته النكبة، هذا الفتور الذي ينقلب إلى لظى عاطفي شديد التأجج عندما يتحدث عن نكبته وما ألم به، والخسارة التي لحقته لأنه في هذه الحالة ييئث شعره همومه .

وكما قالوا قديماً « ليست النائحة المستأجرة كالشكلى » ، ومن الجدير بالذكر أن القصائد التي جمع فيها الشاعر بين المدح والحديث عن نكبته ظهر فيها التقلب العاطفي أما قصيدته التي قالها، وهو في سجنه ينتظر مصيره البائس المشئوم فإن التوهج العاطفي ظل على درجة واحدة من البداية إلى النهاية كما أن موسيقى الشعر فيها ظهرت أنغامها حزينة، وتخير حرف الروي ساكنا وكأن الشاعر كان في نزعه الأخير وهو ينطق بتلك الكلمات الحزينة الباكية التي يعنى بها نفسه بعد أن أيقن بسوء مصيره.

وهكذا نلمس بوضوح تأثير النكبة في شعر لسان الدين بن الخطيب رحمه الله وغفر له آمين .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

(١٠) « شُعْرَاءُ أَخْبَرُونُ »

لقد تناولنا حتى الآن بالدراسة والتحليل نكبات أربعة وعشرين شاعراً من شعراء الأندلس يمثلون الحقب المختلفة للأدب الأندلسي منذ دخول العرب المسلمين إلى هذه البقعة وحتى خروجهم منها تقريباً ، ولا أدعي أن الشعراء الذين ذكرتهم هم الفئة المنكوبة من بين شعراء الأندلس فقط بل هناك شعراء آخرون فتنوا ونكبوا ، وكان للنكبات والفتن أثر واضح في أشعارهم ولم أتناولهم في هذا الكتاب ، وذلك لأنني تحدثت عنهم في كتابي « الفتن والنكبات العامة وأثرها في الشعر الأندلسي » (١) .

وهذا لأن ما أصيبوا به كان من أثر فتن عامة شملت كل فئات المجتمع حكماً ومحكومين ، ومن هؤلاء أبو عمر أحمد بن دراج القسطلبي الذي جنت عليه الفتنة البربرية في قرطبة ، وأحدثت تحولاً ملموساً في حياته ظل يعاني منه حتى مات غريباً شريداً سنة ٤٢١ هـ وقد أفضنا في الحديث عنه خلال الفصل السابع من الكتاب المشار إليه والذي جاء تحت عنوان « اضمحلال الشعر ، وتردي حال الشعراء » .

ومن تحدثنا عنهم في الكتاب المذكور ، وتحت نفس العنوان السابق أيضاً الشاعر الأندلسي أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذي كان هو الآخر ضحية من ضحايا فتنة قرطبة ، حيث حولته من حياة الترف إلى حياة الفقر حتى تحول إلى التكسب بشعره شأنه شأن شعراء الكدية الطوافين في الآفاق ، كما اتجه إلى النقد من خلال رسالة التوابع والزوابع ، وأمضى بقية عمره يقاوم البؤس والشقاء حتى ألم به المرض فأصيب بالصمم ، والربو وظل يعاني منهما حتى وفاته في جمادى الأولى سنة ٤٢٦ هـ وزدنا حديثاً عنه في هذا الكتاب ، ومنهم كذلك ابن حزم

(١) راجع في هؤلاء الشعراء الفصل السابع من كتاب (الفتن والنكبات العامة) للمؤلف ص ٢٣٥ - ٢٥٨ .

الظاهري، وهو أبو محمد على ؛ سعيد بن حزم من شعراء قرطبة المضارين بفتنتها، حيث امتحن بالاعتقال والترقب والإغرام، وأخرج منها مطرداً، وابتلي بمعاداة كثير من الفقهاء، وأحرقت كتبه بسبب وشاياتهم في إشبيلية على يد ابن عباد وظل ابن حزم يقاوم الابتلاءات حتى وفاته في « منت ليشم » سنة ٤٥٦ هـ .

ومن الشعراء ^(١) الذين ابتلوا وفتنوا في عصر ملوك الطوائف وعقبيه الشاعر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة القيسيّ التطيليّ الإشبيلي المعروف بالأعمى التطيلي المتوفى سنة ٥٢٥ هـ بعد معاناة من التشرد والتشتت، ومقاساة من ظلم بعض الحكام وجورهم ، ومنهم أيضاً أبو القاسم عامر بن هشام القرطبي المتوفى سنة ٦٢٣ هـ الذي عاش حياة بطالة ، حتى رقت حاله ، وأقبل على النسك، ومنهم أيضاً يوسف بن يوسف بن الأحمر المعروف بأبي الحجاج يوسف الثالث المتوفى سنة ٨١٩ هـ الذي ملأ الدنيا أنينا وبكاءً بعد أن وثب عليه أخوه محمد بن يوسف وسلبه ملكه ، وألقى به في غياهب السجن، ومن هؤلاء الشعراء المنكوبين بسبب الفتن العامة الشاعر عبد الكريم القيسيّ الغرناطي المتوفى سنة ٨٩٠ هـ ، والذي كان ضحية الفتن والنكبات العامة في القرن التاسع الهجري آخر قرون الحكم العربي الإسلامي في الأندلس وقد شكى ضيق ذات اليد، وبكى من معاملة النصارى له ولأمثاله من الفقهاء وأهل العلم .

وهناك فئة من الشعراء سوف نشير إلى عدد منهم الآن لم تكن النكبات التي حلت بهم من الشهرة بمكان ، أو أن النتاج الأدبي لما ابتلوا به لم يكن غزيراً بالقدر الذي يتيح تحليل أثر الفتنة أو النكبة فيه ، ومن هؤلاء الشعراء :

(١) راجع الكتاب السابق الفصل السابع .

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
السنن النبوية الفروسي

الوزير الكاتب

أبو مروان عبد الملك بن محمد بن شماخ الغافقي (١).

قال عنه ابن بسام : « وأبو مروان هذا أحد من شافهته وذاكرته وأنشدني شعره ، وكان باهر الضوء ، صادق التوء ، ينفث بالسحر ، في عقد النظم والنثر ، ويوفي على أنواع البديع ، كما أعجز من نظم ونثر ، وسبق أكثر من تقدم وتأخر ، وقد أجريت من نظمه ونثره ما يشيد باسمه ، ويدل على سعة علمه » .

وقال محقق كتاب الذخيرة د. إحسان عباس على هامش صفحة [٧٢٨ ق ١ م ٢] مايلي : « لم أجد من ترجم له ، وفي الذيل والتكملة [ج ٥ ص ٣٣] ذكر لعبد الملك بن محمد بن شماخ الغافقي أبي مروان أخي أبي جعفر ، وأنه روى عن أبي جعفر البطروجي ، ولم يزد على ذلك . » .

ولقد أخرج عبد الملك هذا من وطنه إشبيلية قهراً وقسراً على غير رضى منه ، فتأثر بذلك ، ولما طال بعده عن بلده ، واشتد شوقه لأهله وأحبابه قال : (١)

يَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ دَامَتْ لَهُمْ حَالُ	عَهْدَتَهَا فِي حِفَاطِ الْعَهْدِ أَمْ حَالُوا ؟
فَإِنْ سَائِلًا عَمَّنْ تَرَكْتُ فَقَدْ	شَابَ الشَّبَابُ وَقَدْ شَبَّ الْأَطْفَالُ
صَبَرْتُ ، وَالْبُعْدُ أَهْوَالُ وَذَا عَجَبُ ،	وَلَمْ أَكُنْ صَابِرًا وَالْبُعْدُ أَمِيَالُ
أَرْجُو الْإِيَابَ لِفَالٍ فِيهِ أَسْمَعُهُ ،	وَالدَّهْرُ يَفْعَلُ مَالًا يَخْبِرُ الْفَالُ

(١) الذخير ق ١ م ٢ ص ٨٤٦ - ٨٤٧ ، ولم نعث له على ترجمة غير ماجاء فيها وماهو مدون بعاليه .

وفي هذه القصيدة يقول :

فَهَلْ لَّهُمْ سَائِلٌ عَنِّي فَيُخْبِرُهُمْ
إِنْ كَانَ يُسْأَلُ عَنْ ثَوْبِي فَلَا دَرَنُ
أَضَاعَ مَجْدِي مَالٌ ضَيَعَتْهُ يَدِي
وَبَزَّ حَالِي تَرَحَّالِي إِلَى بَلَدٍ
أَقَمْتُ حَوْلَيْنِ فِيهِ خَامِلًا خَرَسًا
بَلْ لَمْ أَزَلْ مُعْرَبًا عَمَّا لَدَيَّ فَلَمْ
أَطَالَ شُغْلِي فَفَرَاغِي مَذْ حَلَلْتُ بِهِ
إِنْ أَبَقَ فِي حِمَصٍ تَبَقَ النَّارُ فِي حَجَرٍ
« وَعَرٌّ مِنَ الْعَيْشِ مَالِي أَرْتَقِيهِ وَفِي
ضُمَامَاتٍ بِسُؤْدَدِهِمْ أَرْجَاءُ قُرْطَبَةٍ

كَمَا أَنَا عَنْهُمْ مَذْ غَبْتُ سَأَلَ؟
أَوْ كَانَ يُسْأَلُ عَنْ حَالِي فَلَا حَالُ
مَا أَضْيَعَ الْمَجْدَ إِنْ لَمْ يَرَعْهُ مَالُ
مَذْ جَبَّتُهُ لَمْ يَكُنْ لِي عَنْهُ تَرَحَّالُ
كَأَنَّي وَأَنَا السَّلْسَالُ صَلَّالُ
أَجْدُ بِهِ مُعْرَبًا بِنَبِيٍّ تَصْهَالُ
إِنَّ الْفَرَاغَ مِنَ الْأَشْغَالِ أَشْغَالُ
وَلِنْ أَسْرَ سَارَ فَنِي الْأَفَاقِ سَلْسَالُ
بَنِي أَبِي لَنَا بِالْمَصْرِ أَمَّالُ !
وَعَادَ إِدْبَارُ ذَلِكَ الْعَصْرِ إِقْبَالُ

فابن شماخ الغافقي ييكي غربته، وبعده عن الأحباب الذين لا يدري هل سيكونه ويأسون له ويسألون عنه كما يسأل عنهم، أم أنه أصبح في طي النسيان، وشغل كل منهم بحاله عنه ؟ كما ييكي مجده الضائع ويعلل ضياع هذا المجد والسؤدد بضياع ماله الذي أضاعه بيده، وانتقل من شكوى ضياع المجد بضياع المال إلى الشكوى من الخمول والفراغ القاتل الذي يعيشه في غربته ، حيث يشغله الفكر والهم يعتوارانه، وتأمل كيف صور نفسه بتمثال من صلصال، أي : من طين لا حس فيه ولا حركة، وهذا كناية عن الخمول التام، ويتمنى العودة إلى إشبيلية - حمص الأندلس - لتدب فيه الحياة المنتجة والحركة النافعة من جديد كما تدب النار في حجر، ولكي يتخلص من وعر العيش، فأماله في إخوانه وبني أبيه الذين مازالوا في إشبيلية كبيرة ، فهم أهل شرف وسؤدد، فلعله بهم يعود إلى حياة الرغد، وتقبل عليه أيامه كما أدبرت عنه .

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أُسْلَمَةُ النَّبِيِّ (الغزواني)

« أبو بكر أحمد بن عبد الحق بن الجنان » (١)

عاش هذا الشاعر في الفترة بين ٤٩٩ - ٥٤٣ هـ تقريباً وعاصر الشاعر ابن خفاجة المتوفى سنة ٥٣٩ هـ . ولم يعثر له على تاريخ ولادة ولا وفاة ، وكل ما قيل في ترجمته أنه كان شاعراً مطبوعاً متين السبك حسن الصياغة مبدعاً في الصنعة يجيد المقطعات ، وأكثر شعره في المدح والحكمة والغزل .

وقد امتحن أبو بكر بمحنة دخل على أثرها السجن مكبلاً بالقيود في يديه ، وعُذِّب فيه ثم قتل ، وقد وجدت على جدار سجنه أبيات كان قد كتبها بقطعة من الفحم لما أيقن أن ساجنيه سيقتلونه لا محالة وفي هذه الأبيات يقول : (٢)

أَلَا دَرَى الصَّيِّدُ مِنْ قَوْمِي الصَّنَادِيدُ أَنِّي أُسِيرُ - بَدَارُ الْهُونِ - مَقْصُودُ
لَا أَبْسُطُ الْخَطْوَ إِلَّا ظِلَّ يَقْبِضُهُ كَبَلٌ - كَمَا التَّفَتَ الْحَيَاتُ - مَعْقُودُ
وَقَدْ تَأَلَّبَ أَقْوَامٌ لِسَفْكِ دَمِي لَا يَعْرِفُ الْفَضْلُ مَغْنَاهُمْ وَلَا الْجُودُ

ولم يقل في محنته غير هذه الأبيات الثلاثة التي تعبر عن تجربة شعرية لرجل ينتظر قتله بين لحظة وأخرى ، وفي ظني أنها كانت بدايات لقصيدة أراد كتابتها ولكن سجنه لم يمهلها حتى ينتهي منها بل جرّه إلى حيث مقتله ، وفي هذه الأبيات الثلاثة يشكو إهمال عظماء قومه الصناديد له ، وكأنهم لا علم لهم أنه أسير بدار الهوان مقيد ثقله قيوده ، فلا يستطيع أن يبسط الخطى لأن قيده يمنعه ويقبضه حيث يلتف حول رجله كما التفت الحيات عليها وهو الآن رهين محبسه ، وقد قرر القوم قتله وسفك دمه ، وهم قوم لا فضل فيهم ، ولا جود لديهم ، ولا تجدي معهم حيلة ، ولا ينفع رجاء .

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ج ٥ ص ٢٥١ . (٢) المغرب ج ٢ ص ٣٨٢ مع السابق ص ٢٥٢ .

ومن الشعراء الذين ابتلوا وامتحنوا ونكبوا في أعز أحبابهم ، وفلذات أكبادهم
الشاعر:

أبو بكر محمد بن قسوم :

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن أصبغ بن مهنّي
الأندلسي اللخميّ الإشبيلي ولد في رجب سنة ٥٦٣ هـ على الأغلب ، وعاش في
إشبيلية ونسب إليها ، وقد التحق بخدمة أحد أمراء عصره لفترة ، ثم زهد وترك هذه
الخدمة ، واشتغل مدة بإقراء القرآن ، ونسخ المصاحف ، ثم كفّ بصره في آخر عمره ،
ووافته منيته في ذي الحجة سنة ٦٣٩ هـ (١) .

وكان أديباً بارعاً ناظماً ناثراً، كما كان ملتزماً ورعاً زاهداً، وكانت لغته سهلة،
ومعانيه واضحة لا تكلف فيها .

ولقد ابتلي ابن قسوم بوفاة ابن له مات وعمره ثلاث عشرة سنة، ويبدو أنه كان
وحيدة، فبكاه ورثاه بشعر وجداني صادق ومن شعره الذي بكى فيه وحيدة قوله : (٢)

يَمُرُّ الْحَيَّيْبُ بِقَبْرِ الْحَيَّيْبِ	فَلَا ذَا يُنَادِي، وَلَا ذَا يُجِيبُ
وَكَيْفَ يُجِيبُ رَهِيْنُ الثَّرَى	رَمَاهُ الْحَمَامُ بِسَهْمٍ مُصِيبُ ؟
تُنُوسِي لِمَا نَنُوءُ أَى عَهْدِهِ،	وَأَقْفَرُ مِنْهُ اللَّوَى وَالْكَثِيبُ
رَإِذَا أَوْدَعَ الْمَيِّتُ فَنِي لَحْدِهِ ،	فَلَيْسَ لَهُ - وَيَحُ - مِنْ حَيَّيْبُ

ومن هذا اللون من شعر ابن قسوم أيضا قوله (٣) :

شَطَّتْ بِمَنْ تَهَوَّاهُ عَنْكَ الدَّارُ ،	وَقَضَّتْ عَلَيْكَ بِحُكْمِهَا الْأَقْدَارُ
بَرْدٌ لَهَيْبِ الشُّوقِ مِنْكَ بَعْبَةٌ	تَنْقَعُ ضُلُوعَكَ ، إِنَّهَا لَحَرَارُ
رَحَلَ الْحَيَّيْبُ عَنِ الْحَبِيبِ ، فَدَمَعَهُ	عِنْدَ الْوَدَاعِ تَذَكُّرٌ وَكَفٌّ مِدْرَارُ

(١) تاريخ الأدب العربي د . عمر فروخ ج ٥ ص ٧٣٣ - ٧٣٤ .

(٢) السابق ص ٧٣٧ .

(٣) السابق ص ٧٣٧ - ٧٣٨ .

فَفِي الْجَفْنِ مِنْهُ عِبْرَةٌ سِيَالَةٌ
يَا حُرْقَةً ، يَا فَجْعَةً ، يَا لَوَعَةً
يَا ظَاً عَنَّا حَطَّ الرُّكَابَ بِمَعْشَرِ
لِلَّهِ مِنْكَ هَلَالٌ عَشْرُ قُورَنْتِ
أَنْتَ بَزُورَتِكَ الْقُبُورِ وَأَصْبَحْتَ
وَلَقَدْ أَرَدْتُكَ أَنْ تَعِيشَ لِكِبْرَتِي
وَلَقَدْ تَرَاكَضْنَا الْحَيَاةَ لَغَايَةً
مَا إِنْ وَجَدْتُ عَلَى مُصَابِكَ نَاصِراً

تَسْقِي الْخُدُودَ ، وَفِي حَشَاهُ النَّارُ
سَكَنْتُ فُؤَادِي مَالَهَا مَقْدَارُ
عَمِيتَ عَلَيْنَا مِنْهُمْ الْأَخْرَبَارُ
بَثْلَانِيَةً لَوْ يَكْمُلُ الْإِبْدَارُ !
مِنْكَ الْيَدَارُ كَأَنَّهُنَّ قَفَارُ
وَزَمَانَتِي ، فَارَادَكَ الْجَبَارُ
فَسَبَقْتَ أَنْتَ ، وَخَانَنِي الْمَضْمَارُ
إِلَّا الْدُمُوعَ ، فَإِنَّهَا أَنْصَارُ

يُذَكِّرُنَا ابْنُ قَسُومٍ بِبِكَائِهِ وَلَدَهُ بِأَبِي ذُوَيْبِ الْهَذَلِيِّ عِنْدَمَا بَكَى أَوْلَادَهُ الْخَمْسَةَ ، وَبَابِنِ
الرُّومِيِّ عِنْدَمَا ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ عَلَى وَلَدِهِ ، وَكَذَلِكَ بِأَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ الْأَنْدَلُسِيِّ
عِنْدَمَا بَكَى وَلَدِيهِ وَاحِداً بَعْدَ الْآخَرِ ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْبِكَائِيَّاتِ نَحْسُ فِيهَا حَرَارَةُ الْعَاطِفَةِ
وَصَدَقَ الْوَجْدَانُ ، فَوَقَعَ الْمَصَابِ عَلَى صَاحِبِهِ شَدِيداً .

وَابْنُ قَسُومٍ بَكَى وَحِيدَهُ بِحَرَارَةِ وَصَدَقَ وَتَلَقَّائِيَّةً ، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ :
بَرْدٌ لِهَيْبِ الشُّوْقِ مِنْكَ بِعَبْرَةٍ تَنْقَعُ ضُلُوعَكَ ، إِنَّهَا لِحَرَارِ
فَنَارِ الْحُزَنِ تَشْتَعِلُ بَيْنَ الضُّلُوعِ فَتَلْهَبُهَا ، وَتَرْفَعُ دَرَجَةَ حَرَارَتِهَا وَلَا يَطْفِئُ هَذِهِ النَّارَ ،
وَيَبْرُدُ تِلْكَ الضُّلُوعُ إِلَّا الدَّمْعُ ، فَكَأَنَّهُ وَجَدَ فِي الْعِبْرَاتِ الْمُسْفُوكَةِ عِلَاجاً لِنَارِ الْحُزَنِ فِي
فُؤَادِهِ وَأَثَرَ الْحُزَنِ فِي حَيَاتِهِ وَاضِحٌ فَالِدُمُوعِ سِيَالَةٌ تَسْقِي الْخُدُودَ دَائِماً وَفِي الْحَشَا نَارَهُ
مُتَأَجِّجَةً ، وَانْظُرْ مَعِيَ مَدَى الْحَسْرَةِ فِي قَوْلِهِ :

يَا حُرْقَةً ، يَا فَجْعَةً ، يَا لَوَعَةً سَكَنْتُ فُؤَادِي مَالَهَا مَقْدَارُ
فَإِنْ هَذَا الْبَيْتُ يَدُلُّ دَلَالَةً صَادِقَةً أَلَّا مَخْرَجَ لِحَالَةِ الْحُزَنِ الَّتِي تَرْدِي فِيهَا إِلَّا بِلِحَاقِهِ
بَوْلَدِهِ فِي مُسْتَقَرِّ رَحْمَةِ اللَّهِ .

وَالسَّرُّ فِي هَذَا قَدْ شَرَحَهُ لَنَا بِبَسَاطَةٍ فَلَقَدْ أَذْخَرَ وَحِيدَهُ هَذَا لِيَوْمٍ تَتَقَدَّمُ بِهِ السَّنُ

ويغلبه الهرم ، ويهدّ قواه فيه العجز، ولكن إرادة الجبار القوي القهار سبحانه غالبه، وكم كان يتمنى أن يموت قبل ولده، فكانا أشبه بمتسابقين نحو الموت ، وكان الولد أسبق .

وَلَقَدْ أَرَدْتُكَ أَنْ تَعِيشَ لِكِبْرَتِي وَزَمَانَتِي، فَأَرَادَكَ الْجُبَّارُ
وَلَقَدْ تَرَاكُضْنَا الْحَيَاةَ لَغَايَةً فَسَبَقْتَ أَنتَ، وَخَانَنِي الْمَضْمَارُ

ولم يعد الشاعر يملك إلا دموعه التي ناصرته، وما زالت تناصره على حزنه عندما فقد النصير .

مَا إِنْ وَجَدْتُ عَلَى مُصَابِكَ نَاصِرًا إِلَّا الدُّمُوعَ، فَإِنَّهَا أَنْصَارُ

« أَبُو جَعْفَرُ بْنُ عَطِيَّةِ الْقَضَاعِي » (١)

هو أبو جعفر بن عطية القضاعي، كاتب شهير أصله القديم من طرطوشة ، ثم بعد من دانية، وقد عاش في مراکش وعد من أهلها ، وكتب لعلي بن يوسف بن تاشفين أمير لمتونة، ولا بنيه تاشفين وإسحق، ثم استخلصه لنفسه سالب ملكهم عبد المؤمن بن علي الموحدي، وأسند إليه وزارته، فنهض بأعبائها، وكانت وزارته زينا للوقت، وكمالاً للدولة وقد حقد عليه عدد من حسّاده لسابق انتماؤه إلى المرابطين فانتهزوا فرصة غيابه في مهمة في الأندلس، وأوغروا صدر السلطان عليه بقولهم :

قُلْ لِلْإِمَامِ أَطَالُ اللَّهُ مُدَّتَهُ قَوْلًا تَبِينُ لَذِي لُبٍّ حَقَائِقُهُ
إِنَّ الزَّرَاجِينَ (٢) قَوْمٌ قَدْ وَتَرْتَهُمْ وَطَالِبُ الثَّأْرِ لَمْ تَوْمَنْ بِوَائِقِهِ
وَلِلْوَزِيرِ إِلَى آرَائِهِمْ مِيلٌ لِذَاكَ مَا كَثُرَتْ فِيهِمْ عِلَائِقُهُ
فَبَادِرِ الْحِزْمَ فِي إِطْفَاءِ نَارِهِمْ فَرُبَّمَا عَاقَ عَنْ أَمْرِ عَوَائِقِهِ
هُمْ الْعَدُوُّ وَمَنْ وَالَاهُمْ كُتْمُهُمْ فَاحْذَرْ عَدُوَّكَ واحْذَرْ مَنْ يَصَادِقُهُ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ وَالْحَقُّ قُبْلُجٌ لَا تَخْفَى طَرَائِقُهُ

(١) راجع نفع الطيب ج ٥ ص ١٨٣ .

(٢) الزراجين : لقب أطلقه الموحدون على الملتزمين (المرابطين) .

ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات وَغَرَّ صَدْرُهُ عَلَى وَزِيرِهِ أَبِي جَعْفَرٍ، وَأَسْرَ فِي نَفْسِهِ تَغْيِيراً، فَكَانَ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ نَكْبَتِهِ وَلَمَّا قَدِمَ أَبُو جَعْفَرٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ حَجَبَ عَنِ الدُّخُولِ عَلَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَهُ، ثُمَّ قِيدَ إِلَى الْمَسْجِدِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي بَعْدَهُ حَاسِرَ الْعِمَامَةِ، ثُمَّ أُمِرَ بِسُجْنِهِ، وَمَعَهُ أَخُوهُ أَبُو عَقِيلٍ عَطِيَّةُ بْنُ عَطِيَّةٍ، وَبَعْدَ فِتْرَةٍ أُمِرَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِقَتْلِهِمَا مَعَاً يَقُولُ الْمُقْرِي نَقْلًا عَنِ الْمُعْجَبِ ص ٢٦٧، وَالْإِحَاطَةُ ج ١ ص ٣٢، وَاعْتَابَ الْكِتَابُ ص ٢٢٥ : « وَلَقَدْ خَاطَبَ الْخَلِيفَةُ عَبْدَ الْمُؤْمِنِ مُسْتَعْطِفًا لَهُ بِرِسَالَةٍ تَغَالَى فِيهَا، فَغَالَتِ الْمَنِيَّةُ، وَلَمْ يَنْلِ الْأُمْنِيَّةَ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِيمَنْ لَمْ يَحْتَرَمْ جَنَابَ الْأُلُوْهِيَّةِ، وَلَمْ يَحْرَسْ لِسَانَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِيمَا يَخْذَشُ فِي وَجْهِ فَضْلِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَعَصَمْتَهُمْ » .

وهذا نقد للرسالة التي أرسل بها أبو جعفر لعبد المؤمن الموحدى يستعطفه ويتذلل له، وقد جاء في الرسالة ما يوحى بنسيان الله والاتجاه إلى عبده الموحدي، والتطاول على مقام الأنبياء والصحابة، والذي يعيننا هنا ما خاطبه به شعراً لبعده عما جاء في الرسالة النثرية من التطاول المشار إليه، فلقد كتب مع ابن له صغير في أواخر أيامه مستعظفاً، ومُتَذَلِّلاً ما نصَّه : (١)

بَانَ الْعَزَاءُ لِفَرْطِ الْوَسْوَاسِ وَالْحَزَنِ
وَعَطْفَةٍ مِنْكُمْ أَنْجَى مِنَ السَّفَنِ
وَرَحْمَةٍ مِنْكُمْ أَوْقَى مِنَ الْجَنَنِ
بِمَنْ أَجَارَتْهُ رَحْمَتُكُمْ مِنَ الْمَحَنِ
بِنَصْرِهِ لَمْ يَخَفْ بِطُشًّا مِنَ الزَّمَنِ
وَالطَّرْفُ يَنْهَضُ بَعْدَ الرُّكُضِ فِي سَنَنِ
مِنْ دُونِ مَنْ عَلَيْهِمْ لَا وَلَا ثَمَنِ
كَلْنَا الْحَيَاتَيْنِ مِنْ نَفْسٍ وَمِنْ بَدَنِ
لَمْ يَأْلَفُوا النَّوْحَ فِي فِرْعٍ وَلَا فَنَنِ
وَالْكُلُّ لَوْلَاكَ لَمْ يَوْجَدْ وَلَمْ يَكُنْ

عَطْفًا عَلَيْنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ
قَدْ أَغْرَقْنَا ذُنُوبَ كُلِّهَا لُجْجًا
وَصَادَفْتَنَا سِهَامَ كُلِّهَا غَرَضًا
هِيَئَاتَ لَلْخَطْبِ أَنْ تَسْطُو حَوَادِثُهُ
مَنْ جَاءَ عِنْدَكُمْ يَسْعَى عَلَى ثِقَةٍ
فَالثُّوبُ يَطْهَرُ عِنْدَ الْغَسْلِ مِنْ دَرَنِ
أَنْتُمْ بَذَلْتُمْ حَيَاةَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
وَنَحْنُ مِنْ بَعْضِ مَنْ أَحْيَيْتُمْ مَكَارِمَكُمْ
وَصَبِيئَةً كَفَرَاخِ الْوَرَقِ مِنْ صِغْرِ
قَدْ أَوْجَدْتَهُمْ أَيَادٍ مِنْكَ سَابِقَةً

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ١٨٥ .

فَوَقَّعَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ عَلَى هَذِهِ الْقَصِيدَةِ ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

[يونس : الآية ٩١]

وَمَا كَتَبَ بِهِ مِنَ السَّجَنِ :

أَنُوحَ عَلَى نَفْسِي أَمْ أَتَنْتَظِرُ الصَّفْحَا فَقَدْ أَنَا أَنْ تُنْسِيَ الذُّنُوبَ وَأَنْ تُمَحِّيَ
فَهَا أَنَا فِي لَيْلٍ مِنَ السُّخْطِ حَائِرٌ وَلَا أَهْتَدِي حَتَّى أَرَى لِلرُّضَى صَبْحَا

إن أبا جعفر تَعَمَّدَ أن يرسل قصيدته مع ابنه الأصغر لعل ذلك يُخَفِّفُ من قسوة عبد المؤمن الموحيدي عليه ، ويرقق قلبه ، وقد بدأها بطلب العطف ، فقد اشتد الحزن ، وقد اعترف بكثرة ذنوبه التي صارت كبحر لُجِّي متلاطم الأمواج ، وتوشك أن تهلكه ، ونجاته في عطف أمير المؤمنين ، كما يقول : إنه قد استهدفته سهام تكاد تردده ، ورحمة أمير المؤمنين هي التي تنجيه ، فهي عنده أشد وقاية من كُلِّ جَنَّةٍ ، وحوادث الدهر لا تقرب من يجيره عبد المؤمن الموحيدي .

ثم يلجأ إلى المبالغة التي عرَضَتْهُ للانتقاد في قوله :

أَنْتُمْ بَدَلْتُمْ حَيَاةَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ مِنْ دُونَ مَنْ عَمِلْتُمْ لَهُمْ وَلَا تَمَنَّيْ
- فلا حول ولا قوة إلا بالله أيقدر عبد المؤمن مهما أُوتِيَ من سطوة أن يمدَّ في
أجل مَنْ انتهى أجله ، أو أن ينقص من أجل مَنْ أطال الله في أجله ؟ !!

وكذلك في قوله : « وَالْكَلُّ لَوْلَاكَ لَمْ يُوجَدَ وَلَمْ يَكُنْ »

ولكنَّ عبد المؤمن يصنع معه صنيع المعتمد بن عباد مع ابن عمَّارَ فيقابل استعطافه له بالقسوة والسخرية ، ويَصِرُّ على مزيد من إذلاله ، والتنكيل به ، وتَأْمَلُ توقيعه على قصيدته بقول الله تبارك وتعالى في حق فرعون عندما أدركه الغرق فأعلن إيمانه أملاً في النجاة .. قال تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ

قَبْلُ ، وَكُنْتَ مِنَ الْمَفْسِدِينَ ﴿ [سورة يونس الآيتان ٩٠ - ٩١]

فعبد المؤمن شبه ابن عطية بفرعون، ولما لم يجد أبو جعفر فائدة من الاستعطاف والاسترحام والتذلل ، أخذ ينعي نفسه وينوح عليها لأنه أيقن بالهلاك « أنوح على نفسي أم أنتظر الصِّفْحَا » ... ؟ !

وهكذا حوِّلت النكبة ابن عطية من الشموخ إلى التذلل ، حتى بلغ درجة إسقاطه للرب في مرضاة العبد، ولكن هيهات هيهات، فلكلُّ أجل كتاب .

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الخامس

أثر الفتن والنجبات الخاصة

في الشعر الأندلسي

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

أثر الفتن والنكبات الخاصة في الشعر الأندلسي :

بعد هذه الرحلة الطويلة التي قطعناها عبر أحداث ثمانية قرون هجرية هي عمر الحكم العربي الإسلامي لأرض الأندلس منذ الفتح وحتى سقوط غرناطة حاضرة بني الأحمر ، وخروج آخر ملوك المسلمين حزيناً كاسفاً باله ، منقطعاً رجاءه ، والتي لمسنا خلالها مدى ما أحدثته الفتن والنكبات الخاصة التي ابتلي بها عدد كبير من الشعراء في الأندلس من أثر بل من آثار واضحة في المعاني ، والألفاظ والعبارات ، والصور البيانية ، وموسيقى الشعر ، وكذلك المحسنات البديعية ، آن لنا أن نجتمع ما تناثر على صفحات الكتاب ، ونجمل ما فصلناه على هيئة دراسة مجملّة شاملة تكشف بوضوح عن تأثير الفتن والنكبات الخاصة في شعر من أضرّوا بها ، واكتسبوا بنارها ، وذلك لتعم الفائدة ، ويتحقق الغرض من البحث بأمر الله .

ألوان الفتن والنكبات الخاصة ومدى انتشارها :

إن الفتن والنكبات التي أَلَمَّتْ بالشعراء الأندلسيين في مختلف الحقب والبيئات ، قد تعدّدت أشكالها ، وكثرت ألوانها ، واختلفت في مدى انتشارها ، وعدد من أصيبوا بها ، وبالتالي في تأثيرها في الشعر الأندلسي ، ولقد شملت هذه الدراسة ما يقرب من أربعين شاعراً أندلسياً مثلوا الحقب المختلفة ، والعهود المتوالية ابتداءً من فترة الإمارة الأموية المتوارثة التي أسسها عبد الرحمن الداخل في قرطبة ، ومروراً بعصر الخلافة الأموية في الأندلس أيام قوتها ، وفي فترات ضعفها ، ثم عصر ملوك الطوائف الذي قام على أنقاض الخلافة الأموية المُلغاة ، وانعطافاً على ما بعد هذا العصر أيام المرابطين ثم الموحدين ، وانتهاءً بآخر دويلات المسلمين في الأندلس ، وهي دولة بني الأحمر في القرن التاسع الهجري ، والتي مثل سقوطها سقوط الحكم العربي الإسلامي في الفردوس المفقود : بلاد الأندلس .

وقد اتضح من الدراسة أن الفتن والنكبات التي حلّت بالشعراء في الأندلس كانت كما يلي :

أولاً: نكبة السجن والإذلال بعد العز .

كان الابتلاء بهذا اللون من الفتن والنكبات أوسع الألوان انتشاراً، وأكثرها وقوعاً للشعراء في الأندلس، وكان يعقبها في أغلب الأحيان مصادرة للمال، وتشريداً للأهل والأولاد، وربما تنتهي بالقتل غيلة تحت جناح الظلام وراء القضبان أو علانية بعد محاكمة صورية الغلبة فيها للأقوى ، والأقوى هنا هو القابض على نواصي السلطة بيد من حديد .

وقد أصيب بهذه النكبة ما يقرب من خمسين في المائة من عدد الشعراء المنكوبين، والذين شملتهم الدراسة ، انتهت حياة النصف منهم بالقتل في سجنه غيلة أو قهراً، أو خرج بعضهم من سجنه بعد فترة تطول أو تقصر حسب الظروف مصاباً بعاهة دائمة نتيجة التعذيب الشديد ، أو قسوة الانتقام، والقلّة فازوا بالعفو عنهم نتيجة لشفاعاة شافع فيهم ، بل فرّ بعضهم من سجنه لما شعر باليأس من العفو عنه .

وأبرز الشعراء الذين امتحنوا بالسجن والإذلال :

١- الشاعر أبو الخشي عاصم ابن زيد التميمي العبادي : المتوفى سنة ١٩٩هـ ، والذي نكبه هو هشام ابن عبد الرحمن الداخل ، ولم يخرج من سجنه إلا بعد سمل عينيه وتحوله إلى حياة العمى ، وكذلك قطع طرف لسانه .

٢- الشاعر يحيى بن حكم البكري : (الغزال) المتوفى سنة ٢٥٠هـ وقد نكب بالسجن على يد أميره عبد الرحمن بن الحكم غالباً ، وقد انتهى الأمر بالعفو عنه بعد استعطاف واسترحام .

٣- الوزير الشاعر هاشم بن عبد العزيز بن هاشم : المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وقد كانت نكبته القاصمة على يد أميره منذر بن محمد بن عبد الرحمن، وقد انتهت حياة هذا الشاعر بالقتل، ومصادرة أملاكه ، وهدم داره وسجن أولاده انتقاماً منه لأمورفصلناها في موضعها من الكتاب ^(١) .

(١) راجع ص٤٣ من هذا الكتاب وما بعدها .

٤- الحاجب جعفر بن عثمان المصحفيّ : المتوفى سنة ٣٧٢هـ ، وقد نكبه غرس يده محمد بن أبي عامر الحاجب المنصور، وانتهت حياة جعفر بالقتل غيلة في محبسه، ومصادرة أمواله وأملاكه .

٥- يوسف بن هارون الكندي الرّماديّ : المتوفى سنة ٤٠٣هـ وقد نكب بالسجن مرتين الأولى في عهد الحُكَم المستنصر بالله ، والثانية في عهد هشام بن الحكم عندما استبد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر بالسلطة، ولكنه أفرج عنه، ونفاه خارج قرطبة ، ثم خفف الحكم إلى الأمر بمقاطعة الناس له، وتحاشيهم معاملته، وهو أشبه ما يكون بالعزل السياسي أو تحديد الإقامة في العصر الحديث .

٦- محمد بن مسعود البجاني: والذي لم نعثر على تاريخ وفاته ، وكان قد سجن بالمطابق في قرطبة بأمر الحاجب المنصور ، وذلك بسبب رهق في دينه ، وظل في سجنه فترة طويلة عاش بعضها مصاحباً للأمير عبد الله بن عبد الملك بن عبد الرحمن هذا الأمير الأمويّ المعروف بالطلق المروانيّ حيث جمعهما السجن معاً .

٧- أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيريّ : المتوفى سنة ٣٩٤هـ، وقد سجنه المنصور ابن أبي عامر بسبب جرأته عليه، وتوجيه النقد له في ملأ من مجالسيه، ثم عفا عنه المنصور وأعادته إلى الوزارة، ولكنه أعيد إلى السجن مرة أخرى بعد وفاة ابن أبي عامر بأمر ولده الذي تولى الحجابة بعده وهو عبد الملك المظفر بن أبي عامر، ولم يخرج ابن إدريس الجزيري من محبسه إلا ميتاً ، وقيل : إن المظفر قتله في سجنه غيلة .

٨- أبو مروان عبد الملك بن غصن الحجّاريّ : المتوفى سنة ٤٥٤هـ، والذي نكب بالسجن على يد المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة بسبب مقاومته له حتى لا يستولي على مدينة (وادي الحجارة) موطن الشاعر، وكذلك هجائه له، ولكنه خرج من سجنه بشفاعاة المقتدر بن هود صاحب سرقسطة .

٩- أبو الوليد بن زيدون: المتوفى سنة ٤٦٣هـ الذي نكبه أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بالسجن، ولم يقبل فيه شفاعاة مما اضطر الشاعر إلى الفرار من سجنه

بمساعدة من صديقه أبي الوليد بن أبي الحزم بن جهور، وكان سجنه بسبب
الوشايات من أعدائه خصوصاً ابن عبدوس ، غريمه في حب ولادة بنت المستكفي ،
وظل ابن زيدون بعيداً عن قرطبة بعد فراره حتى عفا عنه أبوالحزم، يسعي من ابنه
أبي الوليد بن أبي الحزم بن جهور .

١٠- الوزير أبو بكر بن عمار الأندلسي : المتوفى سنة ٤٧٧هـ والذي كانت نكبته
بالسجن ، ثم قتله مكبلاً بقيوده على يد صديقه ونديمه ومليكه المعتمد بن عباد ،
وذلك بسبب تمرده عليه ، ومحاولته الاستقلال بمدينة مرسية .. ، ثم تطاوله
بهجاء المعتمد وزوجه اعتماد الرميكية وأولاده منها .

١١- الشاعر أبو الحسن البغدادي الفكيك : لم نعثر له على تاريخ وفاة ، ولكن
صاحب الذخيرة أشار إلى أنه وفد على الأندلس، وعاش في كنف المعتمد بن
عباد، ولكنه اتهم بالزندقة والإلحاد، فقبض عليه وألقي به في سجن المعتمد بن
عباد بإشبيلية .

١٢- الملك الشاعر المعتمد بن عباد: المتوفى سنة ٤٨٨هـ وقد كانت نكبته على يد
صديق الأمس وحليفه يوسف بن تاشفين الذي عبر من المغرب إلى الأندلس،
وهاجم ملوك الطوائف ، ومنهم المعتمد بن عباد ، وقد نجح ابن تاشفين في
الاستيلاء على ملك المعتمد وقبض عليه ، ونقله إلى مدينة أغمات مع أهله
وأولاده ، وسجنه هناك حتى توفي مسجوناً ..

١٣- عز الدولة أبو مروان عبد الله بن محمد المعتصم بن صمادح : المتوفى سنة
٥٠٤هـ، وكانت نكبته على يد يوسف بن تاشفين أيضاً ولكنه أنقذ من السجن
بحيلة من والده الذي أوصاه بالفرار إلى شمال إفريقية خوفاً من بطش ابن تاشفين
به، وقد نفذ وصية والده، ولم يعد إلى الأندلس إلا قبيل وفاته بقليل .

١٤- الوزير الشاعر أبو جعفر بن عطية القضاعي: المتوفى سنة ٥٥٣هـ والذي قبض
عليه عبد المؤمن الموحدي زعيم الموحدين وسجنه ثم قتله مع أخيه في مكان واحد

أخذاً لهما بوشاية حقيرة توحى بمناصرتهما للمرابطين أعدائه .

١٥- أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد: المتوفى سنة ٥٥٩هـ وقد نكبه عثمان بن عبد المؤمن الموحدي بسبب الغيرة، لأنّ أبا جعفر كان غريمه في حب حفصه بنت الحاج الركونية المتوفاة سنة ٥٨٩هـ، فتلمس الأسباب للقبض عليه، ثم بعد فترة من سجنه قتله ليتخلص منه نهائياً .

١٦- لسان الدين بن الخطيب : المتوفى سنة ٧٧٦ هـ والذي نكبه سلطانه أبو عبد الله الغني بالله بن الأحمر بسبب وشايات منافسه في المكانة والذي كان صنيعه يده ابن زمرك، ومعه القاضي أبو الحسن النباهي، مما اضطر ابن الخطيب للفرار إلى المغرب، ولكن خصومه أحدثوا هناك فتنة حتى استطاعوا القبض عليه، وحاكموه محاكمة صورية لفقت له فيها التهم، وألقوا به في السجن، ثم اغتالوه ليلاً وأزهقوا روحه خنقاً ، ودفن بمدينة فاس بالمغرب .

أسباب هذا اللون من الفتن والنكبات :

من خلال تتبع الأحداث يتضح لنا أن أسباب نكبة السجن والإذلال والإهانة ، والتي كثيراً ما انتهت بقتل المسجون ومصادرة أمواله ودياره ، وقد تنعكس النكبة على أولاده من بعده أيضاً نقول تتمثل أسبابها في الآتي :

١- الحقد والكراهية : والتي تنشأ عادة بسبب تطاول الشاعر على أمير أو حاكم ، أو جرأته عليه ووقوعه في عرضه بالهجاء المقذع الذي يثير غضب ولي الأمر ويدفعه إلى الانتقام منه .

٢- تهمة الرهق في الدين : أو ما يعرف بالإلحاد والزندقة وهي تهمة كانت كثيرة الشيوع في الأندلس بسبب كثرة الفلاسفة الذين كانوا يلغون مقاومة من الفقهاء آنذاك ، ولم تكن تهمة الزندقة كثيرة الظهور إلا في فترات تسلط الفقهاء على ولي الأمر حاكماً كان أو أميراً أو ملكاً .

٣- الغيرة : التي تستبد بالحاكم من الشاعر بسبب علو مكانته وسمو منزلته بين الناس بسبب بطولاته في المعارك، أو أعماله الممتازة بحكم منصبه في الحجابة أو الوزارة أو كتابة الديوان ، مما يخشى على كرسي السلطة منه، فيبادر الحاكم أو الأمير بالتخلص من هذا الشاعر .

٤- وشايات الوشاة بسبب الغيرة والحسد : وهذا ينشأ عن علو مكانة الشاعر عند أميره أو مليكه، مما يدفع بهؤلاء الوشاة الحاسدين إلى الإيقاع بين الشاعر وأميره حتى ينكبه ، ويجرده من مناصبه .

٥- انضمام الشاعر إلى جبهة المعارضين للأمير أو الملك ومجاهرته بنقد ألوان الفساد مما يدفع الأمير أو الملك إلى التخلص من هؤلاء المعارضين ومن يناصرونهم ، وقد يكون الشاعر واحداً منهم .

٦- التنافس على مركز الصدارة : ومحاولة الاستبداد بالسلطة وهذا يحدث غالباً بين الحجاب والوزراء في فترات ضعف الحاكم أميراً كان أو ملكاً أو خليفة .

٧- الانقضاض على الممالك الصغيرة : وضمها إلى الممالك الكبيرة مع أسر ملكها أو أميرها، وسجنه حتى لا يدي مقاومة ، أو يحاول استرداد ملكه مرة أخرى .

٨- التنافس في الغرام بين الشاعر وصاحب السلطة أو مقرب من صاحب السلطة : بحيث يحاول الطرف الأقوى إزاحة غريمه من طريقه إما بسجنه إن كان الأقوى حاكماً أو أميراً أو بالإيعاز إلى الحاكم الذي يصانعه بأمور توغر صدره ضد الشاعر حتى يسجنه .

٩- الطمع في السلطة والرغبة في الاستبداد بحكم جهة من الجهات : والجنوح في سبيل ذلك إلى التمرد على الأمير أو الملك، مما يدفع الأخير إلى البطش بهذا الطامع المتمرد والإيقاع به وسجنه، وقد ينتهي الأمر بقتله .

أثر هذا اللون من الفتن والنكبات في شعر أصحابه :

لقد ترك هذا اللون من الفتن والنكبات، ألا وهو نكبة السجن والإذلال أثراً واضحاً في شعر من حل بهم من الشعراء سواء في معاني الشعر وأفكاره، أم في ألفاظه وعباراته، أو في صوره البيانية أو محسناته البديعية .

أما من ناحية المعاني فقد خلّفت في شعرهم المعاني والأفكار الآتية :

١- التشوق إلى الحرية، والحنين إلى الماضي السعيد، والتطلع إلى مراتب الأهل ومغانيمهم، ومجالس الأحبة ومجاليمهم، وقد يصحب ذلك تواعد الوشاة الحاقدين وتهديدهم كما جاء على لسان ابن زيدون في مخمساته وهو في سجن قرطبة إذ يقول :^(١)

خـلـيـلـيَّ إن أجـزَّعَ فـقـدَ وضحَ الغـدْرُ
وإن أستطع صـبـراً فـمـنْ شـيـمـتـي الصـبـرُ
وإن يكُ رزءاً ما أصـابَ به الدهـرُ

فَقِي يَوْمَنَا خَمْرٌ وَفِي غَدِهِ أُمْرٌ ولا عـجـبٌ إن الكـرـيـمَ مُرْزَأُ
رَمَتْنِي اللَّيْلِيَّ عَنِ قَسِيِّ النَّوَائِبِ
فَمَا أَخْطَأْتُنِي مُرْسَلَاتِ الْمَصَائِبِ
أَقْضِي نَهَارِي بِالْأَمَانِي الْكَوَاذِبِ
وَأَوِي إِلَى لَيْلٍ بِطَبِئِ الْكَوَاكِبِ وَأَبْطَأُ سَارَ كَوَكَبٍ بَاتَ يُكْلَأُ
أَقْرَبُ الْغُرَاءِ هَلْ فِيكَ مَطْمَعٌ ؟
وَهَلْ كِبْدٌ حَرَى لِبَيْنِكَ تَنْقَعُ ؟

(١) ديوان ابن زيدون تحقيق محمد سيد كيلاني ص ٢٠٠ .

وهل ليلاليك الحميدة مرجع ؟

إِذِ الْحُسْنُ مَرَأَىٰ فِيكَ وَاللَّهُوْ مَسْمَعُ وَإِذْ كَنَفُ الدُّنْيَا لَدَيْكَ مُوْطَأُ
٢- الإفصاح عن الأمل في انجلاء الغمة، وانبثاق الفرج من الضيق كما ينبثق النهار من
رحم الليل المظلم ، ومن ذلك ما جاء على لسان رشيد الدولة أبي يحيى محمد بن
عز الدولة عبيدالله بن المعتصم بن صمادح من شعراء المائة السادسة، إذ قال لما
سجن بسبب تطلعه إلى الرئاسة والملك : (١)

صَبْرًا عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ إِنَّ لَهُ يَوْمًا كَمَا فَتَكَ الْإِصْبَاحُ بِالظُّلَمِ
إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مُقْتَدِرٌ فَثِقْ بِهِ تَلْقَ رُوحَ اللَّهِ مِنْ أُمِّ
وَقَلَّمَا صَبَرَ الْإِنْسَانُ مُحْتَسِبًا إِلَّا وَأَصْبَحَ فِي فَضْفَاضَةِ النِّعَمِ

٣- الإغراق في مدح صاحب السلطة الموقع للنكبة بهذا الشاعر أو ذاك مع الجنوح إلى
المبالغة الشديدة الممقوتة ، ومن ذلك ما جاء في توسلات جعفر المصحفي التي
وجهها إلى الحاجب المنصور بن أبي عامر، وما جاء في استعطافات واسترحامات
الوزير أبي بكر بن عمّار للمعتمد بن عباد، وكذلك ما خاطب به لسان الدين بن
الخطيب ملوك وسلاطين المغرب، وكذلك ما بعث به أبو جعفر بن عطية إلى عبد
المؤمن الموحدّي. (٢)

٤- التعبير عن الإحساس بالعجز تجاه المسئوليات الجسيمة الملقاة على عاتق الشاعر
السجين، والتي تتعلق بأهل بيته زوجات وبنين وبنات، وخير نموذج لذلك قصيدة
عبد الملك بن إدريس الجزيري وهو في سجن المنصور بن أبي عامر، والتي جاء فيها:
وَإِذَا الْفَتَى فَقَدَ الشَّبَابَ سَمَاهُ حُبُّ الْبَنِينَ، وَلَا كَحُبِّ الْأَصْغَرِ
عَجَبًا لِقَلْبِي يَوْمَ رَاعَتْنِي النَّوَى وَدَنَا وَدَاعِي كَـ____يْفَ لَمْ يَتَفَطَّرِ
مَا خَلَّتْنِي أَبْقَى خِلَافِكَ سَاعَةً لَوْلَا السُّكُونُ إِلَى أَخِيكَ الْأَكْبَرِ (٣)

(١) الحلة السيرة جـ ٢ ص ١٩١ ، وكتاب الأسر والسجن في شعر العرب طبعة أولى ص ٤٨١ .

(٢) راجع ما جاء عن هؤلاء الشعراء في هذا الكتاب . (٣) راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب .

ومن ذلك أيضاً ماجاء على لسان المعتمد بن عباد ، وهو في سجنه في مدينة
أغمات، عندما دخلت عليه بناته حافيات الأقدام على أجسادهن ثياب رثة صباح يوم
عيد يهنئنه بالعيد فقال عقب انصرفهن عنه :

فِيمَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُوراً فَسَاءَكَ الْعِيدُ فِي أَغْمَاتِ مَأْسُوراً
تَرَى بَنَاتَكَ فِي الْأَطْمَارِ جَائِعَةً يَغْزُلْنَ لِلنَّاسِ لَا يَمْلِكُنَّ قَطْمِيْراً
خَرَجْنَ نَحْوَكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُنَّ حَسِيرَاتٍ مَكَاسِيْراً
يَطَّأْنَ فِي الطُّيْنِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةً كَأَنَّهُمَا لَمْ تَطْأُ مِسْكَاً وَكَافُوراً^(١)

٥- الاعتذار، ورجاء إقالة العشرة، والتغاضي عن الذنب مع انتحال الاعذار
والتبريرات، وغالباً ما يدفع الشاعر عن نفسه التهمة مبيناً أن لا ذنب له فيها، وهذا
المعنى يتكرر كثيراً في اعتذارات ابن^(٢) زيدون لأبي الحزم بن جهور، وكذلك في
شعر ابن عمار^(٣) الذي كان يرسل به ترضية للمعتمد بن عباد، وكذلك في شعر
عبد^(٤) الملك بن غصن الحجاري .

فمما جاء على لسان ابن زيدون في قصيدته اللامية يقول :

هِيَ النَّعْلُ زَلْتُ بِي فَهَلْ أَنْتَ مَكْذِبٌ لَقِيلَ الْأَعَادِي إِنَّهَا زَلَةُ الْحَسْلِ ؟
وَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَشْفَعَ الطُّولَ شَافِعاً ، فَتَنْجَحَ مَيْمُونُ النُّقْيَبَةِ ، أَوْ تَتَلِي ؟

ومنه ما جاء في رائية ابن زيدون أيضاً حيث يقول :

مَا لِلذُّنُوبِ الَّتِي جَانِي كِبَائِهَا غَمِيْرِي يُحْمِلُنِي أَوْزَارَهَا وَزَرِي
مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأْيِيهِ عَلَى ثِقَةٍ ، وَلَمْ أَبْتَ مِنْ تَجَنِّيهِ عَلَى حَذَرٍ
قَدْ كُنْتُ أَحْسِنِي وَالنَّجْمُ فِي قَرْنٍ فَقِيمَ أَصْبَحْتُ مُنْحَطّاً إِلَى الْعَفْرِ

(١) انظر نكبة المعتمد بن عباد ص ٢٩٢ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) راجع نكبة ابن زيدون السياسية ص ١٥٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٣) راجع نكبة ابن عمار السياسية ص ٢٣٩ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٤) راجع نكبة ابن غصن الحجاري ص ١٤٥ من هذا الكتاب وما بعدها .

ومن هذه المعاني ما جاء على لسان أبي بكر بن عمار في اعتذاره للمعتمد بن عباد

حيث يقول مخاطباً إياه :

حَنَانِيكَ فِي أَخْذِي بِرَأْيِكَ لَا تُطْعُ
وَمَاذَا عَسَى الْأَعْدَاءُ أَنْ يَتَزِيدُوا
نَعَمَ لِي ذَنْبٌ غَيْرَ أَنْ لَحَلْمَكُمُ
أَقْلَنِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ رِضَا
عَدَايَ ، وَلَوْ أَثْنَوْا عَلَيَّ وَأَفْصَحُوا
سَوَى أَنْ ذَنْبِي وَاضِحٌ مُتَصَحِّحُ
صَفَاةٌ يَزِلُّ السُّدْبُ عَنْهَا فَيُسْفَحُ
لَهُ نَحْوُ رُوحِ اللَّهِ بَابٌ مُفْتَحُ

ومن هذه المعاني أيضاً ما استعطف به عبد الملك بن غصن الحجاري المأمون بن ذي النون وهو في قبضته قائلاً :

فَدَيْتَكَ هَلْ لِي مِنْكَ رَحْمِي لَعَلَّنِي
وَلَيْسَ عِقَابُ الْمَذْنُبِينَ بِمُنْكَرٍ
وَمَنْ عَجَبٌ قَوْلُ الْعُدَاةِ مُثْقَلُ
وَمِثْلِي فَمِثْلِي إِنْ حَاحَ الدَّهْرُ يَعْدُرُ
أُفَارِقُ قَبْرًا فَمِثْلِي الْحَيَاةُ فَانْشُرُ
وَلَكِنْ دَوَامُ السُّخْطِ وَالْعُسْبُ يَنْكُرُ

٦- ابتلاع الآلام ، ولعق الجراح ، وكظم الآهات والزفرات وذلك تجلداً للشامتين على حد قول أبي ذؤيب الهذلي :

وَتَجْلِدِي لِلشَّامَتِينَ أُرِيهِمْ أَنِّي لَرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُ

ونلمح التعبير عن معاني التجلد في شعر كثير من الشعراء الذين ابتلوا بنكبة السجن ، ومنهم على سبيل المثال وليس الحصر الوزير هاشم ^(١) بن عبد العزيز الذي ظل صامداً في سجنه حتى قتل بيد منذر بن محمد وقد عبّر عن هذا الصمود في رسالة إلى صديق له بعث إليه بها من سجنه ، وفيها يقول :

فَكَمْ عَضَّةٌ بِالْذَّمْعِ نَهْنَهَتْ خَوْفَ أَنْ
تَحَامَلَتْ عَنْهُ ثُمَّ نَادَمَتْ فِي السُّدْجَا
يَسْرِي مَا أَبْدِيَهُ شَنَّانٌ كَاشِحُ
نُجُومِ الْبَثْرِيَا وَالْذَّمُوعُ سَوَانِحُ

وكثيراً ما يتذرع المسجون بالصبر ويتمسك بأهدابه لعل ذلك يعينه في التغلب على

(١) راجع نكبة الوزير هاشم بن عبد العزيز الفصل الأول من هذا الكتاب ص ٤٣ وما بعدها .

محنته ، ويساعده على التجلد لشامتيه ، ومن ذلك قول جعفر المصحفي : (١)

حَسْبُ الْكَرِيمِ مَذَلَّةٌ وَمَهَانَةٌ أَنْ لَا يَزَالَ إِلَى لَيْثِمٍ يَطْلُبُ
وَإِذَا أَنْتَ أَعْرَجُوبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا فَالدَّهْرُ يَأْتِي بِالَّذِي هُوَ أَعْجَبُ

٧- استشارة العواطف الإنسانية بمخاطبة الطير السابحة في الأجواء والصادحة في الأرجاء ، ويناجي النجوم في السماء ، ويحاول أن يشرك هذه وتلك معه في محنته ، ومن ذلك ما جاء على لسان يوسف بن هارون الرمادي ، وهو في سجن الحكم المستنصر إذ يقول : (٢)

عَلَى كِبَرِي تَهْمِي السَّحَابُ وَتَذُرُ وَمِنْ جَزَعِي تَبْكِي الْحَمَامُ وَتَهْتَفُ
كَأَنَّ السَّحَابَ الْوَكَافَاتِ غَوَاسِلِي وَتَلِكْ عَلَى فَقْدِي نَوَاحٍ هَتَفُ

ومن هذه المعاني ما صرح به أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد عندما امتحن بالاعتقال في سجن العلويين من بني حمّود إبّان فتنة قرطبة إذ يقول وهو في سجنه : (٣)

وَقُلْتُ لَصَدَاحِ الْحَمَامِ وَقَدْ بَكَى عَلَى الْقَصْرِ الْفَاءَ وَالْدُمُوعُ تَجُودُ
أَلَا أَيُّهَا الْبَاكِي عَلَى مَنْ تُحْسِبُهُ كَلَانًا مُعْنَى بِالْخَلَاءِ فَرِيدُ
وَهَلْ أَنْتَ دَانٌ مِنْ مُحِبٍّ نَأَى بِهِ عَنِ الْإِلْفِ سُلْطَانٍ عَلَيْهِ شَدِيدُ
فَصَفَّقَ مِنْ رِيَشِ الْجَنَاحِينَ وَاقْعَا عَلَى الْقُرْبِ حَتَّى مَا عَلَيْهِ مَزِيدُ
وَمَا زَالَ يَبْكِيَنِي وَأُبْكِيَهُ جَاهِدًا وَلِلشَّوْقِ مِنْ دُونِ الضُّلُوعِ وَقُودُ
إِلَى أَنْ بَكَى الْجُدْرَانُ مِنْ طُولِ شَجُونَا وَأَجْهَشَ بَابَ جَانِبِ نَاهٍ حَدِيدُ

ومن الشعراء الذين أشركوا كثيراً من الكائنات في محنتهم معهم فأشركوا الطير والجماد ، والنجم في السماء ، والغمام والرعد والبرق معهم في معاناتهم ، الشاعر الوزير

(١) انظر ص ٧٧ من هذا الكتاب . (٢) انظر ص ٨٧ وما بعدها من هذا الكتاب . (٣) انظر ص ١١٧ وما بعدها

أبو بكر بن عَمَّار ^(١) بقوله :

عَلَيَّ وَالْأَمَّا بَكَاءُ الْغُمَائِمِ ؟ وَفِي الْأَمَّا نِيَّاحُ الْحُمَائِمِ ؟
وَعَنِي أَثَارُ الْبُرْعِدِ صَرْخَةَ طَالِبٍ لثَّارٍ، وَهَزُّ الْبَرْقِ صَفْحَةَ صَارِمٍ
وَمَالِبِسْتِ زَهْرَ النُّجُومِ حَدَادَهَا لَغَيْرِي، وَلَا قَامَتْ لَهُ فِي مَاتِمٍ

٨ - التعبير عن الاستسلام والاستكانة بعد اليأس من العفو، وغالباً ما يصحب ذلك تعبير عن الإحساس بالذلة والصغار، والتدني بإراقة ماء الوجه، ومن هؤلاء الشعراء الذين عبروا عن ذلك كثيراً في شعر المحن والنكبات عندهم جعفر المصحفي ^(٢) :

لَعْنُ جَلِّ ذَنْبِي، وَلَمْ أَعْتَمِدْهُ فَـأَنْتَ أَجَلٌّ وَأَعْلَى يَدَا
أَلَمْ تَرَعْ عَدَاً بَدَأَ طَوْرُهُ وَمَوْلَى عَفَاً وَرَشِيْدَا هَدَى ؟ !
أَقْلُنِي ! أَقْـالِكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ يَقِيكَ وَيَصْرِفُ عَنْكَ الرَّدَى

ومن هذا اللون الشعري الذي حمل معاني التذلل والضعف أيضاً قول أبي عبد الله محمد بن مسعود البجاني مخاطباً المنصور بن أبي عامر الذي يبدو أنه كان يعشق إذلال الآخرين، وتعشق أذناه سماع صرخات التذلل : ^(٣)

دَعَاوْتُ لَمَّا عَيْلَ صَبْرِي فَهَلْ يَسْمَعُ دَعَاوِي الْمَلِكِ الْحَلِيمِ ؟ !
مَوْلَايَ مَوْلَايَ أَلَا عَطَفَةٌ تَذْهَبُ عَنِّي بِالْعِزِّ الْأَلِيمِ
إِنْ كُنْتُ أَضْمَرْتُ الَّذِي زَخِرْفُوا عَنِّي فَدَعْنِي لِلْقَدِيرِ الرَّحِيمِ
فَعِنْدَهُ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى وَعِنْدَهُ الْفِرْدَوْسُ ذَاتُ النُّعْمِ

وتأمل معي بعض أبيات ابن عَمَّار، واسمع نشيجه الحزين، وخفقات قلبه والأنين، وقد اشتدَّ يأسه بعد أن وقع في يد قانصه يخاطب صاحب المريّة راجياً إياه أن يشتريه من ساجنيه ليصير له عبداً وفيأ مخلصاً، وهو الذي كان يسعى إلى كرسي الملك ويطمع في تاجه ، ويطلب صولجانه ،وها هو قد جعل من نفسه سلعة تباع وتشتري، وفي ذلك

(١) انظر ص ٢٣٩ وما بعدها من هذا الكتاب . (٢) انظر ص ٧٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٣) انظر ص ٩٩ وما بعدها من هذا الكتاب .

يقول : (١)

أَصْبَحْتُ فِي السُّوقِ يُنَادَى عَلَيَّ
فَهَلْ فَتَى يَتَّاعُنِي مَا جَدَّ
تَاللَّهِ لَا جَارَ عَلَيَّ نَقْدَهُ
أُرِيحُ بِهَا مَوْلَايَ مِنْ صَفْقَةٍ
رَأْسِي بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَالِ
أُخْذُهُ مِنْهُ مُدَّةَ إِمْهَالِي
مَنْ ضَمَّنِي بِالسُّتْمَنِ الْغَالِي
فِي سِلْعَةٍ مِنْ بَرَكِ الْعَالِي
إنها معانٍ وكلمات لا ينطق بها إلا عبدٌ رقيق وقف على منصبة النّحاس يعرض نفسه على المبتاعين، ويتغنّى بمحاسنه ليغري الحاضرين بالتنافس على شرائه، والمساورة لاقتنائه .

٩- ومن المعاني التي فرضتها محنة السجن والإذلال والإهانة في شعر الأندلسيين شكوى اجتماع الهموم ، وتكالب الغموم، والمعاناة من ضيق السجن وأهواله، والتبرم من أشكاله وأحواله ، والتضجر من القيد وثقله وآلامه ،ومن ذلك ما صرح به ابن مسعود البجاني إبان محنته، من بين جدران السجن وظلمته قائلاً (٢) :

عِنْدِي اسْتَقَرَّتْ جُنُودُ الْكَرْبِ أَجْمَعُهَا
سَجْنٌ وَقَيْدٌ وَأَعْدَاءٌ مَنِيتُ بِهِمْ
فِي مَنْزِلٍ مِثْلَ ضَيْقِ الْقَبْرِ أَوْسَعُهُ
فَلَسْتُ تَسْمَعُ مَنْ بَعْدِي بِمَكْرُوبٍ
لَا يَسْأَمُونَ مَعَ الْأَيَّامِ تَثْرِيبي
دَخَلْتُهُ فَحَسِبْتُ الْأَرْضَ تَهْوِي بِي

ومما وصف به الشعراء المبتلون بالسجن وأهواله سجنهم ما ساقه عبد الملك بن إدريس الجزيري في أبياته التي يقول فيها : (٣)

فِي رَأْسِ أَجْرَدَ شَاهِقٍ عَالِي الدُّرَى
يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ أَعْوَرَ نَاعِقٍ
وَيَكْكَادُ مِنْ يَرْقِي إِلَيْهِ مَرَّةً
مَا بَعْدَهُ لِمُؤْمَلٍ مِنْ مَعَمَرٍ
وَتَهْبُ فِيهِ كُلُّ رِيحٍ صَرَصِرٍ
مِنْ عُمُرِهِ يَشْكُو انْقِطَاعَ الْأَبْهَرِ

(١) راجع ص ٢٣٩ من الكتاب (٢) راجع ص ٩٩ من الكتاب (٣) راجع ص ١٠٨ من الكتاب

١٠- الشعور بالاضطهاد ، واستكثار ما حدث ، وشكوى الدهر وقسوة الأيام وتقلباتها ، ومثل هذه المعاني تظهر بكثرة في شعر السجناء الذين لفقت لهم التهم تليقاً أمثال: هاشم بن عبد العزيز ، والمصحفي ، والرمادي ، كذلك ابن ادريس الجزيري ، وابن زيدون ، ولسان الدين بن الخطيب .

كما تظهر في شعر هؤلاء الذين انتزعوا من ملكهم ، وانتزع منهم ملكهم انتزاعاً أمثال عز الدولة بن صمادح ، وأبو جعفر بن عبد الملك بن سعيد ، والمعتمد بن عباد .

١١- الاتعاظ بالنكبة ، والندم على التفريط ، والبكاء على ما ضاع من العمر بعد فوات الأوان ، ومثل هذه المعاني تلمس في آخر ما نطق به الشعراء المنكوبون ، كما حدث مع ابن عمّار إذ وجدوا في ثيابه التي قتل فيها أبياتاً من بينها هذان البيتان: ^(١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِنْ يَكُنْ حَرْجاً فَلَيْسَ فِي مِثْلِهِ سِوَى حَمْدِهِ
يَا رَبِّ بِشَرِّ بَرَحْمَةٍ وَحِيَاءٍ يُؤْنِسُ مِنْ بَرَقِهِ وَمِنْ رَعْدِهِ

كما أن أبا جعفر بن عطية القضاعي كتب في أواخر أيام حياته وقبل قتله من سجنه بيتين أرى أنه نعى نفسه بهما ، وفيهما يقول : ^(٢)

أُنُوحُ عَلَى نَفْسِي أَمْ أَنْتَظِرُ الصُّفْحَا فَقَدْ آتَى أَنْ تُنْسَى الدُّنُوبُ وَأَنْ تُمَحَى
فَهَا أَنَا فِي لَيْلٍ مِنَ السُّخْطِ حَائِرٌ وَلَا أَهْتَدِي حَتَّى أَرَى لِلرُّضَا صَبْحَا

هذا وقد أبدع الشعراء في اختيار الألفاظ والعبارات المعبرة عن تلك المعاني والأفكار التي ولدتها ظروف المحنة التي عاشها هؤلاء الشعراء ، واختاروا لكل معنى ما يناسبه من الألفاظ وما يلائم من العبارات ، وإذا رجعنا إلى ما سقناه على صفحات الكتاب من نصوص شعرية أملتتها محنة السجن لوجدنا علامات صدق هذا الحديث واضحة ، فما رأينا شاعراً من هؤلاء الشعراء قد اختار تعبيراً يوحي بالفرح والسرور وسط ظلام السجن ،

(١) راجع ص ٢٣٩ من هذا الكتاب . (٢) انظر ص ٤٣٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

ولكن كانت معظم ألفاظهم موحية بالحزن وخيبة الأمل والرجاء ، وكلما طالت مدة السجن تسربت إلى أشعارهم ألفاظ توحى باليأس والقنوط ، أما تلك الفئة من الشعراء المسجونين والتي أيقن أفرادها أنهم لن يخرجوا من سجونهم إلا إلى قبورهم ، وكانوا ينتظرون نهايتهم المحتومة فقد كثرت عبارات الشكوى من تخلي الدهر عنهم ، وانقلابه عليهم وظهرت عبارات الندم على مافات من أيام حياتهم .

وأظن أن الشعراء لم تخزنهم قرائحهم في مثل هذه الظروف إلا في مواقف المبالغة في مدح صاحب السلطان القايض عليهم ، والمقيد لحريتهم فإن مثل هذه المواقف أفرزت شعراً يفتقر إلى الصدق الوجداني وبالتالي نقول : إن مثل هذا اللون من التعبيرات المادحة أصدق منها نقيضتها القادحة لو تجرأ الشاعر ونطق بها ، وجاءت الصور البيانية ترسم لوحات حقيقية متكاملة للمعاناة التي أحس بها الشعراء المسجونون ، وذاقوا مرارتها ، فكانت بمثابة الوسائل التوضيحية التي تكشف عن المعنى الذي أراده الشاعر وتبرز الفكرة التي تترجم عن عاطفته ووجدانه ، وتحوّل مشاعره وكذلك أحاسيسه إلى أمور بارزة لها معنى ملموس ، ولا مجال هنا للتفنن في الصنعة اللفظية ، ولا استجلاب المحسنات البديعية إلا ما جاء منها عفواً وأملته لحم الحديث وسداه ، لأن التلقائية في مثل هذه المواقف هي الغالبة ، بل إن شئت فقل : هي السائدة ، حيث إن الشاعر في موقف لا يحسد عليه ، ولا مجال للتفنن في الصنعة أو الاهتمام بزخرفة الكلام وتزيينه وموسيقى الشعر داخلية كانت أو خارجية تحسُّ بها في مجملها حزينة باكية ، إلا في مواقف المدح المصطنع الذي لجأ إليه بعض الشعراء المسجونين ، فإنك تحس فيه اضطراب العواطف ، والألفاظ والصور وكذلك الموسيقى ، لأنه لا يعبر عن أمر حقيقي مرغوب فيه ، ولا يترجم عن إعجاب حقيقي بالمدوح ، بل تغلب عليه سمة المداينة والتملق والنفاق والرياء ، ولذلك نراه في معظم الأحيان لا يأتي بنتيجة ، ولا يستجيب له المدوح ، ومواقف الحاجب المنصور بن أبي عامر من المصحفي ، وكذلك موقف المعتمد من ابن عمار ، وعبد المؤمن الموحي من أبي جعفر بن عطية خير شاهد على ذلك ، فبرغم تفاني الشعراء المنكوبين في مدحهم إلا أنهم لم يستجيبوا لهم ، بل كانت هناك أحياناً ردود قاسية مؤلمة .. وكانت نهاية هؤلاء المادحين القتل وإزهاق الروح .. وأرى أننا قد أطلنا في

الحديث عن نكبة السجن وعذرنا في ذلك أنها النكبة التي امتحن بها أكثر الشعراء .

ثانياً : الابتلاء بالفقر والفاقة، وشدة الاحتياج :

هذه ثاني أكثر النكبات انتشاراً بين الشعراء في الأندلس، وهذا لا يمنع وجود طائفة من الشعراء الكتاب ظفروا بأرفع المناصب في خدمة الحكام والملوك والأمراء و الولاة، وقد أصيب بنكبة الفقر والفاقة ما لا يقل عن ثلاثين في المائة من الشعراء المنكوبين وفي بعض الأحيان قد تكون تلك النكبة مصحوبة بغيرها كالسجن أو المرض المقعد، ولولا الفقر والفاقة ما عرفنا كثيراً من الشعراء المتكسبين بشعرهم، وهم فئة الشعراء الطوائفين، أو كما يسميهم النقاد شعراء الكدية .

أسباب هذه النكبة :

إن وقوع مثل هذه النكبة كان يرجع إلى أسباب عديدة من أهمها :

١- أن يطرأ على حياة الشاعر تغيير يرجع سببه إلى حدوث عاهة دائمة تقعه عن السعي والكسب، كما حدث لأبي المخشي عاصم بن زيد المتوفى سنة ١٩٩هـ، والذي سمل هشام بن عبد الرحمن عينيه، فأصبح مقعداً يعيش عالة على زوجته أم بناته، وينتظر ما تجود به نفوس المحسنين بعد أن كان يملأ الدنيا سعيًا في سبيل طلب الرزق، وقد يرجع التغيير في حياة الشاعر إلى إصابته بمرض شديد مقعد يمنعه من كسب قوته بسعيه وكده، كما حدث لابن درّاج القسطلي المتوفى سنة ٤٢١هـ، ولمعاصره، أحمد بن عبد الملك بن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦هـ وكذلك حدث نفس السبب لأبي جعفر اللّمائي المتوفى سنة ٤٦٥هـ .

٢- قد يرجع السبب في حدوث الفقر والفاقة إلى سجن الشاعر عقوبة، وهذه العقوبة غالباً ما يتبعها عقوبة أخرى تتمثل في مصادرة الأموال وهدم الديار، وربما تشريد الأولاد إن لم يقتلوا، وهذا ما حدث للمعتمد بن عباد في سجنه بأغلمات حيث أصبح غير قادرٍ على أن يعول أولاده، فالتجّعت بناته إلى خدمة الآخرين ليحصلن على أقواتهن، كما اتجه ابنه فخر الدولة إلى العمل نافخ كير عند صانع حلّي، وأصبح المعتمد بن عباد نفسه يتوارى من شعراء الكدية الذين لم يرحموا ضعفه، ولم يدركوا

أنه فقد كل شيء : الملك والمال والجاه والمنصب والصولجان، وحدث نفس الشيء لعز الدولة الصمادحي المتوفى سنة ٥٠١هـ والذي سجن على يد عبد المؤمن الموحدي، ثم انقذه والده بحيلة ما ، ففر إلى خارج الأندلس وعاش في كنف أحد أصدقائه القدامى في شمال إفريقية، وكان يرفض لقاء الشعراء لأنه لا يجد ما يقدمه لهم كعطاء كما تعودوا من قبل ، يدفعه إلى هذا الرفض شدة اعتزازه بنفسه، وكأنه لا يريد أن يحس الشعراء بفقره وفاقته ..

٣- وهناك سبب ثالث مثير للدهشة والعجب لنكبة الفقر والفاقة ويتمثل في تخاشي الناس معاملة الشاعر إما قهراً وإجباراً بأمر الحاكم ، كما فعل الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر مع الشاعر يوسف بن هارون الرمادي عندما حكم عليه بالنفي خارج قرطبة ثم سمح له بالعودة بعد فترة مستبدلاً حكم النفي بالحكم بمقاطعة الناس له ، وعدم تعاملهم معه ، وهذا الحكم كان أشدّ قسوة من سابقه حيث أدى إلى حلول الفقر بساحة الرمادي، أو نرى الناس يتحاشون التعامل مع الشاعر لأنهم يتشاءمون منه، كما حدث مع الشاعر أبي القاسم البلوي الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٢هـ الذي هاب الناس معاملته، ورفض كثير من الحكام استخدامه في أعمالهم، لأنه تصادف أن عمل أبو القاسم مع أكثر من حاكم أو مسئول أصيبوا جميعاً بكموارث عقب عمله معهم .. وأدى هذا الأمر إلى أن يقبع أبو القاسم في قعر داره يعاني ويكابد، ويقاسي شظف العيش ، حتى نفذ كل ماله وأصبح يرسل إلى أصدقائه القدامى يستجديهم ويسألهم المعونة .

٤- السبب الرابع والأخير يرجع إلى أصل النشأة ، فقد ينشأ الشاعر وسط أبوين فقيرين ، وفي بيئة تعاني الفقر، فلا مال ولا جاه ولا عقار ، ولكن الله آتاه موهبة الشعر فاتخذها وسيلة للتكسب لعله يعوض ما فات من أيام حياته وسط مظاهر الفقر المدقع والحاجة المذلة .

أثر نكبة الفقر والفاقة في شعر الشعراء :

لقد ولدت نكبة الفقر في شعر الشعراء الذين ذاقوا حلاوة الغنى، وطعم العيش

الريغيد أمثال المعتمد بن عباد، وعز الدولة الصمادحي، وأبي عيسى لبون بن عبد العزيز معان يأسى لها الإنسان، حيث ظهر في شعر هؤلاء جميعاً مظهر الدُّل ، والإحساس بالعجز بعد القوة، وأجدني مضطراً أن أسوق هنا موقفاً بين ابن اللبانة الشاعر الوفي للمعتمد بن عباد وبين المعتمد في سجنه ، قال ابن اللبانة : ^(١) كنت مع المعتمد في أغمات فلما قاربت الصدر، وأزمنت السفر ، صرف حيله ، واستنفد ما قبله ، ووجه إلي مع ابنه شرف الدولة عشرين مثقالاً مرابطية ، وثوبين غير مخيطين وكتب معهما أبياتاً منها :

إِلَيْكَ النَّزْرَ مِنْ كَفِّ الْأَسْـ_____ير
تَقْنَعُ تَكُنْ عَيْنَ الشُّكُورِ ؟؟
تَقْبَلُ مَا يَذُوبُ لَهُ حَيَاءٌ
وَأَنْ عَذْرَتَهُ حَالَاتُ الْفَقِيرِ
وَلَا تَعْجَبْ لَخِطْبٍ غَضُّ مِنْهُ
أَلَيْسَ الْخَسْفُ مُلْتَزِمَ الْبُـ_____دُورِ ؟ !!

يقول ابن اللبانة : فرددت ما بعث به عليه برأ به ، وشفقة عليه لكنه تألم وأرسل يعاتبني ، فاضطرت إلى قبولها ، وأرسلت إليه أبياتاً منها :

حَاشَ لِلَّهِ أَنْ أَجِيحَ كَسْرِيماً
يَتَشَكَّى فَقْراً وَقَدْ سَدَّ فَقْراً
وَكَفَانِي كَلَامُكَ الرُّطْبُ نِيلاً
كَيْفَ الْغِي دُرّاً وَأَطْلُبُ تَبْراً
أما عز الدولة الصمادحي فقد أثر اعتزال الناس ، وأبى مقابلة الشعراء ولقاءهم حتى لا يتعرض لمثل هذا الموقف، وكان يردد في منفاه حيث حل بمدينة بجاية في الجزائر هذه الأبيات : ^(٢)

لَكَ الْحَمْدُ ، بَعْدَ الْمُلْكِ أَصْبَحَ خَامِلاً
وَقَدْ أَصْدَأْتُ فِيهِ الْهُوَادَةَ مُنْصَلِي
بَأَرْضِ اغْتِرَابٍ لَا أَمْرٌ وَلَا أَحْلِي
كَمَا نَسِيتُ رَكْضَ الْجِيَادِ بِهَا رَجْلِي
وَلَا مِسْمَعِي يُصْغِي لِنَعْمَةِ شَاعِرٍ
وَكَفِي لَا تَمْتَدُّ يَوْماً إِلَى بَذَلٍ

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٩٦ - ٩٧ .

(٢) راجع ص ٣١٢ وما بعدها من هذا الكتاب .

أما أبو عيسى لبون بن عبد العزيز الذي سلب منه ملكه خُدعة وحيلة فقد راح يُردّد: (١)

خَلِيلِي ، مَا بَالِي عَلَى صِدْقِ نَيْتِي أَرَى مِنْ زَمَانِي وَنِيَّةٍ وَتَعَدُّرًا
وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي لِلْأَيِّ جَرِيْمَةٍ تَجَنَّبَنِي ، وَلَا عَنْ أَيِّ ذَنْبٍ تَغْيَرًا

أما الشعراء الآخرون فقد فجرت فيهم نكبة الفقر معاني الشكوى من قسوة الأيام، وجور الدهر، والتطلع إلى مراتب الغنى، وفي كثير من الأحيان يتذكر الشاعر أياماً عاشها في كنف ملك أو أمير أو وزير ذاق خلالها أفوايق السعادة، ثم ولت، فيتمنى لها أن تعود، ومن هؤلاء ابن دراج القسطلبي المتوفى سنة ٤٢١ هـ، وأحمد بن عبد الملك بن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦ هـ، وعبد الكريم القيسي الغرناطي المتوفى سنة ٨٩٨ هـ وغيرهم.

وأحياناً يفجر الإحساس بالفقر والفاقة في شعر الشاعر معاني الثورة على الأغنياء الأثرياء إلى درجة إعلان الحرب عليهم وتناولهم بألوان الهجاء خصوصاً إذا لم يجد منهم استجابة لا ستجدائه لهم ، وأوضح مثال على هذا النموذج الشاعر « أبو عامر بن الأصيلي (٢) » هذا الذي جاب الآفاق متكسباً بشعره، منذ خرج من مدينته وموطنه سرقسطة ولما لم يحصل على بغيته راح يكيل للبلاد التي خرج منها صفر اليدين ألوان السباب والهجاء وكذلك أهلها وتأمل قوله :

وَأَصْبَحْتُ فِي بِلَدَةِ أَهْلِهَا سَبَاعٌ لِأَهْلِ النَّهْيِ مُؤَذِيَةٌ
تَعَرَّضْتُ مِنْهَا بِأَرْضِي أَرَى أَفَاعِيلَ أَرْبَابِهَا مُلْهِيةٌ

وفي موقف آخر يعلن الثورة العارمة بعد أن تورمت قدماء من التجوال في بلاد الساحل مستجدياً ولم يخرج من تجواله بفائدة فإذا به يصرخ من أعماقه :

إِلَى أَيْنَ الْفِرَارُ وَلَا فِرَارُ وَمَنْ لِي بِالْقَرَارِ وَلَا قَرَارُ
أَرَى الْأَوْغَادَ يَعْتَمِرُونَ دَوْرًا وَمَالِي فِي بِلَادِ اللَّهِ دَارُ
إِذَا رَكَبُوا الْمَذَاكِي وَالْمَطَايَا فَمَرْكُوبِي عَلَى شَرَفِي حِمَارُ
أَجُولُ فَلَا أَرَى إِلَّا رَعَاعًا كِبَارُهُمْ إِذَا اخْتَبَرُوا صِغَارُ

(١) راجع ص ٢٦٥ وما بعدهما من هذا الكتاب . (٢) راجع ص ٣٥٨ وما بعدها من الكتاب .

والنماذج في شعره كثيرة، وقد عرضنا منها ما فيه كفاية في موضعها .

ولئن كان أبو عامر الأصيلي معلناً ثورته الشعرية على ممدوحيه الذين لم يعطوه حاجته، ولم يقتلوا بهياتهم فاقتة، فإن ابن دراج القسطلي قد طوّف حتى وجد بغيته عند منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة آنذاك، التي تركها أبو عامر الأصيلي لبحث عن الرزق في غيرها .. ولقد وقف ابن دراج القسطلي من منذر بن يحيى وابنه يحيى موقف الشاكر لهما المثني عليهما، المعترف بفضلهما، وهذه من المعاني التي ولدها الإحساس بالحياة بعد الضياع في دوامة الفقر ومما مدح به ابن دراج القسطلي صاحب الفضل عليه ما يلي (١) :

وَجَزَاءُ مَا آوَيْتَ وَحْشَ تَغْرِبِي	وَفَسَحْتَ رَوْضَكَ لَا رَتْقَاءَ سَوَامِي
وَبَسَطْتَ لِي وَجْهًا كَسَفَتْ بَنُورِهِ	كُـرْبَ الْبَلَاءِ وَخُلَّةِ الْإِعْدَامِ
وَوَجَدْتُ ظِلُّكَ بَعْدَ يَأْسِ تَقْلِبِي	وَطَنَ الرَّجَاءِ وَمَنْزِلَ الْإِكْرَامِ
فَكَأَنَّ وَجْهَكَ غُرَّةَ الْفِطْرِ الَّذِي	وَافَى بِفِطْرِي بَعْدَ طُولِ صِيَامِي

وفي غالب الأحوال عندما يتحدث الشاعر عن فقره وفاقتة يأتي حديثه واقعياً معبراً عن الحقيقة أصدق تعبير، ولذا ترى ألفاظ الشعراء وتعبيراتهم في مثل هذه المواقف مستمدة من واقع حياتهم، معبرة عن المعاني التي تناولوها في وضوح لا تعقيد فيه، وإن كنا نأخذ على أبي عامر الأصيلي مجافاته لحقيقة البلاد والعباد، فليس كل الناس تحولوا إلى أشرار بخلاء مقتربين لا يعرفون معنى الإحسان، فمن يقرأ شعره يتصور أن كل البلاد التي تناولها بالذم قد تحولت إلى مستودع للبخل والبخلاء وأنها أقفرت من المحسنين النبلاء، وعقمت فلم تلد واحداً من النجباء، ومن العجيب أنك تحس في شعره أنه حاسد لأصحاب النعم ناقم عليهم، وكان الأولى به أن يغبطهم على الأقل ..

ثالثاً : محنة الأسر والوقوع في قبضة الأعداء :

ليس أشق على المحارب الشجاع، ولا الفارس النبيل من وقوعه أسيراً في يد أعدائه،

(١) انظر الفتن والنكبات العامة للمؤلف الفصل السابع ص ٢٤٢ .

فبطن الأرض خير له من ظهرها، وشعار الفارس دائماً « المنيّة ولا الدنيّة » ولكن الظروف قد تكون قاهرة مما يوقع هذا الفارس أو ذاك في الأسر، وهذا لا يقلل من شجاعته وجراته، ولكن كما يقول أبو فراس الحمداني : (١)

أُسِرْتُ وما صَحْبِي بعزْلِ لَدَى الوغَى وَلَا فـ_____رْسِي مُهَرٍّ وَلَا رَبِّهِ غَمْرٌ
ولكن إذا حُمَّ القضاءُ على امرئٍ فليس له بَرٌّ يقيـه ولا بحرٌ

ومن فرسان الأندلس الذين وقعوا في أسر أعدائهم، وترك أسرهم بصماته على أشعارهم، الوزير الفارس هاشم بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٧٣هـ، وسعيد بن جودي المتوفى سنة ٢٨٤هـ، والوزير أبو بكر ابن عمّار المتوفى سنة ٤٧٧هـ، والملك الشاعر المعتمد بن عباد المتوفى سنة ٤٨٨هـ وأبو بكر بن سوار، والذي لم نعر على تاريخ وفاته.

والأسر كان يحدث نتيجة حروب تشب إما بين طائفتين عريبتين مسلمتين، أو بين المسلمين والنصارى، أو بين العرب والبربر لأن الفتن كما نعلم لم تتوقف في الأندلس منذ الفتح حتى السقوط بل كانت تكمن كمنون النار تحت الرماد في بعض فترات قوة الحكّام، وما أن تجد ثغرة ضعف حتى تشب مرة أخرى ... وليس لنكبة الأسر ومحنته سبب غير ذلك، وقد أصيب بها ١٤ ٪ من الشعراء المنكوبين .

أثر محنة الأسر في شعر الشعراء :

لقد أفرزت لنا محنة الأسر والوقوع في قبضة الأعداء بعد قتال ونضال كثيراً من معاني الاعتزاز بالنفس ، والفخر بمجالدة الأعداء قبل الوقوع في أسرهم، ونفي سمات الجبن والخور عن النفس ، وشرح الأسباب القاهرة التي أوقعت الفارس الشاعر في الأسر، ومثال ذلك ما جاء على لسان الفارس العربي سعيد بن جودي عندما وقع في أسر عمر بن حفصون إذ يقول : (٢)

لئن كنت مأخوذاً أسيراً وكنتماً فليسَ علي حَرْبٍ ولكنَ علي غَدْرٍ
ولو كنت أخشى بعضَ ما قد أصابني حمّتي أطراف الرُّدْيَةِ السُّمْرِ
فقد علمَ الفرسانُ أنّي كميها وفارسها المقدّامُ في ساعة الدُّعْرِ

(١) الأدب العربي وتاريخه تأليف : زكي سويلم وآخرين ص ١٦٩ . (٢) راجع ص ٥٢ من هذا الكتاب.

ومنه أيضا ما جاء في شعر أبي بكر بن سوار الأشبوني الذي وقع في أسر النصارى بعد معركة غير متكافئة ، حيث يقول : (١)

فَقُلْتُ لَهُمْ : خَيْلُ النَّصَارَى فَشَمَرُوا	إِلَيْهَا وَكُرُوا هَاهُنَا يَحْسُنُ الْكُرُّ
وَكَنتُ عَهْدْتُ الْحَرْبَ مَكْرًا وَخُدْعَةً	وَلَكِنْ مَعَ الْمَقْدُورِ مَا لِأَمْرِي مَكْرٌ
فَطَاعَتُهُمْ حَتَّى تَحْطَمَ الْقَنَا	وَضَارِبَتُهُمْ حَتَّى تَكْسِرَ الْبَتْرُ
وَأُحْدَقَ بِي ، وَالْمَوْتُ يُكْشِرُ نَابَهُ	وَمَنْظَرُهُ جَهَنَّمُ ، وَنَظَرُهُ شَرْ
فَأَعْطَيْتُهَا وَهِيَ الدِّنْيَةُ صَاغِرًا	وَقَدْ كَانَ لِي فِي الْمَوْتِ لَوْدِنِي عُذْرٌ

وفي هذين النموذجين ترى معاني الفخار والعزة ، فالوقوع في الأسر يأتي بعد تسجيل البطولات ، وإظهار الشموخ ، وهذه معانٍ فخمة ضخمة ، ولا بد أن تكون الألفاظ المعبرة عنها على نفس المستوى والقدر من الضخامة والفخامة ، ولك أن تتأمل في فخامة كلمات (الكمّي - الفارس المقدم - أطراف الردينية - وفعل الأمر كُرُوا ، والأفعال طاعتتهم ، وضاربتهم ، تحطمت ، تكسرت) ، وكلها ألفاظ قوية فيها حركة ظاهرة ، وحيوية ناطقة بارزة ، وتأمل كيف نجح كلا الشعاعين في تبرير وقوعه في الأسر ، فابن جودي أو قعه الغدر « فليس على حرب ولكن على غدر » ، وابن سوار أوقعه في الأسر عدم تكافؤ القوى « وأُحْدَقَ بِي » أي أحيط بي من كل جانب « والموت يكشر نابه » .. وبرغم ذلك لم يسقط أسيراً في يد النصارى إلا بعد أن صبغ ملابسه بدمائهم وكذا ملابسه ..

كما أن الصور البلاغية جاءت حية مثيرة للحماس كلية كانت على هيئة لوحات كما في الصورة التي رسمها ابن سوار فيها اللون ، والصوت ، والحركة فقد صور معركة تدور رحاها ، ورماح تتحطم من كثرة الطعن ، وسيوف تتكسر من قوة الضرب ، وأصوات ترتفع هنا وهناك ، ومثار نفع المعركة معقود فوق الرؤوس ودماء تسيل .. الخ .. الخ .. إنها الحياة التي لا هدوء فيها ، أو كانت الصورة جزئية كما في شعر سعيد بن جودي تقوم

(١) انظر ص ٣١٩ من الكتاب .

على التشبيهات والاستعارات والكنائيات . .

ومن المعاني التي أثارها محنة الأسر في نفوس بعض من امتحنوا بها التعبير عن التحول من حالٍ إلى نقيضها، ومن ذلك الإحساس بالضعف والهوان، بعد العز ورفعة المكان والإنسان، وهذه المعاني يصحبها إحساس بالمهانة خصوصاً إذا كان الأسير ليس مجرد فارس محارب في جيش ملك من الملوك أو أمير من الأمراء، بل هو الملك أو الأمير نفسه، وذلك كما حدث مع المعتمد بن عباد بعد أسره ووقوعه في قبضة يوسف بن تاشفين إذ كان يُردّد: (١)

تَبَدَّلْتُ مِنْ عِزِّ ظِلِّ الْبُنُودِ	بَذَلَ الْحَدِيدِ وَثَقُلَ الْقَيْدُ
وَكَانَ حديدِي سَنَاناً ذَلِيقاً	وَعَضْباً رَقِيقاً صَقِيلَ الْحَدِيدِ
فَقَدْ صَارَ ذَاكَ وَذَا أَدْهَمًا	يَعَضُّ بِسَاقِي عِضَّ الْأُسُودِ

وكان المعتمد بن عباد يفضل الموت على أن يبقى أسيراً مكبلاً بأغلاله وهو الذي كم أذلّ فرساناً صناديد ، وملوكاً أعزّة ، وكم جندل أبطالاً مغاوير، وقد جاءت تلك المعاني ، أقصد معاني تمني الموت وتفضيله على حياة الدلّ على لسانه عندما زاره الطبيب الوزير أبو العلاء بن زهر الإيادي، وعند انصرافه دعا له بطول البقاء فقال المعتمد:

دَعَا لِي بِالْبَقَاءِ، وَكَيْفَ يَهْوَى	أَسِيرٌ أَنْ يَطُولَ بِهِ الْبَقَاءُ؟
أَلَيْسَ الْمَوْتُ أَرْوَحَ مِنْ حَيَاةٍ	يَطُولُ عَلَى الشَّقِيِّ بِهَا الشَّقَاءُ ؟ !
أَرَّغَبُ أَنْ أَعِيشَ أَرَى بَنَاتِي	عَوَارِي قَدْ أَضَرَّ بِهَا الْحَفَاءُ ؟ !
خَوَادِمَ بَنَتْ مِنْ كَبَانٍ أَعْلَى	مَرَاتِبِهِ - إِذَا أَبْدُوا - النَّدَاءُ
وَطَرَدَ النَّاسَ بَيْنَ يَدَيَّ مُرَوِّرِي	وَكَفَّهُمْ إِذَا غَاصَ الْفَنَاءُ

ومعاني الألم والإحساس بالشقاء قد عبّرت عنها الألفاظ أصدق تعبير ، وقد

(١) راجع ص ٢٩١ وما بعدها من الكتاب .

استخدم المعتمد المحسنات استخداماً جيداً فكشف بها عن مقارنة بين حاله قبل الأسر، وحاله بعد الأسر، وهي مقارنة ضرورية ليكشف من خلالها مدى الانقلاب الواضح في حياته ...، وعندما أراد أن يكشف عن الألم الحسي الشديد صورَ عضَّ القيد في رجليه بعضُ الأسود، ولما رغب في إظهار الألم المعنوي بينَ لنا كيف تحول رجل شرطته وخادمه الذي كان يسعى بين يديه قبل الأسر إلى مخدوم من بناته الأميرات العقيلات الكريمات، وهذا واحد من بواعث شقائه، هذا الشقاء الذي دفعه إلى تمنّي الموت، وعبرَ عن دهشته من ابن زهر عندما دعاه، بطول البقاء « كيف يَهْوَى أسير أن يطول به البقاء ؟ !

رابعاً : محنة استلاب الملك خُدعة أو قهراً :

أصابَت هذه المحنة عدداً كبيراً في الأندلس خصوصاً في عصر ملوك الطوائف، هذا العصر الذي بدأت أحداثه إبان الفتنة البربرية في قرطبة، وكانت السمة المميزة له هي سطو ملوك الطوائف على بعضهم البعض، فمن كان يأنس في نفسه القوة منهم لم يكن يستحي من الوثوب على المملكة المجاورة وضمها إلى مملكته ليتوسع على حساب جاره وبلغت الدرجة بالبعض منهم أنه كان يستعين بالنصارى على إخوانه، كما أن من أسباب بروز تلك الظاهرة على الساحة أعني ظاهرة استلاب الملك تحركات النصارى لاسترداد الأندلس من المسلمين، فكم من مملكة من ممالك الطوائف سلبت من يد ملوكها بقوة السلاح النصراني حيناً وبغدرهم وخديعتهم وإثارتهم للفتن حيناً آخر، وسبب ثالث هو طمع ملوك شمال إفريقيا من المغاربة أمثال المرابطين، ثم الموحدين من بعدهم في ضم الأندلس إلى مملكتهم في المغرب ، وأخيراً الفتن والخلافات التي كانت تدبُّ بين أفراد البيت الواحد، كما حصل بين الحموديين في قرطبة وغيظها، وما حدث في بيت بني نصر بن الأحمر في غرناطة بعد ذلك ولكننا لم نرصد لذلك أثراً في شعر من ضاع ملكهم من يدهم إلا لخمسة فقط من الشعراء، ربما لأن الملوك والأمراء لم يكونوا جميعاً شعراء ، أو لأن معظمهم أخذ على غيرةٍ وانتهت حياته بالقتل فلم يسجل تجربته بنفسه شعراً .

وعلى كل فالشعراء الذين رصدنا تجربتهم الشعرية المعبرة عن محنة ضياع الملك

هم :

١- المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، ثم قرطبة وإشبيلية من بعد والذي اغتصب ملكه وحمله أسيراً مقيداً يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بالمغرب ، وقد ظل المعتمد في سجنه بمدينة أغمات بالمغرب أربع سنوات حتى توفي سنة ٤٨٨ هـ .

٢- أبو عيسى لبون بن عبد العزيز صاحب مريبطر المستبد بها من ابن ذي النون، وقد خدعه بعد ذلك عبد الملك بن رزين صاحب شنتميرية الشرق ومكره حتى سلبه ملكه بزعم أنه سيقطعه بدلاً منه ، ثم حدد إقامته بعد ذلك، وتحكم فيه كيف شاء فظل يعاني حتى وفاته مرارة الدل بعد عز الملك وصولجانه، وكانت وفاته سنة ٤٩٠ هـ .

٣- عز الدولة الصمادحي المتوفي سنة ٥٠١ هـ ، هذا الذي كان يعدّه أبو محمد المعتصم بن معن بن صمادح لتولي الملك من بعده، ولكن حملة يوسف بن تاشفين على ملوك الطوائف خيبت آماله ، بل نغصت على أبيه سكرات موته، إذ كان على فراش الموت حينما داهم رجال ابن تاشفين المرية فقال لما سمع جلبة الجند ، وقعقة السلاح « لا إله إلا الله، نغص علينا كل شيء حتى الموت !! »

وكان عز الدولة قد فر من المرية عملاً بوصية والده عندما تخايل وأنقذه من السجن، بل فر من الأندلس إلى بجاية بالجزائر في الشمال الإفريقي ورضي لنفسه حياة الدعة والخمول .. ولم تقم له قائمة بعدها حتى مات .

٤- ومن المنكوبين بضياح الملك اغتصاباً أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد، الذي كان والده يعدّه أيضاً لتملك قلعة يحصب أو كما كانوا يسمونها قلعة بني سعيد ، ولكن هجمة الموحدين بددت أحلام الوالد وولده ، وتسلب عليه عثمان بن عبد المؤمن الموحد وتخيّل حتى سجنه ثم تخلص منه بالقتل سنة ٥٩٩ هـ .

٥- يوسف الثالث المعروف بأبي الحجاج بن يوسف الذي ينتهي نسبه إلى يوسف بن نصر بن الأحمر، وهو سلطان من سلاطين غرناطة في القرن التاسع الهجري، وقد

سلبه ملكه وسلطانه أخوه محمد بن يوسف، ورمى به في غياهب السجن ، فظل يعاني من نكبته حتى وفاته سنة ٨١٩ على الأغلب وقيل سنة ٨٢٠ هـ . (١)

وهؤلاء الشعراء الذين نكبوا باغتصاب ممالكهم يمثلون ١٤٪ أربعة عشرة في المائة من مجموع الشعراء المنكوبين في الأندلس، والذين استطعنا رصد تجاربهم التي أثرت فيها النكبات من خلال قصائدهم الشعرية المتضمنة لتلك التجارب .

أثر نكبة استلاب الملك في شعر الملوك والأمراء :

لقد فاض شعر النكبة في أدب الملوك المخلوعين بالمعاني الكثيرة من أبرزها التغني بسابق الأمجاد مصوراً ما كان فيه من عز، وما عرف به من عظيم مكانة قبل محنته يصحب ذلك شكوى من الحاضر المؤلم، ومن ذلك قول المعتمد بن عباد (٢) :

أَصْبَحْتُ صَفْراً يَدِي مِمَّا تَجْـوُدُ بِهِ	مَا أَعْجَبَ الْقَدْرَ الْمُقْدُورَ فِي رَجَبٍ
ذُلٌّ وَفَقْرٌ أَدَا لَاحَةً وَغَنَى	نُعْمَى اللَّيَالِي مِنَ الْبُلُوى عَلَى كَثَبٍ
قَدْ كَانَ يَسْتَلْبُ الْجَبَّارَ مَهْجَتَهُ	بَطْشِي، وَيَحْيَا قَتِيلَ الْفَقْرِ فِي طَلْبِي
وَالْمَلِكُ يَحْرُسُهُ فِي ظِلِّ وَاهِبِهِ	غُلْبٍ مِنَ الْعَجْـمِ أَوْ شَمٍّ مِنَ الْعَرَبِ
فَحِينَ شَاءَ الَّذِي آتَاهُ يَنْزَعُهُ	لَمْ يَجِدْ شَيْئاً قَرَأَ السُّمْرَ وَالْقُضْبَ
وَتَأْمَلُ مَعِيَ تِلْكَ الْحَسْرَةَ الَّتِي تَفِيضُ بِهَا	كَلِمَاتِ الْمَعْتَمِدِ حِينَما يَقَارَنُ بَيْنَ مَاضِيهِ
الْمَجِيدِ، وَحَاضِرِهِ الْمَكْفَهَرِ الْمَلْبُدِ بَغِيومِ الدُّلِّ بِقَوْلِهِ : (٣)	

كُنْتُ حَلْفَ النَّدَى وَرَبِّ السَّمَاحِ	وَحَبِيبَ النُّفُوسِ وَالْأَرْوَاحِ
إِذْ يَمِينِي لِلْبَذْلِ يَوْمَ الْعَطَايَا	وَلِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ يَوْمَ الْكَفَاحِ
وَشِمَالِي لِقَبْضِ كُلِّ عَنَانٍ	يُقْحَمُ الْخَيْلَ فِي هَجَالِ الرِّمَاحِ
وَأَنَا الْيَوْمَ رَهْنُ أَسْرَرٍ وَفَقْرٍ	مُسْتَبَاحِ الْحِمَى مَهِيضِ الْجَنَاحِ

(١) الفصل السابع من كتاب « الفتن والنكبات العامة » للمؤلف .

(٢) راجع ص ٢٩١ وما بعدها من الكتاب .

(٣) راجع ص ٢٩١ وما بعدها من الكتاب .

وإن كان المعتمد بن عباد قد أكثر من الحديث عن ذكريات الماضي قارناً إياها بأحداث الحاضر المؤلمة إلا أنه ظل مستمسكاً بأنفته اللّخمية ، وعزّته العربية ، بينما نرى ملكاً مثل يوسف الثالث بن الأحمر يكثّر من البكاء الذي قد يصل أحياناً إلى درجة التّواح على ملكه المسلوب ، وسلطانه المقتصب ، ومن مظاهر نواحه قوله : (١)

أَبْعَدُونَا تَغَالِبًا أَبْعَدُونَا طَرَدُونَا مِنْ مُلْكِهِمْ طَرَدُونَا
سَلَبُونَا وَمَيْضَ الَّذِي قَدْ مُنَحْنَا مِنْ عَطَايَا جَزِيْلَةٍ سَلَبُونَا
خَلَفُونَا بَعْدَ الْيَمِينِ جَهَارًا وَيَحْتَمُّهُمْ مَالَهُمْ ، لِمَا خَلَفُونَا ؟!

وفي بعض الأحيان كان الشاعر يبكي ملكه المفقود مُصرّحاً بآسائه التام من استرجاعه ، لأنّ السالب الغاصب أقوى منه ، وليس إلى التغلب عليه سبيل ، ولذلك كان عز الدولة الصّمادحيّ يردّد دائماً في أسيّ وحسرة ويأس : (٢)

فَقَدْتُ الْمُسْرِيَّةَ أَكْرَمَ بِهَا !! فَمَا لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا سَبِيلُ
ومأ يثير الأسيّ والألم معاني الحسرة في شعر عزّ الدولة الصّمادحيّ وهو يقول : (٣)
وَقَدْ كُنْتُ مَتْبُوعًا فَأَصْبَحْتُ تَابِعًا لَدَى مَعْشَرٍ لَيْسُوا بِجَنْسِي وَلَا شَكْلِي ،
وَقَوْلِي مَسْمُوعٌ ، وَفِعْلِي مُحْكَمٌ وَهَا أَنَا لَا قَوْلِي يَجُوزُ وَلَا فِعْلِي

وقد يلجأ المنكوب إلى منافقة ناكبه وتملقه حرصاً على الحياة من ناحية ، واسترضاء له من ناحية أخرى أملاً في العفو وردّ الملك ، ولكن هيهات هيهات ، ومن ذلك ما كتب به أبو جعفر بن عبد الملك بن سعيد إلى والده وهو في سجن عبد المؤمن الموحديّ بعد أن سلبه ملكه ، واستولى على قلعة بني سعيد ، وفيه يحاول استرضاء الموحديّ الغاصب بقوله : (٤)

مَوْلَايَ إِنْ يَجِبْسُكَ خَيْرٌ خَلِيْفَةٍ فَبِذَاكَ فَخْرُكَ وَاعْتِلَاءُ الشَّانِ
فَالْجَفْنُ يَجِبْسُ نَسْرَهُ مِنْ غِبْطَةٍ وَالْمَرْهَفَاتُ تُصَانُ فِي الْأَجْفَانِ (٥)

(١) راجع ص ٢٦٨ من كتاب الفتن والنكبات العامة . (٢) راجع ص ٣١٢ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٣) راجع ص ٣١٢ وما بعدها من هذا الكتاب . (٤) راجع ص ٣٤٣ من هذا الكتاب .

أما أبو عيسى لبون بن عبد العزيز ، فقد كان على عكس أبي جعفر بن عبد الملك ، حيث إنه بعد أن أفاق من سكرة تلك الخدعة التي خدعه بها ابن رزين أعلن الثورة من خلال شعره ورفض القبول بالدُّل فراح يصرخ قائلاً : (١)

ذُرُونِي أَجْبُ شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا لَأَشْفِي نَفْسِي أَوْ أُمُوتَ بِدَائِي
فَلَسْتُ كَكَلْبِ السُّوءِ يُرْضِيهِ مَرِيضٌ وَعَظَمٌ ، وَلِكُنِّي عُقَابُ سَمَاءِ

وهكذا نرى أن محنة ضياع الملك قد فجّرت في شعر الملوك والأمراء المبتلين بها كثيراً من المعاني أشرنا إلى بعضها هنا وتناولنا أكثرها تفصيلاً عندما تحدثنا عن كل ملك منكوب على حدة في موضعه من هذا الكتاب .

وإذا كانت النكبة قد أثرت في مضمون الشعر ومحتواه ومعناه فإنها أثرت في ألفاظه وعباراته ، حيث تُحسُّ في حديث ذكريات الماضي ومقارنتها بالحاضر أن الألفاظ تقطر بالأسى والجسرة وعندما يتحدث الملك حديث البكاء والنواح كما حدث من يوسف الثالث تلمح في ألفاظه الذلة والهوان والإحساس بالدونية، وفي حالة تملق الغاصب ومناقضته ترى الألفاظ تنطق باللين وتغلف بالدبلوماسية الهادئة .

أما لحظة الثورة فالألفاظها تحمل معاني الرفض، وتنطق بالإصرار .. وجاءت الصور غالباً مساندة للألفاظ في إبراز المعاني ، حتى موسيقى الشعر نرى الشاعر منهم قد تخيّر النغم الموسيقي المناسب لمعانيه، وفي ظني أنه لا رأي له في ذلك إنما كان هذا يحدث بتلقائية تفرضها الظروف التي يعيشها الشاعر، ولكل وجهة .

خامساً : الابتلاء بمفارقة الأوطان :

أصيب بهذه النكبة عدد غير قليل من الشعراء في العصر الأندلسي وتعددت أسبابها، واشتد أثرها، فليس أصعب على المرء من مفارقة ملاعب الصبا، ومرايح الشباب، ومجتمع الأهل والأحباب، ولولا مكانة الوطن في قلب المواطن ما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم - يوم أن خرج مهاجراً من مكة إلى المدينة، ووجهه وجهه الشريف شطر

(١) انظر ص ٢٦٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

مكة ثم خاطبها قائلاً « والله إنك لأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت » .

ولمفارقة الأوطان أسباب منها :

١- الحكم على الشاعر بالنفي والتغريب من حاكم قوي بسبب تهمة توجه إليه مثل تهمة الرهق في الدين، أي : الإلحاد والزندقة، أو يعرف عن الشاعر الإغراق في الفسق والفجور لدرجة يخشى على أهل البلد منه، أو يطلق الشاعر لسانه للخوض في أعراض الناس بالهجاء المقدع، والسباب المفزع، فيحكم عليه بالطرد والتغريب عقوبة .

٢- استيلاء عدو غاصب على الوطن، وممارسة هذا العدو ضغوطاً على أهل البلد المستولى عليه لتغيير عقائدهم، أو لاستلاب أموالهم واستنزاف ثرواتهم، مما يدفع الكثيرين إلى الفرار من وجه هذا العدو الغاصب، وذلك كان يحدث كثيراً إبان حروب الاسترداد التي شنها النصارى بدون هوادة لاستعادة الأندلس .

٣- خوف الشاعر من بطش الحاكم، وإسراعه إلى الفرار من وجهه قبل أن يوقع به عقوبة يخشاها ويخاف إنزالها به، وهذا يجعل الشاعر يهيم على وجهه في الآفاق بحثاً عمّن يحميه ويأويه تاركاً وراء ظهره الوطن والأهل والأحباب .

٤- ندرة أبواب الرزق في وطن الشاعر، مما يجعله يضرب في مناكب الأرض، ويتحمل المخاطر والأهوال في سبيل البحث عن أبواب للرزق يحصل منها مالاً أو مكانة تضمن له الحياة الرغيدة .

ومن أشهر من امتحنوا بترك أوطانهم، ومفارقة ملاعب الصبا ومرايح الشباب، وملتقى الأهل والأحباب ، ومجتمع الرفاق والأصحاب الشعراء الآتية أسماؤهم بعد:

١- يوسف بن هارون الرمادي المتوفى سنة ٤٠٣هـ والذي حكم عليه الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر بالنفي والتغريب خارج قرطبة بسبب جرأته عليه، وذلك لفترة ثم عفا عنه وأعادته .

٢- أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القسطلبيّ المتوفّى سنة ٤٢١هـ والذي أخرجته من قرطبة فتنّتها البربرية المبيّرة ، بل وأحدثت في حياته تحولاتاً عجيّبة ، وألجأته إلى سؤال الملوك والأمراء ، ومدحهم تكسباً للعطاء .

٣- أحمد بن عبد الملك بن شهيد المتوفّى سنة ٤٢٦هـ ، وهو كزيميله ومعاصره ابن دراج ممن أخرجتهم فتنة قرطبة الرهيبة .

٤- أبو عبد الله بن الحنّاط الأعمى المتوفّى سنة ٤٣٧هـ والذي طرده من قرطبة على الأغلب هو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور لأن ابن الحنّاط أطلق لسانه للخوض في الأعراض ، واشتدت مضايقته لشاعر من الشعراء هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، حتى حكم عليه بالطرد من قرطبة عقيب انتهاء الفتنة البربرية فلجأ إلى الجزيرة الخضراء حيث عاش في كنف محمد بن القاسم بن حمّود .

٥- ومنهم أيضاً أبو الوليد بن زيدون الذي فرّ من سجن قرطبة الذي أودعه فيه أبو الحزم ابن جهور، ولجأ إلى إشبيلية حيث عاش في كنف المعتضد عباد حتى عفا عنه أبو الحزم ، وعاش فترة في خدمة أبي الوليد بن أبي حزم ولما تغيّر عليه ، وخشي ابن زيدون أن يسجنه فرّ مرة أخرى من قرطبة ، ولجأ إلى إشبيلية وخدم المعتضد بن عباد ، ثم ولده المعتمد من بعده ، وظل في خدمته حتى أدركته منيته سنة ٤٦٣هـ .

٦- أبو بكر بن عمّار المتوفّى سنة ٤٧٧هـ والذي طرده المعتضد عباد من إشبيلية لما خشي على ولده الأمير المراهق من عبثه وفجوره ولما تولى المعتمد الحكم أعاده إليها مرة أخرى واستوزره حتى كانت نكبته القاصمة عندما حاول التمرد على المعتمد ، وهجاه بقبح .

٧- أبو عبد الله بن الحدّاد الأندلسي المتوفّى سنة ٤٨٠هـ والذي طرده من المرية المعتمد ابن صمّادح بسبب مانمى إلى علمه أنه يُعرّض به في شعره ، وأنه يهجوّه وينعته بالبخل ، فلجأ إلى سرقسطة حيث عاش في كنف بني هود حتى عفا عنه المعتمد سنة ٤٦٤هـ بعد أربع سنوات من النفي والتشريد .

٨- أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري الكفيف، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ والذي خرج من وطنه القيروان مقهوراً بعد أن استولى البدو عليها وعاثوا فيها فساداً واستباحوها، وعبر إلى الأندلس وراح يطوف على ملوك الطوائف مادحاً متكسباً .

٩- عز الدولة الصّماذحي المتوفى سنة ٥٠١ هـ، والذي فرّ من المريّة ملك أبيه الذي كان ينتظر تنويجه ملكاً عليه بعد أن استولى عليها المرابطون إبان هجوم يوسف بن تاشفين على ملوك الطوائف، وقد لجأ عز الدولة إلى بجاية في الجزائر بشمال إفريقيا، وظلّ خاملاً حتى مات .

١٠- أبو بكر بن اللبانة المتوفى سنة ٥٠٧ هـ والذي تشردّ بعد أسر المعتمد بن عباد سنة ٤٨٤ هـ، ورزق بالوشاة الحاقدين الحاسدين كلما حلّ ببلد لما يعرفون عن شاعريته وامكانية استيلائه على قلب الحاكم أو الأمير ، فظل طريداً مشرداً من بلدٍ إلى آخر حتى مات .

١١- أبو القاسم بن عبد الملك بن سعيد المتوفى سنة ٦١٧ هـ في بلاد آسيا التي فرّ إليها من وجه عثمان بن عبد المؤمن الموحد الذي قتل أخاه أبا جعفر بن عبد الملك بن سعيد سنة ٥٥٩ هـ، وظل أبو القاسم شريداً طريداً حتى قتل أثناء هجوم التتار على بلاد بخارى وسمرقند .

١٢- أبو عامر بن الأصيلي شاعر جواب في الآفاق لم نعثر على تاريخ وفاته إلا أنه كان في أواخر عهد ملوك الطوائف وأخرجه من بلده سرقسطة الفقر والفاقة .

١٣- الوزير الشاعر عبد الملك بن محمد بن شماخ الغافقي، والذي لم يُعثر له على ترجمة سوى الإشارة إلى أنه أخرج من وطنه إشبيلية قهراً .

١٤- لسان الدين بن الخطيب الذي خرج من غرناطة بسبب غضب سلطانة عليه ولجأ إلى بلاد المغرب حتى تمكن منه خصومه وقتلوه سنة ٧٧٦ هـ بمدينة فاس . وهؤلاء الشعراء يمثلون ٣٩٪ تقريباً من الشعراء المنكوبين في الأندلس .

آثار نكبة مفارقة الأوطان في شعر أصحابها :

لقد تركت نكبة مفارقة الأوطان كغيرها من النكبات آثاراً واضحة في شعر من حلت بهم، فمن حيث مضمون الشعر نرى أنه قد اشتمل على كثير من المعاني والأفكار برز منها بصورة واضحة ما يلي :

١- الشكوى من متاعب الترحال من بلدٍ إلى آخر بعد الخروج من الوطن والتحول إلى حياة التشرد، وقد ظهر هذا المعنى في شعر كثير من الشعراء منهم أبو عمر أحمد بن دراج القسطلبي حيث يقول شاكياً ما ألمَّ به وبأولاده من متاعب الترحال : (١)

وبين ضلوعي بضع عشرة مُهْجَةً ظمأً إلى جدوى يدك حوائمُ
تَلْدُ اللَّيَالِي لِحَمَاهَا ، ودماءها، وطعمُ الليالي عندهنَّ علاقمُ
قطعتُ بهنَّ اللَّيْلَ ، واللَّيْلُ جامدٌ وخضتُ بهنَّ الآلَ ، والآلُ جاحمُ
إذا ملأَ الهولُ المِيسَتَ صدورها تحركَ من ذِكرِكَ فيها تَمائمُ

٢- التعبير عن بكاء الأحباب ونحيبهم عند رحيله، ووصف لحظات الوداع عند الفراق، ومن ذلك قول ابن الحنَّاط القرطبي : (٢)

فلله ســـــيرى يومٍ ودَّعتُ صحتي زماعةً ، ولمَّ أقرعُ على ندمِ سني
رحلتُ فكم من جُوزِرٍ وغَضنفرٍ يروى الثرى من فضلِ أدمعه الهـتنِ
وما عن قلبي فارقتُ تربةَ أرضكم ولكنني أشفقتُ فيها من الدفنِ

ومن هذا المعنى قول أبي الحسن الحصري الكفيف : (٣)

ودَّعتُ من أهوى بل استودعتُها قلبي وسرَّ مدامعي وزفيري
فبكتُ بنرجستين خفتُ عليهما نفسي فلم ألتئم بغير ضميري

(١) راجع الفصل السابع من كتاب الفتن والنكبات العامة للمؤلف .

(٢) انظر ص ١٣٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٣) انظر ص ٣٦٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

٣- البكاء على الأوطان والتشوق إليها، والإفصاح عن الحنين الجارف إلى ملاعب الصُّبا، ومرابع الشباب، وملتقى الأهل والأحباب، ومن ذلك قول بن الحنَّاط الأعمى : (١)

أرقتُ وقد غنىَّ الحَمَامُ الهَوَاتِفَ بمنعرج الأجزاءِ واللَّيلُ عاكِفُ
أعدنَ لي الشُّوقَ القديمَ وطافَ بي على النَّأيِ مِنْ ذِكْرِ المَليحةِ طائفُ
ومنه قوله ابن عَمَّار يتشوق إلى وطنه شَلَب ، كما يتشوق إلى إشبيلية التي طرده منها المعتضد عبَّاد بن عبَّاد :

ألا قاتلَ اللهَ الجيَادَ، فإنَّها نأتُ بي عن أرضِ العَلا والمكارمِ
أشَلَبُ ؟ ولا تنسَ أبَ عِبرةٍ مُشْفِقٍ !! وحمصٍ ؟ ولا تُعتادُ زَفرةَ نادمِ
كسَّاهَا الحَيَا بُردَ الشَّبابِ ! فإنَّها بلادُ بها عَقَّ الشَّبابُ تمائمِي
ومنها قول أبي القاسم بن عبد الملك بن سعيد ، وهو طريد في مدينة بخارى بعيداً عن الأهل والأحباب : (٢)

إذا هبَّتْ رِيَّاحُ الغُربِ طَارَتْ إليها مُهْجَتِي نحوَ التَّلَاقِي
وأحسبُ مِنْ تَرَكْتُ بِهِ يَلَاقِي إذا هبَّتْ صَبَّاهَا مَـا أَلَاقِي

٤- إجتراحُ الذكريات السعيدة أيام اللهو والسرور في منتديات الأوطان المُفارقة ، والساحات المهجورة، وهذا المعنى قد انتشر في شعر ابن زيدون إبَّان محنته وعندما خرج من قرطبة التي شهدت رياضها ساعات الوصل مع محبوبته ولأدة بنت المستكفي ومن ذلك قوله : (٣)

خَلِيْلِي لَا فَطَّرَ يَسْرُ وَلَا أَضْحَى فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مشوقاً كما أَضْحَى ؟
لَعَنَ شَاقِنِي شَرِقَ العُقَابِ ، فلمْ أزلْ أَخْصُ بِمَمْحُوضِ الهَوَى ذَلِكَ السَّفْحَا

(١) انظر ص ١٣٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) انظر ص ٣٤٣ وما بعدها من هذا الكتاب . (٣) انظر ص ١٥٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

مَعَاهِدُ لَذَاتٍ ، وَأَوْطَانُ صَبْوَةٍ ، أَجَلْتُ الْمُعْلَى فِي الْأَمَانِي بِهَا قَدَحًا
أَلَا هَلْ إِلَى الزُّهْرَاءِ أُوْبَةُ نَارِحَ ، تَقْضِي تَنَائِيَهَا مَدَامَعُهُ نَزْحًا

صالتصريح بفقد الثقة في الناس نظراً لكثرة الواشين الحاسدين الذين أسهموا في نكبة
الشاعر بالطرد من بلده ومن ذلك قول أبي عبد الله بن الحداد : (١)

وَزَهْدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ طَوَّلُ اخْتِبَارِي صَاحِباً بَعْدَ صَاحِبٍ
فَلِمَ تُرْنِي الْأَيَّامُ خِلَا تُسْرِنِي بَوَادِيهِ إِلَّا سَاءَنِي فِي الْعَوَاقِبِ
وَلَا صَبْرْتُ أَرْجُوهُ لِدَفْعِ مُلْصَمَةٍ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى النُّوَائِبِ

وتأمل قول لسان الدين بن الخطيب ، وهو في منفاه ببلاد المغرب : (٢)
تَلَوْنُ إِخْوَانِي عَلَيَّ ، وَقَدْ جَنَّتْ عَلَيَّ خُطُوبُ جَمَّةٍ ذَاتُ أُلْوَانِ
وَمَا كُنْتُ أَذْرِي قَبْلَ أَنْ يَتَنَكَّرُوا بِأَنْ خَوَانِي كَمَا أَنَّ مَجْمَعُ خَوَانِي
وَكَانَتْ ، وَقَدْ حُمَّ الْقَضَاءُ ، صَنَائِعِي عَلَيَّ بِمَالَا أَرْضَنِي شُرَّ أَعْوَانِي

٦- استعطاف الحاكم ملكا كان أو أميراً أو حاجباً لعله يسمح بعودة الشاعر المطرود إلى
وطنه مرة أخرى لأنه لا يطيق البعد عنه ، ومن ذلك قول ابن الحنات يستعطف أبا
الوليد بن جهور قائلاً : (٣)

يَا وَاحِدَ السِّدِّينِ وَالِدُنِيَا أَقْمِ زِلَالًا يَدْعُوكَ جَانِبُهُ أَنْ تَقْتَصِرَ أَوْ تَدَعَا
لَوْ أَنَّهُ أُعْطِيَ السِّدْنِيَا بِمَا رَحِبَتْ وَلَمْ يَنْلُ عَفْوَكَ الْمَأْمُولَ مَا قَنَعَا
وَمَا عَسَاكَ سِوَى الْإِحْسَانِ تَصْنَعُهُ إِلَى مُسِيئِي رَجَا عَتَبَاكَ فَارْتَجَعَا

٧- تمنّي العودة إلى الأوطان والموت فيها، ومن ذلك قول الحصري الكفيف : (٤)

مَوْتُ الْكَرَامِ حَيَاةٌ فِي مَوَاطِنِهِمْ فَإِنْ هُمْ اغْتَرَبُوا مَاتُوا وَمَا مَاتُوا
وهكذا نرى نكبة فراق الأوطان والبعد عنها قد ولدت كثيراً من المعاني في شعر

(١) انظر ص ٢٦١ وما بعدها من الكتاب . (٢) انظر ص ٣٧٥ وما بعدها من الكتاب .

(٣) انظر ص ١٣٣ وما بعدها من الكتاب . (٤) انظر ص ٣٦٥ وما بعدها من الكتاب .

الشعراء المنكوبين، وقد استعرضنا الكثير من تلك المعاني عندما تحدثنا عن تلك النكبة في مواضعها من مواقع الحديث عن الشعراء المنكوبين، وبيننا كيف أثرت في الألفاظ والتعبيرات وكذلك في اختيار الصور البيانية، والمحسنات البديعية، وتركت بصمتها على أدوات موسيقى الشعر من هندسة العبارة واتساق الألفاظ، وقوة إيحاءها بالحالة النفسية للشاعر والتي كانت في الغالب يغلفها الحزن والأسى، وتعبّر أيضاً عن الشوق المتقد في قلب الشاعر، والحنين الجارف للأهل والأحباب، وأرض الأوطان، وفي حديثنا عن موسيقى شعر مثل تلك النكبة لا ننسى اختيار الشاعر للنغم المناسب وهو ما يعرف بالوزن والقافية، وإن كنت أغلب دائماً أن الوزن والقافية تتحكم فيهما الحالة النفسية للشاعر، ومناسبة القصيدة وأنها أمور تحدث تلقائياً خصوصاً إذا كان الشاعر متمرساً على قول الشعر.

سادساً : نكبة فقد الولد ريحانة الحاضر وأمل المستقبل :

إن نكبة فقد الولد الذي هو ريحانة الحاضر، وأمل المستقبل، وفلذة الكبد ومهجة القلب، وزينة الحياة الدنيا قد أصيب بها عدد من الشعراء المنكوبين لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة وتبلغ نسبتهم ٩٪ تسعة في المائة من عدد الشعراء المنكوبين الذين رصدنا نكباتهم وآثارها في شعرهم .

ومن أبرز الشعراء الذين امتحنوا بفادحة فقد أبنائهم كل من :

١- أحمد بن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة ٣٢٨هـ وقد فقد في حياته اثنين من أبنائه أحدهما مات صغيراً دون العاشرة والثاني مات شاباً يافعاً بعد أن تلقى عدداً من العلوم العربية والشرعية، ونضج عقله، واستوى على سوكه .^(١)

٢- المعتمد بن عباد، القاسم المشترك الأكبر لكل النكبات، والذي يمكن أن نطلق عليه ملك النكبات، ولقد نكب بفقد عدد من أولاده منهم من قتل، ومنهم من غرق، ومنهم من مات طبيعياً مما ترك نفسه محطمة حزينة بائسة، وقد توفي المعتمد سنة ٤٨٨هـ .^(٢)

(١) انظر ص ٥٦ وما بعدها من هذا الكتاب . (٢) انظر ص ٢٩١ وما بعدها من هذا الكتاب .

٣- أبو الحسن الحصريّ الكفيف المتوفّى سنة ٤٨٨هـ وقد فقد ولده الوحيد ، وفلذة كبده الذي مات وهو في سنّ العاشرة فضاغ بموته أمل أبيه في أن يظل اسمه مردّداً بعد موته (١) .

٤- أبو بكر محمد بن قسوم المتوفّى سنة ٦٣٩هـ وقد نكب في ولده ووحيدة الذي كان يدّخره ليكون معيناً له في كبره (٢) .

الآثار التي خلفتها تلك النكبة في شعر أصحابها :

لقد ولدتْ مأساة فقد الولد الذي يشدُّ به ظهر أبيه معانٍ كثيرة تكررت في شعر كل من نكب بهذه النكبة ، وهذا يعطينا من ذكر نماذج معينة ويعطينا الحق في أن نحيل على ماسبق ذكره في المواضع التي تناولنا فيها الشعراء المنكوبين بهذه النكبة على صفحات هذا الكتاب والمهم أن نشير إلى أهم المعاني التي تولدت عن نكبتهم وهي :

١- التفجع وإبراز الحزن والأسى ، وتصوير هول الفجيعة وفداحة الخطب ، وعظم المصيبة ، وشدة وقع الكارثة .

٢- بيان الأثر المؤلم لرحيل الحبيب المفقود في دنيا أبيه وحياته وتصوير تلك الحياة بعد فقد الابن خربة مظلمة مكفهرة دائماً .

٣- بكاء الآمال الضائعة والتي كان ينتظر الشاعر تحقيقها على يد ولده لوامتدّ به العمر ، وبيان كيف تبدّدت بموته .

٤- تمنّي اللحاق بفقيده ، لأن الحياة بعده قد تغير طعمها وتبدّل حالها ، ولم يعد بعد يشعر لها بلذة ولا قيمة .

٥- ذكر محاسن الفقيد ، وتعدد مآثره التي كان يعرف بها ، وهذا المعنى بالذات كان الشعراء يبالغون فيه ويؤكدون عليه ، وكأنهم يضعون تبريراً مقنعاً لشدة حزنهم وغزارة دموعهم ، وكثرة بكائهم ، واستمرار ذكرهم لفقيدهم .

٦- شكوى الوحدة ، ومرارة الإحساس بها بعد رحيل الابن ، وتقدم السنّ بالأب ، حيث

(١) انظر الكتاب ص ٣٦٥ وما بعدها من هذا الكتاب . (٢) انظر ص ٤٠٩ وما بعدها من هذا الكتاب .

فقد يفقده المعاون والمساند .

٧- نفاذ الصبر، وعدم القدرة على تحمّل متاعب الحياة بعد الكارثة .

٨- التفاعل مع الطبيعة بطيرها، ومطرها، رعدھا، وبرقها والتأمل في سائر عناصرها، وتوظيف تلك العناصر لإبراز شدة حزن الشاعر، وإظهار الآلام التي تعتصر مہجته .

٩- مخاطبة الموت، وإشباعه عتاًباً ولوماً على إسرّاعه إلى الابن الحبيب وسرعة اختطافه وهو في عمر الزهور غالباً .

١٠- الدعاء لقبر الفقيد بالسّقيا ، وللميت بالرحمة والمغفرة ، والتذرع بالرضا بقضاء الله وقدره .

ومن الجدير بالذكر أننا تناولنا أربع تجارب لفقد الأبناء هي تجربة أحمد بن عبد ربه الأندلسي، وتجربة المعتمد بن عباد ثم تجربة الحصري الكفيف ثم أخيراً تجربة أبي بكر بن قسوم، ووجدنا أن تجربة ابن عباد كانت أقوى التجارب الأربعة، وأشدّها أثراً، وأكثرها إيلاماً، والسبب في هذا يرجع إلى الظروف والطريقة، والحال التي وقعت فيها النكبة، فابن عبد ربه وقعت نكبته في ظروف طبيعية جداً، ومات ولداه ميتة طبيعية بسبب المرض، وكان أحد ولديه طفلاً صغيراً، والآخر وهو يحيى كان شاباً في مقتبل العمر لم يتحمل مسؤولية بعد، والأب كان يحيا حياة طبيعية جداً فلا شيء ينغص عليه حياته، وكذلك نرى أبا الحسن الحصري الكفيف الذي بكى وأبكى قد فقد ولده وهو في سنّ الصبا لم يتجاوز العاشرة من عمره إلا بأشهر قليلة، وقد أراحه الموت من مرض شديد مؤلم قد أضرم نار الحزن في قلب أبيه خصوصاً عندما كان يحس بصرخات الألم الصادرة عن ولده، وكانت حياة الأب شبه طبيعية لا ينغصها إلا فقد لبعصره، وربما اغترابه عن وطنه وكذلك أبو بكر بن قسوم مات ابنه صغيراً وفي ظروف طبيعية، أما المعتمد ابن عباد فقد فقد أولاده في ظروف غير طبيعية بالمرّة فقد مات بعضهم قتلاً، ومات بعضهم غرقاً، بل لقد قتل أحدهم أمام عينيه أثناء هجوم رجال ابن تاشفين على قصره في قرطبة وحزّت رأسه وفصلت عن جسده، وطاف قاتلوه بالرأس شوارع المدينة،

هل هناك أقسى لحظة على قلب أبٍ من تلك اللحظة !؟

ومات معظم من مات من أولاد المعتمد وهو رهين محبسه في أسر ابن تاشفين حيث سجنه مكبلاً بأغلاله في مدينة أغمات بالمغرب ولذلك نرى المعتمد في تجربته لم يتوقف عند مجرد إظهار حزنه على أولاده، ولا ذكر مناقب كل واحد منهم ولا محاسنه، ولا الشكوى من مرارة الوحدة بعدهم كما فعل كل من ابن عبد ربه قبله، وأبي الحسن الحصري بعده ثم ابن قسوم أخيراً، بل نرى المعتمد وقد بكى وأبكى الوجود بأسره من حوله، أبكى الطيور في أعشاشها، والنجوم في سمواتها، والكواكب في مجراتها، وجعل المطر المنهمر مظهراً من مظاهر حزن الطبيعة على قتلاه أو موتاه، ولم ينس ما هو فيه من نكد الأيام فمزج تجربة الحزن لفقد ملكه وإذلاله بعد عزه بتجربة حزنه على فقد أولاده، وأشرك معه في حزنه أهل بيته : الأم الشكلى، والأخوات الحزينات فأقام بذلك مأتماً اشترك فيه الإنسان والحيوان والجماد وكل عناصر الطبيعة، ولذلك جاءت تجربته أشد حزنًا، وأعظم بلاءً ولنعرض قليلاً من شعر المعتمد في تجربته هذه لنرى كم كانت قاسية .

يقول المعتمد في رثاء ولديه الفتح ويزيد : (١)

يعيدُ على سمعي الحديدُ نشيدهُ	ثقيلاً فتبكي العين بالجسِّ والنقرُ
مع الأخوات الهالكات عليكما	وأُمكما الشكلى المضرمة الصدرُ
فتبكي بدمع ليس للقطر مثله	وتزجرها التقوى فتصغي إلى الزجرِ

ويقول في نهاية بكائية أخرى : (٢)

مَنِّي السَّلامُ ومنْ أُمِّ مَفْجَعَةٍ	عليكمَا أبدأ مثنى ووحداًنا
أَبْكِي، وَتَبْكِي، وَنُبْكِي غَيْرَنَا أَسْفَاً	لدى التـذكرِ نسواناً وولداًنا

ومن خلال النظر في التجارب الأربع نرى أن ابن عبد ربه الأندلسي قد بالغ مبالغة زائدة عن الحد عندما أراد أن يذكر مناقب ولده يحيى حيث ارتقى به إلى مراتب كبار

(٢) انظر ص ٢٩١ وما بعدها من هذا الكتاب .

(١) انظر ص ٢٩١ وما بعدها من هذا الكتاب .

علماء التابعين وسادتهم ،و هو الشاب الصغير الذى لم يتجاوز العشرين إلا بقليل وذلك بقوله :

لَمْ نُزْهِ لَمَّا رُزِينَا وَحَدَّ وإن استقلَّ به المنونُ وحيداً
لكن رزينا القاسم بن محمد في فضله والأسود بن زيدا
وَأَبْنَ الْمَبَارِكِ فِي الرِّقَائِقِ مُخْبِراً وأبْنَ الْمَسِيبِ فِي الْحَدِيثِ سَعِيداً
وَالْأَخْفَشِينَ فَصَاحَةً وَبَلَاغَةً والأعششين روايةً ونشيداً

فابن عبد ربه قد شبه ولده يحيى بكل هؤلاء .. القاسم بن محمد بن أبي بكر والأسود بن يزيد النخعي عالم الكوفة ،و عبد الله بن المبارك المحدث الفقيه وعالم العربية، وسعيد بن المسيب سيد التابعين، والأخفشين في البلاغة والتفسير والنحو، والأعشيين في الرواية ... !!

وقد أشرنا إلى سبب وقوع ابن عبد ربه في مثل هذه المبالغة ، ألا وهو شدة اعتزاز الأب بولده، وبيان عظيم الآمال التي كان يتمنى أن تتحقق على يد ولده لو لم يختطفه الموت ..

ومن بين ثنايا نكبة فقد الأولاد تطل علينا تجربة برزت في شعر تلك النكبة لدى كل من ابن عبد ربه الأندلسي وأبي الحسن الحصري الكفيف وهي تجربة عجز الأب أمام مرض وليده وذلك بعد أن عجز الطب، وناهيك عن أب يقف أمام فراش ولده المريض مرض الموت حزينا لأنه لا يقدر على فعل شيء لإنقاذه، وبالتأمل في التجريبتين نرى أن ابن عبد ربه عندما شعر بالعجز أمام مرض ولده وبعد أن عجز الطبيب ابن مسلم عن وصف دواء نافع ، لم يجد الأب أمامه سوى اللجوء إلى الله بالتضرع والدعاء فهو سبحانه القادر على كل شيء .. وسجل ذلك بقوله : (١)

بُنِيَ لَعْنُ أَعْيَا الطَّبِيبِ ابْنَ مُسْلِمٍ ضُنَّاكَ وَأَعْيَاذَا الْبَيَانَ الْمُسْجِعِ
لَأُبْتَهَلْنَ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ بِدَعْوَةٍ مَتَى يَدْعُهَا دَاعٍ إِلَى اللَّهِ يَسْمَعِ

(١) انظر ص ٥٦ وما بعدها من هذا الكتاب .

يَقْلِقُ مَا بَيْنَ الصُّلُوعِ نَشِيجَهَا لَهَا شَافِعٌ مِنْ عِبْرَةٍ وَتَضْرُعُ
إِلَى فَارِجِ الْكَرْبِ الْمَجِيبِ لِمَنْ دَعَا فَرَعْتُ بِكَرْبِي إِنَّهُ خَيْرٌ مَفْزَعُ
فِيَا خَيْرَ مَدْعُو دَعْوَتِكَ فَاسْتَمِعْ وَمَالِي شَفِيعٌ غَيْرَ فَضْلِكَ فَاشْفَعْ

بينما وقف الحصري وهو الأب الضرير الذي كَفَّ بصره أمام ولده المعنى وراح يصف بعين البصيرة مالم يستطع ابن عبد ربه وصفه بعين البصر .. نعم وصف الحصري الكفيف معاناة ولده، وحاله على فراش المرض وصفا لو استطاع رسام أن يعبر عنه بريشته وألوانه لنقل لنا صورة قاتمة حزينة باهتة الألوان وهي الصورة الكلية التي رسمها الشاعر بشعره حين قال : (١)

ذَوِي رِيحٍ _____ إِنِّي الْأَرْجُ وَضَاقَ _____ خَلِّي الْفَرَجُ
ذَبِيحٌ طَلَّ مِنْهُ دَمٌ وَلَمْ يَقْطَعْ لَهُ وَدَجٌ
رَأَيْتُ دَمَاءَهُ وَدَمًا عَيْنِي كَيْفَ تَمْتَزِجُ
تَرْفُقُ يَا سَقَامُ بِهِ أَبْعَدَ الْمُسْتَوَى عَمَّوَجُ ؟ !

فالابن ريحان أرج نضر قد ذوى وذبل واصفرَّ لونه، وضاق به الدنيا فلم يجد من مرضه مخرجاً، وراح ينزف دماً فهو ذبيح لم يذبح ولم يقطع مجرى الدم منه وهو الودج، وامتزجت دماؤه بدماء عين أبيه الحزين الباكي، ولا وسيلة إلا طلب الترفق بولده (ترفق ياسقام به) وهو طلب على سبيل التمني لا أكثر ولذا نقول : إن الحصري قد استوفى جوانب الصورة بالوصف الدقيق المعبر عن كل أجزائها وعناصرها الصوت واللون والحركة ومن هنا كانت تجربته أكثر فاعلية من تجربة ابن عبد ربه .

وخلاصة القول : إن تجربة فقد الولد قد تركت أثراً واضحاً ملموساً في شعر أصحابها، ولا ننسى أن نؤكد على أن مثل هذه النكبة كانت أقوى أثراً من غيرها، وأصدق عاطفة وأفضل تعبيراً وتصويراً ، لأنها تهز قلب الأب من الأعماق .

(١) انظر ص ٣٦٥ من هذا الكتاب وما بعدها .

سابعاً : محنة فقد الأحباب والأصدقاء :

ما من شاعر إلا وامتنحن بفقد حبيب أو صديق، وبكياه ورثاه ولكن هل كل الشعراء تحوّل عندهم الأمر إلى نكبة راح يعاني من آثارها، ويجسد هذه المعاناة في شعره ؟

والجواب : ليس كل الشعراء كذلك، بل الغالب أن يكون رثاء الشاعر لصديق رحل، أو لصاحب فقد ، أو لحبيب اخترمه الأجل مجرد مجاملة يظهر خلالها حزنه على الفقيد، ويذكر بعض محاسنه ومناقبه وبمرور الأيام يسلو ويتعزى

ولكن ابن خفاجة أبا اسحق ابراهيم بن أبي الفتح عبد الله بن خفاجة الأندلسي المتوفى سنة ٥٣٣هـ تحوّل عنده التجربة إلى نكبة ومحنة راح يعاني منها ، ولا أكون مغالياً إذا قلت : إنه الشاعر الوحيد الذي تحوّل عنده تجربة فقد الأحباب والأصحاب والأصدقاء واحداً بعد الآخر إلى محنة ونكبة ، ولذا راح يبكي بصدق هؤلاء الراحلين ، ويرثيهم رثاء منكوبٍ مكلومٍ الفؤاد بسبب رحيلهم عن دنياه، وراح يشكو مرارة الوحدة من بعدهم ..

وقد ولدت عنده تلك المحنة الكثير من المعاني في شعره، بل أثرت في شعره ، وهو الذي كم وصف الطبيعة من حوله، وتحدث عن مجالس الطرب والسعادة والسرور .

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن ابن خفاجة قد جسّد ملامح الرومانسية في الشعر قبل أن يبرزها من ادّعوا أنهم مكتشفوها من المستشرقين وأتباعهم .

والآن ما أثر نكبة فقد الأحباب و الأصحاب في شعر ابن خفاجة ؟

لقد تركت نكبة ابن خفاجة في أحبابه آثاراً واضحة في المضمون والمعاني، والشكل العام للشعر .

أما من حيث المضمون فقد تضمنت قصائد رثاء هؤلاء الأحباب والأصحاب الكثير من المعاني والأفكار ، فعقب سيل عارم مدمر حوّل الديار بلقعا ، وقضى على كثير من الخلائق بينهم بعض أحباب ابن خفاجة وأصحابه، وقف يبكي أحبابه قائلاً : (١)

أَكْرُ بِطَرْفِي فِي مَعَاهِدِ فِتْيَةٍ ثَكَلَتْهُمْ بَيَضُ الْوُجُوهِ شَبَاباً

(١) انظر ص ٣٢٧ وما بعدها من الكتاب .

فَطالَ وقوفي بينَ وجدٍ وفرقةٍ
وأَمْحو جَميلَ الصبرِ طوراً بغيرِ
وقَدْ دَرَسَتْ أَجسامَهُم وديارَهُم
وحسبي شجواً أنْ أرى الدارَ بلقماً
أناذي رسوماً لا تحير جواباً
أخطُ بها في صفحتي كتاباً
فلم أَرَ إلاَّ أعظماً ويباباً
خلاءً وأشلاء الصديق تراباً

وقد بكى صديقه ، ورفيق صباه وشبابه الوزير محمد بن ربيعة ، كما بكى ابن أخته الذي مات غريباً في أغمات ببلاد المغرب ، وبكى صاحباً له مات في إشبيلية وبلغه نعيه ، وكان ابن خفاجة صادقاً في حزنه ، ولم يكن حزنه حزن مجاملة مؤقتة .. وقد حللنا الكثير من شعره في موضعه من هذا الكتاب ، وسجلنا وجهة نظرنا فيه ، ونقدنا له ، ومنعاً للإطالة نحيل على هذا الموضوع ^(١) .

ثامناً : نكبة تحاشي الناس معاملة الشاعر :

هذه النكبة أصيب بها شاعران ، الأول : يوسف بن هارون الرمادي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، وذلك عندما نفاه الحاجب المنصور بن أبي عامر خارج قرطبة ، ثم عفا عنه ، وخفف العقوبة إلى الأمر بعزله عن الناس ، وأمر الناس بعدم التعامل معه نهائياً وتحاشي الاتصال به .

والثاني : هو أبو القاسم البلوي الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، والذي تجنبه الناس بسبب تشاؤمهم منه ، وذلك لإصابة كل من عمل معهم بالكوارث المتلاحقة ..

وكلا الشاعرين قد سجل تجربته باقتضاب ، ربما فرضته عليه حالة الاكتئاب النفسي التي كان يمر بها ، فالأول سجلها في خمسة أبيات عندما زاره أهله في منفاه ، وعزموا على الرحيل فتمنى ألا يرحلوا ، وراح يلتمس السبل لمنعهم من الرحيل حتى لا يعود إلى معاناته ..

والثاني راح يشكو من حالته التي آل إليها أمره ، واتهم الناس جميعاً بأنهم مصابون لا يصلح أحدهم أن يكون صديقاً يثث شكواه وأعلن عن يأسه من الأنام جميعاً ، ولم

(١) انظر ص ٣٢٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

يجد له ملجأ إلا الكتاب يزجي به وقته ..

وكانت تجربة أبي القاسم البلوي الإشبيلي أشدّ قسوة من تجربة الرمادي .. واستطاع الإشبيلي أن يبين أثر نكبته عليه في بيت واحد ضمن رسالة نثرية أرسل بها إلى صديق له يسأله المعونة هذا البيت هو: (١) .

عِنْدِي مِنَ الْحُزَنِ مــــالٍ أَنَّ أَيْسَرَهُ يُلْقَى عَلَى الْفَلَكَ الدَّوَارِ لَمْ يَدْرِ

تاسعاً : النكبة العاطفية :

هذه النكبة التي تمثلت في هجر المحبوبة للشاعر بسبب ظهور منافس قوي له في حبها غالباً ، أو بسبب غضبها منه ، وإعراضها عنه .. وقد أصابت شاعرين من شعراء الأندلس : الأول منهما : هو أبو الوليد بن زيدون الذي نكب بهجر محبوبته ولادة بنت المستكفي له ، واتجاهها إلى غريمه ومنافسه ابن عبدوس .

وقد ظل ابن زيدون يعاني من تلك النكبة حتى تقدمت به السن ، ووافته منيته سنة ٤٦٣ هـ في مدينة إشبيلية أيام المعتمد بن عباد . والثاني منهما : هو أبو جعفر بن عبد الملك بن سعيد المتوفى سنة ٥٥٩ هـ والذي نكب عاطفياً بسبب هجر محبوبته حفصة الركونية واتجاهها إلى غريمه في حبها ، ومنافسه في غرامها عثمان بن عبد المؤمن الموحيدي .

ومن خلال دراستنا للتجربتين وجدنا أن المحنة العاطفية قد ساقط كلا الشاعرين إلى محنة أشد وأقسى ، أما ابن زيدون فقد تسببت نكبته العاطفية في إعلان الحرب على غريمه ابن عبدوس ، مما دفع الثاني إلى الردّ عليه بقوة وبأسلوب خبيث ، حيث سعى فيه عند أبي الحزم بن جهور ، ونفث في روعه أن ابن زيدون خائن له ، ومتآمر عليه وظل يوالي سعيه حتى أمر أبو الحزم بالقبض على ابن زيدون ومحاكمته .

ثم نكبه بالسجن .. ثم فرّ ابن زيدون من سجنه وزادت معاناته بينما ساقطت النكبة العاطفية أبا جعفر بن عبد الملك إلى الفرار من غرناطة ، ثم قبض عليه ، وحبسه غريمه

(١) راجع ص ٣٥٤ وما بعدها من هذا الكتاب .

عثمان بن عبد المؤمن لأنه كان أقوى من غريم ابن زيدون، وكان بيده الأمر والنهي ثم لفق إليه تهمة الخيانة والتآمر لاسترداد ملك أبيه وانتهى الأمر بقتله .. والسبب الحقيقي للقتل معروف وهو المنافسة في الحب والغرام .

ومن العجيب أن ابن زيدون ملأ الدنيا بآثار نكبته العاطفية ، وكتب أروع القصائد التي فاض بها ديوانه، و ما ذلك إلا لأن الحياة قد طالّت به بعد هجر محبوبته له أكثر من ثلاثين سنة بل إن شئت فقل : أربعين سنة ، واجتمع عليه مع الهجر ألم الغربة والبعد ممّا زاد وجدانه تأججاً واشتعالاً ، بينما لم نعثر فيما وصلنا من شعر أبي جعفر بن عبد الملك عن أي أثر لتلك النكبة ربما لأن الفترة بين ما حدث من الهجر وبين مقتله كانت قصيرة جداً لا تتعدى شهوراً عاشها أبو جعفر مطارداً من رجال عثمان بن عبد المؤمن حتى قبضوا عليه، ولم يلبث في السجن إلا قليلاً ثم قتل على يد غريمه .

وقد تحدثنا عن نكبة ابن زيدون العاطفية، وكشفنا أثرها في شعره في الفصل الثالث من هذا الكتاب ^(١) حديثاً مستفيضاً فيه كفاية تغني عن التكرار .

(١) انظر ص ١٥٣ من الكتاب .

كلمة أخيرة خاتمة

من خلال ماسبق نستطيع أن نقول : لقد ثبت من خلال البحث والدرس، وعبر رحلة طويلة قطعناها بين نكبات أملت بأكثر من خمسة وثلاثين شاعراً من شعراء الأندلس ما يلي :

أولاً : تعددت الفتن والنكبات التي أملت بالكثيرين من الشعراء وتلونت أشكالها، وكان ذلك مرجعه كثرة الاضطرابات والفتن والتقلبات في الأندلس من الفتح وحتى السقوط الأخير في القرن التاسع الهجري .

ثانياً: هناك شعراء اجتمعت عليهم أكثر من نكبة، ومروا بأكثر من محنة ربما مجمعة أو متتالية واحدة بعد الأخرى، وعلى سبيل المثال لا الحصر نقول : إن أبا المخشي عاصم بن زيد امتحن بالسجن، ثم سمل عينيه وقطع طرف لسانه، ويوسف بن هارون الرمادي سجن، ونفي، وحكم بعزله عن الناس وعزل الناس عنه، وابن زيدون نكب عاطفياً، وسجن، وفرّ فعاش منفياً، وناهيك عن المعتمد بن عباد الذي أسر وسجن، وضاع ملكه، وقتل بعض أولاده .. وهكذا نرى تلون الفتن، وإلمام أكثر من فتنة أو نكبة بشاعر واحد.

ثالثاً : تركت هذه الفتن والنكبات آثارها في شعر الغالبية العظمى من الشعراء الذين

حلّت بهم، وقد ظهرت تلك الآثار في مضمون الشعر ومحتواه، وفي صوره وأساليبه وموسيقاه، كما كان لها أثرها في اتجاهات الشاعر، فقد أحدثت تحوُّلاً في اتجاهات بعض الشعراء، كما حدث مع ابن شهيد وابن دراج القسطليّ، وابن عمّار الأندلسيّ، وأبي بكر بن اللبّانة وغيرهم من الشعراء الذين شغلّتهم نكباتهم عن كثير من الأمور .

رابعاً : بعض الشعراء لم يتمكن من تسجيل تجربته بدقة تامة ربما لأن الاكتئاب النفسي حال دون ذلك كما حدث مع يوسف الرماديّ في منفاه، وأبي القاسم الإشبيلي في معتزله عن الناس أو لأن الفترة الزمنية بين النكبة والوفاة قصيرة جداً فلم تسمح الظروف بتسجيل آثارها شعراً ، وربما ضاع شعر بعض الشعراء فيما ضاع من شعر الأندلس إبان الفتن والنكبات المتعددة ومن شعر هؤلاء شعر أبي جعفر ابن عبد الملك بن سعيد وغيره .

خامساً : اشترك بعض الشعراء في محن ونكبات متشابهة في الظروف والأحوال، وأساليب وقوعها، ولكن القدرة على تسجيل التجربة تفاوتت من شاعرٍ إلى آخر حسب ما توافر لدى كل شاعر من قدرات فنية، كما حدث في محنة فقدّ الأولاد عند كل من ابن عبد ربه الأندلسيّ، والمعتمد بن عباد، والحصري الكفيف وابن قسّوم، وكما حدث في النكبة العاطفية بين ابن زيدون وأبي جعفر ابن عبد الملك وما حدث في محنة أبي بكر بن عمار بين يدي المعتمد، وأبي جعفر بن عطية بين يدي عبد المؤمن بن علي الموحدي، وغيرهم .

سادساً : نجح كثير من الشعراء المنكوبين في توظيف عناصر الطبيعة من حولهم لإبراز معاني المحنة والنكبة في أشعارهم، وهؤلاء كثيرون من أبرزهم المعتمد بن عباد، والشاعر الوصّاف ابن خفاجة الأندلسي وابن شهيد، وابن دراج القسطليّ، وأبو بكر بن اللبّانة .

سابعاً : هناك شعراء أذلتهم المحن والنكبات ، فأصابهم الصَّغَارُ وأملت بهم الضعة أمام نكباتهم أمثال : جعفر المصحفي وابن عمَّار الأندلسي، ومحمد بن مسعود البجاني، وابن غصن الحجاري وأمثال هؤلاء جنحوا إلى المبالغة الشديدة في الاستعطاف والاسترحام بصورة نزلت بهم إلى درك العبودية الذليلة، وعلى النقيض منهم هناك فئة من الشعراء صمد أصحابها أمام نكباتهم، وظلُّوا متمسكين باعتزازهم بأنفسهم ، مترفعين عن الوضاعة حتى الموت، ومنهم الوزير هاشم بن عبد العزيز، وسعيد بن سليمان بن جودي، والمعتمد بن عباد وغيرهم .. وظهر أثر ذلك في شعر الفريقين .

وأخيراً أسأل الله أن أكون قد وفقت في تحقيق الغرض من البحث عبر هذه الفتن المدلهمة، والنكبات الملمة، وهو الكشف عن أثرها في شعر الأندلسيين، ولعلي قد وفَّيت بالعهد والوعد والله المستعان .

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وأصحابه

وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين .

المؤلف

دكتور / فاضل فتحي والي

الاستاذ المساعد بكلية المعلمين بحائل

حائل فى : ليلة الأربعاء ١٩ من ذي القعدة سنة ١٤١٥هـ

الموافق ١٩ من ابريل سنة ١٩٩٥ م .

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

« المراجع والمصادر »

- ١- ابن خفاجة الأندلسي : د. حسين نور الدين - دار الآفاق بيروت .
- ٢- ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس : عبد الرحمن جبير - دار الكتب العلمية بيروت .
- ٣- ابن زيدون : د. شوقي ضيف - دار المعارف بمصر .
- ٤- ابن زيدون وشعره : د. محمد السعدي فرهود - مطبعة الرسالة بمصر .
- ٥- الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب - نشر الأستاذ عنان بمصر
- ٦- أخبار وتراجم أندلسية : ت . د . احسان عباس - دار الثقافة بيروت
- ٧- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس : فايز عبد النبي فلاح - دار البشير الأردن .
- ٨- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : د. أحمد هيكل - دار المعارف بمصر .
- ٩- الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنونه) : د. مصطفى الشكعة - دار العلم للملايين بيروت .
- ١٠- الأدب العربي في الأندلس : د . عبد العزيز عتيق - دار النهضة العربية بيروت .
- ١١- الأدب العربي وتاريخه : زكي سويلم وآخرون - مطبعة عاطف بمصر .
- ١٢- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض : شهاب الدين أحمد المقري - مطبعة مصر.
- ١٤- الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري : د. قاسم الحسيني - الدار العالمية بيروت .
- ١٥- الفتن والنكبات العامة وأثرها في الشعر الأندلسي : د. فاضل فتحي والي - دار الأندلس بحائل .
- ١٦- أمراء الشعر في العصر العباسي : د. أنيس المقدسي - دار العلم للملايين بيروت.
- ١٧- أندلسيات : عبد الرحمن علي الحجي - دار الإرشاد بيروت .
- ١٨- البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب : ابن عذاري المراكشي - مكتبة صادر بيروت .
- ١٩- تاريخ الأدب العربي : د. عمر فروخ - دار العلم للملايين بيروت .

- ٣٠- تاريخ الأدب العربي في الأندلس : الشيخ إبراهيم أبو الخشب - دار الفكر العربي القاهرة .
- ٣١- تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان - دار المعارف مصر .
- ٣٢- تاريخ الأدب الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين : يوسف أشياخ - مؤسسة الخانجي القاهرة .
- ٣٣- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) : د. احسان عباس - دار الثقافة بيروت .
- ٣٤- تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف والمرابطين : د. احسان عباس - دار الثقافة بيروت .
- ٣٥- التكملة لكتاب الصلة : ابن الأبار - نشر عزت العطار الحسيني .
- ٣٦- حضارة العرب في الأندلس : ليفى بروفنسال ، ت ذوقان قرقوط - مكتبة الحياة ببيروت .
- ٣٧- دراسات في الأدب الأندلسي : د. إحسان عباس ، د. وداد القاضي ، د. البير مطلق - الدار العربية للكتاب ليبيا .
- ٣٨- دراسات في الأدب العربي وتاريخه : محمد عبد الغني حسن - الدار القومية للطباعة والنشر مصر .
- ٣٩- دول الطوائف منذ قيامها وحتى الفتح المرابطي : محمد عبد الله عنان - دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع مصر .
- ٣٠- ديوان ابن خفاجة الأندلسي : تحقيق مصطفى غازي - منشأة المعارف الاسكندرية .
- ٣١- ديوان ابن زيدون : تحقيق حنا الفاخوري - دار الجيل بيروت .
- ٣٢- ديوان ابن زيدون : تحقيق محمد سيد كيلاني - البابي الحلبي مصر .
- ٣٣- ديوان ابن زيدون : شرح د. يوسف فرحات - دار الكتاب العربي بيروت .
- ٣٤- ديوان ابن عبد ربه الأندلسي : ت د. محمد التونجي - مؤسسة الخافقين دمشق .
- ٣٥- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن يسام : ت د. احسان عباس - الدار العربية للكتاب ليبيا .
- ٣٦- الذيل والتكملة لكتاب الموصل والصلة للمراكشي : ت د. إحسان عباس - دار الثقافة بيروت .
- ٣٧- رحلة الأندلس : د. حسين مؤنس - الدار السعودية جدة .

- ٣٨- رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي : د. عبد الرحمن حسين - مكتبة الجبلاوي مصر .
- ٣٩- الشعر والبيئة في الأندلس : د. ميشال عاصي - المكتب التجاري بيروت .
- ٤٠- شعر أبي عبد الله بن الحداد : منال منيزل - مؤسسة الرسالة بيروت .
- ٤١- شيوخ العصر في الأندلس : د. حسين مؤنس - الدار المصرية للنشر مصر.
- ٤٢- الصلة لابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك - نشر عزت العطار .
- ٤٣- صور من الأدب الأندلسي : د. مصطفى الشكعة - دار النهضة العربية بيروت .
- ٤٤- العقد الفريد : أحمد بن عبد ربه الأندلسي - مكتبة الهلال بيروت .
- ٤٥- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس : محمد عبد الله عنان - لجنة التأليف والترجمة مصر .
- ٤٦- العمدة في محاسن الشعر ونقده : لابن رشيق القيرواني - مطبعة السعادة مصر .
- ٤٧- عيار الشعر : ابن طباطبا
- ٤٨- فضائل الأندلس وأهلها : نشر د. صلاح الدين المنجد - دار الكتاب الجديد .
- ٤٩- فنون النثر الأدبي بالأندلس : د. مصطفى الزباخ - الدار العالمية بيروت .
- ٥٠- في الأدب الأندلسي : د. جودت الركابي - دار المعارف مصر .
- ٥١- في الأدب العربي القديم : د. محمد صالح الشنطي - دار الأندلس حائل .
- ٥٢- القاموس المحيط : للفيروز آبادي - المؤسسة العربية للطباعة .
- ٥٣- قلاند العقيان في محاسن الأعيان : الفتح بن خاقان - دار الكتب الوطنية .
- ٥٤- محطات أندلسية : محمد حسن قجة - الدار السعودية جدة .
- ٥٥- المعجب في تخلص أخبار المغرب : عبد الواحد المراكشي - دار الكتاب المغرب .
- ٥٦- معجم الأدباء : ياقوت الحموي - دار إحياء التراث بيروت
- ٥٧- المغرب في حلى المغرب : علي بن موسى بن سعيد - دار المعارف مصر .

- ٥٨- مقدمة ابن خلدون : ابن خلدون - دار القلم بيروت .
- ٥٩- المنجد في اللغة والأعلام : - دار المشرق بيروت .
- ٦٠- الموجز في الأدب العربي وتاريخه : لجنة من الأساتذة - دار المعارف مصر .
- ٦١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : للمقري ت . احسان عباس - دار صادر بيروت .
- ٦٢- النقد الأدبي أصوله ومناهجه : سيد قطب - الدار العربية للطباعة والنشر بيروت .
- ٦٣- وفيات الأعيان : أبو العباس بن خلكان ت احسان عباس - دار الثقافة بيروت .
- ٦٤- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : أبو منصور الثعالبي - دار الفكر بيروت .
- هذا إلى جانب مجموعة من المراجع والمصادر استقيننا منها كتابنا الأول
(الفتن والنكبات العامة وأثرها في الشعر الأندلسي) .



زَفْعُ

عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

فهرس محتويات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	٥
تقديم للدكتور / محمد صالح الشنطي	٧
مقدمة المؤلف	٩
تمهيد	١٣
الفصل الأول « الشعراء المنكوبون في عصر بني أمية في الأندلس »	١٩
أبو المخشي عاصم بن زيد	٢٤
يحيى بن حكم البكري الملقب بالغزال	٣٤
الوزير هاشم بن عبد العزيز	٤٣
القائد العربي سعيد بن جودي	٥٢
أحمد بن عبد ربه الأندلسي	٥٦
الفصل الثاني : (الشعراء المنكوبون في فترة الحجابة العامرية)	٧٣
جفر بن عثمان المصحفي	٧٧
يوسف بن هارون الرمادي	٨٧
أبو عبد الله محمد بن مسعود البجاني	٩٩
أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري	١٠٨

الموضوع

رقم الصفحة

- أبو عامر أحمد عبد الملك بن شهيد ١١٧
- الفصل الثالث : (أبرز الشعراء المنكوبين في عصر ١٢٩
ملوك الطوائف)
- أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحنّاط ١٣٣
- حكم بن محمد البكريّ الداني ١٤٠
- أبو مروان عبد الملك بن غصن الحجاري ١٤٥
- أبو الوليد أحمد بن زيدون ١٥٣
- أبو جعفر أحمد بن أيوب اللّمائي ٢٣٣
- الوزير أبو بكر بن عمّار الأندلسي ٢٣٩
- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحدّاد الأندلسي ٢٦١
- أبو عيسى لبون بن عبد العزيز ٢٦٥
- ابن اللبّانة أبو بكر محمد بن عيسى ٢٧٢
- أبو الحسن البغدادي الفكيك ٢٨٤
- الفصل الرابع (الشعراء المنكوبون في عصر ما بعد ٢٨٧
ملوك الطوائف)
- المعتمد بن عبّاد ٢٩١
- عز الدولة أبو مروان عبد الله بن المعتصم بن صمّاح ٣١٢
- أبو بكر بن سوار الأشبوني ٣١٩
- ابن خفاجة الأندلسي ٣٢٧
- آل سعيد (أبو جعفر بن سعيد ، أبو القاسم بن سعيد) ٣٤٣
- أبو القاسم البلوي الإشبيلي ٣٥٤
- أبو عامر بن الأصيلي ٣٥٨

٣٦٥	أبو الحسن الحصري الكفيف
٣٧٥	لسان الدين بن الخطيب
٤٠٤	شعراء آخرون
٤٠٦	أبو مروان عبد الملك بن شماخ الغافقي
٤٠٨	أبو بكر أحمد بن عبد الحق بن الجنان
٤٠٩	أبو بكر محمد بن قسوم
٤١١	أبو جعفر بن عطية القضاعي
٤١٥	الفصل الخامس : (أثر الفتن والنكبات الخاصة في الشعر الأندلسي)
٤١٧	ألوان الفتن والنكبات الخاصة ومدى انشارها وأثرها
٤١٨	أولاً : نكبة : السجن والإذلال بعد العز
٤٣٢	ثانياً : الإبتلاء بالفقر والفاقة وشدة الاحتياج
٤٣٦	ثالثاً : محنة الأسر والوقوع في قبضة الأعداء
٤٤٠	رابعاً : محنة استلاب الملك خدعة أو قهراً
٤٤٤	خامساً : الابتلاء بمفارقة الأوطان قهراً وقسراً
٤٥١	سادساً : نكبة فقد الولد ريحانة الحاضر وأمل المستقبل
٤٥٧	سابعاً : محنة فقد الأحباب والأصدقاء
٤٥٨	ثامناً : نكبة تحاشي الناس معاملة الشاعر
٤٥٩	تاسعاً : النكبة العاطفية
٤٦١	الخاتمة
٤٦٥	قائمة مراجع الكتاب ومصادره
٤٦٩	فهرس محتويات الكتاب

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس